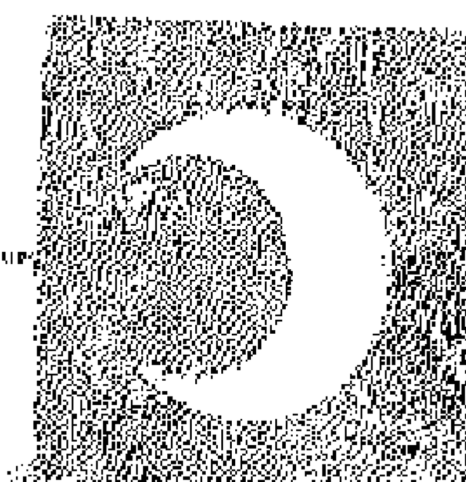






سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

بين الوفاء والفداء

٥٩١

الدكتور أحمد الشرباصي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: فكرى أباظة • نائب رئيس مجلس الإدارة: صالح جودت

رئيس التحرير: صالح جودت

المشرف الفنى: جمال قطب

سكرتير التحرير: عايدة حماد

العدد ٢٩١ - صفر ١٣٩٥ - مارس ١٩٧٥

No. 291 — March 1975

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢ر٥ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة علاة بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى المسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنــان جمــال قطب

الدكتور أحمد الشرباصي

بـــين
الوفاء والفداء

دار الهــــلال

بسم الله الرحمن الرحيم

احمـــــد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على أنبيائه ورســله ، وعلى خاتمهم ســيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، واتباعه وأحبــابه ، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين .

وأستفتح بالذى هو خير : « ربنــا عليك توكلنــا ، واليك أنبنــا ، واليك المصير » .

قبس من كتاب الله

« أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق كما هو اعمى ؟ انما يتذكر أولو الالباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، ويدرءون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار » .

« سورة الرعد »

تصدير

هناك بين الوفاء والفداء خيط رقيق ، وثيق عميق ، يربط بين هذين المعنيين الجليلين أوثق رباط .

فالوفاء كلمة جليلة المدلول ، فيها معنى التزام الطريق ، والحفظ للعهد ، والثبات على الاعتقاد .

والفداء كلمة ثقيلة التبعات ، لان مفهوم الفداء هو التضحية بكل غال ونفيس ، حتى الحياة ، فى سبيل التوفية بالعهد ، والصدق فى الوعد .

وحينما تحدثت فى الجزء الثانى من كتابى « أخلاق القرآن » ذلك الحديث الذى انفسح واتسع عن فضيلة « الوفاء » ، ذكرت انه حسب الوفاء شرفا وتمجيدا ان الله تبارك وتعالى جعله صفة من صفاته ، فقال : « ومن أوفى بعهده من الله » ؟ ...

كما أثنى الحق جل جلاله على أبى الانبياء وخليل الرحمن « ابراهيم » بفضيلة الوفاء ، فقال : « وابراهيم الذى وفى » .

ووعد سبحانه بعظيم الاجر وجزيل الثواب لمن جاهد نفسه حتى لازم شرعة الوفاء ، فقال : « بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين » . وقال : « ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » .

والامم التى تبعث نهضتها ، وتحقق عزتها ، محتاجة دائما الى هذين الامرين العظيمين : الوفاء والفداء ، ليكون الوفاء تاج قيمها ومبادئها ، وليكون الفداء سنتها وشعارها . وامتنا الماضية فى مسيرتها نحو استرداد مكانتها ، واستيفاء كرامتها ، محتاجة اكثر من غيرها الى هاتين الفضيلتين ، مع احكام الربط بينهما ، ليكون أحدهما اعتقادا ، والآخر استعدادا ، فيثمر ذلك الالتحام ثمرته ، من حياة أفضل ومسيرة اكرم .

واذا كانت مقتضيات حياتنا النضالية الحاضرة المستمرة ، تتطلب ذلك وتلح فيه ، فان من فضل الله علينا ان مواريثنا الروحية والتاريخية تنطوى على أمثلة رائعة لحسن الجمع بين الوفاء والفداء .

وهذه طائفة من تلك الامثلة ، ظلت عبر القرون مجهولة أو مطوية ، لا يقف عليها ، أو يتطلع اليها ، أو يتأمل فيها ، اكثر أبناء هذه الامة .

ولقد طمح القلم اليوم ـ كما طمح من قبل اكثر من مرة ـ أن تكون تجلية هذه الامثلة المجهولة من قبل ، معوانا على تثبيت عقيدة الوفاء ، واذكاء روح الفداء ، فى عصر استبان فيه لكل ذى عينين ان طريقنا لا يعتدل ولا يستقيم ، الا اذا كان على جانبيه رائدان أمينان ، هما العلم والايمان .

« وعلى الله قصد السبيل ، ومنهما جائر ، ولو شاء لهداكم اجمعين » .

د : احمد الشرباصي

المجاهد الحميد الشهيد
النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري

من نعم الله الكبرى على الانسان أن يوفقه الى الكلم الطيب الصادق يقوله ويصدع به ، ويكون معه العمل الصالح يلازمه ويصاحبه ، لان المنطق الكريم عنوان التفكير السليم والاعتقاد القويم .

ولعل هذا بعض ما يشير اليه الحق جل جلاله حينما يصف الفائزين من عباده بأنهم « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » . فالجهر المخلص بعقيدة التوحيد ترجمان لما فى القلب من ايمان وطيد ، والاستقامة على الطريق تطبيق بصير لما آمن به الانسان فى قلبه ، وترجم عنه بلسانه ، ولهذا أوجز رسول الله صلى الله عليه وسلم النصيحة لمن جاءه يطلبها فقال له : يا رسول الله ، قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك .

فأجابه الرسول : قل آمنت بالله ثم استقم .

ومن هنا قال أئمتنا ان الأيمان ينهض على ثلاث دعائم ، هى الاعتقاد بالجنان ، والاقرار باللسان ، والاداء للأركان .

واذا كان الكلام سهلا ميسورا ، فانه لا يقام له عند العقلاء ميزان الا اذا كان معه أو من ورائه تطبيق وسلوك والتزام ، وهذا التطبيق يبدأ فى منطق الدين

بالاساس الاول ، وهو المحافظة على أداء الشعائر والعبادات ، ثم يقترن ذلك بحسن المعاملة مع الناس فى مختلف الحالات ، ولا يزال الانسان يحيا عابدا صالحا مصلحا ، مجاهدا مناضلا فاضلا ، مقبلا على ساحات الوفاء والفداء ، بلا تردد أو ابطاء ، واثقا بما عند الله أكثر من وثوقه بما بين يديه ، راضيا بما يسوقه الله تعالى اليه ، مرددا شعار المجاهدين المؤمنين : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، حتى يلقى الله وهو على سواء الطريق .

وهكذا كان الاخيار الابرار من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام : نظروا فاعتبروا ، وعرفوا فاغترفوا ، وسلكوا فملكوا ، وعملوا فحققوا ، وجاهدوا فصدقوا ، ومضوا الى ربهم مقبلين على خير الثواب لديه ، فنعم عقبى الدار : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » .

وهذا واحد من هؤلاء :

انه الصحابى ابن الصحابى وابن الصحابية ، المجاهد الحميد الشهيد ، أبو عبد الله النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس (١) الانصارى (٢) .

---

(١) بالجيم المضمومة ، وقيل : خلاس ـ بفتح الخاء وتشديد اللام « تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ١٢٩ » .

(٢) الى النعمان تنسب بلدة « معرة النعمان » فى سورية ، بلد أبى العلاء المعرى ، مر بها النعمان ، فمات له ولد عندها ، فدفنه فيها

ووالد النعمان صحابى جليل ، ومجاهد شهيد ، بايع بيعة العقبة الثانية ، وشهد غزوتى بدر وأحد والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذاق نعمة الشهادة سنة اثنتى عشرة فى غزوة عين التمر .

وأم النعمان هى عمرة بنت رواحة الصحابية الفاضلة ، التى أسلمت وبايعت الرسول ، وهى أخت الصحابى البطل ، المجاهد الشهيد : عبد الله بن رواحة أحد أبطال غزوة « مؤتة » (١) .

ولقد ولد النعمان فى جمادى الاولى من السنة الثانية للهجرة ، وكان أول مولود من الانصار بعد الهجرة .

يروى انه ولد على رأس أربعة عشر شهراً من الهجرة ، وقيل فى مولده غير ذلك ، ولكن ما ذكرناه هو الاصح والاشهر (٢) . وجاء فى كتاب الاغانى فى شأن النعمان : « يقال ان النعمان بن بشير أول مولود ولد بالمدينة بعد قدوم النبى صلى الله عليه وسلم اياها ، وقد قيل ذلك فى عبد الله بن الزبير ، الا ان النعمان أول مولود ولد بعد مقدمه عليه السلام من الانصار» (٣)

وعقب مولد النعمان جاءت به أمه تحمله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحنكه « أى دلك حنكه بتمر مضغه » ، وبشر امه بأنه سيعيش حميداً ، ويقتل شهيداً ، ويدخل الجنة (٤) .

فنسبت اليه . انظر ماكتبه ياقوت فى معجم البلدان ج ٥ ص ١٥٦ طبعة بيروت .

(١) تحدثت عن بطولته فى كتابى « الفداء فى الاسلام »

(٢) أنظر « الفداء فى الاسلام » ص ١٢٢ ــ ١٣٢ .

(٣) الاغانى ج ١٦ ص ٢٩ طبعة دار الكتب المصرية .

(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٤ .

وببركة هـذا الدعاء عاش النعمان فى خير وسعة ، وكتب الله له حسن الخاتمة بالشهادة .

وكان النعمان بن بشـير رضى الله عنـه رجلا كريما جوادا ، شاعرا قوالا (١) ، أميرا خطيبـا . يقول عنه سماك بن حرب : « كان النعمان من أخطب من سمعت» .

وكان اذا خطب على المنبر اكثر من قراءة القرآن الكريم ، وأنعم بذلك من طريقة ، فان القرآن هو الرائد والقائد: « ان هـذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

وللنعمان بن بشير ديوان شعر مطبوع . وقد نشـأ فى أسرة يقول أفرادها الشعر ، ولذلك جاء عنه فى كتاب الاغانى هذه العبارة :

« والنعمان بن بشير هو من المعروفين فى الشـعر سـلفا وخلفـا ، جده شـاعر ، وأبوه شاعر ، وعمـه شـاعر ، وهو شاعر ، وأولاده وأولاد أولاده شعراء» . ومن أولاده ولد اسمه : عبد الله ، كان شاعرا ، وولد آخر اسمه ابان ، كان شـاعرا مكثرا . وله ولد ثالث اسمه يزيد ، كان شاعرا مكثرا مجيدا ، وأخوه ابراهيم ابن بشير بن سعد ، كان شـاعرا مكثرا ، وله ابنـة تسمى « حميدة » كانت شاعرة ذات لسان (٢) .

ولقـد وقف النعمان على المنبر يوما ـ كما قص الاصبهانى ـ فقال للناس : أتدرون ما مثلى ومثلكم ؟ قالوا : لا . قال : مثل الضبع والضب والثعلب ، فان الضبع والثعلب أتيا الضب فى وجاره ، فناداياه : يا أبا الحسل .

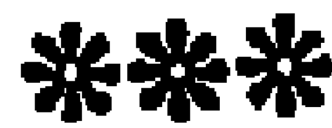
---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ١٣٠ .
(٢) الاغانى ج ١٦ ص ٤٣ و ٥١ و ٥٢ .

فقال : سميعا دعوتما .
قالا : أتيناك لتحكم بيننا .
قال : فى بيته يؤتى الحكم .
قالت الضبع : انى حللت عيبتى .
قال : فعل الحرة فعلت .
قالت : فلقطت تمرة .
قال : طيبا لقطت .
قالت : فأكلها الثعلب .

قال : لنفسه نظر .
قالت : فلطمته .
قال : بجرمه .
قالت : فلطمنى .

قال : حر انتصر .
قالت : فاقض بيننا .
قال : قد فعلت .



ولكن هـذا الرجل الشاعر ، الخطيب ، الجوال فى مناحى الكلام ، الذى يستجيب فيه أحيانا لتوقد مشاعره ، أو شجون نفسه ، أو هوى قلبه ، كان رجلا عمليا نضاليا ، وقد يدلنا على ذلك انه استجاب لدعوة الاسلام وهو ما زال فى باكورة فتوته ، ثم أقبل عقب ذلك مع زميل له الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوانه فى أن يخرجا معه الى الجهاد ، ولكن النبى استصغرهما وردهما (١) .

وهـذا يدلنا على أن النعمان لم يكن رجل كلام

(١) الاغانى ، ح ١٦ ص ٢٨ .

يشققه وينمقه فحسب ، بل كان مع هـذا أو قبله رجل ميدان ، يريد ـ حتى قبل الاوان ـ أن يندفع الى معترك النضال والطعان ، ولذلك لم يكن غريبا بعد هـذا أن نشهد النعمان بن بشير وهو يشترك فى كثير من المعارك والحروب .

وكأن شخصية النعمان قد أعجبت أباه ، فأراد أن يخصه بشيء من ماله دون اخوته ، ولكن أم النعمان رفضت ذلك ، حتى يوافق عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا تحرز منها واحتياط .

يقول النعمان فى ذلك : اعطانى ابى عطية ، فقالت أمى عمرة لأبى : لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتى أبى رسول الله ، فقال له :

يارسول الله ، ابنى من عمرة أعطيته عطية ، فأمرتنى أن أشهدك . فقال له النبى : أأعطيت كل ولدك مثل هـذا ؟ قال : لا . قال النبى : فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم .

ولم يغضب النعمان من ذلك ولم يتألم ، لانه يؤمن بقول الله عز من قائل : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » .

واذا كان فى الناس أناس كثيرون يعتزون بأنسابهم، ويفخرون بأحسابهم ، ويتباهون بآبائهم وأجدادهم . فقد كان النعمان بن بشير يعتز اعتزازا كبيرا بلقب « الانصار » ، لانه اللقب الكريم الذى يشير الى انهم نصروا الاسلام ، وأعزوا رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وكان الأنصار يحبون دائما أن يصفهم الواصف بوصف « الانصار » ، وأن ينادى عليهم المنادى باسم « الانصار » ، لا باسم قبائلهم أو عشائرهم ، وحق لهم ذلك ، فهذا هو تعبير القرآن الكريم عنهم ، فقد قال فى سورة التوبة : « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوزالعظيم » .

وقال أيضا : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم » .

ولقد أراد بعض الاشخاص أن ينادى على الانصار بأسماء قبائلهم ، فلم يستجيبوا له ، وفى طليعتهم النعمان ، وحينما نادى عليهم باسم « الانصار » أجابوا ، وفى ذلك قال النعمان :

يا سعد ، لا تعد النداء فما لنا
نسب نجيب به سوى « الانصار »
نسب تخيره الاله لقومنا
أثقل به نسبا على الكفار

وتقلبت الايام والاحداث بالنعمان بن بشير ، وطوحت به الدنيا ذات اليمين وذات الشمال : بايع لعبد الله ابن الزبير ، واستعمله معاوية على حمص ، ثم على الكوفة ، واستعمله عليهما بعده يزيد بن معاوية ، وتولى القضاء بدمشق .

وظل يجمع بين روعة المقال ، وروعة الفعال ، وروعة النضال ، وهو حامل نفسه ــ قدر طاقته ــ على

سواء السبيل ، يخاف المعصية ويخشى العقاب ، ويردد قوله : « أن الهلكة كل الهلكة أن تعمل السيئات فى زمن البلاء » . ويحاول ما وسعته المحاولة أن يربط قلبه بالله ؛ لانه الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن واقع الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، الا وان لكل ملك حمى ، الا وان حمى الله محارمه ، الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهى القلب » .

وقد روى النعمان الحديث عن أبيه ، وروى أكثر من مائة حديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وقتل النعمان شهيدا بالشام ، فى قرية من قرى حمص ، فى ذى الحجة سنة أربع وستين ، وقيل سنة ستين ، وقيل سنة خمس وستين . قتله أعداؤه فى قرية يقال لها « بيرين » ، قتله رجل اسمه خالد ابن خلى المازنى الكلاعى (١) ، وبعد أن قتله أعداؤه قطعوا رأسه ، وذهبوا به فألقوا الرأس فى حجر زوجته!

وقد رثته بنته بأبيات قالت فيها :

ليت ابن مرنة وابنه
كانوا لقتلك واقيه
وبنى أمية كلهم
لم يبق منهم باقيه

(١) انظر معظم البلدان ج ١ ص ٥٢٦ . والاعلام ، ج ٩ ص ٤ . والبداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٤ .

جاء البـــــريد بقتـــــله
يا للـــــكلاب العـــاويه
يســـــتفتحون برأســـــه
دارت عليـــــهم فانيـــــه
فلأبكين ســـــــــريرة
ولأبكين علانيـــــــــــه
ولأبكينـــــــك ما حييت
مع الســـــــباع العـــاويه

سلام على المجاهد الحميد الشـــهيد : النعمان بن بشير ، ورضوان الله تبارك وتعالى عليه .

الشهيد الحامل على الصف

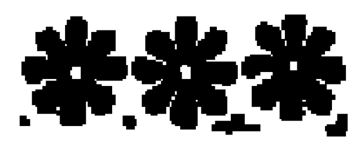
هشام بن عامر بن أمية الأنصاري

تمر فى تاريخ الامم أوقات عصيبة رهيبة ، تحتاج فيها الى أفراد أفذاذ من أبنائها ، يهبهم الله قوة الحس وسمو النفس ، وصدق الايمان وعمق اليقين، وروح الاقدام وروعة الاقتحام ، فيقومون بأعمال بطولية فدائية ـ أو كما يعبر أبناء العصر : بأعمال انتحارية ـ يردون بها على أمتهم كرامتها وسمعتها ، ويذكرون الناس بأن الايمان اذا عمر قلبا ، وتمكن منه ، صار الموت عند صاحبه ـ فى سبيل الله ـ أحلى وأعلى وأغلى من الحياة فى ظل الضيم والهوان .

وفى تاريخ أمتنا المؤمنة نماذج كثيرة لهؤلاء الباذلين المضحين المفتدين ، يمر بالخاطر منهم الآن : الحسين أبو الشهداء ، بطل كربلاء ، والمجاهد المقدام : أبوعبيد ابن مسعود الثقفى صاحب موقعة الجسر، وعبد القادر الحسينى شهيد معركة القدس فى فلسطين . أين الآن فلسطين ياجموع العرب والمسلمين ؟ ... ردها الله على العرب والمسلمين .

وما أشد حاجة أمتنا الآن الى الاهتداء والاقتداء بمدرسة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، التىخرجت الكثيرين ممن باعوا أنفسهم لله ربهم ، وبادروا الى مصارعهم فى مواطن الحق ، لايريدون عرضا ولا طمعا

ولا متاعا ، ولا يحسبون حساب الحياة والموت ، بل يريدون فقط ابتغاء وجه الله العلى الكبير .



وهذا واحد من هؤلاء ...

انه البطل الاسلامى ، الصحابى الجليل : هشام ابن عامر بن أمية بن زيد الانصارى ، الذى كان يسمى فى الجاهلية باسم : « شهاب » ، فلما دخل فى الاسلام غير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ اسمه الى « هشام » (١) .

وقد كان هشام من سلالة مؤمنين مجاهدين ، فأبوه عامر بن أمية اشترك فى غزوة بدر ، وانعم بما لاهل بدر من فضل وذكر ، وقدر وأجر . ثم اشترك عامر فى غزوة أحد العصيبة ، ونال فيها نعمة الشهادة (٢) ، بعد أن أبلى فى سبيل الله بلاء حسنا .

وكان الشهداء يوم أحد كثيرين ، والأحياء من المجاهدين فيها قد أصيبوا بجراح وطعنات ، حتى ضعفوا عن أن يحفروا لكل شهيد قبرا مستقلا ، فسألوا رسول الله عليه الصلاة والسلام : ماذا يصنعون؟

فقال لهم : احفروا وأوسعوا وأعمقوا ، واجعلوا الرجلين والثلاثة فى القبر الواحد .

فسألوه : ومن نقدم منهم ؟

فقال : قدموا أكثرهم قرآنا .

قال هشام بن عامر وهو يروى الخبر : فقدموا أبى بين يدى اثنين من الانصار (٣) .

---

(١) الاصابة ، ج ٣ ص ٥٧٣ .

(٢) الاستيعاب على هامش الاصابة ، ج ٣ ص ٩ .

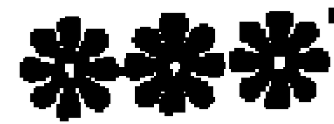
(٣) أسد الغابة ، ج ٥ ص ٤٠٣ .

وفى رواية ان الرسـول كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحـد فى ثوب واحد ، ثم يقول : ايهم أكثر اخذا للقرآن ؟.. فاذا أشـير الى أحدهما قدمه فى الدفن ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة (١) .

ونفهم من رواية هشام السـابقة ان والده كان حريصا على تلاوة القرآن الـكريم وحفظه ، ومن جعل القرآن سميره وأميره وظهيره فقد فاز فوزا عظيما .

ولذلك حق للسيدة عائشة رضى الله عنها أن تقول عن والد هشام : « نعم المرء كان عامر » !

ولقد دخل هشام على السيـدة عائشة بعد استشهاد أبيه ، فقالت له : « نعم المرء كان أبوك عامر » (٢) .



ونشأ هشـــام بن عامر شجاعا مقداما ، مضحيا جسورا ، وطالت به حيـاة الـكفاح والنضـال ، حتى تألق نجمه ، ومما يدل على ذلك أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه اختار أبا موسى الاشـعرى ليكون قائد الجيش ، وقال له :

يا أبا موسى ، انى مستعملك ، وانى أبعثك الى أرض قد باض فيها الشيطان وفرخ ، فالزم ما تعرفه ، ولا تستبدل فيستبدل الله بك ! ..

فقال له أبو موسى : يا أمير المؤمنين ، أعنى بعـدة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والانصار ، فانى وجدتهم فى هـذه الامة وهـذه الاعمال كالملح لا يصلح الطعام الا به .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ٨١ و ٨٤ .
(٢) الاستيعاب ، ج ٣ ص ٩ .

فقال له عمر : فاستعن بمن أحببت .

فاستعان أبو موسى بتسعة وعشرين رجلا ، كان منهم هشام بن عامر (١) .

***

وفى سنة ثمان وعشرين للهجرة قاد هشام بن عامر جيشا فتح به مدينة « اصطخر » فى بلاد فارس، وهى ـ كما يذكر ياقوت ـ من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها ، ومن أقدم المدن فيها وأشهرها ، وبينها وبين شيراز اثنا عشر فرسخا ، وكانت فيها قبل الاسلام خزائن الملوك (٢) .

وبعد ذلك بحين اشترك هشام فى معركة القسطنطينية عاصمة ديار الروم يومئذ ، وهى « اصطنبول » (٣) ، وكان سمك سورها واحدا وعشرين ذراعا .

وتطلع هشام الى صف الاعداء الواقف فى وجه المجاهدين المسلمين ، وهم بحاجة الى اقتحامه واحداث ثغرة فيه ، فاندفع نحوه هشام بلا ارعواء ولا ابطاء ، وقذف بنفسه على الصف ، وأخذ يجاهد ويجالد ، حتى أحدث فيه الثغرة المرجوة ، ودفع ثمنها ، وكان الثمن حياته ، حيث نال نعمة الشهادة ، ومضى الى ربه عظيما كريما ، بعد أن أدى واجبه الجهادى خير الاداء ، وفتح أمام رفاقه طريق الظفر والانتصار .

وخيل الى بعض الناس ان هذا التصرف من هشام فيه مخالفة لامر الله عز وجل ، لانه يقول فى سورة

---

(١) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٧١ .

(٢) معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٢١ طبعة بيروت .

(٣) كذلك رسمها ياقوت . أنظر كتابى « الفداء فى الاسلام » ص ١٦٨ . الطبعة الثانية .

البقرة : « وانفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، وأحسنوا ان الله يحب المحسنين » .

وقال هذا البعض : يرحم الله هشام بن عامر، لقد القى بيده الى التهلكة .

وسمع هذا التعليق أبو هريرة رضى الله عنه فاستنكره وقال : لا والله ، ما القى هشام بيده الى التهلكة ، ولكنه التمس قول الله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » (١) .

وكان أبو هريرة على حق فى هذا الاستنكار ، لان الآية الاولى السابقة تحث على الانفاق فى سبيل الله للاعداد والاستعداد ، وتحذر الوقوع فىالهلاك والخسران اذا كان هناك امتناع عن هذا الانفاق ، فكأن القاء الايدى الى التهلكة يراد به ما يعقب البخل والشح من خسار وبوار .

ولذلك ورد عن ابن عباس انه لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج الى الجهاد ، قام اليه اناس من الاعراب حاضرون بالمدينة فقالوا : بماذا نتجهز ؟ فوالله ما لنا زاد ، ولا يطعمنا أحد . فنزل قوله تعالى : « وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

أى تصدقوا يا أهل الميسرة فى سبيل الله وطاعته ، ولا تمسكوا بأيديكم عن الانفاق على الضعفاء والفقراء فتهلكوا ، لانهم اذا تخلفوا عنكم فى الجهاد غلبكم

(١) انظر تفسير الطبرى ، ج ٢ ص ٣٢١ . وتفسير القرطبى ، ج ٣ ص ٢١ . والاصابة ج ٣ ص ٥٧٣ .

العدو فتهلكوا (١) .

وتعرض السدى لتفسير قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » فقال : « أنفق ولو عقالا ، ولا تلق بيدك الى التهلكة فتقول : ليس عندى شيء » .

وكذلك قال حذيفة وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجمهور الناس :

المعنى لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بأن تتركوا النفقة فى سبيل الله وتخافوا العيلة « الفقر » فيقول الرجل: ليس عندى ما أنفقه .

وقال ابن عباس : أنفق فى سبيل الله ، وان لم يكن لك الا سهم أو مشقص ، اى نصل عريض ، أو سهم له نصل يرمى به (٢) .

وتعرض الاستاذ الامام محمد عبده لتفسير الآية ، فاستحسن ما ذكره تفسير الجلالين من أن المراد بالانفاق فى سبيل الله هو الانفاق فى الجهاد والطاعة ، وان التهلكة هى الامساك والامتناع عن الجهاد ، واستنكر أن يكون المراد : لا تقاتلوا الا حيث يغلب على ظنكم النصر وعدم الهزيمة .

كما ذكر أن تفسير « التهلكة » هنا بالاسراف لايلتئم مع الاسلوب قبله وبعده .

ولكن الذى يلتئم ويناسب هو : اذا لم تبذلوا فى سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد ، فقد أهلكتم أنفسكم (٣) .

---

(١) تفسير القرطبى ، ج ٢ ص ٣٦٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٢١٤ . الطبعة الثالثة .

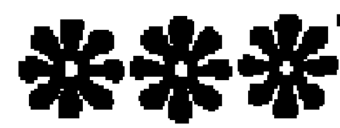
وأما الآية الثانية السابقة : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » فهى حث رائع على أن يبيع المسلم نفسه فى سبيل رضا ربه ، ولا يتردد فى التضحية بها من أجل خالقه ، ولذلك جاء فى تفسير المنار :

« ان هـذا البيع لا يتحقق الا اذا كان المؤمن يجود بنفسه وبماله فى سبيل الله اذا مست الحاجة لذلك ، فكيف اذا ألجأت اليه الضرورة كجهاد أعداء الملة والامة عند الاعتداء عليهما ، أو الاستيلاء على شىء من دار الاسلام ، وحينئذ يكون فرضا عينيا على جميع الافراد ، فمن قدر على الجهاد بنفسه وجب عليه ، ومن قدر عليه بماله وجب عليه ، ومن قدر عليه بهما معا وجب عليه .

وسبيل الله هى الطريق الموصلة الى مرضاته ، وهى التى يحفظ بها دينه ، ويصلح بها حال عباده . ومعنى هـذا انه لايكتفى من المؤمن أن يكسب الحلال، ويتمتع بالحلال ، وينفع نفسه ولا يضر غيره ، وأن يصلى ويصوم ، لان كل هـذا يعمله لنفسه خاصة ، بل يجب أن يكون وجوده أوسع ، وعمله أشمل وانفع ، فيساعد على نفع النـاس ودرء الخطر عنهم ، بحفظ الشريعة ، وتعزيز الامة بالمـال والاعمـال ، والدعوة الى الخير ، ومقاومة الشر ، ولو أفضى ذلك الى بذل روحه .

فان قصر فى واجب يتعلق بحفظ الملة وعزة الامة ، من غير عذر شرعى ، فقد آثر نفسه على مرضاة الله تعالى، وخرج من زمرة كملة المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى ، وكان أكبر اجراما ممن يقصر فى واجب لا يضر تقصيره فيه الا بنفسه . ذلك ان الحكمة فى تربية النفس بالاعمال الحسنة والاخلاق الفاضلة ، هى أن

ترتقي ويتسع وجودها فى الدنيـــــا ، فيعظم خيرها وينتفع النـــاس بها ، وتكون فى الآخرة أهلا لجوار الله تعالى ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، الذين بذلوا انفسهم وأموالهم ، وجعلوا أكثر أعمـــالهم خدمة للنـــاس وسعيـــا فى خيرهم ، فان الله تعالى لم يشتر أنفس المؤمنين من الحظوظ والشـــــــهوات الشخصية الخسيسة لاجل نفعه سبحانه ، أو دفع الضر عنه جل شأنه ، فهو غنى عن العالمين ، انما شرع هذا ليكون المؤمن باتساع وجوده وعموم نفعه ســــــيد الناس » (١) .



واذا كان البطل الاسلامى الجسور هشام بن عامر قد ألقى بنفسه على الصف وهو فرد ، والصف جمـاعة ، فقد ذكر القرطبى (٢) آراء العلمـاء فى اقتحام الرجـل الحرب ، وحمله على العـدو وحده ، فقالت طائفة : لابأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم ، اذا كان فيه قوة ، وكان لله بنية خالصة ، فان لم تكن فيه قوة فذلك من التهلـكة .

وقيل : اذا طلب الشهادة ، وخلصت النية ، فليحمل لان مقصوده واحد منهم .

وقيل : اما ان يحمل الرجل على مائة ، أو على جملة العسكر ، أو جماعة اللصـوص والمحاربين الخوارج ، فلذلك حالتان : ان علم وغلب على ظنه انه سيقتل من يحمل عليه وينجو فحسن ، وكذلك لو علم وغلب على ظنه انه مقتول ، ولـكنه سيحدث نكاية فى العدو ، أو

---

(١) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢) الجامع لاحكام القرآن ، ج ٢ ص ٣٦٢ .

سيؤثر أثرا ينتفع به المسلمون فجائز أيضا .

وقال محمد بن الحسن : لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده ، لم يكن بذلك بأس، اذا كان يطمع فى نجاة أو نكاية فى العدو ، فان لم يكن كذلك فهو مكروه ، لانه عرض نفسه للتلف فى غير منفعة المسلمين .

فان كان قصده تجرئة المسلمين على الاعداء حتى يصنع المسلمون مثل صنيعه فلا يبعد جوازه ، لان فيه منفعة للمسلمين على بعض الوجوه .

وان كان قصده ارهاب العدو ، وليعلم صلابة المسلمين فى الدين ، فلا يبعد جوازه .

واذا كان فيه نفع للمسلمين ، فتلفت نفسه لاعزاز دين الله ، وتوهين الكفر ، فهو المقام الشريف الذى مدح الله به المؤمنين فى قوله : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

***

والموقف الرائع الذى وقفه هشام بن عامر فى معركة القسطنطينية يذكرنا بما رواه ابن جرير الطبرى ، وهو أن عمر رضوان الله عليه بعث جيشا ، فحاصروا أهل حصن ، وتقدم رجل من بجيلة ، فقاتل حتى قتل، فأكثر الناس فيه يقولون : ألقى بيده الى التهلكة .

فبلغ ذلك عمر، فقال : كذبوا ، أليس الله يقول : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله

رءوف بالعباد » (١) .

ويذكرنا أيضا بما روى عن أسلم بن عمران قال :

كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا الينا صفا عظيما من الروم ، فخرج اليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد ، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ، يلقى بيديه الى التهلكة .

فقام أبو أيوب الانصارى فقال : يا أيها الناس ، انكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل ، وانما أنزلت هذه الآية فينا معشر الانصار ، لما اعز الله الاسلام ، وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أموالنا قد ضاعت ، وان الله قد أعز الاسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ؟

فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم يرد علينا ما قلنا : « وانفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » . فكانت التهلكة الاقامة على الاموال واصلاحها ، وتركنا الغزو . فما زال أبو أيوب شاخصا فى سبيل الله حتى دفن فى بلاد الروم (٢) .

***

ومع هذه الروح البطولية الجهادية ، والنزعة

---

(١) جامع البيان ، ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) تفسير القرطبى ، ج ٢ ص ٣٦١ . وهذا الخبر رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح ، وانظر تفاصيل البطولة عند أبى أيوب الانصارى فى كتابى « الفداء فى الاسلام » ص ١٦٤ ـ ١٧١ الطبعة الثانية .

الفدائية الاستشهادية ، عند هشام بن عامر لم ينس ـ عليه الرضوان ـ حق العلم والفقه عليه ، لانه يذكر قول ربه : « وقل رب زدنى علما » .

ويذكر قول رسولهعليه الصلاة والسلام : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » .

ولذلك عنى برواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه الحديث كثير من التابعين، مثل سعيد بن جبير ، وحميد بن هلال ، وغيرهم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

سلام على المجاهد الشهيد القاذف بنفسه فى مواطن الهول ومواقف الصدق : هشام بن عامر الانصارى .

سلام عليه بين أهل الوفاء والفداء .

المجاهد الشهيد صاحب الجسر
أبو عبيد بن مسعود الثقفي

جرت عادة كثير من السلاطين فى قديم الزمان على تخليد آثارهم وتمجيد ذكرهم بشتى الطرق والوسائل، ومنهـا نقش أسمائهم على الآثار والمنشئات وغير ذلك ، ومنهـا نسبة المحامد والمفاخر الى ذواتهم زورا وبهتانا، ولكن هـذا التخليد لم يفلح فى كثير من الاحيـان ، بل لقد حدثنا التاريخ ان السلطان المتأخر فى الزمن كان يمحو آثار السلطان المتقدم عليه ، وكلما أقبل خلف من هؤلاء الجبابرة لعن سلفه ، والله ينتقم ممن يشاء بمن يشاء ، وهكذا لم ينجح ذاك التخليد ولا ذلك التمجيد، بل كان كل منهما عرضا زائلا وأمنية كاذبة ، لانه قام على البـاطل ، ولو ان شيئا من ذلك قام على كريم المبادىء أو خالد العقائد ، لاستقر ودام ، وما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله زال وانفصل .

وها نحن أولاء ننظر فى تاريخ الاسـلام ، وفى سـيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، فنجد أبطالا كثيرين من صحابته ورجاله ، خلدت أسماؤهم ، وبقيت أنباؤهم ، بما قدموا فى سبيل الله والحق والخير ، وبما ضربوه من أمثلة الوفاء والفداء ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وهـــذا واحد منهم ، تعطرت صفحات التاريخ بسيرته وبطولته ، دون أن يعتمد فى ذلك على مال أو

نشب ، أو ضـخامة حسب ونسب ، بل باقدام على الموت والشهادة فى موطن الهول والبأس . ذلـكم هو الصحابى الجليل ، المجاهد الشهيـد ، صاحب الجسر: أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير الثقفى ، رضى الله عنه ، الذى كان من سادة الصحابة (١) والذى نال نعمة الاستشـهاد فى سـبيل الله ، فى موقعة من أخلد مواقع الجهاد ، وهى موقعة « الجسر » ، الذى ظـل وسيظل مقترنا باسم أبى عبيد ، فيقال : « جسر أبى عبيد » ، ويقال : « أبو عبيد صاحب الجسر » ، ويقال عن كل شـهيد من شهداء هـذه الموقعة : « استشهد يوم جسر أبى عبيد » (٢) .

فما نبأ هـذا الجسر ؟ .. وما قصة موقعته ؟ .. وما قصة صاحبه ؟ ..

لقد كان أبو عبيد من النماذج النـادرة فى الشجاعة والاقدام والقيـادة ، وكان لايبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، وكان لا يحب طريق الراحة والسلامة بقدر ما يحب طريق المصـاعب والمخاطر ، ولذلك ظل يناضـل ويقاتل فى سبيل دينـه وربه ، حتى تولى أمر المسلمين الخليفة الراشـد الثانى عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، فجهز أول جيش ليوجهه الى تحرير العراق من طغيان الفرس ، واختـار عمر أبا عبيـد ليكون قائد هـذا الجيش وأميره ، وقد أتى أبو عبيد بالاعاجيب بعد الاعاجيب فى قتاله ونضاله ، مستشعرا روح القرآن المجيد القائل :

(١) كتاب العبر للذهبى ، ج ١ ص ١٧ .

(٢) الاستيعاب على الاصابة ، ج ٤ ص ١٢٤ . وأبو عبيـد هو والد صفية بنت ابى عبيد التى تزوجها الصحابى الجليـل عبد الله بن عمر رضـوان الله عليهما « الاعلام ، ج ٨ ص ٧٠ » .

« انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

وكان عمر قد ندب الناس الى الخروج لقتال الفرس ، فتباطأ بعض الناس ، لان هذه الدعوة جاءت عقب وفاة أبي بكر الصديق ، والحزن لفقده ما زال متمكنا من النفوس ، وكان أول من استجاب هو أبوعبيد ابن مسعود الثقفي ، وتبعه في الانتداب والاستجابة مجاهدان آخران ، هما سعد بن عبيد ، وسليط بن قيس ، ثم تتابع الناس بعد ذلك .

وهنا قال بعض الناس لعمر : اجعل عليهم اميرا رجلا من السابقين من المهاجرين والانصار .

فقال عمر : لا والله ، لا أفعل ، ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الي العدو ، فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع ، وأجاب الى الدعاء ، والله لا أؤمر عليهم الا أولهم انتدابا (أى استجابة) .

ثم دعا عمر أبا عبيد وولاه القيادة ، ثم قال لرفيقيه اللذين تبعاه قبل الناس : أما انكما لو سبقتماه لوليتكما ، ولادركتما بها الي ما لكما من القدمة . (أى السبق والتقدم في الفضل) .

ثم التفت عمر الى المجاهدين ، وقال لهم :

« سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فانه قال : « ليظهره على الدين كله » . والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولي أهله مواريث الامم .

ثم هتف عمر : « « أين عباد الله الصالحون » (١)

(١) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٤٤٥ .

وكان من خبر وقعة الجسر – كما يروى ياقوت – ان أبا بكر رضى الله عنه ، أمر خالد بن الوليد وهو بالعراق بالمسير الى الشام لنجدة المسلمين ، ويخلف بالعراق المثنى بن حارثة الشيبانى (١) ، فجمعت الفرس جموعها لمحاربة المسلمين ، وكان ابو بكر قد لحق بربه، فأرسل المثنى الى عمر من يخبره بذلك ، فندب عمر الناس الى الخروج لقتال الفرس فهابوهم ، وكان اول من استجاب هو أبو عبيد بن مسعود الثقفى ، فقدموا الى بانقيا – وهى ناحية من نواحى الكوفة بالعراق – فأمر أبو عبيد باقامة جسر على الفرات ، ويقال : بل كان الجسر قديما هناك لاهل الحيرة ، يعبرون عليه الى ضياعهم ، فأصلحه أبو عبيد (٢) .

وبدأت معركة الجسر فى شهر شعبان من السنة الثالثة عشرة للهجرة (٣) ، وكانت الموقعة على نهر الفرات ، عند نجران ، وهو موضع كان بين الكوفة وواسط (٤) .

وكان أبو عبيد قد خاض معركة ضد الفرس بين الحيرة والقادسية ، وشتت شملهم ، وقتل الكثير منهم ، وأسر كبيرهم « جاقان » ، ولم يطلق سراحه حتى افتدى نفسه بفدية كانت لمصلحة المسلمين .

---

(١) انظر تفاصيل بطولته فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ٢٥٤ – ٢٥٨ .

(٢) معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٤٠ ، طبعة بيروت .

(٣) وفى رواية ان المعركة كانت فى السنة الرابعة عشرة للهجرة ، تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٤٤٢ . ولعلها بدأت سنة ثلاث عشرة ، واستمرت بتوابعها الى سنة اربع عشرة .

(٤) العبر ، ج ١ ص ١٧ .

وحين أحس الفرس بمرارة الهزيمة جمعوا بزعامة «يزدجرد» جموعا ضخمة ، وتراءى الجمعان ، وتقابل الجيشان على شاطىء نهر الفرات (١) ، وبينهما ذلك الجسر المقام على النهر .

وأرسل الفرس الى أبي عبيد يستخفون بأمره فيقولون له كالهازئين : اما أن تعبروا الينا ، واما أن نعبر اليكم .

فقال بعض المسلمين للقائد أبي عبيد : مرهم فليعبروا هم الينا .

وأحس أبو عبيد بمرارة الالم من استخفاف الفرس، وبلدعة الاسى من تخوف بعض الجنود ، فهتف بين الجنود : ما هم بأجرأ على الموت منا . ونادى باقتحام الجسر .

لقد كان أبو عبيد خواض غمرات وشدائد، وكأنه مفطور على الاقدام والاقتحام ، فلم يتريث ولم يتلبث ، وخصوصا بعد أن أحس روح الخوف في بعض الجنود .

فعل هذا مع ان الخليفة الراشد عمر كان قد أوصاه قبيل المعركة فقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم في الامر، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فانها الحرب ، والحرب لايصلحها الا الرجل المكيث (أي الرزين) الذي يعرف الفرصة والكف » (٢) .

فلماذا فعل أبو عبيد ما فعل ؟

لقد غاظه استخفاف الفرس به وبزملائه من جهة ، وتخوف بعض المسلمين العبور الى الفرس من جهة أخرى ، فأرادها حملة فدائية ، لا يحرص فيها المجاهد

(١) الاستيعاب ، ج ٤ ص ١٢٥ .
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٣ ص ٤٤٥ .

على الحياة ، ولأيهاب فيها الموت ، بل لعله يحرص فيها على الموت أكثر من الحياة ، ليضرب مع زملائه مثلا رائعا دافعا الى البذل والفداء ، وليكن بعد ذلك ما يكون ، ولتكن نتيجة المعركة بعد ذلك ما تكون ...

وهناك أكثر من رواية لهذا الموقف ، فيروى ياقوت أن الفرس قالت لأبى عبيد : اما أن تعبر الينا) أو نعبر اليك ، فقال : بل نحن نعبر اليكم ، فنهاه أهل الرأى عن العبور ، فلج وعبر ، فكانت الكسرة على المسلمين (١) .

وفى « دائرة المعارف » للبستانى (٢) ان عمر جعل أبا عبيد على زهاء الف رجل ، وأمره بالمسير الى العراق لقتال الفرس ، وهو أول جيش سيره عمر ، وكان مع أبى عبيد : المثنى بن حارثة ، وعمرو بن حزم ، وسليط بن قيس ، وساروا حتى نزلوا الثعلبية، فقال سليط :

يا أبا عبيد ، اياك وقطع هذه اللجة ، فانى أرى للعجم جموعا كثيرة ، والرأى أن تعبر بنا الى ناحية البادية ، وتكتب الى أمير المؤمنين عمر ، فتسأله المدد، فاذا جاءك عبرت اليهم ، فتناجزهم الحرب .

فتعجل أبو عبيد بالجواب غاضبا على فطرته فقال : جبنت والله يا سليط ! ..

فقال المثنى بن حارثة : والله ما جبن ، ولكنه اشار عليك بالرأى ، فاياك أن تعبر اليهم ، فتلقى نفسك وأصحابك وسط أرضهم ، فتنشب بك مخالبهم .

---

(١) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٤٩ .

(٢) دائرة المعارف بادارة فؤاد افرام البستانى ، طبعة بيروت ، ج ٤ ص ٤٣٦ .

وكأن هـذا لم يخفف من غضبة أبى عبيد لاستخفاف الفرس ، بل زاد فى غضبتـه ، وأمر بالعبور ، فعبروا وعبر المثنى وسـليط معهم ، وعبأ ابو عبيد أصحابه ، وجعل نفسه فى القلب شأن القائد الذى لايضن بنفسه ، ولا يضحى بجنوده .

فزحف اليهم العجم ، فرشقوهم بالنشـاب ، حتى كثرت فى المسلمين الجراحات ، فحمل المسلمون حمله رجل واحد ، وكشـفوا العجم ، ثم ان العجم ثابوا ، وحملوا على المسلمين ...

وهكذا واجه المسـلمون معركة غير متكافئة ، فهم سـتة آلاف ، والفرس عشرات وعشرات من الالوف ، وازداد القتـال شراسـة ، لان الفرس اسـتخدموا الفيلة التى لم يكن للعرب بها عهـد ؛ ولذلك يذكر ابن كثير فى « البـداية والنهـاية » ان الفرس جاءوا معهم بأفيلة كثيرة ، عليهـا الجلاجل قائمة ، لتذعر خيـول المسلمين ، فجعلوا كلما حملوا على المسلمين فرت خيولهم منهـا ، ومما تسمع من جلاجلها التى عليها ، ولا يثبت منها الا القليل على قسر .

واذا حمل المسلمون عليهم لا تطاوع الخيول بالاقدام على الافيـال ، ومع ذلك فتك المسـلمون بستة آلاف من أعدائهم . وأمر أبو عبيـد المجاهدين بأن يقتـلوا الفيلة أولا ، فاحتوشـوها فقتلوها عن آخرها ، وبقى منهـا فيـل عظيم أبيض ، فتقدم نحوه أبو عبيـد ، وضربه بالسيف فقطع ذلومه ، فثـار الفيـل هائجا ، وصـاح صيحة هائلة ، وواصل ابو عبيد طعناته حتى صرع الفيل ، ومال الفيل بجسمه الهائل نحو الارض ، فوقع فوق أبى عبيد ، فنال الشـهادة فى سبيل ربه ،

ونال معه الشـــهادة أخوه وابنـه ، رضـوان الله على الجميع ، واشتـد البلاء عقب ذلك على المسلمين (١) .

ومن يدرى لعل الله أراد ذلك الابتــلاء العصيب للمسلمين فى موقعة الجسر ، ليضرب هؤلاء الشـــهداء مثلا فى التضحية ، وليفجروا براكين الغضب فى صدور من وراءهم من المجاهـــــدين ، فينتقموا لاخوانهم وشـــــهدائهم ، فيكون النصر المبين من وراء ذلك ، وهذا ما كان .

لقد اقبـل البطل الاسـلامى القعقـاع بن عمرو ، وجعل يهتف مع رفاقه : يا لثارات أبى عبيد ، وأصحاب يوم الجسر ! .. واستطاع هؤلاء المجاهدون أن يثأروا للشهداء من أولئك الاعداء (٢) .

وكذلك اقبل المثنى بن حارثة الشيبانى البطل المقدام مع جمع من المجاهدين ، فهاجم الفرس ، وأسر اميرين من أمرائهم ، وأسر معهما بشرا كثيرا ، وضرب أعناقهم ، ثم استنجد بالمسلمين فى العراق ، ليمدوه بالامداد ، وارسل اليه عمر بمدد كبير ، ودارت بين المثنى والفرس معركة سميت « معركة البويب » والبويب اسم مكان قريب من الـكوفة ، وكانت المعركة فى شـهر رمضان من السنة الثالثة عشرة ، فأمر المثنى جنوده بالفطر ، فافطروا عن آخرهم ليكون ذلك أقوى لهم (٣) .

وكان المثنى يهتف بهم قائلا : « يا معشر المسلمين ، عاداتكم ، انصروا الله ينصركم » ودارت رحى الحرب ، وأخلص المسلمون كفاحهم وجهادهم لربهم ، حتى ركبوا

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٨ . طبعة ١٩٦٦ بيروت .
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٥٤٣ .
(٣) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٩ .

أكتاف أعدائهم ، وأوسعوا فيهم القتل ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ضخمة . يقول ابن كثير : « وذلت لهذه الوقعة رقاب الفرس ، وتمكن الصحابة من الغارات فى بلادهم فيما بين الفرات ودجلة ، فغنموا شيئا عظيما لايمكن حصره » .

وهكذا انتهى الابتلاء العصيب بالنصر المبين ، وصدق العلى الكبير اذ يقول :

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » .

لقد اشتدت النكبة على المسلمين يوم الجسر، حتى قال حسان بن ثابت :

لقد عظمت فينا الرزية ، اننا
جلاد على ريب الحوادث والدهر
على الجسر قتلى ، لهف نفسى عليهم
فيا حسرتا ماذا لقينا من الجسر ؟

ولكن المسلمين بعد ذلك انتصفوا لانفسهم ، وعصفوا بقائد الفرس « مهران » ومن معه ، حتى قال فى ذلك الاعور العبدى :

هاجت لأعور دار الحى أحزانا
واستبدلت بعد عبد القيس حسانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع
اذ بالنخيلة قتلى : جند مهرانا
اذ كان سار المثنى بالخيول لهم
فقتل من فرس وجيلانا
سما لمهران والجيش الذى معه
حتى أبادهم مثنى ووحدانا (١)

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٣٠ .

وكان استشـــهاد ابى عبيد فى آخر شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة (١) ، واستشـهد يومئذ معه ثمانمائة ، وقيل : الف وثمانمائة ، وقيل اربعة آلاف ، ما بين قتيل وغريق ، رحمة الله عليهم . ولكن الانتقام أو الانتصاف كان أوسع ، فقد ذكر التاريخ أن الفرس فى هذا الصراع قد فقدوا ما يقرب من مائة الف مابين قتيل وغريق (٢) .

ومضـت الايام والاعوام والاجيـال ، وكلما قيل فى تاريخ الاسلام أسم «أبوعبيد» دون تحديد ، عرف كل متصـل بتاريخ الاسلام ان المقصود هو ذلك البطـل العظيم : أبو عبيد بن مسعود الثقفى .

وكلما قيل فى تاريخ الاسلام كلمة « صاحب الجسر» بلا تحديد ، عرف كل متصل بتاريخ الاسلام ان المقصود هو ذلك المجاهد المقدام ابو عبيد بن مسعود الثقفى .

وكلما قيلت كلمة : « الجسر» بلا تحديد ، عرف كل متصل بتاريخ الاسلام ان المقصود به هو جسر أبى عبيد ابن مسعود الثقفى .

ولذلك يقـول ياقوت : « اذا قالوا الجسر ، ولم يضيفوه الى شىء ، فانما يريدون الجسر الذى كانت فيه الوقعة بين المسلمين والفرس قرب الحيرة » (٣) .

سلام على ذلك المجاهد الشهيد صاحب الجسر ، وعليه من الله سوابغ الرحمة والرضوان .

---

(١) وقيل فى أول شوال « الاستيعاب ج ٤ ص ١٢٥ » . وقد رثاه ابو محجن الثقفى .

(٢) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٩ .

(٣) معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٤٠ .

المجاهد الشهيد القارئ
معاذ بن الحارث بن الأرقم الأنصاري

قد يكون الوقوع فى الخطأ حظا مقسوما للانسان ، وظاهرة تصاحب حياته ، لنسيانه وضعفه ، والاسلام العظيم يعترف بهذا ويقرره ، ولكنه فى الوقت نفسه يدعو الانسان المخطىء الى النهوض من العثرة ، والافادة من التجربة والخبرة ، والمسارعة الى نور الفكرة بعد زوال السكرة ، فحث الاسلام الانسان على الشعور بالذنب ، والندم على ارتكابه ، والمبادرة الى تركه ، مع اخلاص التوبة والاستغفار منه .

والقرآن المجيد ـ مع استنكاره الخطأ ـ يحمد أولئك الذين يشعرون بالتقصير ، ويحاولون التكفير ، لانهم يدللون بذلك على يقظة ضمائرهم ، وقوة الوازع الدينى عندهم ، وعدم اصرارهم على الخطأ والاثم .

ولذلك يقول القرآن الكريم عن أهل الجنة : «والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

ويقول عن طائفة من خيار المؤمنين المنيبين : « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » .

ويقول عن جماعة من الصديقين أهل القلوب الرقيقة الحية ، والنفوس المستجيبة الخاشعة : « واذا سمعوا

ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » .

ولقد كان من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم كواكب وأقمار من صحابته ورجاله ، لا نقول أنهم من أهل العصمة أو التنزه عن الخطأ ، فما منا من أحد الا ويؤخذ منه ويرد عليه ، ما خلا صاحب الروضة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولكنا نقول انهم كانوا أمثلة طيبة فى الايمان والجهاد ، ونماذج حية للوفاء والفداء واحتمال البلاء .

وكان أحدهم اذا أخطأ أو هفا ـ عن سهو أو نسيان أو تقصير ـ خشع وبكى ، واحس بالخطر ، وندم على ما فعل ، ومحا خطأه بالتوبة والطاعة والاجتهاد فيما يحبه الله ويرضاه .

وهذا واحد من هؤلاء :

انه الصحابى الجليل أبو حليمة (١) معاذ بن الحارث ابن الارقم بن عوف الانصارى الخزرجى ، المشهور بمعاذ القارىء (٢) ، وهو يعد فى أهل المدينة ، ولعله قد اشتهر بلقب « القارىء » لكثرة قرأءته القرآن ، وتدبره لمعانيه ، وتأثره بما فيه ، ومن جعل القرآن سميره وأميره وظهيره فقد فاز فوزا عظيما .

وكان معاذ القارىء مجاهدا بطلا ، اشترك فى غزوة الخندق ، وهى غزوة الاحزاب العصيبة التى كانت اختبارا شديدا لعزائم المؤمنين ، ولولا فضل الله على الاخيار من عباده لنالهم ما نالهم من الانكسار

---

(١) وقيل : أبو الحارث ، ولكن الكنية الاولى أشهر .

(٢) جاء فى الاستيعاب : غلب عليه معاذ القارىء وعرف بذلك « الاستيعاب على هامش الاصابة ج ٣ ص ٣٤٦ » .

والاندحار ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا ، اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » .

واذا كان المنافقون والذين فى قلوبهم مرض قد قالوا يوم الاحزاب : « ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا » وكانوا كما صورهم القرآن الكريم بقوله : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا ، اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، اشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا » .

اذا كان هؤلاء قد بدوا يوم الاحزاب كذلك ، فان خيار المؤمنين المجاهدين من أمثال معاذ القارىء ، كانوا كما وصف القرآن الكريم : « ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم الا ايمانا وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا (١) » .

وشهد معاذ القارىء مواقف أخرى للكفاح

---

(١) فى بعض الروايات : ان معاذا لم يشهد الخندق ، وقيل انه شهد من حياة النبى صلى الله عليه وسلم ست سنين (الاصابة ج ٣ ص ٤٠٧ . تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ١٠١) .

والنضال ، وفى السنة الثالثة عشرة من الهجرة اشترك فى « موقعة الجسر » التى دارت رحاها بين المسلمين ومجوس الفرس على نهر الفرات ، لتحرير العراق من جبروت فارس ، والتى قادها البطل الاسلامى الشهيد « أبو عبيد بن مسعود الثقفى » المشـــــهور بلقب « صاحب الجسر » .

وحينما اشـــتد البـلاء على المسلمين فى هذه المعركة الضروس ، ونال أبو عبيد نعمة الشهادة على أرضها ، اضطر معاذ القارىء الى الانسحاب من أرض المعركة ، مع مجموعة من رفاقه ، ولـــكنه ندم على ذلك ندما موجعا ، وحزن حزنا شـديدا ، وخاصة انه كان يجد فى القرآن الـكريم الذى يكثـر قراءته وتدبره ، قول ربه جل جلاله : « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفـا فلا تولوهم الادبار ، ومن يولهم يومئـذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (١) .

وكان معاذ كلما قرأ هـــذه الآية بكى فاشـــتد منه البكاء ، وخاف على نفسه فاشـــتد منه الخوف ، وكأن شبح فراره يراوحه ويغاديه ، فيفســـد عليه صحوه ونومه ، وأكله وشربه ، وكأنما كان يســـترجع فيما يسترجع الآيات التى وردت فى ســورة الاحزاب ، فى شأن غير المؤمنين الصـادقين ، فيخشى ــ وهو التقى الصادق ــ أن يكون منهم .

---

(١) فلا تولوهم الادبار : أى لاتنهزموا امامهم . ومتحرفا لقتال: اى مائلا يمينا أو شمالا ، للاستدراج أو المكيدة للعـدو . ومتحيزا الى فئة : اى متأخرا الى الوراء لينضم الى جماعة من المسلمين يتقوى بها .

وهذه الآيات تقول : « واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا ، واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار، وكان عهد الله مسئولا ، قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذن لا تمتعون الا قليلا » .

كان معاذ يبكي ثم يبكي ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا رآه كذلك أشفق عليه ، وخفف عنه ، وقال له : « لا تبك يا معاذ ، أنا فئتك ، وانما انحزت الى » .

وكذلك كان عمر الفاروق يقول لرفاق معاذ الذين انسحبوا معه : لا تجزعوا يا معشر المسلمين ، أنا فئتكم، انما انحزتم الى . أيها الناس ، أنا فئتكم ، أنا فئة كل مسلم (١) .

بل لقد قال عمر عن الشهيد أبى عبيد صاحب الجسر : « لو تحيز الى لكنت له فئة » !

ولقد روت السيرة العطرة ان جماعة من المجاهدين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطروا الى الانسحاب فى احدى السرايا ، وكان فيهم الصحابى العظيم عبد الله بن عمر ، ثم ندموا على ذلك ندما شديدا وخجلوا أن يدخلوا المدينة ، فقالوا لانفسهم :

كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب؟

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٤٥٩ والاستيعاب على هامش الاصابة ج ٣ ص ٣٤٦ .

ثم قالوا : ندخل المدينة ليلا فلا يرانا أحد ، ثم نعرض أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان كان لنا توبة أقمنا ، وان كان لنا غير ذلك ذهبنا .

واتجهوا الى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، قبل صلاة الفجر ، وقابلوه قائلين فى الم دفين : يا رسول الله ، نحن الفرارون !

فترفق بهم وقال لهم : بل أنتم العكارون (أى الكرارون) أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين .

ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، وقبلوا يد رسول الله عليه الصلاة والسلام (١) .

***

وحينما جمع عمر المسلمين على صلاة القيام (صلاة التراويح) فى المسجد خلال شهر رمضان ، اختار معاذا القارىء ليكون للناس اماما يصلى بهم هذه الصلاة . وكأنه فعل ذلك ليسمع الناس صوت معاذ المؤثر وهو يرتل فى الصلاة آيات القرآن الذى يحفظه ويعكف عليه . وكان معاذ يقنت فى رمضان ، فيردد لربه تلك الدعوات الخاشعات التى يضمنها رجاءه الى ربه أن يعفو عنه ، وأن يمحو ما يضايقه ، وهو شعوره بالحزن العميق لانسحابه يوم الجسر .

والى جوار هذا كان معاذ القارىء يعنى بالحديث النبوى الشريف ، فيرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن أبى بكر وعمر وعثمان (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٩٣ . وفى سند هذه الرواية كلام .

(٢) الاستيعاب على هامش الاصابة ج ٣ ص ٣٤٦ . والاصابة ج ٣ ص ٤٠٨ . والعبر للذهبى ج ١ ص ٦٨ .

وقد روى الحديث عن معاذ كثير ، أمثال نافع مولى ابن عمر ، وعمران بن أبى انس ، وسعيد المقبرى ، وأبى الوليد البصرى ، وغيرهم (١) .

ومما رواه معاذ عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : « منبرى على ترعة من ترع الجنة » .

***

وظل معاذ القارىء يناضل ويجاهد فى سبيل ربه بكل ما يستطيع ، وطال عمره وامتد ، حتى بلغ تسعة وتسعين عاما ، ومضى عليه بعد موقعة الجسر التى انسحب منها نصف قرن من الزمان ، أى خمسون سنة كاملة .

ثم خرج رضى الله عنه سنة ثلاث وستين من الهجرة ليشترك فى موقعة « الحرة » المشهورة .

وفى هذه المعركة نال معاذ القارىء نعمة الشهادة فى سبيل الله عز وجل (٢) .

وكأنه كان يتمنى — وهو يجود بآخر أنفاسه فوق أرض المعركة — أن يجعل الله استشهاده تتمة لغفران ما اتاه من انسحابه يوم موقعة الجسر .

وربك هو الواسع المغفرة ، وهو صاحب الفضل العظيم .

(١) الاصابة ج ٣ ص ٤٠٧ .
(٢) العبر ، ج ١ ص ٦٨ . والاصابة ، ج ٣ ص ٤٠٧ .

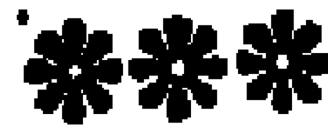
الشهيد المحب للرسول

زيد بن الدثنة الانصاري

ان أخس ما فى أعدائنــــا من أهل الشرك والـكفر والبغى هو الغدر والخيانة ، مع المـكر السيىء الوضيع، والاحتيال الحقير المهين ، الذى لا يقيم أى وزن للوعد أو العهد أو الشرف أو مكارم الاخلاق .

وهــذه الرذائل المسفة المؤسفة كانت فى أعدائنــا بالامس ، وهى فى أعدائنا اليوم ، وســتصاحبهم فى الغد : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » .

ولقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه صحابته وأتباعه ما لقوا من غدر المشركين ولؤم اليهود، ولـكن الله جل جلاله زان هؤلاء الاتباع الاخيـــار بفضيلتى الوفاء والفداء ، فجعلهم يصرون على الحق ، ويثبتون على كلمة الصدق ، مستجيبين لقول ربهم عز من قائل فى ختام سورة آل عمران : « يا أيهـا الذين آمنوا اصبروا وصـابروا ورابطوا واتقوا الله لعلـكم تفلحون » .



وهــذا واحد من هؤلاء الصحاب الابرار الاخيار :

انه الصحابى الجليل زيد بن الدثنة (١) بن معاوية بن عبيد بن عامر بن بياضة الانصارى الخزرجى البياضى، رضى الله عنه (٢) . وقد شهد غزوتى بدر وأحد ، وأبلى فيهما بلاء حسنا ، ثم ابتلاه الله ـ جلت حكمته ـ بموقف من مواقف الابتلاء والاختبار ، دفع فيه حياته الغالية ، ولكنه مضى الى ربه شهيداً مجيداً ، وأبقى من ورائه مثلا فى الاحتمال ، والثبات على العقيدة ، وعمق الحب لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

فقد حدث فى أواخر السنة الثالثة للهجرة أن انتهز المشركون فرصة الامتحان العصيب الذى مر بالمسلمين فى غزوة أحد الاليمة ، وارادوا أن يوقعوا بالمسلمين عن طريق الخيانة والغدر ، فجاء الى النبى صلى الله عليه وسلم عدد من قبيلتى عضل (٣) والقارة اللتين كان أهلهما يضمرون أشد البغض والعداوة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وتظاهروا بالاسلام ، وقالوا له : ان فينا اسلاما وخيرا ، فابعث معنا نفرا من أصحابك ، يفقهوننا فى الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شعائر الاسلام !

---

(١) الدثنة : بفتح الدال ، وكسر المثلثة ، والنون بعدها مفتوحة (أنظر الاصابة ج ١ ص ٥٤٨ . واسد الغابة ، مجلد ٢ ص ٢٨٧ . وروى أن الدثنة بفتح الدال ، وكسر الثاء ، وفتح النون المشدودة ، من قولهم : دثن الطائر ، اذا طار حول وكره ولم يسقط عليه « انظر الاغانى ج ٤ ص ٢٢٥ بالهامش ، ونهاية الارب ج ١٧ ص ١٣٣) .

(٢) الاصابة ، ج ١ ص ٥٤٨ . والاستيعاب ج ١ ص ٥٣٥ . واسد الغابة ج ٢ ص ٢٨٦ .

(٣) الاغانى ، ج ٤ ص ٢٢٥ . وعضل : بفتح العين والضاد .

ولأمر ما يعلمه الله أرسل النبى عليه الصلاة والسلام معهم عددا من أصحابه ، قيل انهم ستة ، وقيل انهم سبعة ، وقيل انهم عشرة ، وكان منهم زيد بن الدثنة ، وفى أثناء الطريق ، وحينما بلغوا موضعا يسمى « الرجيع » ـ وهو الاسم الذى نسبت اليه البعثة ـ صعدوا رابية تسمى « الهداة » ، وهنا فوجئوا بمرافقيهم من عضل والقارة يستصرخون عليهم كمين الخيانة والغدر ، حيث هاجمهم مائة رجل من المشركين الاخساء اكثرهم من قبيلة هذيل ، وحينما هم أولئك الصحابة الكرام بمهاجمة أعدائهم قالوا لهم : « لكم العهد والميثاق ـ ان نزلتم الينا ـ الا نقتل منكم رجلا » .

فأبى ذلك جانب من هؤلاء الصحاب الكرام ، وقاوموا حتى سقطوا شهداء ، وكان من هذا الجانب الشهيد العاصم : عاصم بن ثابت رضوان الله عليه (١) .

وانخدع بالحيلة الماكرة جانب آخر ، فسلموا أنفسهم لاعدائهم ، وكان من هذا الجانب زيد بن الدثنة الانصارى الذى أسره أولئك الخونة ، وقيدوه بالاغلال ، وذهبوا به الى مكة ليبيعوه فيها بيع العبيد (٢) .

وباعوه فعلا الى ألد الاعداء حينئذ ، وهو صفوان بن أمية بن خلف ، الذى كان مشركا فى ذلك الوقت ، لم ينفتح قلبه للاسلام بعد ، ثم أسلم صفوان بعد ذلك ،

---

(١) تراجع تفاصيل بطولته فى كتابى : « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ١٤٦ .

(٢) راجع فى القصة : تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٥٣٨ . والطبقات لابن سعد ، ج ٢ قسم ١ ص ٣٩ . وعيون الاثر ج ٢ ص ٤١ و ٤٢ . والاغانى ج ٤ ص ٢٢٥ . وأسد الغابة ، ج ٢ ص ٢٨٧ . والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٢٣ . والاصابة ج ١ ص ٥٤٨ . والاستيعاب ج ١ ص ٥٣٥ .

بعد أن شهد غزوة حنين كافراً ، وكان من المؤلفة قلوبهم ، وشهد معركة اليرموك ، وتوفى بمكة سنة اثنتين واربعين ، وقيل توفى فى عهد عثمان ، وقيل يوم الجمل (١) .

ووالد صفوان هو أمية بن خلف الكافر اللعين، عدو الله وعدو الرسول ، الذى مات كافرا فى غزوة بدر ، ولعل صفوان كان يريد ــ وهو ما زال فى ظلمات الجاهلية ــ أن ينتقم لأبيه ، فلما سيطر صفوان على زيد بن الدثنة ، قيده بالاغلال ، وأخذ فى تعذيبه ، ولكن البطل الصابر احتمل ما لحق به ثابتا مؤمنا ، ثم أمر صفوان عبدا له يسمى « نسطاس » (٢) بأن يقود زيدا المكبل بالاغلال الى مكان يسمى « التنعيم » ليقتلوه .

والتنعيم موضع بجوار مكة فى الحل ، وهو بين مكة وسرف ، على فرسخين من مكة ، وقيل على أربعة فراسخ ، وسمى بالتنعيم ــ كما روى ياقوت الحموى ــ لأن جبلا عن يمينه يقال له : نعيم ، وآخر عن شماله يقال له : ناعم ، والوادى يسمى : نعمان ، ومن التنعيم يحرم المكيون بالعمرة (٣) .

وهناك فى هذا المكان تجمع الاخساء حول زيد ، وأخذوا ــ كما فى بعض الروايات ــ يرمونه بالنبال ليفتنوه عن دينه واسلامه ، فلم يزدد رضوان الله عليه

(١) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ص ٢٤٩ .
(٢) أسلم نسطاس بعد ذلك وحسن اسلامه (الاصابة ج ٣ ص ٥٢٣) .
(٣) معجم البلدان لياقوت ، ج ٢ ص ٤٩ ، طبعة بيروت .

الا أيمانا وتثبيتا (١) .



وكان ممن حضر هـذا المشـهد أبو سفيان بن حرب ـ وكان لم يسلم بعد ـ فراعه من زيد هـذا الصبر العجيب على طول التعذيب ، فدنا منه وقال له ، كأنه يستخدم آخر سهم فى جعبته لاختبار زيد :

ـ يا زيد ، نشدتك الله ، أتحب أن محمدا عنـدنا الآن مكانك ، فتضرب عنقه ، وانك فى أهلك ؟

فبماذا أجاب زيد ؟

هل فـكر فى النجاة والسـلامة ؟ ..

هل سارع الى باب الخلاص بعد أن أصابه ما أصابه؟

هل تردد أو تلجلج فى النطق بما يليـق به أن يقوله ويؤكده فى هذا المجال ؟

لا والذى برأ النسم ، وأوجد من العدم .

بل أقام زيد الدليـل على انه من أولئك الاصـحاب الاخيـار الذين كانوا يفدون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم وآبائهم وأمهاتهم ، لان الحق جل جلاله يقول فى سـورة الاحزاب : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم». ولأنالرسولالصادقالمصدوق يقول : «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

ولذلك رفع زيد صوته يعلن به جوابه لأبى سفيان ، قال :

والله ما أحب ان محمدا الآن ، فى مكانه الذى هو

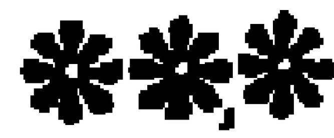
---

(١) عيون الاثر ، ج ٢ ص ٤٣ . والسيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ص ١٣٠ .

فيه ، تصيبه شوكة تؤذيه ، وانى جالس فى أهلى .

فازداد أبو سفيان تعجبا ، وقال مقرا على الرغم منه بالحق الساطع :

ـ ما رايت أحدا من الناس يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ! (١) .



واخيرا يئس القوم من هــــذا المؤمن ، المناضل الاعزل ، الصابر الامثل ، فأقدموا على تنفيذ القتل فيه، فسألهم أن يمهلوه حتى يصلى لربه ركعتين .

يقول ابن سعد فى « الطبقــات » عن زيد بن الدثنة ورفيقه فى الشهادة خبيب بن عدى : « فحبسوهما حتى خرجت الاشــهر الحرم ، ثم أخرجوهما الى التنعيم فقتلوهما ، وكانا صليا ركعتين ركعتين قبل أن يقتلا ، فخبيب اول من سن ركعتين عند القتل » (٢) .

وعقب انتهــاء زيد من ركعتيه اللتين جعلهما كأنهما اللقاء التمهيدى له مع ربه ، أقبل طواغيت الشرك على المجاهد المفرد الاعزل ، وقطعوا رقبته ، لتصعد روحه الى بارئها ، لتنال كريم جزائها : « ان المتقين فى جنــات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

ويروى بعض الرواة عن عبد الله بن‌عباس انه قال: (٣)

لمــا قتــل أصحاب الرجيع قال ناس من المنافقين : ياويح هؤلاء المفتونين الذين هلــكوا هكذا ، لا هم أقاموا فى أهليهم ، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم . (يعنون

---

(١) أسد الغابة ، ج ٢ ص ٢٧٨ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٢ قسم ١ ص ٤٠ .

(٣) انظر عيون الاثر ، جـ٢ ص ٤٣ . والسيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ١٢٢.

النبى صلى الله عليه وسلم) .

فأنزل الله عز وجل فى هـــــذه الواقعة قوله عن المشركين : (١)

« ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيـا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام ، واذا تولى ســـعى فى الارض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، واذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالاثم ، فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد » .

ثم أنزل الله سبحانه عقب ذلك فى شأن زيد ورفاقه قوله :

« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » (٢) .

***

هـــذا ولقد رثى شاعر الاسلام حسان بن ثابت أبطال بعثة الرجيع ، وحمل على أعدائهم الخونة ، فقال فيما قال :

لعمرى لقد شـــانت هذيل بن مدرك
أحاديث كانت فى خبيب وعاصـــم
أحاديث لحيـــان صلوا بقبيحهـا
ولحيـــان جرامون شـــر الجرائم
هم غدروا يوم الرجيـــع ، وأسـلمت
أمانتهم ذا عفــــــة وتـكرم
رسول رسول الله غدرا ، ولم تكن
هـــذيل توقى منـــكرات المحارم

---

(١) فى سورة البقرة ، الايات ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦
(٢) هناك أقوال أخرى فى سبب نزول هذه الايات .

لعـل هـذيلا أن يروا بمصـابه
مصـارع قتـلى ، أو مقـاما لمـأتم
ونوقع فيهـا وقعة ذات صـولة
يوافى بها الركبان أهـل المواسـم
بأمر رسـول الله ، أن رسـوله
رأى رأى ذى حزم بلحيـان عالم
قبيـلة ليس الوفـاء يهمهم
وأن ظلمـوا لم يدفعوا كف ظـالم
محلهم دار البـوار ، ورأيهم
اذا نابهم أمر كرأى البهـائم (١)

رضوان الله تبارك وتعالى على شهـداء بعثة الرجيع، رضوان الله على الجميع .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ١٣٣ و ١٣٤ .

شهيد سمرقند

قثم بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي

من أكبر عيوب الجبابرة من السلاطين والملوك ـ خلال عصور التاريخ ـ انهم يستغلون مناصبهم ونفوذهم لصالحهم وصالح أولادهم وأهليهم ، فهم يضنون بهؤلاء الاقارب عن مظان الخطر والتضحية ، وهم يقذفون فى الوقت نفسه بالكثير من الناس الى مواطن الهلاك والدمار، وهم يخصون أنفسهم وأولادهم وأهليهم بالنعيم والتدليل ، ويحرمون غيرهم حقوقهم ، ويكلفونهم فوق ما يطيقون .

ونحن نؤمن بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو امامنا ومرشدنا وقائدنا . فهل كان كهؤلاء ؟ معاذ الله . وكيف يفعل قليلا أو كثيرا من ذلك ، وهو الذى أرسله ربه رحمة للعالمين ، وجعله مثلا أعلى للعدالة والانصاف ، وجلى فيه القدوة الحسنة للمؤمنين : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا » .

وكيف وهو الذى كان يقول لابنته فاطمة أعز الناس عليه : « يا فاطمة بنت محمد ، اعملى فانى لا أغنى عنك من الله شيئا » . ويقول عنها : « وأيم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » . ويقول لآل بيته : « يا آل محمد ، لايأتينى الناس بالاعمال

وتأتونى بالانساب ، اعملوا فانى لا أغنى عنكم من الله شيئا » .

مع ان آل البيت النبوى الطهور هم الذين قال فيهم الحق جل جلاله : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . ولم يستغل آل هذا البيت الكريم مكانتهم ولا منزلتهم ليغنموا أو يستحوذوا ، بل طبقوا شرعة الوفاء والفداء على أنفسهم قبل أن يطالبوا بها سواهم .

وهذا واحد من آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، يعطينا مثلا طيبا فى هذا المجال :

انه الصحابى الجليل ، الباذل المعطاء ، الورع النقى ، المناضل المفترب ، المجاهد الشهيد : قثم بن العباس ابن عبد المطلب الهاشمى ، وكلمة « قثم » معناها الكثير العطاء بين الناس (١) ، وهو اسم صادف مسماه ، وانطبق عليه معناه (٢) .

وقد جمع قثم — رضى الله عنه — طائفة من المجامد والمفاخر ، فهو أولا ابن عم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهو ثانيا ابن العباس بن عبد المطلب الذى عاون الرسول كثيرا فى مسيرة الدعوة ، وهو ثالثا أخو عبدالله ابن عباس حبر الامة وترجمان القرآن ، وهو رابعا كان قوى الشبه برسول الله ، حتى قال ابن كثير عنه : «كان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم» (٣) .

---

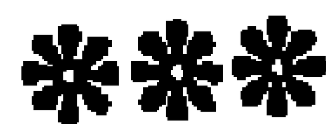
(١) تاج العروس شرح القاموس ، ج ٩ ص ١٦ .
(٢) وأمه هى أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث الهلالية .
(الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧ ص ١٠١ القسم الثانى)
(٣) البداية والنهاية ، ج ٨ س ٧٨ . وانظر كذلك الاصابة ج ٣ ص ٢١٨ . وكتاب العبر للذهبى ج ١ ص ٦١ .

وهو خامسا أخ فى الرضاع لابى الشهداء الحسين بن علي رضوان الله عليهما . وقد روى ان أم الفضل ـ والدة قثم ـ قالت لرسول الله عليه الصلاة والسلام : يا رسول الله ، رأيت فى نومى كأن فى بيتى عضوا من أعضائك .

فقال لها الرسول : « خيرا رأيت . تلد فاطمة غلاما ترضعينه بلبن ابنك قثم » .

وكذلك كان ، حيث ولدت السيدة فاطمة ابنها الحسين ، ورضع مع قثم بن العباس من والدته أم الفضل (١) .

وكان الرسول يحب قثم بن العباس ، ويحمله بين يديه ، ويجعله معه فوق دابته .



وفوق ذلك كله نشأ قثم نشأة بطولية ، وتربى على الشجاعة والاقدام ، وتعرض للتضحية والاقتحام ، ومما يدل على ذلك انه كان أحد القلة التى ثبتت الى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة « حنين » العصيبة ، فلم يفر كما اضطر غيره الى الفرار (٢) .

وقد ثبت مع قثم من آل الرسول : على بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه جعفر ، والفضل بن

(١) الاصابة ، ج ٣ ص ٢١٨ . وفى تهذيب الاسماء للنووى عن قثم : « وكان أخا الحسين بن على من الرضاعة » . ولكن رواية الاصابة تقول انه الحسن ، والخطب فى الاختلاف يسير : « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » انظر تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ص ٥٩ .

(٢) الدرر لابن عبد البر ، ص ٢٣٩ .

العباس ، وهذا يؤكد ان آل بيت الرســــول كانوا في الطليعة .

وظل قثم يحرص على صحبة الرسول والنضال تحت لوائه ، وحينما تأذن الحق سبحانه بأن ينتقل الرسول الى الرفيق الاعلى كسب قثم مفخرة جديدة ، هى أنه كان آخر الناس عهدا برسـول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كان أحد خمسة تولوا غسل الرسـول وتكفينه ونزول قبره لدفنه ، وهؤلاء الخمسة هم : على ابن أبى طالب ، والفضل بن العباس ، وأخوه قثم بن العباس ، وشقران مولاه ، وأسامة بن زيد ، وكان آخرهم خروجا من القبـر هو قثم ، وبذلك كان آخر الناس عهدا بحبيب الرحمن محمد عليه الصلاة والسلام(١)

وعنى المؤرخون بتسجيل هـــذه المحمدة ، فيقول الطبرى : اشترك قثم بن العباس فى غسل الرسول ، وكان ممن نزلوا قبـره ، وكان آخر النـاس عهـدا برسول الله (٢) .

ويقول مؤرخ الاسلام الذهبى عن قثم : « وهو آخر من طلع من لحد النبى صلى الله عليه وسلم »(٣) .

ويقول النووى عن قثم : « وهو صـحابى ، وغلط بعضهم فذكره فى التابعين ، والصـواب انه صحابى ، فكان قثم آخر النـاس عهـدا برسول الله صلى الله عليه وسلم » (٤) .

ولقد كان المغيرة بن شعبة يزعم انه آخر الناس عهدا

---

(١) الاستيعاب ج ٣ ص ٢٦٢ .
(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢١١ و ٢١٤ .
(٣) العبر ، ج ١ ص ٦١ .
(٤) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ٥٦ .

بالنبى ، ولكن النووى يروى ان الامام على بن أبى طالب كان فى العمرة ، فجاءه جماعة من العراق ، وسألوه عن من كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجابهم الامام على بقوله : « اظن المغيرة بن شعبة يحدثكم انه كان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وسلم» ؟.. فقالوا : اجل، وعن هذا جئنا نسألك . فأجابهم : « أحدث الناس عهدا به قثم بن العباس » (١) .

وكان قثم بن العباس كريما جوادا ، وقد انقطع لمدحه على كرمه وفضله الشاعر الحجازى داود بن سلم المشهور بالادلم والمتوفى سنة مائة وعشرين ، ومن شعره فى مدح قثم قوله يخاطب ناقته :

عتقت من حل ومن رحلة
يا ناق ، ان أدنيتنى من قثم
انك ان أدنيتنى منه غدا

حالفنى اليسر ، ومات العدم
فى كفه بحر ، وفى وجهه
بدر ، وفى العرنين منه شمم (٢)
أصم عن فعل الخنا سمعه

وما عن الخير به من صمم
لم يدر ما « لا » و « بلى » قد درى
فعافها ، واعتاض منها « نعم » (٣)

---

(١) المرجع السابق .
(٢) العرنين : طرف الانف . وشمم : ارتفاع .
(٣) الاستيعاب ج ٣ ص ٣٦٥ ومعجم الادباء ج ١١ ص ٩٥ و ٩٧

وواصل قثم رضي الله عنه خطواته التقية النقية على طريق الحق والصدق والنضـــال ، واستعان به أمير المؤمنين على بن ابى طالب ، فأسند اليه القيام بشئون « المدينة » (١) . ثم ولاه رعاية شئون مكة والطائف ، فلم يزل قثم واليا على مكة حتى استشـــهد الامام على رضوان الله عليه (٢) .

وانتفع قثم فى ولايته على مكة بتوجيه الامام ونصحه وارشاده .

كتب الامام على الى قثم وهو عامله على مكة يقول له:

« أما بعد ، فأقم للناس الحج ، وذكرهم بأيام الله ، واجلس لهم العصرين ، فأفت المستفتى ، وعلم الجاهل ، وذاكر العالم ، ولا يكن لك الى الناس سفير الا لسانك ، ولا حاجب الا وجهك .

ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها ، فانها ان ذيدت عن أبوابك فى أول وردها ، لم تحمـــد فيما بعـــد على قضائها .

وانظر الى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه الى من قبلك من ذوى العيال والمجاعة ، مصيبا به مواضع المفاقر والخلات ، وما فضـــل عن ذلك فاحمله الينا ، لنقسمه فيمن قبلنا .

ومر أهل مكة ألا يأخذوا من ساكن أجرا ، فان الله سبحانه يقول : (سواء العاكف فيه والباد). فالعاكف : المقيم به ، والبادى الذى يحج اليه من غير أهله ، وفقنا الله واياكم لمحابه ، والسلام » .

---

(١) البـــداية والنهاية : ج ٨ ص ٧٨ . وتاريخ الطبرى ، ج ٤ ص ٤٤٥ .

(٢) الاستيعاب ج ٣ ص ٢٦٣ . وتاريخ الطبرى ج ٤ س ٤٥٥ .

وقد أمره الامام فى هذه الوصية ـ كما يعبر ابن أبى الحديد ـ أن يقيم للناس حجهم ، وأن يذكرهم بأيام الله، وهى أيام الانعام ، وأيام الانتقام، لتحصل الرغبة والرهبة، وأن يجلس لهم العصرين ، أى فى الغداة والعشى .

ثم قسم له ثمرة جلوسه لهم ثلاثة اقسام : اما أن يفتى مستفتيا من العامة فى بعض الاحكام ، وأما أن يعلم متعلما يطلب الفقه ، واما أن يذاكر عالما ويباحثه ويفاوضه .

ثم نهاه عن اتخاذ السفراء والوسطاء والحجاب بينه وبينهم ، بل ينبغى أن يكون سفيره لسانه ، وحاجبه وجهه ، اى يلقى الناس ويواجههم مباشرة .

وحذره أن يصد صاحب الحاجة عن لقائه ، لان هذه الحاجة أن « ذيدت » أى طردت ودفعت ، ولم تقض فى أول أمرها ، فان قضاءها بعد ذلك يكون غير محمود .

وكلمة « المفاقر » معناها الحاجات . يقال : سد الله مفاقره ، أى أغنى فقره ، وقريب من هذا معنى كلمة « الخلات » (١) .

وينبغى أن نتذكر أن قثم بن العباس من الصحابة الذين لهم رواية فى الحديث ، روى عنه أبو اسحاق السبيعى حديثا أخرجه النسائى فى كتاب خصائص علي.

هذا وقد خرج قثم مجاهدا فى سبيل ربه ، فغزا فى اقليم خراسان من بلاد الفرس ، وكان عليها سعيد بن عثمان بن عفان واليا ، فقال لقثم : أضرب لك بألف سهم ؟ ..

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ج ٥ ص ٢١٨ـ ٢٢٠

فقال له قثم : بل أخمس (١) ، ثم اعط النـــاس حقوقهم ، ثم أعطني بعد ما شئت .

ويعلق محمد بن سعد فى كتابه «الطبقات الـكبرى » على هذا الخبر بقوله : وكان قثم ورعا فاضلا » (٢)

فقثم لم يكن يتطلع فى جهـاده الى المتاع أو المال ، وانما كان يجاهد ابتغاء وجه الله عز وجل ، وكأنه قد وعى خير وعى قول الرســول صلى الله عليه وسلم : « من جاهد لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »

ثم خرج قثم مجاهدا مع سعيد بن عثمان فى معركة « سمرقند » سنة خمس وخمسين للهجرة ، وما زال يقاتل فى سبيل الله ويناضل ، حتى نال نعمة الشهادة، ورقد هناك فى قبره بسمرقند (٣) ، ، بعيدا عن داره ، غريبا عن آله ، لينهض جدثه شاهدا على أن لله تعالى عبادا أخلصوا له عقيدتهم ويقينهم ، فانساحوا فى جنات الارض ، يرفعون لواء الحق ، وينشرون دعوة العدل .

وحينما وصل نبأ استشهاد قثم الى أبيه العباس بن عبد المطلب لم يزد على أن قال : « انا لله ، وانا اليـه راجعون » (٤) .

ولا عجب فهو قد تذكر حق التذكر قول الله جـل

---

(١) اى أعزل الخمس المشـــار اليه فى قوله تعـالى : « واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسـول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »

(٢) الطبقات الكبرى ج ٧ ص ١٠١ القسم الثانى .

(٣) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٧٨ ، والاصابة ج ٣ ص ٢١٨ . والاستيعاب ج ٣ ص ٢٦٢ .

(٤) جاء فى كتاب النهـــاية لابن الاثير : « حينما نعى قثم الى أبيه العباس استرجع . اى قال : انا لله وانا اليـه راجعـون » ج ٢ ص ٢٠٢ .

جلاله : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، وبشر الصــــابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمـــــة وأولئك هم المهتدون » .

ويذكر الذهبى فى كتابه « العبر » ان قثم بن العباس اشترك فىغزوة سمرقند مع سعيد بنعثمان، واستشهد يومئذ قثم ســنة ست وخمسين (١) . ولـكن الرواية الاولى أكثر شهرة .

وكذلك اختلفوا فى قبره ، فقيل انه فى سمرقند ، وهــذا هو الاصح ، وقيل فى مرو ، وقيل فىخراسان، رضوان الله تعالى عليه (٢) .

وينبغى أن نتذكر التفرقة بين « قثم بن العباس بن عبد المطلب » شهيد سمرقند ، و « قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس » الذى ولاه المنصور العباسى أمرة اليمامة سنة ثلاث وأربعين ومائة والمتوفى ســنة تسع وخمسين ومائة (٣) .

---

(١) العبر ، ج ١ ص ٦١ .

(٢) رحل ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وذكـــر في رحلته انه زار قبر « قثم بن العباس » الذى استشهد فى سمرقند ، ووصف لنا القبر وقبته . وفى سنة ١٩٥٧ م ذهب كاتب اسلامى الى سمرقند وزار القبر ، وقال ان القبر والقبة تعرضا للبلى .

(٣) الاعلام ج ٦ ص ٢٦ .

شـــهيـــد الرجيـــع

مُرْثَد بن أبي مرثد الغنوي

ما أعجب ما صنع الاســــلام العظيم بالاوائل من المسلمين ! . .

لكأنما قـد خلقهم ربهم خلقـا جـديدا ، بعد أن طهر حواسهم ، وزكى نفوسهم ، وقوم عقولهم ، وعدل ميولهم ، وأقامهم على الصراط المستقيم .

كانوا صرعى آثام ورذائل ، فحلاهم بالمــــكارم والفضائل ، وكانوا يطلبـــون اللذة عن طريق الجنس والخمر ، فسما بهم الى متعة الايمان وروعة اليقين ، وكانوا يتقاتلون على أتفه الاسباب ، فأبدلهم بذلك شرف الجهاد فى سبيل رب الارباب ، وبذلك صاروا خير أمة أخرجت للناس ــ كما قال القرآن المجيـد ــ يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنـون بالله ، ولا يخضعون لاحد سواه .

وبذلك علموا أبناء الحياة كيف يترفعون عن سفاسف الامور وحقائرها ، وكيف يهيمون بالمعـالى والمحامد ، تحت ظلال القرآن الحكيم الذى قال فيه رب العزة : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم : صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ، الا الى الله تصير الامور » .

وهــذا واجد من مدرســـة محمــد عليه الصــلاة والسلام ...

كان فى جاهليته شـــــابا منطلقا مع هواه ، يخادن المرأة ، ويعرف طريق المتعة الحرام ، فلما أشرق بنور الايمان قلبه اعتدل واستقام ، فكان مثلا طيبا لشباب الاسلام الذين قال القرآن الكريم فى اخوة لهم من قبل : « انهم فتيــة آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى ، وربطنــا على قلوبهم ، اذ قاموا فقالوا ربنــــا رب السموات والارض ، لن ندعو من دونه الها ، لقد قلنا اذن شططا »

انه الصحابى ابن الصحابى ، المؤمن الفاضل ، العابد المناضل ، الشهيد المجيد : مرثد بن كناز بن الحصين ابن يربوع الغنوى ــ نسبة الى قبيلته غنى ــ وكان ابوه أبو مرثد كناز بن الحصين من كبار الصحابة وفضلائهم ومجاهديهم ، شــهد غزوات بدر وأحد والخنـــــدق والمشـــاهد كلها مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وآخى الرســول بين كناز وعبادة بن الصامت ، وكان أبو مرثد يحمل اللواء فى سرية قادها حمــزة بن عبــد المطلب على رأس سبعة أشهر من الهجرة النبوية ، وظل كناز يجاهد ويناضل حتى توفى فى خلافة أبى بكر الصديق ، فى السنة الثانية عشرة للهجرة ، وقد بلغ الســادســة والستين من عمره ، رضوان الله تعالى عليه (١) .

وأما فتانا البطل مرثد بن كناز الغنــوى فقــد آخى الرسول بينه وبين أوس بن الصامت بن قيس الانصارى ،

---

(١) وقيل فى السنة الحادية عشرة . انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ص ٣٢ . وأسد الغابة ج ٤ ص ٥٠٠ طبعة دار الشعب ، وتاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٣٨٥ .

الذى شــهد بدرا والمشاهد كلها مع الرســـــول عليه الصلاة والسلام ، وكان شاعرا اسلاميا مجيدا ، وسكن القدس ـ أين القــدس الآن يا عرب يا مسلمون ؟ ـ وتوفى بالرملة فى فلسطين ـ أين الآن الرملة وفلسطين ياعرب يا مسلمون ؟ ـ سنة اثنتين وثلاثين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة (١) .

وكان مرثد من أمراء السرايا ، وأبطال الوفاء والفداء ، فى صــدر الاســلام : شــهد غزوة بدر وأحد ، ولم يكن هناك فى غزوة بدر غير فرسين ، أحدهما لمرثد ، والآخر للمقداد بن عمرو (٢) . وقد تبادل مرثد وعلى ابن أبى طالب مع النبى ركوب دابة واحدة فى طريق الغزوة (٣) ، ولمـا أراد مرثد وعلى أن يتنازلا للنبى عن نصيبهما فى الركوب رفض ذلك ، وقال : « ماأنتما بأقدر منى على المشى ، ولا أنا بأغنى منكما عن الاجر » .

وكان مرثد يقوم بمهمة فدائية أخرى لها شــأنها ، فقد كان قوى البدن صلب العضلات ، فكان يذهب الى مكة سرا ، ويحمل الاسرى المسلمين الضعاف ليلا ، ويعود بهم الى المدينة . وحدث ذات مرة أن رأته امرأة بغى اسمها « عناق » كان يخادنها فى الجاهلية ، فدعته الى المبيت عنــدها فرفض ، فألحت عليه باغراء واثارة ، فقال لها : ان الله قد حرم الفاحشة ، فدلت عليه قومها ، ولــكن الله تعالى أنجاه حتى أنقـــــذ الاسير أخاه فى الاسلام وعاد الى المدينة .

(١) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ص ١٢٠ . وأسد الغابة ، ج ٥ ص ١٣٨ طبعة دار الشعب
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٢ ص ٤٧٨ .
(٣) الدرر لابن عبد البر ، ص ١١١ .

ويروى ابن الاثير فى كتابه « النهاية » أن عناق .قالت بعد ان يئست منه : يا أهل الخيام ، هذا الدلدل الذى يحمل اساراكم . والدلدل هو القنفذ ، شبهته بالقنفذ لانه اكثر ما يظهر بالليـل ، ولانه يخفى رأســــــه فى جسده ما استطاع .

ويروى ابن عبد البر هـــــــذه الحادثة فى كتابه « الاستيعاب » فيقول عنه :

« وكان يحمل الاسرى من مكة حتى يأتى بهم المدينة، قال : وكان بمكة بغى يقال لها : عناق . وكانت صديقة له ، وكان وعد رجلا أن يحمله من أسرى مكة . قال : فجئت حتى انتهيت الى حائط من حيطان مكة فى ليلة قمراء ، فجاءت عنـــــاق فابصرت سواد ظلى بجانب الحائط ، فلما انتهت الى عرفتنى ، فقالت :

مرثد ؟ .. قلت : مرثد .

قالت : مرحبا وأهلا ، هلم فبت عندنا الليلة .

قلت : يا عناق ، ان الله حرم الزنى .

قالت : يا أهل الخباء ، هذا الذى يحمل الاسرى .

فأتبعنى ثمانية رجال ، وسلـكت الخندق ، حتى اذا انتهيت الى كهف أوغار فدخلته ، وجاءوا حتى قاموا على رأسى ، وأعماهم الله عنى ، ثم رجعوا ، ورجعت الى صاحبى فحملته ، وكان رجلا ثقيلا ، حتى انتهيت الى الاذخر ، ففكـكت عنه كبله ، ثم جعلت أحمله حتى قدمت المدينة ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت : يا رسول الله ، انكح عناق ؟..

فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد على شيئا ، حتى نزلت هذه الآية : (الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة) الآية ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وقال لا تنكحها » (١) .

والآية السابقة هي قول الله تعالى فى سورة النور « الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة ، والزانية لاينكحها الا زان أو مشرك ، وحرم ذلك على المؤمنين » .

وقصة « عناق » مع مرثد تذكرنا بقصة يوسف مع امرأة العزيز ، فان « عناق » أرادت من مرثد ما أرادت ، وألحت فى مطلبها ثم ألحت ، وانه لصديق لها فى الجاهلية ، وبينهما من الذكريات السابقة المثيرة ما بينهما ، ولكن الاسلام قد أشرق فى صدره ، فأبى واستعصم ، حتى يئست منه ، فدلت قومها عليه ليوقعوا به الاذى ، ولكن الله أنجاه .

وكذلك أمر يوسف من قبل ، فقد اصطنعت له امرأة العزيز ما اصطنعت لاغرائه ، ولكن برهان ربه أبى عليه ، فاستعصم ، فآذته حتى سجنته ، ولكن الله برأ ساحته .

يقول التنزيل المجيد : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب وقالت : هيت لك . قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، انه من عبادنا المخلصين » .

وافترت فادعت عليه انه هو الذى حاول الاعتداء عليها ، وأغرت به زوجها : « قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن او عذاب أليم ، قال هى

(١) الاستيعاب ، ج ٣ ص ٤١٢ . والاذخر اسم موضع . وكبله: قيده .

راودتني عن نفسي ، وشهد شاهد من أهلها » . وتبين للعزيز صدق يوسف وكذب زوجته فقال لها : « انه من كيدكن ان كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين » .

ولكنها ظلت تطارده حتى أدخلته السجن : « قال رب السجن أحب الى مما يدعونني اليه » . فلبث فى السجن بضع سنين ، ثم أظهر الله فضله ونبله ، واعترفت امرأة العزيز بالحقيقة : « قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم انى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدى كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربى ، ان ربى غفور رحيم ، وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين ، قال : اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف فىالارض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » .

ولقد جاء فى تفسير ابن كثير ان رجلا من المؤمنين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زواج امرأة يقال لها « أم مهزول » كانت تسافح ، وتشترط له أن تنفق عليه ، فتلا عليه الرسول الآية (١)

والامام أحمد بن حنبل يذهب الى انه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى ما دامت كذلك حتى تستتاب ، فان تابت صح العقد عليها ، والا فلا ، وكذلك

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ص ٢٦٢ .

لايصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى : « وحرم ذلك على المؤمنين » (١) .

وجاء رجل الى عبد الله بن عباس فقال له : انى كنت ألم بامرأة آتى منها ما حرم الله عز وجل على ، فرزق الله من ذلك توبة ، فأردت أن أتزوجها !.. فقال اناس: ان الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة .

فقال له ابن عباس : ليس هذا فى هذا ، انكحها ، فما كان من اثم فعلى ! .. (٢)

***

ونعود بعد هذا الى بعث مرثد بن أبى مرثد كناز الغنوى :

لقد اختار النبى صلوات الله وسلامه عليه مرثد بن كناز أميرا وقائدا للسرية الفدائية التى عرفت فى السيرة العطرة باسم « سرية الرجيع » .

ونسبت هذه السرية أحيانا الى أميرها ، فكان يقال عنها : « سرية مرثد الغنوى » (٣) .

و « الرجيع » اسم مكان ، ويقول ياقوت فى معجمه انه الموضع الذى غدرت فيه قبيلتا عضل والقارة بالسبعة نفر الذين بعثهم رسول الله عليه الصلاة والسلام منهم عاصم بن ثابت حمى الدبر (٤) ، وخبيب بن عدى ،

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٦٤ ..
(٣) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ١٥٤ . وأنظر أسد الغابة ، ج ٥ ص ١٣٨ طبعة دار الشعب .
(٤) أنظر تفاصيل سيرته وبطولته فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الاسلام » ص ١٤٦ والصفحات التالية لها .

ومرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وهو ماء لهـــذيل قرب الهداة بين مكة والطائف ، وبه بئر معاوية ، وليس ببئر معونة ، هذا غير ذاك (١) .

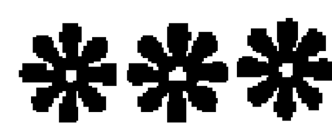
وكانت هــذه السرية بعد الهجرة بثلاث ســنوات ، حيث وقعت فى شهر صــفر من السنة الرابعة (٢) ، وكذلك جاء فى كتاب « امتاع الاسماع » ان غزوة الرجيع كانت فى صفر على رأس ستة وثلاثين شــهرا ، وكذلك جاء فى « الاستيعاب » . وقيل انها كانت فى آخر سنة ثلاث ، وابن اسحاق يقول ان أميرها هو مرثد ، ولــكن ابن شهاب يقول ان أميرها هو عاصم بن ثابت (٣) .

وكانت السرية متجهــة الى مكة لمهاجمــة أعداء الله وأعداء الاسلام من المشركين ، وكان عدد المجاهدين قليلا كما سبق ــ سبعة أو ستة ــ وفى الطريق فاجأهم مائة من الاعداء ، وأحاطوا بهؤلاء السبعة الــكرام ، وحاولوا خديعتهم واغراءهم بالوعد بالابقاء على حياتهم اذا هم سلموا أنفسهم » وأكدوا لهم بذلك العهد والميثاق ، ولــكن مرثد بن كناز أدرك روح الغــدر والخيـــانة فى كلامهم ، فأبى أن يستسلم لهم ، وكيف يصــدق وعد لمشرك معتد مع مؤمن ، والقرآن المجيد يقول : « كيف يكون للمشركين عهد عنــد الله وعند رســوله الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما اســـتقاموا لــكم فاستقيموا لهم ، أن الله يحب المتقين ، كيف وان يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم الا ولا ذمة ، يرضــونكم بأفواههم

(١) معجم البلدان : ج ٣ ص ٢٩ . طبعة بيروت .
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٢ ص ٥٣٨ . ويذكر أن عددهم سبعة .
(٣) انظر امتاع الاسماع ج ١ ص ١٧٤ . والاســـتيعاب ، ج ٢ ص ٤١٠ .

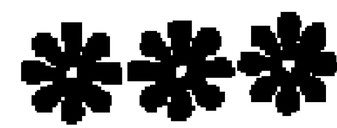
وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله انهم ساء ما كانوا يعملون ، لايرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون ، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون » ! ..

وكانت هناك معركة شرسة غير متعادلة ولا متكافئة ، وظل البطل مرثد يناضل ويناضل ، حتى سقط شهيدا فى ساحة المعركة (١) ، كما استشهد معه آخران : أحدهما هو البطل الاسلامى الجليل عاصم بن ثابت ، رضوان الله على الجميع .



وبجوار بطولة الشهيد المجيد مرثد بن كناز الغنوى فى ميدان الجهاد والاستشهاد ، كان راوية للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الاحاديث التى رواها قول النبى عليه الصلاة والسلام : « ان سركم أن تقبل منكم صلاتكم ، فليؤمكم خياركم — أو علماؤكم — فانهم وفدكم فيما بينكم وبين ربكم » (٢).

وهكذا يبين لنا الاسلام أن علو المكانة لا يستند الى نسب أو نشب ، وانما يستند الى العلم والعمل الصالح ، والى اليقين والتقوى : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .



هذا ولشاعر الاسلام حسان بن ثابت شعر رثى به شهداء سرية الرجيع ، وفيه يقول :

---

(١) الاصابة ج ٣ ص ٣٧٨ . والتهذيب ج ١٠ ص ٨٣ .
(٢) الاصابة ، ج ٣ ص ٣٧٨ .

صلى الاله على الذين تتابعوا
يوم الرجيع فأكرموا . وأثيبوا
راس السرية مرثد وأميرهم
وابن البكير امامهم وخبيب
وابن لطارق ، وابن دثنة منهم
وافاه ثم حمامه المكتوب
والعاصم المقتول عند رجوعهم
كسب المعالى ، انه لكسوب
منع المقادة أن ينالوا ظهره
حتى يجالد ، أنه لنجيب ! (١)

ومرثد هو صاحبنا وبطلنا : مرثد بن ابى مرثد كناز الغنوى . وابن البكير هو : خالد بن البكير الليثى ، وخبيب هو : خبيب بن عدى ، وابن لطارق هو : عبدالله ابن طارق ، وابن الدثنة هو : زيد بن الدثنة ، والعاصم هو : عاصم بن ثابت بن أبى الاقلح .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

(١) معجم البلدان ، ج ٣ ص ٢٩ . وهناك من ينكر نسبة هذه الابيات الى حسان ، انظر السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ١٣٤

الشهيد الحي

طلحة بن عبيد الله

حين تجتاز الامة مرحلة خطيرة من تاريخ نضالها مع أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر عن يمين وشمال، تتطلب الكثير من ألوان القوة والاستعداد ، ومن بين هذه الالوان : القدوة الطيبة الرائعة ، التى تجذب ببهائها ، ويهتدى بسناها ، وما أحوجنا الى أن نقلب صفحات تاريخنا المؤمن ، نتلمس منه مواطن القدوة ، ومشاهد الاسوة ، لعل الله جل جلاله يبعث الهامد ، ويحرك الجامد ، ويأخذ بالنواصي الى منهج الاوائل البطولى المؤمن ، ولن يصلح أمر هذه الامة فى حاضرها الا بما صلح به فى أولها : « فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » وهو سبحانه على كل شىء قدير .

وهذا مثل من السابقين يحتذى به ، ويرجع اليه:

انه الصحابى الجليل : أبو محمد طلحة بن عبيد الله ابن عثمان، رضى الله عنه ، الشهيد الحى ، الذى سبق فى التاريخ ، وشهد عصر النبوة الطاهر العاطر، وخلف من ورائه الذكر الحميد المأثور .

انه أحد الثمانية السابقين الى الاسلام فى أوله ، فكان أحد أفراد الطليعة المباركة التى كان الواحد منها يوزن بألف ، ومنذ عمر الايمان قلبه ظل وفيا لعهده ، ماضيا فى طريقه ، لا يغدر ولا يخون ، ولا ينحرف ولا يمين ،

حتى لقى ربه الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

انه أحد العشرة المبشرين بالجنة على لسان النبوة الصدوق الطهور ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، كما أخبرنا عمر الفاروق رضوان الله عليه .

ولقد أسلم طلحة على يد أبى بكر ، وهو ابن عمه ، وابو بكر هو الرجل المبارك السباق الى الخيرات عليه رضوان الله ، ولما ذهب طلحة مع ابى بكر ، ونطق بالشهادتين أمام الرسول عليه الصلاة والسلام ، وخرجا من عنده ، هاجمهما نوفل بن خويلد مع بعض أتباعه ، وكان طاغية متجبرا ، وله عصبيته القوية بين أهله ، حتى كان يقال له : « أسد قريش » ، وربطهما فى حبل واحد ، تعذيبا لهما من أجل اسلامهما .

ولذلك كان أبو بكر وطلحة يقال لهما : «القرينان» . واكرم بها من تسمية خلدت ذكرى احتمالهما العذاب والابتلاء فى سبيل الدعوة الى الله عز وجل .

ووقف طلحة بعد اسلامه الى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يهتدى بهديه ، ويأتمر بأمره ، ويستجيب لرغبته ، فكأنه الآلة الدائرة المسخرة المهياة المطواعة التى لا تتأبى على أى عمل من أعمال الطاعة أو الخير .

وجاء وقت الهجرة ، فنال طلحة شرف الهجرة من مكة الى المدينة ايمانا واحتسابا ، فكان من المهاجرين السابقين الاولين ، وآخى النبى بمكة قبل الهجرة بين طلحة والزبير بن العوام ، ثم آخى بالمدينة بينه وبين أبى أيوب الانصارى ، كما يقول السخاوى فى كتابه : « التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة » ، ويذكر النووى فى

كتابه : « تهذيب الاسماء واللغات » ان الرسول آخى بين طلحة وسعد بن ابى وقاص ، رضوان الله على الجميع .

ولمح الرسول عليه الصلاة والسلام مخايل الاخلاص والصدق واليقين فى طلحة ، فأخذ يختاره لجلائل المهمات ، وعظائم التبعات ، فكلفه مثلا مع سعيد بن زيد بأن يتابعا تحركات قافلة المشركين ، قبيل غزوة بدر ، فقاما بالمهمة خير قيام ، بلا غش ولا تزيد ولا خداع ، وحينما بدأت غزوة بدر كان طلحة غائبا فى عمل من أعمال الخير التى تعاون على تحقيق المنعة والقوة للمسلمين ، فلم يستطع شهود الغزوة ، ولكن الرسول قدر اخلاصه ووفاءه ، فجعله كمن شهدها ، وأعطاه منها سهمه ، وأخبره بأن له مثل ثواب أهلها .

ويا لها من مكانة سامية ، حين يبلغ المؤمن المخلص فى نضاله واخلاصه ما يجعله حاضرا وهو غائب .

ولقد روى عن الامام على رضى الله عنه ان أحد المجاهدين معه قال له بعد احدى المعارك : وددت أن أخى فلانا كان شاهدا ، ليرى ما نصرك الله به على أعدائك . فقال له الامام : أهوى أخيك معنا ؟ . فقال : نعم . قال الامام : فقد شهدنا .

وليس المهم هنا هو ان يأخذ طلحة مالا أو يحوز كسبا ، وانما المهم هو ما يدل عليه هذا التقدير النبوى من تشريف وتكريم ، فقد كان طلحة رجلا تاجرا ، وكان يكسب الكثير الطيب ، وكان يسهم بالجليل العظيم من مكاسبه فى نصرة الاسلام ، ومعاونة المجاهدين ، وتأييد معركة الحق والايمان ضد الباطل والكفران .

ثم شهد طلحة غزوة « أحد » وما بعدها من الغزوات والمشاهد ، وفى غزوة احد هذه ظهرت دلائل مؤكدة

لايمان طلحة ويقينه ، وصدقه فى الجهاد ، ورغبته فى الاستشـــهاد ، وكان أحد أربعة وصفتهم السيرة العاطرة بأنهم أبلوا بلاء حسنا فى غزوة أحد ، وهم : على بن أبى طالب سيف الله الغالب ، وحمزة بن عبد المطلب سيــد الشهــداء ، وأبو دجانة صاحب عصابة الموت ، وطلحة ابن عبيد الله الشهيد الحى .

وقاتل طلحة فى أول المعركة ما قاتل ، وحينما أقبلت ساعة الهول ، وتحول الانتصار الى انكسار ، ثبت طلحة الى جوار الرسول ، مع القلة التى ثبتت ، لم يفر، ولم يتراجع ، بل ظل يقــاوم ويدافع ، ويحرص مع قلة الصادقين الصابرين على حراسة النبى ، وصــد كل عدوان عنه .

وحينما سقط الرسول صلى الله عليه وسلم فى احدى الحفر ، والسيوف والرماح والنبال والسهام تتجاوب وتتراشق عن يمين وشمال ، ســارع طلحة واحتضن رســول الله ، وظل محتضـــنا له حتى خرج الرسول من الحفرة وعاد الى وقفتـــه الثابتـــة المناضـــلة ، وتعددت الاصـــابات فى جســـم النبى الـكريم ، برغم الجهد الـكبير الذى بذله مثل طلحة بن عبيــد الله ، وكان على الرســـول درعان ، وبه تعب ، فأراد ان يعتلى صخرة ، ليشرف من فوقها على سير المعركة ، ولكنه لم يستطع ان يعلوها ، فانحنى له طلحة ، وصــعد الرســـول فوق ظهره ، ثم ارتفع به طلحة شــــيئا فشــــيئا ، حتى بلغ الصخرة ، واســـتوى عليها ، وظل طلحة يناضــل ويقاوم .

وحينما رأى طلحة ضربة أثيمة موجهة الى رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ، ســـارع فوقى الرســـول

منها بيده ، فأصابها الشلل ، وقطعت احدى اصابعها ، وهنا قال سيد الخلق الناطق بالصدق :

« أوجب طلحة » أى فعل ما يوجب له الجنة عند ربه عز وجل .

وتكاثرت الجراح فى جسم طلحة يومئذ ، حتى أصابه بضع وسبعون ، ما بين ضربة بسيف ، وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، واجهده نزيف الدم من جسمه ، وحينما دنا ابوبكر وأبوعبيدة من الرسول ليعالجا ما أصاب وجهه الكريم من جراح ، أشار لهما الى طلحة ، وقال لهما : «عليكما بصاحبكما ، دونكم أخاكم » ..

وفى أعقاب المعركة أصيب طلحة باغماء من جراء اصابته الشديدة ، فصب أبوبكر الماء على وجهه فاستفاق ، وما كاد يسترد وعيه حتى قال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ..

فأجابه أبوبكر : انه بخير . ففرح طلحة وقال : الحمد لله كل مصيبة بعده جلل (أى قليلة) .

وهكذا يكون صدق الحب لرسول الله ، واخلاص الجهاد فى سبيل الله . ولذلك كان أبوبكر رضى الله عنه اذا جاء ذكر ليوم أحد يقول : « ذلك يوم كان كله لطلحة » .

***

ثم يقبل التكريم النبوى العظيم لهذا الحرص النبيل من طلحة على صدق الجهاد ، وهذا التعرض البطولى لمواطن الاستشهاد ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من سره أن ينظر الى شهيد يمشى على وجه الارض فلينظر الى طلحة بن عبيد الله » .

ولقد جرى العرف بيننا على ان نطلق كلمة «الشهيد الحي» على من تعرض لموقف التضحية بالنفس فى موطن من مواطن الجهاد والاستشهاد ، ولكن الاقدار أبقت حياته برغم تمنيه الشهادة ، وتطلبه ما عند الله عز وجل ، ولقد يخيل لبعضنا ان هذا تعبير طريف مستحدث ، ولكنه كما يبدو لنا الآن مقتبس من ضوء النبوة العظمى على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وهذه الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر رضوان الله عليهما تروى عن رسول الله انه قال : «طلحة ممن قضى نحبه وما بدلوا تبديلا» . أى من الشهداء ، لان النحب هو النذر ، وقضى فلان نحبه : أى أدى نذره ، وحقق وعده .

وتلك اشارة من الرسول عليه الصلاة والسلام الى قول الله جل جلاله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » .

ولنذكر جيدا ان هذه الآية جاءت عقب آية سابقة لها تقول : « ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم الا ايمانا وتسليما » .

وروت السنة النبوية أن أعرابيا سأل رسول الله عمن « قضى نحبه » وبعد قليل من السؤال أقبل طلحة ، فقال النبى : أين السائل عمن قضى نحبه ؟..

قال الاعرابى : انا يا رسول الله .

فأشار النبى الى طلحة وقال للسائل : هذا ممن قضى نحبه .

وكذلك قال عليه الصلاة والسلام : « طلحة والزبير

جاراى فى الجنة » . وأكرم بها من بشرى ، وأنعم به من جوار ينال به طلحة نعيم الخلود وشرف الابد ، حين يجاور فى الفردوس الاعلى امام الانبياء وسيد المرسلين ، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين .



وحينما تهيأ المسلمون لغزوة « تبوك » فى وقت عسرة وشدة وجدب وقحط ، ظهراللؤم اليهودى الخسيس، حيث اجتمع نفر من المنافقين فى دار « سويلم اليهودى» وكانت عند بئر يقال لها « جاسوم » .

وتآمر الاخساء ضد المسلمين ، وأخذوا يحرضون من يستجيب لهم على ترك الخروج مع الرسول للجهاد، فبعث النبى طلحة ومعه بعض المسلمين ، فأشعلوا النار فى وكر الفتنة وعش المؤامرة ، وهو بيت ذلك اليهودى الخائن ، فكان هذا العقاب التأديبى ردعا وزجرا لامثاله من سلالة القردة والخنازير .

وكان طلحة مع ذلك رجلا نقى القلب ، صافى النفس، يفرح للخير الذى يناله اى أخ له فى الاسلام ، ولذلك نراه يفرح حينما تاب الله تبارك وتعالى على كعب بن مالك ، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا فى غزوة تبوك ، وقد قص الله علينا قصتهم فى سورة التوبة .

وجاء كعب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب نزول قبول توبته من عند الله عز وجل ، فسارع طلحة الى كعب ، وحياه وهنأه بفضل الله عليه ، مما أثر فى نفس كعب حتى قال وهو يروى قصته : « والله ماقام الى رجل من المهاجرين غيره » . وكان كعب لاينسى لطلحة هذا الصنيع .

والى جوار هذا كان طلحة رجلا يحسن عمل الدنيا

ويتقنه ، ويكسب الكثير بجده وجهده ، وما كان يكسب ليكنز ويطفى ، بل كان يكسب وينفق ، ويتوسع فى الانفاق والبذل والتبرع ، وحسبنا ان نعلم انه قد تبرع بسبعمائة ألف درهم فى احدى الغزوات .

ولذلك استحق أن يسميه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه : « طلحة الخير » و « طلحة الجود » و « طلحة الفياض » ، تقديرا لكثرة ما قدم ، ولفخامة ما أعطى ، وعظم ما أنفق فى سبيل الله : « انما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيل الله ، اولئك هم الصادقون » .

ولقد قال قبيصة بن جابر : « صحبت طلحة بن عبيد الله ، فما رأيت رجلا أعطى لجزيل مال منه من غير سؤال » .

ومع الجهاد ، والاحتساب ، والاكتساب ، والانفاق ، كان طلحة حريصا على طلب العلم والتفقه فى الدين ، ولذلك روى الكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، سمعها ووعاها ، وحفظها وأداها . وقد أثبت البخارى ومسلم وغيرهما هذه الاحاديث .

وظل طلحة ثابتا على ايمانه ويقينه ، وجهاده واحسانه ، حتى مات شهيدا فى « معركة الجمل » سنة ست وثلاثين للهجرة ، ودفن فى مدينة البصرة ، رضوان الله تعالى عليه .

ولما رأى الامام على رضى الله عنه جثة طلحة بكى حتى اخضلت لحيته بدموعه ، ثم قال يخاطبه : انى أرجو أن أكون أنا وانت ممن قال الله فيهم : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين » .

هكذا رسم لنا أسلافنا المنهاج على طريق الحق والنضال ، فلم تكن بطولتهم قوة فى الابدان ، او براعة فى الطعان ، فحسب ، بل كانت بطولتهم قائمة على الايمان واليقين ، وعلى الكفاح والنضال ، وعلى أداء سائر الواجبات والاعمال ، وعلى العلم النافع ، والخلق النبيل ...

وسيرة طلحة انما هى نفحة من نفحات تاريخنا العظيم ، الملىء بمواطن القدوة ، ومواقف الاسوة ، فما أجدرنا بان نستلهم من ماضينا لحاضرنا ، وأن نمضي على طريق سلفنا ، فنؤمن كما آمنوا ، ونصدق كما صدقوا ، ونجاهد كما جاهدوا ، لنفوز كما فازوا.

« ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » .

المجاهد العملاق

مالك بن الحارث : الأشتر النخعي

اذا كان فقه الاسلام قد تحدث عن الزكاة التى شرعها الله فى المال ، صامتا كان أم ناطقا ، فان هذه الزكاة هى الزكاة الشرعية الفقهية المادية التى تعارف عليها جمهور المسلمين ، ولكن الاسلام بروحه ومبادئه قد دعا الى ألوان أخرى من الزكاة ، فحث مثلا على الشجاعة التى تعد عند أهل الوفاء والفداء زكاة للقلب المؤمن الموقن .

وحث على بذل العلم ، وهو زكاة العقل الزكي البصير .

وحث على الجهر بكلمة الحق المبينة البليغة ، وهى زكاة اللسان الصادق الطهور .

واذا اجتمعت للمسلم صفات العطاء والفداء ، والعلم والبيان ، فقد أكمل الله له جوانب الخير ، وأوسع عليه فى أبواب البر ، والله يختص برحمته ونعمته من يشاء ، وهو صاحب الفضل العظيم .

وهذا رجل من أعلام صدر الاسلام ، نراه يتألق ضمن الشجعان الاجواد العلماء الفصحاء ، الذين جاهدوا فى ميادين النضال والبذل ، كما جاهدوا فى مجالات العلم والقول : وهو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعى ، المعروف بالاشتر .

وقد توافرت له بسطة فى الجسم ، فكان طويلا عملاقا .

وتوافرت له بسطة فى العلم ، فكان فقيهـا خطيبـا شاعرا .

وتوافرت له كثرة فى المال ، فـكان كريما معطاء .

ثم كان بعد ذلك مجاهدا بطلا فاتحا ...

ولقد لقب بلقب « الاشتر » لانه اشـترك فى معركة اليرموك فى السنة الخامسة عشرة ، فذهبت عينه فيها، وانقلبت جفونه ، وانقلاب الجفون يسمى « الشتر » فى لغة العرب .

وبجوار ذلك كان الاشتر يلقب بلقب « الافعى» (١) لعمق خبرته وسـعة حيلتـه فى الحرب ، ولذلك كان يردد قوله :

انى أنا الاشتر ، معروف الشتر
انى أنا الافعى العـراقى الذكر

وكان ماهرا فى ضربة السيف السريعة الخاطفـة ، ولذلك كانوا يسـمون سيفه « اللج » أى بريق المـاء الجارى ، وطالمـا ضرب الاشتر أعداءه بسيفه الضربات المتوالية المتلاحقة .

وكان يقول اذا تـكاثر عليه أعداؤه فى القتـال : « الغمرات ثم ينجلينا » (٢) . والغمرات هى الشـدائد والمتاعب التى تغمر الانسان وتحيط به . أى انى أصبر فى الشـدائد وأتحملها ، لانها ستنجلى وتذهب ، ويبقى بعد ذلك : العمل المجيد والذكر الحميد للرجال الابطال .

وكان الاشتر النخعى رجلا لا يقيم كبير ميزان للبقاء فى الحيـاة الدنيـا ، ولا يحرص على طول الاقامة فيهـا ، ما دام ينـال رضـا ربه ورضـوانه ، وكان

---

(١) أنظر مروج الذهب ، ج ٤ ص ٣٥٧ .

(٢) قيل ان العبارة للاغلب العجلى . أنظر مجمع الامثال للميدانى

لايهاب الموت ولا يخشى المنيـة ، بل كان يرجو ربه أن ينيله نعمة الشهادة فى سبيله ، وفى ميدان نضاله ضد أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المسلمين ، فكان يردد قوله :

يارب ، قيض لى سـيوف الـكفره
واجعـل وفاتى بأكف الفجـره
فالقتـل خير من ثيـاب الحبره
لا تعـدل الدنيـا جميعـا وبره
ولا بعوضـا ، فى ثواب البروه ! (١)

ولقد كان الامام على بن أبى طالب ــ رضى الله عنـه وأرضاه ، وكرم الله وجهـه وأعلاه ــ يعجب بالاشـتر النخعى ، ويقدر بطولتـه وشجاعته ، حتى قال الامام لاصحابه : « ليت فيكم مثله اثنين ، بل ليت فيكم مثله واحداً » (٢) .

ولذلك قال بعض الشيعة : « لله أم قامت عن الاشتر، لو أن انسانا يقسم ان الله تعالى ما خلق فى العرب ولا فى العجم اشجع منه الا أستاذه (عليا) عليه السلام لما خشيت عليه الاثم » (٣) .

---

(١) شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ص ٨٤٠ . وفى كتاب « وقعة صفين » ، صفحة ٤٨٨ جاءت الابيات هكذا :

فى كل يوم هامتى مقيره — بالضرب أبغى منة مؤخره
والدرع خير من برود حبره — يارب جنبنى سبيل الكفره
واجعل وفاتى بأكف الفجره — لاتعدل الدنيا جميعا وبره

ولا بعوضا فى ثواب البروه

(٢) شرح نهج البلاغة ، ج ١ ص ٤٤١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٤

وحينما ولى الامام على الاشتر النخعى على مصر ، كتب الى أهلها كتابا يصف فيه الاشتر وصفا مجيدا ، وفى هـذا الـكتاب يقول الامام :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبـــد الله أمير المؤمنين ، الى أمه المسلمين الذين غضبوا لله حين عصى فى الارض ، وضرب الجور بأرواقه على البر والفاجر ، فلا حق يستراح اليه ، ولا منكر يتناهى عنه .

سلام عليكم ، فانى أحمـد اليكم الله الذى لا اله الا هو . أما بعد فقـد بعثت اليكم عبدا من عبيد الله ، لاينـام أمام الخوف ، ولا ينـكل عن الاعادى حـذار الدوائر ، أشـد على الـكفار من حريق النـار ، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فانه سيف من سيوف الله ، لا نابى الضريبة ، ولا كليل الحد ، فان أمركم أن تقدموا فأقدموا ، وان أمركم ان تنفروا فانفروا ، فانه لا يقدم ولا يحجم الا بأمرى ، وقد آثرتكم به على نفسى ، لنصحه لـكم ، وشـدة شكيمته على عدوكم ، عصمكم الله بالهدى ، وثبتكم على اليقين ، والسلام » (١) .

ووصـفه الامام فى رسالة أخرى بقوله : « فانه ممن لايخاف رهقه ولا سـقاطه ولا بطؤه عما الاسراع اليه أحزم ، ولا الاسراع الى ما الابطاء عنه أمثل » (٢) .

والتاريخ يحدثنا بأن الاشتر كان من أخلص النـاس للامام على ، وكان أحد القادة لجيوشه ، وقد حارب معه طويلا ضد الروم ، على الحدود الشمالية لبـلاد

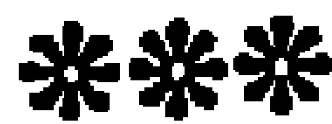
---

(١) تاريخ الطبرى ، ج ٥ ص ٩٦ . وشرح نهج البلاغة ، ج ٢ ص ٢١٣ . وفى ص ٣٣١ رواية أوسع لهذا الكتاب .
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ص ٥٦٧ .

الشام ، واظهر الاشتر خبرة وبراعة فى الحرب ، وقيادة الجيش ، وقد اهتدى الاشتر الى طريقة اقامة الجسور العائمة فوق الانهار لنقل الجيوش والعتاد ، ومن أمثلة ذلك انه طلب من أهل مدينة «الرقة» أن يتكاتفوا لاقامة جسر من الزوارق فوق نهر الفرات ، لينقل عليه جنود الجيش المناضل المؤمن (١) .

وكان الامام على يوجه الاشتر ويوصيه فى شئون القتال والنضال ، كان يقول له : « واياك ان تبدأ القوم بقتال الا أن يبدءوك ، حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع ، ولايجرمنك شنآنهم (٢) على قتالهم قبل دعائهم ، والاعذار اليهم مرة بعد أخرى » . (٣)

وفوق خبرة الاشتر ومخادعته فى الحرب ومراوغته للأعداء ، كان فى بعض المواقف يعرض نفسه للمهالك ، ويخاطر بها مواجهة ، ومن أمثلة ذلك انه قاد جمعا من طلائع المجاهدين ، وقد تعمم معهم بعمائم خضر ، ثم تعاهدوا فيما بينهم أن يقاتلوا حتى ينتصروا أو يموتوا شهداء ، وأراد الله لهم البقاء ، فغلبوا وعادوا بحميد الاجر ورائع الثناء . وكذلك كان الاشتر يعلم أهله دروس الوفاء والفداء ، ولذلك كان يشرك ابنه ابراهيم معه فى المعارك ، ويحثه على الاقدام والتضحية .



ومما يتألق تألق الشمس فى سيرة الاشتر النخعى ذلك العهد العلوى الذى وجهه اليه الامام أمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو أطول عهد كتبه

---

(١) دائرة المعارف ، ج ٣ ص ٤١١ .
(٢) ولايجرمنك شنآنهم : لايحملنك بغضك لهم .
(٣) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ص ص ٥٦٧ .

الامام ، واجمعه للمحاسن (١) ، وفى فاتحة هـــذه الوصية الجليلة يقول الامام للأشتر حين ولاه على مصر وأعمالها :

« هـذا ما أمر به عبد الله على أمير المؤمنين : مالك ابن الحارث الاشتر ، فى عهده اليه ، حين ولاه مصر : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصـلاح أهلها ، وعمارة بلادها .

أمره بتقوى الله ، وايثار طاعته ، واتباع ما أمر به فى كتابه ، من فرائضه وسننه التى لا يسعد أحد الا باتباعها ، ولا يشقى الا مع جحودها واضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه ، فانه ـ جل اسمه ـ قد تكفل بنصر من نصره ، واعزاز من أعزه .

وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات ، وينزعها عند الجمحات ، فان النفس أمارة بالسوء ، الا ما رحم الله » .

وفى أثنـاء هـذا العهـد الطويل الجليل يقول الامام على للأشتر النخعى :

« فالجنود باذن الله حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعز الدين ، وسبيل الامن ، وليس تقوم الرعية الا بهم ، ثم لا قوام للجنود الا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقوون به على جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم » .

ثم يختم هذا العهد بقوله :

« وأنا أسأل الله ـ بسعة رحمته ، وعظيم قدرته على

---

(١) اورد ابن أبى الحديد هـذا العهد بأكمله فى شرحه « نهج البلاغة » وعلق عليـه تعليقا طويلا ، انظر الجزء الخـامس ص ٢٣ – ٩٤

اعطاء كل رغبة ـ أن يوفقني واياك لما فيه رضاه ، من الاقامة على العذر الواضح اليه والى خلقه ، من حسن الثناء فى العباد ، وجميل الاثر فى البلاد ، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة ، وان يختم لى ولك بالسعادة والشهادة ، انا اليه راغبون ، والسلام على رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين » .

ولذلك لم يكن عجيبا أن نرى الاشتر النخعى يحب قائده ورائده الامام عليا حبا شديدا ، ويعرف له قدره ويمجد ذكره ، ولقد وقف الاشتر يوم « ذى قار» (١) بين يدى أمير المؤمنين على فقال فيما قال :

« الحمد لله الذى من علينا فأفضل ، واحسن الينا فأجمل . وقد سمعنا كلامك يا أمير المؤمنين ، ولقد أصبت ووفقت ، وأنت ابن عم نبينا وصهره ، ووصيه وأول مصدق به ، ومصل معه .

شهدت مشاهده كلها ، فكان لك الفضل فيها على جميع الامة ، فمن اتبعك أصاب حظه ، واستبشر بفلجه (٢) ، ومن عصاك ورغب عنك فالى أمه الهاوية»

***

والى جوار بطولة الاشتر ، وبذله فى ميادين القتال والنضال ، كان جوادا معطاء ، يبذل من ذات يده الكثير الغزير ، وكان جريئا فى مقاومة المآثم والمظالم التى يرتكبها الآثمون الظالمون من الحاكمين .

فهو يعترض عليهم ، ويقف فى طريقهم ، ويندد بسيئاتهم ، اذا لم يستمعوا ولم يرتدعوا . وكان رجلا

(١) ذو قار : موضع قريب من البصرة ، وهو المكان الذي كانت فيه الحرب بين العرب والفرس
(٢) الفلج : الفوز والظفر .

يغار على حقوق الناس ، ويدعو الى سيادة العدل والحق بينهم ، ويقاوم الاستبداد والاحتكار .

ولقد حاول بعض الحاكمين أن يستغل أرض السواد بالكوفة لصالح قبيلته قريش قائلا : انما هذا السواد بستان لقريش .

فأنكر عليه الاشتر هذا الادعاء ، وقال له : أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا الا أن يكون كأحدنا (١) .

وكان الاشتر يردد قوله داعيا ربه :

« اللهم ، أسوأنا نظرا للرعية ، وأعملنا فيهم بالمعصية ، فعجل له بالنقمة » (٢) .

والى جوار بطولته فى الميدان ، واعطائه للمال ، وحرصه على خير الناس واصلاح المجتمع، كان حريصا على العلم يطلبه كلما تيسر له ، وعلى التفقه فى الدين كلما وجد الى ذلك سبيلا .

وكان صاحب شعر جيد وخطابة بليغة ، وتجلت بلاغته أحسن ما تجلت فى خطبه وكلماته التى كان يحث فيها زملاءه وجنوده على صدق الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد .

وقف الاشتر يخطب الناس فى « قناصرين » فكان مما قاله :

« الحمد لله الذى خلق السموات العلى : الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الارض

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٢٣ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٤ ص ٣٢٦ .

وما بينهما وما تحت الثرى . احمده على حسن البلاء ، وتظاهر النعماء ، حمدا كثيرا ، بكرة وأصيلا ، من هداه الله فقد اهتدى ، ومن يضلل فقد غوى . ارسل محمدا بالصواب والهدى ، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وسلم .

ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدر ، أن ساقتنا المقادير الى أهل هذه البلدة من الارض ، فلفت بيننا وبين عدو الله وعدونا ، فنحن بحمد الله ونعمه ، ومنه وفضله ، قريرة أعيننا ، طيبة نفوسنا ، نرجو بقتالهم حسن الثواب ، والامن من العقاب . معنا ابن عم نبينا ، وسيف من سيوف الله على بن أبى طالب ، صلى مع رسول الله ، لم يسبقه الى الصلاة ذكر حتى كان شيخا ، لم تكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة ولا سقطة ، فقيه فى دين الله تعالى ، عالم بحدود الله ، ذو راى أصيل ، وصبر جميل ، وعفاف قديم .

فاتقوا الله ، وعليكم بالحزم والجد » .

وفى موقف آخر يقول :

« . . . فطيبوا عباد الله نفسا بدمائكم دون دينكم ، فان الفرار فيه سلب العز ، والغلبة على الفيء ، وذل المحيا والممات ، وعار الدنيا والآخرة ، وسخط الله وأليم عقابه » .

ومن مواقفه المذكورة انه دعا بالحارث بن همام النخعى ، فأعطاه لواءه ، وقال له :

يا حارث ، لولا أعلم انك تصبر عند الموت ، لاخذت لوائى منك ، ولم احبك بكرامتى .

فقال : والله يا مالك لاسرنك أو لاموتن ، فاتبعني .

ثم تقدم باللواء ، وارتجز فقال :

يا أخا الخيرات ، يا خير النخع
وصاحب النصر اذا عم الفزع
وكاشف الخطب اذا الامر وقع
ما انت فى الحرب العوان بالجذع (١)
قد جزع القوم وعموا بالجزع
وجرعوا الغيظ ، وغصوا بالجرع
ان تسقنا الماء فليست بالبدع
أو نعطش اليوم فجند مقتطع
ما شئت خذ منها ، وما شئت فدع

فقال له الاشتر :

ادن منى يا حارث .

فدنا منه ، فقبل رأسه ، وقال :

لا يتبع رأسه اليوم الا خير ...

ثم صاح الاشتر فى أصحابه قائلا :

فدتكم نفسى ، شدوا شدة المحرج الراجى للفرج، فاذا نالتكم الرماح فالتووا فيها ، فاذا عضتكم السيوف فليعض الرجل على نواجذه ، فانه أشد لشئون الرأس (٢) ، ثم استقبلوا القوم بهامكم (٣) .

وهذا المجاهد المقاتل المناضل ، الذى كان يطيح برءوس أعدائه فى الحرب ذات اليمين وذات الشمال وكان يخافه الناس فى الميدان ، ويفرون من لقائه ،

(١) الحرب العوان : التى قوتل فيها مرة بعد مرة . والجذع : الصغير السن .
(٢) الشئون هنا : جمع شأن ، وهو موصل قبائل الرأس . والهام : جمع هامة وهو الرأس .
(٣) شرح ابن ابى الحديد ، ج ١ ص ٧٢٦ .

نراه انسانا رقيق العاطفة نبيل الشعور سريع التأثر بالكلمة البليغة ، فيستجيب لرجائها ، ويكون عند ظن قائلها .

لقد كلف الامام على بن طالب الاشتر النخعى بمقاتلة رجل يقال له : الاصبغ بن ضرار الازدى ، واستطاع الاشتر ان يأسره بغير قتال ، وجاء به ليلا فشده وثأقا ، وتركه حتى الصباح ، وكان الاصبغ شاعرا مفوها ، فأيقن انه مقتول ، فرفع صوته حتى يسمعه الاشتر ، فقال :

الا ليت هذا الليل أصبح سرمدا
على الناس لا يأتيهم بنهار
يكون كذا حتى القيامة ، انني
أحاذر فى الاصباح يوم بوارى
فياليل أطبق ، ان فى الليل راحة
وفى الصبح قتلى ، أو فكاك اسارى
ولو كنت تحت الارض ستين واديا
لما رد عنى ما أخاف حذارى

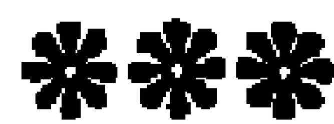
فيا نفس مهلا ، ان للموت غاية
فصبرا على ماناب يا ابن ضرار
أ أخشى ولى فى القوم رحم قريبة
ابى الله أن أخشى و « مالك » جارى
ولو انه كان الاسير ببلدة
اطاع بها ، شمرت ذيل ازارى
ولو كنت جار الاشعث الخير فكنى
وقل من الامر المخوف فرارى
وجار سعيد ، أوعدى بن حاتم
وجار شريح الخير ، قر قرارى

وجار المرادى الــــكريم ، وهانىء
وزحر بن قيس ، ما كرهت نهــــارى
ولو أننى كنت الاســـيرلبعضـــهم
دعوت فتى منهم ففك اســــارى
أولئك قومى لا عـــــدمت حيـــاتهم
وعفوهم عنى ، وســــــتر عوارى

فتأثر الاشتر بأبيـــاته ، وذهب الى الامام على وقال له :

يا أمير المؤمنين ان هذا رجل أصبته أمس ، وبات عندنا الليل ، فحركنا بشعره ، فان ساغ لك العفو عنه فهبه لنا .

فقال الامام على : هو لك يا مالك ! ..



ولما كان أهل الباطل لا يطيقون الصبر على ضــياء الحق ، فان المفسدين فى الارض يقفون لأهل النضــال بالمرصاد . وكذلك كان الامر مع البطل الفاتح : مالك ابن الحارث الاشتر النخعى ، فان الامام عليا ولاه على مصر ، فترصد له الاعداء فى طريقه ، ودسوا عليه رجلا خائنا يسمى « الجايستار » من أهل الـكتاب ، فخدع الاشتر ، وقدم اليه شربة من عسل وضع فيها سما ، وهو يتظــاهر بخدمة الاشتر واكرامه ، فمات الاشتر مسموما بها رضوان الله تبارك وتعالى عليه (١) .

وروى من بعض الوجوه ان الاشتر قتل بمصر بعــد قتال شــديد ، ولــكن الصحيح انه مات مسموما قبل

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٠٤ .

أن يبلغ مصر (١) .

ولما علم الامام على بمصرع الاشتر قال : « انا لله وانا اليه راجعون ، والحمد لله رب العالمين ، اللهم انى أحتسبه عندك ، فان موته من مصائب الدهر ، رحم الله مالكا ، فلقد وفى بعهده ، وقضى نحبه ، ولقى ربه، مع اننا قد وطنا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانها من أعظم المصيبات » (٢) .

ثم كتب الامام على رسالة الى محمد بن أبى بكر ، وفيها يقول عن الاشتر يرثيه :

« ... الا ان الرجل الذى وليته مصر ، كان رجلا لنا مناصحا ، وهو على عدونا شديد ، فرحمة الله عليه ، فقد استكمل أيامه ، ولاقى حمامه ، ونحن عنه راضون ، فرضى الله عنه ، وضاعف له الثواب ، وأحسن له المآب » (٣) .

وكانت وفاة الاشتر سنة سبع وثلاثين للهجرة ، أو سنة ثمان وثلاثين ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

ما أحوج الامة المؤمنة الى أن تتعلم روائع الدروس من أمثال تلك النفوس ، لتؤدى زكاة نفوسها بالجهاد، وزكاة أيديها بالمال ، وزكاة عقولها بنشر العلم، وزكاة قلوبها بتوطيد الايمان فيها مع ذكر الله : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، الا بذكر الله تطمئن القلوب».

(١) شرح ابن أبى الحديد ، ج ٢ ص ٢١٢ . وقد جاء فى كتاب « العبر » للذهبى عن الاشتر : « يقال انه سم ، وكان الاشتر من الابطال الكبار ، وهو سيد قومه وخطيبهم وفارسهم » ج ١ ص ٤٥ .

(٢) شرح ابن أبى الحديد ، ج ٢ ص ٢١٢ .

(٣) المرجع السابق ، ص٢١٤ . وانظر تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٩٧ .

المناضل المعمّر
أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني

من حقائق الاسلام البديهية ان الله تبارك وتعالى جعل الدنيا دار عمل ولا حساب فيها ، وجعل الآخرة دار حساب ولا عمل فيها ، وذلك ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويفرق بين الصالح والطالح ، ويرتب على ذلك ـ بعدله وفضله ـ أمر الثواب والعقاب ، ومن هنا قال الحق سبحانه فى سورة التوبة : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

ولقد علم الاسلام أتباعه ان الثبات على المبدأ ، والدوام على الصراط ، والاستمرار فى الطاعة ، هو شعار الذين رضى عنهم ربهم ، وتقبل منهم ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحب الاعمال الى الله تعالى أدومها وان قل » . وقال : « خيركم من طال عمره وحسن عمله ، وشركم من طال عمره وساء عمله » .

واذا كنا نرى فى تاريخ صدر الاسلام شبابا أفضوا الى ربهم مجاهدين مخلصين ، وهم فى ربيع العمر وضحوة الحياة ، فاننا نرى من ورائهم كذلك شيوخا امتدت بهم أعمارهم ، وتواصلت منهم أعمالهم الصالحة، فما انحرفوا ، ولا اعتسفوا ، وما بدلوا تبديلا .

وهـذا واحد منهم ، يبلغ المائة أو يزيد ، ومع ذلك يظل تقيا وفيـا ، حتى يلقى ربه على خير ما استطاع من طاعة ونضال : انه الصحابى الجليل ، أبو الطفيل عامر بن واثلة بن عبد الله بن عمرو الليثى الـكنانى ، الذى ولد يوم غزوة أحد ، وكأن هـذا كان رمزا الى ما ينتظره من حيـاة الـكفاح والنضال ، فهو قد ولد على صوت قعقعة السلاح وضربات السيوف وطعنـات الرماح .

وكان أبوالطفيل رضىالله عنه شاعر قبيلته «كنانة» ، ويقول ابن عبد البر فى « الاستيعاب » انه كان شـاعرا محسنا (١) ، وكان فارس قبيلته ، ومن ذوى السيادة فيها . ولقد رأى أبو الطفيل النبى عليه الصـــلاة والسلام وهو فتى يافع ، وأدرك من حياة النبى ثمانى سنوات ، وروى عنه جملة أحاديث ، وكان آخر من مات من الصحابة (٢) .

وكان صحابيا عاقلا فاضلا حاضر الجواب ، ومن كلماته الرائعة : « ان لنا دينا لا يميل به الهوى ، ويقينا لاتزحمه الشبهة » (٣) . وأنعم بها من كلمة تدلنـا على ان المسلمين الاصحاء لايجعلون دينهم خاضعا لهواهم ، يقبلون عليه حينما يشاءون ، ويعرضـــون عنه حينما يشاءون ، ويظهرون الاعتــــزاز به حينما يريدون ، ويستخفون بشأنه حينما يريدون ، بل أن لهم يقينـا وطيدا لا تختلط به شبهة ، ولا تعرض له ريبـة ، ولا يزعزعه تردد .

---

(١) الاستيعاب على هامش الاصابه ، ج ٤ ص ١١٧ .
(٢) الاصابة ، ج ٤ ص ١١٣ . والاستيعاب ج ٤ ص ١١٦ .
(٣) شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ص ٢٥٢ .

وكان أبو الطفيل موصول الجهاد ، وكان يحث قبيلته « كنانة » على الجهاد فى سبيل الله : سبيل الحق والعدل والعزة ، ويقول لها : « طاعنوا وضاربوا » ، ثم يحمل لها لواءها ، ويتقدم صفها ، ويجاهد أمامها ، وهو يردد لها نشيد الوفاء والفداء ، مثل قوله :

قد ضاربت فى حربها كنانه
والله يجزيها به جنانه
من أفرغ الصبر عليه زانه
أو غلب الجبن عليه شانه
أو كفر الله فقد أهانه
غدا يعض من عصى بنانه

وكان هذا الشعر سببا فى تحريض آخرين من المناضلين قادوا وجاهدوا وأنشدوا ، فهذا هو عمير بن عطارد يقود جماعة من تميم — مع أبى الطفيل — ويقول: يا قوم ، انى أتبع آثار أبى الطفيل ، فاتبعوا آثار كنانة ، ثم يتقدم برايته ، ويرتجز فيقول :

قد ضاربت فى حربها تميم
ان تميما خطبها عظيم
لها حديث ، ولها قديم
ان الكريم نسله كريم
دين قويم ، وهوى سليم
ان لم تردهم رايتى فلوموا

وهذا هو قبيصة بن جابر الاسدى يأتى بعد عامر وعمير ، يقود جماعة من بنى أسد ، ويقول لاصحابه : يا بنى أسد ، أما أنا فلا أقصر دون صاحبى ، وأما أنتم فذاك اليكم . ثم يتقدم برايته ويقول :

قد حافظت فى حربها بنو أســــــد
ما مثلهـــــا تحت العجاج من أحــد
أقرب من يمن ، وأنأى من نــــكد
كأننـــــــا ركنا ثبير أو أحـــــــد
لسنا بأوباش بيض البــــــــلد
لــــــــكننا المحة من ولد معد (١)

ويندفع رفقاء الجهـــاد والجلاد نحو الاعداء حتى ينتصفوا منهم ، ويوسعوا فيهم طعنا وضربا ، ويصور أبو الطفيل ذلك بشعره الحماسى المثير فيقول مقــدرا جهود القبائل المتلاقية على احتمال البلاء وصدق الفداء :

حامت كنــــــانة فى حربهــــــا
وحامت تميم ، وحامت أســــــد
وحامت هوازن يوم اللقـــــــــا
فما خام (٢) منـــا ومنهم أحــــــد
لقينـــــــا الفوارس يوم الخميس
والعيـــــد والســـبت ثم الاحــد
لقينـــــا قبــــــائل أنســـــابهم
الى حضرموت وأهـــل الجنـــد (٣)
فأمدادهم خــــــــــــلف آذانهم
وليس لنـــــا من ســــــوانا مدد
فلمـــــا تنـــــــادوا بآبائهم
دعونا معــــــدا ، ونعم المعـــد
فظلنـــــــــــــا نفلق هاماتهم

---

(١) المحة : الشيء الخالص . (٢) خام : جبن ونكص .
(٣) الجند : احدى الولايات بأرض اليمن .

ولم نك فيهـــا ببيض البـــلد (١)
ونعم الفوارس يوم اللقـــــــــاء
فقـــل فى عديد ، وقـــل فى عدد
وقل فى طعـــــان كفرغ الدلاء
وضرب عظيم كنـــار الوقـــد (٢)
ولـــكن عصـــفنا بهم عصـــفة
وفى الحرب يمن ، وفيهـــا نــكد
طحنـــا الفوارس وســـط العجاج
وسقنا الزعانف ســـوق النقد (٣)

ولقد كان أبو الطفيل يحب الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ويشايعه ويناصره ، حتى يقول فيه :

وقلنا على لنا والد ونحن له طاعة كالولد

ومع ذلك كان يحفظ حرمة الباقين من خلفاء الرسول الراشـــدين ، ويعرف لهم قدرهم وكرامتهم . كان يثنى على أبى بكر وعمر، ويترحم على عثمان ، رضوان الله على الجميع ، وكان لايرتضى تصدعا ، ولا تفرقا بين أبناء الامة المؤمنة الموحدة . وكان يجاهـد مع الامام على ، وشـــهد معه حروبه كلها (٤) ، فلما قال الامام نعمة الشهادة حزن عليه أبو الطفيـل حزنا شـديدا ، حتى يروى التاريخ ان معاوية بن أبى سفيان أراد أن يعرف مبلغ حزن أبى الطفيل على الامام الشـــهيد ،

---

(١) بيض البلد : بيض النعام ، يقال : هو أذل من بيضة البلد .
(٢) الفرغ — بفتحتين — جمع فراغ وهو مصب الدلو ، وسكنت الراء لضرورة الشعر والوقد هو الحطب .
(٣) الزعانف : الجماعات . والنقد : الغنم . وانظر شرح نهج البلاغة ، ج ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٤ . (٤) البداية والنهاية ، ج ٩ ص ١٩٠ .

فاستدعاه اليه وسأله :
كيف وجدك على خليلك أبى الحسن ؟
فأجابه أبوالطفيل : كوجد أم موسى على موسى (١) ، وأشكو الى الله التقصير .
وفى رواية ان معاوية قال له : ما أبقى لك الدهر من ثكلك عليا ؟
فاجابه : ثكل العجوز المقلات والشيخ الرقوب (٢) .
قال معاوية : كيف حبك له ؟
فأجابه : حب أم موسى لموسى ، والىالله أشكوالتقصير
وكان لابى الطفيل ولد يسمى « الطفيل » . والولد سر ابيه ، وقدنشأ هذا الولد فىاسرة مسلمة تعرفالايمان والاحسان ، وتعرف الدين الذى لا يميل به الهوى ، واليقين الذى لا تزحمه الشبهة ، ولذلك نشأ «الطفيل» وهو يعرف طريق الكفاح والنضال ، وشاء الله له أن ينال نعمة الشهادة فى « معركة الزاوية » سنة ثنتين وثمانين للهجرة ، ومعنى هذا انه قد سقط شهيدا وأبو الطفيل فى نحو الثمانين من عمره ، لانه ولد كما عرفنا يوم غزوة أحد ، فى السنة الثالثة للهجرة .
ومع ذلك لم يجزع أبو الطفيل ولم يقنط ، بل احتسب ابنه عند ربه ، وتذكر قول بارئه : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله ، وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات

(١) يقول القران فى سورة القصص : « واصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين »
(٢) المقلات : المرأة التى لا يعيش لها ولد . والرقوب : الرجل الذى لا يبقى له ولد .

من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » .

وقد رثى أبو الطفيل ولده بأبيات رائعة منها قوله :

خلى طفيـــل على الهم فانشعبا
وهـــد ذلك ركنى هـــدة عجبا
وأخطـأتنى المنـــايا لا تطـــالعنى
حتى كبرت ، ولم يتركن لى نشـبا
وكنت بعـد طفيـــل كالتى نضبت
عنه الميـاه ، وفاض المـاء فانقضبا
فاملك عـــزاءك ان رزء بليت به
فلن يرد بكاء المرء ما ذهبـــا
وليس يشـــفى حزينـــا من تذكره
حر البـكاء اذا ما ناح وانتحبـــا
فان سلـــكت سـبيلا كنت سالـكها
فلا محـــالة أن يأتى الذى كتبـــا

والى جوار بطولة أبى الطفيـل وشجاعته روى من رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفـة من الاحاديث ، كما روى عن أبى بكر وعمر وعلى وحذيفة وابن مسعود وابن‌عباس وزيد بن أرقم وغيرهم ، وروى‌عنه‌كثيرون (١)

ومما يدل على حضـور بديهته وقوة حجته وسرعة اجابته أن معاوية استدعاه وهو فى الحكم وحاوره ليحرجه فقال له : « يا أبا الطفيل ، أكنت فيمن‌حاصرعثمان؟»

فأجابه أبو الطفيل قائلا : لا، ولكنى‌كنت فيمن‌حضره.

فقال معاوية : فما منعك من نصره ؟

فأجابه : وأنت فما منعك من نصره ، اذ تربصت به

---

(١) الاصابة ، ج ٤ ص ١١٣ .

ريب المنون ، وكنت مع أهل الشام ، وكلهم تابع لك فيما تريد ؟

فحاول معاوية أن يتنصل من التبعة ومن مواجهة السؤال ، فقال لابى الطفيل : أو ما ترى طلبى لدمه نصرة له ؟ .. فقال أبو الطفيل : بلى ، ولكن كما قال الشاعر :

لا ألفينك بعد الموت تندبنى
وفى حياتى ما زودتنى زادا

ولقد حاول بعض حكام الامويين أن يكسبوا أبا الطفيل الى جانبهم ، ولكن هيهات ، فقد كانت مأساة استشهاد الحسين بن علي ـ رضوان الله عليهما ـ جريمة كبرى لا تغتفر فى تاريخ هؤلاء . ولذلك نرى أبا الطفيل يخرج ليطالب بثأر أبى الشهداء ، الذى ضرب أروع الامثال فى الثبات على المبدأ ، والجهاد فى سبيل الحق ، ومقاومة الفساد والجور .

وعانى أبو الطفيل فى حياته كثيرا من الاهوال والمخاطر ، مما عجل ببياض الشيب الى رأسه ، وحينما حسب بعض الناس ان هذا الشيب بسبب تقدم السن عند أبى الطفيل ، صحح لهم فهمهم قائلا :

وما شاب رأسى من سنين تتابعت
على ، ولكن شيبتنى الوقائع

وامتد العمر بأبى الطفيل ثم امتد ، وأدرك عهد خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، فأحس عامر أن نسمة من نسمات الخير تهب على المجتمع فى عهد هذا الخليفة الصالح ، فتمنى من هذا الخير المزيد .

وكأن السنين التى قاربت المائة من عمره قد اثقلته ،

وكأنه رأى نفسه بحاجة الى أن يزداد تعبدا وتقربا من الله ، فاتجه الى مكة حيث أول بيت وضـع للناس ، وهناك جاور حول بيت الله تبارك وتعالى .

واخذ الموت يختطف الباقين من صحابة رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ واحدا بعد الآخر، حتى لم يبق على ظهر الارض من هؤلاء الصحابة الاجلاء سوى البطل المجاهد أبى الطفيل عامر بن واثلة الـكنانى .

ولذلك كان يقول فى أواخر أيامه : « ما على وجـه الارض رجـل اليوم رأى النبى صلى الله عليه وسـلم غيرى » . وقال أيضا : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ولم يبق على وجه الارض أحد رآه غيرى » (١) . وقال كذلك : « ما بقى على وجه الارض عين تطرف ممن رأى النبى صلى الله عليه وسلم غيرى » (٢) .

وكأنه كان حينئـــذ يستعرض بتذكره ذلك التاريخ الطويل الجليل الحافل بالمواقف والاعمال : تذكر كيف خرج الى الدنيا ومعركة أحد تدور رحاها. وكيف رأى النبى واستجاب له ، وكيف روى عنه ، وكيف جاهد وكافح ، ومضت عليه كل هذه السنين بسرائها وضرائها.

وانتقل أبو الطفيـــل الى عالم البقاء سنة مائة من الهجرة ، أو بعد ذلك بسنوات (٣) ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

---

(١) الاستيعاب ، ج ٤ ص ١١٦ .

(٢) يقول التاريخ : ان أبا الطفيل هو آخر من عاش من الصـحابة بالاجماع « انظر البداية والنهاية ج ٩ ص ١٩٠ وكتاب العبر ، ج ١ ص ١١٨ . وتاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ١٨٠ » .

(٣) قيل : سنة مائة ، أو سنة مائة واثنتين ، أو مائة وسبع ، أو مائة وعشر (انظر الاصابة ، ج ٤ ص ١١٣) .

الناسك الشهيد

هرم بن حيان

خلق الله تبارك وتعالى الخلق ، وأجرى بين أيديهم الرزق ، ولم يكن ذلك لهوا ولا باطلا ، لان القرآن المجيد يقول : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وانكم الينا لاترجعون » . بل أراد الله من وراء ذلك — وهو أعلم بمراده — أن يحس الانسان بذاته ورسالته ، وأن يشكر نعمة الله عليه ، فيحسن العمل فى أولاه ، مع الاستمتاع بما أباحه الله ، ويحسن الاستعداد للقاء مولاه فى آخراه ، حتى يفوز بالنعيم الدائم فى جواره وحماه ، ولذلك قال كتاب الله : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الارض ، ان الله لايحب المفسدين » .

ولقد أخبرنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بأن خير الناس ليس من عمل للدنيا وحدها ونسى الآخرة ، ولا من عمل للآخرة وحدها ونسى الدنيا ، ولكن خيرهم من عمل لهذه وتلك ، وجاء الاثر الاسلامى البليغ يقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . وقال القائل الحكيم :

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا
وأقبح الكفر والافلاس بالرجل

ولقد شهدت مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام كثيرين ممن أحسنوا المواءمة بين دنياهم وأخراهم ، وأتقنوا العمل للعاجلة والآجلة ، وأعطوا كلا منهما ما

تستحقه من حظ ونصيب ، ذاكرين خير الذكر قول ربهم جل جلاله : « وان الدار الآخرة لهى الحيوان (١) لو كانوا يعلمون » .

وهذا واحد منهم ، يمثل السعى والزهد ، ويمثل التنسك والجهاد ، ويمثل الوفاء والفداء :

انه التابعى الفاضل ، والقائد الفاتح ، والعابد المجاهد ، والناسك المتماسك : هرم بن حيان (٢) العبدى الازدى البصرى ، من بنى عبد القيس ، الذى كان من كبار التابعين النساك .

وفيه يقول المؤرخ ابن سعد فى الطبقات : « كان ثقة ، وله فضل وعبادة » ج ٧ ص ٩٥ .

وقيل فيه : « أعبد العرب هرم بن حيان صاحب اويس القرنى » ، وقد نقل هذا ابن ابى الحديد فى « شرح نهج البلاغة » ج ٥ ص ٢٣٨ .

وقد عده ابن عدى والعتبى أحد الزهاد الثمانية .

قال العتبى — فيما يرويه العقد الفريد — : سمعت أشياخنا يقولون :

انتهى الزهد الى ثمانية من التابعين : عامر بن عبد القيس ، والحسن بن أبى الحسن البصرى ، وهرم بن حيان ، وأبى مسلم الخولانى ، وأويس القرنى ، والربيع ابن خيثم ، ومسروق بن الاجدع ، والاسود بن يزيد » ج ٣ ص ١٢٠ .

ومع زهد هرم ونسكه وعبادته ، كان أميرا لقبيلته بنى عبد القيس فى الفتوح والمعارك .

(١) الحيوان : أى الحياة الدائمة الخالدة .

(٢) اغلب المصادر تذكره « هرم بن حيان » بالياء المنقوطة بنقطتين من أسفلها ، ولكن تاج العروس يذكره « هرم بن حبان » بالباء المنقوطة بنقطة واحدة ، وقال انه من صغار الصحابة (ج ٩ ص ١٠٣) .

وقد تولى امارة طائفة من الحروب فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، والخليفة عثمان بن عفان ، رضوان الله عليهما ، وذلك فى أرض فارس .

وحاصر هرم هناك مدينة « بوشهر » فى السنة الثامنة عشرة للهجرة ودخلها .

كما كلفه عثمان بن أبى العاص أمير البحرين أن يفتح قلعة « بحرة » وهى من قرى البحرين ، ويقال لها : « قلعة الشيوخ » (١) ، فافتتحها عنوة فى السنة السادسة والعشرين .

وكان هرم رجلا معتدلا متوسطا فى حياته ، لايسرف فى طعام ولا شراب ، ولا يحرص على شىء من توافه الاهواء والرغبات ، وكان أغلب زاده التمر ، يطعمه فى السهل والجبل ، كما يعبر التاريخ (٢) .

وحينما تولى هرم بن حيان بعض الولايات عاهد ربه أن يكون عادلا منصفا بين الناس ، والا يحابى او يمالىء لقرابة أو صداقة أو نسب . ولقد علم عقب توليه الولاية ان أفرادا من قومه سيأتون اليه طامعين راغبين فى أن يخصهم بشىء مما فى حوزته وسلطانه ، فأمر هرم بايقاد نار كبيرة من حوله ، لايستطيع احد أن يتخطاها اليه ، ثم جاء القوم فرأوا النار ، فسلموا عليه من بعيد ، فقال لهم بعد رد السلام :

مرحبا بقومى ، ادنوا .

فقالوا له : والله مانستطيع أن ندنو منك ، فقد حالت النار بيننا وبينك .

فرد عليهم قائلا :

---

(١) معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٤٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٤ ص ٧٤ .

فأنتم تريدون أن تلقونى فى نار أعظم منها فى جهنم فيئسوا من تأثيرهم فيه ، فرجعوا (١) .

وكان هرم بن حيان رجلا حساسا مرهف الاحساس، يشعر بالتبعة ويقدر المسئولية ، ويندم ندما شديدا وجيعا حينما يشعر بأنه تسرع فى عقاب . ولقد حدث أن غضب على رجل غضبا شديدا ، فأغلظ له القول، وأمر بعقابه ، ثم ندم ، وأقبل على أصحابه يقول لهم : « لا جزاكم الله خيرا ، ما نصحتمونى حين قلت ، ولا كففتمونى عن غضبى ، والله لا آلى لكم عملا » .

ثم كتب الى أمير المؤمنين عمر يستعفيه من الولاية ، ويقول له : « يا أمير المؤمنين ، لا طاقة لى بالرعية ، فابعث الى عملك » .

وكان هرم يضيق كل الضيق بمن يخالف عمله قوله ، ولذلك قال : « اياكم والعالم الفاسق » أى الذى يعظ ولا يتعظ ، وينصح ولا ينتصح ، ولما سمع عمر بكلمته هذه سأله عما أراد بها ، فقال هرم : « ما أردت الا الخير ، يكون امام يتكلم بالعلم ويعمل بالفسق ، فيشتبه على الناس فيضلون » .

وكان رضى الله عنه يؤمن بأن اخلاص الانسان فى ايمانه وتقواه ، واقباله على الله ، يكون سببا لاقبال الكرام من الناس عليه ، وثقة المؤمنين به ، وحبهم له، لأن ألسنة الصادقين من الخلق هى أقلام الحق .

ولذلك كان هرم يردد قوله : « ما أقبل عبد بقلبه على الله عز وجل ، الا أقبل الله بقلوب المؤمنين اليه ،

(١) الطبقات لابن سعد ، ج ٧ ص ٩٦ .

حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم » .

وطالما خشى هرم تغير الزمان وتبدل الناس، وخاف ان يدركه زمان يضيع فيه الحق ، ويفسد فيه الخلق، ومن هنا ردد كثيرا قوله : « اللهم انى أعوذ بك من شر زمان يتمرد فيه صغيرهم ، ويؤمل فيه كبيرهم ، وتقرب فيه آجالهم ، ويرون أعز اخوانهم على المعاصى (أى يرتكبون المعاصى) فلا ينهونهم » (١) .

وطالما ردد الدعاء فقال فيه : « اللهم أخر رجال السوء الى زمن السوء » !

وحينما يسمع الناس منه أمثال ذلك يقولون له : أوصنا. فيجيبهم قائلا : أوصيكم بخواتيم سورة البقرة .

وهو يقصد الآيات الثلاث التى ختمت بها سورة البقرة ، وفيها يقول الحق جل جلاله :

« لله ما فى السموات وما فى الارض ، وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير، آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير ، لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لاطاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

---

(١) طبقات الشعرانى ، ج ١ ص ٢٥ .

وكأنه يقصد بذلك أن يقول : أوصيكم بحفظ ذلك ، وفهمه ، والعمل به ، والاخلاص فيه ، ولا عجب فى ذلك . فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : « ان الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنز تحت العرش ، فتعلموهما ، وعلموهما نساءكم وأبناءكم ، فانهما صلاة وقرآن ودعاء » . ويقول : « من قرأ بالآيتين آخر سورة البقرة فى ليله كفتاه » . ويقول الامام على كرم الله وجهه : « ما أظن أحدا عقل وأدرك الاسلام ينام حتى يقرأهما » .

ويروى التاريخ انه قيل لهرم بن حيان : أوص .

فقال : قد صدقتنى نفسى فى الحياة ، ما لى شىء أوصى فيه ، ولكنى أوصيكم بخواتيم سورة النحل(١)

وهو يقصد بخواتيم سورة النحل قوله عز وجل : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وحين ننظر فى كلام هرم بن حيان نجد البيان المشرق ، والاشارة الواعظة ، والرمز البليغ ، مع ميل ظاهر الى الايجاز والاختصار ، فهو مثلا يقول : « صاحب الكلام بين منزلتين ، ان قصر فيه خصم ، وان اغرق

---

(١) عيون الاخبار ، ج ٢ ص ٣١٢ .

فيه اثم » (١) . فهو فى الغالب لايعتدل على الصراط ، ولايضمن نيل الحمد على كلامه ، لانه أن لم يتوسع فيه لم ينل شكر الناس عليه ، وان توسع أتى بما ليس بحق فيدركه الاثم والذنب » .

ويقول أيضا : « لم أر مثل النار نام هاربها ، ولم أر مثل الجنة نام طالبها » (٢) . وهى عبارة بليغة أخاذة ، تحذر مستحق العذاب من النار ، لكى يقلع عن أسباب دخولها ، ويواصل الفرار منها ، وتحذر مستحق النعيم فى الجنة ، حتى يظل على الدوام طالبا لها ، مستمسكا بأسباب دخولها .

وحسب هرم بن حيان قدرا أن يكون من بين الرواة عنه الحسن البصرى رضوان الله تعالى عليه .

ومع زهد هرم واستقامته الاخلاقية كتب له الله جل جلاله أن يموت شهيداً ، فقد روى التاريخ انه مات فى احدى غزواته بعد سنة ست وعشرين للهجرة ، وروى ابن سعد فى « الطبقات » انه مات فى غزاة له فى يوم صائف ، فلما انتهوا من دفنه أقبلت سحابة فهطل منها ماء على القبر ثم رحلت (٣) .

ولعلها بشرى ، والله سبحانه أعلم بحقيقة ما كان .

ولحق هرم بن حيان بربه تبارك وتعالى ، بعد أن عاش حياته التى عمرها بصالح القول والعمل ، فسلام عليه فى عباد الله الطيبين الطاهرين : « يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

---

(١) العقد الفريد ، ج ٢ ص ٢٩٣ .
(٢) كتاب الزهد لابن حنبل ، ص ٢٣١ مطبعة أم القرى .
(٣) الطبقات لابن سعد ، ج ٧ ص ٩٧ . وكتاب الزهد لابن حنبل ص ٢٣١ .

المجاهد الشاعر

أيمن بن خريم الأسدي

لقد عرف التاريخ كثيرا من الشعراء القوالين ، الذين يجيدون تشقيق المقال فى كل مجال ، والذين يبرعون فى تصوير البطولات المتخيلة ، والامجاد المدعاة ، والذين يتحدثون عن أنفسهم ، فيصورونها نماذج فريدة ، أو وحيدة ، للشجاعة والاقدام ، مع انه ليس لهم من كل هذا فى دنيا الحقيقة نصيب مذكور .

ولعل هذا هو السر فى أن يقول القرآن الكريم فى سورة الشعراء : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر انهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون » .

ولكن التاريخ عرف أيضا قلة من الشعراء المؤمنين الصادقين مع الله ، ومع أنفسهم ، ومع الناس ، حيث جمعوا بين بطولة الكلام وبطولة الحسام ، وجمعوا بين صدق القول وصدق العمل ، وكأن هذه القلة هى التى استثناها العليم الخبير ، فأخرجها من جموع الشعراء الغاوين فقال : « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » (١)

(١) انظر كتابى « سلاح الشعر » فصل « القرآن والشعر » ، صفحة ٦٥ ـ ٨٠ .

وفى وســط هــذه القلة الــكريمة المجيــدة ، نلمح اسم صحابى مناضل ، جمع بين الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، والفروسية الباهرة ، وهو الصحابى الجليل، العابد المجاهد ، أيمن بن خريم بن فاتك بن الاخرم بن شــداد الاسدى ، الذى يقول عنه ابن سعد فى الطبقات الــكبرى هــذه العبــارة : « كان أيمن شــاعرا فارسا شريفا » .

وكان والده — وهو خريم بن فاتك — من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك ، وقد شــــهد غزوة بدر مع أخيه سبرة بن فاتك ، وقيــل ان خريما أسلم يوم فتح مكة ، ولــكن الصحيح انه بدرى ، شهد غزوة بدر (١) ، وقد صحب النبى صلى الله عليه وسلم، وروى عنه أحاديث ، وجاهد معه جهادا طويلا ، وقد عده بعضهم فى أهل الصفة ، وترجم له فى التهذيب ، والاصابة ، وتاريخ حلب لابن العديم (٢) .

ويبــدو أن خريما كان رجلا لينا رحيما ، ولذلك جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى على رجل قد قطعت يده فى سرقة ، وهو فى فســطاط ، فقال : من آوى هذا المصاب ؟

فقالوا : خريم بن فاتك .

فقال : اللهم بارك على آل فاتك كما آوى هــذا المصاب (٣) .

وأم أيمن بن خريم هى : الصماء بنت ثعلبة بن عمرو الاسدية .

---

(١) أسد الغابة ، ج ١ ص ١٩٢ . وتهذيب الاسماء واللغات ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) التحفة اللطيفة ج ٢ ص ١٦ .

(٣) النهاية لابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٤٦ .

ونشأ الفتى أيمن على طريقة أبيه ، وهو شامى الاصل نزل الكوفة ، وقد أسلم عام الفتح وهو فتى يافع ، فازدانت به شبيبة الاسلام ، لما كان يتحلى به من عقل راجح ، ولسان مبين ، وشاعرية متوقدة ، ورغبة فى الجهاد والنضال ، ومع هذا كان ذا عمل صالح ، وكان يروى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان كان صاحب « أسد الغابة » قد أورد هذه العبارة : « قال الدارقطنى : روى أيمن عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما أنا فما وجدت له رواية الا عن أبيه وعمه . أخرجه الثلاثة » (١) .

ولقد روت السنة أن أيمن بن خريم سمع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يخطب ذات يوم فيقول: «أيها الناس ، عدلت شهادة الزور الاشراك بالله (ثلاثا) . ثم تلا قوله عز من قائل : « فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به»

وكأن سماع أيمن لهذا التوجيه النبوى الحكيم كان عظة له فى قوله وشعره ، حتى لايقول فى شعره باطلا ولا يشهد به زورا ، فيجعل الجبان الرعديد بطلا صنديدا ، والبخيل الشحيح كريما مسماحا ، والداعر الاثيم تقيا صالحا ، كما يفعل الكثير من الكذبة المفترين ، الذين شوهوا جبين التاريخ ، ولطخوه بالمفتريات والاكاذيب .

وحرص رسول الله عليه الصلاة والسلام على توجيه أيمن بن خريم الى طريق الحق والهدى والاستقامة ، كما فعل مع أبيه خريم من قبل ، فقد روت السيرة

(١) أسد الغابة ، ج ١ ص ١٩٣ .

العظة ان النبى صلوات الله وسلامه عليه لاحظ على خريم انه يعنى بتجميل صورته وشكله ، ويسرف فى ذلك بعض الشىء ، حتى يجعله ذلك يبـدو كالمنعمين المترفين اللاهين ، فقال له ذات يوم وقد رآه فى زينته: يا خريم .

فقال له : لبيك يا رسول الله .

فقال له : لولا خلتان (خصلتان) فيك كنت أنت الرجل (اى الرجل الـكامل من كل وجه) .

فسأل خريم فى لهفة وحرص على اصلاح عيبه وعودته الى الحق : وما هما بأبى وامى يا رسول الله ؟

قال له : « توفى شعرك ، وتسبل ازارك». أى تطيل شعرك أكثر من اللازم ، وتطيل ثوبك حتى يلمس الارض وتجره وراءك .

فما كان من خريم الا أن سارع بلا ابطاء فجز شعره وقص ازاره .

ولم لا يفعل ، ولم لا يسارع فى ذلك قدر طاقته ، وربه العلى الاعلى هو الذى يخاطب المؤمنـين قائلا : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لمـا يحييكم ، واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه ، وانه اليه تحشرون » ؟ !

***

وكان أيمن بن أخرم يقول الشعر فى الحكمة والعظة والعبرة ، واذا كان بعض هـذا الشعر قد ابتعـد عن صراط الحكمة أحيانا ، لهذا السبب أو ذاك ، فانه قد أيدها وناصرها أحيـانا وأحيـانا ، ولم يقتصر أيمن الشاعر المؤمن على القصـائد ينظمها وينشدها ، ولم يكتب شعره بالقلم وحده ، بل نظم شـعرا آخر أمجد

واخلد ، نظم شعرا بحسامه وسنانه ، حيث شارك فى كثير من مواقف الفداء والوفاء ، وغزا فيما غزا مع يحيى بن الحكم (١) .

وكان يحاول قدر طاقته ان يجعل ضربة سيفه موجهة الى أعداء الله وأعداء عباده ، وكان يحذر كل الحذر أن يشارك فى فتنة ، أو يقر حربا أهلية ، ولذلك بلغ به الالم مبلغه حين نزغ الشيطان بين المسلمين ، فجعل بأسهم بينهم شديدا ، فتحزبوا وتعصبوا وتحاربوا ، ولقد تودد اليه زعيم طائفة تقاتل أخرى ، وكلهم ينتسبون الى الاسلام ، وطلب منه ذلك الزعيم أن ينضم الى صفه فى محاربة تلك الطائفة الاخرى ، فأبى أيمن ذلك كل الاباء ، وقال له : ان أبى وعمى شهدا بدرا ، وانهما عهدا الى أن لا أقاتل أحدا يشهد أن لا اله الا الله ، فان جئتنى ببراءة من النار قاتلت معك .

ثم أنشد فى ذلك شعرا منه قوله :

ولست مقاتلا رجلا يصلى
على سلطان آخر من قريش
له سلطانه ، وعلى وزرى
معاذ الله من سفه وطيش
أ أقتل مسلما ، وأظل حيا
فليس بنافعى ما عشت عيشى

ولعله كان يتذكر خير التذكر قول ربه : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » .

ولأيمن أبيات تصد عن الفتنة ، وتنهى عن اقترابها ،

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ج ١ ص ٤٥٢ .

وتنصح بالابتعاد عنها ، فيقول :

ان للفتنـــة ميطا بينـا (١)
فرويد الميط منهـا تعتـدل
فاذا كان عطـاء فأتهم
واذا كان قتـال فاعتزل
انما يسـعرها جهـالها
حطب النـار ، فدعها تشتعل (٢)

وله فى وصف طبائع النسـاء شعر يدل على خبرة وصرامة ، ومنه قوله :

لقيت من الغانيـات العجابا
لو أدرك منى العذارى الشـبابا
ولـكن جمع العـذارى الحسان
عنـاء شـديد اذا المرء شـابا
يرضن بكل عصـا رائض
ويصبحن كل غداة صـعابا
علام يكحلن نجل العيـون
ويحدثن بعد الخضـاب الخضـابا
ويبرقن ، الا لمـا تعلمون
فلا تحرموا الغانيـات الضرابا
اذا لم يخالطن كل الخـلا
ط أصبحن مخرنطمات غضـابا (٣)
يميت العتـاب خـلاط النسـاء
ويحيى اجتنـاب الخلاط العتـابا

---

(١) جورا ظاهرا ٠

(٢) الشعر والشعراء ، ج ١ ص ٥٤١ ٠

(٣) مخرنطمات : جمع مخرنطمة ، وهى الغاضبة المتكبرة ٠

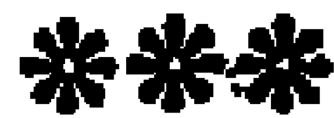
وقد أنشد أيمن هذه الأبيات لعبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك : ما عرف النساء أحد معرفتك ، وما وصف احد النساء مثل صفتك .

فقال له : لئن كنت صادقا فى ذلك لقد صدق الذى يقول :

فان تسألونى بالنساء فاننى
بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له فى ودهن نصيب
يزدن ثراء المال حيث علمنه
وشرخ الشباب عندهن عجيب (١)

ولقد كان يقال لأيمن بن خريم « خليل الخلفاء » لانهم كانوا يحبون مجالسته ، ويعجبون بحديثه وفصاحته وعلمه ، مع انه كان مصابا بالبرص .

وكان كثير المجالسة للأمراء ، وكان أثيرا عند عبد العزيز بن مروان .



وظل المجاهد الشاعر أيمن بن خريم الاسدى بعيدا عن الوقوع فى الفتنة ، حريصا ما استطاع على جمع الكلمة وصيانة الامة ، حتى لقى ربه عز وجل ، عابدا مناضلا ، مجاهدا مقاتلا ، رضوان الله تعالى عليه .

توفى نحو سنة ثمانين للهجرة .

---

(١) انظر الشعر والشعراء ، ج ١ ص ٥٤٢ . وعيون الاخبار ، ج ٤ ص ١٠٢ ، والأبيات الثلاثة لعلقمة بن عبدة .

المجاهد فوق الأمواج

فضالة بن عبيد الأنصاري

نجد فى الاســــلام بيعتين : الاولى بيعة الدخول فى الدين ، والاخرى بيعة الجهاد فى سبيل الله (١) ، والبيعة كلمة مأخوذة فى اللغة من مادة « البيع » ، والبيــع فى الاصل هو مبادلة مال بمال ، أوشىء بشىء ، والمبايعة هى المعاهدة ، وكأن الطرفين فيها يتبايعان ويتبادلان.

وهــذا المعنى ملحوظ فى البيعة الدينية الاسلامية ، فــكأن المسلم يبيع نفسه وجهــده لربه ، فى مقابل أن يرضى عنه ويوفقه ، ويكتب له عنــده الثواب الخالد والنعيم المقيم ، ومن هنا قال الحق جل جلاله : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة»

وفى سبيل هــــذه البيعة أو المبايعة يضحى المؤمن بمتاع الحياة فى سبيل الله ، ويؤثر ما عند ربه على ما تحويه يداه ، ولذلك يترك أعمال البيع والشراء ، وهى أهم شاغل للناس ، وأقوى محرك لدولاب الحياة ، كى يجيب النــداء يوم الجمعة ويحرص على الصــــلاة : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلــكم خير لــكم ان كنتم تعلمون » . ووصف الله تعالى الأبرار الاخيار

(١) هناك بيعة ثالثة ، هى بيعة المسلم لولى الامر الشرعى (وهو الخليفة أو الامام) ولهذه البيعة حديث خاص يأتى فى مقامه .

من عباده بأنهم « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار » .

واذا كانت بيعة الدخول فى الاسلام قد أعلنها كل صحابى مؤمن لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، معاهدا أن يعبد الله وحده لايشرك به شيئا ، وأن يقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، ويصوم رمضان ، ويحج البيت ان استطاع اليه سبيلا ، وأن يحل ما أحله الله ، وأن يحرم ما حرمه ، فان مجموعة كريمة عظيمة من صحابة رسول الله قد بايعوه بيعة أخرى لها مكانتها ومجادتها فى الاسلام ، وهى بيعة الجهاد والكفاح ، أو بيعة البذل والتضحية ، أو بيعة الوفاء والفداء ، أو بيعة الجهاد حتى الاستشهاد ، أو ــ بتعبير السيرة العطرة ــ بيعة الرضوان .

وهى البيعة التى يقول فيها الحق جل جلاله : « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » .

ويقول عنها أيضا : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحا قريبا » .

ولقد ظل هؤلاء الذين بايعوا الرسول بيعة الرضوان كواكب تتألق على طريق المسيرة الاسلامية المجيدة عبر القرون ، حيث صانوا عهدهم ، وحفظوا وعدهم ، وصدقوا مع ربهم ، ومضوا الى لقائه الكريم عناوين مضيئة لاهل الوفاء والفداء ، وما بدلوا تبديلا .

وهذا واحد من هؤلاء :

بايع بيعة الاسلام ، فكان للاسلام وفيا أمينا ، وبايع بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان فدائيا مجيدا .

انه الصحابى الجليل ، المجاهد فى البر والبحر، فوق التراب وفوق الامواج ، المناضل فى الجزيرة والشام ومصر : أبو محمد فضالة (١) بن عبيد بن نافذ بن قيس ابن صهيب بن الاحرم بن جحجبا (٢) بن كلفة بن عوف الانصارى الاوسى العمرى ، الذى دخل فى الاسلام مخلصا موقنا .

وتروى بعض المصادر (٣) انه شهد غزوة بدر ، فان صحت الرواية فقد فاز فوزا عظيما .

ومن الثابت الاكيد انه شهد غزوة أحد وما بعدها من المشاهد ، ومن بينها غزوة الحديبية التى بايع فيها بيعة الرضوان ، وهى البيعة التى قال فيها النبى صلى الله عليه وسلم لاهليها : « أنتم خير أهل الارض » .

وقال عنهم : « لايدخل أحد النار أن شاء الله من أصحاب الشجرة التى بايعوا تحتها » .

وسمعت منه ذلك أم المؤمنين حفصة ، فقالت كالمعترضة : بلى يا رسول الله (أى سيدخلونها) .

فانتهرها النبى ، فرددت قول الله تعالى : « وان منكم الا واردها » .

فرد عليها النبى قائلا : قد قال تعالى : « ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » أى باركين على

(١) فضالة ـ بفتح الفاء والضاد ـ كما ضبطها النووى فى « تهذيب الاسماء واللغات » ج ٢ ص ٥٠ . وقد ورد الاسم مضموم الفاء فى مواضع من تاريخ الطبرى ، فليصحح الضبط .

(٢) جحجبا ـ بجيمين مفتوحتين بينهما حاء ساكنة ـ تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ٥٠ .

(٣) التاج ، ج ٨ ص ٦٢ .

ركبهم لشدة الهول .

ويقول البراء بن عازب عن بيعة الرضوان : « تعدون الفتح فتح مكة ، وقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية » (١) .

ويقول عبد الله بن مسعود : « انكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية » وقد كان الصلح عقب بيعة الرضوان .

ويقول جابر : « ما كنا نعد الفتح الا يوم الحديبية » .

وحول هذه البيعة ونتائجها نزلت سورة الفتح وفى أولها : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا ، هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ، ولله جنود السموات والارض وكان الله عليما حكيما ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما » .

وقد اشترك فضالة بن عبيد فى فتح مصر (٢) باسم الاسلام ، فكان أحد أصحاب الفضل علينا ــ نحن أبناء الكنانة ــ بعد فضل الله الاكبر ، حيث حملوا الينا دعوة الخير وعقيدة الحق ، ونور الايمان الذى هدانا الله به سبل السلام ، وأخرجنا به من الظلمات الى النور .

ثم سكن فضالة الشام ، وجاهد فيها وحولها بعد أن شهد فتحها ، وفى سنة تسع وأربعين للهجرة قام

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ص ٣٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٧٨ . وتهذيب الاسماء واللغات ، ج ٢ ص ٥٠ .

فضالة بغزوة بلدة « جربة » أو « جربة » ، وهى بلدة بالمغرب لها ذكر كثير فى الفتوح ، وقد غزا فيها رويفع ابن ثابت ، وقيل هى جزيرة بالمغرب من ناحية افريقية قرب « قابس » ، وفيها بساتين كثيرة (١) .

وقد فتحت « جربة » على يدى فضالة ، وأصاب فيها مغانم كثيرة ، وأعلى بها كلمة الاسلام ، ويروى التاريخ انه ما شتى — أى غزا فى الشتاء — بهذه السنة الا الصحابى الجليل : فضالة بن عبيد (٢) .

وفى سنة خمسين للهجرة أخذ فضالة فى غزوات البحر (٣) ، حيث ولاه الخليفة قائدا وأميرا على المجاهدين ضد الروم فى البحر الابيض المتوسط ، وهو الذى ظل حينا طويلا من الزمن يسمى « بحر العرب » ، لسيطرة المسلمين عليه ، وتأمينهم لجوانبه بأساطيلهم ومجاهديهم ، وشتان شتان بين الماضى والحاضر .

وفى سنة احدى وخمسين كان مشتى فضالة بن عبيد بأرض الروم (٤) .

وهكذا جاهد فضالة بن عبيد فى وسط الجزيرة العربية ، وجاهد فى شمالها فى بلاد الشام ، وجاهد فى شمال افريقية ، حيث شارك فى فتح مصر ، وجاهد فى البر والبحر ، ولم يكن مجاهدا عاديا ، بل كان قائدا وأميرا ، وأن العظائم كفؤها العظماء .

وكما كان هذا المجاهد الكبير وفيا لبيعة الجهاد

---

(١) معجم البلدان لياقوت ، ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) أنظر النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٧ و ١٣٨ . وتاريخ الطبرى ج ٥ ص ٢٣٢ . والبداية والنهاية ، ج ٨ ص ٣٢ .

(٣) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٤٥ . وتاريخ الطبرى ج ٥ ص ٢٣٢ . وتهذيب الاسماء ج ٢ ص ٥٠ . (٤) تاريخ الطبرى ، ج ٥ ص ٢٥٣ .

والرضوان ، بمواصلة القتال والنضال ، في كل موطن ومجال ، كان وفيا لبيعة الاسلام باليقين والاخلاص ، وتطهير الحس مع تطهير النفس ، وثبات الاخلاق مع ثبات الاشباح ، والازدياد من العلم والفقه ، فقد كان فضالة من رواة الاحاديث النبوية ، حتى روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من خمسين حديثا ، وقد روى عنه جماعة من الاعلام ، منهم ثمامة بن سعد ، وعلى بن رباح ، وحنش الصنعانى ، وسلمة بن صالح، وعمرو بن مالك، وعبدالله بن محيرز، وآخرون (١)

وتولى قضاء دمشق حينا من الزمن (٢) ، والقضاء فى الاسلام منصب ذو جلال وخطر ، وانما يتولاه العالم الفقيه البصير بشئون مجتمعه وقومه، الخبير بالحلال والحرام

وهكذا جمع فضالة بن عبيد بين بطولة الميدان وبطولة العلم والايمان ، ولعله من اللافت للفكر والبصيرة ان فضالة هو الذى روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « المجاهد من جاهد نفسه » .

ولا شك ان من ينجح فى اصلاح نفسه ومجاهدتها يغدو صالحا لاتقان الجهاد فى كل مجال ، لانه سيحمل نفسه راضية مؤمنة على مواقف الوفاء والفداء باستمرار، ولعل هذا هو السر فى تكرار السنة المطهرة التعبير عن هذا المعنى ، فجاءت فيها هذه الاحاديث :

١ ـ جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم .

٢ ـ أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه .

٣ ـ أفضل الجهاد أن تجاهد نفسك وهواك فى سبيل ذات الله تعالى ..

---

(١) تهذيب الاسماء ج ٢ ص ٥٠ .

(٢) تاريخ الطبرى، ج ٥ ص ٢٥٣ . وتهذيب الاسماء ج ٢ ص٥٠.

٤ ـ قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر ، مجاهدة العبد هواه (١) .

وقد ظل هـذا البطل المغوار ـ فضالة بن عبيـد ـ يجاهد نفسه ، ويجاهد عدو دينه ، ويناضل من أجل اسلامه ، ويبذل فى سبيل ربه ، حتى لحق به سـنة ثلاث وخمسين للهجرة رضوان الله تبارك وتعالى عليه.

وهناك أكثر من قول فى تحديد السنة التى توفى فيها فضالة . .

روى انه توفى كما سبق سنة ثلاث وخمسين ، هكذا جاءت الرواية فى « تهذيب الاسماء واللغـات » ، وفى « البداية والنهاية » وفى « الاعلام » (٢) .

وقيل انه توفى سـنة أربع وخمسـين . روى ذلك صاحب « النجوم الزاهرة » (٣) .

وقيل توفى سنة سبع وستين أو تسع وستين (٣) ، ولـكن النووى يقول ان الصحيح هو القول الاول ، لانهم نقلوا ان معاوية حمل نعش فضالة ، وقال لابنه : أعنى يا بنى ، فانك لا تحمل بعده مثله . ومعـاوية توفى سنة ستين .

سلام على فضالة بن عبيد فى الابرار الخالدين .

---

(١) انظر درجات هذه الاحاديث فى تفسير المنار ج ١٠ ص ٣٦١ .

(٢) انظر تهذيب الاسماء واللغات ج ٢ ص ٥٠ والبداية والنهـاية ج ٨ ص ٧٨ . والاعلام ج ٥ ص ٣٥٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٤٦ .

(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٧٨ وتهذيب الاسماء ج ٢ ص ٥٠ .

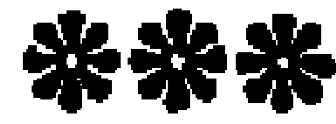
فـــارس رســول اللـــه
أبو قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري

اذا كان للأمة المؤمنة المجاهدة صــفات تحدد معالم ذاتها ، ومقومات تبرز ملامح شخصيتها ، فان أهم هذه الصفات وتلك المقومات أن تتــجلى فى الامة روح الفروسية القائمة على الهمة والعزيمة ، واليقظـــة والاستعداد ، وعدم التردد فى مواطن الاقدام ، والترفع عن الدنايا والآثام ، والثبات على المبـــدأ ، والاعتزاز بالايمان .

ولعل القرآن المجيد قد رمز الى هـــذه الصفات والملامح حين قال عن مجموعة خيرة من عبـاد الله عز وجل : « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والارض ، لن ندعو من دونه الها ، لقد قلنا اذن شططا » .

ولقد كانت أمة محمـــد صلى الله عليه وسلم أعظم أمة تجلت فيها الفروسية المؤمنة الراشدة ، وكان من حول الرسول مجموعة من الفرســـان الميامين الذين أحاطوا به ودافعوا عنه ، وســبقوا غيرهم فى استجابة ندائه كلما جد الجد ، وحانت ســـاعة الـكفاح ، فهم يأتون فى طليعة من يعنيهم الرسول بكلمته الرائعة وهتافه المثير : « يا خيل الله اركبى » . لانهم خير من تدبروا قول ربهم المحذر : «ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم

وأمتعتكم فيمليون عليكم ميلة واحدة » وتأثروا بقول رسولهم المبشر عليه الصلاة والسلام : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه ، كلما سمع هيعة طار اليها».



وفى الصف الاول من هؤلاء يأتى فارس الاسلام ، وفارس رسول الاسلام : محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو الصحابى الجليل ابو قتادة الحارث بن ربعى بن بلدمة بن خناس بن سنان بن عبيد بن عدى بن غنم بن كعب بن سلمة الخزرجى السلمى الانصارى (١) ، الذى قال أبو سعيد الخدرى عنه : « أخبرنى من هو خير منى أبو قتادة الانصارى » .

وأبو قتادة هو الذى قال : « والله ما غضبت الا لله ولرسوله » . وهذا معناه انه قد أخلص وجهه وحسه ونفسه لله عز وجل ، ولمولاه رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، فهو لايناضل ولا يقاتل ، ولا يغضب ولا يثور ، لعرض من أعراض الدنيا ، ولا لغرض منأغراض الحياة ، وانما هو قد باع نفسه لخالقه عز علاه : «وما عند الله خير للأبرار » .

وقد شهد أبو قتادة غزوة أحد وما بعدها من المشاهد والغزوات (٢) ، وثبت الى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم مناضلا ومدافعا وفاديا ، وكان أحد خمسة من الفدائيين الانصار الذين بعث بهم رسول الله للتخلص من عدو الله الاكبر اليهودى الطاغية الاثيم : أبي رافع سلام بن أبى الحقيق الذى حزب الاحزاب

(١) اختلفوا فى اسمه ، فقيل انه الحارث . وقيل انه النعمان ، وقيل انه عمرو ، ولكنه مشهور بلقبه وهو « أبو قتادة » .
(٢) وقيل انه شهد غزوة بدر ، ولكن هذا القول فيه نظر .

ضـد المسلمين ، والب الجموع ضـد الرسول ، وكاد للاسلام مكائد خسيسة ، وقد وفق الله ولى التوفيق هؤلاء الخمسة ، فتم مصرع الطاغية على أيديهم(١) .

ثم بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم قائدا لسرية قوامها خمسة عشر فدائيا الى قبيلة « غطفان » المشركة المعادية ، لتأديبها والنيل منها ، فكان أبو قتادة يسير بجنوده ليلا ويكمنون نهارا ، لتتحقق سرية العمـل الفدائى ، وتتم المباغتة اللازمة فى الهجوم ، ثم انقضوا على أعدائهم فجأة ، وأحاطوا بهم وأوسـعوهم رميـا وطعنا ، وغنموا منهم غنيمة كبيرة قوامها مائة بعير وألفان من الغنم .

ثم بعثه الرسول عليه الصلاة والسلام قائدا لسرية عددها ثمانية الى « بطن اضم » ، عندما هم الرسـول بفتح مكة ، وكان يقصد من توجيه هذه السرية التغطية والتعمية ، ليظن المشركون ان الرسـول يتجه بجيشه الى تلك الناحية ، فتتم المفاجأة فى فتح مكة بلا قتال ولا صـدام ، على طريقة الحرب الخاطفة حسب تعبير العصر .

وكذلك ابلى ابو قتادة بلاء حسنا فى غزوة «ذى قرد» وهى التى تسمى « غزوة الغابة » أيضا . وكان معه فيها المجاهد البطل سلمة بن الاكوع (٢) : وهى الغزوة التى قال فيها الرسول لاول مرة تلك الـكلمة البليغة : « ياخيل الله اركبى » (٣) . أى يا فرسـان خيل الله اركبى ، وكان الرسول يسمى خيل الجهاد «خيل الله»،

(١) الدرر لابن عبد البر ، ص ١٩٥ .
(٢) لسلمة بن الاكوع حديث خاص يأتى فى مجال آخر .
(٣) عيون الاثر ، ج ٢ ص ٨٧ وهناك خلاف فى ذلك .

فالكلام على حذف مضاف . وهذا من أحسن المجازات وألطفها .

وقال الرسول لابى قتادة وهو خارج الى هذه الغزوة : « امض يا أبا قتادة ، صحبك الله » ، وكان لبركة هذا الدعاء النبوى الكريم أثره الطيب وثمره الحميد .

وقد وفق الله تعالى أبا قتادة ، فقتل فى أول هذه الغزوة : حبيب بن عيينة المشرك ، وغطاه ببردته ، وواصل نضاله ، ولما رأى بعض المسلمين بردة أبى قتادة ، ظنوه قتيلا فاسترجعوا وأبلغوا ذلك لرسول الله ، ولكن الرسول المؤيد بالحق قال : « ليس بأبى قتادة ، ولكنه قتيل لابى قتادة ، وضع عليه برده ، لتعرفوا أنه صاحبه (١) ، والذى اكرمنى بما اكرمنى به ، ان أبا قتادة على آثار القوم يرتجز » .

وكذلك قتل أبو قتادة رئيس المشركين فى هذه الغزوة ، وهو مسعدة الفزارى . وكان أبو قتادة قد اشترى فرسا (٢) ، فأراد مسعدة ان ينافسه عليها ، ويأخذها منه ، ولكن أبا قتادة أبى ذلك ، وقال لمسعدة : اما انى أسأل الله أن ألقاك وأنا عليها .

وكذلك كان ، فقد تلاقى أبو قتادة ومسعدة فى غزوة « ذى قرد » ، وأراد مسعدة أن يكشف عن طغيانه وغروره ، فقال لابى قتادة : مجالدة أو مطاعنة أو مصارعة ؟ !

فرد عليه أبو قتادة مستخفا بتحدى عدوه قائلا : ذلك اليك .

فقال مسعدة : مصارعة !

---

(١) عيون الاثر ، ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) لعل هذه الفرس هى التى كانت تسمى « حزوة » . والفرس هى الانثى من الخيل .

وتصارعا ، وكان الفوز من نصيب أبى قتادة ، فقضى على عدوه .

واصيب ابو قتادة يومئذ بسهم فى وجهه فلم يبال به ، وعاد الى الرسول بنصر وغنيمة ، فلما رآه الرسول قال : افلح وجهك يا ابا قتادة .

فأجاب : ووجهك يا رسول الله .

ولما راى الرسول السهم قال : ما هذا الذى بوجهك يا أبا قتادة ؟

فأجاب : سهم أصابنى .

فقال له : ادن منى .

فدنا منه ، فنزع النبى السهم ، ومس مكانه بريقه ، ووضع عليه يده قليلا ، فزال الالم عن أبى قتادة (١).

ثم جاء موقف التكريم ، فقال الرسول عليه الصلاة والتسليم : « خير فرساننا اليوم أبو قتادة ، وخير رجالتنا سلمة بن الاكوع » .

ثم عاد الرسول يقول لابى قتادة : « أبو قتادة سيد الفرسان » ويقول له : « بارك الله فيك ، وفى ولدك وولد ولدك » !

ومضت الاعوام وأبو قتادة يواصل فى الله تعالى جهاده وكفاحه . وقد شهد مع الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه مشاهده كلها .

وكان أبو قتادة يقدم حق الله تعالى على كل حق ، ومن شواهد ذلك ان كعب بن مالك تخلف عن غزوة تبوك ، دون عذر ، وانما كان تخلفه لامر قضاه الله عز وجل ، ولما عاد الرسول من تبوك ، ذهب كعب بن مالك اليه واعتذر ، واعترف بذنبه ، فنهى النبى

---

(١) السيرة الحلبية ، ج ٢ ص ١٢٩ .

الناس عن كلام كعب حتى يحكم الله فيه بأمره ، مع صاحبيه : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

وظل كعب خمسين يوما والمسلمون مقاطعون له ، وكان ابو قتادة ابن عم كعب وأحب الناس اليه ، فطمع كعب فى أبى قتادة ، وذهب اليه لعله يكلمه ويرد عليه.

يقول كعب : « حتى اذا طال على ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ـ وهو ابن عمى ، واحب الناس الى ـ فسلمت عليه ، فوالله مارد على السلام . فقلت : يا أبا قتادة ، أنشدك بالله ، هل تعلمنى احب الله ورسوله ؟ فسكت . فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار» (١).



ومع ما أظهره ابو قتادة من بطولة موصولة واقدام مستمر فى ميادين الجهاد والنضال ، كان محدثا ، روى طائفة من الاحاديث النبوية عن جملة من الاعلام .

وكما كان ابو قتادة مثلا رائعا فى أدب النفس ، كان عنوانا لجمال الذوق والحس ، فقد كانت له جمة ، أى شعر يسقط على منكبيه . فقال للنبى : يارسول الله ، ان لى جمة ، أفأرجلها يا رسول الله ؟

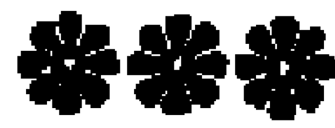
قال النبى : نعم وأكرمها .

فكان أبو قتادة ربما دهنها فى اليوم مرتين ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

ولا عجب فقد روى ابن الاثير فى « النهاية » انه كان

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ص ٤٥ .

لرسول الله صلى الله عليه وسلم جمة جعدة (١) .



ولحق أبو قتادة بربه ، واختلفت أقوال المؤرخين فى سنة وفاته . قيل انه قتل سنة سبع وثلاثين فى معركة صفين (٢) ، وقيل انه قتل سنة أربع وخمسين (٣) ، وعمره سبعون سنة ، ودفن بالكوفة ، وقيل انه توفى بالمدينة سنة أربع وخمسين ، وقيل انه توفى بالكوفة سنة ثمان وثلاثين ، وصلى عليه الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه (٤) .

ولا يضيرنا هذا الخلاف ، فالذى يعنينا ان أبا قتادة قضى حياته مجاهدا مجيدا ، ولقى ربه مؤمنا حميدا ، عليه رضوان الله .

ان أهل الصدر الاول من المسلمين قد جمعوا ـ كما رأينا ـ بين عقول العلماء وثبات الابطال وأخلاق الملائكة، وسيماء أهل الطهارة والادب ، فليت الاخلاف تمضى على طريق الاسلاف ، لنكون أقوياء فى نفوسنا ، أنقياء فى حواسنا ، أشداء على أعدائنا ، رحماء فيما بيننا .

« محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

(١) النهاية ج ١ ص ٣٠٠ وانظر العقد الفريد ، ج ٧ ص ٢٥٦ . وجعدة : قوية .
(٢) العبر للذهبى ، ج ١ ص ٤١ .
(٣) العبر ، ج ١ ص ٦٠
(٤) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٦٨ .

المجاهد المغترب

بريدة بن الحصيب الأسلمي

لم يكن القائل الحكيم بعيدا عن عين الحق والصواب حين قال : « ان الحياة عقيدة وجهاد » . فالحياة بلا عقيدة ضرب من المتاع الرخيص والعيش التافه ، والحياة بلا جهاد لون من الجمود او البرود لا يليق بمن كرمه ربه ، واستخلفه فى أرضه وأنعم عليه ، وفضله على كثير من خلقه ، وهيأ له أسباب الحركة والتنقل فى البر والبحر : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

وما زالت مدرسة النبوة الطاهرة العامرة الباهرة تعطينا نماذج بعد نماذج من أولئك السابقين الموقنين ، الذين آمنوا بربهم ، واعتزوا بعقيدتهم، واخلصوا لوجه الله خطواتهم ، فساحوا فى جنبات الارض ، يعلون كلمة الله عز وجل حيثما استطاعوا ، ويتحملون آلام الهجرة والاغتراب وشظف العيش ، ويفضلون موت الشهاده فى ثغر بعيد من ثغور الاسلام ، على أن يموتوا فوق فراشهم وبين أهليهم وذويهم : « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وهذا واحد منهم ، نراه ما يكاد يلمح أول شعاع من نور الايمان حتى يسارع اليه ، ويتشبث به ، ثم

يترك موطنه مهاجرا فى سبيل ربه ، معرضـا رقبتـه وحيـاته للسيوف والحتوف ، ثم يظل فى رباط ونضال طيلة حيـاته ، ثم يتنقل فى جنبـات الارض مجاهـدا مجالدا ، ثم تدركه منيتـه وهو بعيـد أوسع البعد عن منشئه وموطنه : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » .

انه الصحابى الفاضل ، والمجاهد المناضل ، والمغترب المختسب : أبو عبد الله (١) بريدة بن الحصيب بن عبدالله ابن الحارث بن الاعرج بن سعد بن رزاح بن عون بن سهم الاسلمى .

وهو من كبار الصـحابة ، وممن كانت لهم عدة مشاهد ، ولقد أسلم بريدة قبـل غزوة بدر ، ولم يشهدها ، وقيل أسلم بعدها (٢) ، وكان اسـلامه فى وقت شـديد عصيب ، وهو وقت هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام من مكة الى المدينـة ، فقد مر النبى فى طريق الهجرة على مكان يسمى « كراع الغميم » وهو موطن بريدة حينئذ ، وهو موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة ، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميـال ، وهذا الـكراع جبل أسود فى طرف الحرة يمتداليه (٣)

---

(١) وقيل ان كنيته هي أبو سهل ، وقيل : أبو الحصيب ، وقيل أبو ساسان . وقيل ان اسمه عامر . والحصيب : بضم فسـكون . انظر تهذيب الاسماء ج ١ ص ١٣٣ . والاعـلام ج ١ ص ٤٩ . وفى الاصابة أن اسمه عامر وبريدة لقبه ج ١ ص ١٥٠ . وفى الطبقات : « توفى بريدة بن الحصين » بالنون وهذا تحريف ج ٧ ص ٤ .

(٢) تهذيب الاسماء ج ١ ص ١٣٣ . والتحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٥٦ .

(٣) معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٤٣ .

وعند مرور النبى على هـذا المكان خرج بريدة مع ثمانين شخصا من قومه ، وتلقوا رسول الله بالتحية ، وعرض النبى الاسلام على بريدة ، فشرح الله له صدره، وشرح الله كذلك صدور من معه للاســلام ، وعلمهم الرسول كيفية الصلاة ، وصلى بهم صلاة العشاء . ثم علم النبى بريدة صدرا من سـورة مريم ، وسنرى فيما بعد ان الرسول قد علمه بنفسه بقيــة السـورة حينما أقام بريدة معه (١) .

ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما رأى بريدة لاول مرة قال له : من أنت ؟

قال : أنا بريدة .

فقال النبى لابى بكر متفائلا : « برد أمرنا وصلح » ، أى سهل ، لان العرب قد تقول عن الشىء الســـهل المرغوب فيه : انه بارد ، وقد جاء فى الحديث : « الصوم فى الشتاء هو الغنيمة الباردة » أى السهلة التى لاتعب فيها (٢) .

وقبل أن يدخل الرسـول المدينة لحق به بريدة فى الطريق ، وقال له : يا رسول الله ، لا تدخلها الا ومعك لواء .

ثم نزع عمامته وفكها ، ثم ربطها فى طرف رمح ، ومشى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم مرحلة يرفع له هذا اللواء (٣) .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٤ ص ١٧٨ والبداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٦ . ويروى أن بريدة أسلم فيمن انخرع من بطون خزاعة هو وأخواه مالك وملكان ، وأسلم حين مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم للهجرة ، الطبقات ج ٤ ص ٢٧٨ .

(٢) النهاية لابن الاثير ، ج ١ ص ١١٥ .

(٣) التحفة اللطيفة ، ج ١ ص ٣٥٦ .

وتلبث بريدة بعد ذلك فى « كراع الغميم » حينا من الزمن لبعض شأنه ، ثم انتقل فلحق بالرسول ، فظل يشهد معه المشاهد والغزوات ، حتى يقول ابن حجر فى « الاصـابة » انه جاء فى الصحيحين انه شهد مع الرسول ست عشرة غزوة (١) ، وظل مع الرسول حتى لحق الرسول بالرفيق الاعلى .

وكان مما شـهده بريدة غزوة خيبر، وكان عليه ثوب أحمر يلحظ النـاس لونه ، وعلى الرغم من أن بريدة قاتل يومئذ قتالا عنيفـا مجيدا ، يريد به وجـه الله وحده ، كان يخاف الرياء والعجب بسبب هذا الثوب الاحمر الذى قد يتساءل الناس عن صاحبه فيعرفونه.

يقول بريدة : « لقد شـهدت خيبر ، فكنت فيمن صـعد الثلمة ، فقاتلت حتى رؤى مكانى ، وعلى ثوب أحمر، فما أعلم انى ركبت فى الاسلام ذنبـا أعظم على منه ، للشهرة » (٢) . وهكذا تكون الجندية المجهولة ، ويكون الخوف من المباهاة والرياء .

وفى الفتح الاعظم : يوم فتح مكة ، عقـد الرسول لواءين ، فجعل أحدهما فى يد بريدة بن الحصيب فحمله وحمل اللواء الآخر ناجية بن الاعجم (٣) .

ومضت الايام ، وبريدة يخرج من معركة ليـدخل معركة ، وينتهى من غزوة ليبتدىء غزوة ، وهو لايرى متعته ولذته الا فى الفروسية والجهاد فى سبيل الله ، ولذلك حدث محمد بن أبى يعقوب العتبى قال : حدثنى من سـمع بريدة الاسـلمى وراء نهر بلخ وهو يقول :

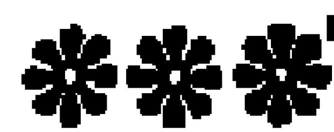
---

(١) الاصابة ، ج ١ ص ١٥٠ .
(٢) التحفة اللطيفة ، ج ٤ ص ١٧٨ .
(٣) الطبقات ، ج ٤ ص ١٧٨ .

« لاعيش الاطراد الخيل » (١) .

والى جوار بطولة بريدة فى الجهاد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستعين به فى أكثر من مجال ، فقد عهد اليه مثلا بالاشراف على أسارى غزوة المريسيع ليرعاهم ويتولى شئونهم ، والمريسيع اسم ماء فى ناحية قديد على الساحل ، سار اليه النبى عليه الصلاة والسلام فى سنة خمس أو ست لمجاهدة بنى المصطلق . وكذلك استعمله النبى امينا وعاملا على الصدقات فى قبيلتى أسلم وغفار . وكذلك أرسله الى قبيلة أسلم يستنفرهم الى الجهاد فى غزوة تبوك ، وكذلك بعثه النبى مع الامام على الى اليمن (١) .

وهكذا أثبت صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام انهم صالحون للعمل فى أكثر من ميدان .



ومات الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وكأن بريدة لم يطق البقاء فى المدينة بعد ذلك ، فخرج مهاجرا مجاهدا فى سبيل الله هنا وهناك ، أو لعله فعل ذلك لما يرويه بعض الرواة ، من ان النبى قال لبريدة: يا بريدة ، انه سيبعث من بعدى بعوث ، فاذا بعثت فكن فى بعث أهل المشرق ، ثم كن فى بعث خراسان ، ثم كن فى بعث أرض يقال لها : مرو ، فاذا أتيتها فانزل مدينتها فانه بناها ذو القرنين ، وصلى فيها عزير ، أنهارها غزيرة ، تجرى بالبركة ، على كل نقب منها ملك شاهر سيفه ، يدفع عن أهلها السوء الى يوم القيامة .

---

(١) الطبقات ، ج ٧ ص ٤ .
(٢) الطبقات ج ٤ ص ١٧٨ . والتحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٥٦ .

فقدمها بريدة غازيا ، واقام بها الى أن مات ، وقبره يقول عنه ياقوت الحموى المتوفى سنة ست وعشرين وستمائة للهجرة : انه معروف بمرو الى الآن ، وانه رأى عليه راية منصوبة (١) .

ولقد روى بريدة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد عن مائة وستين حديثا ، وروى عنه ابناه عبد الله وسليمان والشعبى وجماعة (٢) .

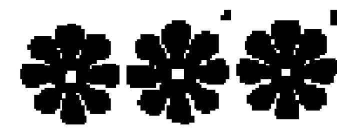
وكان بريدة يتجنب الخلاف ويحذر الطعن فى غيره ، فعن رجل من بكر بن وائل قال :

كنت مع بريدة الاسلمى بسجستان ، فجعلت أعرض بعلى وعثمان وطلحة والزبير ، لاستخرج رأيه ، فاستقبل القبلة فرفع يديه فقال : اللهم اغفر لعثمان ، واغفر لعلى ابن أبى طالب ، واغفر لطلحة بن عبيد الله ، واغفر للزبير بن العوام .

ثم أقبل على فقال لى : لا أبالك ، اتراك قاتلى ؟

فقلت : والله ما أردت قتلك ، ولكن هذا أردت منك

قال : قوم سبقت لهم من الله سوابق ، فان يشأ يغفر لهم بما سبق لهم فعل ، وان يشأ يعذبهم بما أحدثوا فعل ، حسابهم على الله (٣) .



ولقد ظل بريدة بن الحصيب ما يزيد عن نصف قرن ، أى ما يزيد عن خمسين عاما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى جهاد موصول وكفاح مستمر ، حتى لقى ربه تبارك وتعالى بعيدا عن موطنه

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ١١٣ وانظر عيون الاخبار ج ٦ ص ٢١٥ .
(٢) تهذيب الاسماء ج ١ ص ١٣٣ والتحفة اللطيفة ج ١ ص ٣٥٦ .
(٣) الطبقات ج ٤ ص ١٧٩ .

ومنبته ، ولـكنه مات يوم مات فى أرض من صميم بلاد الاسلام يوم ذاك .

يقول ابن سعد فى « الطبقات » :

وحين فتحت البصرة ومصرت تحول بريدة اليها ، واختط بها ، وبنى بها دارا ، ثم خرج منها غازيا الى خراسان ، فى خلافة عثمان بن عفان ، فلم يزل بها حتى مات بمرو فى زمن يزيد بن معاوية ، وبقى ولده بها ، وقدم من ولده قوم فنزلوا ببغداد فماتوا بها (١) .

وقد توفى على الاصح ـ كما يروى الذهبى فى العبر ـ سنة ثنتين وستين ، ودفن فى مرو ، وقال ابن كثير : « ذكر موته غير واحد فى هذه السنة » (٢) .

وهو آخر من توفى من الصـــــحابة رضى الله عنهم بخراسان (٣) .

وفى مرو قبور اربعة من الصحابة منهم : بريدة بن الحصيب ، والحكم بن عمرو الغفارى ، وسليمان بن بريدة ، فى قرية من قراها يقال لهـــــا « فنى » أو « فنين » (٤) .

رضوان الله تبارك وتعالى على الجميع .

---

(١) الطبقات ج ٧ ص ٤ و ج ٤ ص ١٧٩ . وانظر البداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٧ .

(٢) العبر ، ج ١ ص ٦٦ . والبداية والنهاية ج ٨ ص ٢١٧ .

(٣) تهذيب الاسماء ج ١ ص ١٣٣ .

(٤) معجم البلدان ، ج ٥ ص ١١٥ .

المجاهد الطهور

عويم بن ساعدة الأنصاري

اذا كنا نصف الاسلام العظيم بأنه دين الطهارة والطاهرين ، واذا كان القرآن المجيد يحدثنا بقوله : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، فليست الطهارة فى مفهوم الاسلام مقصورة على طهارة البدن ، بل ان مفهومها يمتد حتى يشمل طهارة الحس بالنظافة ، وطهارة النفس بالصفاء ، وطهارة الفهم باستقامة العلم ، وطهارة العزم بعلو الهمة وسمو المقصد

ولغة العرب ـ وهى لغة القرآن ـ تقول ان الطهر الحسي هو زوال الدنس والقذر، ويجىء من ذلك المعنى الاسلامى الخاص ، فيكون نقيض النجاسة ، ويتم بالغسل والوضوء ونحوهما . ويجىء المعنوى ، فتكون الطهارة ضربين : طهارة جسم بالمعنى اللغوى أو الشرعى ، وطهارة نفس بسلامة الخلق ، والتنزه عما لا يحل ، وعلى المعنيين تحمل عامة الآيات القرآنية (١) .

وما أجمل المسلم حين يستجيب لربه كما استجاب رسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال له تبارك وتعالى : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ،

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ج ٢ ص ١٤٧ .

ولربك فاصبر » . فيحرص المسلم على أن يكون نظيف البدن ، نقى الروح ، سليم الفهم ، وطيد العزم ، وأن يستمسك بشرعة الوفاء والفداء ، حتى يلقى الله تبارك وتعالى وهو على هدى من ربه وضياء .

ولقد خرجت مدرسة الصادق الامين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه رجالا أبطالا ، أتقياء أصفياء ، علماء حكماء ، مضحين أوفياء ، زانوا جبين الدنيا ، وخلدوا على الايام أمثلة صالحة للناس .

من هؤلاء الصحابى الجليل ، والمؤمن الطهور ، والمجاهد الصبور ، المجهول عند كثير من المسلمين : ابو عبد الرحمن عويم بن ساعدة بن عائش بن قيس بن النعمان بن زيد الانصارى الاوسى (١) . وهو الذى تقول عنه سيرته : « كان له فضل قديم فى الاسلام » (٢) .

وأعظم من هذا أن نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « نعم العبد من عباد الله ، والرجل من أهل الجنة : عويم بن ساعدة » (٣) .

ولقد أسلم عويم قديما ، وكان فى طليعة الانصار الذين استجابوا الله وللرسول ، فشهد البيعات الثلاث مع رسول الله عليه الصلاة والسلام : شهد بيعة العقبة الاولى مع سبعة أو ثمانية (٤) من أهل المدينة ، أراد الله بهم خيرا حين قدموا مكة فى الموسم ، فحدثهم الرسول عن الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، ودعاهم الى

(١) وأمه هى عميرة بنت سالم بن سلمة .
(٢) شرح نهج البلاغة ، لابن ابى الحديد ، ج ٢ ص ٢٧٧ طبعة بيروت .
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ٣ ص ٣٢ .
(٤) المرجع السابق .

الله فأجابوه وصدقوه ، وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الدين ، وبايعوه بيعة الايمان ، ووعدوه أن يبلغوا قومهم من ورائهم ، وقالوا : « عسى الله أن يجمعهم بك » .

وشهد عويم أيضا بيعة العقبة الثانية مع اثنىعشر رجلا ، ويروى ان الرسول عليه الصلاة والسلام تلا عليهم قول الله عز وجل من سورة ابراهيم : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام ، رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم » الى آخر السورة (١) .

وشهد عويم كذلك بيعة العقبة الثالثة مع سبعين أو ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، ويحدثنا عبادة بن الصامت عن صيغة هذه البيعة فيقول : « انا بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن نقول فى الله لاتأخذنا لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قدم علينا يثرب ، ونمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ، ولنا الجنة ، فهذه بيعة رسول الله صلى لله عليه وسلم التى بايعناه عليها » (٢)

وحين تمت الهجرة من مكة الى المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عويم بن ساعدة وعمر بن الخطاب (٣) ، ويالها من مؤاخاة ذات سمو وعلو، فعمر

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ١٧٩ .
(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٠٣ .
(٣) الطبقات لابن سعد ، ج ٣ ص ٣١ . وقيل ان الرسول اخى بين عويم وحاطب بن أبى بلتعة .

هو الفاروق ، وهو الذى كان يفر منه الشيطان ، وهو الذى يقول فيه المصطفى : « لقد كان فيمن قبلكم ملهمون ، فان يكن فى أمتى منهم أحد فعمر » .

واذا كان عويم قد سبق فشهد البيعات الثلاث كما رأينا ، فانه بعد ذلك قد أسهم بنصيب كبير مجيد فى الكفاح والنضال تحت لواء الاسلام ، فشهد غزوات بدر وأحد والخندق وسائر المشاهد كلها مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ثم ندبه الرسول لمهمة دقيقة ، اذ كلفه بأن يقتل المنافق الاثيم اللعين : الحارث بن سويد بن الصامت الذى غدر بالمسلمين غدرا خسيسا لئيما ، فقتل منهم ــ بطريق الخيانة والغدر ــ عددا فى غزوة أحد ، فاستجاب عويم مسارعا ، ونفذ ما أمر به الرسول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

والى جوار هذا الكفاح الموصول كان عويم حريصا على وحدة الامة المؤمنة ، عاملا بكل ما استطاع على تجنيبها مواقف الخلاف ومواطن الفتنة ، ولذلك نراه حينما حاولت عقارب الافساد أن تدب بين المسلمين ، بسبب اختيار الخليفة الاول بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، حيث وسوس الشيطان لبعض الناس ان يكون هناك خليفتان : أمير من المهاجرين ، وأمير من الانصار ، نرى عويما يسارع مع زميله معن بن عدى الى سحق هذه الفتنة ، حيث ذهبا الى أبى بكر وقالا له : « باب فتنة نرجو أن يغلقه الله بك » .

وكان هذا الكلام مفتاحا طيبا لاجتماع «السقيفة» حيث بايع المسلمون أبا بكر الصديق رضى الله عنه ،

وأبقوا الفتنة نائمة فى مراقدها : « وان هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاتقون » .

والى جوار هــذا الجهاد والنضال ، مع هذه الحكمة البينة والنية الطيبة ، كان عويم رجلا نظيفا طهورا ، حتى يروى انه أول من استنجى بالمــاء ، ويروى أن قول الله تعالى فى سورة التوبة عن مســجد التقوى : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » نزل فى شأن عويم بن ساعدة واخوان له من أمثاله (١).

ويروى ان الرسول عليه الصلاة والسلام علق على هــذه الآية الــكريمة بقوله : نعم المرء : منهم عويم بن ساعدة » . وفى رواية انه قال : « نعم الرجال : منهم عويم بن ساعدة » . ويقول راوى الحديث : « لم يبلغنا انه سمى منهم رجلا غير عويم » (٢) .

كما يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم استدعى عويم بن ساعدة بعد نزول الآية وسأله متأكدا : ما هذا الطهور الذى أثنى الله به عليكم ؟ فأجابه عويم قائلا : يارسول الله ، ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط الا غسل فرجه . فقال الرسول مؤيدا : هو هذا . وفى رواية : « الا غسل مقعدته » . والمقعدة هى الدبر . وفى رواية انه قال للنبى : « اننا نستنجى بالماء » . وفى رواية أخرى : « اننا نغسل أثر الغائط والبول » (٣).

وفوق هــذا وذاك كان عويم بن ساعدة رجلا رشيــدا فى قوله ، حكيما فى كلامه ، وله عبارات بليغة

(١) انظر البداية والنهاية ، ج ٧ ص ١٠٥ . وتفسير الطبرى وابن كثير عند الآية المذكورة . وفى الطبقات ج ٣ ص ٣١ : « وكان عـويم أول من غسل مقعدته بالماء فيما بلغنا » .

(٢) تاريخ الطبرى ، ج ١١ ص ٣١ .

(٣) انظر تفسير ابن جرير وتفسير ابن كثير فى الآية .

مأثورة ، يستهدى فيها كتاب الله عز وجل ، فهو مثلا يقول : « احذروا النقم » . وهو فى هذا يستضىء بقول الخالق جل جلاله : « واتقوا فتنـــة لا تصيـــبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب » .

ويقول عويم ايضا : « احمدوا الله على حسن البلاء وطول العافية » . وهو يستضىء فى هـــذا بقول الحق تبارك وتعالى : « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خيركم من طال عمره وحسن عمله » .

ولقد طال عمر عويم بن ساعدة وحسن عمله ، حتى بلغ الخامسة والستين ، أو السادسة والستين ، وظل على عهده مع ربه عز شأنه ، يعبد ويجاهد ، ويتطهر ويتحرر ، ويسمو ويعلو ، ويفى ويفدى ، حتى أتاه أجله فى عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب (١) ، سنة عشرين للهجرة (٢) .

ولمـــا علم عمر بوفاة عويم ، سارع اليه ، وشارك فى تشييعه ، ثم وقف على قبره ، وهو بين دار الدنيا ودار الآخرة ، وقال لمن حوله : « لايستطيع احـــد من أهل الارض أن يقول انه خير من صاحب هـــذا القبر ، ما نصبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم راية الا وعويم تحت ظلها » !

رضوان الله تبارك وتعالى على عمر بن الخطاب العظيم الجليل ، ورضـــوان الله تبـــارك وتعالى على عويم بن ساعدة المجاهد الطهور النبيل .

---

(١) وقيل توفى فى حياة الرسول ، ولكن الصحيح ماذكرنا ، لأن لعويم اثرا فى بيعة أبى بكر .

(٢) كان لعويم ولد اسمه عتبة ، واخـر اسمة سويد . وأمهما امامة بنت بكير .

الشهيد الصالح المتواضع
ثابت بن أقرم البلوى

ان عقيـــــدة الايمان بالله جل جلاله تعلم صاحبها الجندية المجهولة الموصولة ، والعمل الدائب الصامت ، لان المؤمن المخلص يعلم علم اليقين ان ما عند الله خير مما عند الناس : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق». وان الآخرة أولى وابقى وأعلى من الاولى : « وان الدار الآخرة لهى الحيوان (١) لو كانوا يعلمون » .

وصلوات الله وسلامه على من قال له ربه : « وللآخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » .

ولذلك كان المؤمن فى صدر الاسلام ينطلق فى مجالات العبادة والعمل والنضال ، بلا ضجيج ولا عجيج ، وبلا مباهاة أو مفاخرة أو حديث عن النفس ، لانه يعمـل لوجه الله ، ولان ربه تبارك وتعالى لا يكاد يذكر الجهاد الا ويذكره بأنه فى سبيل الله .

فى سورة البقرة : « ولا تقولوا لمن يقتـل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولـكن لا تشعرون » .

وفيها : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، ان الله لايحب المعتدين » .

وفيها : « ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا

(١) أى الحياة الكاملة التامة .

فى سـبيل الله أولئك يرجون رحمـة الله والله غفور رحيم » .

وفى سـورة المـائدة : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين أعزة على الـكافرين يجاهـدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

وفى سـورة الانفـال : « ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سـبيل الله والذين آووا ونصروا أولئـك بعضهم أولياء بعض » .

وفى سورة التوبة : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وانفسهم أعظم درجة عند الله » .

وفيها : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالـكم وانفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لـكم ان كنتم تعلمون » .

والله خير من يحصى ويجزى ، فلا موجب للحديث عن النفس أو تزكية الذات ، والقرآن الـكريم يقول : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

ومن هنا ضم سجل السيرة النبوية العطرة أخبـار رجال أتقيـاء أوفيـاء ، عاشـوا للحق ، وناضـلوا من أجله ، وماتوا ثابتين عليه ، فى بذل وتضحية وفداء ، وفى تواضع وصمت واصرار .

ولا أقل ـ فيما يجب علينـا ـ من أن نتعرف الى هؤلاء الاوفياء ، لعل نفحة من نفحات الاعتبار والادكار تطوف بساحتنا ، فتبعث الرقود ، وتحرك الجمود ، والذكرى تنفع المؤمنين .

وهذا واحد منهم لا يكاد يعرفه الاكثرون :

انه المجاهد الصابر الصامت ، والشـهيد الصالح المتواضع : ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عدى بن العجلان

البلوى (١) ، وهو من طليعة المجاهدين السابقين ، فقد جاء فى سيرته أنه « شهد غزوات بدر وأحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وهـذا تعبير كريم ، ووسـام عظيم ، تحلى السيرة به صـدور طائفة من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فما نـكاد نطالع سـيرة أحد منهم ، حتى نجد فى مطلع السيرة هـذا التعبير عنه : « شـــهد بدرا واحدا والخندق وسائر المشـاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

والى جوار الغزوات التى شهدها ثابت بن أقرم ، أرسـله النبى صلوات الله وسـلامه عليه فى طائفة من الواجبـات النضـالية الجهادية ، فقد أرسله مثلا أميرا على سرية فدائية الى جهـة فى نجد تسمى « الغمرة » وجاهـد فيهـا جهـادا بطوليـا ، وأصيب بجراح قاسـية بليغة ، حتى قيل انه مات فى هذه السرية ، مع ان الواقع ان الله عزت قدرته كتب له البقاء بعدها، ليواصل كفاحه فى سبيل الايمان وكرامة الانسان (٢) .

وفى السنة الثامنة للهجرة جاءت « غزوة مؤتة » (٣)

(١) البلوى : نسبة الى بلى ، وهى احدى القبائل ، وأغلب المراجع تذكره باسم ثابت بن أقرم ، ولكن النووى ذكره فى كتابه : « تهذيب الاسماء واللغات » : ثابت بن أرقم ، ولعله تحريف .

(٢) عن عروة : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قبل الغمرة من نجد ، أميرهم ثابت بن أقرم ، أصيب فيها (الاصابة ج ١ ص ١٩٢) وقال الحافظ : يمكن تأويل قوله « أصيب » أى أصيب بجراح ، فلم يمت (أسد الغابة ج ١ ص ٢٦٣) . وفى تهذيب الاسماء (ج ١ ص ١٣٩) أن الصواب أن ثابتا لم يمت فى هذه السرية ، وبه قال الشافعى فى المختصر والجمهور . والغمرة منهل من مناهل طريق مكة، ومنزل من منازلها ، وهو فصل ما بين تهامة ونجد (معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢١٢) .

(٣) انظر تفاصيل من حديثها فى كتابى : « الفداء فى الاسلام » ص ١٢٦ وما بعدها . الطبعة الثانية .

التى كانت امتحانا عسيرا لكتائب الاسلام ، والتى سقط فيها ثلاثة من كبار القادة المجاهدين شهداء فى الميدان هم : جعفر بن أبى طالب ، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة .

وقد شارك ثابت بن أقرم فى هذه الغزوة ، وجاهد فيها بكل ما استطاع ، دون ضجة منه أو جلبة ، وكم من مخلص يعمل فى صمت ودأب ، لا يحس به الناس، ولا يبالون أمره ، وهو عند الله عظيم جليل ، لو أقسم على الله لأبره .

وهكذا كان شأن ثابت بن أقرم يوم مؤتة ، وحينما سقطت الراية من يد القائد الشهيد الثالث ، سارع ثابت فتناولها ورفعها ، حتى يبقى لواء الاسلام عاليا. ولكنه يحب أن يجاهد فى صمت ، ولايريد لنفسه أن تدخل مدخلا من مداخل الشهرة والاعلان عن الذات ، ولذلك قال لرفاق النضال من حوله : يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم للقيادة .

فقالوا له : أنت !

فأجاب متواضعا منكرا نفسه : ما أنا بفاعل ..

وتطلع ثابت فرأى خالد بن الوليد قريبا منه ، فدفع اليه بالراية فى عزم وتصميم قائلا له : أنت أعلم بالقتال منى!

وتسلم خالد اللواء لانقاذ الموقف ، ووافق المجاهدون على قيادته .

ونفهم من ذلك الحادث ان ثابتا كان قريبا من مكان القادة أو الصالحين للقيادة ، فلم يكن نكرة من النكرات ، ولا امعة من الامعات ، ونفهم ان رأى الناس فيه كان رأيا جميلا حسنا ، بدليل انهم عرضوا عليه أن يواصل حمل اللواء ، وان ثابتا كان رجلا متواضعا

مخلصا ، فلم يغره هذا العرض ، وهو يعلم ان هناك من هو أقدر منه وأعلم بالقتال ، وهو خالد بن الوليد سيف الله الذى سله الله على المشركين .

وعاد ثابت بن أقرم من مؤتة ، لا لينام أو يهدأ ، بل ليواصل من جديد نضاله لرفع كلمة الاسلام ، فى صبر وصمت وفداء . وكان يقرر ان النصر فى الميدان ليس بالكثرة فى العدد أو العدة ، وانما هو — أولا وقبل كل شيء — بقوة الإيمان وسلطان اليقين . ولذلك روى أبو هريرة قال : شهدت مؤتة ، فقال لى ثابت بن أقرم : انك لم تشهدنا ببدر ، انا لم ننصر بالكثرة .

وصدق ثابت ، فالحق جل جلاله يقول فى ذلك :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين » .

ويقول : « قل لايستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولى الالباب ، لعلكم تفلحون » .

ثم جاءت بعد ذلك معركة اليمامة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فسارع اليها ثابت بن أقرم ، وكان ثانى أثنين تقدما الجيش المؤمن ، ليمهدا أمامه طريق الفتح والنصر باذن الله تعالى ، فخرج ثابت مع عكاشة بن محصن الاسدى (١) ، وقاتلا قتال الرجال، وناضلا نضال الابطال ، وثبتا ثبات الجبال ، حتى لقيا الشهادة فى سبيل الله عز وجل ، ودفنا فى مكانهما ، بلا ضجة أو احتفال .

وكما عاش ثابت بن أقرم البلوى مجاهدا صامتا ، لايزكى نفسه ، ولايتحدث عن ذاته ، لحق بربه سبحانه

(١) انظر تفاصيل بطولته فى كتابى « أبطال عقيدة وجهاد » ص ١٢٩ — ١٤٢ . نشر مجمع البحوث الاسلامية .

مجاهدا صامتا ، وهنـاك يلقى عظيم الجزاء عند الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وكان أستشهاد ثابت يوم اليمامة سنة احدى عشرة للهجرة ، فى قتال أهل الردة ، قتله طليحة ، وقتل معه عكاشة بن محصن ، وقد اشترك طليحة مع أخيـه فى قتلهما ، ثم أسلم طليحة بعد ذلك (١) .

وفى « الطبقات الـكبرى » لابن سعد : « وأقبل خالد ابن الوليد معه المسلمون ، فلم يرعهم الا ثابت بن أقرم قتيلا تطؤه المطى ، فعظم ذلك على المسلمين ، ثم لم يسيروا الا يسيرا حتى وطئوا عكاشة قتيلا » (٢) .

وفى أسـد الغابة : ان ثابتا قتل سنة احدى عشرة ، فى قتال الردة ، وقيل سنة اثنتى عشرة ، قتله طليحة الاسـدى ، وقتل معه عكاشة بن محصن ، اشترك طلحة وأخوه فى قتلهما ، ثم أسلم طليحة (٤) .

وفى الاصـابة : قال عمر لطليحة بعد أن أسلم :كيف أحبك وقد قتلت الصالحين : عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم ؟

فقال طليحة : أكرمهما الله بيدى، ولم يهنى بأيديهما! ويالها من اجابة .

ولقد اتفق أهل المغازى على ان ثابت بن أرقم قتـل شـهيدا فى عهـد أبى بكر رضى الله عنه ، قتله طليحة ابن خويلد الاسدى (٤) .

رضوان الله تبارك وتعالى على الشـهيد الصامت ، الصالح المتواضع ثابت بن أقرم البلوى ؟

وسلام عليه فى الخالدين .

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ، ج ١ ص ١٣٩ .
(٢) الطبقات ، ج ٣ ص ٣٦ . القسم الثانى .
(٣) أسد الغابة : ج ١ ص ٢٦٣ . (٤) الاصابة ، ج ١ ص ١٩٢ .

الشهيد ابن الشهيد أخو الشهيد
عون بن جعفر بن أبي طالب

سيظل امام الانسانية محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثلا أعلى فى كل جانب من جوانب البطولة والعظمة، وما من موقف تقفه البشرية ، وتتطلب فيه الرائد والقائد ، الا وجدت فى رسول الله بغيتها وطلبتها : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . والله جل جلاله هو الذى يقول فى شأن رسوله : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ، ويقول له أيضا : « وانك لعلى خلق عظيم » .

ونحن بحاجة الى الاستكثار من حوافز النضال والكفاح ، وأمثلة الوفاء والفداء ، ونماذج التضحية والجهاد . ولقد كان رسول الله اماما أى امام فى هذا الباب ، فهو المبرز السباق الى مواطن الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد ، وهو القائل : « لولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فأقتل » .

وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى كرم المجاهدين، ورفع شأنهم ، وصان حرمتهم ، حتى قال فيما يرويه ابن حجر عن أبى موسى : « اتقوا أذى المجاهدين ، فان الله يغضب لهم ، كما يغضب للرسل ، ويستجيب دعاءهم كما يستجيب دعاء الرسل » (١) .

ولم يقتصر جهاد الرسول على ذاته ، بل كان من حوله هؤلاء الطاهرون المخلصون من آل بيته الكريم ،

---

(١) أسد الغابة لابن حجر ، ج ١ ص ٣٤٨ طبعة التعاون .

الذين حملوا معه لواء الكفاح والجهاد ، حتى أثبتوا للناس أن الانتساب الى شجرة النبوة يستلزم تبعات وواجبات ، فحمزة عم النبى قد مات شهيداً فى غزوة أحد ، وعمه جعفر بن أبى طالب مات شهيداً فى غزوة مؤتة ، وابن عمه على مات شهيداً ، وابن عمه محمد ابن جعفر بن أبى طالب مات شهيداً ، وابن بنته الحسين ابن على مات شهيداً ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وهناك مئات من آل بيت النبى صلوات الله وسلامه عليه زانوا صفحات التاريخ بالجهاد حتى الاستشهاد ، وألف المؤرخون حول هذه البطولات كتبا تحدثنا عن هؤلاء الشهداء ، فقد ألف أبو مخنف كتابه : « مقتل على » وكتابه : « مقتل الحسين » ، وألف الهيثم بن عدى كتابه « أخبار الحسن ووفاته » ، وألف الواقدى « مقتل الحسن » و « مقتل الحسين » ، وألف بن النطاح : « مقتل زيد بن على » ، وألف الغلابى «مقتل على » و « مقتل الحسين » ، وألف الاشنانى «مقتل الحسن » و « مقتل زيد بن على » ، وألف عمر بن شبة « مقتل محمد وأبراهيم ابنى عبدالله بن الحسن» ، وألف المدائنى كتابه : « أسماء من قتل من الطالبيين» ، وألف أبو الفرج الاصفهانى كتابه « مقاتل الطالبيين » ، وهكذا (١) ...

وهذا واحد من أولئك الرجال الابطال :

انه الصحابى الجليل ، المجاهد الشهيد : عون بن جعفر بن أبى طالب ، ووالد عون هو أبو المساكين ، الشهيد الطيار ، ذو الجناحين فى الجنة : جعفر بن أبى

(١) أنظر كتاب « مقاتل الطالبيين » لابى الفرج ، بتحقيق الاستاذ السيد أحمد صقر ، صفحة ك و ل .

طالب الهاشمى (١) ، الذى نال نعمة الشـــهادة فى غزوة مؤتة ، والذى قال فيه الرســول عليه الصــلاة والسلام : « كان جعفر خير الناس للمساكين » .

ووالدة عون هى أسـماء بنت عميس الخثعميـة ، الصحابية الجليلة ، السابقة الى الاسلام ، التىهاجرت الهجرتين ، وصلت الى القبلتين (٢) .

وقد ولد عون بأرض الحبشة ، بعد أن هاجر اليها والداه جعفر وأسماء . ويذكر ابن عبد البر طائفة ممن هاجروا الى الحبشة ، ثم يقول : « ثم خرج بعـدهم جعفر بن أبى طالب ، ومعه امرأته أسماء بنت عميس ، فولدت له هناك بنيه : محمدا وعبد الله وعونا » (٣).

ولم يرجع جعفر مع أهله من الحبشـة الى المدينة الا بعد أن فتح المسلمون أرض خيبر ، ولمـا رآه الرسول فرح به وقال : « ما ادرى بأيهما أنا أسر : بقـدوم جعفر أم بفتح خيبر » .

ونشأ عون بن جعفر فى ظلال الاســـلام والقرآن والايمان ، ترعاه عين الله أولا ، ثم تلاحظه عيون والديه بالتأديب والتوجيه ، ثم تشمله نفحات النبوة عن قرب، وبعد حين خرج والده جعفر ليكون أحـد قواد ثلاثة عينهم الرسول صلوات الله وسـلامه عليه ، ليقودوا كتائب المجاهدين فى غزوة مؤتة تباعا ، وشاءت الاقدار أن ينال جعفر نعمة الشهادة فى هـــذه المعركة ، بعد مواقف بطولية، اظهر فيها جعفر اقدام المؤمنين وثبات الموقنين

---

(١) أنظر ترجمته فى مقــاتل الطالبين ص ٦ ـ ١٨ . والبداية والنهاية ج ٤ ص ٢٥٥ . وتهذيب التهذيب ج ٢ ص ٩٨ . والاصابة ج ١ ص ٢٤٨ . وغير ذلك . (٢) انظر حديثهــا مفصــلا فى كتابى « فدائيون فى تاريخ الاســـلام » نشر دار الرائد العربى ببيروت . ص ٢٢٣ ـ ٢٢٧ . (٣) الدرر ، ص ٥١ .

وحينما بلغ النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ادعوا الى بني أخي (يعنى أولاد جعفر، وفيهم عون) ، فجيء بهم اليه وهم كالافراخ ، فقال النبى : ادعوا الى الحلاق .

فأحضروه ، فأمره النبى فحلق رءوسهم ، ثم تطلع اليهم الرسول فى رحمة وحنان ، وقال : « أما محمد فشبيه عمنا أبي‌طالب، وأما عون فشبيه خلقي وخلقي». وأضاف قوله : « اللهم اخلف جعفرا فى أهله ، وبارك لعبد الله (ابن جعفر) فى صفقة يمينه » .

وحينما ظهر على أسماء بنت عميس ما يدل على خشيتها أن يتعرض أولادها لفقر أو حاجة ، انكر عليها الرسول ذلك ، وأكد لها أنهم سيكونون موضع عنايته ورعايته ، وقال لها : « أتخافين عليهم العيلة (أى الفقر) وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة ؟ ! » (١) .

وشب عون بن جعفر ، وبلغ مبلغ الرجال ، وأخذ يشارك فى الغزوات والقتال ، ونفعه الله تبارك وتعالى نفعا كبيرا برعاية الرسول له ، حيث نفخ فيه روح البطولة والاقدام ، وعلمه ان ما عند الله خير وأبقى ، وان المؤمن يجب أن يكون مستعدا على الدوام لبذل روحه فى سبيل ربه الذى خلقه ورزقه ، لان حياة الانسان فى الدنيا قليلة زائلة ، وأما حياة الشهداء عند ربهم فهى الحياة حق الحياة : « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات ، بل أحياء ، ولكن لاتشعرون، ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين ، الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا : انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم

(١) البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٢٢١ .

صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » .
ولحق الرسول صلى الله عليه وسلم بربه ، حيث انتقل الى الرفيق الاعلى ، وظل عون بن جعفر وفيا للعهد ، صادقا فى الوعد ، يجاهد فى سبيل الله بما يستطيع ، وظل كذلك فى عهد أبى بكر الصديق رضوان الله عليه ، ثم جاء عهد عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وعون ما زال المؤمن الصادق الايمان ، وكأنه كان يتذكر على الدوام ما روى عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه انه قال لصحابته : «أتصبرون على البلاء؟» .
فقالوا : نعم ..
فعاد يسألهم : أتشكرون عند الرخاء ؟ ..
وأجابوا : نعم ..
فرجع يسألهم : أتثبتون عند اللقاء ؟ ..
وكان جوابهم : نعم ..
فقال لهم الصادق المصدوق : «مؤمنون ورب الكعبة» !.
وما داموا مؤمنين بهذه الصورة فهم اذن من أهل الفوز والنصر المبين: « وكان حقا علينا نصر المؤمنين» .
وجاءت فى عهد عمر معركة شديدة بين المسلمين وأعدائهم المجرمين ، وهى معركة « تستر » وتستر اسم مدينة كبيرة ببلاد فارس فى «خوزستان». وخرج عون الى هذه المعركة مجاهدا كعادته ، وخرج معه شقيقه محمد بن جعفر ، وشاءت عناية الله أن ينال الشقيقان معا نعمة الشهادة فى سبيل الله ، ومضيا الى عالم الخلد ليقيما هناك نعم المقام : « ان المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .
واذا كان عون الشهيد ابن الشهيد أخو الشهيد ، لم يترك ذرية ولا عقبا من ورائه ، فحسبه شرفا ومجدا ان يكون سلالة أولئك الشهداء الاوفياء ، من أهل

الفداء والوفاء ، وحسبه قبل هذا وبعده أن ينال نوعا من الشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجال الاستشهاد ، فاذا كان الشهداء قد كثروا فى آل بيت الرسول ، فنحن نرى أكثر أقارب عون بن جعفر قدكانوا كذلك من الشهداء ، فجده حمزة بن عبد المطلب مات شهيدا ، ووالده جعفر بن أبى طالب مات شهيدا ، وعمه على بن أبى طالب مات شهيدا ، وابن عمه الحسين بن على مات شهيدا ، وأخوه محمد بن جعفر مات شهيدا ، رضوان الله عليهم أجمعين .

ولا يعرف التاريخ الاسلامى ــ كما جاء فى مقاتل الطالبيين ــ أسرة كأسرة أبى طالب تعرضت للبلاء حتى كثر منها الشهداء ، وقد بلغت الغاية من شرف الارومة وطيب النجار ، وضل عنها حقها وجاهدت فى سبيله حق الجهاد على مر الاعصار ، ثم لم تظفر من جهادها المرير الا بالحسرات ، ولم تعقب من جهادها الا العبرات ، على ما فقدت من أبطال أسالوا أنفسهم فى ساحة الوغى راضية قلوبهم ، مطمئنة ضمائرهم ، وصافحوا الموت فى بسالة فائقة ، وتلقوه فى صبر جميل يثير فى النفس أفانين الاعجاب والاكبار ، ويشيع فيها ألوان التقدير والاعظام (١) .

ويقول العقاد فى « عبقرية الامام » : « فى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والاحساس المتطلع الى الرحمة والاكبار ، لأنه الشهيد أبو الشهداء ، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحدا بعد واحد ، شيوخا جللهم وقار الشيب ، ثم

(١) مقاتل الطالبيين ، المقدمة ، صفحة ى .

جللهم السيف الذى لايرحم ، أو فتيانا عوجلوا وهم فى نضرة العمر ، يحال بينهم وبين متاع الحياة ، بل يحال بينهم أحيانا وبين الزاد والماء ، وهم على حياض المنية جياع ظماء .

واوشك الالم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم ، حتى قال شاعر فيلسوف كأبى العلاء لايظن به التشيع، بل ظنت باسلامه الظنون :

وعلى الافق من دماء الشهيد
ين : على ، ونجله شاهدان
فهما فى أواخر الليل فجرا
ن ، وفى أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة ، قلما تبلغها فى سير الشهداء غاية ، وكثيرا ما تتعطش اليها سرائر الامم فى قصص الفداء التى عمرت بها تواريخ الاديان » (١) .

ويعود العقاد ليقول فى كتابه « أبو الشهداء » هذه العبارة : « فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدوة وذكرى ، وحسبه أنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين » (٢) .

رضوان الله على سلالة المجاهدين الشهداء ، أهل الفداء والوفاء .

---

(١) عبقرية الامام ، ص ٣ و ٤ .
(٢) أبو الشهداء ، ص ١٧٦ طبعة دار الهلال .

حامل مفتاح الكعبة

عثمان بن طلحة العبدري

حينما تحتشد الجموع حول الكعبة ، ترنو أبصارهم الى بيت الله الحرام ، اول بيت وضع للناس ، فتثور خواطرهم تسترجع الذكريات الخوالد التى تدور حول هذا البيت العتيق ، ومن بين هذه الذكريات ذكرى تتعلق ببطل من أبطال الاسلام ، ومجاهد من كتيبة الايمان ، هو حاجب بيت الله تعالى ، وحامل مفتاح الكعبة المشرفة : الصحابى الجليل عثمان بن طلحة ابن أبى طلحة عبد الله بن عبد العزى العبدرى القرشى، الذى يروى انه مات شهيدا سنة ثنتين واربعين فى معركة « اجنادين » رضوان الله تعالى عليه .

ولقد أراد الله جل جلاله ــ ليميز الخبيث من الطيب ، وليتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود ــ أن يظل عثمان بن طلحة حينا من الزمن فى ظلمات الجاهلية ، فظل على الشرك الى ما قبل فتح مكة بقليل .

ولكنه كان شريفا فى قومه : « وكان اليه اللواء والسدانة مع الحجابة ، ويقال : والندوة أيضا فى بنى عبد الدار » (١) . وكان صاحب مروءة انسانية ، وشهامة ملحوظة فى جاهليته قبل اسلامه ، ومن هنا

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ، ج ٣ ص ٢٦٠ ، مطبعة الاستقامة .

قام برعاية السيدة أم سلمة رضــوان الله عليها حين هاجرت منفردة (١) .

فقد خرجت أم سلمة على بعير، وفى حجرها رضيعها سلمة ، وزوجها أبوسلمة يقود لها البعير، فهجم عليهم أهلها ، وانتزعوا الطفل وأمه ، وهاجر أبوسلمة وحده مضطرا ، تاركا وراءه زوجته وابنه الوليد ، وظلت أم سلمة كذلك قرابة سنة ، ثم تشفع لها بعض أقاربها ، فتركوها تهاجر وحيدة مع وليدها ، وفى أول الطريق لقيها عثمان بن طلحة فسألها : أو ما معك احــد ؟ فأجابت : ما معى أحد الا الله وابنى هذا . فقال : والله ما الك من مترك . وقاد لها بعيرها ، ورعى حرمتهــا خير رعاية ، وصان شرفها وكرامتها خير صيانة ، حتى أبلغهــا مكان زوجها ، فكانت تقول : « فوالله ماصحبت رجلا من العرب أرى انه أكرم من عثمان بن طلحة » .

ولندع ابن كثير يصور لنا الموقف بلغته ، فيقول :

« قال ابن اسحاق : فحدثنى أبى ، عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبى سلمة ، عن جدته أم سلمة ، قالت : لما أجمع أبوسلمة (٢) الخروج الى المدينة رحل لى بعيره ، ثم حملنى عليه ، وجعل معى ابنى سلمة بن أبى سلمة فى حجرى ، ثم خرج يقود بى بعيره .

فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا اليه فقالوا له : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هــذه علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ فنزعوا خطــام البعــير من يده ، وأخذونى منه .

---

(١) الدرر فى المغازى والسير لابن عبد البر ، ص ٨١ بالهامش .
(٢) أجمع : أى عقد العزم .

وغضب عند ذلك بنو عبد الاسد رهط أبى سلمة ، وقالوا : والله لانترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا ابنى سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الاسد ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجى أبو سلمة الى المدينة ، ففرق بينى وبين ابنى وزوجى ، فكنت اخرج كل غداة فأجلس فى الابطح (١) ، فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنة أو قريبا منها ، حتى مر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى فرحمنى ، فقال لبنى المغيرة : الا تحرجون من هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها ؟ ..

فقالوا لى : الحقى بزوجك ان شئت ، فرد بنو عبد الاسد الى عند ذلك ابنى ، فارتحلت بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله ، حتى اذا كنت بالتنعيم (٢) لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخا بنى عبد الدار ، فقال : الى أين يا ابنة أبى أمية ؟.. قلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أو مامعك أحد ؟ قلت : ما معى أحد الا الله وابنى هذا ، فقال : والله مالك من مترك .

فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى انه كان أكرم منه ،

---

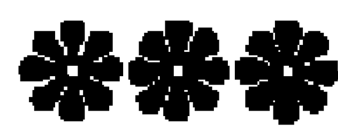
(١) الابطح : يضاف الى مكة والى منى ، لان المسافة بينه وبينهما واحدة ، وربما كان الى منى أقرب ، وهو المحصب ، وهو خيف بنى كنانة ، وقد قيل انه ذو طوى ، وليس به . « معجم البلدان » .

(٢) التنعيم : موضع بمكة فى الحل ، على فرسخين من مكة ، وقيل على اربعة (معجم البلدان) .

كان اذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى ، حتى اذا نزلت استأخر ببعيرى فحط عنه ، ثم قيده فى الشجر ، ثم تنحى الى شجرة فاضطجع تحتها ، فاذا دنا الرواح قام الى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى وقال : اركبى ، فاذا ركبت فاستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقادنى حتى ينزل بى .

فلم يزل يصنع ذلك حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر الى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال : زوجك فى هذه القرية . وكان أبو سلمة بها نازلا ، فأدخلنيها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا الى مكة .

فكانت تقول : ما أعلم أهل بيت فى الاسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحبا قط كان أكرم من عثمان بن أبى طلحة » (١) .



وتأذن الله بفضله على عثمان بعد حين ، فنفتح قلبه للاسلام ، حيث توجه مع سيف الله المسلول خالد بن الوليد ، والبطل الفاتح عمرو بن العاص ، أثناء هدنة الحديبية ، الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعلنوا اسلامهم ، ويروى انهم التقوا فى طريقهم اليه عند مكان يسمى « الهدة » . ويقول ياقوت فى «معجم البلدان » ان الهدة موضع بين مكة والطائف ، وجاء فى « الدرر » لابن عبد البر : قيل أسلم قبل عمرة القضاء وقيل بعدها (٢) .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٢ ص ٢١٥ . واقرأ قصة أم سلمة وأبى سلمة بتفاصيلها فى كتابى « الفداء فى الاسلام » ص ٩١ ــ ١٠٠ الطبعة الثانية .

(٢) الدرر ، ص ٢٢١ .

وجاء فى « البداية والنهاية » ان عثمان أسلم فى أول سنة ثمان قبل الفتح (١) .

وحدد الطبرى فى تاريخه اليوم والشهر الذى أسلم فيه عثمان ، فذكر انه أسلم فى أول صفر من السنة الثامنة للهجرة (٢) .

وحينما رأى الرسول عليه الصلاة والسلام هؤلاء الابطال الثلاثة ، وهم عثمان ، وخالد ، وعمرو ، قال : « رمتكم مكة بأكبادها » يعنى انهم وجوه أهل مكة ، وقال ابن الاثير فى « النهـــاية » : أراد صميم قريش ولبابها وأشرافها .

ثم جاء فتح الله المبين ونصره العظيم الذى تمثل فى فتح مكة بلا معركة تذكر ، وخرج عثمان بن طلحة مع الركب النبوى الكريم ، وحين تم الفتح أمر الرســول صلوات الله وسلامه عليه عثمان وعمرو بن العاص بأن يفتحا الكعبة ، ويحطما ما فيها من الاصنام ، ويزيلا مافيهـا من الصـور ، وقد كان أهل الجاهلية من افكهم وضلالهم قد رسموا لابى الانبياء ابراهيم عليه الســلام صورة يستقسم فيها الازلام (أى القداح) ، مع انه داعيــة التوحيــد الاول ، وقد غضب الرسول من ذلك وقال : قاتلهم الله ، جعلوه شيخا يستقسم بالازلام .

ودخل النبى الكعبة ومعه عثمان بن طلحة ، وبلال ابن أبى رباح ، وأسامة بن زيد ، وصلى النبى داخل الكعبة ركعتين ، ثم خرج فوقف على بابها ، وخطب خطبة جليلة قال فيها :

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٢٣ .
(٢) تاريخ الطبرى ، ج ٣ ص ٢٩ ــ ٣٠ .

« الحمد لله الذى صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده ، ماذا تقولون ؟ وماذا تظنون ؟ قالوا : نقول خيرا ، ونظن خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت .

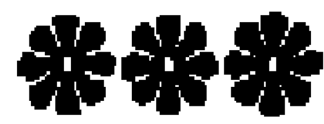
فقال : انى أقول كما قال أخى يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ألا ان كل ربا فى الجاهلية أو دم أو مأثرة فهو تحت قدمى هاتين ، الا سدانة الكعبة وسقاية الحاج ، الا وفى قتل شبه العمد : قتيل العصا والسوط ، الدية مغلظة ، مائة ناقة ، منها أربعون فى بطونها أولادها .

ان الله قد اذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله اتقاكم ، الا ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والارض ، فهى حرام بحرمة الله ، لم تحل لاحد كان قبلى ، ولا تحل لاحد يأتى بعدى ، وما أحلت لى الا ساعة من النهار ، لاينفر صيدها ، ولايعضه عضاهها (أى لايقطع شجرها) ، ولا تحل لقطتها الا لمنشد ، ولا يختلى خلاها (أى لايقطع نباتها الرطب الرقيق) .

فقال العباس : الا الاذخر يارسول الله (والاذخر حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب) ، فانه لابد منه للقبور والبيوت . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم قال :

« الا الاذخر ، فانه حلال ، ولا وصية لوارث ، والولد للفراش ، وللعاهر الحجر ، ولا يحل لامرأة ان تعطى من مالها الا باذن زوجها ، والمسلم اخوالمسلم ، والمسلمون اخوة ، يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويرد عليهم أقصاهم ،

ولا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عهد فى عهده ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، والبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث الا مع ذى محرم ، ولا صلاة بعد العصر ، ولا بعد الصبح ، وأنهاكم عن صيام يومين : يوم الاضحى ويوم الفطر » (١) .



وفى وسط هذا الجمع الحاشد ، والموقف المشهود، نادى النبى صلى الله عليه وسلم على عثمان بن طلحة.

ولعل عثمان قد تذكر هنا يوما مر عليه فى جاهليته ، وكان يحرس الكعبة ومعه مفتاحها ، فأقبل الرسول عليه الصلاة والسلام ليطوف ، وكأنه يريد أن يدخل الكعبة ، فأبى عثمان واغلظ مع الرسول المعاملة ، فقال له النبى : يا عثمان ، لعلك سترى هذا المفتاح بيدى يوما أضعه حيث شئت .

فقال عثمان وهو ما زال فى ظلمات الجاهلية : لقد هلكت قريش اذن وذلت .

فرد عليه الرسول قائلا : بل عمرت وعزت .

وخشى عثمان حين سمع النداء أن يحاسبه الرسول أو يعاتبه على ذلك ، وقد أصبح السيد المطاع .

ولكن الرسول أحسن استقباله حين اقبل عليه ، وحدث فى ذلك الموقف أن رجا العباس بن عبد المطلب أن يعطيه الرسول مفتاح الكعبة فأبى ، ورجا على بن أبى طالب أن يعطيه النبى المفتاح فأبى .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، ج ٥ ص ١٩٨ ، طبعة بيروت .

واعطى النبى عليه الصلاة والسلام المفتاح لعثمان قائلا : « خذوها يابنى طلحة خالدة تالدة ، لاينزعها منكم الا ظالم ، يا عثمان ، أن الله استأمنكم على بيته فكلوا بالمعروف »

وفى هذا الامر نزل قول الله تبارك وتعالى : « انالله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، أن الله نعما يعظكم به ، ان الله كان سميعا بصيرا » .

وأخذ عثمان المفتاح ، وهو لا يكاد يصدق عينيه ، ولعله كان ما يزال يفكر فى موقفه يوم أغلظ للنبىالمعاملة

وانصرف عثمان ، ولكن الرسول عاد فناداه ، فلما دنا منه قال له بصوت رقيق : ألم يكن الذى قلت لك يا عثمان ؟ فرد عليه عثمان وهو يكاد يذوب خجلا : بلى ، أشهد أنك رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

ولقد اجتهد عثمان بن طلحة رضوان الله تعالى عليه، كى يعوض وهو فى الاسلام ما فاته وهو فى الجاهلية ، فأوسع خطاه فى الطاعة والعمل الصالح ، وجاهد فى سبيل الله بما استطاع ، وبسط الله له فى عمره ، فانتفع به فى العمل ابتغاء وجه الله ، وروى عن رسول الله ما روى من حديث الخير والعلم ، ثم لحق بربه عام اثنين وأربعين للهجرة ، يروى انه مات بمكة ، وقيل انه مات فى معركة اجنادين ، وجاء عنه فى الاصابة : « ثم سكن المدينة الى أن مات بها سنة ثنتين واربعين ، قاله الواقدى ، وابن البرقى ، وقيل : استشهد بأجنادين. قال العسكرى : وهو باطل »

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

المجاهد على الدوام

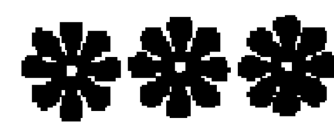
مسلمة بن عبد الملك بن مروان الأموي

روى الامام البخارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «جعل رزقى تحت ظل رمحى» . والنفس تفهم من هذا الحديث الكريم معنى ترجو أن يكون صوابا من الله ، والا فالخطأ منها ومن الشيطان ... أن الحق لابد له من قوة تحرسه وتصونه، والا ضاع تحت جبروت الباطل ، والعامة تقول : « المال السائب يعلم السرقة » ، وكذلك قيل : « من لم يتذأب أكلته الذئاب » .

فرزق المسلم ـ وهو يتمثل فى داره وعقاره ، وسكنه ووطنه ، وزرعه وضرعه ، وكل ما يحوزه ويملكه ـ يجب أن يكون محروسا بعدته وعتاده ، مستظلا بسلاحه ورماحه ، ومن هنا قال القرآن الكريم : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وليست الحرب فى الاسلام غاية مقصودة لذاتها ، ولكنها خطة يدفع اليها بغى الباغين وظلم الظالمين ، ولذلك قال التنزيل المجيد : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، أن الله لايحب المعتدين » . وقال أيضا : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ، واعلموا ان الله مع المتقين»

وصيانة الحق والرزق تستلزم أن يكون أبناء الاسلام دائما على اعداد واستعداد ، وأن تكون طائفة منهم على الدوام فى حالة رباط ، أو على أرض الميدان، حتى يظل الجهاد فريضة قائمة باقية ، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين مجد شأن المؤمن المجاهد الموصول النضال ، فقال : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار اليها » .



وهذا واحد من أبناء الاسلام ، وأتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، يظل أكثر من خمسين عاما يحمل سلاحه ، ويسدد رماحه ، ويذود عن حمى الدين ، ويصون حرمات المسلمين ، ويتقرب بالجهاد الى الله رب العالمين : انه البطل القائد الامير الفاتح أبو سعيد (١)

مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم القرشي الاموى الدمشقى ، واليه تنسب جماعة « بنى مسلمة » التى كانت بلدتهم هي « الاشمونين » وفيها منازلهم ، وهى بلدة بالصعيد الاعلى فى مصر غربى نهر النيل .

وكان مسلمة بن عبد الملك من أبطال عصره ، بل من أبطال الاسلام المعدودين ، حتى كانوا يقولون عنه انه خالد بن الوليد الثانى ، لانه كان يشبه سيف الله المسلول ، فى شجاعته وكثرة معاركه وحروبه ، ويقول عنه المؤرخ يوسف بن تغرى بردى صاحب كتاب « النجوم الزاهرة » هذه العبارة : « كان شجاعا

---

(١) وقيل فى كنيته أيضا : أبو الاصبغ ، وقيل : أبو شاكر . ويقال ان هذه كنية لابن أخيه مسلمة بن هشام بن عبد الملك « النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٨٩ » .

صاحب همة وعزيمة ، وله غزوات كثيرة » (١) .

ويقول عنه ابن كثير : « وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساع مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصونا وقلاعا ، وأحيا بعزمه قصورا وبقاعا ، وكان فى زمانه فى الغزوات نظير خالد بن الوليد فى أيامه ، فى كثرة مغازيه ، وكثرة فتوحه ، وقوة عزمه ، وشدة بأسه ، وجودة تصرفه فى نقضه وابرامه ، وهذا مع الكرم والفصاحة » (٢) . ويقول عنه صاحب العقد الفريد : « ولم يكن لعبد الملك ابن أسد رايا ، ولا ازكى عقلا ، ولا أشجع قلبا ، ولا أسمح نفسا ، ولا اسخى كفا من مسلمة » (٣) .

ولذلك أوصى عبد الملك بن مروان أولاده ، وفيهم مسلمة ، فكان مما قاله لهم عنه : « يا بنى ، أخوكم مسلمة ، نابكم الذى تفترون عنه ، ومجنكم الذى تستجنون به ، أصدروا عن رأيه » (٤) .

ومع ان اخوة لمسلمة تولوا الخلافة دونه ، ظل هو بينهم النجم المتألق الثاقب بجهاده وكفاحه ، وقال عنه مؤرخ الاسلام الذهبى : « كان مسلمة أولى بالخلافة من اخوته » . وليست العبرة بالمناصب والمراتب ، ولكنها بالارادة ، والعزيمة ، والاقدام ، وعمق التفكير ، وحسن الخلق .

وكانوا يلقبون مسلمة بلقب « الجرادة الصفراء » ، لأنه كان متحليا بالشجاعة والاقدام ، مع الرأى والدهاء .

(١) المرجع السابق .

(٢) البداية والنهاية ، ج ١ ص ٣٢٨ و ٣٢٩ .

(٣) العقد الفريد ، ج ٧ ص ١٤٥ .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ، ج ٣ ص ١٦١ .

ومع انه تولى امارة اذربيجان وارمينية أكثر من مرة وامارة العراقين (١) ، ظل يواصل الجهاد ، ويتابع المعارك، منذ تولى والده الخلافة سنةخمس وستين (٢) وظل مسلمة على هذه الروح البطولية حتى لحق بربه سنة احدى وعشرين ومئة .

لقد كانت له سلسلة طويلة من المعارك والنزوات ارايت ؟ .. انها سلسلة طويلة من المعارك والغزوات والحروب ، وانها لسلسلة كثيرة الحلقات . وكأنما نذر مسلمة نفسه للجهاد والقتال ، واتخذ مسكنه فى ساحات الكفاح والنضال ، ومع ذلك كان عالما محدثا ، روى الحديث عن خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز، وروى عنه الاحاديث جماعة منهم : عبد الملك بن أبى عثمان ، وعبد الله بن قرعة ، وعيينة والد سفيان بن عيينة ، وابن أبى عمران ، ومعاوية بن خديج ، ويحيى بن يحيى الغسانى (٢) .

ويظهر ان اتصال مسلمة بن عبد الملك بالحاكم العادل المخلص الامين ، خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز كان من أقوى الاسباب فى تكوين شخصية مسلمة تكوينا باهرا رائعا ، لانى أومن بأن عمر بن عبد العزيز كان رجلا تتمثل فيه نفحات الهية من الخير والبر والتوفيق، وان الذين اتصلوا به واخذوا عنه واقتبسوا منه هداهم الله، ووهبهم توفيقا ورشادا . ولعل مسلمة قد عبر عن شيء من هذا القبيل حينما دخل على عمر بن عبد العزيز وهو فى ساعته الاخيرة فقال له فى تأثر عميق بليغ : جزاك الله يا أمير المؤمنين عنا خيرا ، فقد النت

(١) العبر ، ج ١ ص ١٥٤ .
(٢) البداية والنهاية ، ج ٩ ص ٣٢٨ .

لنا قلوبا كانت قاسية ، وجعلت لنا فى الصالحين ذكرا (١) .

وهذه عبارة تدل على ان ملامح من شخصية مسلمة كان الفضل فيها لخامس الراشدين رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

ومن المواقف الخالدة الباقية بين مسلمة وعمر ما رواه ابن عبد ربه ، وهو ان مسلمة بن عبد الملك ، دخل على عمر بن عبد العزيز فى المرض الذى مات فيه، فقال له : يا أمير المؤمنين ، انك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال ، وتركتهم عالة ، ولابد لهم من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم الى أو الى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم ان شاء الله .

فقال عمر : أجلسونى ، فأجلسوه ، فقال :

الحمد لله ، أبالله تخوفنى يا مسلمة ؟ أما ما ذكرت انى فطمت أفواه ولدى عن هذا المال وتركتهم عالة، فانى لم أمنعهم حقا هو لهم ، ولم أعطهم حقا هولغيرهم . وأما ما سألت من الوصاة اليك أو الى نظرائك من أهل بيتى ، فان وصيتى بهم الى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وانما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله ، فجعل الله له من أمره يسرا ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غير وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لى بنى ، فدعوهم ، وهم يومئذ اثنا عشر غلاما ، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه ، حتى أغرورقت عيناه بالدمع ، ثم قال :

بنفسى فتية تركتهم ولا مال لهم . يا بنى ، انى قد تركتكم من الله بخير ، انكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد الا ولكم عليه حق واجب أن شاء الله . يابنى،

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ص ١٨٣ .

ميلت رأيى بين أن تفتقروا فى الدنيا ، وبين أن يدخل أبوكم النار ، فكان أن تفتقروا الى آخر الابد خيرا من دخول أبيكم يوما واحدا النار . قوموا يابنى عصمكم الله ورزقكم .

فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر (١) .

***

وكان مسلمة يظهر نعمة الله تعالى ، ومن شواهد ذلك انه دخل على عمر بن عبد العزيز وعليه ريطة من رياط مصر (أى ثوب رقيق ناعم) . فقال له عمر : بكم أخذت هذا يا أبا سعيد ؟ ..

أجاب مسلمة : بكذا وكذا .

قال عمر : فلو نقصت من ثمنها ما كان ناقصا من شرفك .

فأجاب مسلمة : ان أفضل الاقتصاد ما كان بعد الجدة ، وأفضل العفو ما كان بعد القدرة ، وأفضل اليد ما كان بعد الولاية (٢) .

ولقدكان مسلمة رجلا معطاء ، ولقد قال يوما لنصيب الشاعر: سلنى. قال : لا. قال : ولم ! قال نصيب : لان كفك بالجزيل أكثر من مسألتى باللسان .

وكان مسلمة مع تقواه وحرصه على الصلاة رجلا يحب العفو ويحبب فيه ، ولقد حدث بين الخليفة هشام بن عبد الملك وبين ابن هبيرة ما دعا الى اهدار دمه . ولكن خادما لمسلمة يحدثنا فيقول :

كان مسلمة بن عبد الملك يقوم من الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح ، فيدخل على أمير المؤمنين ، فانى لأصب الماء على يديه من آخر الليل وهو يتوضأ ، اذ

(١) العقد الفريد ، ج ٥ ص ٢٠٣ .
(٢) العقد الفريد ، ج ٥ ص ١٩٨ .

صاح صائح من وراء الرواق : أنا بالله وبالامير !

فقال مسلمة (فى دهشة) : صوت ابن هبيرة ، اخرج اليه .

فخرجت اليه ورجعت فأخبرته ، فقال : أدخله ، فدخل ، فاذا رجل يميد نعاسا ، فقال : أنا بالله وبالامير .

قال : أنا بالله ، وأنت بالله .

ثم قال : أنا بالله ، وأنا بالامير .

قال مسلمة : أنا بالله ، وأنت بالله .

حتى قالها ثلاثا ، ثم قال : أنا بالله . فسكت عنه ، ثم قال لى : انطلق به فوضئه وليصل ، ثم اعرض عليه أحب الطعام اليه فأته به ، وافرش له فى تلك الصفة – لصفة بين يدى بيوت النساء – ولا توقظه حتى يقوم متى قام .

فانطلقت به فتوضأ ، وصلى ، وعرضت عليه الطعام فقال : شربة سويق ، فشرب ، وفرشت له فنام ، وجئت الى مسلمة فأعلمته ، فغدا الى هشام فجلس عنده ، حتى اذا حان قيامه قال : يا أمير المؤمنين ، لى حاجة . قال هشام : قضيت ، الا أن تكون فى ابن هبيرة . قال مسلمة : رضيت يا أمير المؤمنين .

ثم قام مسلمة منصرفا ، حتى اذا كاد أن يخرج من الديوان رجع فقال : يا أمير المؤمنين ، ما عودتنى أن تستثنى فى حاجة من حوائجى ، وانى أكره أن يتحدث الناس انك أحدثت على الاستثناء .

قال هشام : لا أستثنى عليك .

قال مسلمة : فهو ابن هبيرة .

فعفا عنه هشام (١) !

---

(١) العقد الفريد ، ج ٢ ص ٥٧ و ٥٨ .

ومن ملامح شخصية مسلمة انه كان يعرف للفصحى مكانتها ، وللبيان السليم منزلته ، وكان يقول : «اللحن فى الكلام أقبح من الجدرى فى الوجه » (١) . وكان يقول أيضا : « مروءتان ظاهرتان : الرياسة والفصاحة » (٢) .

ومن كلماته قوله : « ما أخذت امرا قط بحزم فلمت نفسى فيه ، وان كانت العاقبة على ، ولا أخذت أمرا قط ، وضيعت الحزم فيه ، فحمدت نفسى وان كانت لى العاقبة » (٣) .

وكان مسلمة يحب أهل الادب ، وأوصى لهم بثلث ماله ، وقال : انها صنعة جحف أهلها (٤) ، أى سلبهم الناس حقهم .

وكذلك كان يعرف للشعراء مكانتهم وحقهم ، ولقد تحدث كثير عزة فقال : شخصت أنا والاحوص ونصيب الى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكل واحد منا يدل عليه بسابقة واخاء قديم ، ونحن لا نشك ان سيشركنا فى خلافته ، فلما رفعت لنا أعلام خناصرة (٥) لقينا مسلمة بن عبد الملك ، وهو يومئذ فتى العرب ، فسلمنا فرد ، ثم قال : أما بلغكم ان امامكم لا يقبل الشعر ؟ قلنا : ما توضح الينا خبر حتى انتهينا اليك . ووجمنا وجمة عرف ذلك فينا .

فقال : ان يكن ذو دين بنى مروان قد ولى وخشيتم حرمانه ، فان ذا دنيانا قد بقى ، ولكم عندى ما

---

(١) عيون الاخبار ، ج ٢ ص ١٥٨ .
(٢) عيون الاخبار ، ج ١ ص ٢٩٦ .
(٣) العقد الفريد ، ج ١ ص ٢٩٤ .
(٤) البداية والنهاية ، ج ٩ ص ٣٢٩ .
(٥) خناصرة : بلدة من اعمال حلب .

تحبون ، وما ألبث حتى أرجع اليكم ، وأمنحكم ما أنتم أهله .

فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزل عليه (١).

وكان مسلمة يعرف للعلماء كذلك أقدارهم ويهدى اليهم ، وكان يهدى الى الحسن البصرى ، وأهدى اليه ذات مرة خميصة لها اعلام ، فكان الحسن يصلى فيها (٢) .

وكان يتقدم بالنصيحة فى مواطنها ، ولقد لاحظ على أخيه يزيد بن عبد الملك نوعا من اللهو وهو فى الخلافة، فنصحه وذكره بسيرة عمر بن عبد العزيز وقال له فيما قال : « انما مات عمر أمس ، وقد كان من عدله ما قد علمت ، فينبغى أن تظهر للناس العدل ، وترفض هذا اللهو ، فقد اقتدى بك عمالك فى سائر أفعالك وسيرتك » (٣) .

ومن أروع المشاهد المأثورة المذكورة فى سيرة البطل الفاتح ، مسلمة بن عبد الملك ، والتى يجب أن نطيل فيها التأمل والاعتبار ، ان كنا من أصحاب القلوب والابصار ، ان مسلمة كان يحاصر ذات يوم حصنا ، وما أكثر الحصون التى حاصرها ، وما أكثر الحصون التى افتتحها باسم الاسلام والمسلمين ... واستعصى فتح الحصن على الجنود ، فوقف مسلمة يخطب بينهم ويقول لهم ما معناه : أما فيكم أحد يقدم فيحدث لنا نقبا فى هذا الحصن ؟ ..

---

(١) العقد الفريد ، ج ١ ص ٣١٤ .
(٢) العقد الفريد ، ج ١ ص ٢١١ . والخميصة ثوب من الخز .
(٣) مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٩٦ .

وبعد قليــل تقدم جندى ملثم ، والقى بنفســه على الحصن ، واحتمل ما احتمل من أخطــار وآلام ، حتى أحدث فى الحصن نقبا كان سببا فى فتح المسلمين له ، وعقب ذلك نادى مسلمة فى جنوده قائلا : أين صاحب النقب ؟ .. فلم يجبه أحد ، فقال مسلمة : عزمت على صاحب النقب أن يأتى للقائى ، وقد أمرت الآذن بادخاله على ساعة مجيئه .

وبعد حين أقبل نحو الآذن شخص ملثم ، وقال له : استأذن لى على الامير . فقال له : أأنت صاحب النقب؟

فأجاب : أنا أخبركم عنه ، وأدلــكم عليه ، فأدخله الآذن على مسلمة ، فقال الجندى الملثم للقـــائد : ان صاحب النقب يشترط عليكم أمورا ثلاثة : الا تبعثوا باسمه فى صحيفة الى الخليفة ، والا تأمروا له بشىء جزاء ما صنع ، والا تسألوه من هو ، فقال مسلمة : له ذلك ، فأين هو ؟.. فأجاب الجنــدى فى تواضــع واستحياء : أنا صاحب النقب أيها الامير . ثم ســارع بالخروج .

فكان مسلمة بعد ذلك لا يصلى صـــــلاة الا قال فى دعائها : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب يوم القيامة (١)

وبعد ما يزيد عن نصف قرن من الزمان قضـــاها مسلمة بن عبد الملك فى قتال ونضال ، وكفاح وحمــل سلاح ، مضى الى ربه ســنة احدى وعشرين ومئة ، لينال ثوابه مع أهل التقوى وأهل المغفرة : « ان المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » . وهو الذى سأله أخوه هشام : هل دخلك ذعر قط لحرب

(١) عيون الاخبار ، ج ١ ص ١٧٢ .

أو عدو ؟.. فقال : ما سلمت فى ذلك من ذعر ينبهه على حيلة ، ولم يغشنى ذعر سلبنى رأيى. فقال هشام : هذه والله البسالة (١) .

توفى مسلمة يوم الاربعاء لسبع مضين من المحرم سنة احدى وعشرين ومئة ، فى موضع يقال له الحانوت ، وقيل سنة عشرين ومائة. وقيل سنة ثنتين وعشرين ومئة.

ومن العجيب ان صاحب « النجوم الزاهرة » ذكر خبرين عن وفاته .. فذكر أولا أنه مات سنة عشرين ومئة ، ثم عاد بعد قليل فذكر انه مات سنة ثنتين وعشرين ومئة ، ولكن القول الاول أصح (٢) .

ولقد رثى الوليد بن يزيد بن عبد الملك عمه البطل مسلمة بن عبد الملك فقال فى رثائه هذه الابيات :

أقول – وما البعد الا الردى – :
أمسلم ، لا تبعدن ، مسلمه
فقد كنت نورا لنا فى البلاد
مضيئا ، فقد أصبحت مظلمه
ونكتم موتك نخشى اليقين
فأبدى اليقين لنا الجمجمه !

رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

---

(١) العقد الفريد ، ج ١ ص ٨٢ .
(٢) انظر البداية والنهاية ، ج ٩ ص ٣٢٩ . والعبر ، ج ١ ص ١٥٤ . والاعلام ، ج ٨ ص ١٢٢ . والنجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٨٥ ثم ص ٢٨٨ .

فهرس

صفحة

تصدير ٨
المجاهد الحميد الشهيد ١٠
الشهيد الحامل على الصف ١٩
المجاهد الشهيد صاحب الجسر ٣٠
المجاهد الشهيد القارىء ٤٠
الشهيد المحب للرسول ٤٧
شهيد سمرقند ٥٥
شهيد الرجيع ٦٤
الشهيد الحي ٧٤
المجاهد العملاق ٨٣
المناضل المعمر ٩٦
الناسك الشهيد ١٠٥
المجاهد الشاعر ١١٢
المجاهد فوق الامواج ١١٩
فارس رسول الله ١٢٦
المجاهد المغترب ١٣٣
المجاهد الطهور ١٤٠
الشهيد الصالح المتواضع ١٤٦
الشهيد ابن الشهيد أخو الشهيد ١٥٢
حامل مفتاح الكعبة ١٥٩
المجاهد على الدوام ١٦٧

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٢
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.

هذا الكتاب

« بين الوفاء والفداء » صلة عميقة وثيقة ، ترمز الى ارتباط المبدأ بتطبيقه . وتصور العلاقات القائمة بين الفكرة وتنفيذها .

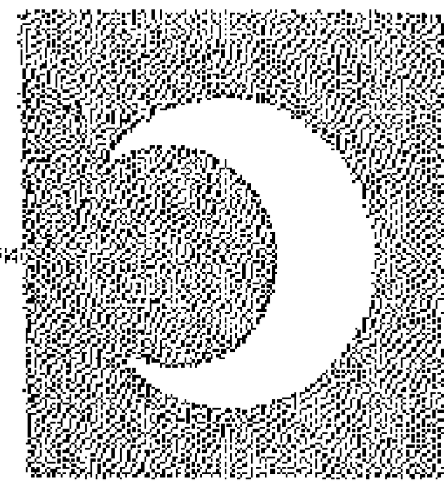
فالوفاء هو احد المثل العليا التي تدين بها الانسانية المؤمنة النبيلة ، والفداء هو التطبيق الحي ، والتصديق العملي لذلك المثل الرفيع .

والامة التي تريد الحياة الشريفة ، والبقاء الكريم ، بحاجة دائمة الى عنصري الوفاء والفداء .

وفي تراثنا الاسلامي صفحات مجهولة لدى الكثيرين تنطوي على مواقف باهرة ، لابطال تألقوا في ميدان الوفاء والفداء ، ولكنهم ظلوا بحاجة الى التعريف والانصاف ، وظلت الامة بحاجة الى أن تعرف عنهم ، وتعرف لهم ، وتغترف منهم ، لتاخذ زادها الذي يشد سواعدها في مواقف النبل ومواطن الاقدام .

وقد اراد فضيلة الدكتور احمد الشرباصي ، بتصوير الاديب ، وتحقيق العالم ، وروح الداعية ان ينفض غبار السنين ، عن نماذج لبطولات مجهولة ، لها قدم صدق وسبق ، في فضيلة الوفاء ومكرمة الفداء ، فجاء هذا الكتاب انصافا لمهضومين وزادا للطالبين .

الناشر



سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

ملك هواية جمع الساعات

٢٩٢

أحمد عبد المجيد

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : فكرى أباظة ● نائب رئيس مجلس الإدارة : صالح جودت

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفنى : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٩٢ – ربيع الاول ١٣٩٥ – ابريل ١٩٧٥

No. 292 — April 1975

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : «١٢ عددا» فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢٫٥ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

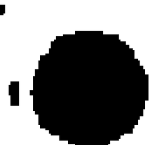
كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

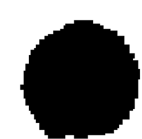
الغـــلاف بريشـــة
الفنـــان جمـال قطب

ملك هواية
جمع الساعات



تعريب

أحمد عبد المجيد



دار الهلال

جيرالد كيرش

اشتهر الانجليز بكتابة الروايات الطويلة ، نثرا كانت أو شعرا ولعلهم اكتفوا بالامجاد التى أضفاها عليهم ، شكسبير ، واوسكار وايلد ، وشارلز ديكنز ، وبرنارد شو ، ويلز ، وسكوت ، وغيرهم .

ولم يبلغوا فى كتابة القصة القصيرة ذلك الشأو الذى بلغه أمثال جى دى موباسان ، وفيكتور هيجو ، وجول فيرن فى فرنسا ، ومكسيم جوركى ، وانطون تشيكوف ، وتورجنيف فى روسيا .. وأمثال البرتو مورافيا ، وبيرانديللو فى ايطاليا . وأمثال مارك توين ، وادجار الان بو ، واونيل فى أمريكا .

على ان « جيرالد كيرش » الذى نترجم له فى هذه المجموعة ، أربع قصص قصيرة ، قد ذاع صيته فى بريطانيا وفى الدول التى تتكلم الانجليزية .

وتتميز قصص « جيرالد كيرش » بوضوح الهدف والغاية ، وسلامة النظرة والحبكة ، وبخط درامى خلال أعماله ، تشيع فيه السخرية اللاذعة ، والمرح الذكى ، وهو يتميز الى جانب هذا الوضوح والغاية ، بقدرته على اعداد مسرحه ليتحرك فوقه أشخاص

قصصه فى ثقة بمواقع أقدامهم ، وفى ألفة بما يرتادون من أماكن .

ولجيرالد مجموعات قصصية مثل :

« أكثر من حـدث ذات مرة » ـ « أحسن ما لدى جيرالدكيرش » ـ « يموتون وأجذيتهم نظيفة » .

ولعلى أكون وفقت فى اختيار ما ترجمته من مجموعات هذا الـكاتب القصصى الـكبير .

رحلة بين الثلوج

تاليف : جيرالد كيرش

كانت السيدة « بيلا بارلى » ملكة الفن الكوميدى فى مسارح المجر ، تقول لى فى معرض حديثنا ، اننى لن أفوز منها اليوم بقصة من آقاصيصها ، لانها تعلم ان متعة المستمع تذوى عندما ينصت الى قصة ترويها سيدة عجوز مثلها ، ولى زمانها ، وتغضن وجهها ، وتسللت اليه التجاعيد ، فقلت لها معترضا على الفور: اننى ياسيدتى أخالفك فى موضعين مما ذكرته : فان وجهك ما يزال على نضارته ، كما انك ما تزالين ملء السمع والبصر ، الى جانب انك سيدة لا مثيل لها بين النساء .

وقد أجابتنى بقولها : « لا تتوهم يا صديقى انك قد تصل الى هدفك منى بتملقك واطرائك لى ، على انه من الكفر بنعمة الله ، الظن بأن عيد الميلاد القادم قريبا ، لا يدخل البهجة الا على القلوب الشابة ، فان لى أنا الممثلة العجوز ، التى انطوت على ذكرياتها فى وحدتها ، نصيبا مماثلا لأنصبة الشباب من البهجة فى هذا العيد ، وفى مثل هذا الوقت من العام ، وخاصة عندما يهبط الظلام ، ويصدر عن مدفأة بخار الماء ،

صوت الخرخرة ، وتنبعث منهـــا حرارة خالية من الدفء ، أحس كما لو كنت قلب دجاجة ، انتزع من جســـدها ، وظل ينبض بعد أن أودع فى اناء به دم فى مختبر مهجور ، ومن أجـل ذلك أبتعد عن ذكريات المـاضي بتركي الحديث عنها ، وسرد قصصـــها ، لأنصرف الى تزيين شجرة عيـد الميلاد .

وعندما همت بالجلوس على بســاط الغرفة ، وهى فى روبها الفضفاض المصنوع من الساتان ، الذىاعتادت أن ترتديه وقت تناول الشاى ، ند صوت آهة أشـبه ما تكون بما يصدر من بجعة تشرف على الموت وتجود بآخر أنفاسها .

راحت السيدة ترفع غطاء صندوققديم من الجلد ، امتلأ بزخارف متقنة مما تزين به شجرة عيد الميلاد ، وقد ضمتها لفافة من القطن الشعر ، وهى تقول :

« لقد عاشت هـذه التذكارات معى عبر حياتى ، وكان بعضها مما انتقل الى من امى ، والبعض الآخر ، من جدتى ، وهى فى جملتها بالنسبة لى ، تمثل متعلقات احتلت على ان أحتفظ بها من عوادى الضيـاع ، أما الباقى .. فماذا أقول ..

« أن ما اكتسبته ، أضعته »
« وما ادخرته ، انفقتـــه »
« أما الذى أعطيتـــــه »
« فهو الذى ما يزال باقيـا »

فهـل تود أن ترى شيئا أثيرا وغاليا عندى ؟..

وفى عنـاية وحـذر بالغين ، أخـذت السيـدة تفض الرباط عن نجمة عجيبة من الصلب ، تكاد تمثل بقـايا

زهرة الثلج . وعنـدما أدنيت منهـا النظر ، تبين لى انها مصـنوعة من ثلاث أضـلاع متسـاوية .. من سلك شـائك ، وقد تماسـكت بشـدة عنـد نقطـة التقـاطع . ورحت أستمع الى السيدة وهى تقول :

« كنت أمضى عيـدا من أعيـاد الميلاد فى أحـد المعسكرات التى كانت معدة للاعتقـال فى شرق أوروبا ، وكنا وسط تلك الثلوج وصقيعها المعتم ، نعانى أقصى درجات البـرد والجوع والمرض ، حتى تخيلت أنه لن يطلع علينـا فجر مقـدس طهور ، وبالبقيـة الباقيـة من عافيتنـا المتلاشـية ، استطعنـا أن ننزع غصنـا من شجرة الباتولا ، ولم يلبث الغصن عندما نثرنا عليه رذاذا من المـاء ، فى هـذه الليـلة القاسيـة الثلجية ، أن تبلور المـاء فوق الغصن وأصبح ثلجا ، ثم أخذنا هـذه النجمة ، وتوجنـا بها الغصن ، ومضينا ننشد اغان بلغت من روعتهـا حدا لم يستطع معه الحراس الذين جاءوا ليأمرونا بالصمت ، الا أن يحنوا الرءوس اجلالا وخجلا . ولمـا كنت أنا صـاحبة الفكرة ، وكنت أنا التى قدت جوقة المنشـــــدين ، فقد منحونى هذه النجمة ..

اغرورقت عينا « بيلا » فترة من الوقت ، لم تلبث بعدها أن أخمـدت سريعا ما ثار فيهـا من انفعـال ، وراحت تبتسم وهى تقول :

« وأمضينا ليـلة عصيبة فى برودتها القاسيـة ، لم تكن ليـلة عيـد ميـلاد عام ١٨٩٣ ، الا بعضا منها »

سألتها : « وماذا كان من أمر تلك الليلة ! »

فأجابت : « هربت فيها من البيت » .

« من أجلَ ماذا ! »

فردت السيدة بيلا : « وما الذى يحمل الفتاة على أن تغادر منزلا تستريح اليـه ، الا ان يكون مبعثـه يأسا فى غرامها ؟ » .

« فى غرامها ! » ، قلت مستدركا : « لا .. لا .. ياسيدتى ، انك فى عام ١٨٩٩ ، كنت ما تزالين طفلة » .

قالت : « بل كنت فى الثامنة من عمرى ، وكثير من الفتيـات يقعن فى الحب فى مثل هـذه السن ، والواقع ان عاطفتى كانت من النـوع المثـالى ، وكان محورها وغايتها صبى فى العاشرة من عمره ، الا ان مثل هـذه الامور لا يصح ان تحسب بالتقويم التاريخى أو المقيـاس الحسابى ، ولا أحد ينكر ان الحب فى الطفولة لايعيش طويلا ، كما انه لا يتلألأ فى عليـائه . اذن فأى شيء يكون ؟ انه فى ذلك أشـبه شيء بالزهرة . فهل تقل الزهرة فى حقيقة وجودها وجمالهـا عن أى كائن حى أيا ما يكون قدر هذا الـكائن ؟ » .

وما لبثت أن هزت رأسـها الذى يعلوه شـعر أنيق زحف اليه البيـاض ، هزة تنم عن معنى الاسـتعاذة مما كان أو مما حـدث . وكانت ما تزال تجلس على ركبتيها وقد استغرقتها زخرفة شـجرة عيـد الميـلاد بالزينـات ، وراحت تهمهم بقولها :

« يبـدو أننى بسبيل التحدث عن نفسى ، وسرد احدى قصصى الساذجة » .

ثم مضت تقول :

« فى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٨٩٩، كان والدى العزيز فى غمرة من البهجة ، مبعثها وصول

زائرين من أمريكا ، لم يكن حضـــورهما متوقعا ، انهما مستر ومسز « تريسى بستيتيود » وابنهما «فيرنون» ، من ولاية « بنسلفانيا » .' واذا قلت أن والدى بدأ فى غمرة من البهجة ، فذلك لانه كان ينتمى فى ذلك الحين الى الحركة الرومانســية التقدميــة فى أوروبا ، وكان بوصفه هــذا ، يميل كل الميل لــكل ما هو مستحدث فى العالم الجديد . ولعله أن يكون من واقع المفــارقات العجيبة ، ان السيدات الامريكيات عنــدما كن يعزفن ويلعبن موسيقى الدانوب الازرق فى صــالوناتهن ، كنا نحن فى بودابست ، نرســل تنهداتنا حسرة على كارثة السيل الجارف المنبعث من نهر فائر ، عند التقائه بنهر آخر يزيد عنه فورانا عند المدينة الامريكية الفاتنة التى تدعى « بيتسبرج » . ولمــا كانت مربيتى انجليزية ، فقد كانت معرفتى بالفنون والآداب الغربيــة ، أوسع واكمل من معرفتى واخاطتى بفنــون وآداب بلدى . فعندما وصل آل « بستيتيود » ومروا بنا مجرد مرور، ليبلغوا والدى تحية أحد معارفه فى أمريكا ، صمم والدى على ابقائهم لتنــاول طعــام الغداء . ومع ما أعلمه عن نفسى من تنعمى واحتفالى بوجبات الطعام ، فانى أشهد بأنى لم أكن فى يوم من الايام أكثر تنعما وابتهاجا بالطعام من ذلك اليوم .. ذلك ان الصــــــــبى « فيرنون بستيتيود » بهرنى وملك على حواسى ، وأشــعل فى صدرى نار الحب ، كما أثار فى نفسى اعجابا لا قدرة لى على دفعه او التحول عنه . كنت انظر اليه فى انذهال ، واعجب بسلوكه الرجولى ، وعيــونه الزرقاء الصريحة الصادقة ، وذقنه الوردية اللون ، الجادة التعبــير ،

وشعره الاصفر المرسل فى اهمال ، بينما كنت بكل آذانى استرق السمع لصوت والده الجهورى وهو يتحدث عن تاريخ عائلته .. آه لو كنت من عائلة « بستيتيود » ! ورغم اننا نحن آل «بارلى» قد شاركنا ببذل دمائنا فى سبيل الوطن من القرن الحادى عشر ، ولنا سلف ينحدر من أرومة نبيلة ، الا ان شيئا فى تاريخ عائلتى لم يثرنى بقدر ما اثارنى حديث الضيف وهو يقول فى ثقة :

«ان مسز « بستيتيود » يا سـادتى تنحدر من سلالة « سيوانجونك » . اما والدتى فانها من عائلة « كيرهوتكسن شويلد » . ولا أدرى لماذا تخيلت جد السيدة « بستيتيود » وهو فى زى قائد من مشاهير القواد ، ولا كيف تصورت جد مستر « بستيتيود » بطلا من أبطال تسلق القمم الشاهقة . ومضى مستر « بستيتيود » يقول :

« لقد فقد والدى ساقه فى احدى المعارك ، أما عن ما صادفنى فى ما اشتركت فيه من معارك ، فاننى لم أصب حتى بمجرد خدش » .. يا للموسيقى السحرية التى تتخلل هذه الاحاديث ..

بعد هـذا الغذاء البهيج ، أخذ الرجال يدخنون سيجارهم ، فى حين انسحبت السيدات الى الصالة ..

انتحيت أنا « بفيرتون » جانبا ورحت أسأله : اذا كان قد حارب الهنود الحمر ؟

فأجاب : بأنه حارب الالاف منهم ..

ومضيت أسأله ، عما اذا كان قد ذبح جاموسة ؟..

فأجاب بالايجاب ..

وهنا قدته الى مكتب والدى ، الذى تدلت من جدرانه

ـ وهو المسالم الهادىء ـ مجموعة من الاسلحة لايتسنى لانسان أن يراها بمثل هذه الكثرة . فمن خناجر خيبر المدببة كسن الابرة ، والحادة كالموسى ، الى سيوف الملايو التى تشبه الافاعى ، الى أسلحة سامورية وقبضات يد ايطالية ، الى مسدسات وطبنجات وقربينات من جميع العصور والعهود .

عند ذلك قال « فيرنون » :

« كل ذلك لا يعنينى فى شىء ، بل لقد حيرت فكرى هذه الاسلحة ، أرينى مسدسا ذا طلقات ست ! »

تذكرت فى التو ان والدى يحتفظ فى درج من الادراج اليمنى فى مكتبه بمسدس محشو بالرصاص ، أنيق الشكل ، ذى قبضة من العاج المطعم بالذهب ، وبرجفة من يقدم على اتيان عمل اجرامى اذ ان فتح درج خاص فى غيبة والدى يعد خرقا بالغا لقوانين المنزل المرعية ـ اخرجت المسدس من الدرج ، كان على ان احوز اعجاب « فيرنون » مهما كلفنى الامر .

ناولته المسدس وأنا أقول :

« مثل هذا تعنى ؟ »

صاح صيحة الاعجاب والدهشة وهو يخطف المسدس من يدى ثم نظر اليه نظرة هادئة مجربة ، أخذ يهزه وهو فى قبضة يده ، ويصوبه لهدف ويحاكى صوت انطلاق الرصاص ، وراح يدير ساقيته ثم يتحسس ماسورته بسبابته وهو يقول :

« ما أبدعه وما أجمله وأروعه » . وفجأة أخذ صوته يخفت وقد شاعت امارات الذعر فى أساريره حتى أطفأت بريق وجهه الهادىء ، وسمعته يقول :

« لقد أنحشر اصبعي » . بلهجة خيل الي ان مظاهر رجولته قد زايلته ، ولـكنى سرعان ما عزوت ذلك الى ما أدركه من ارتباك لا الى خشيـة أو ذعر أو خوف ورحت اشير عليه بأن يبلل اصبعه بريقه فى حين أقوم أنا بشد المسدس من مقبضه ، لقد نفذ ما أشرت به ؛ وقمت أنا بالامساك بشدة بقبضـة المسـدس ، وبكل ما أملك من قوة شـددته نحوى ، ومن أين لى أن أعلم ، ان اصبعين من أصابعى كانا يلتفان حول الزناد

فما أن اخرج اصبعه من فوهة المسدس ، حتى خرجت منه طلقة هزت أركان المنزل . وقد أحسست من شدة ارتداد السلاح فى يدى ، كما لو كانت لسعات حادة قد أشتملتنى من أصابعى حتى قدمى ، أو ان بغلا رفسنى ، واصابت رفسته وجهى .

ومرت الرصاصة فوق راس « فيرنون » واخترقت ناقوسـا صينيا مما يقرع للتنبيـه الى وقت تنـاول الطعـام ، ومرقت من البـاب لتطيح براس تمثال من المرمر لـكيوبيـد ، وتهوى الى الارض ، وراحت الرأس تتدحرج على السلم المغطى بالسجاد ، حتى اسـتقرت تحت قدمى والدى ومستر « بستيتيود » والسـيدات الاخريات .

أما والدتي فقد وقعت مغشيا عليها بين ذراعي مسز بستيتيود ، وأما الرجال فقد صـعدوا السلم وهم يهدرون . وكنت أنا و « فيرنون » نقف وقد استقر المسدس تحت اقدامنا والدخان يتصاعد منه .

وصاح ضيفنا :

« ما معنى هـذا الصـوت القاصف يافيرنون ؟ » .

وكان فارس البطل فيرنون يقف كما لو كان هيكلا مربعا متساوى الاضلاع ، وراح ينظر فى عيني والده . يا الهى ، ان قلبى يدق بعنف ! وسمعته يقول :

« عفوا يا والدى فانا لا استطيع أن أكذب ، انها هى التى أطلقت الرصاص » . وكان يشير الى وهو يتحدث .

مرت فترة من الهدوء المخيف ، أمرنى بعدها والدى ان أنصرف الى حجرتى ، وترامى الى سمعى صوته وهو يقول :

« أيتها الحقيرة ، لقد كدت تقضين على حياة هذا الصبى النبيل ! اغربى عن وجهى والزمى حجرتك ! »

كان هذا هو مجمل حالى فى اليوم السابق ليوم عيد الميلاد : نصيبى من الحب وهم تلاشى سحره ، ونصيبى فيما عداه ، فتاة مغدور بها ، كسيرة الخاطر ، مكروهة منبوذة . كل ذلك قد تم فى ساعة وخمسة وأربعين دقيقة !.. ان قصة البعث لتولستوى لا تعد شيئا مذكورا ، عندما أفكر فيها ، الى جانب هذا الذى حدث لى . آه لو ان والدى الذى أحط من قدرى قال:

« لقد كدت تقتلين نفسك ! » ، لما أحسست ببعض ما شجانى وعذبنى من قوله . الا ان تفكيره انصرف أول ما انصرف الى ذلك « الصبى النبيل » ، الحقود. لقد كنت أعلم ان والدى كانا يتلهفان على ان يكون لهما ابن ، ومن هنا كان احساسى بأنى كائن غير مرغوب فيه ، أو فى القليل شر لابد منه ، أو قد أكون خيرا من لا شىء ، لقد كانت عضلات وجهى ترتجف من أثر ارتداد المسدس ، الى جانب احساسى بأنى غير محبوبة

من أحد ، ولا يهتم بشأني انسان .

أخذت أدغدغ أنفي لعلني عندما أرى عيني مغرورقتين، فانني انخرط فى البكاء . ثم نشجت ونهنهت مرة أو مرتين ، لم ألبث بعدها أن استقر رأيى على مغادرة المنزل فى الحال وبغير توان .

لم يكن فى استطاعة أحد أن يثنينى عن عزمى أو يحملنى على التردد . وما ان بلغ بى التصميم هذا الحد ، حتى ارتديت اكثر أثوابي دفئا ، وتدثرت بمعطفى ذى الاكمام المصنوعة من الفراء ، ولبست حذائى ذى الرقبة الطويلة ، ثم كتبت كلمة وداع بأسلوب رومانسى ، قلت فيها :

« لا تبحثوا عنى ، فانى رحلت عنكم الى الابد ، والامضاء ، ابنتكم المخطئة التى ترجو الصفح : بيلا . »

ملحوظة :

أرجو العناية بكازيمير . وكان كازيمير هذا هو عصفورى الكنار .

وكان لدى صندوق للنقود على صورة بنك ، له اعمدة يونانية الطراز ، وبوابة من البرونز ، كنت أضع فيه كل العملات الذهبية التى أحصل عليها كهدايا فى المناسبات . وكنت أدرك ان مشبك الشعر يمكنه فتح قفل الصندوق . ان الاختلاسات الصغيرة التافهة تبدو طبيعية فى نظر كل النساء ، كما كنت أعتقد أن جميع الجرائم يمكن أن ترتكب بواسطة مشبك الشعر .

وهكذا انسللت بكيس نقود مثقل ، وقلب مثقل ، وجاوزت فى طريقى باب مربيتى ، وهبطت السلم المغطى

بالسجاد ، ومرقت من خلال الممر المعتم حتى بلغت المطبخ الذى كان يتصاعد منه بخار يحمل نكهة أطباق عيد الميلاد ، ثم جاوزته واخترقت مخزن الانبذة ، ودلفت من بابه الى الخارج ، حيث كان يوجد فناء الدار الخلفى .

وكان كل ما يقع عليه النظر يبدو قاتما بعد ظهر ذلك اليوم البارد ، وكانت المدينة قد تحولت الى حال من التجمد من أثر عاصفتين ثلجيتين تعاقبتا عليها فى فترة وجيزة . وألقيت بتحية الوداع لشجرة البلوط العجوز التى كانت تقف آنئذ عارية من أوراقها تحت السماء ، ومرقت من الباب الخلفى للدار لتتلقفنى الدنيا الباردة ، ولكن الى أين أمضى ؟ ..

لو انك سألتنى هذا السؤال قبل ثلاث ساعات مضت ، لاجبتك بأنى ذاهبة الى بيتسبرج . اما الان، فاذا كان وطن ذلك الصبى الحقير فيرنون هو الغرب ، فسوف أمضى الى الشرق . ولكن أين يكون الشرق ؟ لا وجود لشمس فى السماء لاسترشد بها ، ولكنى كنت أعلم بصورة عامة اننى اذا نظرت ناحية الشمال، فان الشرق يكون الى أقصى اليمين . وهكذا اتجهت الى اليمين ، وأسرعت وأنا أمضى بين الوحول ، وقد دسست أذنى فى فراء ياقة المعطف ، وكفى فى فراء الاكمام .

وكنت أظن اننى ربما عثرت على مضرب من مضارب الغجر ، فأرتحل معهم وأنعم ببداوتهم الطليقة . وكان الظلام قد انتشر فى السماء ، وغدا وكأنه يتوعد المارة ، أما الطرقات فقد أخذت تضيق ويخفت الضوء فيها .

ولم يحدث لى من قبل ان كنت فى الطريق وحدى ، غير انى لم يداخلنى خوف ، وان كنت قد أحسست بغرابة ما حولى . كنت ارى النـاس ترتدى ملابس خشنة ، كانت لا تتناسب فى خفتها مع هذا الصقيع . كما بدا لى ان سلوكهم كان معيبا ، وان الفاظهم كانت فظة غليظة . ولم أر فى أيديهم قفازات ، ولكنهم كانوا يضربون كفا بكف استجلابا للدفء . وكانت تتصاعد مع أنفاسهم أبخرة من شدة الصقيع . وانى لأذكر كيف ان أحد المارة أشار الى قبعتى الصغيرة ذات الفراء وأرسل صفيرا طويلا ، اتصل به صفير كان يأتى من بعيد ، أطلقه سائق قطار كان يجتاز تقاطعا .

وكنت أسمع من قريب صوت قعقعة آلات أحد المصانع ، كما كنت أرى وهجا ينعكس على صفحة السماء . وكان فى استطاعتى أن أشم رائحة النهر . وأخذ كل شيء يقع عليه نظرى يضيق ويضيق حتى يتضاءل ويتلاشى . وعندما هبت الريح من ورائى ، خيل الى اننى ألف معها وأدور بنفس سرعتها .

وعلى الرغم منى وجدتنى أعدو بأسرع ما أستطيع بين صفين من ثلوج شهباء مخيفة . ولم ألبث طويلا حتى توقفت لالتقط انفاسى . ثم بدا لى انى فقدت طريقى وانى أضرب فى تيه .. ذلك انى كنت قد قطعت مسافة طويلة فصلتنى عن أنوار المدينة . وكنت أرى أكواما من الفضلات ، ودخانا كئيب المنظر ، وعششا وأكواما تقاربت ، حتى لتكاد تتلاحق كما لو كانت تستجلب من قرب الجوار نزرا من الدفء .

كانت هذه الأكواخ المتداعية تنبى عن رقة حال

اصحابها وخصاصتهم . وكنت وانا أعدو الاحظ أن الناس كانوا يحملقون فى دون أن يعترضوا طريقى . أهذه هى الدنيا الواسعة العريضة ؟ ياعجبى ! انى لا احس منها الا بآلام كوخز الأبر من شدة البرد، ومن ضيق عند التنفس بسبب الدخان المنتشر. وكان قلبى ينبض بسرعة ، حتى بدت لى دقاته كأنها مطارق مسبك . بينما صوت فرقعات لا ترحم تصدر عن سوط سائق لعربة تحمل أكداسا وتأتى من ناحية النهر ، الى جانب صوت وقع خطى ضخمة لشىء لا يبين يخرج من الاوحال ، وان كان يمكن من وقع الخطى ، تخيل ضخامته .

وبينما أنا وسط هذا التيه المخيف الذى يشبه الكابوس ، اذ بخيط من نور الفسق يتسرب من بين العتمة لارى على شعاعه ، وعلى مقربة من راسى ، هيكلا لامرأة شابة ، ذات شعر اسود أشعث ، ووجه أبيض مهتاج الاسارير ، تحمل بين يديها لفافة مستطيلة الشكل . وكانت الشابة تبدو فى حال سىء من الفقر المدقع ، حتى أن أنفاسها كانت تخرج منها فى وهن وهزال . كانت هى الاخرى تجرى مثلى ، ولكنها ما أن رأتنى حتى توقفت . ولم تلبث حتى ألقت اللفافة بين ذراعى وهى تقول :

« خذيها ، خذيها » . وكانت الالفاظ تخرج من شفتيها محشرجة كما لو كانت ثلجا يتحطم أو ينسحق. وعندما اختفت عن نظرى وجدتنى أحمل مولودا صغيرا جداً ، يلتف فى خرقة من ملاءة رثة بالية .

ضع نفسك مكانى . لقد كنت فاقدة الحس من اثر

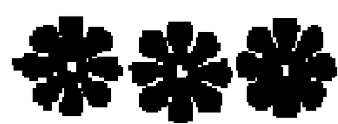
الارتباك • فقد انحصر تفكيرى فى امر نفسى وما أنا فيه من هم وكدر ، واذا بى أرانى فجأة وبين يدى مولودا ! لا تضحك . فالامر بالنسبة لى أصبح مأزقا مريعا من ناحيتيه الواقعية والادبيـة . ولعلك فهمت ما أعنيه. ذلك ان النشء فى عصرنا ، لم يكن على ما هو عليه الان فلا مسئولية تقيـده ، ولا شـفقة تهز أحاسيسـه أو مشاعره ، كما لم يكن هناك ما هو قائم حاليا من جمعيات وهيئات تحمل عبء المسئولية ، وتعفى الغير من كل شفقة أو حنان .

تذكرت أنشودة كانت مربيتى « ايلونكا » تغنيهـا لى ، وكانت كلماتها تجرى على هذه الصورة أو قريبا منها :

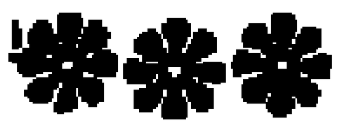
كونى عـذراء ، أو كونى زوجـة
أو كونى امرأة ، لاناديك بيـا أمى



وأنت يا من ولدت فى مزود ، أو ولدت على سرير
أنت اخى ، مثلك فى ذلك مثل كل رجل فى هذا الوجود



وكل من ولد فى مزود ، أو ولد على سرير
هو أولا وأخـيرا ، من خلق الله



كانت مربيتى تنشـد هـذه الاغنية بطريقة خاصة ، وبنغمة رتيبة ، رأيتنى أحاكيها وأرتلها لهـذا الوليـد الصغير ، الذى استقر بين ذراعى فى راحة هيأتها له باستخدام فراء كم المعطف كوسـادة له ، وبرقع ياقة المعطف ذات الفراء لتـزوده بالدفء . كنت أعلم ان

الأطفال يعيشون على تناول اللبن ، ولكن لم يكن عندي من اللبن ما أقدمه للوليد . وكنت أحمل فى جيب من جيوبى قطعة أو قطعتين من سكر النبات لم البث أن قدمتها للصغير الذى راح يستحلبها وهو راض بما يستشعره من هـذا الدفء غير العادى ومن الاطمئنان الى حركتى الوئيدة فى السير التى لم ينزعج منها . لقد توقفت مرة تحت مصباح أصفر الضوء بدا لى كأنه زحل فى شكله المستدير ، ولكنه كان كافيا لاتبين على نوره ورقة معلقة بدبوس فى ملاءة الطفل . كانت كلمات الورقة تقول :

« أيتها النفس العطوفة أيا ما كنت ، احفظى هـذا الوليد اليتيم ، انه وليد شجني وأساي ، وليس فى استطاعتى أن أستبقيه » .

وعلى الرغم من تسلل خيوط ذات ألوان حلوة الى عقلى ، كان يمكن أن تصبح نسيجا لقصة تكتسب ذيوعا وشهرة ، الا اننى لم أكن أخلو من حصافة غريزية . ذلك أن قدرتى على أن أحفظ هـذا المخلوق وأرعاه ، وما ينبنى على ذلك ، شيء جميل للغاية ، وأمر عظيم القدر . ولكن كيف ؟ .. ان كبريائى تمنعنى من أن أعود الى أهلى وحدى ، فكيف أعود ومعى هـذا الوليد ؟ .. لقد نفضت التراب الذى علق بقدمى من ذلك المكان . وانه لايسر لى أن أموت من أن أعود اليه بمحض ارادتى ، حتى ولو كنت وحدى . وعلى أى حال ، فان العودة من بين الثلوج وأنا أحمل وليدا لا والد له ، أمر يصعب مجرد التفكير فيه .

ان بطلة قصة « المحكوم عليها بعقوبة تجاوزت حد

الذنب » وهي قصـــة كنت قد سرقتهــا من طاهيــة منزلنــا لاقرأها خلســـة ، قد بعثوا بها الى الدير ، لسبب مشـــــابه لمـا أنا فيه الان . ولمـا كنت عام ١٨٩٩ ، فى سن الثـامنة ، فلم أكن قد تمرست آنذاك بتجارب الحياة ، كمن هى فى مثل تلك السن من بنات

هـذا العصر الحالى . ولهذا فقد رأيت بعين خيــالى صـــورة أمى وهى تبكى فى منـديلها الصـغير ، بينما يطلب منى والدى بشـــدة أن أعلن اسم والد الطفل . لا ، لا ، لا ، لن أبوح ، وان كان ذلك الحقـــــير « فيرنون » هو المسئول أدبيا عما أنا فيه .

كنت افكر فى كل ذلك وانا وسط الثلوج ، وكانت تدغدغنى سـعادة مأتاها ما قمت به من مغامرة لا بأس بها . لقد اقتضى الامرمن بطلة قصــة « المحكوم عليها بعقوبة تجاوزت حد الذنب » ، التى سلفت الاشــارة اليها ، لتصل الى ما كنت أنا فيه من حرج وحيرة ، أن تقطع خمسة عشر فصلا من القصة . بدأت أشـــعر

بأن البرد أخذ يتخلل كل طبقات ملابسى الدافئة ، كما أخذت أحس بالجوع . أما الدنيــا فقد بدت فى نظرى قفراء جرداء ، تمتلىء بأناس كأنهم الغيلان ، وقد تخيلتهم كأنهم قد جمعوا كل الخرق البــالية ، وسـلخوا كل قطط بودابست استجلابا لمــا يبعث الدفء من دثار

يلتحفون به ، ثم راحوا ينزحون كل ما احتوته المصابيح من زيت ، طلبـــا لمشروب قوى يتجرعونه ، تاركين المدينـــة وهى تسبح فى الظلام . وكنت قد توقفت مرة أمام مطعم شعبى رخيص ، من أجـل أن أشــم رائحة الطعام ، دون أن أجسر على الدخول اليه . وكنت بحكم

الفريزة أحذر من أن يرى أحد رواد المكان ، ما كان يحويه كيس نقودى من ذهب . وكانت معى بعض عملات صغيرة فى جيب من جيوب ردائى الذى أرتديه تحت المعطف ، الا ان استخراج هذه العملات يقتضينى ان أضع الوليد على الأرض ، وهو أمر ترددت فى الاقدام عليه ، بعد أن رأيت امارات الراحة على وجه الوليد ، وهى راحة كان يستمدها من مضجع لين ودفء مستحب .

وبينما أنا فى وقفتى ، واذ بشابة ذات وجه فى لون البنفسج الزاهى ، وشعر أصفر ، وشفاه قرمزية ، تخرج وقد تعلقت بذراع رجل بدين يرتدى معطفا ناصعا براقا ، وقبعة من القطيفة الخضراء ، وكانت بين يديها ورقة تحمل فيها « سجق » ساخن ذا رائحة شهية . وما أن لمحتنى وأنا فى موضعى الى اليسار من ضوء خافت ، حتى سمعتها تقول :

« أوه .. يا للمسكينة اللطيفة » .. ثم أعطتنى قطعة من ذلك « السجق » وقبلتنى قبلة ساخنة ، ذكرتنى رائحتها برائحة الموقد الذى يشتعل بالكحول لتسخين مكاوى الشعر عليه . ثم ناولتنى كرونا من الفضة ، أخرجته من كيس نقودها المصنوع من الخرز ، قبل أن يجذبها صديقها لينصرف بها نحو غايتهما .

وعندما هممت بالمسير ، وأنا آكل « السجق » ــ الذى لم أذق شيئا شهى الطعم مثله ــ أخذ الوليد فى العويل . عند ذلك فزعت وجزعت . ولكن يشاء الحظ أن ألمح على مبعدة مائة ياردة أو تزيد ــ وفى اتجاه لا أعرف مؤداه سوى اننى كنت أجس الحائط الذى

أسير بمحاذاته ، الى يميني ــ أن ألمح عربة مغطاة تقف أمام محل لبيع الزيت والخشب والحطب .

وكان الحصان المشدود الى « عريش » العربة فيحالة بالغة من الضعف والهزال ، وقد انتابته رعشة وتعرى ظهره الا من بعض خرق كانت تكشف عن عظامه . وفي مؤخرة العربة جلست امرأة بدينة ، كانت فيحالة مرحة وبين ذراعيها طفل نحيل توليه كل عنايتها .

كنت أراقبها عندما بادرتني بقولها حين رأتني :

« أي شيطان قذف بك الى هنا ؟ .. »

قدمت لها قطعة النقود التي اخذتها من الصبية ذات الشعر الاصفر وأنا أقول :

« هلا تفضلت وسمحت بارضاع هذا الوليد بما يساوى هذا البكرون ؟ »

حملقت السيدة في وجهي وما لبثت أن انفجرت في الضحك وهي تقول :

« لولا انني أرى بعيني قطعة النقود لظننت أن زوجي يمزح كعادته . ولكن ، ما الذي جرى ! هل الطفل ظمآن ! .. ناوليني هذا الوليد لاعطيه مقدارا من اللبن يساوى كرونا ... ثم تلاحقت ضحكاتها وهي تقول :

« كم كنت أغدو ثرية لو أني تعاملت على أساس هذا السعر ... »

وعندما سألتني عن اسمي أجبتها وأنا أكذب :

« اسمي بيلا بستيتيود » .

« اسم عجيب ، لم أسمع بهذا الاسم في أي ناحية مما حولنا .

من أى بلد أنت ؟ ..
« بيتسبرج » .
ثم راحت تسألني وهى ترنو الى الوليد :
« وهل هذه شقيقتك ؟ »

اختى ! .. لقد راعنى ذلك ، دون أن أعلم السبب . فقد كنت على يقين من ان هـــذا الوليـد اليتيم ابن الاسى والاشجان ، انما هو صبى . فلقـد كانوا هكذا جميعا فى قصص طاهيتنا .

أجبت دون أن أرفع راسى :
« لا ، انني أعتني بها فى غيبة أهلها » .
«وما هو اسمها ؟ »
أجبتها وأنا فى حيرة وارتباك :
« أرابيلا » .

حسنا يا صغيرتى . أنا لا احب ان أراك متجمدة فى هـذا الصقيع .

أين تقيمين ؟ .. فسوف نقوم بحملك الى منزلك حالما يعود زوجى من قضاء شئونه .
فأجبتها :

« انى أشكر لك تفضلك، فان المنزل قريب من هنا »
وعندما ناولتنى الطفلة كانت تقول :

« كما تشائين . هاك الطفلة قد استوفت حقها من اللبن بما قيمته كرون ، مضافا الى ذلك رضعة للطريق. لكن عليك أن تحتــــفظى بنقودك . بارك الله لك فى قلبك الساذج . فعندى ها هنا ، ما يكفى لستة أطفال آخرين واهلا بهم اذا جاءوا » . وكانت وهى تتحدث تدق على ثدييها وتضغط على كفى وهى تودعها العملة

الفضية . ثم راحت فى ضحك متواصل تتخلله عبارات مما قلته لها عن ارضاع الوليد .

تركتها فى ذلك الضحك الصاخب واسرعت ومعى الوليد الصغير . ولكنى لن أقول بعد الان الوليد الصغير بعد أن صح فى ذهنى انه طفلة ، لاعتقادى بأن كل وليد غير مرغوب فيه من والديه ، لابد أن يكون طفلة . انها الآن أرابيلا الجميلة . وكنت أنطق اسمها بنغمة من يحادث دمية لا حول لها ولا حيلة . وكانت أرابيلا تحرك رجليها كما لو كانت تركب دراجة . يالها من طفلة ذكية . لعلها فهمت ما دار فى خلدى ، فتحركت لتكذب ظنى .

كان شعورى بامتلاك هذه الطفلة ، يزيد من حرصى وخوفى عليها ، ومن الرغبة فى انزوائى معها فى وحدتى الا ان حالتى قد ساءت من شدة البرد وفرط التعب وعصف الرياح . ومن بعيد كنت أسمع دقات ساعة تشير الى الوقت . ولكن ماذا يعنينى من دقات الساعة الا انها دقة تتلوها دقة . فلم يعد من معنى عندى للزمن وللساعات . وبهذا انتهى تفكيرى فى أمر الساعة والزمن . غير أن النعاس كان يزحف نحوى حتى بدا لى الوحل الذى انعكس عليه ضوء الفسق شيئا على قبح منظره مريحا ، تمنيت لو انى استلقيت فوقه ، واستغرقت فى النوم ، وأدركت حينذاك كيف ان الساحرات فى القصص الخرافية ، كانت تغوى وتفتن ضحاياها ، عندما يكون البرد والجوع قد أوهنها واخذ منهــا كل مأخذ . ولم أكن أبغى شيئا سوى النوم ، الذى اعتبرته جريمة لا تغتفر فى حق الطفلة . فكيف

يخامرني هـذا التفكير الشقي بالاستسلام الى النوم ، ومعي اليتيمة الصغيرة ارابيلا ! ذلك ان النوم في هذا الصقيع ـ كما سمعتهم يقولون : معناه الموت المحقق.

بهذا الادراك والوعي ، كنت احس بأن علي أن ابحث عن مكان أستريح فيه بعيـدا عن مخالب هذا الصقيع. ولم ألبث طويلا حتى شملني احساس بأني أقترب من ملجأ تبين انه دكان حداد له سقيفة ينبعث من مدخنتها تيار من الهواء الساخن . وكنت في موضعي هـذا ، أشبه ما أكون بالطيـور التي تتجه في طيرانها نحو الجنوب طلبا للدفء . كنت أجتـاز في طريقي حظائر للبط ، وأتعثر في سيري فوق الحشـائش التي علاها الثلج ، وأمضي في سبيلي وسط قطع مبعثرة من آلة معطلة فوق الطريق ، كانت تتراكم عليهـا كتل الثلج ، حتى بلغت في سيري كوخا آيلا للسقوط ، قد سدت نوافذه خرقة من الخيش بدلا من الزجاج . ومن خلال مدخنة علت هـذا الـكوخ ، كان الدخان يتصاعد في وهن ينبىء عن ان النـار التي في الـكوخ قد أوشكت على أن تخمد ، لولا الهواء الذي كان يساعد على تحريك الدخان . وكان الباب ينفرج عن فتحة ضيقة يسـاعد على تثبيتها سير من الجلد . ولمـا كان المـكان ساكنا فقد مرقت الى الداخل ، حيث كان الهدوء مخيما والمكان دافئا . ورغم اني لم أر أحدا الا انني كنت أشم رائحة اناس في ناحيـة منه . بل لقد رأيت ضوء نار واهنة ، ولمحت خرقة في آنية فخارية بها شحم ، كما تبينت الى جانب ذلك سندانا ومنفاخا .

كان التعب قد أخـذ مني مأخذه عندما وقع نظري

فجأة على امرأة تجلس الى جانب النـــار . ومن تردد أنفاســـها تبين لى انها نائمة . وكان يرقد على ركبتيها صبى صغير ، كان هو الاخر يغط فى نومه .

أخذت أسير على أطراف أصـــــــابعى ، لا احتراما لنومهما فحسب ، ولكن ، وهــذا هو الامر الهام ، انهما اذا رأيانى ، فربما أمرانى بمغادرة المـكان . اننا نعيش فى عالم تغلب فيه عوامل القسوة . ومن ذا الذى يحيط بكل ما يدور فى جوانبه ! مضيت أجمع أكواما من القش الدافىء ، وضممت أرابيلا الى صدرى ، وجعلت المعطف يلتف حولها ليحميها ، واستسلمنا للنوم .

وكنت أحس من نوم الطفلة انها لابد وأن تكون طفلة هادئة وديعة ، كما خيل الى انها قد تكون أفرغت كل صراخها وعويلها قبل أن تعترض طريقى .

لم أكن أدرى كم من الوقت مضى ، عندما أيقظتنى أصوات قريبة ، وكانت الطفلة ما تزال نائمة . رأيت آنئذ شمعة موقدة فى زجاجة فارغة ، توسطت قدرا من الفخار ، وعلى ضوئها رأيت رجلا ذا منظر يثير الرعب والفزع ، حتى خيل لى ، ولم يكن الامر يخلو من قدر من متعة المغامرة ، اننى وقعت فى قبضـــة عصابة من اللصوص والمجرمين ، تماما مثلما كان يجرى للأطفـــال الضالين فى القصص والروايات .

لقد كان فارع الطول ، عريض المنكبين ، ذا شـــعر أحمر غزير ، وذقن بدا شعرها الاحمر مجعدا وقصيرا . كان ينفض عن رأســـه وملابسه ما تساقط عليهـــا من الثلج ، مثلما تفعل الدببة . ولم يكن يرتدى معطفا ، ولا يضع على جســـده سوى قميص وسروال . أما

حذاؤه الذى كان ينتعله فقد كان طويلا . ولقد ذكرنى منظر السلاح الذى كان يحمله بصورة مماثلة ، وردت فى قصـــة من قصص العصابات التى قرأتها . وكانت احدى يديه معصوبة برباط من قمبـاش متسخ ، أما الاخرى فقد كانت تحمل لفافة من ورق رمادى اللون وحزمة من كتل الخشب ألقى بها تحت قدميه .

كانت المراه تتحدث فى صوت خفيض حتى لايستيقظ ابنها وتقول لزوجها :

ما هــذا ؟ هل بعت معطفك ؟ ..

اخذ الرجل يجلجل بضحكة أشــبه ما تكون بقرقعة برميل يتدحرج فوق احجار صلبة وهو يقول لها :

اى نعم يا زوجتى ، والقلب كلما كان دافئا ، كما يقول المثل ، فان حرارته تمد الجسد بدفء تعجز من بعته فروه الإغنام . ومن الخير ان يحس المرء بالدفء النابع من داخله عن أن يحسه بدفء ياتيه من الخارج . ثم راح يشير الى اللفافة التى يحملها فى يده المعصوبة بالاربطه وهو يقول :

« هنا زجاجة من النبيذ وبعض السجق ولحم لعمل الشوربة وبعض البصل . وهــذا كل ما استطعت ان أحصل عليه ، اذ أن الأسعار ما زالت على ارتفاعها . ولعلك سمعت عن المثل الذى يقول : من لم ير النمر فليشاهد قطا ، ومن لم ير لصا ، فعليه ان يعامل جزارا جشعا ، وقد اشتريت كذلك بعض الخشب وشمعة »

« ولــكن ما هــذا ؟ »

اخذت الزوجة تسأله وهى تدس يديها فى داخــل اللفافة وبين محتوياتها حتى أمسكت بنجمة صغيرة ذات

زخرف وبهرج رخيص ولفافة من ورق ملون مخروطية الشكل .

أجاب الزوج :

« أما النجمة فهى زينة لشعرك ، وأما الحلوى فهى للصبى . ذلك ان « المسيح الطفل » لن يمر ببابنا .

ولما تهيأت الفرصة للزوجة لتتكلم قالت :

« ولكنى لا أرى أثرا لدخان « لغليونك يالاجوس؟»

قال الرجل :

« سوف تشفى يدى عما قريب ، وعندما أعود لعملى سينوفر لى ثمن دخان غليونى » .

عند ذلك ادخلت الزوجة يدها فى جيبها واخرجت منه لفافة وراحت تقول له :

« هاك دخان لغليونك مع تمنياتى لك بالعيد السعيد»

فقال لها :

« ولكن أغلب الظن انك حرمت نفسك من تناول الخبز ليتوفر لك ثمن الدخان » .

فأجابته بقولها :

« لا عليك . فقد تناول الصبى خبزه . وهل يعيش الناس على الخبز وحده ؟ » .

لم ينطق الرجل بكلمة ، ولكنه ربت على خد زوجته بيده الضخمة .

فى هذه الاثناء استيقظ الصبى وراح يجرى نحو والده وهو يسأله :

« ماذا أحضرت يا أبى لعيد الميلاد ؟ »

قال الرجل :

« لقد تيسر لى بحمد الله أن أحضر شيئا . وانتظر حتى ترى بنفسك » .

فعاد الصبى يسأل :

« وماذا أحضرت لماجدة فى هذا العيد ؟ »

اجاب الرجل :

« ان أختك يابنى فى السماء . وهى تستمتع الان بالدجاج ، والبط ، والبودنج ، والفطائر ، والموسيقى الجميلة ، وكل ما هو حسن من كل شىء » .

« بودى يا ابى أن اذهب اليها فى هذا العيد ؟ »

« ان الرحلة يابنى شاقة على الاحياء الاشقياء ! »

التفتت الام للصبى وهى تقول :

« دع أباك الان يالازلو وسوف ننعم الليلة بوجبة سجق جميل عند العشاء » .

« وهل لدينا أوزة للغداء غدا ؟ »

« لا يابنى . ولكن سيكون لدينا ما هو أشهى من الاوزة . انها وجبة شهية ساخنة جيدة الطهى ! »

« وهل سأضع حذائى الى جوار المدفئة هذا المساء ؟ »

فأجاب الاب :

« طبعا ياعزيزى لك أن تفعل ذلك » .

وهنا قال الصبى وهو مستغرق الفكر :

« ولكن فى حذائى ثقبا » .

فأجاب الاب :

« لا عليك يابنى . ضع قبعتك فالامر سواء ، فالحذاء أو القبعة أو الجورب كلها تفى بالغرض. وطالما كان هناك ايمان فكل شىء يتم على خير وجه » .

« هل سيكون لى أخت صغيرة ؟ »
فأجابت الام :

« اذا أرسل الله لنا طفلة فاهلا بها على الرحب والسعة » .



كانت النار التى راح الرجل يلقى الحطب فيها قطعة بعد أخرى قد توهجت آنذاك وبعثت الدفء فى المكان . وكنت ما أزال راقدة دون أن يظهر لى ظل على الجدار . أخذ الحداد الطيب وزوجته وطفله يتناولون عشاءهم من الخبز والسجق ويشربون قليلا من النبيذ ، وبعد أن انتهوا من طعامهم ، قال الرجل لزوجته :

« انى أراك متعبة والصبى فى حاجة الى النوم وانا مثله بعد سير طويل وسط هواء بارد منعش . ولعل للاكل الطيب الشهى والشراب الهنىء أثره . وغدا نستقبل عاما جديدا ، وهو عيد كذلك ، فلنذهب الان الى النوم » .

عند ذلك قاموا من على المائدة وراح الصبى يضع قبعته بعناية الى جوار المدفاة ، ثم مضوا الى ما وراء فاصل فى الحجرة اتخذوا منه قاعة للنوم ، وقد آخذوا معهم الشمعة .

فى هذه اللحظة قر قرارى على أمر كان يتحتم على عمله . زحفت على ضوء النار المشتعلة فى المدفاة ، ووضعت أرابيلا برفق على الكرسى المنخفض الذى كانت تجلس عليه المراة قبل ذهابها الى قاعة النوم ، اخرجت من جيبى قلمى الرصاص الذى احرص دائما على

حمله وخططت به بضعة كلمات على ورقة ألصقتها بدبوس فى ملابس الطفلة ، كانت تحمل هذه الكلمات « الطفلة اسمها أرابيلا وهى تحب شرب اللبن . ولما كنتم أناسا طيبين فانكم تستحقونها وهى كذلك جديرة بكم ولعلها بذلك تنعم فى ظل رعايتكم » . ثم أفرغت فى هدوء كل ما كان فى كيس دراهمى من رأسمال ، كان يتمثل فى ثلاثمائة بنجو من الذهب ، ووضعته جميعه فى قبعة الصبى .

بعد ذلك أخذت سمتى نحو الباب الذى دلفت منه الى الطريق العام ، وأغلقت من ورائى الباب ، دون ان أحدث صوتا ، وانطلقت أعدو .

وبعد مضى نصف ساعة وجدتنى وجها لوجه أمام رجل من رجال البوليس لم يتوان عن أن يمسك بى وهو يقول :

« انك وأمثالك من الاطفال الاشقياء يشغلون خواطر أهليهم ويتسببون فى شقائهم » .

فرحت أسأله :

« هل صحيح ما تقول ؟ »

أجاب الرجل :

لقد كان أهلك فى حالة بالغة من التعاسة حتى انه لم يبق فى المدينة شرطى دون أن يشترك فى البحث عنك ، بعد أن رصد والدك جائزة سنية لمن يعثر عليك » .

قلت :

« أتقول رصدوا جائزة لمن يعثر على ؟ » .

أجاب الرجل :

« نعم .. هذا ما قلت »

عنـد هـذا الحد انطلقت فى البكاء ، وكان هـذا هو شـأن أمى وأبى عندما عدت الى الدار ، وكدت أختنق من توالى قبـلاتهم التى كانوا يمزجونها باللوم العـاطف والعتـاب الحانى . أما الخدم فقـــد تجمعوا حولى ووجوههم تطفح بالبشر والسرور والانفعال . وكذلك كان شأن مربيتى الانجليزية التى كانت محمرة الجفنين من فرط بكائها . أما مرضعتى فكانت تربت على برفق وهى تصحبنى لتغيير ملابسى واخذت تقول لى فى الطريق :

« لو تأخرت نصف ساعة أخرى لفاتك موعد قداس نصف الليل » .

فسألتها :

« ولـكن كم من الوقت مضى على غيابى ؟ »

أجابت :

« ثماني ساعات قاتلة أيتها الشقية الصغيرة » .

كنت أظن اني امضيت على أقـل تقـدير ثلاثة أيام كاملة . وهكذا ... تيسر لى أن أذهب الى قداس عيد الميـلاد . وكان الباريتون اليكسيوس جاربيليون يؤدى نشيـد عيـد الميلاد ويردده معه أفراد جوقة المنشدين « الـكوراس » . وعندما عدنا الى المنزل كانت شجرة عيـد الميـلاد تتوسـط الصالة ، وقد مررنا بها ونحن فى طريقنـا الى أسرتنـا . وكنت أحس بلذة انتظـار الوقت الذى أتلقى فى نهايته ما أعده لى أهلى من هدايا.

ولم تـكن سـعادتى فى يوم من الايام أبلغ من تلك الساعات .

تنهدت بيلا بارلى وهى تقول :

« لقد كان هذا ما كان .... »

فسألتها :

« وماذا بعد الذى كان ؟ » .

أجابت :

« انني الان سعيدة . ولو انك استشعرت السعادة لغدوت سعيدا » .

ورحت أسألها :

« ولكن ماذا حدث للحداد وزوجته وصبيهما والطفلة أرابيلا ؟ »

أجابت بقولها :

« لقد تصادف ان كنا نتنزه بعد تلك الليلة بعام كامل فى سيارتنا التى كانت تجوب بنا طرقات الحديقة العامة المترامية ، واذا بى ألمح عائلة الحداد ، وكانت امارات اليسر والرخاء قد انعكست على صفحات وجوههم التى بدت هانئة مستبشرة . ومنذ ذلك الحين لم أعد أهتم بشأنهم .

أما ما كنت اتوق حقا الى مرآه ، فهو وجوه هؤلاء القوم عندما استيقظوا على صراخ أرابيلا ، ثم عثورهم على ما فى قبعة الصبى الصغير من ذهب راح يتلألأ سناه فى ضوء نار الموقد .

انني كلما تخيلت هذه اللحظة ، اشتملتنى سعادة غامرة . وما يزال هذا الاحساس يعتادنى فى الحين بعد الحين .

ان مظاهر السعادة فى هذه الحياة ، لا نراها الا بعين التوهم والتصور والخيال . ذلك اننا نتمني السعادة

التى نراها بين ايدى الآخرين ، ونود لو كنا مكانهم ننعم بما به ينعمون .

ولو جاءتنا نفس هـذه السعادة ، لما احسسنا بها ولا شعرنا بما تسبقه من هناءة ونعيم .

والان ... اسأل الله لك أن تهنأ بالسعادة والتوفيق فى عامك الجديد الذى أدعوك الى أن تحتفل به وتنعم بمسراته .

ملك هوايته جمع الساعات

تاليف : جيرالد كيرش

هنــاك من الخفــايا ما هو من قبيل ما أسر لى به « بوميل » ، من شــأنها أن تخترق حواجز العقــل لترسب فى قاعه ، وتأبى ان تزايله أو تريم عنه . فأنا اذا ما أنبأتك نبــأ ذلك الملك واسمه واسم مملــكته ، فانك سترفع حاجبيك الى أعلا ، وتخفض فــكيك الى أسفل ، بل ومن المحتمل جدا أن تلعننى بوصفى أحــد المحتالين الماكرين ، أو أحد المهرة من الكاذبين البارعين.

لقد التقيت « بالــكونت دى بوميل » فى كازينو مونت استوريل فى البرتغال . وفى الوهلة الاولى ظننت انه من المحتالين ذوى الجراة ، الذين يتسربلون برداء الحياء المفتعل .

ذلك ان « الــكونت بوميل » عندما خسر على مائدة الروليت كل ما كان معه من مال ، رأيته يقدم لى ساعته على سبيل الرهن مقابل ألف اســكودوس أو ما يعادل عشرة جنيهات استرلينية ، لشــعوره المقامر بأن الحظ ســيواتيه ويتحول اليه . وكنت أقدر ان مثل هــذه الســاعة تســاوى فى انجلترا فى ذلك الحين مايزيد على هــذه الجنيهــات العشرة . ومع ذلك فقد ناولتــه ما

طلب من مال ، وراح بالفعل يربح ويربح حتى ربح فى مدى ثلاثة أرباع الساعة احد عشر ألفا من الاسكودوس وعنـد ذلك توقف عن اللعب وأعاد لى ما كان أستدانه فى مقابل رهن ساعته مع عبـارات رقيقة من الشـكر البالغ ، مصحوبة بدعوته لى لتنـــــاول كأس من الشمبانيا . ولما قدم لى بطاقة الزيارة الخاصـة به ، رأيت مدونا عليها ما يلى :

« كونت دى بوميل ، صـــاحب كونيتا بوميل فى كاسكيس ، وفيلا بوميل فى لوزان بسويسرا » .

وفى معرض الحديث معا علمت منه أن الساعة التى ارتهنها تبلغ قيمتها أربعمائة جنيه استرلينى .

وهنا سألته :

ومن يكون صانعها ؟

فأجاب يقول :

أنا ..

قلت :

ان فيك ما حملنى على الظن بأنك رجل ماهر فى عمل تقوم به يداك .

عند ذاك مد لى يديه فوجدتهما شـفافتين ، لا اثر للدم فيهما ، وقد بدت عروقهما رفيعة قاتمة ، ومتشعبة كما لو كانت اجنحة حشرة طائرة .

فأجاب :

كان ذلك شأنهما منذ زمن ولى . اما الان فلا شىء من ذلك . فلقد أصابنى اضطراب عصبى ، وليس هناك ما هو أسوأ من هذا الاضطراب لمن كان له مثل مهنتى.

فاستدركت قائلا :

مهنتك ؟

أجاب :

أقصد صناعتي ان كنت تفضل هـذه الكلمة . ذلك انني كنت صانع ســاعات . أما لقب الشرف الذي أحمله ، فقد منحني اياه الملك نيكولاس نيكولاس الثالث. وعلى هـذا فأنا لست نبيلا بالوراثة ، لانني في الواقع كنت سويسري الجنسية .

قلت له وقد تذكرت قصة ذلك الملك :

« اني أذكر الملك نيكولاس الثالث الذي كان يهوى جمع الساعات من كل حجم ونوع » .

فأجاب بقوله :

« أن مجموعة ساعات ذلك الملك كانت أجمل مجموعة في العالم » .

رحت أسأله :

« وانت مع ذلك بوميل ! اني بالطبع اذكرك . فان اسمك قد اشتهر بوصفك صانع ساعة الملك نيكولاس».

فأجاب الكونت بوميل وهو يبتسم :

« لقد كانت هذه الســاعة لعبة أكثر منها ساعة ، اذا شئت الدقة في الوصف . فقـد كانت بها طيـور تقفز وتغرد وتضرب بأجنحتها في الفضـاء ، في حين كانت ميناؤها على هيئة نتيجة أوتوماتيكية تعمل آليا . وقد ابتكرت لها بارومترا يديره جهـاز خاص ، بحيث كانت فصـول الســنة الاربعة ، تظهر على المينـاء بالتتابع وفقا لما يتقلب على جالة الجو من تغيير . وكانت هذه الساعة معقدة غاية التعقيد . واني أفضل عليها الساعة التي ارتهنتها عندك هذا المساء »

فقلت :
أمن أجل ما بها من ذهب ؟
فأجاب :

ليس بها من ذهب سوى الغطاء . فهي ساعة بسيطة ولكن قيمتها في انضباطها انضباطا يفوق كل حد. وهي محصنة ضد الهزات والماء . ومع ذلك فان مظهرها لايبدو أنيقا في ظني . وأنا الان وقد اعتزلت كل عمل، لم يعد يهمني مرور الساعات ، ولكن تعلقي بالدقة لذاتها ، حبب الى كل ما هو منضبط ودقيق . وهذا أمر يمكن ادراكه . ذلك اني لا أستطيع أن أعمل الان . فيدي كما ترى ، ليست ثابتة . ولهذا فاني شديد الحرص على هذه الساعة لانها آخر ما بقي لي من كل ما صنعته . أما الساعات الاخرى التي صنعتها فقد احتلت أماكنها في المتاحف الخاصة والعامة ، وهو أمر يبدو في نظري كالمقابر بالنسبة للموتى .

وهنا سألته :

« وهل أنت الذي قمت بصنع التماثيل التي كانت تزدان بها ساعة الملك نيكولاس ؟ انها تحف فنية غاية في الدقة » .

فأجابني :

« لا . لقد قام بصنعها فنان بلجيكي اسمه «أونوريه دي كوك » . وقد كنا نعمل سويا » .

فقلت معقبا :

« لقد تذكرت الان . انه أونوريه دي كوك . أظنه قد مات ؟ .. أليس كذلك ! » .

فأجاب :

« نعم .. ذلك المسكين أونوريه . لقد كان من خير الصحاب . وكنت أحبه كثيرا . وا أسفاه » .

فقلت :

أظنه مات على اثر حادث ؟

فأجاب كونت بوميل :

بل مات عمدا .

فقلت مستعلما :

لا اظنك تعنى انه قتل نفسه ؟

فأجاب :

لا ، لا . هذا أمر مستبعد .

فرحت أسأله :

لعلك تريد أن تقول انه مات مقتولا ؟ ..

فقال :

انى أفضل الا أذكر شيئا الان عن هـذا الموضوع ، اذا كنت تسمح بذلك .

فقلت :

انى أستميحك عذرا يا كونت .

وما لبث أن تململ ثم قال :

لا. لا. لا. لقد كنت مجاملا لى ، الى جانب انى ارتحت الى مرآك منذ شاهدتك وملت الى صحبتك . فأنت رجل رقيق جذاب . ولم أعهد فى نفسى الجرأة التى تملكتنى اليوم لولا ان شجعنى مظهرك . وأنا نادرا ما استمر فى اللعب طويلا .. وليس من عادتى ان احمل مبلغا كبيرا من المال . وعندما أترك مائدة الروليت ، فانى أنساها وأنسى كل ما أحاط بها . ولست أدرى اليوم ما الذى حملنى على... على...

هل لك ان تتناول معنا طعام العشاء غدا ياسيدى ؟

فقلت :

بكل سرور .

وكنا قد فرغنا من زجاجة الشمبانيا وذهب كل منا فى طريقه . وكنت أفكر وانا فى طريقى الى فندقى فيما بدا لناظرى من متناقضات هـذا الوجود . ان بعض الحمقى التافهين فى بعض الفنون أو الصناعة يخلعون على أنفسهم ألقابا زائفة ويتصرفون بكل كبرياء وصلف ، فى حين نرى رجلا مثل كونت بوميل الذى يعد سيد أهل حرفته فى الدقة والمهارة ، والذى اشتهر بوصفه صانع ساعات الملك نيكولاس ، نراه منطويا على نفسه وقد غلبه الحياء وأربكه الخجل ، على الرغم من لقبه النبيل ، الى جانب ما بلغه من صيت وشهرة .

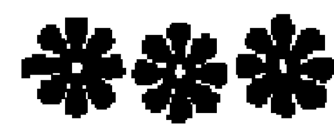
وكنت أود أن أعرف عنه الكثير . كما كنت أتلهف على رؤية زوجته ، وعلى أى شاكلة تكون . ذلك ان بوميل لابد وأن يكون قد جاوز السبعين من عمره . وتصورت ان تكون هى فوق الخمسين من عمرها ، مترهلة ذابلة ، وقد انطوت جوانحها على ملل وضيق بالحياة . وكنت مخطئا فى حدسى وتصورى . لقد كانت بالفعل قد جاوزت الخمسين من عمرها ، وكانت بدينة ولكنها كانت ما تزال جذابة . وكان « بوميل » يدعوها « مينا » . وكان شعرها أحمر وعيونها زرقاء صافية . وكانت تبدو راضية هانئة بعد أن تحقق لها كل ما كانت تصبو اليه من سعادة ، أو كأنه لم يعد فى الوجود أمر يعكر صفوها . وكانت من ذلك الطراز من الناس الذين يبدون سعداء رغم ما يلم بهم من

ضيق وخصاصة . وهى هنجارية الاصل ، وقد اشتغلت بالخياطة حتى أصبحت من شهيرات خياطات ذلك العصر .

وقبل أن تنقضى ساعة ، كنت قد أدركت انها كانت صديقة المسكين أونوريه دى كوك ، لا لانها احبته ، ولكن لانه لم يكن سعيدا . اما شأنها مع بوميل فجد مختلف .. لقد لمست طيبة قلبه فأحبته وأسعدته بحبها.

ولكنها رغم كل ما أحاط بها من مظاهر الهناءة والسعادة ، فانها كانت تبدو كما لو كانت تطوى بين جوانحها سرا لا تود أن يند عنه لسانها أو تفضى به الى أحد .

واليك القصة الحقيقية لموت نيكولاس ، الملك الذى كانت هوايته جمع الساعات ، وهى القصة التى وقفت عليها أخيرا .



بعد أن انتهينا من العشاء ، راح بوميل يقص على قصته على النحو التالى :

« كنت قد تتلمذت على يد « تانكرد ديكر » حتى أدركت ووعيت بفضله الكثير من أسرار الصنعة . ولعلك رأيت صور « تانكرد » الذى يبدو فيها كما لو كان أحد كلاب الرعاة . وما ان استيقن من مهارتى

حتى استخدمنى كعامل معه بأجر يومى . حتى اذا ما بلغت العشرين من عمرى أصبحت مساعدا له . وقد اصطحبنى معه الى الملك نيكولاس عندما استدعاه ليقيم فى القصر ويصنع للملك ما يكلفه به من ساعات ، منذ أكثر من خمس وأربعين سنة ، عندما كنت أبلغ من

العمر الثانية والعشرين . وعندما وصلت مع « ديكر » كان علينا أن نقابل أولا سيدا يدعى « كوبالت » ، وهو أحد أقرباء الملكة ، وكان ذا نفوذ واسع فى القصر . ولما كان الملك طاعنا فى السن فقد اعتمد كل الاعتماد على « كوبالت » بعد أن حال بينه وبين مشاغل الملك ، ما كان يعانيه من آلام الروماتيزم والتهاب المفاصل . ولم يعد يعنى كثيرا بشئون المملكة . وكان أحب وقت لديه ، يقضيه فى انصراف كلى الى هوايته التى تتمثل فى جمع الساعات الكبيرة وغير العادية . والى جانب ذلك كانت هناك هوايات أخرى للملك ، انقطع عنها بعد ان بلغ الثالثة والسبعين من عمره .

كنت أقول اننا قابلنا « كوبالت » قبل أن نرى الملك . وقد راح يحدثنا عن السبب الذى دعانا الملك الى قصره من اجله . ولابد ان تكون قد سمعت شيئا عن « كوبالت » هذا ، أو لعلك لم تكن آنذاك قد ولدت بعد . انه على أى حال ، هو الذى فر مع مارلى مارتين زوجة الوزير ، وهذه حادثة من المحتمل كثيرا ان يكون والدك قد علم بها فى حينها . أما « كوبالت » فلعله الان فى عداد الاموات . فقد كان يبلغ الخمسين من عمره عندما رايته أول مرة . وكان ذلك منذ اربعين عاما . وكان عندما رايته مايزال وسيما ، ولكنه على جانب كبير من الشر وسوء الخلق رغم انه من النبلاء ومن علية القوم . بل لقد كان فى مكره وخبثه أخطر من الحيوان المفترس . ولم يكن شعر رأسه أو شاربه كثا ، كما لم تكن له أهداب. أما بياض عينيه فقد كان ناصعا براقا . ومنذ أول

نظرة اليه ، نفرت منه واحسست نحوه بكراهية لا ادرى مبعثها .

ابدى فى حديثه سروره برؤيتنا فى القصر ، كما أنهى الينا لهفة الملك الى استشارتنا فيما استدعانا اليه . ثم راح يقول :

« انه ... ولكن استمعا الان » .

لقد رفع اصبعه ، واخرج ساعته بيده الاخرى الطليقة ، وكان يبتسم وهو يقول :

« الساعة الان الخامسة تماما » . وما أن انهى هذه الجملة ، حتى راح المكان يدوى بأصوات مختلفة ، كانت خليطا من الموسيقى وزقزقة الطيور ودق النواقيس وطرقات صادرة عن أجراس فضية وذهبية ، الى جانب عشرات وعشرات من دقات الساعات التى تعلن الوقت. من بين هذه الساعات رأينا ساعة المانية ينطلق منها اثنا عشر رسول من الحواريين ، كانوا يتمايلون وهم يدقون بمطارق من البرونز رأسا ذهبية لتمثال شيطان والى جانب هذه الساعة العجيبة رأينا ساعة أخرى رخيصة من الخشب ، كان يبرز منها عصفور نحيل راح يرسل صوتا يحاكى الفواق بعد دقات الساعة التى كان يعلنها وهى الخامسة .

عندما سكتت الاصوات ، راح « كوبالت » يقول :

« ان صاحب الجلالة يملك مجموعة تزيد عن سبعمائة ساعة . وهو ضعيف أمام هذه الساعات التى استهوته هوايتها ، مثله فى ذلك مثل الملك لويس السادس عشر. ولكن رجائى ألا تذكروا شيئا أمام الملك يتعلق بلويس السادس عشر التعيس الحظ ، اذ ان ذكراه وذكرى

مصيره يورثان الكآبة . وسوف نتقابل كثيرا يامستر « ديكر » . وأنا على ثقة من ان بيننا كثيرا من الامور التى نشترك فيها ونتشابه ! » .

انحنى « ديكر » وفعلت أنا مثله . وراحت تتملكنى فكرة بعد أن سمعت ما سمعته ، مؤداها ان الملك مادام يهوى الساعات كل هذه الهواية ، فجدير به أن ينفرد بامتلاك ساعات تنطوى على أفانين من البدع وعجائب الصنعة وأسرارها . وأن تزدان هذه الساعات بتماثيل وشخوص مبتكرة لم يسبق أن راودت فكرتها عقل بشر من قبل .

وكانت هذه الفكرة التى تملكتنى هى اول خيط قادنى الى الطريق الذى تصورت فى نهايته ما تكون عليه ساعة نيكولاس الثالث .

بدأت مع « ديكر » نعمل فى هذه الساعة التى تصورتها ، مدى أربع سنوات ونصف متصلة . وكانت الاجزاء ذات النفائس الفنية من صنع « ديكر » ، أما ما عداها من نواحى آلية وميكانيكية فقد كان الفضل فى صنعها يرجع الى عملى . وهكذا أصبحت صانع ساعات الملك نيكولاس .

أما مصمم الموديل ومبتكره وصانع الغطاء وصاحب الصور والرسوم والنقوش ، فقد كان « أونوريه دى كوك » ، ذلك الفنان العبقرى الموهوب . لقد كانت

عبقريته مستمدة من جذور بعيدة الغور للهولنديين الكبار من رجال الفن وما اشتهروا به من دقة وبراعة واتقان . وكان « دى كوك » من أولئك الفنانين الذين كان فى استطاعتهم نقل صورة طبق الاصل لرجل أو

تفاحة أو قرد أو عنقود من العنب أو قطعة من نسيج الـكتان أو شعاع من أشعة الشمس . ان يده كانت آلة فوتوغرافية بارعة . ولم يكن ذلك مما يسعده سماعه. فقد كان يود أن يصنع شيئا من ابتكاره لا ان ينقـل شيئا يكلف بعمله . وكان مما يحز فى نفســه انه كان لا يقوى الا على رسم ونقل صور مما صنع الله . وكانت رغبته فى أن ينفرد بخلق شيء ينبض بالحياة ، تحتل كل حواسه وتفكيره ولـكنه كان يقف عاجزا دون ذلك . ولطالما اغتم وانطوى على نفسه من فرط الاسى ، بعد أن أيقن انه لايزيد عن كونه انسانا عاديا أو فوق ذلك بقليل على اكثر تقدير وأفضل تصوير .

ورغم شـــهرته ونجاحه وما جمعه من مال ، فان المسكين « أونوريه » كان حزين النفس ، الامر الذى حمله على ان يفرط فى تعاطى الخمر حتى أصبح مدمنا لايفيق وكنت من جانبى أكن له بالغ الحب والاعجاب . لقـد كان صانعا ماهرا أكثر منه فنانا . وكان فى استطـاعته أن يستخدم أى مادة فى عمله سواء أكانت من البرونز أو العاج أو الخشب أو المرمر أو الزجاج أو الذهب أو الحديد . اى شيء وكل شيء .

ولـكنه رغم هــذه القدرة ، فقد كان فى غم ، لانه لم يستطع أن يقنع نفســه ويحملها على التسليم بأن القدرة الالهية لم تجده صالحا صلاحية جديرة بأن يضع بين يديه الشرارة المقدسة التى هى أصــــل الخلق والمخلوقات . ولهذا فان ما أشيع من ان « أونوريه دى كوك » قد انتحر ، له ما يبرره ، وان كنت من جانبى على خلاف هذا الذى أذيع ، ولدى بدورى ما حملنى على الاقتناع به .

ولـكن الى أين وصلنـا ؟ آه .. لقد تذكرت . كنت مع « ديكر » نتحدث الى « كوبالت » ذلك الرجل الرفيع المقـام ، الناعم الملمس ، البالغ الخطر . وكان مما يثير العجب ، سماع كل هـذه السـاعات تدق فى آن واحد لتعلن الوقت . ثم لا تلبث أن تسكت كلها لتستأنف تلك الدقات الرتيبة التى تصدر عن الساعات . وكان القصر على سعته مليئا بالسـاعات . ولم يـكن من المستطاع للزائر الغريب ، عندما يهبط الليل ، ان يخلد الى النوم ، بل كان يبقى فى يقظة مضنية ، انتظارا لمـا يصم آذانه من اصواتها كل ربع ساعة . وكانت هنـاك سـاعة بها تمثال لصبية ترقص رقصة «الـكان ــكان» ثم تنضو عنهـا ثيـابها الخارجيـة حتى تكشف عن ملابسها الداخلية . وهى خلال ذلك تنقر على طبـل فى يدها اليمنى . وكانت هناك سـاعة أخرى فرنسـية حديثـة فى بدعتهـا . كان يزينهـا اثنـا عشر تمثـال لموسيقيين ، ما ان تعلن السـاعة الثانية عشرة ، حتى يتملكهم مايشبه الجنون والهذيان . وبعدذلك يمضون فى تحريك أطرافهم فى جميع الاتجاهات ، بينما صـوت موسـيقى رفيعة يخرج من صندوق يختفى وراءهم ، يحمل أنغاما راقصة تفيض بالحياة . كما كانت هنـاك سـاعة ألمـانية تنطق بألمـانيتها . كانت تعلوها مزرعة بها فلاح وزوجتـه وابنـه وابنتـه وخنزير . وبانتظام دقيق لايتطرق اليه خلل على طول اليوم ولاربع وعشرين مرة ، يتكرر منظر يمثل الفلاح وهو يضرب زوجتـه ، والزوجة وهى تصفع ابنها ، والابن وهو يرفس أخته ، والابنـة وهى تشـد ذيل الخنزير ، كل ذلك يسير وهم

يصرخون معا . انها ســـاعة تسلب الاب !.. ولقد ايقنت بعـد أن رأيت ما رأيت ، انني و « ديكر » ممن لايمكن الاستغنـاء عنهما مطلقـا . ذلك ان هــذه السـاعات ذات اللعب والتماثيـل ، سريعة التلف من فرط حساسيتها ودقة صنعها ، بحيث تتأثر من أوهن شيء يعتريها ، حتى أصبحت العنـاية بها أو علاجهـا من قبيل علاج جرحى الحرب ، ابقاء على أرواحهم .

يا له من عمـل متصـل دائم ! ان صـاحب الجلالة الملك يستخدم تسعة من المشهود لهم بالمهارة للابقـاء على انضباط سـاعاته ودقة توقيتها ، ولا عمـل لهم سوى ذلك .

وكنا نحن « ديكر » وأنا قد التحقنا بالعمل لدى الملك لاصلاح ما يتلف وابتكار ما هو جـديد ، بمرتب نرك « ديكر » مشدوها ، وهو الذى اعتاد غرائب وشـذوذ الاثرياء ، الذين لايقيمون للمال وزنا . انني آسف اذا ما أزعجتك بهذا الحديث عن الساعات ولا شيء سـوى السـاعات . ولـكنى كما ترى ، لا شيء فى حيـاتى سوى السـاعات ولا اعرف شيئا عداها . وانا الى جانب ذلك ، ولـكى أصـل الى الجانب الهام مما أود أن أسـوقه اليك ، لا استطيع ان اتجنب ذكر الساعات ذلك ان الملك نيكولاس الثالث بعد أن بلغ من العمـر ما بلغ ، لم يعد يشغل فكره وباله سـوى سـاعاته .

ولعلك تتساءل : كيف ان ملـكا فى مثـل هـذه السن العالية والمرض المضنى ، يحتمـل أن يحيـا دائما بين ما يذكره بمرور الزمن واقتراب الاجل ، الا ان حب الملك للساعات كان أقوى من خوفه من الموت .

ذهبنا مسرعين للمثول بين يدى الملك . ولك ان تذهب فى تصورك الى حد اعتبارنا أطباء استدعوا على عجل لاسعاف مريض مشرف على الموت ولانقاذه مهما تكلف الامر . يا الهى ! .. ان صاحب الجلالة كان طاعنا فى السن الى حد كبير . لقد كان يجلس كما لو كان جثة متصلبة فوق كرسى كبير من القطيفة ، وقد التف من رقبته الى ركبتيه بعباءة ثقيلة ، ورغم ذلك ، ورغم ان الشباك كان مغلقا ، ولهب النار فى الغرفة متوهج ، فانه كان يبدو ازرق اللون من فرط ما يحسه من البرد . لقد كان ، ان صح القول ، متجمدا ، وقد خلت عروقه من الدم . بل ان عينيه كان يحاول ان يطرف بهما ليبعث فيهما بعض البلل من تحريكهما . وكان الملك يعانى من شلل قيل انه نتيجة ما تقلب فيه من نزق وطيش فى صدر شبابه . والى جانب ذلك كان يعانى من التهاب الشرايين وهو ماجعل حركته صعبة لايستطيع معها حراكا الا بكل جهد وصعوبة ومشقة . ولن أنسى منظره على هذه الصورة ، وهو امر ترك فى نفسى أسوأ الأثر . لقد كنت أسير فكرة صبيانية ، مفادها ان الملك فى حياته يجب أن يبدو ملكا فى كل حركاته وسكناته ، ولكنى لا ارى امامى سوى جثة ملك ، بدا عجوزا كالجبال ، مجهدا من فرط ما أفرط ، حتى لم يعد يقوى على وقف ما ينتابه من رعشة تسرى فى كل جسده . ولم يكن فى استطاعته ان ينقطع عن التأوه والتألم ، أو فى استطاعته أن يمنع رأسه من التحرك ذات اليمين وذات الشمال كما لو كان سلحفاة .

أما ذقنه فكانت فخمة مهيبة . وكان شعرها يبدو كخيوط من حرير . وكانت تملأ كل وجهه وجانبا من صــدره . وما ان وقع نظره على « ديكر » وعلى حتى انتعشت روحه وسرت فيها نسائم الحياة .

لقد ترك الملك من فوره الرسميات جانبا ، وأقبـل على موضوع العمــل مباشرة . ما انكر ما كان عليـه صــوته ! .. كان صـــوته متقطعـــا فى مثـــل حشرجة المشرف على الموت ، ومختلطا بتأوهات لا تنقطع . وكان فى الحين بعد الحين ، يحاول من قبيل التبسط والمجاملة أن يتنـــاسى آلامه المبرحة بدافع من لهفته على الحديث فيما أراد . راح يقول لنا بين التأوهات والصرخات :

انــكم تنزلون بالقصر على الرحب والسعة . ولــكم ان تطلبوا ما تشـــاءون وهو مجاب بما فى ذلك مايلزمكم من مال . وسوف تقيمون فى القصر ، وتزاولون أعمالكم فى المــكان الذى خصصته للعمل . وراح ينعى ماأصاب ســاعاته البالغ عددها ســبعمائة ســاعة من تلف كان نتيجة الاهمال . وطلب الينـــا أن نبـدأ العمــل فورا باصــلاح ســاعة ســويسرية فريدة فى نوعها .

وقــد كان المتسبب فى توقفها رجــل يدعى « فرينز هارلين » ، عندما ترك أصــابعه الغبية تعبث بمحتوياتها حتى لحقها التلف جهلا منه بمسالك الاصلاح الصحيح . وكان علينـــا ان نصــلح من شـــأنها فى الحال ، خــلال مراقبتــه لمــا كنا نقوم به من اصلاح . وكانت مشاهدته ومراقبتــه لمن كان يستقدمهم لاصلاح ســاعاته أثنــاء قيــامهم بعملهم ، هى المتعة الوحيــدة التى بقيت لهــذا الملك المسكين . وقد جلس ذات مرة ثمانى ساعات وهو

يراقب عملي في المصنع الذى استحدثه فى القصر . وكان يتناول طعامه خلال هذه الساعات ، الذى لم يكن يزيد عن اللبن ، يتناوله من آنية خزفية ، وهو جالس فى كرسيه المخملى .

لقد ساروا بنا الى ذلك المصنع الملكى الذى كان يفوق حد الخيال فيما جمع . وكانت تقوم فوق منصة فيه ، ساعة ، كان بندولها البرونزى فى حجم قدمين ، وقد تفرق فوق مينائها اثنا عشر تمثالا ، يبلغ حجم كل تمثال منها أربع بوصات طولا . ومن بينها كان يظهر ملك تزين بالجواهر وعلى رأسه تاج من ذهب ، وكاردينال يلتف فى عباءة مخملية حمراء ، وفارس يمسك بسيف من فضة ، وتمثال فى هيئة تاجر يزدان بأحجار من اللازورد ، وجراح يمسك بمشرط فى يده ، وفى اليد الاخرى قلب من الياقوت ، وراهبة من مزيج من الفضة والعاج ، وطفل رضيع صيغ من العاج والذهب البندقى ، وغانية ترفل فى الجواهر والحلى ، وفلاح من عاج قديم وبرونز ، ومتسول من العظم المرصع بلآلىء صغيرة . وكانت الفكرة التى ابتكرها مصمم هذه الساعة ، تتبلور فى انها عندما تدق معلنة الثانية عشرة ، فان بندولها يمثل آلة الحصاد التى تقوم بحصد هذه التماثيل واحدا بعد الاخر حتى تنتهى بالملك عند الدقة الثانية عشرة من دقات منتصف الليل . انها قطعة رائعة من الفن والصنعة الماهرة الحاذقة ، كانت تحملنا قسرا على ان نمر بها باحترام وتبجيل باديين .

كان الملك عندما جاء الينا ، يستند الى ذراعى

رجلين ، كان أحدهما طبيبا مسنا ، والآخر شابا قوى البنية بوجه غير مألوف فى غرابته . وكانا يساعدانه فى السير حتى وضعاه فوق كرسى من المخمل الاحمر . وعندما بدأنا «ديكر» وأنا ، ننحنى للملك ، راح يقول :

« لا . . لا . . لا حاجة لى بذلك . استمرا فى عملكما » .

ثم أشار بيده اشارة ملكية للتحية والمجاملة ، لم يلبث بعدها ان أطلق السبيل لسيل من الانات والتأوهات والشتائم لمن كان السبب فى اتلاف هذه الساعة . وانصرفنا الى العمل فى اصلاح ما لحق بالساعة من تلف . ان « فريتز » الذى استدعوه لاصلاحها ، بدا كما لو كان مخبولا . وسوف لا ادخل معك فى تفاصيل فنية حتى لا تفقد صبرك . لقد عمى بصره عن أن يرى سلكا رفيعا يقل فى طوله عن نصف البوصة ، التف حول تمثال الملاك ، الامر الذى أوقف حركة باقى التماثيل . وكان هذا السلك بمثابة الأساس الذى ترتكز عليه الحركة الآلية للساعة وما بها من تماثيل . وبعد ان بذلنا من جهد وعرق وتعب ــ ولكم نال التعب من الصلب نفسه ــ تمكنا من أزالة السلك الذى كان يتسبب فى وقف حركة الساعة . ولم يلبث البندول الذى كان يمثل آلة الحصاد أن تحرك وراح يحصد التماثيل ، وأخذت الساعة ترسل دقاتها . وما ان سمع الملك دقات الساعة ورأى تماثيلها وهى تقوم بدورها ، حتى أرسل صرخة فرح مصحوبة بتأوهات الألم والكثير من الفاظ الحمد والشكر والامتنان . وقد أظهرنا للملك ان

الاصلاح لم يتطلب منا الا اليسير من الجهد ، واننا أزلنا السلك التالف واستبدلناه بسلك جديد ، قمين بأن يدير الساعة مئات من السنين .

غدونا « ديكر » وأنا بعد هذه الحادثة ، من ذوى القدم الراسخ فى القصر ، فى حكم الملك نيكولاس الثالث. لم يكن من طبع أحد منا الاضرار بأحد ، أو استغلال مكانتنا للنيل من أحد . ولكنى كنت على يقين من ان أحدنا أو كلينا اذا ما صادفنا ما يوقعنا فى المسئولية والحساب ، فانه لن ينالنا عن ذلك جزاء ولا عقاب . هذه المكانة والجاه والامتياز ، قد أطاحت مجتمعة بحياة « ديكر » المسكين . فلقد حدث على سبيل المثال، ان كبير أمناء القصر ، وهو رجل متكبر ، لا يملك أمر نفسه اذا ما انفعل ، دخل فى حوار مع « ديكر » قال فى ختامه ما مفاده ان عليه ان يعرف قدر نفسه ولا يجاوز هذا الحد . ولقد تأثر « ديكر » من هذا القول وهدد بترك القصر . وكانت النتيجة ان طرد كبير الامناء من القصر بخزيان مشين . غير ان كبير الامناء المطرود ، الذى كان يدعى « تانكريد » ، اضمر كرها عميقا للملك ، وأخذ يمد بالعون والتأييد سرا ، حزب الاحرار الديموقراطى . ولعلك قرأت شيئا عن الوضع السياسى فى عهد الملك نيكولاس وخاصة ما قام من تذمر خلال حكمه راح يعم البلاد . وكان الملك نيكولاس كما كان العهد بأبائه من قبله ، ملكا مطلقا . وكان هو وحده ، القانون .

وعلى اثر مقتل أبيه الملك « فيندكس الثانى » على يد امرأة ألقت على عربته قنبلة تزن سبعة أرطال ،

أعتلى « نيكولاس » ألعرش . وكان يعاونه فى ادارة شئون المملكة وزير حكيم ومجرب ، حمله على ان يقوم بادخال اصلاحات فى البلاد تناولت جعل التعليم والخدمات الصحية والعلاج مجانية للشعب . وكان يوالى بتشجيعه تقدم الفنون الجميلة وتنمية الصناعات الثقيلة والتوسع فى ميدان المبادلات والتجارة الخارجية

كل هذه الاصلاحات وكثير غيرها ، قد تميز بها عهد الملك « نيكولاس » غير انى كنت الاحظ انالرجل العادى رغم كل ما فى هذه الاصلاحات من موجبات للاطمئنان ، كان يرزح تحت عبء قيود عديدة تمسك عليه حريته ، الامر الذى اشاع فى نفسى الرعب ، وانا السويسرى جنسا ومولدا .

من ذلك أن الملك لم يكن يسمح بصحافة حرة تنشر ما ترى نشره ، أو تنقد ما يعن لها نقده . وكان الفساد قد تطرق الى المناصب الكبرى فى الدولة ، بعد أن أصبح الملك طاعنا فى السن ، وحال ضعفه ومرضه دون أن يبذل أى عناية أو رعاية الا للسبعمائة ساعة من ساعاته العجيبة . ونتيجة لذلك ، أخذ التذمر المكتوم ينمو ويطرد مثلما تأخذ البذرة سبيلها من تحت تربة الأرض ، الى سطحها ، وسرعان ما تغدو قوية الجذع ملتفة الاغصان .

فلقد كان فى البرتغال أحزاب مناوئة للحكومة ، يرعاها الفوضويون الاحرار والارهابيون من حزب « بروتس » ، والاشتراكيون الديموقراطيون ، والفوضويون المستقلون ، والجمهوريون والعمال الملكيون ، وعشرات غيرها من الأحزاب . الا ان حزب

الاحرار الديموقراطيين ، كان من بين كل هذه الاحزاب ، اكثرها نفرا واشدها بأسا فى معارضتها للملك ، بزعامة محام قديم يدعى « مارتن » . هذا هو الحزب الذى كان يتعين أن يقام له وزن ويحسب له حساب . ذلك ان اتجاهاته كانت بغير نزاع دستورية. كما ان سياسته لم تكن تستهدف عزل الملك ، ولكن كان هدفها تجريده من السلطة ، ومعنى هذا ان يبقى الملك مجرد صورة بحيث يملك ولا يحكم . وكان من الطبيعى ان يكره الملكيون ، هؤلاء الاحرار الديموقراطيين، اذ ان فى اضعاف سلطة الملك ، اضعافا لسلطانهم ونفوذهم . وكان خوف الملكيين من هذا الحزب ومن رئيسه «مارتن» يزداد كلما ازداد «مارتن» قوة وازداد حزبه سلطة . وكان هذا الحزب متهما بأنه هو المسئول عن تمويل كل الخطط والدعايات المناوئة لحكم « نيكولاس » بواسطة صحافة وكتب وصور تطبع فى الخارج وتتناول ما لا تستطيع الصحافة المحلية تناوله ، وتهيىء بذلك الجو والمناخ اللازمين للقيام بالشغب وأعمال الارهاب . الا ان الاتهام كان يعوزه الدليل والاثبات اللذين لم يكن من المستطاع التوصل اليهما بفضل تحرز « مارتن » وحذره ومهارته .

وكان من المعتقد ان شخصية الملك « نيكولاس » وحدها هى التى عاقت الاطاحة بنظام الحكم . وكان الملك المسكين يعانى من شيخوخته ومن شلله ومن التهاب شرايينه حتى انه كان أقرب الى الموت منه الى الحياة. وكان يبدو ان نهاية حياته ستكون بداية ثورة تعم البلاد كلها ، وهو أمر كان احتماله متوقعا . ولم

يكن بين كل الاحزاب من ينكر أن الملك كان من خير من جلس على عرش أسـلافه ومن أكثرهم عدلا . فقد كان انسانا ووالدا حانيا على شعبه ورعيته . وكم كان يسعده ان يفعل ما من شأنه ان يسعد كل فرد من رعيته لو استطاع الى ذلك سبيلا . من اجل كل هذه الصفات ، اكتسب الملك محبة شعبه واحترامه وتبجيله .

ولم يكن للملك ذرية . وكان قد رزق بابن عاش سقيما عليلا الى ان أسلم الروح .

وقد اقتضى وقوفى على هذه المعلومات شهورا عدة ، حتى اذا ما وعيتها وأدركتها واستخلصت النتائج من المقدمات ، بدأت أوقن بأن « ديكر » وأنا لم نكن نقف على ارض صلبة وبأقدام راسخة كما توهمنا .

فى ذلك الحين كنت أعمل فى ساعة الملك «نيكولاس» الكبرى . وكان الملك العجوز يأتى كل يوم ليشاهد ما نقوم به من عمل . وقد اعترضنى خاطر عجيب . ذلك اننى رغم ميلى الى أن تكون الساعة ساعة لا اكثر ولا أقل ، لا لعبة ميكانيكية ساذجة ، الا اننى أحسست فى نفسى ضعفا أمام هذه القطع الالية البارعة. وكان المصنع الذى نعمل به فى القصر يروق لنا كثيرا . فقد كان يضم كل طريف ومستحدث مما لا يخطر على بال . وكان الملك ممن يميلون الى حجب خصوصياتهم عن كل عين الا بعض المقربين اليه . وكان يصمم على أن يرى بنفسه كل جزء من الاجزاء الداخلية للساعة التى كنا نقوم بصنعها له ، أنا و « ديكر » وعندما انضم الينا « أونوريه دى كوك » ، ليقوم بصنع التماثيل

وتثبيتها فى أماكنها من الساعة ، كان لزاما وأمرا مقضيا ان يقف على الطريقة التي تتحرك بموجبها هذه التماثيل . وكان الرجل فى مبدا الامر غير ذى شأن كبير فى العمل بصورة كاملة . وكان دوره لايتعدى كما سلفت الاشارة صناعة التماثيل . ومن فرط تأففه وانقباض نفسه ، لم تكن يداه تستقران فى وضع من قلق لا يملك دفعه . وكان يعبث بأى شيء تقع يداه عليه

وذات يوم عندما اقتضى العمل ضرورة وجوده حتى نفرغ من الجزئيات المتعلقة بمفصل الركبة للتمثال الاوسط فى ساعة نيكولاس الكبرى ، راحت يداه تعجن وتكور وتدير قطعة كبيرة من الصلصال كانت موضوعة على رف فى المصنع . وبعد أن مرت ساعة على ما كانت يداه تعبث به سأله الملك :

« ماذا تصنع ؟ »

فأجابه دى كوك :

« لا شيء يامولاى »

فقال له الملك :

« أرنى ما صنعته ؟ »

وقد هالنا ان نرى كيف أن « أونوريه دى كوك » بيديه الخلاقتين القلقتين العابثتين بتلك الكتلة من عجينة الصلصال ، قد توصل الى صنع نموذج طبق الاصل « لديكر » ، حتى ان الملك صاح بفرحة صبيانية:

« أصنع لى نموذجا مماثلا » .

انحنى المسكين « دى كوك » وقال :

« بكل سرور يا صاحب الجلالة . ولكن ليس من الصلصال ، لان ما يصنع منه لا يبقى متماسكا لفترة

طويلة من الزمن . فان شئت جلالتكم صنعت لكم تمثالا من ... لنقل من الشمع ، وهى محاولة على سبيل التسلية » .

ورغم انه لم يكن قد انقضى من النهار الا أقله ، فان « دى كوك » كان قد شرب زجاجة من البراندى ، حتى لم يكن ليعى ما يفعل أو يقول الا بكل جهد وعناء .

ومضى يقول للملك :

« وسوف تسر جلالتك من التمثال كل السرور . وسوف يكون هذا التمثال ثانى ما أصنع من تماثيل الشمع . أما التمثال الأول فقد كلفتنى بصنعه سيدة رغبت فى أن أصنع لها تمثالا من الشمع مطابقا لها وبحجمها الطبيعى » .

فسأله الملك :

« ولكن لماذا ؟ »

أجاب دى كوك :

« ذلك لان للسيدة المذكورة زوجا كثير الشك والارتياب فى تصرفاتها بسبب فارق السن بينهما ، ومن أجل جمالها الفاتن وصباها الآسر . وكانت قد اعتادت أن تتسلل من غرفتها عند منتصف الليل لزيارة من تهوى . وكان من عادة زوجها ان ينظر خلسة من ثقب الباب فى الحين بعد الحين خلال الليل ليطمئن باله على وجودها بغرفتها . وقمت كطلبها بصنع تمثال لها بحجمها الطبيعى ، على صورة مانيكان الخياطات . وجعلت مفاصله متحركة حرصا منى على مطابقة التمثال للأصل عند الحركة فى أى وضع من الاوضاع . واستطاعت السيدة بذلك أن تضلل زوجها ثلاث سنوات .

سأله الملك :

« وماذا حدث بعدها ؟ »

أجاب دي كوك :

« حدث يا صاحب الجلالة ان زوجها هم ذات ليلة على عادته بالذهاب الىغرفتها ليتحقق من وجود زوجته بها ، وما أن راى جسدها فى وضع مثير بالغ الاغراء ، حتى لم يستطع ان يكبح جماح عاطفته المشبوبة التى أمدته بالجراة على فتح باب الغرفة والتسلل الى داخلها ليقبل زوجته ويهدهد من تلك العاطفة المشوبة، ولكنه لم يلبث حتى خرج من الغرفة وهو يولول ويبكي زوجته المتوفاة والمسجى جسدها فوق سريرها . ويشاء القدر الساخر أن تدخل الزوجة القصر فى تلك اللحظة ، ويراها زوجها وهى تدلف الى داخله من أحد الممرات » .

سأله الملك :

« وهل قتلها الزوج ؟ »

فأجاب دى كوك :

« لا يامولاى . انه لم يقتلها ، ولكنه حطم التمثال»

كانت هذه هى المناسبة الفريدة التى رأيت الملك يضحك فيها . ويبدو انه بذل مجهودا وهو يضحك ، فراح يتأوه ويلعن . ولكن قصة « دى كوك » كانت بلسما مسح على آلامه وأمده بحالة عالية من البهجة والمرح . فلقد كان الملك فى صدر شبابه من اكثر الناس حبا فى المجون والدعابة ، وخلق مجالات الهزل والمرح . وكان يميل الى اتيان ما يبعث على الضحك من الاخرين بوضع شراك وخدع يتعثر فيها الذى يقع عليه

الاختيـار للوقوع فى هـذه الالاعيب التى تبعث على الضحك والانشراح .

قال الملك موجهاً حديثه لـ « دى كوك » :

« ليكن كما تشاء ، واصنع لى تمثالا من الشـمع بحجمى الطبيعى . ولـكن عليك ان تكتم أمر ذلك كل الـكتمان . هل سمعت ما أقول ؟.. وعليك ان تبـدأ منذ الان فى العمـل دون ان تترك شعرة أو تجعيدة أو أى شىء مهما دق . وبذلك نستطيع ان نخلق جوا من اللهو والمرح ، عندما نخادع سكان القصر البلهاء بوجودى فى مكانين فى آن واحد ، الامر الذى يبلبل أفـكارهم ، ويبعث فيهم الحيرة والارتباك » .

ولم يتوان الملك عند نهاية الحديث عن اهداء « دى كوك » ، علبة جميلة للسـيجار من الذهب المطعم بالجواهر . ورغم ذلك فقـد بدا « دى كوك » مكتئبا ومهتاجا . وراح يصيح وهو يحدث نفسه :

« ما الذى حملنى على أن أروى للملك ما رويت ؟.. لـماذا ؟ .. أبعـد كل هـذه السنين الطوال ينتهى بى المطاف الى أن أقوم بصنع دمى من الشمع للعجائز من البشر فى طفولتهم الثانية ؟ » .

قلت له :

« وما الفارق بين تمثال من البرونز وآخر من الشمع ؟ وطالما أن هـذا السيد العجوز يسعده ذلك فاصـنعه له . ولعلك ادركت مدى كرمه عنـدما يكون راضيـا مرحا . هـذا الى جانب انك ضمنت بذلك استمرارك فى عملك بهذا المصنع مدة سبعة أشهر . وسواء أصنعت التمثال من الشمع أم من البرونز ، فأنت على الحالين

مكتئب وحزين . وبدلا من ان تصنع تمثالا من الصلصال وانت تزجى الوقت بالعبث ، فقد تهيأت لك الفرصة لان تصنع تمثالا من الشمع ، وما وراء ذلك من جدوى ونفع اكيدين » .

روح هـذا الحديث عن « دى كوك » ، وهدأت نفسه وبدأ فى العمل باعداد كتلة ضخمة من الصلصال تكفى لصنع الجسم ، ووضعها فوق قائم وراح يسوى فى البداية رأس الملك . وكانت الخطوط التى التزمها بمهارته الفنية هى كالاتى فيما اذكر :

استهل عمله بصنع الرأس بحجمها الطبيعى بدقة متناهية يمكن ان توصف بأنها ميكروسكوبية ، وذلك من عجينة الصلصال التى يصنع منها المثالون تماثيلهم . وعندما جف هـذا الجزء ، وضعه فى قالب من الجبس بعناية فائقة ، وراح يصب عليه نوعا خاصا من الشمع المذاب . ثم أخذ يزيل القالب قطعـة قطعة كأنما كان يحل لغزا أو أحجية ، حتى ظهر الرأس فى صورة بشعة مرعبة ، خفت أن تطالعنى كالـكابوس فى نومى .

وفى هـذه المرحلة ، لم يكن هناك أى وجه شـبه بين هـذه الرأس وبين رأس الملك . لان « دى كوك » لم يكن قد ألصق بها الشعر واللحية بعد .

ولعل وضع الشعر فى رأس الملك ، كان هو المرحلة الشاقة المملة فى هـذا العمل . فقد جرت العادة عنـد صنع التماثيل الشمعية أن يقوم المثال بوضع كل شعرة على حدة . ولو انى كنت موضع « دى كوك » ، لما همنى أن أضع لحية كاملة حيثما اتفق شبيهـة بلحية الملك « نيكولاس » . الا ان « دى كوك » عنـدما يندمج فى

عمله ، فانه يغدو متحمسا لاصغر جزئية فيه مهما بدا من هوانها . ومن أجل ذلك كان « دى كوك » العزيز المسكين هو ذلك الفنان العظيم . ورغم ما ساوره من غضب وتردد فى البداية ، الا انه تحول الى فنان استغرقه عمله وانهمك فى انجاز راس الملك . وكان قد قصد حانوتا مما يبيع لوازم هذا الفن ، واشترى منه كمية ضخمة من الشعر الابيض الجميل . « وفى البلقان توجد بعض الفلاحات المعوزات ، ممن يملكن شعورا جميلة هى بمثابة التيجان لرءوسهن ، يذهبن لبيعها مقابل دراهم معدودات ترد عنهن صولة الجوع والحاجة» وقد راعنا ان نرى الملك العجوز أمامنا بحجمه ، فرحنا نختلس النظر الى رأسه وملامحه وذقنه وكل مميزاته ونحن مشدوهين .

خطر لى خاطر وأنا أمعن النظر فى تمثال الملك وما حواه من دقة وبراعة وحذق ، فقلت لدى كوك :

« طالما ان السيد العجوز قد اهتم بهذه « الدمية » على حد وصفك لها ، فماذا لو اننا مزجنا فنينا معا لنخرج منه شيئا رائعا ؟ فأنت عندما تتم تصميم واستكمال كل تمثالك ، أتعهد أنا بصنع الباقى » .

فسألنى « دى كوك » :

« ماذا تعنى ؟ »

قلت له :

« سوف لا تعترضنى أى صعوبة فى ابتكار جهاز آلى كأجهزة الساعات التى أقوم بصنعها ، بحيث يمكن بواسطته أن أجعل الملك يطرف بعينيه ويحرك راسه ذات اليمين وذات الشمال ، ويرتعش كما هو معهود

فيه ، ويهز يديه المتصلبتين المرتعشتين . وهـذا أمر ايسر على من صناعة الساعة ذات الديك الصائح » .

ابتهج « دى كوك » بالفكرة ، ورحنا ندبر الامر سرا فيما بيننا وحدنا ، ليتسنى لنا أن نباغت الملك ونفاجئه بهذا اللهو البرىء المبرأ من كل أذى أو ضرر .وما دام هو الذى أوحى به ، فليكن له ما أراد . ولم يكن هنالك من أحد يدرى شيئا عما نصنع . وكان « ذيكر » قد ساءت حالته واشـتد عليه مرض قلبـه الذى لم يمهله حتى قضى نحبه . وهكذا مضيت أنا « ودى كوك » فى أوقات فراغنا ننصرف الى هـذه الدمية . والواقع ان العمل فيها قد استهوانا واستغرقنـا واسـتحوذ على ألبابنا .

ولم يكن أمرا ذا بال ، اعداد الالة التى تحرك العينين والرأس وتبعث الرعشة فى اليدين . فذلك عمـل من صميم اختصاص صانع اللعب . ولـكننى خلقت ميالا للأعمال الصعبة التى تتطلب حذقا ، وتحكما فى الاجزاء المعقدة التى يتكون منهـا عملى الفنى . وذلك ما جعلنى أفـكر فى أن الامر يكون أبعث على التسلية ، لو أمكننا أن نسيطر على مفاصـل التمثال ، بحيث نحمله على أن يقوم ويقعـد ، ويخطو خطوات الى الامام ، بطيئـة ومهتزة فى مثل خطوات من تصـلبت أطرافهم من أثر الروماتيزم . وكان هـذا العمـل بالنسـبة لى يسيرا وهينا .

ذلك أن البـاعة الجائلين فى الطرقات ، يبيعون لعـبا من صفيح ، فى استطاعتها ان تقوم بنفس هذه الحركات فى يسر وهوادة ، بل وتلـف فى الهواء دورة كاملة كما

يصنع البهلوان . غير انى فى النهاية وجدت ان الامر ليس فيه من الصعوبة والتعقيد ما يستهوينى وأميل اليه . فلما فرغنا من ان نجعل التمثال يرتعش ويطرف بعينيه ويجلس ويقف ويسير ، رغبت فى أن أجعله يتكلم .

وكان الجرامافون كما تعلم قد اخترع فى ذلك الحين، وان كان بدائيا فى أوائل اخراجه . ولم يكن صوته أمينا فى نقله للأصوات الطبيعية التى تحاكيها . وذلك هو ما كان عليه صوت الملك العجوز ، اذ لم يكن بالمثل طبيعيا ، بل كان فى الواقع أشبه باسطوانة مشروخة . وهو على هذه الصورة يكون من أسهل الاصوات التى يمكن تقليدها . ذلك ان تحاول ذلك بنفسك . فما عليك اذا شئت ، الا أن تدع كثيرا من اللعاب يتجمع فى آخر قصبتك الهوائية ، ثم تتأوه وانت على هذه الحالة ، تحصل على صوت مماثل لصوت الملك ، فى يسر وسهولة . وكان علينا أن نثبت الآلة المحركة للتمثال فى ظهره فيما بين أسفل الكتف وأعلا الفخذ ، ونثبت معها الازرار التى يقوم كل منها بعمله المنوط به . فاذا ما ضغطت على زر منها وقف التمثال، واذا ماضغطت على آخر فانه يخطو اثنتى عشرة خطوة الى الامام ثم يلف أوتوماتيكيا على عقبيه . واذا ما أردت التمثال أن يقفل راجعا ، فما عليك الا أن تعود للضغط على زر التحرك .

وهناك زر يجعل التمثال يجلس عندما تضغط عليه . ولما كانت مفاصل الفخذ والارجل تكون زاوية حادة بدرجة ٩٠ فان الجرامافون يبدأ عمله بالكلام بطريقة آلية فور جلوس التمثال ، وهنا يأخذ فى التأوه وارسال

الشتائم واللعنات كما يفعل الملك . وقد حرصت على أن أجعل التمثال لا ينقطع عن الاهتزاز والرعشة ، بينما أثبت داخل الرأس منفاخا يمتص الهواء ثم يخرجه ، حتى يستمر الشارب الذى يغطى الفم فى حركة دائبة، ويستمر التنفس الذى يشبه الخوار مسموعا .

لقد بدا التمثال كما لو كان كائنا حيـا ، وخصوصا بعد أن ألبسناه ملابس استجلبنـاها من خزانة ملابس الملك . وكنت باعتبـارى صـانع سـاعات الملك ، صـاحب حظوة وجاه وخطر . وكل من كان فى القصر قد أحاط علما بما حدث لـكبير الامناء « تانكريد » ، ولذلك فقد حرص كل من حولى على أن يقدموا لى كل فروض الرعاية والطاعة والاحترام . بل لقـد كان فى استطاعتى أن أقوم بمغامرات مع أميرات القصر لو كنت أميل الى ذلك . لذلك لم أجد أدنى صعوبة فى أن أحصل من المشرف على خزانة ملابس الملك ، على بزة كاملة من الملابس الملـكية ، بما فى ذلك خف الرجلين المصـنوع من الفراء ، وعباءة فضفاضة وغطاء للراس من المخمل كان الملك حريصا على ارتدائه بصورة دائمة. وعندما ألبسنا التمثال هـذه الملابس ، قمنا باجلاسه على كرسى كبير من المخمل الاحمر ، وأسدلنا عليه ملاءة حجبته كله ، ثم انتظرنا نترقب . واخيرا حلت اللحظة الحاسمة .

وكنت أنا ودى كوك فى حالة من القلق والانفعال النفسى أشـبه ما تـكون بما يعترى الاطفال من نفاد صبر وقلة حيـلة وهم يعدون مفاجأة لوالديهم وينتظرون لحظـة اعلانها فى وقت معلوم .

جاء الملك وهو يستند الى ذراعى الدكتور والوصيفة،

وقاما باجلاسه على كرسيه المعتاد ، وراح هو على عادته يتأوه ويصب اللعنات .

نظر الينا الملك وهو يسأل :

« ما الذى أعددتماه ؟ » .

قلت :

« مفاجأة صغيرة لصاحب الجلالة » . وعند ذلك ضغطت على زرين فى نفس اللحظة التى أزحت فيها الملاءة بعيدا ، واذا بالتمثال يقف على قدميه ، ثم يخطو اثنتى عشرة خطوة ، حتى أصبح وجها لوجه أمام الملك ، وهو أمر توفرت على ضبطه بحساب دقيق ، وما لبث التمثال أن استدار على عقبيه ، وكنت قد ضغطت على زر من شأنه أن يجعله يسير فى طريق العودة الى الكرسى ، حتى اذا ما بلغه ، استدار على عقبيه مرة أخرى ، وبالضغط على زر آخر جعلته يجلس على الكرسى ، فى الوقت الذى أخذ الجرامافون يرسل تأوهاته ويمضى فى صب اللعنات فى وجه الملك .

كنت قد لاحظت ان ضحكة الملك تقدمت بهجته وسبقت انشراحه . الا ان ما رأيته بعدها أفزعني. فقد احتقن وجه الملك وأصبح أزرق اللون ، وكأنما كانت عيناه تحاولان أن تخرجا من محجريهما ، ثم ما لبث أن أرسل صيحة مخيفة ما أزال حتى اليوم أسمعها فى أحلامى .

صحت بدورى :

« مولاى صاحب الجلالة . عفوك ومغفرتك ! » .

ولكنه لم يسمع صيحتى . لقد مال برأسه الى الوراء وراح يتضاءل وينكمش كما لو كان كيسا من

الدقيق أخـذ يفرغ ما بداخله بعد أن مزقته سكين . أما الطبيب العجوز فقد انكمش وجهه وأدركه ما ادرك الملك من فزع ، واخذ يتحسس قلبه وهو يصرخ :

« يا الهي . لقد مات . لقد مات المَلك ! » . بينما الوصيف القوى البنية راح يولول ويبكى وهو راكع على ركبتيه تحت جثة الملك ، وقد سمعته يقول :

« خـذنى معك يامولاى لا تتركنى . خـذنى معـك يامولاى ! » . واذكر ان صراخه هـذا كان أشبه بعواء الـكلب الامين فى كبد الليل . سمعت بعد ذلك صـوت أقدام تقترب ، ولم يلبث البـاب أن انشق وظهر منه «كوبالت» ووراءه اثنـا عشر رجلا . نظر كوبالت أول ما نظر الى كرسى الملك ، ولمـا رآه على ما هو عليه ، كاد الدم يتفجر من وجهه . ولـكنه كان رجـلا سريع التفكير حتى فى مثل هـذه المواقف . فقد اسـتدار على عقبيه وصاح فى رجاله :

« عودوا الى وضعكم ، ولا اريد حرسا فى هذا الممر . وأنت يا رئيس الحرس . ضاعف الحراسة على الابواب الخارجية ، ولا تدع أحدا يغادر القصر » .

دلف بعد ذلك الى داخل المصنع ، وأوصد البـاب وراح يقترب من كرسى الملك وهو يقول :

« دكتور « زيربن » ! هل صاحب الجلالة .. ؟ »

قال الدكتور والدموع تجول فى عينيه :

« لقد مات صاحب الجلالة .. »

أما أنا فرحت أقول باحساس المتسبب فى موت الملك:

« يا صـاحب السـعادة لقـد كان كل شيء يجرى بقصـد حسن . فقـد طلب منا صـاحب الجلالة أن

نصنع له ، « دى كوك » وانا ، تمثالا من الشمع بقصد التسلى والعبث . فقد كان يريد الملك ... » .

استدار كوبالت بسرعة كما لو كان أفعى ، والشر يطل من عينيه . وما أن رأى تمثال الملك على كرسيه حتى فغر فاه من الدهشة . وكان ينقل بصره بين التمثال والملك المتوفى . وانت تعلم كم يغير الموت من شكل الناس .

لقد انكمش صاحب الجلالة المسكين وتضاءل حجمه وتغضن وجهه واصبح أزرق اللون ، وبدا كما لو كان قد فقد نصف حجمه فى خمس دقائق . أما التمثال فقد كانت كل شعرة فيه وكل تغضن أو ثنية ، صورة

طبق الاصل للملك عندما كان على قيد الحياة .
ورأيت كوبالت يمشى نحوى فى بطء . واعترف بأنى لم أكن فى يوم ما شجاعا ، كما انى كنت أكره العنف . وخيل الى أن « كوبالت » كان يريد قتلى . وفجأة رأيتنى أقول له متوسلا :

« لا تسرع فى حكمك . ان « دى كوك » وأنا بريئان تماما من موت الملك وأنا أقسم على ذلك . لقد كان صاحب الجلالة يريد تمثالا لشخصه من الشمع لمجرد اللهو والعبث والمجون . ويريد تمثالا ... كهذا ... »

ورحت أضغط على الازرار ، واحرك التمثال الشمعى لنيكولاس الثالث ليقف ، ثم يخطو اثنتى عشرة خطوة تمثل

خطوات من أفقدهم الروماتيزم القدرة على الحركة السريعة ، وجعله ينظر الى جثة الملك ، ثم يستدير على عقبيه ، ثم يقفل راجعا ليجلس على الكرسى وهو يتأوه ويرتعش ويصب اللعنات فى وجه كوبالت بصوت صاحب الجلالة نفسه . وما لبث أن هدأ ، الا من حركة رأسه ، ومن

اهتزاز متواصــل . ومن المحتمــل فى مكان هادىء أن تلتقط الاذن ، الصــوت الصــادر من الجهاز الالى الذى يحرك التمثال ويجعله يسير ويتــكلم . ولــكن فى قصر الملك نيكولاس الذى يضم أكثر من سبعمائة ســاعة ، يغطى صوت الدقات والاجراس والبندولات والموسيقات كل صــوت آخر يمكن للاذن ان تسمعه . ولقد بلغ من صخب أصــوات ســاعات الملك أن خدم المطبخ فى القصر كانوا يقولون انهم حتى بعد مغــادرتهم للقصر ، يستمر دوى الســاعات فى آذانهم مدة طويلة .

لقد انحنى كوبالت بالفعل أمام التمثال وهو يقول : « مولاى صاحب الجلالة ! » . ولــكنه سرعان ما تمالك نفسه بعد هــذه الجملة وراح يقول :

« هــذا شىء جدير بالاعتبار والتقدير » ..

وهنا قال دى كوك وفى صوته محاولة للارضاء مصحوبة برنة خوف ووجل :

« انه تمثال من الشمع . ولا شىء أكثر من ذلك » . أما أنا فقد قلت :

« لقد جاء صورة مماثلة للأصل تماما » ، ثم ضغطت على الازرار من جديد ، فهم التمثال واقفا وخطا اثنتى عشرة خطوة ، ثم استدار على عقبيه وقفل راجعا وجلس على الــكرسى وهو يتألم ويصب اللعنات .

راح « كوبالت » يتحسس جبهة التمثال الشمعى ، ولمحنا رعشة تسرى فى بدنه . ثم مضى الى حيث كان الملك مسجى على كرسيــه وتحسس يده . ولاحظت ان نظراته الصــارمة الحادة تنطلق الى ما وراء الحاضر ، وقد اشتمله تفكير عميق ولــكنه سريع وعاجل . ولم

يكن من الصعب معرفة ما كان يجول فى فكره ويدور فى خلده . ذلك ان نهاية الملك تعنى نهاية «كوبالت» . وانه اذا كان الملك قد مات ، فان « كوبالت » لايكون فى وضع أفضل منه كثيرا .

وفى الحال رأيته ينظر نحوى ويقول :

« انك أنت الذى قمت بصنع جهاز ادارة التمثال ، اليس كذلك ؟ » اننى أريد أن أتحدث اليك . وأنت يامسيو « دى كوك » ألم تكن أنت الذى قمت بصنع التمثال الشمعى ؟ .. لقد خدعنى منظره لاول وهلة . انك رجل موهوب يامسيو «دى كوك» . ولست أدرى هل أصاب الملك الانهيار عندما رأى عملكم هذا يا سادة ؟ .. ان قليلا جدا من الفنانين الباقين على قيد الحياة ، فى استطاعتهم ان يفخروا بمثل هذا العمل » .

وما كنت أدرى ساعتئذ اننى أحد هؤلاء الفنانين الذين كتب لهم أن يرووا هذه القصة ، فقد كان فى أسلوب حديثه ما ينذر بأن شيئا يوشك أن يقع ، وانه يرتب فى عقله هذا الشىء السيىء العواقب .

وكنت أحس بأنى فى خطر داهم . أما دى كوك المسكين فقد أخذت أنفاسه تتلاحق ، وعيونه تلف وتدور ، وصدره يرتفع وينخفض ، فى حين راح كوبالت ينادى من خلال أنبوبة فى الحائط للاتصال بالادوار السفلى للقصر قائلا :

« ميجور كريميم ! تعال الى هنا فى الحال ومعك أربعة أو خمسة من رجالك الذين يمكنك الاعتماد عليهم كل الاعتماد » ثم استدار نحوى وهو يقول :

« عنـــدما أعطيـك الاشـارة ، دع هـذا التمثال يتحرك كما فعلت من قبل » .

وبحركة مهذبة ـ تصحبها ابتســـامة ـ أمسك «كوبالت» بالملاءة التى كنا نخفى تحتها التمثال ، وألقى بها على جثمان الملك نيكولاس . وما أن أخذت الخطوات تقترب منا حتى أعطى اشـارة البدء . ودخـل ميجور كريميم فى اللحظة التى ضغطت فيها على الازرار. وكان يصحبه اربعة من رجال الحرس ، وكان الميجور يتميز بندبة فى وجهه . وما ان توسطوا الفرفة حتى قام التمثال من كرسيه وسـار الخطوات المرسـومة وهو شـارد الفكر ، فى الوقت الذى كان كوبالت يراقبه بعين صارمة وهو يقول :

« لقد أمر صاحب الجلالة بالقاء القبض على دكتور زيربين والوصيف بوتزى فى الحال ووضعـــهما تحت الحجز » .

اخذ الميجور والقوة التى معه دكتور زيربين الذى كاد يصعق من هول المفاجأة . كما أخذوا الوصيف الذى لم تنقطع ولولته .

وعاد التمثال فى هذه اللحظة الى كرسيه وهو يتأوه ويصب اللعنات عندما كان يهم بالجلوس .

مضى « كوبالت » مسرعا نحو البـاب ، وفتحه ونظر خارجه ، ثم أوصـده وهو يقول لى :

« اى رجل ممتاز وقدير أنت ياعزيزى «بوميل» ، لقيامك بصنع هـذا التمثال ! .. اننى اكاد أقول ـ وليغفر الله لى ما أقول ـ انك بعثت بعملك هذا الحياة فى دمية من الدمى .

ولكن قل لى :

« كيف تقوم بتحريك التمثال وادارته ؟ » .

وكنت بطبعى من المتواضعين ، كما كنت فى نفس الوقت من الهيابين الوجلين . الا انى فى تلك اللحظة — وبارادة من الله — رأيت ما يحفزنى على ان أقول :

« يا صاحب السعادة ، ان ذلك سرى ، وانا أرفض ان اطلع عليه أى انسان » .

راح « كوبالت » يبتسم ابتسامة تنم عن القسوة ، كما أخذ يرمقنى بنظرات مخيفة وهو يقول لى :

« حسنا حسنا ، ان تدخلى فى أسرار عملك هو من أبعد الامور التى أفكر فيها . أليس كذلك يامسيو دى كوك ؟ .. ما أعجب وما ادهش وما اقدر هذا العمل الفنى على البقاء . انه أبعد نفوذا من نفوذ الملوك فالملوك بشر يجيئون ، ثم يمضون الى غير رجعة . ان العمل الذى يجعل المرء خالدا لهو العمل الهام الجليل . وأن تكون فنانا عظيما وبهذا القدر ، فذلك هو الشيء الوحيد الجدير بالتقدير . ما اشد حسدى لك يامسيو دى كوك ؟ »

غير ان الاحمق المسكين دى كوك مضى يقول :

« انه عمل لا يعد شيئا مذكورا » . لقد كان المسكين يهذى بفعل الخمر التى تعاطاها منذ الصباح . لقد اثار حديث كوبالت نشوة الغرور لديه وداعب خيلاءه، حتى كدت أتصور انه لو كان له ذيل لراح يهزه منتشيا

ومضى كوبالت يوجه حديثه لدى كوك وفى صوته رنة تملق بالغ :

« وكيف يدار هذا التمثال ؟ » .

وكنت آنئذ لا أقوى على منع عينى من النظر الى جسـد الملك المسجى على كرسيه . وسمعت دى كوك وهو يقول فى كبرياء وتعاظم :

« وما الذى يدعونى الى أن أعلم شيئا من ذلك ؟ .. يا صـاحب السـعادة أنا رجل فنان فنان ، لا شأن لى بصنع سـاعات أو لعب آلية .. يا صاحب السعادة ، أنا لا أعلم ، ولا ارغب فى أن أعلم ، ولا وقت عنـدى لـكى أعلم كيف تدار هذه الالة » .

وفى نغمة صـوتية مختلفـة تمام الاختـلاف ، قال « كوبالت » :

« لقد فهمت » . ثم راح يصـدر امرا جديدا ، جاء على اثره ميجور كريميم ليصحب دى كوك الى جناحه ، حيث وجد بعد ثلاثة أسـابيع وقد تفتت مخه ، وامتـدت فوهة مسـدسـه الى داخـل فمه . وذكر التقرير الطبى ان الحادث انتحار . وكان دى كوك فى ذلك اليوم قد تناول ثلاث زجاجات من الليكير المعروف باسم جوريكا .

لم يكن ذلك كل ما فى الامر ، فان الميجور عنـدما صحب دى كوك خارج المصـنع ، أجرى كوبالت معى حديثا بالغ الخطر .

لعلى أنبأتك بمبلغ خطر وخطورة هـذا الرجـل «كوبالت» . وكنت تسألنى فى مطلع هـذا المسـاء عن دى كوك ووفاته ، وكنت قد أجبتك بقولى اننى لست على ثقة مما اذا كان دى كوك مات منتحرا . ولـكن عندما امعنت النظر فى أمر موته ، اقتنعت بأنه لم يمت منتحرا . ذلك أن قبضـة المسـدس كانت فى يده ،

وفوهته فى حلقــه ، وقد تنـاثر مخه أجزاء التصقت بجدران الحجرة . ولـكن كان هنـاك جانب خاص لم يدركه أحد غيرى فى هــذا الانتحار الذى أريد له أن يسمى كذلك ، ذلك ان المسدس قد وجد فى قبضة يد دى كوك اليمنى . وكنت أعلم بحكم ما أمضيته من وقت طويل فى العمــل مع دى كوك ، انه يستعمل يده اليسرى بصفة مستديمة فى عمله . ولو شاء من هو على شاكلته أن ينتحر لامسك بالمسدس بيده اليسرى التى كان فى حيـاته يمسك بها الالات والادوات التى يشتغل بها ، ويستعمل هــذه اليــد اليسرى فى القضاء على حيــاته بالمســدس كما أريد أن تكون الوفاة انتحارا . وهنــاك أمر آخر أثار هواجسى وزاد من ارتيــابى . فبعد أن اقتيــد دكتور ديزيين والوصيف بوتزى خارج المصنــع بأمر كوبالت ، لم يعد أحد يســمع عنهما شيئا على الاطلاق .

أود أن أستميحك عذرا ، فان كل الذى رويته الان ، قد حــدث فيما بعد . وكنت قد وصلت بك فى الحديث الى قولى بأنى عنــدما كنت وحــدى مع كوبالت بعــد خروج دى كوك من المصنع مصحوبا بقــائد الحرس ، أجرى معى حديثا مؤداه انه على استعداد لان يغرقنى فى الذهب ، وأن يخلع على من ألقاب النبــل ما يطمع فيه كبار الرجال فى المملــكة ، دون أن ينالها منهم الا قلة معدودة ، مقابل أن أطلعه على سر ادارة التمثال الشمعى للملك الذى قمنا بصنعه وتنفيذه دى كوك وأنا بفرض التسرية وادخال البهجة على الملك ، ومن أجل أن يأتى بواسطته على ضروب من اللهو والعبث . وعشت

طول حيـاتي جبـانا ، ولـكنني لم اكن في يوم من الايام مغفلا . ولذلك فقد عمـدت الى ان أكون هادئا هدوءا بالغا ؛ وأجبته بقولي :

« لعلني وقفت على ما ترمي اليه . فأنت يا صـاحب السعادة ، لا تساوي شيئا في غياب الملك . ومن الطبيعي انك تود أن تبقى في مركز النفوذ والسلطان مثلما أنت عليه الآن وكما كنت كذلك في أخريات حيـاة الملك ، تحكم وتنعم بكل ما تشاء فيما عدا لقب الملك .

فاذا ما وصلت أنباء موت الملك الى تانكريدي وحزبه، فانك سوف تخسر كل شيء ، بل ربما فررت انقـاذا لحياتك من موت محقق ، تاركا كل هـذا النعيم وراءك»

ثم أردفت قائلا :

« ولـكأني أرى بظهر الغيب ما تهـــدف اليه من مشروعات . فما ان تلم بكيفية ادارة هذا التمثال ، حتى تقوم بتحريكه على هواك ووفق ما تشاء . ومعروف ان الملك المسكين نيكولاس الثالث ، كان أبا لشـعبه برصيـد من الاعمال الانسانية والحدب على رعاية هذا الشعب عبر نصف قرن من الزمان . وطالما استطاع أن يظهر الملك أمام شعبه ، بقى الملك سالما من كل خطر يتهدده . وطالمـا ظل الملك في مثل هـذا الامان ، نعمت أنت أيضا بالخير والامان وظللت الحاكم بأمرك في طول المملـكة وعرضها . وهـذا التمثال يشبه الملك شبها جعلك عندما ولجت باب المصنع تنخدع فيه . ولولا أن الملك الحقيقي كان قد لفظ أنفاسه الاخيرة فوق كرسيه لـما علمت شيئا من الامر . وقد أزيد الامر وضـوحا بقولي ان التمثال الذي صنعه « دي كوك » ، وبعثت

انا فيه الحياة ، يبـدو اقوى من الملك فى حال حياته . ذلك انه يستطيع ان يقف ويخطو دون مساعدة أحد، وهو مالم يكن يستطيعه الملك. بل أنه يستطيع أن يردد نفس ألفاظ الملك التى كان يستعملها وبنفس صوته . بل ان فى استطاعة التمثال أن يوقع بامضـــاء الملك الراحل » .

لقد ذكرت أمر التوقيـع بالامضـاء وأنا موقن بأن الامر من الناحيـة العمليـة ممكن وسـهل التطبيق . فان أصـابع الملك المتصلبـة ، لم يكن بها من الحيوية ما يعينها على الحركة . ولذلك فانه كان يستعين بذراعه عنـدما يوقع الاوراق ، أو قل انه كان يوقعها بذراعه. فاذا أنت جعلت ذراعك جامدا ، وأمسكت بين اصبعك السـبابة والاصـبع الاول من يدك اليمنى بقلم وأجريته على الورق ، حصلت على الامضاء الملـكى بصـورته المرتعشة التى لا تتغير .

وكنت قد ادخرت هذه الفكرة كمفاجاة أخيرة وليغفر لى الله . واظهارا لما فى قولى من صـدق « لاننى أحسست بانى كنت فى موقف دفاع عن حيـاتى » ، أحضرت قلم جبر ، ووضعته بين أصبعى الملك التمثال، وضغطت على السبابة لتتجه نحو الداخل ، وسرعان ما ظهر على الورق صـورة من امضـاء الملك بحروفها المرتعشة . وما أن تم ذلك حتى انفرجت الاصـابع وسقط القلم .

ومضيت أقول :

« من أجل ذلك لن ادلى لك بكل ما أعرف عن ادارة التمثال ، لانى ان فعلت ذلك كنت كمن حكم على نفسه

بالاعدام . ومن العبث أن تبحث عن ضالتك داخل جهاز هـذا التمثال ، لانك لن تصل الى اكتشاف ثلاثة أمور بالغة الاهميـة . وكل ما أستطيع أن أطلعك عليه هو كيفية ادارة السـاعة فقط . أما التمثال فان ادارته معقـدة . فهناك تسع أزرار مختلفة يجب أن لا تخطىء الاصـابع مواضـعها . وهناك كذلك أجزاء سريعة التلف يتعين تجديدها بصـورة دائمة كلما دب اليها التلف . لذلك فاني أحذرك وأطلب منك أن تتركني وشأني ».

لقد نطقت بكل هـذا الذى فهت به باسـان رجل عصبى أصـابه جنون مفاجىء ، وأسعفتـه بالشجاعة جراة طارئة . وما أن انتهيت من حـديثى ، وما أن أحسست إنى على وشـك الاصابة بحالة هيستيرية ، حتى التقطت زجاجة براندى كان دى كوك قد تركها فوق رف ، ونهلت منها ملء الفم مرتين .

وهنا قال كوبالت بصوت بعث فى جسدى الرعدة :

« لعلك تدرك ان فى اسـتطاعتى أن أحملك على الـكلام » .

وفى اجابنى اليه أنهيت اليه بصدق وأمانة قولى :

« طبعا أنا واثق من قدرتك على ذلك . ولـكنى أرجوك أن تعدل عما تنتويه . اننى لا أستطيع أن أتحمل الالم » ثم أردفت عنـدما رايت طيف ابتسـامة على شفتيه :

« وليس الامر مقصورا على ذلك فقط ، وهو امر لاشك فى صـدقه ، ولـكنى عندما أقول لك اننى لو كنت مكانك لما أقدمت على ذلك ، فمرد قولى الى ان الاجزاء التى يتألف منهـا الجهاز الالى دقيقة ورقيقة

كالريش . وصحيح انك تستطيع أن تحملنى على أن أتـكلم بسهولة ، وفى استطاعتك أن تحملنى بالتهديد على الـكلام ، ولو باشـارة من قبضـة يدك ، ولـكن الست تدرك ان الازرار التى اذا اطلعت على طريقـة ادارتها ، فى حاجة دائمة الى يد ثابتـة قادرة ، والى قدر كاف من المهارة وتجارب العديد من السنين. ولن يكون فى استطاعتك أن تدير يداك ما أطلعك عليه تحت تأثير التهديد ، بل ولن يكون فى استطاعتى أنا شخصيا أن أقوم بذلك بعد أن يتركنى تهديدك كالمخبول الذى يفقـد السيطرة على عقـله وحركات أطرافه . أرجوك يا صـاحب السعادة ، وبكل أمانة واخلاص ، أن تدعنى وشأنى » .

نظر الى « كوبالت » نظرة ثابتة وباردة لفترة طويلة من الوقت ثم قال :

«ياعزيزى مسيو بوميل . ان منطق الاشياء يحملنى على أن أتجنب الدخول معك وانت بهـذه الخبرة فى حوار انت تملك ناصيته . انك سيـــد أهل مهنتك جميعا ، وأعظمهم شأنا فى عهدك . ومع ذلك ، فلندع الامور تجرى كما عرضتها عليك من قبل . ودعنا نكون أصدقاء . انك أكثر حذقا ومهارة مما خمنت » .

وهـذا ما حـدث ياصـديقى ، فان الملك الحقيقى نيكولاس الثالث قد دفن سرا فى مكان ما بالمدينة ، بعد أن تم نقله من القصر فى برميل خشب من براميل النبيذ . بينما التمثال الذى صنعه دى كولر ، وزودته أنا بالاجهزة التى بعثت فيه الحركة ، قد أصبح هو رأس الدولة .

وقــد أذيع على الشعب ، أن الملك العجوز بمعجزة من المعجزات ، قد شــفاه الله وأصبح يسير الان قليلا وبمساعدة وصيف واحد . وكنت أنا هذا الوصيف . وكان على أن الازم التمثال دائما ، لادير الجهــاز ، ولاصلح ما يصيبه من تلف ، ولاضـــغط على الازرار بطريقة سليمة . وكان على كذلك أن آخذه الى المصنع معى كل يوم ، واجلسه ليشاهد عملى كما كان الملك يفعل فى حيــاته ، وانصرف الى اتمام ساعة نيكولاس الـكبرى، التى يعرف العالم كله انى أنا الذى أخرجتها الى الوجود . وقد حل فنـــان آخر محل دى كوك ليستكمل التماثيل المتحركة فى ساعة نيكولاس وهى التى تركها دى كوك قبل أن يتمها . ولهــذا لاحظ الخبراء تغايرا بين ما كان قد بداه منهــا دى كوك وما أكمله منها من حل محله .

وقد بدت لى الامور غريبة فى أوضاعها كلما امعنت فيهــا النظر . فلقد كنت أنا الحاكم الحقيقى للدولة . فقد كنت أنا السيد والصــوت والمتحكم فى شــخص صــاحب الجلالة الملك نيكولاس الثالث . أما كوبالت فقد راح يمارس سلطانه القوى كالعهد به . وحدث عندما اتفق هو ووزير الداخليــة على اصــدار امر يقيــد من حريات الشعب ، ان عملت أنا بفضل سيطرتى على تمثال الملك ، على أن أجعل القلم فى يد الملك يخط خطا يشطب به الامر الملكى الذى كان يراد منه امضاؤه ثم جعلته يلقى بالقلم وهو يتأوه ويصب اللعنات دون أن يوقع الامر . وكان من اثر ذلك أن أعجب العالم كله بهذه القدرة المتجددة لمثل هــذا الملك المسن العجوز الواهن القوة .

خلال هـذا الوقت ، جاء دور العزيزة مينـا فى القصة . اننى أكره أن أروى دورها ، ولـكن لابد مما ليس منه بد . فلقد كان الملك نيكولاس ، شأنه فى ذلك شأن الملك «داود» ، كما تروى الكتب المقدسة ، يميل الى أن يجدد نشـاط بدنه وذهنـه وروحه بالنسـاء الصغيرات ، ويستجلب من دفء أجسادهن وشـبابهن ما يضفى عليه الحيوية . وعلى كثرة ما كان يقدم اليه من صبـايا فاتنـات فان الملك نيكولاس كان لا يميل الا الى نوع معين من الصبـايا من ذوى الشعر الاحمر ، اعتقـاداً منه بأن فيهن من عنـاصر الحيوية ما هو مفتقـد فى غيرهن مهما بلغن من جمال وفتنة .

وكان على بعد أن مات ، أن أتدبر الامر ، بحيث أقدم صبيـة تملك مثل هـذه الاوصـاف وتكون قبل كل شىء موضع ثقتى .

وكنت من جراء ذلك فى حال كاد يفقدنى السيطرة على أعصـابى من فرط الانفعال . ولك أن تتصـور استمرار الحال على هـذه الصورة مدى سنوات طوال قادمة . وهنا تذكرت العزيزة مينا لتمضى الليـل مع التمثال الشمعى مثلما كان يفعل الملك نيكولاس الثالث فى حيـاته . وكنت قد دربتها على كيفية ادارة مفاتيح وأزرار الجهاز الالى الذى يحرك التمثال ، وصنعت لها مفتاحا اضافيا مشابها للمفتـاح الرئيسى للتمثـال ، وكان ذا مقبض تمسك به وتدفعه فى ثقب من الجهـة اليسرى من جسم التمثال فوق الـكلية ؛ ثم تديره كما لو كانت تملأ ساعة ، وعندئذ يأخذ التمثال فى التحرك .

وقبل أن يقع اختيارى على مينا كنت احسب أن

بيني وبينها تفاهما وتعاطفا ومشاركة فى الشعور والثقة . اليس الامر كذلك ياعزيزتى مينا ؟

والفضل يرجع « لمينا » فيما أتمتع به من لقب الشرف الذى أحمله .

كانت تقول لى :

« لماذا لا تتمتع بنفس الالقاب النبيلة التى يتمتع بها من حولك ؟ » .

ولقد كانت على حق . فقد كنت اجنبيا عن البلاد، ولم أكن ذا حسب أو نسب . ولم يكن فى استطاعتى أن اساير علية القوم واغشى مجالسهم ان لم أكن أحمل من ألقاب الشرف مثلما يحملون . وهكذا دبرت أمرى ومنحت نفسى لقبا من ألقاب الشرف والنبل ، بموجب أمر ملكى وقعه الملك التمثال ، وبموجبه أصبحت كونت دى بوميل .

فى تلك الايام، أمكننا أن نصدر قوانين كثيرة تستهدف الاصلاح فى مرافق الدولة . فقد أصدرنا قوانين ترتب ضرائب عالية على كبار الملاك من أجل القيام بما يحتاج فى الدولة للاصلاح ، وأصدرنا قوانين توجب بناء مساكن للعمال المشتغلين فى المصانع الخاصة ، وقمنا بايفاد بعثات لتحصيل مختلف العلوم والفنون من بلاد متقدمة ، كما استقدمنا خبراء لتحسين مرافق كثيرة فى الدولة كالكهرباء ووسائل النقل وانشاء صناعات عديدة فى مقدمتها التوسع فى صناعة الورق. والى جانب ذلك قمنا بنشر زراعة الدخان فى الجنوب وبدأنا نحصل على دخول كبيرة من عمليات التصدير. وكنت أعجب من اهمال تصنيع سمك « الاكا » الذى

لا يعرف العالم الخارجى عنه شيئا رغم طعمه الفريد وميزاته بين الاسماك . ولا يوجد هذا النوع الا فى احدى بحيراتنا . ولذلك رأينا أن نحتكره ونقوم وحدنا بتصنيعه وتعليبه وتصديره للعالم الخارجى وتداوله كذلك فى البلاد .

ولو جرت الأمور فى الطريق السوى وكما أشتهى ، اذن لحققت على الارض فردوسا من الفراديس ، ولكن لكل أمر غاية ونهاية . ولم تكن لتقوى كل دسائس ومكايد كوبالت ، وكل اثارات الديموقراطيين الاحرار على النيل منا . ولم تكن المملكة فى يوم من الايام اقوى مما كانت عليه فى ذلك الحين . ولكن ارادة الله فوق كل ارادة . وقد بدأت أول المتاعب عندما تطرق الى التمثال الشمعى الذى صنعه دى‌كوك ، التلف ودب فيه البلى . وكان فى استطاعتى أن أتغلب على ذلك باستقدام فنان من صناع تماثيل الشمع ، وهو أمر يسير وهين ، ليصلح ما لحق بالتمثال من تلف ثم العمل على سجن هذا الفنان والتحفظ عليه بصورة مؤبدة . ولم يكن هذا الاجراء بالامر ذى البال، كما لم تكن له الاهمية الاولى فى الموضوع . فان الاهم من ظهور الملك ، والاكبر اعتبارا فى هذا الشأن ، انما هو كيفية ادارة التمثال والتحكم فيه ليتصرف الملك طبقا لما هو مرسوم له ، مثل سيره وقيامه وجلوسه وحديثه . كل هذه التصرفات كانت موكولة الى وكنت أنا المنوط بها والمسئول عنها .

وذات صباح ، قمت من نومى مفزوعا على اثر حلم مثير ، ووجدت أن يدى تهتز وترتعد ولا تستقر على

حال . وارجو الا يذهب بك الظن الى تورطي في تعاطي الخمور والادمان عليها ، فكان ما كان من أمر اهتزاز يدي . فأنا لا أشرب الا اقل القليل من الخمر . ولكن ما حل بي مرجعه القلق والفزع والاثارة . ان الامر اصبح جادا وخطرا وخطيرا للغاية . فكل شيء يعتمد على حذقي ومهارتي . وهكذا أخذ الفزع يشتملني ويستغرقني ... وكلما زاد فزعي زادت يدي من ارتعاشها واهتزازها . وكان في استطاعتي أن أستقدم أحد المتخصصين المهرة في صناعة الساعات وأدربه على ما كنت أقوم به ثم أراقبه ولا ادعه يتصل بأحد أو يحادث أحدا . الا أن ذلك كان فوق طاقة الاحتمال. فصرفت فكري عن تنفيذه . والي جانب ما لحق بيدي بدأت أحس بغشاوة ترين على عيني ولا تفارقها . ولعلك تدرك أن ارتعاش اليد وغشاوة العين هما بالنسبة لصانع الساعات حكم باعدامه .

وعلى الرغم من كل ما قمت به من اصلاحات في الدولة ، فان الديموقراطيين الاحرار كانوا يزدادون قوة بزعامة تانكريدي .

وكان التفكير في القيام بفتنة في البلاد قد اختمر ولولا وجود مينا معي فربما كنت استمرأت البقاء دون أن أفكر في ماعداه .

واني أحمد الله الذي جعلني أرى وجه الصواب . فقد فاجأتني « مينا » ذات صباح وهو تقول لي :

« ما شأنك بكل هذا ياعزيزي « بوميل » ؟ انك رجل سويسري ومعظم أموالك في بنك لوزان ، وفي استطاعتك أن تخلد الى الراحة وتترك هذا العمل .

فلقد أنهيت ساعة نيكولاس الكبرى ، والملك نفسه قد توفى منذ سنوات . فكن فطنا وانظر عاجلا فىأمر مغادرتك البلاد منذ الان ! » .

تبين لى أن « مينا » كانت على صواب . ولم يكن من المستطاع أن أستمر فيما كنت بسبيله من عمل بعد أن أصابت يدى وعينى ما أصابهما . وهكذا قمت بتدبير أمر رحيلى مع « مينا » وحصلت على جواز سفر دبلوماسي . وكنت مطمئنا على ما لدى من مال جمعته من مرتباتى وما غنمته لنفسى وأودعته بنوك سويسرا . وفى صباح أحد الايام رحلت مع « مينا » الى الحدود ومنها الى وطنى بعد غيبة سنوات طويلة.

علمت بعد ذلك بقليل ، أن «كوبالت» ، حاول تحريك الملك التمثال ليقوم بتحية وفد من الديموقراطيين الاحرار ، قدم لعرض طلبات له ، الا أنه أخطأ مواضع المفاتيح الصحيحة ، وأدار مفاتيح أخرى جعلت الملك يجلس ويلعن من أمامه ، ثم ما لبث أن قام على قدميه وخطا الاثني عشر خطوة المعهودة ولكنها للأسف كانت صوب المدفأة التى لم يلبث لهبها أن أذاب شمع التمثال فالتهمت النار الملابس وأثاث الغرفة عندما سال الشمع المذاب فى أرجائها مما تسبب فى حرق جناح كامل من القصر . وعلا الهتاف المعهود فى مثل هذه المواقف : « مات الملك ، يحيا الشعب » .

وتدافع الديموقراطيون الاحرار ليتسلموا زمام الحكم الا أن العمال الاشتراكيين سرعان ما وقفوا فى سبيلهم ثم أطاحوا بهم . وذاع وشاع ان العمال الاشتراكيين أطلقوا الرصاص على الملك وانتهى بذلك حكم عائلته.

أما « تاكريدى » زعيم الديموقراطيين الأحرار فقد نفى خارج البلاد .

وعلمت مؤخرا أن « كوبالت » عندما فر من البــلاد ذهب الى احدى جمهوريات امريكا اللاتينية حيث ادار ناديا ليليا . ولعلى لا أبالغ اذا صارحتك بأنى كلما تذكرت هذا الرجل اعترتنى رعدة .

الانطواء

كنت ذات يوم أسأل « أدز » ، عما ينتـــــابه من مشاعر ، وما يتنازعه من أحاسيس ، عندما يرى صديقا أو حبيبا ، طالت عليه غيبته ؟

وجم قليلا قبل أن يقول :

لقد كان لى ذات يوم مثل هذه الصداقة أو الحب.

فسألته :

ومن تكون هذه التى أحببت ؟

أجاب بعد قليل باستنكار :

أحببت ؟ أى نعم . من عساها تكون من احببت !

قلت :

« سيدة ! »

أجاب فى تهكم :

« سيدة ؟ »

« اذن فهو رجل ! »

اشمأز وهو يقول :

ان الرجال ليسوا سوى تراب أو رماد .

« لا أظن أن يكون من أحببت طفلا أو صبيا !

ابدى نفوره وهو يقرر :

انما الرجال نباتات ضارة وما الاطفال سوى بذور هذه النباتات .

قلت :

لم يبق الا ان افترض حصانا أوكلبا تمنحه صداقتك!

أجاب :

ان الخيل والكلاب ، يماثلون الرجال سوءا ، فانهم على شاكلتهم ! انها تعجب بالرجال . انها حيوانات حمقى .

قال ذلك وهو يطلق صرخة كانت مكبوتة فى صدره.

سكن بعد ذلك لحظة كانت تكفى لتدخين سيجارة . وكانت لحظات سكوت « أدز » ، تبدو صعبة الاحتمال لمحدثه . وكأنما كانت تحمل التهديد بشىء . انها كانت تحملك على التفكير فى خشونة الصخر ، أو تدفع بك الى قصور الموت ، أو القنوات المهجورة .

لبث قليلا على تجهمه وسكوته ، ثم أرسل ضحكة قصيرة خشنة ، كما لو كانت شيئا يتحطم فوق جليد متجمد .

وأردف قائلا بتعجب :

ماذا تعنى الصداقة والاصدقاء ! لا يحتاج الى الاصدقاء سوى الجبناء . فأنت تبحث عن الاصدقاء لأنك تخاف من بقائك وحدك . وأنت ترى فى أصدقائك الذين تختارهم ، صورة من أحسن ما تحب أن تراه فى نفسك . صداقة ! وأصدقاء ! هذا امر بالنسبة لى عجيب .

أما النساء ، فهن أكثر عجبا . لست أدرى ، ماذا بهن يستأهل أن يضحى الرجل بعمره من أجله ؟

ان المعيشة مع المراة شيء مستحيل . انها ثرثارة . لا تدع لك فرصة للكلام .

ثم أنت تعولها طول العمر ولا تقنع ، ولكنها تطلب أن تضحى بروحك وراحتك من أجلها .

وهى تحيا وتزداد لحما فوق لحم ، وفى الحين بعد الحين تتمسح فيك مثلما تتمسح القطط بأصحابها ، علامة الرضى المفاجيء القصير ، لتشعرك بأنك تملكها ، وانها ملك يديك . ولن يمنعها زواجها منك ، من أن تلبى رغباتها كلما شاءت واستطاعت .

استمع الى . انى رجل مسن . وقد عرفت عددا وافرا من الرجال والنساء . ولكنى لم أستطع أن أمنح أحدا من الجنسين صداقتى . اننى أكتفى بنفسى واعيش مع روحى !

لقد عرفت كل طبقات البشر ، العليا منها والدنيا ، ومن جميع أقطار العالم . وفى القصور المنيفة أو فى الدمن والمستنقعات وفوق سفوح الجبال ، او فى قاع الوديان . وفى الغابات كانوا أو فى الجزر والشطئان . ولكنى أستريح الى الائتناس بروحى ، ولهذا أعيش بمفردى ، منطويا على نفسى .

وكان ذلك شأنى دائما ، باستثناء مرة واحدة . حدث ذلك منذ أكثر من خمسين سنة .

لقد أبحرت من فلاديفوستك عندما رحلت عن روسيا . وكان ذلك فى عمل على ظهر مركب كريه ، كان يشق طريقه نحو البحار الجنوبية ، مجتازا بحر اليابان وجزائر ريوكيو .

وكان اسم المركب « فارفارا » . أما قبطان المركب

فقد كان خنزيرا ، كما كان بحارته على شـاكلته من الخنازير .

اما الفرض من الرحلة ، فقد كان من اجل مزاولة التجارة والبيع بين الجزر . وكنا نحمل تبغا ومسابح وبعض البـلط غير الحادة وبراميل من المشروبات الـكحولية .

وكنا نسعى الى استبدال هـذه البضائع التافهة ، بحبات من اللؤلؤ الذى يستخرجونه من المحار ، وهو أمر يبعث على الاشمئزاز . ولـكن ما الحيلة فى نسائنا البيضاوات اللواتى يحببن أن يطوقن أعنـاقهن بهـذه اللآلىء .

وكانت البحار الجنوبية تزخر بهذه الحبات من اللؤلؤ وبغيرها من التوافه .

أما الرحلة فقد كانت سيئة الطالع .

هبت علينا عاصـفة هوجاء ، قبـل أن نبارح بحر اليابان . وقد تركت العاصفة المركب فى حال بالغ من العطب .

كما أن شحنة المركب ، أصـابها التلف والفساد .

واجمع كل من تضمه المركب من بحارة وخدم ، على انه من الجنون أن تتقدم السفينة نحو غايتها من هذه الرحلة .

ولـكن القبطان العنيـد ، اقسم بانه سوف يطلق الرصاص على أول رجـل يجرؤ على رفع صـوته فى معارضته لاوامره .

أما عن نفسى ، فقد كنت بعيـدا عن الاهتمام بما يجرى من حولى . فقد تملـكنى شعور غريب بثقـة

بالغة ، بانه مهما يكن من أمر من سهموت من البحارة : فانى سوف أعيش .

وهكذا قمنا باصلاح ما أفسدته العاصفة من المركب « فارفارا » على قدر ما نستطيع ، ومضينا نحو غايتنا .

وكنا فى حالة بالغة من الكآبة والغم . ولا تسألنى اين كنا آنئذ ، لانني لم أكن اعرف . وبعد قليل من الوقت ، انقضت على المركب عاصفة أخرى ، كانت تزمجر كأنها الشيطان الذى حطم قيوده وانطلق من عقاله ، وبدأ من شدة العاصفة انها تنوى هذه المرة أن تدمرنا تدميرا كاملا كما تفعل القنبلة بهدفها .

ولقد انتهى الأمر بالبحارة الحمقى الى فقدان كل أمل

وما كان منهم الا أن فتحوا زجاجات من الفودكا ، وراحوا يشربون منها بأكفهم ، وثملوا الى حد فقدان توازنهم عندما كانت المركب تتأرجح بعنف كان يطيح بهم فيتساقطون فى البحر واحدا بعد الاخر ، ويموتون وهم يحلمون تحت تأثير الفودكا أنهم يتبادلون القبلات مع من يحبون ، وينشدون الاغانى لاولئك الغوانى ذوات العيون الزرقاء ، ويتذكرون مواقفهم معهم فى لقاءات الحب فى المروج والرياض الخضر ، فى الوقت الذى كانت أسماك القرش تلتهمهم وهى تلتف حولهم التفاف سيدات الطبقة الراقية من الغوانى ، حول مليونير ، يتنافسن على الفوز به .

وكانت هذه الخاتمة الاليمة ، هى نهاية حياتهم .

أما القبطان فيبدو أنه كان ، كما خمنت ، حريصا على النجاة بنفسه من هذا الهول .

فقد اندفع هو والضابط الاول ، لأخذ القارب الوحيد الباقي من قوارب النجاة . ولا حاجة لى الى القول ، بأني اندفعت معهما بنفس حرصهما على النجاة ، ورغبتي مثلهما في الحياة .

ويبدو أن وازعا من التعقل منعهما من ابعادى عما أنتوى ، أو لعله ذلك الشيء الخفى فى اسارير وجهى الذى يجعل الناس تتحاشاني وتتردد فى أن تحتك بى أو تثيرنى .

كان البحر فى جيشان وهياج مستمر ، يقطع اى أمل فى اى بادرة لهدوء العاصفة وتوقف الرياح .

وكانت مركبنا تتقاذفها الامواج كما لو كانت قطعة من الفلين ترتفع مع الموج الى أعلا ثم لا تلبث أن تهوى بين حائطين من المياه الخضراء فى بحر عاتى القوى .

وكان آخر ما رأيته من مركبنا الكبير ، اشلاء من الخشب .

وهكذا رأيت نفسي وحيدا مع رجلين فى قارب النجاة ، وقد راحا فى نوم عميق من اثر ما بذلاه من جهد شاق متواصل .

ولم ألبث أن نمت أنا الآخر من فرط التعب .

حدث ذلك قبل حلول الفجر مباشرة . وعندما استيقظت كانت‌الشمس تلسع وجهى . وكانت أشبه ما تكون بلفحة النار التى تهب من باب الاتون‌عندما يخرجون منه الحديد المنصهر .

كان القبطان فى هذه اللحظة قد استيقظ ، وبدأ عمله باصدار الامر لي بقوله :

« افتح الخزانة التى وراءك وناولنى الماء » .

فعلت ما أمرنى به ، واعنى بذلك أننى ناولته أحد برميلين صغيرين كانا فى الخزانة ، وأخرجت معه برميلا صغيرا من البسكوت .

راح هو وزميله يشربان كالاسماك ، ثم ناولانى البرميل فشربت بدورى . ثم أكلنا بعضا من البسكوت .

كانت الشمس اللاهبة ترتفع الى كبد السماء . وعدنا الى الاستلقاء ونحن نلهث .

لم يكن قد بقى من برميل الماء الصغير سوى جالون واحد . ولم يكن يعلم سوى الشيطان أين نكون . ولم أنطق بحرف .

ومر اليوم ، وجاء الليل ، وتلاه يوم آخر . وكان برميل الماء قد أصبح أشد جفافا من العظام فى الصحراء .

صاح القبطان موجها أمره لى :

« ناولنى البرميل الآخر » .

فنظرت اليه وأنا أقول :

« ليس هناك برميل آخر » .

راح كل منهما بعد سماعهما قولى ، ينظر لصاحبه، مثلما ينظر المجرمون بعضهم الى بعض وهم فى زنزانة السجن ، عندما يسمعان السجان يطرق بابهم .

أما الضابط الاول ، فقد غلبه اليأس وأفقده عقله ، ولم يلبث أن وضع وجهه بين يديه واسترسل فى بكاء أو نشيج لم تسعفه فيه الدموع بعد أن جفت .

ومضى ليل طويل كأنه سنوات ، وأقبل نهار آخر كان بشواظه كما لو كانت لسع الكرابيج ، الامر الذى لم يحتمل الضابط الاول مقاومته ، وفى لحظة مفاجئة من

يلبس وفقدان عقل ، قفز الى البحر ، حيث كانت اسماك البحر فى فرح غامر بلقياه .

أما القبطان فقد اغتم واكتأب واختل عقله هو الآخر وراح يصرخ فى طلب المـاء حتى جن . وكان من مظاهر جنونه أنه كان يتخيل المحيط الازرق الذى كنا نتأرجح على أمواجه ، انما هو ذلك الجدول الهادىء الذى يمر بقريته وتؤمه الفتيات والنساء ليغتسلن فيه ويغسلن ثيابهن .

مال برأســه على حافة المركب ليتبرد بهواء البحر ، ناسيا أن من عادة سمك القرش أن يقفز عاليا لينتزع غذاءه ، وقد وجد ضالته فى الراس المائل على الحافة ، ثم فى صاحبها .

كان اسم هـذا القبطـان ، اذا لم أكن مخطئا هو :

« أفيرتشينكو » . ولـكن ، هل هناك من يهمه معرفة اسمه ؟

وهكذا أصبحت وحيـدا فى مركب النجاة . ورحت أشرب من برميل المـاء ، الذى أخفيته بعنـــاية عن القبطان والضابط ، نقطة نقطة ، وأتناول قدرا ضئيلا من البسكوت عند الحاجة .

ولم يكن يهمنى أمر بقائى وحدى . فلقد كنت بطبعى انفر من المجتمعات ومن صحبة الغير .

غير أن ما كنت فيه من يأس لا مخرج منـــــه ، بالاضافة الى تقيدى بالبقاء فى هذا القـارب الصغير ، الذى يمضى متأرجحا بين ارتفاع وانخفاض ، وانخفاض وارتفاع ، ولا شىء حولى سوى سماء كنت أراها كما لو كانت بيتـا يحترق ، وبحر يغطى وجه الدنيا كلها .

كل هـذه الرؤى ، حملتني على أن أحن الى صحبة أحد . وصدقنى اذا قلت لك أن مثل هـذا الشعور لم أحس بمثله من قبل ، وفى أى يوم من الايام .

ولعل تأثير سيـاط الشمس اللاهبـة ، هو الذى حملنى على التشوق الى هذه الرغبة الظامئة مع نفسى

ظللت أنظر بعينى القروحتين ، فلا أرى من حولى شيئا سوى هـذا الفراغ اللعين . حتى خيل الى أن ثقبـا قد انفتح فى صدرى ، وأن قدرا من هذا السكون والفراغ قد تسللا الى داخلى .

بقيت على هـذه الحالة أياما ، وانا أشرب من ماء البرميل نقطة نقطة ، حتى لم يبق منه الا ربع لتر ، والا بسكوتة واحدة ، هى آخر ما تبقى . أو قل أن هـذا القدر الضئيل من المـاء والبسكوت ، هو آخر ما كان يربطنى بهذه الحياة ، وهى كما ترى خيـوط واهية .

وكنت أعلم فىآخر المطاف أننى سألحق بمن سبقنى، وسوف أفقد عقلى ، واسترسل فى الفنـاء وفى تخيل الثلوج والمروج والوديان .

ولـكني اعتزمت أن أعيش أطول فتـرة ممكنـة . فكسرت البسكوتة الاخيرة ، التى سأكافح بها فىسبيل البقـاء حيـا فترة من الزمن ، وهـذا واجب الانسان فى الحياة .

وما أن كسرت البسكوتة حتى ظهر صرصار، تشبثت به ، ولـكنه سـقط منى وحـاول أن يختفى فى قاع القارب .

وكنت أتابعه بعينى ، ورحت أمد أصـــبعى حتى

امسكت به ورفعته الى اعلا . ولـكنه تخلص من اصبعى واخـذ يجرى على راحة كفى حتى اسـتقر فوقها وهو يحرك رجليه . وما كان منى الا أن وضعت كفى الاخرى عليه لأحميـــه من لهب الشمس ، وهكذا أخلد الى السكينة .

ورحت أسحق البسكوتة فتاتا وأبل الفتات بأصبعى المبتل بالمـاء ، وكلى حرص على أن أحقق رغبة تملكتنى فى أن أحافظ على حيـاة هـذا الصرصـار ، ليعيش معى .

وكان فى عملى هـذا ما يبعث على الشعور بأن بعضا من العالم ما يزال يعيش ، وانه لابد أن تكون هناك أرض فيما وراء البحر، وراء هذا البحر المتلاطم الفتاك

وكان من شأن هـــذا الشعور أن يزيد فى اصرارى على العيش ورغبتى فى الحياة والـكفاح من أجـل أن أعيش .

غير أن هـذا الشـعور أخـذ يضعف سـاعة بعد ساعة ، كما كنت اقترب بين لحظة واخرى من جنون يترقبنى .

وجاء الليـل حاملا نسمة باردة . وكان الصرصـار ما يزال بين كفى . وكنت أتجنب كل حركة حتى لايفزع منى الصرصار . وانصرم ذلك الليل ، كما تبخرت معه ونفدت آخر جزء من آخر بسكوتة كانت معى .

ولم يلبث الفجر ان اشرق بنوره .

وللمرة الاولى فى حيـاتى ، أحس اننى أنا الآخر لست الا شيئا تافها متناهيا فى الصغر ، فوق صفحة كف ذات قوة عاتية ، ليس أيسر عليها من سحقى .

وعنــدما كنت ألقى ببصرى الى المــاء ، الذى كان يبــدو ساكنا كما لو كان صفحة مرآة ، التقى بصرى بشراع مركب كبير .

لقد كانت بالفعل مركبا لا خيالا كما توهمت .

وكنت فى حال من الضعف ، لا يتسنى لى معهــا أن أقوم بأى اشارة .

أحســست بأن رأسى تدور ، واكتنفنى ظـلام ، لم ألبث بعده أن غبت عن وعيى وفقدت ادراكى .

أفقت على ماء أتجرعه من يد ممدودة به الى ، ووجدت نفسى مستلقيا على ظهرى فوق سطح مركب نرويجى ، وعيناى مثبتتان على وجه أحمر مســتدير كأنه قرص الشمس .لقد كان وجه رجل ذى لحية صفراء .

أحاط بى رجال رأيتهم يقدمون الى الملابس والاغطية والطعام والشراب والحنان .

لم يشغلنى كل ذلك عن النظر الى راحة كفى التى لم أجد بها زميلى الصرصار . لقد كنت ضائعا وحيدا فى مركب ليس بها سواى ، وفى بحر كله فراغ ، مدى أربعين يوما وليلة . ولــكنى أشــهد بأنى عندما تأكدت أن الصرصار قد ذهب الى حال ســبيله ، أحسست لاول مرة فى حياتى بالوحدة ، وباللهفة الى ذلك الشىء الذي افتقدته .

التوأمان

ربما كان أهالي الكربات ، أكثر شعوب الارض تعلقا بالمجهول والغيبيات والخيالات المرعبة .

بل لقد قيل ان « دراكولا » جاء من هذه البلاد ، التى يقول سكانها من الفلاحين ـ بعد الاستعاذة من الشيطان ـ « ان أشباح الموتى لا تخاف من شيء ».

لقد كانت هنجاريا والنمسا دائما ، مواطن لقصص مصاصي الدماء والارواح التى تتقمص ذئابا ، والسحرة والعرافين ، وما يرتبط بأعمالهم من هوس وسحر .

بدأت دراسات التحليل النفسى فى هذه المناطق . ولم تلبث أن زخرت بالمئات من المعالجين الروحانيين، كما زخرت بالعرافين الذين جاءوا اليها من أغلب الدول الاخرى ، ليتلقوا دراسات على يد « فرويد ويونج وأدلر وجروديك » .

وقد ذهب معظم هؤلاء المعالجين الروحانيين فى ممارسة ما تعلموه ، الى حد الاقتناع مما تلقوه ، اقتناعا لا يتسرب اليه أدنى شك أو ارتياب .

وهكذا تحول عملهم ، الذى ترمز اليه بومة محنطة، الي عقيدة واقتناع .

والعجيب فى أمر هؤلاء المعالجين والروحانيين ، الهائمين فى ضباب الاوهام ، أن معظمهم يشكو ويعانى بالفعل من حالة انهيار عصبى دائم .

والمجنون الذى لا يعى ما يقول ، هو وحده الذى يفرغ ما فى قلبه وعقله بين يدى المعالج الروحانى .

ويخيل الى أن الاعتقاد في هذا العلاج الروحانى وهم كبير . وعلى الانجلو ـ ساكسون ان يتركوا أبحاثهم عن هذا النوع من العلاج ، الى حال سبيله .

انهم يجهدون ويكدون فى سبيل اضفاء صيفة العلم على ما لايمكن أن يتبلور ليصبح علما أو فلسفة خالصة .

وهو فى النهاية ، يكشف عن قصص معادة من أحداث الماضى الغابر ، وتقارير وأبحاث غير ذات قيمة علمية ، الى جانب ادخال الجنس فى تحليلات مملة وبعبارات مغلفة وغامضة غموض اللغات المندثرة الميتة .

هذا ما كان يؤكده ويصر عليه ، طبيب الامراض العقلية الذكى الاريب ، الذى سوف أطلق عليه اسم دكتور « ألمونا » ، عندما قابلته فى اجتماع ضم نخبة مختارة من رجال العلم فى حفل « كوكتيل » .

والطبيب المذكور ، يدير مصحا من المصحات الراقية التى تتقاضى أجورا مرتفعة للاقامة والعلاج من حالات الادمان على تعاطى المخدرات والمشروبات الروحية .

ودكتور « ألمونا » رقيق لطيف المعشر ، يبدو دائما فى حالة نفسية عالية ، كما يتفانى فى الاهتمام بنفسه

ولسخرية هذا الطبيب ، طابع لطيف محبب . فهو على سبيل المثال ، يعتقد فى كل شىء ، ولكنه لايثبت فى اعتقاده على شىء .

وهو مقتنع بأن الانسان ، وينطبق هذا على نفسه، كلما تزود بشيء من المعرفة ، وجد أنه كان يعلم ذلك الذى تزود به . وأنه اذا كان ينقصه شيء من العلم ، فسوف يظل ما ينقصه على حاله .

وذات مرة ، خلال أحاديثنا ، قال لى فى اجابته على سؤل معين :

« انني اعرف كل أجزاء المخ . وتعقبت تلافيف كثير من الامخاخ . وتقصيت انماطا من تصرفات كثيرين من بين الرجال والنساء . ولا استطيع أن أزعم بأنني وقفت على شيء .

وأرجو أن تصدقنى فى أننى كنت مخلصا فى محاولاتى .

ذلك أن مخ كل انسان يشكل كيانا مستقلا له طابعه الخاص . وأن الطبيب الذى يمكنه أن يصل الى ما ينطوى عليه مخ الانسان ، لهو سعيد حقا ، اذا بذل فى ذلك كل عمره .

وانا بكل اخلاص ، لا أحاول أن أشرح شيئا ، أو أفسر شيئا .

ولقد عالجت هذا الامر ، وحاولت أن أتفهم وأستقصى ، ورغم ذلك ، ظل كل شيء مما تقصيت نظريا لا يستند الى قواعد العلم وقوانينه .

وهكذا ، تبين لى أن التحمس للأبحاث الروحية والنفسية ، لا يستند الى قواعد من العلم ، بقدر استناده الى أوهام ، والى محاولات غير مجدية » .

وفى الحفل الذى أشرت اليه فيما تقدم ، وهو حفل الكوكتيل الذى ضم لفيفا من ألمع رجال العلم ، للبحث والجدل ، كان دكتور « ألمونا » من بين الحضور .

وكان يستمع وهو يهز رأسه كالببغاء ، وقد اقفل

احدى عينيه ، وبدت عليه امارات اللهفة واليقظة والانتباه والمتابعة لكل ما كان يجرى من نقاش .

وكان أحد الاطباء من الحاضرين ، لايحضرنى اسمه ، يتحدث عن موضوع « المشاركة فى الشعور بالألم » .

وقد أبان بصورة مؤيدة بالوقائع الثابتة ، عن حالة آنسة أطلقت صرخة فى الساعة الثالثة من صباح يوم ٧ يناير عام ١٩٤٤ ، وهى تصيح مولولة : « لقد أصبت بالرصاص » .

وكانت تشير الى مكان فى أعلا صدرها تحت الرقبة ومن الامور التى بدت غامضة ، أن نقطه زرقاء ، ظهرت فى المكان الذى أحست فيه بالألم ، الى حد أنها كانت لا تتحمل مجرد لمس هذا الموضع .

ولقد تبين فيما بعد ، أنه فى نفس هذه اللحظة وهذا اليوم ، أصيب أخ لها كان يعمل فيما وراء البحار ، بطلق نارى أصابه فى نفس الموضع تماما ، الذى اشارت اليه شقيقته عندما صرخت متألمة مما أصابها .

وهنا ، هز دكتور « ألمونا » رأسه وهو يقول للدكتور المحاضر :

«هذا أمر لا يتطرق اليه ادنى شك .. فلهذا الحادث سوابق من نوعه » .

ولقد مرت بى حالة ، أعتقد أنها اكثر غرابة مما رويته عن « المشاركة فى الشعور بالالم » .

وراح دكتور « ألمونا » وهو يبتسم ، يروى من وراء دخان سيجاره ، قصته التى أشار اليها .



حضر الى عيادتى شقيقان ، دعونا نطلق عليهما اسمى « جون ، وليم » .

كان ذلك فى فيينا فى ربيع عام ١٩٢٤ . وكانت الحالة المرضية واضحة وضوحا ظاهرا وباطنا ، وتشخص على أنها من حالات الادمان الجنونى على المسكرات : وما يصحبها من تسمم كحولى .

على أننى رغم هذا الوضوح ، لاحظت تعاطفا فى الشعور ، ومشاركة فى الاحساس بين هذين الشقيقين، بصورة فريدة .

فقد كان ما يأتيه أحدهما ، نتيجة ضعفه لشىء ما ، تظهر آثاره وعواقبه على الشقيق الآخر ..

كان « وليم » يشرب يوميا ، زجاجتين من البراندى

فى حين كان شقيقه « جون » يعاف الخمر ومن يقربها. بل لقد كانت رائحتها وحدها ، تثيره وتصيبه بالاشمئزاز . وكان «ويليم» يدخن خمسة عشر سيجارا كبيرا كل يوم ، فى حين كان « جون » ، يكره رائحة الدخان ويتأذى منها اذا اضطر الى شمها .

وعليكم ياحضرات السادة ، اذا شئتم ، بحث وتحليل وتعليل هذه الظاهرة التى سأحدثكم عنها الآن .

كان « وليم » السكير المدمن المفرط فى التدخين ، يبدو أليفا ، وتلقاه ودودا ، فى أحسن حال .

بينما كان أخوه « جون » ، الذى لا يذوق الخمر ، ولا يدخن يبدو فى حال تظهر عليه فيها كل أعراض الادمان على الخمر ، ومظاهر تليف الكبد ، واضطراب نبض القلب الناتج عن التسمم النيكوتينى .

ولا أظن أن طبيبا من الاطباء ، أسعده الحظ ، وساق اليه مثل هذه الحالة ..

ففى جانب ، نجد « وليم » الذى يكاد يستنشق البراندى بدلا من الهواء ، وينفث الدخان من فمه كما

لو كان مدخنة ، فى احسن حال من النشوة والسعادة الفامرة . بينما نجد فى الجانب الآخر « جون » ، بأنفه الملتهب الاحمر ، ووجهــه الدموى المتغضن ، وعيونه البراقة الزائغة ، وأصابعه المرتعشة التى لا تثبت على حال فى اي وضع ، وهى أعراض تلازم المدمنين على الخمر ، وتؤدى بهم ، لا محالة ، الى علة عقليــة أو نفسية .

أقول ، نجد « جون » على هــذه الحالة ، رغم انه لا يذوق نقطة واحدة من الخمر ، ولا يدخن سيجارا واحدا فى العام لا فى اليوم .

وكان « جون » وهو فى عيـــادتى ، هو الذى يدير معظم الحديث . كان يقول :

« أرجوك يا دكتور « ألونا » بحق الســماء ، دعه يقلع عن الخمر ! انه يتعمــد قتلى . انه يقتل نفسه بهذا الادمان ، ويقتلنى معه » .

وكان « وليم » يقول :

« لا تعر اهتماما لمـا يقوله « جون » يادكتور، فهو عصبى المزاج . أما عن نفسى فانى آخذ الامور ببساطة»

وعند ذلك صاح « جون » :

« لعنك الله يا وليم ، انك تقضى على بلا رحمــة ، وتقول انى عصبى .

وسمعت « وليم » يقول لى بهدوء عجيب :

« اعطنى بعضا من البراندى يا دكتور » .

فى هـــــذه اللحظة ، كانت ملامح وجه « جون » وأســـاريره ، قد ارتسم عليها من الرعب والفزع ، ما يدعو الى الدهشة والعجب . ولم تلبث يداه أن اخذتا فى الاهتزاز والرعشة ، الامر الذى حمله علىأن

يبذل جهدا كبيرا فى ضمهما بشدة ، ليوقف ارتعاشتهما المستمر .

ولم يقع لى أن رأيت من قبل ، على ملامح أحـد ، مزيجا يجمع بين الرغبة فى شىء ، والنفور منه ، مثل ما ظهر بوضوح على وجه « جون » .

فـكان يقول :

« لا .. لا .. » ثم يعود ليقول لى :

« الامر متروك لك اذا وافقت يادكتور ... »

وانه لما يؤسف له أن أقول ، ان الامر بدا لى كما لو كان «جون» ، وهو فى تمام عقله ، وفى كامل مظهره ، خنزيرا غينيا يجرى عليه تجربة من التجارب .

وفى مثل هذا الوضع ، تصبح الناس جميعا خنازير غينية .

والى جانب ذلك ، فمن أين لـ « جون » أن يقرر ، وهـذا حاله ، أو يعترض على ما يأخذه « وليم » ، الهادىء الدمث ، أو مايدع ؟

وبدأت على سبيل التجربة أعطى « وليم » قليلا من البراندى فى قدح صغير ، فى مثل حجم عقلة الاصبع ، سرعان ما ابتلع محتوياتها ، ثم لم يلبث أن ابتسم لى ابتسامة تبعث السعادة فى نفس من يراها .

ولـكم ، أيها السادة ، أن تصدقونى أو تكذبونى ، ان قلت ان أخاه « جون » سرعان ما أخذ فى اثر ذلك ينتـابه الفواق والتجشؤ ، كما راحت عيناه تطرفان سريعا ، بينما راح « وليم » يضم ذراعيه فى راحـة وتؤدة ، ويضعهما على صدره ، بعد أن أشعل سيجاره الذى مضى فى تدخينه بلذة ومتعة .

هل تقررون أن هـذا الذى جرى ، هو التعاطف

والمشاركة فى الشعور بالألم ؟

كم كنت أتمنى ان أنضم اليكم فى هـذا التقرير أو التشخيص . ولـكنه ، كان كما تقررون ، مع اصطحابه يميل « الى الإنتقام » وبدافع من حقد دفين .

وأخيرا ، وبعد فترة من السـعال الحاد ، وميل للقىء ، قال الشقيق « جون » :

هل رأيت يادكتور ؟ هل رأيت بعينيك ؟ هـذا ما يحملنى على أن أضع حدا لمـا أعانيه . ثم هو الى جانب ذلك لا يدعنى أعمل. هل تدرك ذلك ؟ انه يمنعنى من أى عمل !

وكان يبـدو على الشقيقين « جون ووليم » أنهما على ثراء . فقد كانا يستقلان سيارة « مرسيدس بنز » عندما شخصا الى عيادتى . وكانا يرتديان ملابس أنيقة غالية ، ومن صـنع أكبر بيوتات الأزياء . كما كانا يتزينان بجواهر غالية .

ومهما يكن من أمر رماد السـيجار الذى كان دائما يتطاير فوق ملابس « وليم » ، الا أن ذلك لم يكن ليقوم دليلا على اهماله فى ملبسه ومظهره ، وعدم اهتمامه بهيأته .

على أن « جون » المرتجف ، كان يبدو على أحسن حال من النظافة واكتمال الاناقة .

وكم وددت أن أعرف اسم الـكواء الذى كان يبعث اليه بملابسه الانيقة .

وكان يتزين بسـاعة من الذهب والبـلاتين ، مع سلسلتها الذهبية . وكان يضع فى الاصبع الصغير من يده اليسرى ، خاتما من الذهب يعلوه فص كبير من المـاس . وفى ربطة عنقه توسط مشبك ذهبى يزينه

فص من الماس يبلغ وزنه قيراطان .

ولم أستطع أن اربط بين كل هذه الاناقة الغالية ؛ وما كان يشوبها من اهمال واضح .

كان يبدو كما لو أن أحدا اقتحم عليه مسكنه عندما كان يستعد لارتداء ملابسه واكمال زينته ، فراح يسرع فى اللبس والتزين ، بحيث تركته العجلة فى حالة ظاهرة من الفوضى والاهمال .

كانت ملابسه على أحسن ما تكون عليه الملابس من حياكة غالية ، كما كان حذاؤه نظيفا لامعا .

أما شعره ، فقد كان مهوشا وفى حاجة الى عناية وتصفيف ، وكذلك كانت أظافره ، لم تستكمل ما يجب عليها أن تكون عليه من نظافة واهتمام .

أما الشقيق « وليم » فقد كان مرحا بشوشا بصورة ظاهرة . وان كانت قذارته تؤذى الشم والنظر، رغم ما كانت عليه ملابسه الانيقة وماكان يتحلى به منجواهر وذهب وزمرد ، استكمالا لمظهره الفاخر .

قلت معلقا على ما أشار اليه « جون » من حرمان أخيه له من العمل :

«ماذا تقصد بالعمل يامستر جون ؟ صارحنىالقول؟»

فأجابنى وهو يبدو فى حال من تنتابه حمى نشيطة الفعالية ، تسبق النوم الثقيل الذى يعقب حالة الخمار من سكر بين .

« اننى لست فى حاجة الى العمل · ولا أطلبه لسد حاجة . فقد تركت أمى لنا ما فيه الكفاية وما فوق الكفاية فلا تخف على أتعابك يا دكتور ... »

« دع أمك خارج هذا الحديث أيها الفأر الصغير . لقد كنت دائما تثقل على أمك . تلك الصبية الكبيرة

الطيبة . اعطنى يادكتور قليــلا من البراندى . انى بدأت اشعر بالضيق والضجر » .

وقبل أن أحول بينه وبين ما يريد ، كان « وليم » قد أمسك بالزجاجة وابتلع ربع لتر منها دفعة واحدة

ولم يكن فى استطاعتى أن أســتخلص من ذراعيــه المفتولتين تلك الزجاجة التى ابتلع منها ما ابتلع ، الا بكل صعوبة .

وبعد أن سددت الزجاجة ، رأيت «جون» المسكين ـ وصدقونى فيما أقول ـ يصيح صارخا :

« ان نفسى متقززة واريد أن أتقيأ . ارحمونى فقد سئمت نفسى هذه الحالة » .

فى نفس تلك اللحظة ، كان « وليم » يلوك فى سعادة ونعيم الجزء المتبقى من سيجاره ، ويتمتم بأغنية خفيفة سمعت منها مقطعا يقول مطلعه :

« أيتها السيدة كلارا » .

ومن عجيب أيها السادة ، ان «جون» ، رغم ما كان فيه من ضنى ، يسببه له أخوه ، راح يشارك «وليم» فى أدب ظاهر ، فى غنائه هذه المقطوعة :

أيتها السيــــــدة كلارا
لقد رأيتك ترقصــــين
وكان جمــــالك أخاذا
ولا عجب اذا تبعتــك
مسلوب العقل والارداة



ولم يستطع « جون » أن ينافق أخاه لأبعد من ذلك فقد توقف فجأة عن الغناء ، وهو يقول لى صائحا :

« هــذا هو كل ما يجيده فى الحياة . هل أدركت

الآن قدره ؟ وهل علمت ما هو عليه من تفاهة ؟ انه خنزير . انه حيوان فظ . انني على عكسه اميل للموسيقى الكلاسيكية فانا أهيم « بباخ » واعشق « موتزار » ، واعبد « بيتهوفن » . ولكن «وليم» يمنعني من هذه المتعة اذا شرعت فى الاستماع الى هذه الروائع التى خلفها هؤلاء الموسيقيون العباقرة .

انه يلجأ الى تحطيم اسطواناتهم ، دون أن أقوى على منعه ، فهو كما ترى مفتول الذراعين ، قوى البنية .

وهو لا يقلع ليلا أو نهارا عن عزف موسيقى الجاز على البيانو . وهو لا يدعنى أفكر ، ولا يدعنى أعمل أي عمل . انه لايتوانى عن قتلى . وما الذى فى قدرتى أن أصنعه يادكتور ؟ »

وفى سكون ، أشعل « وليم » سيجارا كبيرا آخر وراح ينفث دخانه وهو يقول :

« اسكت يا «جون» ولا تثرثر . أن هذا المخلوق يادكتور ذهب الى رجل يبيع اسطوانات واسمه على ما أظن ، « سترافينسكى » أو شيئا يقرب من ذلك .

واشترى منه اسطوانة كان يريدها ، وقرات على وجهها العبارة التالية :

« غير قابلة للكسر » .

وقد أردت أن أتأكد من صحة ما هو مكتوب ، فكسرتها على رأس «جون» أليس كذلك يا «جونى» . فلم تكن تطربنى . ذلك لاننى أنشد فى الموسيقى نبض الحياة ، وروعة الايقاع . أليس كذلك ؟

وهنا أخذ « جون » ينشج وهو يقول فى أسى :

« اننى أهوى رسم الصور الصغيرة الحجم على العاج. ولكن «وليم» لايدعنى أمارس هذه الهواية التى

أحبها . فان رسمت شيئا منهـا قام من فوره باتلاف ما أرسم . . . »

فقال « وليم » :

« لأننى لا أتحمل رائحتها » .

وراح « جون » يستكمل شكواه من أخيه بقوله :

« كان اذا رآنى أرسم ، يعمل على هز ذراعى . فان حاولت منعه ، ضربنى . وعندما أهم بعزف شىء من الموسـيقى أو سماع اسطوانة كلاسيكية هادئة ، فانه يزعم ويدعى أنه يريد أن ينام . فى حين أنى اذا شئت أن أنام ، فانه يأخذ فى اثارة الضـجيج فى كل المنزل ، وياويل من يمنعه من ذلك ! »

وأخذ « وليم » يدعونى الى الشراب بقوله :

« دعنا يادكتور نتناول معا شيئا من البراندى ! »

ولـكنى أجبته بحزم :

« أن الـكحول يؤدى بك الى تسمم خطير يامستر « وليم » . ولايسعنى الا أن ألح عليك فى ضرورة قضاء ثلاثة أشهر فى المصح الذى أديره » .

فأجاب « وليم » :

« وما الذى يدعونى الى الذهاب للمصح. اننى فى خير حال ، ولن أذهب يادكتور ! »

وأخذ « جون » يصرخ :

« احمله على الذهاب للمصح يادكتور . احمله على ذلك من أجـل السماء ومن أجلى . اذهب الى المصح يا « وليم » وارحمنى ! »

فقال « وليم » فى ابتهاج ونشوة :

« انني بخير . ولعلك أنت يا «جون» الذى يتحتم عليه أن يذهب الى المصح .

أما عني ، فاني أفضل أن أستمتع بالحياة . وسأبقى بالمنزل مستمتعا بهـذه الحياة . انها قصيرة الاجل ، ولـكنها مليئة بالمرح .. »

والحقيقة التي جـاوزت كل عجب ، أن « وليم » الذى قال عن نفسه أنه بخير ، كان فعلا يتمتع بكبـد سليم ، وكليتين قويتين ، وقلب فى أحسن حال .

وهو الذى يشرب زجاجتين من البراندى فى كل يوم يمر فى حيـاته . وكان لسانه يبـدو صـافيا كألسنة الاطفال . كما تبدو عينيه براقتين كالنجوم ، فوق مايتمتع به من بنية صلبة كما لو كانت قدت من صخر .

وفى الجانب الآخر ، كان « جون » هو الذى تبـدو عليه جميع أعراض الادمان على المشروبات ، كما يظهر عليه أثر التسمم النيكوتينى ، رغم بعـده عن الخمر والدخان .

هل يمكن أن نصف هـذه الحالة بأنها تطبيق لمـا نعرفه من حالات وأعراض « المشاركة فى الشعور ؟ »



استمعنا « وليم » وأنا الى همس كان مصـــدره « جون » عندما هم بأن يقول فى صوت خفيض :

« لقد كنت على استعداد لتحمل كل شىء . ولـكن حدث فى الاســـبوع المـاضى ، أن شرع « وليم » فى الاستعداد للزواج من مديرة منزلنا . « وليم » يتزوج؟ وممن ؟ من خادمتنا . ان هذا فوق طاقة احتمالى . لن أحتمل ذلك ! »

وهنا قال « وليم » بثبات :

« وما الذى يمنع من ذلك . انها امرأة جميلة . أن « جون » يكرهها دون ما سبب يادكتور . لقد جاوزت سن الشباب ، ولكنها تفهمنى كل الفهم وأشعر بالراحة معها . فانها تشاركنى فيما أشرب ويتفق ذوقى مع ذوقها . وهى مثلى تحب الموسيقى وتطهو لى من الطعام ما أشتهيه وما تدسه فيه من توابل وأفاويه ومشهيات حريفة . أما هذا الصبى « جون » . فان كل ما يستطيع أن يتناوله من الاطعمة ، لايتجاوز اللبن والسمك المسلوق ولعلك تساعدنى يا دكتور على زواجى من « كلارا » .

ولعلك كذلك لا تبخل على بقليل من البراندى ! »

قلت له بحزم :

« لا . لن تشرب شيئا . وأريد أن أعرف للمرة الاخيرة منك : أما زلت مصرا على رأيك فى الامتناع عن الذهاب الى المصح للعلاج ؟ »

«فأجاب « وليم » بثبات :

« مثل ثقتى فى جلوسك هنا أمامى . وكان «جون» خلال حديثنا ينهنه وينشج وهو جالس على الاريكة فى ضعف من لايملك من أمره شيئا .

وأود أن أجتزىء فى القول ، لنصل الى نهاية القصة . لقد انصرف الأخوان « جون ، ووليم » الى حيث كانت سيارتهما المرسيدس الليموزين فى انتظارهما ، وقت الغسق وركباها وانطلق بهما سائقها .

مضت على هذه الزيارة فترة ، علمت بعدها أن «جون» توفى من أثر تليف الكبد ومن التهاب الكلى

والاستسقاء ؟ وما يمكن أن تؤدى اليه كل هـذه الامراض ، وهو أمر أنتم تدروز جيدا شأنه .

أما « وليم » فقد مات بعده مباشرة ، ودفن معه فى مقبرة القلب المقدس .

أليس الامر عجيبا ؟

اخذ دكتور « المونا » يكتم ضحكة أوشكت أن تفلت منه ، وراح يفرك يديه فى أنتظار تعليق من أحد المستمعين .

انبرى أحد المعالجين الروحيين وراح يقول :

« هذا بلا شك أمر عجيب غاية العجب . ولكن تعليله وتحليله لا يخرج عن الآتى :

ثم أخذ يشرح تعليله شرحا ان كانت له بداية فقد لمسنا أن نهايته غير معلومة .

الا أن دكتور « المونا » قاطعه بقوله :

« ان شرح الموضوع ياعزيزى الدكتور سهل للغاية . ولعلنى نسيت أن أذكر لكم أن « جون ، ووليم » توأمان سياميان . وقد ولدا بكبد واحدة . فتسماها . ومن سوء حظ « جون » أن كان نصيبه من الكبد الواحدة المشتركة ، هو الجزء الرفيع الذى يحدد نهاية الكبد . وهو الذى تليف قبل كبد أخيه « وليم » .

ثم أضاف مبتسما :

« الا يبدو أن الامر كان — فى ظاهره — أقرب الى مؤامرة مدبرة ، ليقضى سكير مدمن على أخيه الذى يعاف الخمر ولا يقرب الدخان ؟ ... »

الفيل الأبيض

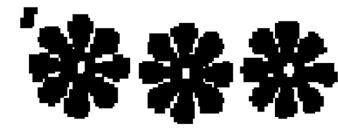
يعد مارك توين ، واسمه الاصلى « صموئيل لانكهورن كليمنز » ، من أشهر أدباء أمريكا . « ١٨٣٥ — ١٩١٠ »

وقد عرف عنه شدة تعلقه بفلسفة الجمال والصدق والخير . كما أثرعنه براعته الفائقة فىالفكاهة والسخرية حتى بلغ اعجاب الروائى المعاصر الكبير « ارنست هيمنجواى » بمارك توين حدا حمله على التصريح بأن مارك توين قد استطاع أن يصبح دوليا مع احتفاظه بقوميته الامريكية الكاملة .

وهو فى هذا السبيل يقول ان مارك توين استطاع أن يلخص الادب الامريكي كله فى عمل واحد هو كتابته لرواية « هلكيرى فن » .

أما دعابة وفكاهة « مارك توين » فقد سلكته مع أعظم الكتاب الساخرين ، بل لقد فضله بعض النقاد على كبار الكتاب الساخرين أمثال سويفت وشوسر ورابليه وأرسطوفانيس .

وهو فى قصته « سرقة فيل أبيض » تتجلى قدرته البالغة فى مجال الملاحظة الذكية والسخرية اللاذعة



روى لى رجل وقور صادفته فى القطار هذه القصة

الغريبة . كان الرجل قد جاوز العقد السابع من عمره وتشيع فى أساريره كل ما ينم عن طيبة واستقامة بالفة ، تراها مع جدية صارمة وصدق تنطق به شفتاه .

قال الرجل الوقور يروى قصته :

ـ لعلك تعلم الحظوة التى يتمتع بها الفيل الابيض فى سيام وبين شعب هذه الدولة .

وتعلم كذلك أنه مكرس للملوك ، ولا يحق لغيرهم امتلاكه . بل لعله يزيد قدرا عن الملوك ، منذ أن كان يحظى الى جانب التكريم البالغ ، بالعبادة .

وحدث منذ سنوات خمس ماضية ، أن جرت مشاكل على الحدود القائمة بين بريطانيا العظمى وسيام ، ثبت بوضوح أن سيام كانت على حق ، وأن المسئولية تقع على عاتق بريطانيا العظمى التى بادرت الى دفع التعويضات اللازمة ، مع اعلان مندوب بريطانيا عن اعتذاره ، ورجائه فى نسيان الماضى .

اغتبط ملك سيام بهذه النتيجة ، ورغبة منه فى أظهار شكره ، وفى ازالة كل اثر للخلاف الذى كان قائما ، رغب فى أن يبعث بهدية للملكة بريطانيا ، وهو تقليد تحرص المعتقدات الشرقية على اتباعه لاستمالة الخصم ، تكون متكافئة مع عظمة الملكة ، وعظمة الملك .

وهل هناك ما هو أعظم وأثمن من فيل أبيض ؟

ولما كان منصبى فى الادارة البريطانية جديرا بشرف حمل الهدية الى صاحبة الجلالة فقد وقع على الاختيار للقيام بهذه المهمة الملكية ، بوصفى أحد كبار موظفى الادارة فى الهند .

قمت بتجهيز سفينة لى ولحاشيتى وللفيل وخدم الفيل .

وصلنا فى الوقت المعين الى نيويورك ــ فى طريقنا الى لندن ــ وأقمت فى منزل فخم فى مدينة دجرزى .

وكان من المحتم أن نتوقف فترة تتيح للفيل أن يسترد قواه ، قبل القيام بباقى الرحلة الطويلة .

مضت خمسة عشر يوما كانت الامور تسير فيها على ما يرام دون اى منغصات .

وفجاة بدات مصائبي عندما وقعت سرقة للفيل الابيض ! فقد أوقظت فى منتصف الليل لاسمع النبأ المشئوم . صعقنى النبأ ، وعقد لسانى ولبى القلق والرعب .

ولم يبق لى رجاء فى شيء .

ولكني استطعت أن أستعيد رباطة جأشي واستطعت أن أسترد عقلى الذى توقف عن التفكير من هول الصدمة .

وقد استطعت أن أفكر فى الطريق الوحيد الذى يتعين على أن أسلكه ، وهو أمر يقدم على عمله كل رجل حصيف فى مثل هذا الموقف .

ورغم أن الوقت كان متاخرا ، الا انى سارعت الى نيويورك . وطلبت فور وصولي الى شرطى، أن يرشدنى الى المركز العام لادارة التحرى .

ومن حسن الطالع اننى وصلت فى الوقت المناسب ، وقبل أن يتأهب رئيس الامن ، والمفتش الاشهر «بلانت» الى مغادرة مكتبه .

كان « بلانت » رجلا متوسط القامة ، مقطب الجبين

عندما يسترسل فى تفكير عميق ، يحمله على نقر جبينه بأصابعه ، وهـذه كلها ظواهر تجبرك على الاعتقاد بأنك فى حضرة شخصية عديمة المثال .

عنـدما نظرته على هـذه الحالة ، عاودتنى الثقـة واحيا فى نفسى ذاهب الامل .

شرحت له الغـرض من زيارتى . ووجـدته رابط الجأش ، لم يتأثر بما رويته ، ولم يظهر عليه أى أثر للانفعال ، كأنما قد قصدته للتبليغ عن سرقة كلبى .

قدم لى مقعدا وهو يقول لى بهدوء وثبات :

ــ أرجوك أن تسمح لى بالتفكير لحظة . .

قال ذلك ، ولم يلبث أن اعتمد رأسه بيديه .

وكان هنـاك فى جانب من المكتب الكبير عدد من المستخدمين ، لم يكن يسمع خلال تلك الفترة سـوى صرير أقلامهم على الاوراق التى انكبوا عليها .

مضى على ذلك سـبع دقائق تقريبـا ، كان المفتش خلالها مستغرقا فى أفـكاره .

وأخيرا رفع رأسه ، ولاحظت من أساريره الجامدة التى ارتسمت على وجهه ، ان دماغه قد أمسك بفكرة وأن عمله قد تبلور عن خطة محكمة .

قال لى بصوت خافت يتميز بوقع خاص :

ان هذه ليست قضية عادية . وعلينا فى كل خطوة نخطوها أن نتحقق من تنفيذها فى سر مطبق ، على الا نخطو الخطوة التالية قبل أن نتأكد من نجاح الاولى .

يجب أولا وأخيرا ، مراعاة منتهى السرية والـكتمان المطبق . كما يجب الا تحدث أحدا بأمر هذه القضية ، خاصة مخبرى الصحف . ودع هذا الامر لى وسوف

لا اطلعهم الا على ما أقتنع بضرورة اطلاعهم عليه .

دق « بلانت » الجرس ، فأقبل أحد المعــــاونين فقال له :

ــ آلاريك ! قل للمخبرين أن ينتظروا .

وانسحب على أثر هذا الامر ، المعاون آلاريك .

ــ والآن . تعال بنا نضع خطة العمل المنظم . فنحن في مهمتنا هذه ، لا نقوى على عمل أى شيء الا بموجب خطة ومنهج ، تمت له دراسة مسبقة .

وتناول المفتش ورقة وقلما .

ــ حسنا ! ما اسم الفيل ؟

ــ هلمال جمست جيجيبوى دوليب ابن برهدبور.

ــ وكنيته ؟

ــ دجمبو

ــ ومكان مولده ؟

ــ عاصمة سيام .

ــ هل والداه على قيد الحياة ؟

ــ كلا انهما ميتان .

ــ هل رزقا غيره من الفيلة ؟

ــ كلا لقد كان وحيدهما .

ــ هذا حسن جدا . وفى هــذا الـكفاية فى هــذا الشأن . والآن تفضل بوصف الفيل دون أن تغفل فى وصفك أتفه التفاصيل ، حتى أحيط بكل التفاصيل . وأعنى أتفه التفاصـــــيل فى نظرك . فليس فى مهمتنا تفاصيل تافهة مطلقا . لـكل شيء تافه قيمته فىمهمتنا.

وقمت بالوصف الذى كان يدونه أمامه ، حتى اذا فرغت من الوصف ، قال لى :

ـ الآن استمع الى . فاذا اخطـأت فى شىء فأرجو تصحيحى فورا .

وراح يقرأ على ما يلى :

الارتفاع ١٩ قدما .

الطول من الرأس حتى منبت الذيل : ٢٦ قدما .

طول الخرطوم : ١٦ قدما .

طول الذيل : ٦ أقدام .

الطول كله بما فى ذلك الخرطوم والذيل ، ٤٨ قدما

طول النابين : ٩ أقدام ونصف .

الاذنان : متناسبتان مع هذه المقاييس .

اثر الخطوة : شبيه بما يتركه برميل تدحرجه على الثلج

لون الفيل : أبيض ناصع .

ثقب فى نهاية كل أذن لوضـع مجوهرات الزينة فى أذنيه .

من عادته أن يرمى الماء من خرطومه على كل المشاهدين سواء فى ذلك كل من يعرفهم أو كانوا من الغرباء .

فى رجله اليمنى الخلفية عرج خفيف .

تحت ابطه الايسر ندبة صغيرة سببها دمل قديم .

كان يحمل وقت سرقته هودجا يتسـع لخمسـة عشر شخصا ، وغطـاء من نسيج مذهب فى حجم سـجادة عادية .

ووجدت الاوصاف مطابقة لما أمليته . ودق المفتش جرسا حضر على اثره معاونه « آلاريك » الذى قال له وهو يناوله هذه الاوصاف :

ـ اطبعوا على الفور خمسـين الف نسخة منها ، وزعوها بواسـطة سيـارات نقل البريد على جميـع

مكاتب الرهونات فى جميع الولايات الامريكية .

وانسحب المعاون .

ـ هـــذه خطوة يلزمنا بعدها الحصول على رسم فوتوغرافى للفيل المسروق .

أعطيتـــه الرسم المطلوب . وكان يتفحصـــه تفحص الخبير ثم قال :

ـ نكتفى بهذا الرسم ما دمنا لا نستطيع أن نحصل على ما هو خير منه . فانى أرى أن خرطومه داخل فى فمه وهـــذا أمر شـــاق قد يترتب عليه أخطاء ، اذ ان هـــذا الوضع ليس طبيعيا .

ودق الجرس .

ـ « آلاريك » ، اطبعوا خمســـين الف نسخة من هـــــذا الرسم غدا فى الساعة الاولى وارسلوها مع الاوصاف بالبريد .

وانسحب المعاون لينفذ أمر المفتش .

والتفت الى المفتش وهو يقول :

ـ ينبغى تخصيص مكافأة طبعا . فما هو المبـــلغ الذى تقترحه ؟ ..

ـ أى مبلغ تعتقد أنه ينبغى تخصيصه ؟

ـ للبدء ، أعتقد .. خمســة وعشرين ألف دولار . انها قضية معقدة ، وليست ســـــهلة . فهناك ألف وسيلة للهرب ، وألف مجال لاخفاء السرقة . ولهؤلاء اللصوص أصدقاء وشركاء فى كل مكان .

ـ عظيم ! اذن فأنت تعرفهم ؟

ولـــكن أماراته الحذرة ، أخفت فى مهـــارة آراءه وعواطفه ، بحيث لم ألحظ شيئا يشى بأفكاره . ولم

يلبث أن أردف ذلك بالعبارات التالية :

لا تهتم بذلك والأمر لدينا سواء ، عرفتهم أم لم أعرفهم . فنحن عادة نكون على الفور فكرة واضحة عن السارق ، وعن طريقته فى ارتكاب سرقته ، وأهمية الربح الممكن من العملية . هذا مع استبعاد لصوص الاسواق الموسمية . وعليك أن تستعرض كل ذلك جيدا . فليس هذا اللص بمبتدىء .

ولكن كما سبق لى واشرت ، فان الرحلة سوف يتحتم عليه القيام بها بسرعة ، والعمل مع زملائه على اخفاء كل أثر ينم عنهم ، كلما تقدموا . ولذلك ، يبدو لى أن مبلغ الخمسة والعشرين الف دولار ، مبلغ ضئيل ، وان كان يصلح كبداية .

وهكذا اتفقنا على هذا الرقم .

ولم يلبث هذا الرجل الذى لاينسى شيئا مما يمكن أن يستفاد به كدليل من الادلة أن قال لى :

هناك حالات فى تاريخ الشرطة ، تبين منها أن التوصل الى الخيط الموصل لكشف الشىء المسروق الذى اجتهدوا فى اخفائه ، يكمن فى غرابة اطوار الحيوان المخطوف فى تناول طعامه . فهل فى استطاعتك أن تذكر لى ، ماذا كان يأكل الفيل المسروق ، والكمية التى كان يأكلها ؟

— ماذا يأكل ؟ حسنا . انه يأكل كل شىء . بدءا بالرجل وختاما بأى كتاب مقدس وما يكون بينهما .

— هذا شىء هام . انى أحتاج الى شىء من التفاصيل فالتفاصيل هى الشىء المهم فى مهمتنا .

فمثلا ، كم من الرجال يستطيع أن يلتهمهم فى الوجبة

الواحدة ؟ وهل يتعين ان تكون لحومهم طازجة ؟

ـ ليس هـذا بالامر المهم عنده . فهو فى وجبة واحدة يستطيع أن يلتهم خمسة رجال .

ـ حسنا . ومن أية جنسية ؟

ـ أنه لا يبالى بالجنسية .

ـ حسنا . وبالنسبة للكتب . كم كتابا يستطيع أن يأكلها فى وجبة واحدة ؟

ـ يمكنه أن يأتى على طبعة كاملة .

ـ هذا امر يستحق بعض الوضوح . ولكن نوع القطع ، هل يكون من القطع الصغير ، أو الجاير ، أو القطع الكبير ؟ وهل هناك حاجة لان يكون محتويا على صور ؟

ـ انه على ما أعتقد لا يهتم بالصور . ولو كنت تعرف هـذا الحيوان كما يجب أن يكون العلم به ، لما سألت هذا السؤال . فهو يلتهم كل ما يقدم اليه .

ـ ينبغى لنا أن نقرر شيئا . فان طبعة من كتاب ، مجلد بجلد روسى ، وبأطراف مائلة ومذهبة ، أعنى نسخة من هذا الكتاب يبلغ ثمنها مائة دولار .

ـ على هذا الاساس فان خمسمائة نسخة من هذا النوع تبلغ قيمتها خمسين الف دولار .

ـ حسنا . هذا رقم قريب من الصحة . انى أكتب حسنا جدا .

ـ انه يحب الرجال والكتب المقدسة . وماذا يحب غير ذلك . هات ... أريد غير ذلك من التفاصيل .

ـ انه يترك الكتب من أجل القرميد ، ويترك الاوانى الزجاجية من أجل الاقمشة . ويترك القطط من

أجل المحار ويترك السكر من أجل الفطائر المحشوة باللحم ويترك البطاطا من أجل النخالة . وليس ثمة ما لا يأكله الا الزبدة الاوروبية .

ـ حسنا . نتكلم عن الكمية الآن . فما هي الكمية التي يأكلها في كل وجبة ؟

ـ تتراوح بين ربع طن ونصف طن .

ـ وهل يشرب ؟

ـ يشرب كل ما هو سائل . حليب ، ماء ، ويسكي، زيت خروع ، حامض الفينيك ... لا فائدة من التفاصيل فاكتب ان شئت أسماء كل السوائل التي تخطر ببالك ... وهو على كل حال يشرب كل شيء فيما عدا القهوة الاوروبية .

ـ حسنا . نحدد الكميات ؟

ـ قل من خمسة الى خمسة عشر برميلا . ويتوقف ذلك على درجة ظمأه التي تختلف أحيانا . أما شهيته بالنسبة للأكل فانها لا تتغير مطلقا .

هذه معلومات غير عادية ، ونرجو أن تساعدنا على سلوك السبيل الصحيح .

ودق الجرس .

ـ آلاريك . ناد الكابتن بيرنز !

وأقبل بيرنز فشرح له المفتش « بلانت » القضية بتفاصيلها كلها . ثم أعلن بلهجة واضحة حاسمة ، تلمس فيها اطمئنانه الى نسج خيوط خطته ، وبصورة من اعتاد أن يصدر أوامر :

ـ كابتن بيرنز ، كلف ضباط التحري وجونز ،

وديفز ، وهالسى ، وبيشس ، وهاكيب أن يكونوا للفيل أتبع من ظله .

ـ أجل ياسيدى .

ـ وكلف ضباط التحرى موزيس ، وديكن، ومورفى، وردجرز ، وتابر ، وباتيلى أن يكونوا للصوص أتبع من ظلهم .

ـ أجل ياسيدى .

ضع فرقة من ثلاثين رجلا من النخبة الممتازة ، مع فرقة معاونين تتألف من ثلاثين رجلا آخرين ، فى المكان الذى سرق منه الفيل . ثم اصدر أمرك باقامة حراسة ليلا ونهارا ، بألا يقترب أحد من المكان ، باستثناء مخبرى الصحف ، دون اذن خطى منى .

ـ أجل ياسيدى .

ـ ضع فى السكك الحديدية وعلى ظهر السفن البخارية ضباطا من رجال التحرى فى أزياء مدنية ، وكذلك فوق المعديات ، والقوارب ، وعلى كل الطرقات التى تبدأ من مدينة دجرزى ، مزودين بأوامر قبض على كل الاشخاص المشبوهين .

ـ أجل ياسيدى .

ـ اعط كلا منهم رسما مرفقا بأوصاف الفيل ، ولا تنس أن تزودهم بامر تفتيش كل القطارات والبواخر التى تغادر الميناء .

ـ أجل ياسيدى .

ـ واذا تم القبض على الفيل ، فاخطرونى فى الحال برقيا .

ـ أجل ياسيدى .

ـ وأخطروني كذلك اذا وجـدتم آثار أقدام هـذا الحيوان أو أي شيء مماثل .

ـ أجل ياسيدي .

ـ أصـــدر الامر الى شرطة المرفأ لتقوم بدوريات يقظة ، أمام واجهات المنازل ، وبكل انتباه .

ـ أجل ياسيدي .

ـ ابعث ببعض ضباط التحري بملابس مدنية على قطارات الى كندا شمالا ، واوهايو غربا ، وبوسطون جنوبا .

ـ أجل ياسيدي .

ـ وضع رجالا موثوقا بقدرتهم في كل مكاتب البرق لقراءة كل البرقيات ،بما في ذلك البرقيات الرمزية مع تزويدهم برخصة لحل تلك الرموز .

ـ أجل ياسيدي .

ـ كل هذه الاوامر ، يجب أن تحاط بالسرية التامة

ـ أجل ياسيدي .

ـ لا تنس أن تقدم لي تقريرك في الوقت المعتاد .

ـ أجل ياسيدي .

ـ اذهب الآن .

ـ أجل ياسيدي .

إنسحب الكابتن ، وبقي المفتش بلانت في صمت وفكر عميق وقد التمعت عيناه . ثم لم يلبث أن التفت الي وهو يقول بصوت هاديء :

ـ ليس من عادتي أن أكون مغرورا ، ولكن في استطاعتي التأكد من أننا سوف نجد الفيل .

ولم يسعني الا أن أقوم وأصافحه بحرارة شاكرا له

جهوده المخلصة . وكنت صادقا فى عرفانى بجهوده كما كنت أزداد به ثقة ، وأدهش من غرائب مهنتـــــه وعجائبها . وكان الوقت متأخرا ، فافترقنا وعدت الى داري وقلبى أكثر غبطة مما كان ساعة وصولى الى مكتب المفتش .



فى صـــباح اليوم التالى ، نشرت جميع الصحف الصادرة ، كل التفاصيل بكاملها .

وكان هناك الى جانب التفاصـيل ، شرح لنظريات التحرى التى تتبع هذه المدرسـة أو تلك ، لتحليـل الطريقة التى تمت بها السرقة والتكهن بماهية اللصوص والجهة التى يمكن أن يكونوا قد لجأوا اليهـا واتجهوا اليها بغنيمتهم . وكانت النظريات المطروحة للبحث تبلغ احدى عشرة نظرية تبحث الامر من كافة نواحيه .

ولم تكن هناك نظريتان متماثلتان وأن كانوا اجتمعوا على أمر واحد هو أنه على الرغم من سـلامة مؤخرة منزلى وبقاء الباب مقفلا ، لم يستطع الفيل المرور من الفتحة المستحدثة بل خرج من مكان آخر ، ما يزال مجهولا . وقد عمـد اللصوص الى احداث هذه الثلمة اغراقا فى التضليل لرجال التحرى . وقد لا يخطر على بالى أو بال أى انسان ، هذا التضليل الذى اكتشفه بســهولة رجال التحرى ، ولم ينخدعوا بما قام به اللصوص من محاولة للتعمية .

عندما نشرت الصحف تفاصيل النظريات الاحـدى عشرة ، ذكرت معها جميع أسماء اللصوص المشبوهين، دون اجماع على هذه الاسماء .

وكان مجموع عدد الاشخاص المشبوهين سبعة وثلاثين ، كما أشارت الصحف الى رأى المفتش بلانت. وهو أهم الآراء . وفيما يلى خلاصة ما نشر :

« ان المفتش العام يعرف اللصين الرئيسيين. وهما « بريك دانى » و « روج ماك فادن » .

وقبل عشرة أيام من ارتكاب السرقة ، كان المفتش العام قد رأى من باب المحافظة على الامن ، ودون اثارة اى ضجة ، حبس هذين اللصين حبسا تحفظيا لخطرهما على الامن العام .

ولكن لسوء الطالع ، تمكن اللصان من الهرب ليلة وقوع السرقة . وقبل أن يعثر عليهما ، كان العصفور ، أى الفيل ، قد طار » .

« ودانى ، وماك فادن » يعدان من اجرأ وأخطر اللصوص والمفتش العام يعتقد انهما هما اللصان اللذان سرقا فى الشتاء الماضى ، فى ليلة من ليالى البرد القارص ، مدفأة قسم الشرطة ، الامر الذى تخلف عنه اصابات شديدة بالبرد لجميع رجال الشرطة ، الذين تجمدت أطراف بعضهم ، وتوقفت عن الحركة أجزاء منهم ، فلجأوا الى الطبيب المعالج فى فجر ذلك اليوم» .

بعد أن قرأت نصف هذا المقطع ، ازداد اعجابى بقدرة وحكمة ودهاء هذا المفتش الفذ .

انه لايرى بوضوح وجلاء كل التفاصيل الحالية ، بل كان يجاوز ذلك الى المستقبل فيرى تفاصيل على ضوئه .

وما دام له مثل هذا القدر من الاحاطة والمقدرة ، فما الذى يمنعه من أن يضع يده على اللصين ويأمر

بالقبض عليهما بهذه التهمة .

ولهذا ، لم يسعني الا أن أبدى له دهشتي لعدم اقدامه على القبض على اللصين وتقديمهما للمحاكمة ، والحيلولة بذلك دون وقوع السرقة وتكبد كل هذه الخسائر . ولكنه أجابني ببساطة :

ـ ليس من شأننا أن نحول دون وقوع الجريمة . ولكننا نعاقب مرتكبيها . وليس من حقنا معاقبة المجرمين قبل ارتكاب جريمتهم .

واسترسلت فى ابداء ملاحظاتي ، بقولي أن السرية التي اتفقنا على مراعاتها تسربت الى الصحف .

وقد تسربت للصحف تفاصيل وافية عن الموضوع ومرتكبيه وما وضعناه من خطط ومشاريع ، بل لقد

ذكرت الصحف أسماء كل المشبوهين ، بحيث أصبح من السهل عليهم ، اما الاختفاء أو التنكر .

ـ دعهم يفعلون ما يشاءون . وسوف يتبين لهم فى الوقت المناسب ، انني عندما أصبح على استعداد ، فسوف أنقض عليهم فى مخابئهم كأنني كف القدر .

اما فيما يتعلق بالصحف ، فمن واجبنا أن نماشيها وتجاريها فيما تنشر . ذلك أن الشهرة والصيت واثارة الرأى العام بصورة مستمرة ، هي كلها ، الخبز اليومى لرجل الابحاث والتحرى .

وعلى الشرطى أن يكشف عما يعمل ، حتى لا يتهم بانه لا يعمل شيئا .

وعليه أن يصرح بنظرياته ، اذ أن ذلك أجلب خيرا عليه من تقدير واعجاب الرأى العام .

ولا يجوز لنا أن نرفض للصحف طلبا ، فعلينا أن

نقوم بذلك بكل كياسة حتى لا نسىء اليها .

وكلما اطلع الرأى العام على مثل هذه الانباء والخطط تأكد لديه اننا نعمل ونتحرك .

والصحف لا تبخل علينا بقولها على سبيل المثال :

« وهـذه هي نظرية المفتش بلانت المتقنة المحكمة » بدلا من أن تنطلق فى اللذع والتهكم والسخرية . لم يسعنى بعد رؤيتى وسماعى لكل هـذه الخطـط والتحركات ، الا أن أضع بين يدى المفتش ، مبلغا ضخما من المال ، لتغطية النفقات الضرورية .

جلست الى جانب المفتش فى انتظار ورود أى خبر أو نبأ برقيا أو بالبريد .

وكنا نعلق أهمية قصوى على ورود برقية بين دقيقة وأخرى . ورحت أقرأ الصحف التى نشرت خبر النفقات . وقد تبين لى أن المكافأة وهى مبلغ الخمسة والعشرين الف دولار ، ستذهب الى رجال التحرى ، فى حين أنه من الاصوب ، الاعلان عن منح المكافأة لأى شخص يعثر على الفيل .

وقد أجابنى المفتش بقوله :

ــ رجال التحرى هم الذين سيعثرون على الفيل . وعلى ذلك فستذهب اليهم المكافأة ، والجائزة هى دائما من نصيب من يستحقها . واذا اتفق أن عثر اى انسان آخر على الفيل ، فانه سوف يتسنى له ذلك ، بعد أن يكون قد تجسس على رجال التحرى ، واستفاد من الادلة التى فشلوا فى اخفائها ،وبهذا يطالبون بغير استحقاق ، بالمكافأة .

فى حين أن تخصيص جائزة مماثلة ، يثير حماسة

الرجال الذين تخصصوا فى هذا الشأن واكتسبوا خبرة ومرانا ، لا ضرفها لمن يعتر بطريق الصدفه على الفيل المسروق ، دون بذل مهارات وجهود وخبرات خاصه.

بدا لى أن ما يقوله المفتش منطقيا الى حد ما . وفى تلك اللحظة ، بدا جهاز اللاسلكى القائم فى أحد أركان المكتب يدق دقاته المعهودة ، وجاءت البرقية التالية:

« فلاور ستيشن ، نيويورك ، الساعة ٧ر٤٠ صباحا» انى أتتبع أثرا . فقد وجدت حفرا عميقة عبر مزرعة قريبة من هنا ، فاقتفيتها مسافة ميلين شرقا ، دون فائدة . أعتقد أن الفيل اتجه غربا . سأتجه نحو الغرب .

« دارلى »

قال المفتش :

ـ ان دارلى من أفضل رجال هذا القسم . وسوف تصلنا منه قريبا أنباء أخرى .

ووصلت البرقية رقم ٢ :

« باركز. نيوجرزى . الساعة ٧ر٣٠ صباحا » .

« وصلت اللحظة ، تحطيم فى مصنع زجاج هنا الليلة الماضية ، واختفاء ثمانمائة زجاجة . لا توجد مياه بكميات وافية الا على بعد خمسة أميال من هنا. وجدت الزجاجات فارغة ويمكن أن يكون الفيل قد عطش وشربها . انى أتجه فى هذا الاتجاه » .

« ديكر »

ـ يبدو أن هناك شعاعا من الامل . ألم أقل لك ان معرفة نظام طعام هذا الحيوان ، تساعدنا على آثاره واتجاهاته !...

البرقية رقم ٣ :
« تايلورفيل ، لونج ايلاند ، الساعة ٨ر١٥ » .

اختفت كومة هشيم على مقربة من هـذا المكان ، فى الليلة الماضية . الارجح ان الفيل التهمها . اكتشفت الآثار وتبعتها » .

« هابرد »

وهنا قال المفتش :

ترى أى طريق سيسلك ! على اى حال ، سوف تلاقى مشقة ، ولكننا سنعثر عليه .

« فلاور ستيشن ، نيويورك ، الساعة ٩ صباحا » .

اكتشفت الآثار على بعد ثلاثة أميال غربا . آثار عريضة ، عميقة ، مخططة . استجوبت مزارعا نفى أنها آثار فيل وانما حفر وضع فيها أغراس شجر عندما سقط الثلج فى الشتاء الماضى . أبرق لى بتعليماتك ، وأى طريق أسلك »

« دارلى »

فقال المفتش :

آه . هـذا المزارع شريك للصوص ! ان أعصابى تحترق . وأبرق الى دارلى :

« اقبض على المزارع واحمله على الافشاء بأسماء شركائه واصل متابعتك للآثار ، حتى لو اقتضى الامر الذهاب الى الباسفيك » .

« بلانت ــ رئيس التحرى »

برقية أخرى :

« كونى بوينت ، بنسلفانيا ، الساعة ٨ر٤٥ صباحا »

« تحطيم فى معمل الغاز أثناء الليل . اختفـاء

ايصالات مشتركين غير مدفوعة . أكتشـــفنا الآثار ونتابعها » .

صرخ المفتش :

ـ يا للسماء ! حتى الايصالات يأكلها ؟

فأجبت :

ـ بطريق الخطأ ولاشك . لانها لا تستطيع أن تؤمن للفيل وجبة ، خاصة اذا كانت وحدها .

ثم وصلت البرقية المثيرة التالية :

« ايردنفيل ، نيويورك ، الساعة ٣٠ر٩ صباحا » .

« وصلت لتوى . أهل القرية فى دهشة بالغة . مر الفيل من هنا فى الخامسة صباحا . البعض يقول انه يتجه غربا ، وآخرون يقولون انه يتجه شمالا ، وطائفة تقول بل اتجه نحو الجنوب . ولم يثبت أحد منهم على قرار واضح . قتل جوادا . احتفظت بقطعة منه كدليل . قتله الفيل بخرطومه . وكانت الضربة موجهة من ناحية اليسار . وحسب وضع الجواد القتيل ، أعتقد أن الفيل يتجه شمالا بمحاذاة خط سكة حديد بركلى . انه يسبقنا بأربع ساعات ونصف . ولكننا نتعقبه » .

« هارفز »

صدرت عنى صيحة فرح . فى حين بقى المفتش العام ساكتا كصنم . ودق الجرس بحزم .

ـ آلاريك . ادع لى الكابتن بيرنز .

وأقبل بيرنز .

ـ كم عدد الرجال المستعدين لديك ؟

ـ ستة وتسعون ياسيدى .

ـ ابعث بهم الى الشمال فورا . وليكن تجمعهم على

خط سكة بيركلى ، شمال ايروثفيل ،
ــ سمعا ياسيدى .

ــ لتبق كل هذه الحركات طى الكتمان البالغ . وعندما يتجمع لديك عدد آخر يمكن الاستغناء عنهم ، اخطرنى .
ــ سمعا ياسيدى .
وفى هذه اللحظة وصلت برقية أخرى :

« سيج كورنرز . نيويورك . الساعة ٣٠ر١٠ صباحا »

« وصلت الآن . مر الفيل من هنا الساعة ١٠ر٨ صباحا . هرب جميع سكان المدينة ما عدا رجال الشرطة ، يبدو أن الفيل لم يهاجم الشرطى. بل هاجم عمود النور. فتحطم العمود وقتل الشرطى . احتفظت بقطعة من الشرطى كدليل .

« ستام »

فقال المفتش العام :

« اذن لقد تحول الفيل غربا . على أى حال لن يتاح له الفرار . فرجالى منتشرون فى كل مكان » .
وهذا مضمون برقية تالية :

« جلوفورز ، الساعة ١٥ر١١ صباحا » .

وصلت الآن . القرية مهجورة ، ولم يبق بها الا المرضى والعجائز . مر الفيل من هنا منذ ثلاثة أرباع الساعة . وكانت جمعية الاحتجاج على ترك الماء غير الصالح للشرب دون سياج ، تعقد جلستها فى الجمعية، عندما أدخل الفيل خرطومه من النافذة وأفرغه فى الغرفة ، وكان قد ملأه ماء من احدى الآبار فتجرعه غصبا بعض الاعضاء الذين توفوا فى الحال .

وبعد انقضاء خمسة عشر يوما منذ يوم السرقة ، رفعت المكافأة الى خمسة وسبعين ألف دولار نزولا على نصيحة المفتش بلانت . ورغم فداحة المبلغ ، الا انى كنت أفضل أن اضحى بكل ثروتى عن أن افقد ثقة حكومتى فى شخصي .

وقد زاد من ورطة رجال التحرى ، ان الصحف راحت تنقلب عليهم وتشن عليهم نقدا لاذعا .

ورأى رجال المسرح فى هذا الحادث فرصة ذهبية لاستغلاله . وكان المشاهد يرى على المسرح ، رجال التحرى وهم متنكرون ويطاردون الفيل بأساليب ماجنة ساخرة تبعث على الهزء بهم . وراحت الصحف ترسم الصور الكاريكاتيرية لرجال التحرى وهم يجوبون البلاد وقد حملوا مناظيرهم ، فى حين كان الفيل يسير وراءهم ويلتهم بخرطومه ما فى جيوبهم من تفاح .

وسرت شرارة الدعابة والسخرية من رجال التحرى الى كل مكان ، من المسرح الى البار ، الى الطريق العام ، الي الهزء من شارة التحرى التى قوامها عين مفتوحة وقد كتب تحتها :

« نحن لا ننام » .

ولكن رجلا واحدا ظل رابط الجأش ، لا يعير هذا الذى يجرى حوله أى اهتمام .. انه المفتش العام بلانت . فلم يتزعزع عن أمله ولا عن ثقته فى أية لحظة مرت به . كان يقول :

دعهم يقولون ما يروق لهم . ويفعلون ما يشاءون . والذي يضحك أخيرا هو الذى يضحك كثيرا .

ولقد بلغ اعجابى بهذا الرجل حدا حملنى على ألا أفارقه . فكنت أذهب الى مكتبه كأنى أذهب الى مكتبى .

وكانت بطولته تبعث فى نفسى من فرط اعجابى به ، الرغبة فى أن أقلده فى بطولته . فلا أتململ ولا أسأم .

وعندما يتسرب الى شىء من اليأس ، انظر الى وجه هذا الرجل الساكن الغافل وأبقى فى مكانى ساكنا متجلدا .

وبعد مرور ثلاثة أسابيع على وجه التقريب من سرقة الفيل ، وجدت نفسى على وشك أن أفكر فى تقديم استقالتى من منصبى وأنسحب من هذا الاسى .

وكأنما كان رجل التحرى العظيم المفتش بلانت يقرأ أفكارى ، اذ سرعان ما قدم لى خطة جهنمية جديدة

لقد كان يجرى صفقة مع لصوص . ان عبقرية هذا المفتش وقدرته وعقله ، تفوق كل من احتككت بهم وهم من أبرز الادمغة بحكم وظيفتى .

قال لى ، انه على أتم ثقة من أن باستطاعته أن يعقد صلحا مع اللصوص على مبلغ مائة ألف دولار يأخذونها ويعيدون لى الفيل .

أجبته بقولى : أن فى استطاعتى جمع هذا المبلغ ، ولكن كان اعتراضى على ما يحل برجال التحرى الذين ضحوا وبذلوا أقصى جهدهم دون أن ينالهم شىء .

فأكد لى المفتش انه فى مثل هذه الصفقات التى يجريها مع اللصوص ، يكون النصف دائما من نصيب رجال التحرى .

وبمثل هذه الحصافة استطاع أن يقضى على اعتراضى وتناول المفتش بطاقتين كتب عليهما النص التالى :

« سيدتى العزيزة .
أن زوجك يستطيع أن يكسب مبلغا ضخما من المال.
« واعتمدى دائما على حماية القانون » .
أرجو مقابلتى على الفور .
« بلانت ــ المفتش العام » .

وأمر بارسال احدى البطاقتين الى زوجة « بريك دافى » ، والاخرى الى زوجة « روج ماك فادن » .

وبعد ساعة وصل الردان الوقحان التاليان :

« أيها الغراب العجوز ، لقد توفى « ماك دافى » منذ سنتين » .

« بريدجيت أوهولجان »

وكانت البطاقة الاخرى :

« أيها الخفاش العجوز الاعمى . لقد شنق « ماك فادن » منذ ثمانية عشر شهرا . ان حميرا كثيرة علمت ذلك من قبلك » .

« مارى ماهوتى »

قال المفتش

ــ لم أكن لأشك فى ذلك منذ زمن بعيد . وها هى الشهادة بحذقى تكمن فى هذه الرسالة ... وكنت أدعى عدم العلم ...

وكان اذا أعوزته الحيلة ، أخرج من جعبتـه حيـلة أخرى جاهزة . وعلى الاثر بعث الى صحف الصـباح باعلان ، لا يستطيع العلم بما فيه الا اللص المقصـود وأردف قائلا :

أن ذلك سيحمل اللص ، اذا ما كان بعد على قيـد الحياة ، على المجىء الى المـكان المتفق عليه فى الاعلان

للقاء . وهـذا المكان تجرى فيه كافة المصالحات بين رجال التحرى والمجرمين .

وكان منتصف الليـل هو الوقت المحدد . ولم يكن أمامنا من شيء نعمله ، فغادرت المكتب لانعم بشيء من الراحة ولاستحضر ما طلبه منذ برهة .

عدت اليه فى الساعة الحادية عشرة ليلا ، أحمل اليه المائة الف دولار ، أوراقا نقدية ، ووضعتها بين يدى المفتش العام .

بعد قليل تركنى وفى عينيه بريق الامل والثقة .

وانقضت ساعة وأنا على أحر من الجمر . ثم سمعت وقع خطاه الواثقة .

فنهضت مذهولا مترنحا من الغبطة ، وتقدمت منه على ضوء شرر الانتصار الذى كان يشع من عينيه ، قال:

ـ لقد تمت الصفقة . وسترى غدا كيف تتغير لهجة الهازئين . اتبعنى .

وحمل شمعته وهبط الى البـدروم الفسـيح الذى يمتـد تحت مبنى دار الامن . وكان ينـام فى هـذا البدروم ، ستون شرطيا من شرطة التحرى ، فى حين يلعب الورق ، قتـلا للوقت ، عشرون آخرون . وفى اللحظة التى كدت أختنق فيها وأفقد توازنى وأنا أسير على أطراف أصـابع قدمى ، رأيت المفتش يتعثر ويستلقى فوق الجسم الضخم الـذى كان ممددا على الارض ، وكان يصرخ وهو يسقط قائلا :

ـ أن مهنتنا النبيلة قد أخذت حقها بيدها وثارت لنفسها . هاكم هو الفيل

حملونى الى المكتب ، حيث استعدت رشدي بعد شم الاثير .

وهرع جميع شرطة التحرى وتنادوا على الالتقاء فى السرداب حيث شاهدت مشهدا لم تقع عليه عينى بين مشاهد الانتصارات التى رأيتها فى حياتى .

واسرع مخبرو الصحف تلبية لدعوة مركز الامن العام ، ودارت كئوس الشمبانيا وتبودلت الانخاب والتهانى ، وتصافح الجميع فى حماس منقطع النظير .

كان المفتش العام هو بطل الساعة . وكان فى أقصى درجات السعادة . فقد انتصر بصبر وشجاعة واحتمال انتصارا كاملا مبينا ، فى الوقت الذى أصبحت أنا فيه شريدا طريدا من وظيفتى ، وفقيرا مفلسا بعد أن نفدت ثروتى فى المكافآت والمصروفات ، وها هو الكنز الذى كنت أعتمد عليه والذى ائتمنت عليه قد تلاشى

وفقدت وظيفتى نتيجة ما كان يسمى فى عرف الوظائف ، بالاهمال الجسيم .

ودارت الخطب التى تعرب عن عبقرية المفتش العام وصدق نظراته ونظرياته . وكنت تسمع هذه العبارات :

ـ انظروا اليه ، انه بلا شك امام هذه المهنة وزعيمها ، وهو اذا عثر على مجرد دليل واحد ، فان الامر كله يصبح أمامه جليا لا خفاء فيه .

وكان لاقتسام الخمسين الف دولار وقع عظيم . فلما تمت القسمة ، وقف الرئيس ، بعد أن دس فى جيبه نصيبه لالقاء خطاب وجيز ، لم يزد عن قوله :

« استمتعوا يا ابنائى ، لانكم تستحقون ما نلتموه . وقد اكسبتم بأعمالكم ، مهنة التحرى صيتا ذائعا لا يبلي علي الايام ! »

فى هذه اللحظة وصلت برقية :

« مونرو ، تشيجان ، الساعة ١٠ مساء » .

« وجدت أخيرا مكتبا للبرق لاول مرة ، منذ ثلاثة أسابيع مضت فى البحث عنه . تعقبت آثار خطوات على ظهر جواد كنت أمتطيه وسط الغابات على مسافة تبلغ الف ميل . الآثار تزداد عمقا ، واتساعا . وهى تتجدد يوما بعد يوم . انتظروا بلا فزع فسوف لايمر أسبوع واحد حتى يصبح الفيل بين يدى . انى على اتم ثقة من ذلك » .

« دارلى »

أمر المفتش العام بالهتاف عاليا « لدارلى » الذى كان فى مقدمة رجال الامن المهرة ومن أنبغهم . ثم أبرق يستدعيه ليتسلم نصيبه من المكافأة .

وبهذا نزل الستار عن مأساة سرقة الفيل الابيض .

وصدرت الصحف فى اليوم التالى وقد امتلأت صفحاتها بالمديح والثناء على المفتش العام ورجاله المهرة، فيما عدا استثناء واحد كان تافها . فقد راحت الصحيفة الساخرة تقول :

« رجل التحرى عظيم ! يمكن أن يتصف بالبطء فى العثور على أشياء صغيرة كالفيل الضائع ... يمكن أن يطارده طوال النهار ، ثم ينام الليل بطوله الى جوار الهيكل العظمى الفاسد النتن طوال ثلاثة أسابيع من البحث ، ولكنه ينتهى الى العثور عليه ، اذا أمكنه أن يضع يده على يد من يدله على المكان المناسب للبحث والتحرى ! »

أما بالنسبة لى فان الفيل « هلمالى جمست » ،كان

فى عداد المفقودين منذ أن سرق . وعنـدما أصابتـه طلقات مدفع فى مقتل، لجأ الى سرداب ادارة الامن وسط الضباب المنتشر الـكثيف . وهناك ، ووسط أعدائه ، وازاء خطر اكتشافه بين لحظة وأخرى ، رقد دون حراك حتى قضى عليه الجوع فمات ، ومنحه هـــذا الموت الراحة الابدية .

هـذه العمليـة، كلفتنى مائة الف دولار ، الى جانب اثنين واربعين الفا اخرى ، مصروفات نثرية .

ولم يكن فى وسعى التفكير فى الحصول على منصب آخر من حكومتى فقد غدوت رجلا مهدما ، أهيم على وجهى فى هذه الدنيا . على ان كل هـذا الذى جرى لى ، لم يؤثر أو يقلل من اعجابى الشديد بالمفتش العام « بلانت » الذى أعتقد انه أشهر شرطى تولى أعمـال التحرى ، بمهارة منقطعة النظير .

انطون تشيكوف

(١٨٦٠ – ١٩٠٤)

كان « انطون بافلوفتش تشيكوف » من أكثر الكتاب الذين آثرهم وأحبهم وصادقهم ، عملاق القصة الطويلة « تولستوى » .

وكان يقول ، انه اذا كان « بوشكين » هو امام الشعر فى روسيا ، فان « تشيكوف » هو امام النثر فيها .

ورغم فارق النشأة واختلاف المذهب ، فقد جمعتهما صداقة وثيقة . ذلك ان « تولستوى » كان متصوفا ، وخياليا ، فى حين كان « تشيكوف » ، عمليا وواقعيا .

ورغم دراسته للطب ، فانه لم يزاول مهنة الطب ، وآثر عليها الاتجاه للأدب والقصة .

ولم يقتصر « تشيكوف » على كتابة القصص القصيرة – التى بلغت الالف – بل لقد أثرى الادب الروسى بروايات طويلة ، كما أثرى المسرح الروسى بكثير من مسرحيات ناجحة .

وكانت أشخاص رواياته فى القصص القصيرة ، أو فى المسرح ، من البسطاء ، يظهرون ويتحركون مجردين من كل زينة أو جماليات فى الحديث أو الحركة .

وكان ينظر الى النـــــاس بعيونه هو ، لا بعيون « تولستوى » أو « تورجنيف » أو « دوستويفسكي » وهم الذين أولعوا بالابطال وبخلق دور البـــــطولة لاشخاص قصصهم .

اما «تشيكوف» فقد جرد قصصه من أدوار البطولة والابطال . فالناس عنده قوالب ذات أمزجة متباينـة ولـكل قالب من هذه القوالب صفاته وتصرفاته .

وانك لتلمس فى قصصـه مرارة التجربة ، وانفـة الاستقامة ، ونبض الحقيقة ، وثمرة المعـاناة ، التى اقتطفها من واقع الحياة ومن تناغمه معها حينـا ، أو الثورة عليها أحيانا .

كان ينصح الـكتاب الناشئين ، بالنظر بعيونهم للناس ولمـا حولهم ، لا بعيون من ســـبقهم من الـكتاب . والتحدث الى أناس مجتمعهم بلغتهم ، لا بما يتخيلون من أحاديث ومجادلات ليســت من الواقع الملموس ، بقدر ما هى من الذاكرة أو السماع ، أو الذهاب مذهب السابقين .

وكانت الرحـلات عنـده ، هى قوام وذخيرة كاتب القصة . كما كان يرى أن الاحتكاك بالناس ، والتحدث اليهم هو أساس بناء القصة .

وقد حصل على جائزة « بوشكين » عام ۱۸۸۷ .

وفى عام ۱۹۰۲ ، انتـــــخب هو و « جوركى » و « كورولينو » أعضاء فى الاكاديمية الروسية .

الا أن القيصر نيقولا الثـــانى اعترض على انتخاب « جوركى » وحرمه من العضوية .

فما كان من « تشيكوف » الا أن رفض على الفور

عضوية الاكاديمية ، احتجاجا على حرمان « جوركى » من عضوية الاكاديمية ، واعلانا عن سخطه لهذا التصرف المشين من القيصر .

ولم يكن « تشيكوف » يعترف فى عالم القصص ، الا بالقصة التى تترك طابعا وبصمة وأثرا فى نفسه .

وعندما سألوه عما اذا كان قد قرأ « الجريمة والعقاب » ، « لدوستويفسكى » ، أجاب بأنه يؤجل قراءتها الى أن يبلغ الاربعين من عمره .

وعند بلوغه سن الاربعين ، سألوه عما اذا كان قرأ القصة كما وعد ، أجاب بقوله :

نعم لقد فعلت . ولكنها لم تترك فى نفسى أثرا كبيرا

وسام «أنا»

في صباح باكر من أصباح الصيف العابقة بأنسام عطر الزهر الفواح ، كانت عربة أنيقة ، تجرها جياد مطهمة ، تنم عن ثراء صاحبها ، تخطر في الطرقات الخالية من المارة ، وقد استقلتها باقة من آنسات رشيقات ، كن يتضاحكن مع « دون جوان » عصره ، « ارتينوف » صاحب العربة ، الذي كان يجلس الى جوار السائق ، الامر الذي كان مثار ضحك الغانيات ، واسترسالهن في مجونهن ، مع هذا الثري العربيد المستهتر ، السادر في سهراته الماجنة ، الطليقة من كل قيد أو احتشام .

وكانت الفتاة « أنا » في تلك اللحظة ، تعبر الطريق الى السوق ، في بعض شأن بيتها ، وقد شغلتها هموم العوز والحاجة ، عن الانتباه الى مرور العربة ، التي كانت تنطلق بما حملت من فتنة وثراء ، في طريق العودة من « بال » ساهر .

استرعى جمالها نظر « ارتينوف » الخبير بمكامن الفتنة . ولم يستطع أن يكتم اعجابه الذي أحاطه بأرق ألفاظ الغزل ، والفتاة عن كل ماحولها لاهية ، الا بما

اتصل بهموم بيتها واسرتها ، التى تتألف من ابيها واخويها الصغيرين ، وهى الاسرة التى حملت « آنا » وحدها بعد موت والدتها عبء اعالتها ، منذ أن أصبح والدها ، « بيوترليونيفتش » عاطلا وسكيرا مدمنا لايفيق .

ولقد شاء سوء حظ هذه الاسرة ، أن يفقد عائلها وظيفته كمدرس للرسم بمدرسة ثانوية ، رأت ادارتها فصله ، نتيجة تقصيره واهماله وادمانه وغيابه المتكرر .

عرف الفقر سبيله الى بيت الرجل الذى راح يستدين حتى استغرقته الديون .

وكان على ابنته « آنا » أن تسهر بكدها على هذا الوالد وعلى أخويها الناشئين ، وهى لم تزل طرية العود ، لم تتجاوز الثمانية عشر ربيعا .

وكان الصبيان ينظران الى والدهما وهو يمد يده المرتعشة الى اناء النبيذ ، نظرة توسل واستعطاف ، لعله يقلع عن هذا الشراب الذى يقيم ثمنه أود هذه العائلة البائسة ، فى كل مرة يشرب فيها ابوهم هذا الشراب .

كان الابن لايستطيع أن يمنعه أحد منهما يصنع ، بالقول أو بالاشارة ، أو يصرخ مهددا كل من يمنعه من الشراب ، بالطرد من البيت .

وكان هذا المشهد الاليم ينتهى كل يوم كسابقه ، باتجاه الاب الى آلة « أورغون » يعزف عليها ، فلعلها تمسح بأنغامها بعض ما يعانيه من شجن لا قدرة له على دفعه .

وحدث ذات يوم ، عند غودة « أنا » من عملهما الشاق ، الذى يسد أجره بعض مطالب الحياة ، أن شاهدت الموظف المكلف بمعاينة منقولات الدار وحضرها فى قائمة يحملها ، تمهيدا لبيعها ، وتنفيذا لحكم المحكمة الصادر بحجز وبيع منقولات الدار ، سدادا لديون الدائنين .

انقبض صدر « أنا » من هذا الذى شاهدته ، وأحست ان الحياة التى لا ترى منها الا وجهها المتجهم أصبحت عبئا وهما لا يطاق .

ولقد دفعتها الشفقة بأبيها وأخويها ، للاذعان لنصائح جاراتها ، اللواتى كن يزين لها التأهل بزوج ثرى ، يليق بما هى عليه من فتنة ونضارة .

ولا عليها من فارق السن ، فان المال والجاه ،كفيلان بأن يحيطانها باعجاب مجتمع عصرها ، ويجذبان اليها الشبان وأهل الجاه والسلطان .

ومضين يبحثن عن الزوج الصالح لكل هذه الفتنة، حتى وجدنه فى شخص «موديست اليكسيفتش» الثرى الرفيع المقام ، وان كان قد جاوز الشباب منذ عهد بعيد ، وراح ينشد الاسرة والجمال ، والمزيد من الجاه

كانت همسات المدعوين الى حفل زواجها ، التى تضمنت الرثاء لهذا الجمال النادر ، الذى يزف الى رجل فى مثل عمر أبيها ، فوق مظهر منفر تعافه النفس، تثير همومها عندما كانت بين أترابها ولداتها فى الكنيسة خلال مراسم الزواج .

واستكمالا من زوجها « موديست » لما تقضى به المراسم الدينية ، وتقديسا منه للجانب الروحى للزواج،

الذى كان يعنيه كثيرا فلا يفرط فيه ، رحل الزوجان الى دير يقع على مبعدة من المدينة .

وفى طريق رحلتهم الى الدير ، اعترض «ارتينوف» الثرى المستهتر ، طريق « أنا » للمرة الثانية منذ رؤيته لها فى ذلك الصباح الباكر ، الذى طبع صورتها فى ذاكرته ، ولم تبرحها من ذلك الحين .

وكان قد داب هو ورفقة من صحابه من اهل المجون ، على أن يعترض ، على سبيل التسلية والمداعبة البريئة ، عربات المسافرين على الطريق العام ، وحجزهم ، برضاهم ، عن مواصلة رحلتهم ، واستضافتهم فى مخيم أنيق بعض الوقت ، يقطعونه فى قصف ورقص وغناء وشراب ، بعد تعارف فى هذا الجو المرح الطروب ، ثم يخلون سبيلهم . وعندما تخلو أيديهم من صيد على الطريق ، حيث يكون المساء قد أقبل ، يجمعون خيامهم ومتاعهم ليعودوا للمدينة .

وعندما رأى « ارتينوف » عن قرب ، جمال «أنا» وصباها الآسر الاخاذ ، سارع الى تقديم المعذرة الى « موديست اليكسيفتش » مع أسفه ، اذا كان تصرفهم البرىء قد تسبب فى اثارة أو ازعاج كريمته .

وكم كانت دهشة « ارتينوف » بالغة ، عندما قال له « موديست » ، مستدركا : لعلك تريد أن تقول زوجتى !

كانت الحياة بالنسبة « لأنا » حلقة مفرغة من الضيق والرتابة والملل . وكانت من يوم زواجها تخاف زوجها وتخشاه ، وتطيعه كارهة وهى تزدريه وتنفر من رؤيته

وكان عندما يعود من عمله ، لا يكف ، ولا يمل من

الحديث عن التعيينات في المناصب العليا ، وما يصيب أهل الحظوة من أوسمة ونياشين . وهو اذا شاء أن يتحدث في أمر خلاف هذا الحديث المتكرر ، وجد الطريق مفتوحا أمامه للتحدث عن الاقتصاد في نفقة الدار ، وتدبير شئون المنزل بغير افراط او تفريط ، بل في صرف كل مبلغ مهما قل شأنه في موضعه .

وكان زملاء «موديست» في العمل ، يمضون في داره أمسيات طويلة في لعب الورق . وكان على « أنا » أن تصغي الى زوجاتهم في ثرثرتهن ، واغتيابهن الغائبات بصورة يأباها الخلق الكريم .

خلت يد « أنا » من كل مال فيما عدا الضروري من النفقة على الدار ، التي يراجعها زوجها كل يوم ، للتعرف على ما يصرف من ماله في وجوهه الصحيحة .



وحدث ذات يوم ان زارها أخواها الصغيران ، في دار زوجها الثري . ولما لاحظت « أنا » ما رأن على الشقيقين من تعب المسير وبرد الطريق ، اخذتها بهما الشفقة ، وراحت تعد لهما اليسير من طعام لايشبع ، بل يرد عليهما أنفاسهما اللاهثة ، ويبعث بعض الدفء في أطرافهما المرتعدة .

وما أن تم اعداد هذا اليسير من الطعام ، ووضعته أمامهما على المائدة ، حتى دخل الزوج وهو يزمجر في ثورة واهتياج ، فزع منها الصغيران ، وراح يسب ويلعن « أنا » التي سمحت باستقبال أخويها ، واطعامهما من مأكل داره .

وفي غمضة عين كان الطريق يبتلع الصغيرين ،

ويلفهما الثلج والريح العاصف ، وهما فى طريق العودة الى المنزل الخالى من الدفء والطعام والحنان .

وتمضي الايام على هـذه الرتابة الـكئيبة ، ليحل الشتاء الذى تأخذ الاستعدادات خلاله طريقها لاحيـاء الحفلات التى كانت تبـدأ باقامة « بال » يسهر على اعداده نادى النبلاء .

وقد رأى « موديست اليكسفيتش » ، ان الفرصة قد سنحت لتقديم زوجته الفاتنة الى هـذا المجتمع الارستقراطى الرفيع ، ليبـاهى بجمالها الحضـور من الجنسين .

ولم يكن مدفوعا الى ذلك بعامل ادخال السرور على قلب زوجته الفاتنة ، أو العمل على تسليتها وتعويضها عن حياتها الرتيبة معه ، ولـكنه كان يطمع فى أن يترك جمال زوجته أثره لدى الامير ، رئيس الدولة ، ليصل من وراء ذلك الى ما كان يصبو اليه من مطمع يهون فى سبيله كل غال ، عندما ينجح فى الوصول الى منصب رئيس المجلس الاستشـارى للمقاطعة .

وقد بلغ من اهتمام « موديست اليكسيفتش» بهذا الامر ، انه ترك نظرياته الاقتصادية جانبا ، وفتح قلبه وجيبه لحائكة ثياب زوجته ، وراح يغدق عليها المـال لتشترى لزوجته أغلى ما فى السوق من ثياب ، دون مراعاة لاى عامل آخر .

كان همه منصرفا الى اعداد زوجته لتكون فى اكمل زينة وأتم بهاء ، وليـذهب ما يذهب من مال فى هـذا السبيل ما دام هو الوسيلة الى المجد الذى كان يحلم به ويسعى اليه ويغزل له كل هذا النسيج ..

وفى ليلة « البال » ، كانت « أنا » قد أتمت زينتها وازينت كعروس فى ليلة الجلوة .

وعندما دلفت بجمالها وفتنتها الى الصالة الكبرى ، التى كانت تتلألأ وتسبح فى ضوء الثريات ، وتعج جوانبها بالاحاديث والمرح والموسيقى ، ورأت جمال وجهها البهيج ، وقدها المشوق ، وطرفها الهامس ، تعكسه اليها المرايا التى كانت تملأ طرقات الصالة وجوانبها ، أحست برضى يغمر حنايا نفسها ، ويوغل فى جوانحها، لينقلها الى عالم آخر ، رأته بعين خيالها ، زاخرا بالبهجة ، وواسع الآمال .

وللمرة الاولى أحست بما يشبه اليقين ، من فرط اهتمام من حولها بها ، بمدى سلطان جمالها الآسر .

وراحت تشق طريقها وسط هذا الحشد المرح الطروب ، عالية الجبين ، نافذة النظرة ، مليئة بالثقة التى أحست بها تغلى بين جوانبها وتمور ، لتحطم ما وضعه زوجها من قيود حول حياتها ، وحول ذات وجودها .



فى هذا الحفل الساهر نجحت « انا » فى بلوغ أوج ما كانت تطمع فيه من اثارة اهتمام كل من وقع نظره عليها .

وأخذ الرجال والشبان يتسابقون الى خطب ودها وصداقتها ، وكلهم من علية القوم ، ومن أكثر أهل الجاه علوا .

وكانت نظرات اعجابهم وتقديرهم تترجم عن توسلهم لنيل الحظوة بالرقص معها ، وهى لا تستجيب الا بعد

دلال ، يطيب لهم ، وقد استسلموا الى ما كانت تتدلل به ، خاضعين للواء حسنها العالى الذرى .

ولم تكن فى كل ذلك تحس بوجود زوجها ، أو تأبه له .

وفجأة ظهر « ارتينوف » فى هذا « البال » . وكان هذا اللقاء هو الثالث بينهما . وما أن رآها حتى سارع اليها ، عارضا أن تسمح له برقصة « المازوركا » التى كانت تعزفها الفرقة الموسيقية الاميرية .

ولم تبخل « أنا » على « ارتينوف » بما ارتجاه ، منذ أن قرأت فى عينيه صدق ولعه بها وهيامه البادى.

وكان يبذل كل حيلة ووسيلة ، ليباعد بين المتطلعين اليها ، وبينها ، وليستبقيها الى جانبه كلما استطاع الى ذلك سبيلا .

وفجأة خفتت الاصوات فى الصالة ، وتراجع الجمع المحتشد فى خشوع ، وهم يفسحون الطريق لصاحب السمو الذى أعلنت الابواق ، نبأ تشريفه .

كان صاحب السمو يتهادى فى سيره ، وقد احاطت به حاشيته فى موكب كله جلال واناقة .

وما أن التقت عيناه بعينى « أنا » حتى اختلج بصره، وارتد طرفه لحظات خاطفة ، عاوده بعدها ثبات متحفظ لم يلبث أن تهاوى عندما رأى خطواته تسير به نحوها ، وهو يبتسم لها فى اعجاب وافتتان .

وكان الامير الذى اشتهر بتذوقه الرفيع ، وحسه الدفين فى الكشف عن مكامن الفتنة فى النساء الجميلات ، قد قرت عينه عندما حطت على جمال «أنا»

ادرك ذلك كل المحتشدين فى الصالة الكبرى ، بما فيهم « مودبست اليكسيفتش » زوج « أنا » .

وكان هذا الزوج يقف وراء أحد الاعمدة ، وقد غمره الفرح والاستبشار بما حدث ، ووجد أن العناية تمهد له الطريق أمام أمانيه .

كانت عيناه تبعثان رسائل التوسل لزوجته ، لتستزيد من التلطف والاستجابة لنظرات هذا الامير الرفيع الشأن ، فبين يديه تحقيق طموحه .

وحدث أن إقيمت سوق خيرية ، كانت « أنا » ، منذ أن دخلت بجدارة من أوسع أبواب الطبقة النبيلة فى الولاية ، تبيع فيها الزهور فى سلة أنيقة ، لرواد السوق من الزائرين الاثرياء ، الذين كانوا يرون أنها أينع من كل ما تحمل من ورود وزهور .

وكان المعجبون يحيطون بها ، وفى مقدمتهم «ارتينوف» المتيم الولهان ، الذى غمر السوق بالمال ، كما اشترى منها كل سلة تحملها ، فى سبيل الحظوة منها بابتسامة ، أو همسة أو لفتة .

أما نجاح السوق الخيرية ، فقد كان حديث المدينة ، ولم يسبق أن بلغت حصيلة المبيعات ، مثل ما بلغته هذا العام بفضل جمال « أنا » .



فى صباح ليلة السوق الخيرية ، عندما كانت « أنا » تنام فى جناحها المستقل ، كانت حجرات الاستقبال تضيق بسلال الازهار التى بعث بها المعجبون .

وكان الزائرون يفدون الى الدار الانيقة ، واحدا تلو الآخر ، دون أن ينال أحد منهم شرف لقائها .

أما « ارتينوف » فقد كان هو الوحيد الذى أتاح له ماله المتدفق على الخدم والوصـيفات ، السبيل الى لقائها .

وعندما جلس « ارتينوف » الى جوار « أنا » وقد ضـمهما حديث هامس ، كان الزوج « موديست الـكسيفتش » يبتسم « لارتينوف » ابتسامة مجاملة ، لم تلبث عند انصرافه أن انقلبت الى نظرة حاقدةكارهة، أوقفها عند حدها ، وجود زوجته « أنا » .

على ان هـذا الزوج ، سرعان ما غرق فى سـعادة غامرة ، عندما استقبل الامير ، الذى حضر الى داره ، ليشكر « أنا » على مساهمتها فى هـذه السـوق التى نجحت بفضلها .

وبعـد أن جلس قليـلا يتحدث الى « أنا » ، هم بالانصراف ، وفى وداعه الى الباب الخارجى ، كانالزوج يستمع من الامير الى اكثر مما كان يحلم به .

طلب الامير من « موديست » أن يسمح له بالتردد على داره كصديق للأسرة ، فأجاب الزوج بأن ذلك يعد أكبر شرف يسعى اليه أى نبيـل ويحظى من ينـاله بالسعادة والتكريم .

وجد الزوج « موديست » أن الحظ يسير فى ركابه ، وان خطته أخذت تؤتى ثمرها .

***

سلـكت « أنا » فى حياتها الجديدة ، طريقا غريبا عما ألفته ، ومخالفا لما درجت عليه فى سابق حياتها .

لم تكن تملك يوما واحدا تعيشه لنفسها ، لازدحام أوقاتها بمختلف المواعيد والحفلات .

فمن خروج الى الخلاء فى حفلات صيد ، الى رحلات لمضارب الفجر ، لمشاهدة رقصاتهم وألعابهم ، وحياتهم الخاصة على سجيتها .

كذلك كانت تؤم سباقات تقام للخيول وتجلس للتحكيم فى حفلات راقصة وترتاد الملاهى ، والمراقص ، والمسارح ودور الاوبرا . واندفعت فى هذا المجال الى آخر مداه .

وكان « أرتينوف » هو الملازم الدائم « لأنا » فى هذه الاماكن .

وكانت كلما تقلبت فى نعيم هذه الحياة وزخرفها ، أحست بأنها انما خلقت لهذه الحياة الصاخبة الضاحكة اللعوب ، التى تملأ جنباتها الموسيقى والرقص ومواكب المعجبين .



ومن ذلك اليوم الاول ، الذى تألقت فيه ، فى حفل « البال » الراقص ، وأدركت ما لجمالها من سلطان آسر ، زالت عنها خشيتها من زوجها ، وارتدت الى خشيته هو منها ، حتى لقد كان يرضى منها بأن تصفه بالغفلة والضعف والغباء ، وتنفر منه كلما اقترب منها ، وتطرده من حضرتها اذا أصر على البقاء .

وكان الزوج الطامح ، ينظر اليها نظرة المحتاج لمن بيده مفاتيح سعادته وتحقيق رغباته ، دون ما نظر الى ما كان يبذله من ماء وجهه وما كان يتقبله من جارح القول لهوان شأنه وضياع كرامته .

وكان هذا الشعور نحوها ، يحمله على التعلق بها والتزلف اليها ، مهما تمادت فى احتقاره وجرح كبريائه التى زايلته .

وشاء الأمير أن يظهر عطفه على الزوج «موديست» ، فقصد الى داره ، ليمنحه وساما أسمه « وسام أنا » من الطبقة الثانية ، وهو أنعام كان «موديست» يصبو اليه ويبتغيه ، لانه يقارب بينه وبين مطمعه وطموحه.

وعندما هم الامير بوضع ربطة الوسام حول رقبة «موديست» التى كان يتدلى منها « وسام أنا » من الطبقة الثالثة ، قال له مازحا :

« انك الآن تحمل ثلاث طبقات من « وسام أنا » :

أولهما ما كنت تحمله ، وهو من الطبقة الثالثة ، ثم هذا الوسام الذى أعلقه الآن ، وهو من الطبقة الثانية ، أما « وسام أنا » من الطبقة الاولى ، وابتسم ابتسامة ذات معنى ، فهو زوجتك « أنا » ...

وعلى الرغم من العواصف الثلجية التى اشتدت وعلا صفيرها خارج الدار ، الا أن الرجلين كانا فى أعلا درجات الغبطة والمرح .

أما « أنا » ، فقد أكسبتها راحتها النفسية ، دفئا وحرارة إنعكسا على صفحة وجهها الجميل ، الذى ازداد فتنة وحيوية ، ينضحان بما امتلأت به جوانحها من ثقة واعتداد .

وكأنما حياتها الجديدة ، ومباهجها المتنوعة ، ونظرات المعجبين بها ، وسيطرتها على من حولها ، قد أقامت سدا بين كل هذه المناعم ، وبين ما كان يثقل فكرها من هم الفكر فيما كانت فيه هى وأبوها وأخواها ، وماكان يحيط بهم من قسوة العيش وتجهم الحياة .

وسرعان ما انمحت من ذاكرتها صورة الموظف المكلف ببيع منقولات بيت والدها سدادا لديون العائلة ، كما

تلاشت من فكرها ذكرى آخر زيارة لهذا الموظف ، الذى قدم الى الدار ، ليأخذ آخر ما كان بها وهو «أورغون» كان صـــــاحب البيت ـ والد « أنا » ـ يلتمس من الحمالين ، دقائق يعزف عليه للمرة الاخيرة لحنا اثيرا عنده ، طالما سكب على روحه بعض العزاء والسلوى .

فلمـــــا انتهى من عزفه ، هرع الحمالون ، ورفعوا « الاورغون » الذى تعرى البيت من بعده ، من كل أثاث .

خرج الاب المترنح مع ولديه الى العراء ، حيث الثلوج الهاطلة ، والعواصف الصاخبة ، وهم فى ثياب مهلهلة ، لا ترد ريحا ، ولا تبعث دفئا .

وفجأة برزت على الطريق ، أمام هذا الثلاثى المشرد البائس ، عربة من عربات الانزلاق على الجليد ، التى تجرها الجياد المطهمة الفارهة ، وقد جلس على مقعدها ، رجل وانثى .

ولم يكن وجه الانثى غريبا عن « بيوترليونيفتش » والد « أنا » ، حيث كانت هى بعينها ، ابنته .

انطلق المسكين ، يصرخ هاتفا باسم ابنته الحبيبة ، ويناديها نداء يائسا متواصلا : « انا .. انا .. أنا » ضاع هو وصداه ، بين جلبة العربة ، وضحكات «انا» اللاهيـــة عنه ، والغافلة عن أخويها الشقيين ، بحياتها الجديدة العابثة ، فى صـــحبة عاشـــقها « ارتينوف » الثرى المستهتر اللاهى .

مـوبـاسـات

(١٨٥٠ - ١٨٩٣)

يعد «هنرى رينيه البير جى دى موباسان» الروائى الفرنسى ، من اشهر والمع كتاب القصة القصيرة فىالعالم

ولعله تميز عمن سبقه أو لحقه من كتاب القصة ، بقدرة خارقة لا تجارى ، علىالملاحظة الدقيقة، والتعمق فيما يرى ، تعمقا يكتنف كل شىء ، ويكشف عن كل شىء .

لقد شبهه بعض النقاد ، بعالم من علماء الحشرات الذى يستعين بالمجهر فى دراساته وتجاربه ، ليرى ما يريد الكشف عنه واضحا وضوحا لا لبس فيه .

ولم يكن يفترق « دى موباسان » عن هؤلاء العلماء ، الا فى أنه كان يتخذ من الانسان ، وسيلة لدراساته ، حيث يجرى عليه التجارب ، ويتوغل فى أعماقه ليرى بواعث اعماله ونوازع تصرفاته .

ورغم ان اتزان عقله قد أصابه الخلل والوهن ، وانعكس على ما كان يكتب من قصص ، فانه استمر فى عمله ، وأخرج قصصا هى فىعالم الادب تحف وروائع، رغم ما كان يكتنفها من تشاؤم وأسى وارتياب وغرابة.

كان يطيل النظر فى أعمال «جوستاف فلوبير » الذى

كان يتخذه نموذجا له فى أعماله ، ويشهد له بالاستاذية والزعامة فى أعماله الادبية والقصصية .

كانت أولى قصصه المنشورة ، « كرة الشحم » ، التى استلهم موضوعها من أحداث الحرب الروسية عام ١٨٧٠ .

وقد نظم الشعر وصدر له ديوان . كما زاول كتابة المسرحيات والروايات الطويلة ، الا أن قصصه القصيرة ، هى التى أضفت عليه المجد والشهرة اللذين لم ينعم بهما ، وأن كان عاش بعد وفاته ، خالدا فى عقول وقلوب الذين يقرأون قصصه .

وكان غريب الاطوار . فقد كان يكره أن يرى صورة له . كما كان لا يكره شيئا قدر كرهه لذكر الموت ، الذى يرتجف عند سماعه خبرا لوفاة من يعرف أو من لا يعرف .

ولقد جن له أخ شقيق ، وتوفى مجنونا بعد أن أصيب مخه بمرض قضى عليه .

ومنذ ذلك الحين ، وفكرة الجنون لا تبارحه. وكان بسبب كثرة تفكيره فى الجنون ، أن سكب افكاره وتصوراته فى قصة « الهورلا » ، التى اهتم فيها بوصف مشاعر وأحاسيس رجل يوشك أن يلحقه الجنون

وقد تنبأ له كثيرون ممن كانوا يحيطون به بمصيره ، وصدقوا بعد حين فيما تنبأوا به .

فما أن وافى عام ١٨٩٠ ، حتى اختلت قواه العقلية، ولم يلبث أن أصيب بشلل اقعده ، وحال بينه وبين الكتابة .

ولم يطل به الوقت ، حتى جن جنونا مطبقا ، قاده

اليه اسرافه البالغ فى الانغماس فى الملـذات انغماسـا بافراط لم يترفق فيه ببدنه وعقله ، الى جانب انكبابه على العمل دون أن يعطى نفسه حقها من الراحة .

ولم يكن يعرف الوسط أو الاعتدال فى لهو أو قصف أو عمل .

ولم يعش طويلا ، فقد وافاه أجله عام ١٨٩٣. وكان واقعى المذهب . وقد انساق وراء هذه العقيدة التى قادته الى ارتياد الاماكن المشبوهة ، واقتراف مختلف المعاصى الحسية ، بحثا وراء الحقيقة التى نذر نفســه للـكشف عنها للناس ، ليريهم حقـائق الامور ، التى تكشفت له نتيجة للتجربة الذاتية ، كما جاءت انعكاسا لمشاعر صادقة من التذوق والحس والممارسة والمعاناة

والقارىء يلمس فلسفته متناثرة فى أعماله القصصية. وكان قاسيا فى أحكامه على المرأة . ولم يكن يرحمها ، بل كان دائما ينسج قصصه على غدرها وخيانتها .

والمطلع على انتاجه القصصى ، يبهره منه ، عرضــه لعوالم مليئة بالمرئيات والـكائنات التى تتحرك بينها ، وهى كلها وليدة نظرته لامور تجرى حوله ، لا يأبه لها غيره .

وكان من معجزاته التى احتفظ بها لنفســه ، انه يخلق من أمر تافه ، لا يعيره الشـخص العـادى اى أهتمام ، مادة غالية ، مليئة بالصور الادبية الرفيعة ، والتحليل النفسي والملاحظة الدقيقة ، الى جانب أسلوب شاعرى رقيق النسج ، دقيق العبارة ، سهل البيان ، وان كان صعب التقليد .

العقد الماسي

كانت في جمالها ورشاقتها ، فلتة من فلتات القدر، وهي التي نبتت في اسرة من أسر العمال الكادحين .

لم تكن تملك « دوطة » ، أو يراودها أدنى أمل أو ترى أية وسيلة تقودها الى طريق الشهرة والجاه ، لتغدو مهوى أفئدة الناس ، ولتؤهلها هذه المزايا ، للزواج من رجل واسع الثراء ، عظيم الشأن .

ولكن شاء لها قدرها أن تصبح من نصيب موظف بسيط يعمل في وزارة المعارف العمومية .

وكانت تحيط نفسها ببساطة طبيعية ، تفردت ، بها دون مثيل أو قرين . الا ان نشأتها وانتماءها لقاع المجتمع ، كانت حجر عثرة ، من فعل قدرها وحظها.

والملاحظ أن النساء اللواتي يولدن عاطلات من الانتساب لطبقة عالية أو أصل عريق ، يغدو جمالهن وفتنتهن ورشاقتهن ، بدائل تغنيها عن الانتماء لطبقة راقية أو أصل رفيع .

كما تغدو هذه الفتنة والرشاقة التي يرفلن في عالمها ، هي الميراث الوحيد ، الذي يخلق من بنات الشعب ، نساء يطاولن على درب الحياة ، أعظم السيدات شأنا.

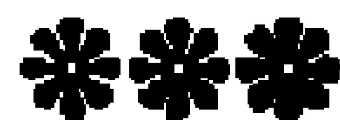
كان عذابها لاينقطع . فقــد كانت تحس بأنها خلقت لتعيش وسط كل ما هو رشيق وغال وثمين .

وكم كانت تقاسى من رؤيتها لمنزلها الذى تعرى من كل جمال أو ذوق .

كانت جدران المنزل متهالكة ، وكان أثاث الحجرات مستهلكا ، ومتداعيا ، وأقمشة الرياش لحقها البلى من فرط القدم .

على أن كل هذا الذى كانت تعانى منه ، لو صـــادفته احدى بنات طبقتها ، لما أحست بعنائها وعذابها .

وربما كان الشىء الوحيد المتواضع الذى ترتاح اليه مما تملك ، يتمثل فى « عروسة » كانت تلبس ملابس مقاطعة « بريتانى » ، وهى التى كانت تحملها على أن تطير على أجنحة الخيال ، وتحلم بعوالم لا سبيل الى الوصول اليها .



كانت تحلم بالصالونات الوثيرة ، ذات الرياش الفريد الصنع ، الذى يسبح فى ألوان زاهيــة شرقية ، تتلألأ تحت أضواء ثريات من البرنز ، تتدلى من ســـــقوف الصالونات .

وكانت ترى بعين خيــالها فى مثل هــذه الاحلام ، دميتين تمثلان وصيفين ، يجلسان فى اســترخاء على المقــاعد الوثيرة ، فى ملابســهما التقليــدية الملتصــــقة بأجسادهما ، وقد استسلما لنعاس لذيذ ، مبعثه دفء ينساب من موقد التدفئة .

كانت ترى فى هـــــــذه الاحلام أبهاء متسمة تضم صالونات مؤثثة بأفخر الرياش المتسربل فى حرائر أصيلة بارعة الصنع .

وكانت التماثيل النـادرة و « البيلوهات » الثمينة الغالية ، تزين هذه الصالونات الوسيعة ، بينما قامت الى جانبها صالونات أخرى صـغيرة معطرة ، معـدة لاحاديث طويلة مع الصديقات الحميمات الاثيرات لديها، وبالرجال من أهل الشهرة والجاه ، حتى لتكاد عيون كل النسـاء من حولها يحسدنها ، كما تحس بأن ما هى فيه من سمو خليق بجذب أنظارهن .

***

عندما حان وقت العشـاء ، جلست مع زوجها حول المـائدة المستديرة ، التى يكسوها مفرش لم تتنـاوله يد التغيير منذ ثلاثة أيام .

كان الزوج يجلس قبالتها ، وقد انهمك فى رفع غطاء آنية الحساء ، عندما ندت عنه آهة فرحة ، أعجبتهـا قوله : « ما أطيب الطعام الساخن ، لا أحسب أن هناك شيئا اشهى منه » .

أما هى ، فقـد كانت مسترسلة فى احلام يقظـة ، حملتها على جناحيها الى مآدب فاخرة ، أدوات المائدة فيها كلها فضية متلألئة ، وقد افترشت أرض الحجرة سجاجيد تحمل رسوما لشخصيات من العهود الغابرة وقد احتشدت فيها صور طيور نادرة وسط غابة حالمة خيالية .

كانت الاطباق التى حلمت بها ، يدور بها خدم مهرة ، لا ينطقون الا همسا ، وهم يستمعون الى ما يلقى اليهم بابتسامة غامضة .

وكان كل ما يقـدم على المـائدة ، اما من الاسماك الفاخرة الوردية ، أو من لحوم الطيور الغالية .

لم تكن الزوجة تملك شيئا من أدوات الزينة ، أو من المجوهرات . وهي التي لا تحب من عيشها الا هذه الادوات ، ولا تطيب نفسها الا بها .

فقد كانت تهوى أن تحيطها عيون تغبطها وتحسدها، وباناس يخطبون ودها .

وكان لها من بين زميلات الدراسة ، صديقة ثرية . ولم تكن تحب أن تزورها فى بيتها ، منذ أن أحست بأنها فى كل مرة تزورها ، تعود الى بيتها باكية حزينة ، وتبقى أسيرة هذا الاسى والاسف والشجن أياما طوالا .

وذات مساء عاد زوجها الى المنزل ، وفى ركابه نشوة الانتصار . وقد ناداها ، وهو يحمل فى يده غلافا كبيرا، وراح يقول لها ، انه يحمل اليها شيئا يخصها .

فتح الغلاف بحماس ، وناولها بطاقة مطبوعة تحمل هذه الكلمات :

« يتشرف وزير المعارف العمومية ومدام جورج رامبانو ، بدعوة مسيو ومدام « لوازيل» لقضاء سهرة بدار الوزارة مساء يوم الاثنين الموافق ١٨ » .

وبدلا من أن يرى ، على حد تصوره ، تهليل زوجته وفرحتها وجدها تلقى على المائدة بطاقة الدعوة مع همهمة ، أودعتها قولها :

ـ ماذا تريدنى أن افعل بهذه الدعوة ؟

ـ ولكن ياعزيزتى ، لقد كنت أظن أنها سوف تسعدك فانت لا تغادرين الدار ، وهذه فرصة لك ، وفرصة عظيمة .

لقد بذلت جهدا كبيرا للحصول على هذه الدعوة . فالراغبون فيها كثيرون ، ولا يحظى بها الا قلة من

الموظفين ، وسوف ترين فيها أغلب الرسميين .

رنت اليه بعيون مجهدة وهى تقول بصبر نافد :

ـ وماذا تحب أن أرتدى من الملابس ، للذهاب الى تلك السهرة ؟

تلعثم لمفاجأته بما لم يكن قد فكر فيه ، ثم أجاب :

ـ تذهبين بروب السهرة الذى ارتديته عند ذهابك للمسرح ! وفى اعتقادى انه رائع .

ولـكنه سرعانما ارتبك وشملته الحيرة ، عندما رأى زوجته وهى تبكى . لقد رأى دمعتين كبيرتين تنزلقان من جانب عينيهـــا الى جوانب ثغرها ، وراح يقول بسذاجة وارتباك :

ما الذى جرى ؟ ما الذى جرى ؟

وبجهـــد بالغ ، استطاعت أن تتغلب على المها ، وأن تجفف خديها ، وهى تقول بصوت هادىء :

حسنا . ولـكننى لا أملك « روبا » للسهرة . ومن أجل ذلك لا أستطيع أن البى دعوة هذه السهرة . وفى استطاعتك ان تتنازل عنها لاحد الزملاء ممن تستطيع زوجته أن تكون احسن مظهرا وأناقة منى .

أسقط فى يده ، ولـكنه عاد ليقول :

اسمعى يا ماتيلد . كم يكلف الروب اللائق ، الذى يمكن أن ترتديه فى مناسبات أخرى ؟

انتعشت الزوجـة لبضـع ثوان ، وراحت تدير فى راسها حساباتها ، على أن تكون فى حدود لايعترض عليها ويرفضها بمجرد سماعها من كان على شاكلته كموظف محدود المرتب .

اجابته أخيرا بشىء من التردد :

لا أستطيــع أن أقدر مبلغا على وجــه التحديد ،

ولــكنى أعتقد أن مبلغ أربعمائة فرنك يكفى لهذا الفرض

علت وجه الزوج صفرة ، مبعثها أنه كان يقتصد مثل هــذا المبلغ تماما ، ليشترى به بندقية صيد وليشترك فى احدى جمعيات الصيد ، فى الصيف القادم للذهاب الى برارى « نانتير » مع بعض الاصدقاء لصيد الطيور فى عطلة يوم الاحد .

راح يجيب عليها بقوله :

ــ فليكن. سأعطيك هذه الاربعمائة فرنك ، واحرصى على أن يكون الروب جميلا ولائقا .

اقترب يوم الدعوة الساهرة ، وكان يحمل معه لمدام « لوازيل » التعاسة والقلق والحيرة . وقد كان الروب جاهزا ، واحتار زوجها الذى قال لها ذات ليلة :

ــ ماذا جرى ؟ منذ ثلاثة أيام وانت منطوية وفى أسى.

فأجابته بقولها :

ــ أن افتقــارى الى أى قطعــة من المجوهرات او الاحجار الــكريمة مما يبعث فى نفسى الضيق والحسرة. بماذا أتزين ؟ سوف أبدو فى مظهر بائس . انى أفضل الا أذهب لهذه السهرة .

ــ ضعى زهورا طبيعية . انها رشيقة فى هذا الموسم

وفى مقابل عشرة فرنكات ، تستطيعين الحصول على ثلاث وردات جميلة ناضرة .

لم يستطع أن يقنعها بهذا القول .

ــ لا .. ليس هناك ما هو آلم للنفس من الظهور وسط جو ثرى راق بمظهر فقير بائس .

وعند ذلك صاح زوجها :

ـ يا لك من غبية ! اذهبى الى صديقتك « مدام فوريستير » واستعيرى منها شيئا من مجوهراتها . سارعى اليها لاتمام هذا الامر !

ندت عنها صرخة فرح ، وراحت تقول :

ـ هذا صحيح . ولم يخطر ذلك ببالى مطلقا .

فى اليوم التالى ، ذهبت الزوجة الى منزل صديقتها وسردت على سمعها ما هى فيه من مأزق .

وعلى الفور اتجهت مدام « فوريستير » نحو دولاب بمرآة واخرجت منه صندوقا كبيرا ، وعادت اليها لتفتحه أمامها وهى تقول لها :

ـ اختارى ما تشائين ياعزيزتى .

وضعت « ماتيلد » فى معصميها سوارين ، ثم عقدا من اللؤلؤ ، ثم صليبا من صناعة فينيسيا الدقيقة من ذهب وأحجار كريمة . وراحت تستعرض زينتها أمام المرآة ، وأحاط بها تردد مأتاه عدم قدرتها على تقرير، ماذا تدع وماذا تأخذ .

وكانت تكرر سؤالها لصديقتها :

ـ أليس لديك شيئا آخر ؟

ـ لدى بالطبع . ابحثى بنفسك . فلست أدرى ما الذى يحظى باعجابك .

وفجأة ، وقع نظرها على علبة من الساتان الاسود، تحتوى على عقد فاخر من الماس . وأحست بسرعة دقات قلبها ، وبرغبة جامحة تجتاحها .

كانت يداها ترتعشان وهى تتناول العقد ، لتلف به رقبتها ، التى تنبثق من روب مما ترتفع ياقته . وظلت برهة وهى فى حالة ذهول أمام منظرها فى المرآة .

واخـيرا ، ومع تردد ، قالت وهى تغالب ضـيقها البالغ :

ـ هل أستطيع أن أستعير منك هـذا العقد ، ولا شيء سواه ؟

ـ بكل تأكيد أوافق .

اظهرت امتنانها لصديقتها ، واحتضنتها ، وغادرت دارها وهى تسرع الخطى وقد حملت معها كنزها الثمين

وحلت ليلة العيـد . وكان نجاح « مدام لوازيل » ساحقا . فقد كانت أجمـل وأرشق وافتن من كل الموجودات . وكانت تبدو ضاحكة وقد فاض من وجهها الفرح .

وكانت مهوى أنظار الرجـال الذين تساءلوا عمن تكون ، لتكون ضيفتهم فى مناسباتهم .

وقد رغب كل موظفى مكتب الوزير فى رقصـة « فالس » معهـا كما ان الوزير كذلك كان يلاحظهـا ويرمقها بعينيه .

كانت ترقص بنشوة وبكل فتنة ، واستخفتها الفرحة فلم تعد تحس الا بغلبة جمالها ، وتشعر بعظمة نجاحها، وكأنما قد ظللتها سحابة من السـعادة ، حتى لقد استيقظ داخلها كل التقدير والاعجاب ، من خلال هذا النجاح البالغ الذى تهش له قلوب النسـاء .

لقد غادرت الحفل السـاهر ، فى السـاعة الرابعة صباحا ، فى حين كان زوجها قد استسلم هو وثلاثة من الرجال للنوم فى صالون صغير .

وكان قد وضع على كتفيـه ، معطفـه الذى أحضره ليلبسه عنـد الخروج ، وهو من قماش متواضـع ،

يتمشى مع الحياة العادية ولكنه يتعارض مع فخامة « البال » الذى لا مكان للفقر فيه .

لقد احست هى بذلك ، وودت لو استطاعت الفرار حتى لا يلحظ هذا الرداء ، اولئك السيدات الملتفات بالغالى من الفراء .

استوقفها « لوازيل » وهو يقول لها :

ـ انتظرى لحظة ، فسوف تصابين بالبرد ، وسأحضر عربة ولكنها لم تستمع لحرف مما فاه به ، وهبطت الدرج مسرعة . وعندما بلغا الطريق ، لم يجدا عربة . وظلا فترة يبحثان عن عربة يعودان بها ، وكانا يصيحان فى طلب عربة من العربات التى كانت تمر بعيدا عنهما .

وكانا يتجهان فى سيرهما نحو السين ، وقد فقدا الامل واشتملتهما رعدة البرد . واخيرا عثرا على شاطىء النهر ، على عربة قديمة من العربات « الكومبيل » ، التى لا تتجول فى باريس الا عندما يهبط المساء ، ليسترها ظلامه ، وكأنما يحول ما هى عليه من تعاسة وقدم ، دون رؤيتها نهارا .

حملتهما العربة الى دارهما بشارع « لامارتير » ، ودخلا دارهما وقد حطت عليهما التعاسة . فقد انتهى وولى ما كانت فيه ، أما هو ، فقد كان يفكر فى الموعد الذى يتعين أن يكون فيه بالوزارة ، وهو العاشرة صباحا .

راحت تخلع ملابسها التى كانت ترتديها ، بعد أن القت أمام المرآة نظرة الى ما كانت عليه من عظمة .

وفجأة صدرت عنها صرخة فزع ، فقد اختفى العقد

المـاسي الذي كان يلتف حول رقبتها .

واخذ زوجها الذي كان يغالب النوم ، يسألها :

ــ ما الذي جرى ؟

استدارت نحوه وهي مذعورة وأجابته بقولها :

ــ انني... انني... اضعت عقد مدام «فورستير» المـاسي .

وراح يسألها بذهول :

ــ ماذا ..؟ وكيف ..! هذا مستحيل !

مضـيا يبحثان في ثنايا كل جزء من ملابسـهما وفي « المـانتو » وفي الجيوب وفي كل مكان دون جدوى .

سألها الزوج :

ــ هل انت واثقة من أنه كان موجودا عند مغادرتك « البال » ؟

ــ نعم . وقد وضعت يدي عليه ونحن في مدخل الوزارة .

ــ لو أنه سقط في الطريق لـكنا سـمعنا صـوت ارتطامه . وعلى ذلك ، فربما يكون وقع في العربة .

ــ نعم . هذا أمر محتمل . هل تتذكر رقم العربة ؟

ــ لا .. وانت هل تتذكرين ؟

ــ لا ..

وظلا مشدوهين مدة . ثم أخذ « لوازيل » يرتدي ملابسـه .

وقال لزوجته :

ــ سأمضي الى الطرقات التي قطعناها سـيرا على الاقدام لعلني أعثر عليه .

وغادر الدار . أما هي فقـــد ظلت مرتدية روب

السهرة ، دون رغبة فى النوم ، وارتمت على كرسى ، وقد بارحها كل حماس وعقل .

عاد زوجها فى الساعة السابعة صباحا ، دون أن يجد شيئا . وراح يتردد على دوائر البوليس وعلى الصحف ، واعدا بدفع مكافأة مجزية ، كما قصد أصحاب العربات الصغيرة ، ولم يترك مكانا يمكن أن يطل منه شعاع من الامل دون أن يقصده .

ظلت فى انتظار ، وفى نفس الوضع الذى كانت عليه فى الدار عندما وقعت هذه الكارثة المثيرة .

وعاد « لوازيل » فى المساء ، وقد ارتسمت على ملامحه علامات القنوط والشحوب . ولم تظهر اى بادرة عن وجود العقد المفقود .

قال الزوج مخاطبا زوجته ، أن عليها أن تكتب لصديقتها خطابا تذكر لها فيه أنها قد أتلفت خطأ محبس العقد وسوف تعمل على اصلاحه ، وبهذا يكون لدينا الوقت لحين اعادته .

كتبت الزوجة ما املاه عليها الزوج .

وعند نهاية أسبوع من ذلك اليوم ، ضاع كل أمل فى العثور على العقد . وقد قال الزوج « لوازيل » الذى بدا أكبر من عمره بخمس سنوات :

« علينا أن نتوصل الى اعادة مثيل للعقد المفقود » .

وفى اليوم التالى ، حملا معهما علبة المجوهرات التى كانت تضم العقد ، وقصدا محل بيع المجوهرات الذى دلهما عليه ، الاسم المدون على العلبة :

وبعد أن فحص الرجل العلبة ، صرح لهما بأنه لم يبع هذا العقد ، وان كنت أنا الذى أعددت العلبة .

هكذا أخـذا يتنقلان من محل مجوهرات الى آخر للبحث عن شبيه ومثيل للعقد المفقود ، حتى أخذ منهما التعب والمجهود المصحوب بالاسى والاكتئاب .

وفى أحد محال المجوهرات فى حى « باليه رويال » وجدا ضالتهما فى صـورة عقـد ماسى كامل الشـبه بما كانا يبحثان عنه .

طلب الرجل اربعين الف فرنك ثمنا للعقد ، هبطت الى ست وثلاثين ألف ، قبل الرجل بها .

وقد تقدما ، بعد الموافقة ، برجاء للبائع بأن لايتصرف ببيع العقد خلال ثلاثة أيام . كما اشترطا على البائع ، انهما فى حـالة العثور على العقـد المفقود ، فسوف يعيدان اليه هذا العقد ، المشتري منه ، بمبلغ أربعـة وثلاثين الف فرنك ، وذلك فى مدة تنتهى بنهاية شـهر فبراير .

كان « لوازيل » يمتلك ثمانيـة عشر ألف فرنك ، ورثها عن والده . وراح يستدين لتغطية المبلغ الباقى . يستدين من زميل ألف فرنك ومن رجل آخر ألف أخرى ومبالغ صغيرة أخرى من معارفه . وقد دخل فى عمليات خاسرة ، واشتغل بأعمال بسيطة ومهن مزرية ، حتى أتى على البقيـة الباقيـة من مقاومته ، مع تعريضـه بالمهانة لـكرامته ، اذا كان قد بقى شيء منها . واكمل المبلغ عن طريق تحرير كمبيالات .

وكان يرى بعين الفاقة والعوز ، مستقبلا أسـودا قاتما ، منذ أن خسر واضـاع كل قدرة ، ومنـذ أن تعرض للعذابات النفسية . وكان عليه أن يقصد تاجر المجوهرات ، حيث وضع أمامه مبلغ ست وثلاثين الف فرنك نقداً .

وعندما حملت مدام « لوازيل » العقد المـاسى الى صديقتها « مدام فوريستير» ، قالت لها هذه الصديقة بلهجة ساخرة وباردة :

« كنت أبلغتينى انك ستعيدين العقد فى وقت قريب، فربما كنت فى حاجة اليه خلال هذه المدة » .

لم تفتـح مدام « فوريستير » العلبـة التى ثارت بسببها كل هـــذه المخاوف والارتياب والشكوك . ولو أنها توصلت الى معرفة ما جرى بتفاصيله ، فماذا كانت تظن ؟ وماذا كانت ســـتقول ؟ ألم يكن من المستطاع أن تعتبرها سارقة ؟

لقد جربت « مدام لوازيل » شدائد حيـــاة العوز والحاجة . وقد حملت نصيبها منها بكل شجاعة. وكان عليها أن تدفع هذا الدين المخيف . وسوف تستمر فى الدفع .

وقد استغنت عن الخادمة . وانتقلت الى دار أقل نفقة . وقد اتخذا من حجرات متواضعة ، فى السطوح سكنا لهما « أتيك » . لقد عرفت السبيل الى الاعمال الشاقة ، من تنظيف وترتيب البيت ، الى ما يحتاجه المطبخ من أعمال .

وكانت تغســل الاوانى والملابس ، وكانت تستعمل أظافرها الوردية فى تلميع « كاسارولات » المطبخ .

وكان عليها أن تغسل بالمـاء والصابون ما تتسخ من الستائر ومن القمصان والملابس الداخلية ، التى تدعها كى تجف بعد نشرها على الحبل المخصص لذلك .

وكانت تنزل الى الشـــارع لتلقى مخلفات المطبخ فى صندوق القمامة فى جانب الطريق كل صباح ، وتحمل

معها الماء لتصعد به الى السطوح ، مع التوقف عند كل طابق ، لتلتقط أنفاسها .

أما ملابسها ، فكانت مما تلبسه عامة النســاء من الشعب .

وكانت تنتقل بين محلات البقالة والجزارة والفاكهة، وتعود وبين يديها الخبز ، وهى فى كل ذلك تدقق فى الشراء حتى تحمى مالها القليل من السرف .

وكانت فى كل شهر تستبدل كمبيالات بأخرى ، أطول مدى كسبا لوقت السداد .

وكان الزوج يشتغل فى الامسيات بمسك دفاتر أحد التجار ، أما فى الليل فانه كان ينسخ فيه ما يطلب منه نسخه مقابل ما يعادل قرشا واحدا فى الصفحة .

واستمرت هذه الحياة عشر سنوات .

وعند نهاية السنوات العشر ، كانا قد تمكنا من سداد كل ما كانا مطالبين به ، ومع المشقة والجهد ، استطاعا أن يدفعا الدين كله الذى كانت فوائده عالية وباهظة .

غدت « مدام لوازيل » بعد كل هذا الشقاء ، مسنة، وقد حولتها الأعمال الشــاقة المزرية التى كانت تقوم بها ، الى امرأة قوية البنية وخشنة الهيأة .

كانت ترتدى ملابس و «جونيلات» ، تنورات العاملات واكتسب العمل اليدوى يديها حمرة ، كما أصبح صوتها مرتفعا عنــدما تتحدث . وكم كانت تشقى فى غســل أرضيات الحجرات .

وذات يوم ، عندما كان زوجها فى المـكتب ، اطلت من الشباك ، وسبح فكرها مع تلك الليلة الساهرة ، ليلة « البال » ، عندما كانت بالغة الحسن والرشاقة .

ماذا كان يحدث ، لو أنها لم تفقد ذلك العقد الماسي؟ من يدرى ؟ من يدرى ؟ ما أعجب الدنيا فى غرابتها وفى تغيرها ؟

من الواجب الحتم ، الا يمتلك الانسان ، الا القليل الذى لا يهم ضياعه أو بقاؤه !

وبينما كانت فى يوم من أيام الآحاد ، تتجول فى « الشانزيليزيه » لمشترى ضروريات الاسبوع ، وقع نظرها فجأة على سيدة تقوم بمصاحبة صبى للنزهة فى هذه النواحى .

لقد كانت « مدام فوريستير » ، بكل ما كانت عليه من الشباب والجمال والاناقة .

أحست « مدام لوازيل » بالضيق . هل تذهب لمحادثتها ؟ بكل تأكيد ، وليس هناك ما يمنع من ذلك. أما وقد أتمت دفع كل شيء ، فيمكن أن تحكى لها ما وقع . ماذا يمنع ؟

اقتربت منها :

ـ صباح الخير ياجين .

ولكن السيدة لم تعرفها اطلاقا ، كما أثار دهشتها رفع الكلفة بينهما ، ومناداتها باسمها من هذه البورجوازية .

وبعد أن ترددت وتلعثمت قالت :

ـ ولكن .. ياسيدتى !.. انى لا أعرف .. ولابد أن يكون الامر قد التبس عليك .

ـ لا .. اننى « ماتيلد لوازيل » .

ندت من صديقتها صرخة :

ـ أوه .. عزيزتى « ماتيلد » المسكينة . ما أكثر ما تغيرت !..

ــ هذا صحيح . فقد مررت فى أيام شاقة ، ولم أكن أراك فيها . ما أكثر ما عانيت من شقاء .. وكل ذلك كان بسببك .

ــ بسببى أنا ؟.. كيف حدث هذا ؟..

ــ لعلك تذكرين ذلك العقد الماسي الذى استعرته منك ، لاذهب به الى الحفل الساهر الذى أقيم بالوزارة

ــ نعم أذكر ذلك . فماذا حدث ؟

ــ الذى حدث انى فقدت العقد .

ــ ولكن كيف !.. لقد أعدت لى ثانية ذلك العقد

ــ ان الذى أحضرته أليك كان شبيها للمفقود .

ومنذ عشر سنوات ونحن ندفع الاقساط والديون ، ولعلك تدركين ان ذلك لم يكن بالامر اليسير بالنسبة لنا . فنحن لا نملك شيئا .

وعلى أي حال ، لقد انقضى هذا الامر ، وكيفما كان الحال ، فاني راضية .

شرد فكر « مدام فورستير » لحظة ، وما لبث أن قالت :

هل قلت انك اشتريت عقدا ماسيا بدلا من عقدى الذى استعرته ؟

ــ نعم .. فلم يكن من المستطاع أن تكتشفى هذا الامر منذ أن كان البديل مطابقا تماما للعقد المفقود !.

ثم أرسلت ضحكة مرح مشوبة بالتفاخر والسذاجة.

ــ أما « مدام فوريستير » فقد مدت كلتا يديها لصديقتها ، وهى مشدوهة ، لتقول لها :

ــ مسكينة أنت يا « ماتيلد » لقد كان عقدى من الماس الزائف ، وهو لايزيد فى قيمته عن خمسمائة فرنك .

فهـــرس

صفحة

جيرالد كيرش ٧

رحلة بين الثلوج ٩

ملك هوايته جمع الساعات ٣٩

الانطواء ٨٩

التوأمان ١٠٠

الفيـ ١١٥

إنطو ١٤٢

و ١٤٥

... ... ١٥٨

... ... ١٦١

كتاب الهلال القادم

العرب والمسرح

تأليف : محمد كمال الدين

رئيس التحرير : صالح جودت

تطاع أن تكتشف

بقا تماما للعقد المفق

مشوبة بالتفاخر والبذ

ستير » فقد مدت كلتا

بدوهة ، لتقول لها :

يصدر ٥ مايو

يا « ماتيلد » لقد كان عقدى م

وهو لايزيد فى قيمته عن خمسمائ

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Blakopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.

٥

هذا الكتـــاب

بين يدى القارىء ، اعمـــال ادبية ، تسلك مسلك القصة ، وان لم تكن لها كل مواصـــفاتها ،ويتجاوران وان كانا لا يمتزجان

ولعل المتـــابع لها لا يتبين هدفها التـوجيهى والاجتماعى ، لا بقدر لا يحـــتزمه لذة المتابعة القصصية ، ولا يفرض عليـــه الاصـــغاء لشــئون متعـــددة الغايات •

وللقصة وجهان : وجه ادبى ووجه فنى • اما وجههـا الادبى فمن خلال عرض اعمـــال ادبية لمشاهير كتاب القصة فى العالم ، الذين ينشدون من وراء هـــذا العطاء السوى ، تحقيق اصلاح ، او تقويم اعوجاج •

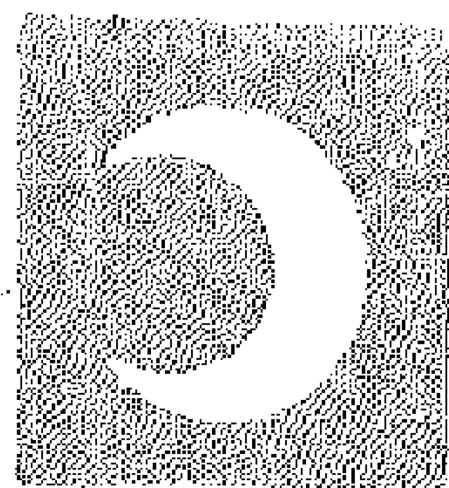
اما فى القصة ، فهـو المتداول بين ايــدى الناس ، فى روايات عاطفية » او جنسية او بوليسية، وما تتطلبه من مقاييس تسير بها نحو حبكة الختــام ، متوخيـة التشويق والاثارة •

ورسالات السـماء ، توسلت بالقصة الادبية كاداة للزجـــر والتوجيه « ونحن نقص عليـك احسن القصص »•

وقـــد حرص المترجم على ان يقدم لكل كاتب دراســــة لمذهبه الادبى واسلوبه الفنى وفلســفته التحليلية ، قبـــل عرض عمله ، ليلمس القــارىء ، مدى عناية كل كاتب ، ممن تضـمن اعمالهم هذا الكتاب ، بطرح روائع انتاجه على القـــراء ، متوخيا ما فى القصص من اثارة وتشــويق ، وما فى الادب من روعة وعذوبة•

والاستاذ احمد عبدالمجيد كاتب من كبار كتابنا له مؤلفات نفيسة فى مختـــلف الوان الادب ما بين ادب للرحلات وادب للترجمـــة الذاتية وبحوث تاريخية ادبية •

١٢ قـــرشـــا



كتاب الهلا

العرب والمسر

محمد كمال الدي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : فكرى أباظة • نائب رئيس مجلس الإدارة : صالح جودت

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٩٣ — ربيع الآخر ١٣٩٥ — مايو ١٩٧٥

No. 293 — May 1975

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢٫٥ جك — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنان جمـــال قطب

محمد كمال الدين

العرب والمسرح

دار الهلال

مقدمة

يزعم بعض المفكرين فى الغرب ـ والشرق العربى ايضا ـ أن العرب لم يعرفوا المسرح الا فى القرن التاسع عشر ، حين وفدت مع الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ فرق مسرحية ، عرفت مصر ـ والشرق العربى كله ـ عن طريقها فن المسرح ، ومن وقتها انتشر هذا الفن بطابعه الغربى ، وتراثه الاجنبى فى بلادنا ، وعلى نسقه كان المسرح العربى الخالص الذى نشأ فيما بعد ، فكأن قولهم بذلك ينفى أن يكون للعرب تراث مسرحى ، أو أن يكونوا قد عرفوا المسرح فى أى من عصورهم التاريخية .

ولو قد تأنى هؤلاء المفكرون ، ودرسوا تراث العرب وحضارتهم دراسة جادة غير متحيزة ، لعرفوا أن التراث العربى كان أصل كل حضارة ، ومنبع كل معرفة ، ومن الاسف أن الاوربيين اخذوا هذا التراث وشكلوه ببيئتهم فبدت صورته وكأنه غريب عنا ، هذا فى الوقت الذى نسى فيه العرب تراثهم أو تناسوه ، وقعدت بهم مطالب العيش عن مواصلة البحث ، ثم ساعد على ذلك عامل الدهر حين اشتد ساعد الغربيين ، وتقلصت الفتوحات الاسلامية وانكمشت بلاد العرب على نفسها تحلم بالماضى السعيد ، وكأنها

تختبىء فيه أو تلجأ اليه حينما تحثويها الذكريات ، وما هكذا كان ينبغى الحال او يكون المآل لتراث ضخم وعظيم .

ومع ذلك فان الصلة لم تنبت نهائيا بين العرب وماضيهم ، فان فى الحنين اليه اعترافا به ، واثباتا لوجوده ، وأملا فى يوم يعودون اليه بحثا وتنقيبا ولا شك انهم سيعثرون فيه على مبتغاهم من علم وفن وأدب ، ولا ينقص ذلك الا العمل به ، فلا يكفى لايمان المؤمن أن يقر بالتكليف ، بل عليه ايضا العمل بما كلف به .

وقد حوى تراث العرب — منذ جاهليتهم وعصور اسلامهم — العديد من الفنون نزعم أن من بينها فن المسرح ، وان كانوا لم ينصوا عليه صراحة ، الا أن الباحث سيجد أن ملامح الفن المسرحى توشك أن تكون فيه كاملة ، وما لنا نطالب بفن مسرحى عربى على غرار فن مسرحى أوربى ؟ أليست لكل بيئة ظروفها الطبيعية والحضارية الخاصة بها ؟ أليست لكل بيئة تقاليدها وعاداتها وسمات حياتها وفكرها ؟ ما لنا اذن نطبق قواعد الفن الاوربى على قواعد الفن العربى ؟ ان وجدت وجد الفن العربى ، وان اختفت اختفى هذا الفن ؟ ان لكل بيئة متطلبات حياة وتفكير وسلوك ، ولكل حضارة خصائص فكر ودلائل وجود ، وهكذا لا نحب أن نربط حياة العرب بحياة الغرب ، ولا نحب أن نطالب بوجود مسرح عربى على غرار ونسق مسرح أوربى هو فى المحتوى والشكل مختلف عنه كل الاختلاف ، ثم منذ متى عرف المسرح — بمعناه الفنى العام — قواعده ؟ ان هذه القواعد بنت عصور متأخرة نسبيا ، وضعها النقد والنقاد استخلاصا من أعمال كلاسيكية

أو حديثة ، ولم توضع مسبقا بحيث يسير على وفقها مؤلفو المسرحيات وكتابها .

ومن مزاعم المفكرين الاوربيين على عدم وجود مسرح عربى فى السابق ما قال به المستشرق الالمانى جوستاف فون جرينباوم من أن الاسلام السنى لم ينجح فى خلق فن مسرحى رغم معرفته بالثقافتين اليونانية والهندية، وهذا لا يعود الى سبب تاريخى بقدر ما يعود الى مفهوم الانسان فى الاسلام ، وهو مفهوم يمنع وقوع أى صراع درامى ، ويرجع المستشرق الفرنسى جاك بيرك هذا الى أن التقاليد العربية تعانى بالنسبة للمسرح من مشكلتين متكاملتين ، ولذلك جهلت التعبير المسرحى لانها لم توفق الى اعطائه اللغة المناسبة ، وأولى هاتين المشكلتين هى عدم تناسب اللغة العربية القديمة مع المتطلبات الداخلية للغة الدرامية ، والمشكلة الثانية هى صعوبة اختيار واحدة من اللغات العربية الثلاثة وهى الاشارة والتعبير والدلالة ، ولغة الشعر العربى تختلف دائما عن لغة الحياة اليومية ، انها لغة كلاسيكية تشبه بستانا جميلا ولكنه بستان متجمد ، والمسرح بتكوينه هو اللغة التى لا تحتمل القوالب الجامدة . وهناك رأى ثالث للمستشرق الالمانى هنريش بيكر يقول بأن التراث اليونانى أدى الى ايجاد النزعة الانسانية فى أوربا مما أدى بدوره الى عصر النهضة الاوربية ، بينما لم يؤد الاسلام الى نفس هذه النزعة ، وترتب على هذا اختلاف فى المضمون الفعلى فى كل منهما .

هذا ما يقوله بعض المفكرين الاوربيين ، وقد أيدهم فى ذلك بعض المفكرين العرب ، فيقول أمين الخولى مثلا : ان الحياة العربية لم تعن على وجود المسرح فى الادب العربى الجاهلى . كما وجدنا فى شبيه هذه

الجاهلية عند اليونان ، وان الحياة الاعتقادية العربية تختلف كذلك بسبب عدم الاستقرار عن الحيوات الاخرى عند من ظهر عندهم المسرح وراج لأن صلة المسرح بالحياة الريفية قوية وثيقة ، وحيث لم يستقر البدوى لم تستقر المظاهر التجسيمية فى وثنية ، ولم يوجد عنده مسرح . ويعلل أحمد أمين غياب المسرح عن التفكير العربى والاسلامى الى أسباب دينية ، اذ أن الدين يمنع التصوير ، وبالتالى يمنع التمثيل ، وفى ذلك يقول عباس محمود العقاد : ان بيئة العرب طالما لم تتعدد فيها أدوار الحياة الاجتماعية ، لم يعقل أن ينشأ فيها فن التمثيل ، أو يظهر فيها أدب المسرح ، فانما يقوم التمثيل من الناحية الاجتماعية على التجاوب بين الافراد والأسر كلما تعددت العلاقات وتنوعت المطامع والنزعات. ويقول زكى نجيب محمود : لم يعرف العرب الادب المسرحى — بل والقصصى — لعدم التفاتهم الى تميز الشخصيات الفردية بعضها عن بعض وعدم اعترافهم بوجود الفرد مستقلا بذاته دون أن يكون جزءا من كل أعم منه ؛ لم يعرف الشرق أشخاصا ، فلم يعرف المسرحية ولا القصة ...

هذه الآراء كلها لا تستقيم — فى رأينا — مع المنطق والدراسة المتأنية ، ذلك لأن الحضارة العربية امتدت من الاندلس الى الصين ، وكان لها طابعها المميز فى كل مجالات الحياة ، من علوم وفنون وصناعة وتجارة ، وقد انصهرت فيها خلاصات الثقافات والحضارات الهندية والرومانية والمسيحية ، وحولتها الى كيانها وصهرتها فى بوتقتها ، وأنشأت حضارة عرفت بالايجابية والبناء ، وكانت هى الاساس الذى قامت عليه النهضة فى أوربا كلها ، ولا يعقل لحضارة هذا شأنها ، وهذه

مكانتها ، الا تعرف الوانا فنيــة يعد المسرح واحــدا منها ، ولا يعقل أن يقوم الاسلام عقبة فى سبيل قيام الفنون ، ذلك لأنه دين يشجع على البحث والنظرالعقلى، ولا يحرم ترجمة الـكتب ــ حتى الوثنية منها ــ وهى كتب يخلق كاتبوها شخصيات على نحو مايخلق النحاتون تماثيل تشبه الاصنام ، لقد سمح الاسلام بترجمة كثير من الآثار السابقة عليه ، والتى أنتجها وثنيون ، مثل كتاب كليلة ودمنة عن اللغة الفهلوية ، وكتاب الشاهنامة للفردوسى الذى نقله البندارى عن الفرس فى عهــدهم الوثنى ، وكتاب الشعر لأرسطو ، فيلسوف اليونان فى عهدهم الوثنى أيضا ، فضــلا عن أنه كتاب يقوم على تصوير الشخصيات بالمحاكاة ، وليس الخلق من العدم، ولم يقل أحد أن الاسلام يحارب ذلك .

وانما هناك سبب معقول يجعلنا نشك فى عدم معرفة العرب للمسرح اليونانى القديم ــ ان كانوا جهلوه حقيقة ــ وهو أن الادب اليوناني كان قد اختفى حين كان العرب يقومون بترجمة الثقافة اليونانية ، اذ كان محظورا ، لأن المسيحية فى ذلك الوقت كانت تراه مفرقا فى الوثنية، ولو كان معروفا حين ترجم العرب ثقافة اليونان لمــا ترددوا فى ترجمته ، ولذلك نجد ابن سينا فى كتابه الشفاء يذكر التراجيديا فيسميها المــدح ، ويذكر الـكوميديا فيسميها الهجاء ، وقد عرفها بالطبع من كتب ارسطو، هذا الراى الذى يذكره طه حسين، يؤيده محمد عزيزة اذ يقول : ان المسرح اليونانى فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين كان قد كف عن الحياة بعد أن هاجمتـــــــه الـكنيسة بضراوة ، وساعد على قتله انحطاط الآداب ، كما أن الاعمال اليونانية التى اثارت اهتمام العرب فى ذلك العصر كان لها طابع علمى ، وفى مثل هذه الظروف

لم يكن العرب يبدون الاهتمام بالادب كأدب .

ومع ذلك فان العرب عرفوا ـ منذ جاهليتهم ـ ألوانا مسرحية عديدة ، لعل أولها تلك المواسم الادبية التي كانت تعاصر موسم الحج ، حيث يأتي الناس من كل فج الى قريش بمكة ، فيتناقلون الآداب ، ويتناشدون الاشعار، وكانت هذه الاسواق الادبية ـ ومنها عكاظ ومجنة وذو المجاز ـ تستغرق الاسابيع ، يقيمون فيها حكاما لنقد الشعر وبيان غثه من سمينه ، ويلقون فيها قصائدهم وملاحمهم وقصصهم التي تضمنت أفكارا درامية توشك أحيانا أن تكون حوارا تمثيليا لا ينقصه غير التمثيل وخشبة المسرح المعروفة ، ومع ذلك فعنصر الدراما متوفر الى حد بعيد ، فالشاعر هنا ممثل يلقي بقصيدته أمام جمهور من المشاهدين ، وقد يحدث رد من شاعر آخر أو حوار من مشاهد يجعل الافكار تتصارع فيما يشبه الحوار الدرامي ، والى جانب الشاعر، كان هناك القصاص أو المنشد الذي يقلد بصوته الاشخاص الذين تدور القصة حولهم ، بل يطلعنا التاريخ الادبي للعرب ـ قبل الاسلام وبعده ـ أن الحكام والأثرياء كانوا يتخذون في احتفالاتهم من يقوم بتقليد الحاكم أو الأمير، ومن يرد عليه ، وكانت هذه المشاهد الدرامية على قصرها تهدف الى تمثيل موقف معين يتسم في الغالب بالفكاهة والسخرية ، ويحتوي على العظة أو الدرس الاخلاقي .

ويذكر المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون أن التمثيل كان من وسائل التسلية عند الشرقيين ، ولكن الممثلين في الشرق هم من اللعب في الغالب ـ يقصد خيال الظل والدمى التي عرفت من القرن الثالث الهجري ـ أو من الاشخاص الذين لم يحترفوا فن التمثيل ،

والذين يسردون فصولهم برصانة كالقارىء ، وقد حكى لوبون في زيارة له لفلسطين انه شاهد في احدى الليالي جمعا عربيا يستمع الى قصة عنترة من منشدين لهم تأثير كبير في الجمهور المشاهد ، وعرف أنهم يتمثلون مايسمعونه فيصيرون كأنهم يرونه حقا ، ثم يصف كيف كانوا يضطربون ويهدأون ، وكيف يقاسمون الابطال سراءهم وضراءهم ، ثم يعلق : حقا ان تلك لروايات وان الحاضرين لممثلون أيضا . .

ويؤيد جرجي زيدان معرفة العرب لبعض فنون التمثيل ، فيذكر أنهم نظموا على شبيه الياذة هوميروس وشاهنامة الفردوسي ، مما تضمن الكثير من أخبار حروبهم المشهورة ، ونظرا لعدم تدوينها ، ضاعت من محفوظهم الا قطعا بقيت الى زمن تدوين الشعر في الاسلام .

ولقد عرف الادب العربي أيضا فن القصاص ، اذ كان القصاص يجلس وحوله مستمعون ومحاورون يتجاوبون معه ، ويتبادلون الحوار ، فهو هنا ممثل فرد يحكي بلسانه وتعبيرات وجهه ، وهو يمثل القصة بأبطالها ، أو بمعنى آخر يمثل وحده كل الادوار ، ويتقمص في كل دور شخصيته ، فيعطيه ملامحه بالصوت والتعبير والحركة ، تتغير ملامحه بتغير المواقف ، أما المسرح فكان هو ذلك الشكل البدائي ، رواق المسجد أو عتبة الدار أو سوق البلدة ، وأما المشاهدون فهم الجمهور الذي يتجمع أمامه أو حوله ، يتجاوبون معه ، يعجبون ويطربون بما يقصه عليهم ، وقد يحدث بينهم وبينه حوار نجد له صورة فيما يسمى بالمسرح المرتجل ، أو مسرح ديللارتي الذي اقتبسه المسرح الايطالي في عصر النهضة الاوربي .

ويروى التاريخ العربى القديم أن رجلا صوفيا فى من خلافة المهدى (منتصف القرن الثانى الهجرى)كان خرج يومين فى الاسبوع الى تل عال فيخرج وراءه لرجال والنساء والصبيان ، فاذا صعد التل نادى بعض تباعه فمثلوا شخصيات الخلفاء والملوك ، ويقف هو ليحاكمهم أو يقول فيهم رأيه ؛ فالاتباع هنا ممثلون ، وهو مرشدهم و « مخرجهم » ، والموضوعات واقعية تستمد من حياة العرب القدماء ، والجمهور هم هؤلاء الحضور المشاهدون .

كذلك يسجل التاريخ الادبى أن قصاصا يدعى المغازلى ، وكان فى زمن المعتضد (أواخر القرن الثالث الهجرى)كان يقوم بتقليد شخصيات من أجناس وطبقات مختلفة ، كالاعرابى والزنجى ، ويقدم من حياتهم مشاهد صادقة يعجب بها الحاضرون ؛ فهذا ممثل فرد، يقوم بالتمثيل أمام جمهور يتجاوب معه ، وقد يقوم منه الناقد أو المجيب أو المصحح لاحدى الوقائع .

والادب العربى زاخر بالقصص التمثيلية التى تدور على لسان الطير والحيوان ، أوالشخصيات الانسانية، أسطورية أو واقعية ، تصلح لتحويلها الى مسرح كامل لما تحويه من أحداث درامية ، وحوار سهل . كما أن هناك كتبا عربية تحتوى على قصص درامية مثل البخلاء للجاحظ (١٥٩ ــ ٢٥٥ هـ) والاغانى لأبى الفرج الاصبهانى ، والفرج بعد الشدة للتنوخى ، ومقامات بديع الزمان الهمذانى ، ومقامات الحريرى التى أسماها « حكايات أبى زيد السروجى » ، وقد تم العثور على عدد كبير من مخطوطاتها ــ هى الآن فى المتحف البريطانى ــ وفيها صور للسروجى وحوله اناس تسأله من أحداث حياته ، أو وهو يتطفل عليهم ، أو وهو فى مجلس

طرب .. الخ ، ومما يذكر فى هذا المقام أن فنان المسرح المغربى : الطيب الصديقى قد نجح فى تقديم مقامات الهمذانى فى مسرحية عربية معاصرة ، وبشكلها القديم مما جعل النقاد يعلقون بأنه نقل صورة واقعية من العصر العباسى الى العصر الحاضر ، وقد قوبلت هـذه التجربة الناجحة بالترحيب فى مهرجان دمشق الرابع للفنون المسرحية عام ١٩٧٢ ، ومهرجان افينيون المسرحى بفرنسا عام ١٩٧٣ ، وما حدث لهذه المقامات يمكن أن يحدث للظواهر المسرحيـــة الاخرى التى ذكرناها أو نــكون بصددها .

ومن نماذج التمثيل العربى القديم نذكر «الحكواتى» الذى كان يقدم قصصه أمام حشود من النـــاس فى الاسواق والساحات الواسعة أو الميادين الكبيرة ، وكان يستعين فى تمثيل انماطه المختلفة باستعمال منـــديل وعصا ،فتصحب دقات العصا النمر التى يقلـد فيهـا الوحوش والطير ، كما كان يستعين بزميل له أو زميلين يساعدانه فى تصوير الشخصيات ، أو يردان عليه ببعض جمل الحوار الموضوع ، أو بتقليد حركات معينة ، حتى لقد بلغوا خمس شخصيات فى نهاية العصور الوسطى العربية . وكان الحكواتى يقلد بصوته وحركاته مواقف الوعيد والزجر والغضب والنصر والغزل ، وقد يصحب معه آلة موسيقية تقوم بدور الايقاع أو الايحاء بمعنى معين لتأكيد الحدث . وقد انتشر مسرح الحكواتى فى كثير من الدول العربية ، فعرف ممثله فى مصر باسم « المحبظ » ، وعرف فى المغرب باسم « ممثـل مسرح الحلقة » ، اذ كان يتحلق حوله المشـاهدون ، ويدور التمثيل فى الوسط : وعرف فى تونس باسم «الراوية» ، وكان يجلس على منصة عالية ومعه عصا طويلة يرد

ما على المتخاصمين والمتناحرين حول أبطال السير الشعبية ، وعرف فى الجزائر باسم « الجوال أو الحكواتى » أيضا ، وكان يقدم عرضه فى ساحة القرية، يدور الحوار بين شخصين يؤديان بعض المشاهد الفكاهية التى تتناول الحياة فى القرية والمدينة .

ومن الالوان الدرامية العربية القديمة نذكر أيضا "الملاحم القصصية ، وقد تكون شعرا خالصا ، كما فى قصائد المعلقات السبع لامرىء القيس والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى وغيرهم ، أو القصائد المطولة لذى الرمة (١١٤ بيتا) والفرزدق (١٠٩ بيتا) وعبيد الراعى (٩٥ بيتا) ، ومثل ملحمة ابن عبد ربه فى القرن التاسع الميلادى وتقع فى (٥٥٠ بيتا) قسمها على سنى الحكم والحوادث التى جرت للملك الناصر فى الاندلس حتى انتهاء حكمه ، ومثل ملحمة ابن عبد الجبار، التى تقع فى (٥٠٨ بيت) ، وتدور حول حرب الاندلسيين العرب مع الاسبان ، وقد تجمع الملحمة بين الشعر والنثر ، كما فى ملحمتى الشاهنامة (أكثر من ألف بيت) ويوسف وزليخا للفردوسى ، وملحمة ليلى والمجنون للنظامى ، ومثل ملاحم ألف ليلة وليلة وعنترة بن شداد والظاهر بيبرس وغيرها ، ومن المعروف تاريخيا أن ملحمة الف ليلة وليلة ترجع الى القرن الثانى عشر الميلادى ، وانها ترجمت من الفارسية الى العربية فى العصر العباسى ، وانتشرت فى العراق والشام ومصر أيام الفاطميين والايوبيين والمماليك ، ويقول عنها المستشرق الانجليزى ادوار لين انها تمثل عادات العرب وطبائعهم، وتحتوى على كثير من القصص الحوارى الذى يحمل كل المقومات المسرحية بالمعنى القديم والحديث .

وهناك لون أدبى آخر نستطيع أن نعتبره مسرحا

خالصا ، لأنه يدور بلغة المسرح ، ويصور أحداثا درامية في المقام الاول ، ونذكر امثلة من هذا اللون ، وأولهـا رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الاندلسي ، وهي من النثر المسجوع ، وتدور أحداثها في عالم الجن (الزوابع) والجنيات (التوابع) ، وذلك في رحلة يقابل فيها المؤلف أشهر شعراء الجاهلية وكتاب نثرها ، وينقدهم نقـدا لاذعا في اسلوب حواري طريف ، ولغة نثرية بسـيطة اقرب الى الحياة الجارية يومئـذ ، وثانيهـا رسـالة الغفران لأبي العلاء المعري ، وقد كتبها بعد رسالة ابن شهيد بتسع سنوات (أوائل القرن الحادي عشر الميلادي) وتأثر بها ، وهي « قصة تعتمـد أساسـا على الحركة والحوار ، كما تصفها الدكتورة بنت الشاطيء ، وتصحبها في كثير من المشاهد موسيقى تصويرية من العزف الآلي أو الانشاد ، والجديد فيها حقا هو هـــذا الاخراج التمثيلي الذي عرض فيه مشاهد من العالم الآخر على سبيل التشخيص الذي يشبه الفن المسرحي» ، والاحداث فيها تتضمن صراعا يتصاعد تدريجيا ، ويدور في العالم الآخر بناره وجنته ، عذابه ونعيمه ، وفيه يلتقي أبو العلاء المعري بأشخاص يحاكمهم ، هم الشعراء والكتاب المشهورون على أيامه ، وهاتان الرسالتان تذكراننا على الفور برحلة أرستوفان (٤٤٥ ـ ٣٨٥ ق.م) الـكاتب المسرحي اليوناني القديم ، في مسرحيته « الضفادع » الى العالم الآخر ، حيث يدور الحوار بين أكبر شعراء اليونان وكتابهم المسرحيين : سوفوكليس وايسخولوس ويوربيـدس ، وأيهم أحق بأمارة الشعر والادب ، كما تذكراننا بملحمة الشاعر الانجليزي ملتون « الفردوس المفقود » ، وكذلك بالـكوميديا الالهية للشاعر الايطالي دانتي اللجيري ، ويؤكد المؤرخون أنه تأثر فيها بقصة

الاسراء والمعراج العربية ، ومن تعليقات وتفسيرات المؤرخين العرب عليها ، ومن مذاهب الصوفيين ، وعلى الاخص كتابات محى الدين بن عربى .

ومن هذا اللون نجد أيضا المسرحية العربية القديمة « يوم القيامة » للكاتب العربى الساخر محمد ابن محرز الوهرانى (المتوفى ٥٧٥ هـ) وهى تحتوى على ثلاثة عشر مشهدا تدور على هيئة حلم كبير، يرى فيه المؤلف نفسه وكأن القيامةقد قامت ، والمنادى ينادى ، فخرج من قبره الى أن بلغ أرض المحشر، ثم يصور ما يحدث فى ذلك اليوم كما يتخيله ، بأسلوب فكاهى خال من السجع .

ونذكر أيضا ـ ونحن فى مجال المسرح العربىالخالص ـ مسرحية « مصرع الحسين » التى عرفت فى ايران والعراق معاصرة لمسرح الاسرار فى أوربا المسيحية خلال العصور الوسطى ، وهى تصور حياة الحسين فى ثلاثة مراحل : الاولى قبل معركة كربلاء ، طفولة الحسين وشبابه ، والثانية مأساة كربلاء وآلام الحسين ومقتله، والثالثة ما بعد المعركة ، وتختتم بمشهد يوم الحساب الاخير حيث يتلقى الحسين مفاتيح الجنة ليدخل اليها المسلمون الصالحون .

ومن النصوص المسرحية القديمة نذكر أيضا نصين مكتشفين حديثا ، أحدهما بعنوان سارة وهاجر، يحكى قصة مولد ورؤيا ذبح اسماعيل وفدائه بالكبشالعظيم، ويقوم بتمثيله أشخاص يحملون أسماء سارة وهاجر ، واسماعيل ، فضلا عن بعض الفتيات والكورس ، وكل ذلك بأسلوب الشعر العامى ، والغناء الملحن بمصاحبة بعض الآلات الموسيقية ، والثانى بعنوان «سعد اليتيم» ويتناول الهيكل العام لقصة ايزيس وأوزوريسالفرعونية

القديمة ، أخ طيب وآخر شرير ، الشرير يقتل الطيب فينتقم ابنه له ، ويدور الحوار بالشعر العامى أيضا .
وهذان النصان ما زالا يقدمان حتى اليوم فى قرى الفيوم بمصر فى احتفالاتها الشعبية .

وأخيرا نصل الى لون درامى خالص ، شاهدناه قديما ، وما نزال نراه حديثا امامنا ، ويعتمد بعضه على الصور ، يصف أحداثها شخص أمام متفرجين من خلال عدسات مكبرة ، ويعبر بالتمثيل عن القصة ، وهذا هو المعروف باسم « صندوق الدنيا » الذى ينتشر فى القرى والاحياء الشعبية ، وهو مسرح مصغر ، جمهوره لايزيد عن الخمسة أشخاص ، وممثله فرد واحد يقوم بكل الادوار صوتا وتعبيرا وحركة . ويعتمد البعض الآخر من هذا اللون على الدمى أو العرائس ، ويسمى مسرحه بالقره كوز أو الاراجوز - بلغتنا المصرية - حيث يدور التمثيل - على لسان الدمى - أمام المشاهدين باللغة العامية ، وتقوم الدمى بالادوار تمثيلا وحركة ، وتستمد القصص موضوعاتها من الواقع ، وقد تطورت الدمية فى هذا المسرح الى أن تعددت وتنوعت فيما يسمى بمسرح العرائس ، وهو مسرح متكامل ، وقصص درامية كاملة ، تجرى أمام مشاهدين - من الكبار والصغار معا - وقد يجرى التمثيل من وراء ستار أبيض شفاف فنعرفه باسم مسرح خيال الظل ، وقد عرف هذا المسرح منذ القرن الثانى الهجرى ، وبرز فيه محمد بن دانيال (٦٤٦ - ٧١١ هـ) وقدم كثيرا من المسرحيات الظلية التى صورت العادات والتقاليد المصرية منذ القرن السابع الهجرى وما بعده ، وهو مسرح متكامل فيه كل عناصر المسرح الحديث من قصة وحوار وديكور واضاءة وجمهور ، وتمثيل واقعى يجرى على نسق المسرح

المعاصر كما نعرفه اليوم .

واذا كنا نقدم هذا الكتاب « العرب والمسرح » للمطبعة العربية ، فاننا نفصل في فصوله الستة ما أوجزناه الآن ، ونزيد عليه بالشرح والتوضيح ، مما يجعلنا نعتز بأننا كشفنا الغطاء قليلا عن بعض الصور التى حواها تراثنا العربى ، وما زلنا بحاجة الى المزيد من الكشف والبحث ، هنا وفى مكتبات العالم ، عن تراثنا المفقود ، وسنصل بجهد علمائنا وباحثينا الى ما سوف يرضينا ، ويضع أمامنا الحقائق الواضحة التى تثبت أن العرب لم يتخلفوا عن ركب الحضارة ، وأن لهم أياد غير مسبوقة وبصمات لن تضيع على كل ما ترفل فيه البشرية اليوم من حضارة وتقدم ، وانا لواصلون .

والله الموفق .

محمد كمال الدين

الفصل الأول :

من آراء المعارضين

يحتل المسرح فى عالم اليوم مكانة بارزة ومتقدمة فى حياة الشعوب ، ويمثل مظهرا كبيرا من مظاهر تقدمها الحضارى والفكرى، وقد أصبحت فنونه المختلفة فى مكان الصدارة من باقى الفنون ، فهو يعتمد على فنون الرسم والهندسة والموسيقى والحركة والتمثيل والاضاءة والديكور والأزياء وغيرها ، الى جانب فنون الكلمة ووسائل التعبير المختلفة ، ومن هنا كانت أهمية المسرح « كمجمع » للفنون ، ونشاطات اجتماعية تؤثر تأثيرا بالغا فى أهداف المجتمع واتجاهاته ، وتحمل بصمات فكره ومعارفه .

ولقد عرفت الشعوب المختلفة ألوانا مسرحية كثيرة على مر العصور ، عرفتها مصر فى عهد الفراعنة ، وعرفتها اليونان فى مجدها قبل الميلاد ، وعرفتها الهند والصين أيضا ، ثم كان له شأنه الخطير فى العصور الوسطى ، وعصر النهضة ، والعصر الحديث ، ولم يعرفه العرب ـ كما تزعم الأقوال المختلفة مما سنستعرضه فى هذا الفصل ـ الا مع مطلع القرن التاسع عشر ، ومع حملة نابليون الفرنسية على وجه التخصيص عام ١٧٩٨ .

ويعتمد الزاعمون فى رأيهم على حقائق تبدو لهم بديهية ، ولكنها مع التأمل والتفكير والبحث سوف تبدو واهية لا تقف حجة على زعمهم ، ذلك لأن العرب عرفوا منذ جاهليتهم ألوانا من فنون المسرح ، تبدو لنا فى عصرنا الحديث ضعيفة غير أصيلة ، ولكنها كانت ـ وفق منطقهم وتفكيرهم ـ لونا من الوان المسرح اذا اخذناه بمعانيه المختلفة عبر العصور .

ومن المعروف والمؤكد أن المسرح لم يستقر ـ منذ عرفته البشرية ـ على شكل واحد لا يختلف ولا يتخلف، بل مر بأشكال عديدة من حيث بناء خشبة المسرح ، ومن حيث بناء المسرح نفسه من الداخل والخارج ، ومن حيث لغته فكرا وحوارا وعملا دراميا متكاملا، وقد عرف المصريون القدماء المسرح لونا من التمثيل الدينى الذى يمثل الخلود والأسرار ، وعرفه اليونانيون القدماء لونا من التمثيل الاجتماعى الذى يمثل حياتهم الانسانية واساطيرهم ومعتقداتهم ، ثم تطور المسرح من شكله الدينى فى العصور الوسطى الى أشكاله الحديثة التى نراه عليها اليوم ، وهو فى كل عصر انما يمثل اتجاهات مجتمعه الفكرية والسياسية والاجتماعية ، ويعد انعكاسا لحضارتها فى شتى المجالات .

ويرجع الباحثون ظهور المسرح ـ فى البلاد التى ظهر فيها ـ الى عدة أسباب ، منها الحرية الاجتماعية التى يكفلها المجتمع لأفراده ، بحيث يكون تعبيرهم حرا طليقا من كل قيد ، وحيث أن فنون المسرح تعتمد على تلك الحرية ، فانه من اليسير اكتشافه ، ومن ثم انطلاقه فى مثل تلك المجتمعات ، ومنها استقرار المواطنين فى بيئة يتوفر فيها سبب الحياة ، من تضاريس ومناخ ووسائل عيش ، ومن الاستقرار يأتى التأمل والتفكير،

ويشمل التأمل فيما يشمل وسائل الترفيه ، ومنها فن المسرح ، ومنها نظام الحياة فى الجماعة ، وهل يعتمد الافراد فى تفكيرهم على القبلية التى تقوم على الفردية والتعصب ، أم على الجماعية التى تقوم على خدمة الجماعة ، وأن الفرد يذوب فيها بحيث تكون مصلحته من مصلحتها ، وتفكيره من تفكيرها ، أما القبلية ــ وما تستتبعه من فردية وتعصب ــ فلا قيام فيها لفنون المسرح ، لأن المسرح يقوم على الجماعية والتكاملية فى العمل، وان الفرد ينبغى أن يذوب فى الجماعة ، فيصبح جزءا من كل ، أو رقما فى مجموعة من الأرقام . ومنها وسيلة التفكير ، وهل هى تحليلية أم تركيبية ، فاذا كانت تحليلية فهى قادرة على التفكير المسرحى بما لها من قدرة على الوصول من الكل الى الجزء ، أما اذا كانت تركيبية ، فهى عقلية محضة ، تعتمد على العلم لا على الفن .. هكذا يقول بعض الباحثين .

فاذا أخذنا هذه الأسباب ، وطبقناها على العرب ، لنذكر راى الزاعمين بأنهم لم يعرفوا فنون المسرح ، ولم يكن لهم فيها تراث يذكر ، سواء فى الجاهلية أو صدر الاسلام أو فى العصور الاسلامية التالية ، ابتداء من العصر الأموى ، الى نهاية العصر العباسى ، يليه العصور الأخرى التى بدأت فيها فنون المسرح تبدو جلية واضحة ، وخاصة منذ العصر الفاطمى فى القرن الثانى عشر الميلادى ، اذا اخذنا هذه الاسباب ، ثم رأى الزاعمون ، لوجودنا أن هذه الفروق نظرية وليست عملية ، وانها ينقصها العمق ووسائل البحث المتأنى ، وانها تتأثر بآراء غربية وغريبة تتعصب لحضارتها ، وتنس أنها قامت على أكتاف الحضارة العربية الاصيلة.

فلنعرض ــ فى هذا الفصل ــ لجانب من الآراء

المعارضة ، حول الأسباب التى من أجلها لم يعرف العرب المسرح ، ونتأمل مدى عمقها وأصالتها .

يقول العقاد (١) : التمثيل فن من الفنون التى ترتبط بالحياة الاجتماعية ارتباطا وثيقا ، وطالما أن بيئة العرب لم تتعدد فيها أدوار الحياة الاجتماعية على حسب اختلاف الأعمال والصناعات والطبقات ، لم يعقل أن ينشأ فيها فن التمثيل ، أو يظهر فيها أدب المسرح ، قائما يقوم التمثيل من الناحية الاجتماعية على التجاوب بين الأفراد والأسر كلما تعددت العلاقات وتنوعت المطامع والنزعات ، ولم يكن فى مجتمع البداوة ـ أى المجتمع العربى ـ مجال كبير لهذا التجاوب الكثير بين أسرة وأسرة ، وبين انسان وانسان ، وما كان من ذلك قائما فى حياتهم البدوية أو حياتهم الحضرية ، فقد وجد الكفاية للتعبير عنه فى القصائد والأغانى وألعاب الفروسية وضروب المساجلات والمفاخرات التى تتفق لهم من حين الى حين .

يؤيد هذا الرأى زكى نجيب محمود ، ويضيف اليه قوله (٢) :

ولم يعرف العرب الأدب المسرحى ـ بل والقصصى ـ لعدم التفاتهم الى تميز الشخصيات الفردية بعضها عن بعض ، ولو نشأ الكاتب فى جو ثقافى لا يعترف للأفراد بوجود ، ويطمسهم جميعا فى كتلة واحدة من الضباب الأدكن ، فلا سبيل الى تصويره هؤلاء الأفراد يصطرعون فى مأساة ، والشرق كله فى رأيى قد طمس

(١) أثر العرب فى الحضارة الاوربية ـ عباس محمود العقاد ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ الطبعة السادسة . ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(٢) قشور ولباب ـ زكى نجيب محمود ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٧ ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

الفرد طمسا ، ولم يترك له مجالا يتنفس فيه ، فهو جزء من القبيلة فلا وزن له الى جانبها ولا قيمة له بالقياس اليها ، ولا كذلك اليونان ، فالفرد عندهم هو محور التفكير ، لم يعرف الشرق أشخاصا ، فلم يعرف المسرحية ولا القصة .

ويقول توفيق الحكيم فى مقدمة الملك أوديب : لم يعرف العرب الادب المسرحى ولانقلوه لأنه لم يكن لديهم مسرح ، ولم يكن لدى العرب مسرح لأنهم كانوا بدوا رحلا ، لايستقرون فى مكان ، وطنهم متنقل على ظهور القوافل ، يجرى هنا وهناك خلف قطرة غمام ، وطن يهتز فوق الابل ، كل شيء فيه يباعد بينه وبين المسرح ، لأن المسرح يتطلب أول ما يتطلب : الاستقرار ، وحين استقر العرب فى بغداد ودمشق وغيرها من المدن العربية الكبرى ، واتصلوا عن طريق حركة الترجمة بالثقافة اليونانية والهندية ، ظلوا متمسكين بنعرة قومية أو تاريخية تمجد ماضيهم الأدبى والفكرى ، فكان الشعر الجاهلى هو المثل الأعلى للفن البيانى فى نظرهم ، وكان الشعراء الأمويون والعباسيون يقيسون قاماتهم بقامات أبطال البيان الجاهلى ، وكل ما يفد عليهم من ترجمات عن طريق الرومان أو الهنود ـ سواء كان أدبا مكتوبا أو ممثلا ـ كانوا ينتهون من أمر بحثه الى أن لديهم ما يقابله من حيث التعبير عن العواطف الانسانية ، فسخرية الكوميديا يقابلها عندهم فن الهجاء ، والبطولة الممثلة فى التراجيديا يستطيعون أن يظهروها بطريقتهم فى المدح والرثاء ، على أساس المثل الأعلى الجاهلى ، ولذلك لم يحاول أحد منهم أن يغير هذا المثل الأعلى ، بدليل أنهم عندما ترجموا أرسطو جعلوا الكوميديا تقابل الهجاء ، والتراجيديا تقابل المدح والرثاء ، ان المسئول الأول عن

عدم وجود المسرح هو المثل الاعلى الجاهلى الذى كان رجال الفن والأدب والشعر يدورون داخل اطاره ، بدليل ان أحدا من الكتاب أو الشعراء الرسميين لم يحاول استلهام الأدب الشعبى والأساطير الشعبية ، فلم تنشأ فى الأدب العربى ملاحم شعرية على أساس من الاساطير الشعبية ... »

أما الزيات (١) فانه يقول : « اذا علمت أن العرب فى جاهليتهم كانوا بدوا لايستقرون فى مكان ، وأن وحدة مجتمعهم كانت القبيلة لا المدينة ، وان بساطة دينهم ، وطبيعة أرضهم ، وضيق خيالهم ، وقلة أسفارهم ، حرمتهم الأساطير ، وهى من أغزر ينابيع القصص والتمثيل كما كان عند الاغريق ، أدركت فى يسر وسهولة الأسباب الطبيعية والاجتماعية التى حالت بين شعراء العرب وبين الملاحم والمسرحيات ، وعلة قصورهم فى الملحمة والمسرحية أن مزاولتهما تقتضى الروية والفكرة ، والعرب أهل بديهة وارتجال ، وتتطلب الالمام بطبائع الناس وأحوالهم ، وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم ، وتفتقر الى التحليل والتطويل ، وهم أشد الناس اختصارا للقول ، وأقلهم تعمقا فى البحث » .

وفى رأى محمود تيمور (٢) : « أن العرب لم يعرفوا المسرح فى زمن الجاهلية لأنهم كانوا يحيون قبائل متفرقة حياة بدائية ، وازدهار الفن المسرحى يتوقف على نشوء مستوى من الحضارة فى مجتمعات البشر ، وحين ترجم العرب فى زمن حضارتهم ونهوضهم من الثقافات الأجنبية ما تذوقوه ، واستساغوه ، لم يترجموا الملاحم أو القصص التى كان يزخر بها الأدب اليونانى ، وهذا

(١) مجلة المجلة ـ العدد ١١١ ص ١٥ رأى أحمد حسن الزيات
(٢) مجلة المجلة العدد ١١١ ص ٢٠ ـ ٢١

يرجع الى أسباب شتى ، منها أن الشعر المسرحى فى روحانيته وفى تعويله على الوقع الموسيقى ، لا تتأدى خفقاته اذا ترجم الى لغة أخرى الا فيما ندر ، وهو يحتاج فى ترجمته الى براعة فذة تستطيع أن تنقل الشعر فى لغته الى الشعر فى اللغة المراد نقله اليها ، بما فيها من تداعى المعانى ، وترجمة الملاحم اليونانية كانت تقتضى أن يكون من العرب أديب متذوق فنان يحسن لغة هذه الملاحم احسانه للبيان العربى ، ومنها أن الأدب اليونانى كان ينطوى على خرافات واساطير، واكثرها له دعائم وطيدة من عقائد وثنية ، وتعدد آلهة ، ومن حرية شاطحة فى تصوير العلاقة بين الانسان وربه ، وفيه كذلك عرض لصفات الخالق وتصرفاته عرضا يجعله شبيها بالمخلوق فى الغرائز والطباع وألوان السلوك ، وذلك ما يشعر نحوه العربى بالحرج والانكماش ، وحين فتح العرب الأمصار ، لم يشهدوا مسرحيات فى دور التمثيل ، لأنها كانت مكروهة بغيضة الى الأمم المسيحية ، لما فيها من أوضاع وثنية يخشى منها على العقيدة ، ومن ثم كانت المسرحيات حراما على الناس ، ولأن العرب لم يشهدوها ، لم يستشعروا مافيها من روعة أدبية وجمال فنى ، لهذا لم يقبل العرب على ترجمة الملاحم اليونانية ، ونضيف الى ذلك اعتزاز العرب بأدبهم ، وبخاصة الشعر ، واعتقادهم أنهم فى غير حاجة الى أدب غيرهم من الأمم » .

ويجمل أمين الخولى رأيه (١) فى أن الحياة العربية ــ ببداوتها ــ لم تعن على وجود المسرح فى الأدب العربى الجاهلى كما وجد فى شبيه هذه الجاهلية عند اليونان

---

(١) لماذا لم يعرف العرب المسرح ــ رأى أمين الخولى ــ المجلة ١١١

مثلا ، وان الحياة الاعتقادية العربية تختلف كذلك فى عدم استقرار الحيوات العربيـة عن الحيوات الأخرى عند من ظهر عندهم المسرح وراج ، لأن صـلة المسرح بالحياة الريفية قوية وثيقة ، وحيث لم يستقر البدوى ، لم تستقر المظاهر التجسيمية فى وثنيته ، ولم يوجـد عنده مسرح ، ولقد عرف الأدب العربى الاسلامى الأدب اليونانى بالترجمة ، ولـكنه لم يتعمقه ، بل صـدف عنه وعنى بالفلسفة ، ولم تنقل اليهم الصورة الـكاملة عن الحياة الأدبية اليونانية ، ولم يفطنوا الى ما فيهـا من المسرح والمسرحية والقصة ، فلم يعنوا بالمسرح فى رواج الأدب أيام العصر الاسلامى المزدهر ، وأن الحياة الاسلامية لا تجسم الملامح الفنية التى يقوم بها وجود المسرح ، فلا هى موسيقية ، ولا هى تشكيلية .

يقترب هذا الرأى من رأى أحمـد أمين (١) الذى يعلل غياب المسرح عن التفكير العربى والاسلامى بأسباب دينية ، اذ أن الدين يمنع التصـوير وبالتالى يمنع التمثيل ، وان الحياة الاسلامية تمنع التجسيم بل فهم انها تحرم هـذه الملامح الفنيـة التى يقوم بها وجود المسرح ، وان الحياة الاجتماعية ، ومركز المرأة فيهـا وتصونها وحجبها لا يعين على وجود المسرح ، واذا قامت الجوارى مقام الحرائر فى الميادين الفنية ـ كما عرف ـ فبحسبهن أن يقمن بما يحقق المتع الفردية التى يتطلبها طابع الحكم وصـورة المجتمع ، ومع هـذا لم يوجـد فن المسرح الذى هو بطبيعته فن للجماهير ، وأن الحياة العربية بوضعها السياسى ، وما أحدثه من طبقيـة فى

---

(١) فجر الاسلام ـ أحمد أمين ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة العاشرة ١٩٦٥ ـ الفصل الثالث ـ انظر أيضا الاسـلام والمسرح ـ محمد عزيز : ص ١٢ .

المجتمع ، وفردية فى الحكم ، لم يكن يهون فيه هذا التجمع لرواد المسرح ، ولم يكن يسهل فيه ما لابد أن يكون فى التشخيص من تعرض للأشخاص والأوضاع ، والنقد الحر ، وأخيرا فان مثنوية اللغة التى واجهها الشعب العربى عاقت ظهور هذا الفن .

ويقول عز الدين اسماعيل (١) ان المسرح اليونانى القديم قد ارتبط بالأسطورة الى حد بعيد ، وهذه نزعة وثنية بطابعها ، لم يكن من الممكن أن يقبلها الاسلام او يقرها ، ولقد أحس الشاعر العربى القديم المأساة ، وهى لب الموضوع المسرحى ، ولكنه وقف عند هذا الحد لم يتجاوزه ، ومن ثم غلبت على شعره الطبيعة الغنائية ، ولم ينفعل بها ليصل الى مرحلة تفقه المأساة وصبها فى قالب مسرحى .

يضيف زكى طليمات (٢) الى ذلك الراى قوله : أن العرب لم يعرفوا المسرح لأنه يعتبر مرحلة أولية لم تتهيأ لها أسباب التطور والتقدم ، ولم تكن بالجزيرة العربية حضارة بالمعنى الكامل ، انها البادية بروحها القبلية ، وسكانها دائمى الترحال انتجاعا للرى والمرعى ، وحين عرف العرب تراث الاغريق ، لم يترجموا مسرحهم لأنه أدب وثنى خالص ، ولأن العرب لم يحسوا حاجة الى ان تصبح كتابة المسرحية من الانتاج الأدبى للذهنية العربية .

ويذهب محمد مندور الى أن التراث العربى فى الأدب يكاد يكون كله من الشعر فحسب ، أما النثر فلم يصلنا

(١) قضايا الانسان فى الادب المسرحى المعاصر – عزالدين اسماعيل .
(٢) فن التمثيل العربى – زكى طليمات – مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٥ ص ٩٩ . انظر أيضا بحث المسرح العربى فى القرن العشرين – مجلة الهلال يناير ١٩٥٥ ، وعدد المجلة ١١١ ص ٢٢ ، ٢٣ .

منه الا بعض جمل من سجع الكهان ، منثورة هنا وهناك فى بعض كتب الأدب ، وللأدب العربى خاصيتان : النغمة الخطابية ، والوصف الحسى ، وذلك بحكم البيئة ونوع الحياة ، ويترتب على ذلك بالضرورة استحالة انتاج الشعر الدرامى الذى يقوم على الحوار المختلف النغمات ، لا على الخطابية الرنانة ، كما يقوم على خلق الحياة والشخصيات ، وتصور المواقف والأحداث ، لا مجرد الوصف الحسى الذى يستقى مادته من معطيات الحواس المباشرة ، ويرجع هذا الى أن عبقريتهم الفنية ونوع خيالهم لم تكن مواتية لهذا الفن المركب ، على عكس اليونان وولعهم بالانسان والايمان به ، واتخاذه محورا للحياة كلها ، بل للآلهة أيضا ، حتى لقد سميت الثقافة الاغريقية القديمة بالانسانيات (١) .

وتثير سهير القلماوى (٢) فى رأيها عدة نقاط ، منها أن العرب بطبيعة عقلهم ينظرون الى الكليات ولايميلون الى التحليل ، والمسرح يعتمد على العقلية التحليلية لا التركيبية ، ومن هنا كان المسرح مخالفا لطبع العرب ، ولم يصلوا اليه الا عندما وصلوا الى اصطناع العقلية التحليلية بالمران على العلوم والمعارف ، وأن التراث العربى والحضارى تراث اسلامى لا يعرف جنسا ولا وطنا الا العقيدة ، ولا يجد المسرح والدراما بيئة طبيعية فى ايمان العرب ومعتقداتهم ، ولا صراعا مع الآلهة والأقدار ، لأن الانسان العربى فى سلام مع الله الواحد الأكبر ، وفى استسلام للقدر لا يحول دون السعى وان حال دون المصارعة والصراع ، وأن العربى فى تفكيره

(١) المسرح ـ محمد مندور ـ دار الشعب ١٩٥٩ ص ١٥ ـ ١٦ .
(٢) المجلة ١١١ ص ٢٤ ـ ٢٥ .

يميل الى التحديد ، الأبيض أبيض ، والأسود اسود ، أما الضباب والغمام والرمادية ومنزلة البين بين ، فكلها اجواء لايرتاح لها نفسيا .

ويضيف نجيب محفوظ (١) الى ذلك قوله : ان العرب بعد الاسلام كانوا غزاة فاتحين ، لديهم احساس المنتصر المعتز بما لديه ، فهو لا يقلد ، ولكنه يأخذ عن غيره ما ينقصه من الأشياء التى ليس عنده نظير لها ، أما الأشياء المشتركة التى لديه مثلها ، فانه يعتز بما عنده ، والمسرح شعر ، والشعر ديوان العرب وفخرهم ، فهم ليسوا فى حاجة الى شعر غيرهم ، والعرب لهم طبيعة محافظة ، وقد اتخذوا من الشعر الجاهلى تراثا مقدسا يتمثل فى القصيدة بكل تقاليدها وشكلها المعروف ، ولهذا انصرفوا عن هذا اللون من الشعر ـ الدرامى ـ الذى يعتبر بدعة فى نظر المحافظ، ثم انه لم يكن فى البلاد التى فتحها العرب تمثيل حقيقى يمكن مشاهدته ، وما كان موجودا من أدب تمثيلى يمكن الاطلاع عليه ، كان جزءا لا يتجزأ من الأساطير الدينية التى تخالف العقيدة الاسلامية ، واذا عرفنا أن الأدب العربى كان فى نظر العرب القدماء هو الشعر والخطب والرسائل ، عرفنا أن الأدب لم يكن تخيلا من تأليف الراوى ، لهذا تفيض كتب التراث بالأسانيد التى تثبت نسبة الشعر والكلام الى صاحبه كى يكون جديرا باهتمام السامع أو القارىء ، وهذا المفهوم يتنافى مع انتحال قصة خيالية كالقصص التى يقوم عليها الأدب التمثيلى .

تكتمل هذه الآراء اذا ذكرنا بعض آراء المستشرقين

---

(١) مجلة الادباء العرب ـ عدد ٨ أكتوبر ١٩٧٢ ـ ص ٦ ـ ٧ .

قبل ان نلخصها ونرد عليها جميعا ، وسنرى الى أى حد تعمقوا فى دراسة الادب العربى، وتراثه القديم ، والى أى حد فهموا العقلية العربية فى منازعها المختلفة ، والى أى حد درسوا الحضارة العربية واستقوا منها .

يقول المستشرق الألمانى جوستاف فون جرينبوم (١) ان الاسلام السنى لم ينجح فى خلق فن مسرحى رغم معرفته بالثقافة اليونانية والهندية ، وهذا لا يعود الى سبب تاريخى قدر ما يعود الى مفهوم الانسان فى الاسلام ، وهو مفهوم يمنع وقوع أى صراع درامى .

ويقول المستشرق الفرنسى جاك بيرك (٢) : ان التقاليد العربية تعانى بالنسبة للمسرح من مشكلتين ، ولذلك جهلت التعبير المسرحى ، لأنها لم توفق الى اعطائه اللغة المناسبة ، أولاهما عدم تناسب اللغة العربية الكلاسيكية مع المتطلبات الداخلية للغة الدرامية ، والثانية صعوبة اختيار واحدة من اللغات العربية الثلاثة وهى : الاشارة والتعبير والدلالة ، ولغة الشعر العربى تختلف دائما عن لغة الحياة اليومية ، انها لغة كلاسيكية تشبه بستانا جميلا ، ولكنه بستان متجمد ، والمسرح بتكوينه هو اللغة التى لا تحتمل القوالب الجامدة .

ويضيف المستشرق الألمانى هنريش بيكر الى ذلك أن التراث اليونانى أدى الى ايجاد النزعة الانسانية فى أوربا مما أدى بدوره الى عصر النهضة الأوربية ، بينما لم يؤد الاسلام الى نفس هذه النزعة ، وترتب على هذا اختلاف فى المضمون الفعلى فى كل منهما ، وان العالم الاسلامى لم يأخذ من التراث اليونانى الا ما كان ذا نزعة

(١) مجلة ديوجين ـ العدد ٤٨ سنة ١٩٦٤ ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) الاسلام والمسرح ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ـ محمد عزيزة ـ ترجمة رفيق الصبان ـ كتاب الهلال ـ العدد ٢٤٣ ـ ابريل ١٩٧١ .

عقلية منطقية ، أما الأشـــياء التى كان نصيب الروح اليونانية فى صياغته أكثر من نصيب العقل ، مثل الشعر الغنائى أو الادب الروائى ، وكل ما كان يونانيا بحتا كآلهة هوميروس ، كل هــذه الأمور ظلت مغلقــة أمام الشرق ، بينما نجد فى الغرب أنه تأثر بهـــذه الأمور اليونانية الأصيلة أكثر من غيرها .

هكذا يجمع المستشرقون ـ أو يكادون اذ لن نعدم فيهم منصفين ـ على أن الفكر العربى قاصر بطبيعتـه وفطرته عن انشاء فن التمثيل والقصص ، لأنه تجريدى فى نظرهم ، وينكرون عليه أنه عرف الأسطورة فى طفولته ، ورتبت على مثل هـــذه الآراء أحكام أهمها أن الشعر العربى غنائى كله ، لا يصــور غير عواطف الأفراد أو الآحاد ، بل ان بعض المفكرين الغربيين ، ومنهم الكاتبان جوبينو ورينان (١) ـ يذهبون الى أن هنــاك فوارق طبيعية بين الساميين ـ ومنهم العرب ـ والآريين ، وهم أبنــاء الغرب ، وأن الجنس الســامى أقل وأدنى من الجنس الآرى ، وأن العقلية العربية السامية مفرقة ، فى مقابل العقلية الآرية المجمعة أو الموحدة ، وانه عقلا فى تفسيرى ، بينما السامى غيبى معجزى .

نستطيع بعد ذلك أن نلخص الآراء التى سبقت فى عدم معرفة العرب للمسرح فى الأسباب الآتية (٢) :

١ ـ السبب العقلى : لا يتمتع العرب بعقلية تحليلية كاليونان ، والأفكار عندهم لا تتسلسل تسلسلا دقيقا ، ولا يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا ، وذكاء العربى

---

(١) أضواء على الفكر العربى والاسلامى ـ أنور الجندى ـ المكتبــة الثقافية ١٤٩ ـ ١٥ يناير ١٩٦٦ ص ٩١ ـ ٩٢ .

(٢) مجلة الادباء العرب ـ عدد ٨ ـ أكتوبر ٧٢ ص ١٦ ـ ١٩ ـ بحث الادب العربى والمسرح ـ شكرى محمد عياد .

ليس من النوع الخالق المبتكر .

٢ ـ السبب الاجتماعي : لم يعرف العرب فى الجاهلية الاستقرار فى مدن ، وكان النظام القبلى هو السائد الذى يذيب الفرد فى كيان القبيلة ، وبدون شخصيات متميزة لا يمكن أن يوجد أدب تمثيلى ، وكان الشعر الجاهلى فى عصر الاستقرار هو المثل الاعلى .

٣ ـ السبب الدينى : كانت وثنية العرب فى العصر الجاهلى وثنية ساذجة ، لم تتطور ولم تتمخض عن طقوس ومراسم تؤدى الى نشوء فن التمثيل كما نشأ عند اليونان من طقوس عبادة ديونيزوس ، اما فى الاسلام ، فقد وجد العرب فى عقيدته وضوحا لا يحتاج الي تأويل ، ومن اجل ذلك أعرضوا عن ترجمة أدب اليونان ـ ملاحم ومسرحيات ـ لما يتضمنه من آلهة متعددة وعبادة للأبطال .

٤ ـ السبب التاريخى : لما دخل العرب فى الحضارة، كان الأدب التمثيلى مهجورا عند أهله ، اذ أن الدولة البيزنطية فى العصر المسيحى أهملت فن التمثيل، وعدته من مخلفات الوثنية ، وهكذا كان الأدب التمثيلى بالنسبة لهم غير موجود .

٥ ـ السبب اللغوى ، لم يعش الادب العربى الفصيح فى كنف الشعب ، بل عاش عند الملوك والأمراء ، ولم يوجد عند الشعب الا السامر الذى كان يجمع بين الرقص والغناء والتمثيل المضحك وخيال الظل ..

وقد تكون هناك أسباب أو آراء أخرى ذكرناها من قبل ، ولكننا أجملناها لتكون أمامنا قريبة ومتجاورة ، وقد تصدى لها ـ تفنيدا وبحثا ـ مفكرون آخرون فى الشرق والغرب ، فأدلوا بآراء موضوعية ، نجد بعضها فى الفصل التالى ، وبعضها متناثرا فى الفصول الأخرى .

الفصل الثانى :

فى موقف الدفاع

كان راى جوبينو ورينان الذى يقوم على غلبة الجنس الآرى فكرا وذكاء على الجنس السامى (العربى) رأيا غريبا على العلم ، وترجع تلك النظرة ولاشك الى اسباب سياسية ، وليست علمية ، أريد بها تثبيت الاستعمار ، والفت فى عضد الملونين فى آسيا وافريقيا، ومحاولة تخطيم معنوياتهم فى مُجال الغزو الثقافى والفكرى فى نطاق مؤامرة « حركة التغريب » .

والرأى العلمى السليم فى مجال الوراثة البيولوجية هو أن الوراثة العرقية ، أو وراثة الدم لا تؤثر فى الاستعداد العام أو الذكاء الفطرى ، وأن العبرة بالبيئة لا بالدم ، فان من أقام فى بيئة معينة ، وعاش حياة مجتمعها ، وتكلم لغتها ، وأحس احساسها ، كان منها باللغة والمكان والاحساس ، وهى فى مجموعها أشد أصالة من روابط الدم ، ويؤيد هذا الرأى دينيكر فى كتابه « الأقوام والعروق » (١) فيقول : انه لا يوجد

---

(١) آراء وأحاديث فى اللغة و الادب ـ ساطع الحصرى ـ مطبوعات سوريا ١٩٦١ . انظر ايضا : أضواء على الفكر العربى والاسلامى ـ على الجندى ص ٩٢ ـ ٩٦ ، وكذلك « الفلسفة الاسـلامية : منهج وتطبيق » ـ ابراهيم مدكور ـ دار احياء الكتب العربية ١٩٤٧ ـ ص٣ ـ ١٤ .

جنس أو عرق آرى ، وان كل ما هنالك عبارة عن فصلة لغات آرية ، والرأى هو أن عقلية الانسان ونفسيته من محصولات حياته الاجتماعية لا من مورثات دمه المادية ، ويلاحظ العلماء ـ وفقا لتجارب كثيرة ـ أن جميع الأشكال المختلفة وخواصها وصفاتها تنتشر بين جميع أفراد النوع البشرى شكلا وسلالات بفوارق البيئات المختلفة ، وأن الانسان واحد فى كل الأقطار والقارات ، وسلالاته تنحدر عن سلف واحد .

وبناء على هذه النظرية ـ وهى صحيحة علميا ـ اشار العلماء بأن حضارة مصر وفينيقية وبابل والصين هى من أعظم الحضارات التىشهدها التاريخ ، وأنحضارات الساميين أسبق وجودا وأعظم اثرا وأطول عمرا من حضارات الآريين ، وان الحضارة العربية التى أنشأها العقل السامى قد امتدت من الأندلس الى الصين ، وكان لها طابعها المميز فى كل مجالات البناء والانشاء والعلوم والفنون، وقد انصهرت فيها خلاصات الثقافات والحضارات الهندية والمسيحية والرومانية واليونانية، وحولتها الى كيانها ، وصهرتها فى بوتقتها ، وانشأت حضارة عرفتبالايجابية والبناء ، وكانت آثارها واضحة فى جامعات القاهرة وبغداد وقرطبة ، بل كانت هى الأساس الأول الذى قامت عليه النهضة فى أوربا (١).

لقدساعدتالبيئة والوراثة الحضارة العربية ، والجنس العربى ـ اذا صح استعمال كلمة الجنس ـ علىالتفوق والظهور ، ومع ذلك فمن الصعب وضع الأجناس

---

(١) المرجع السابق ـ أنور الجندى ـ ص ٩٧ ـ انظر ايضا : فكرة صائبة عن الاجناس والعنصرية ـ فيليب ماسون ـ ترجمة شوقى طموم ـ سلسلة من الشرق والغرب ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧ ص ١٠ ـ ٣٠ ـ ٣٧ ـ ٤٤ .

البشرية فى مجموعات مستقلة ، أو وضع فوارق عقلية بينهما ، رغم وجود فوارق بدنية من حيث الطول واللون ، أو فوارق طبيعية من حيث المناخ والتضاريس ، ولقد أثبتت دراسات الجنس أيضا أن كل أنواع المعرفة والمهارات ، انما تكتسب عن طريق العلم والتعليم والوراثة ، والمخ على هذا الأساس ـ شأنه شأن بقية أعضاء الجسم ـ ينمو ويرتقى بالاستعمال وموروثات البيئة والمجتمع ، فالاستعداد البشري لدى كل فرد واحد ، وانما تأتى الاختلافات الفردية بين جنس وآخر لأسباب بيئية ترجع الى العادات والتقاليد والتفاعلات والأوضاع والأخلاق والطباع والتربية التى تسود مجتمعا من المجتمعات .

فاذا كنا نفزع من هذا الرأى العلمى الذى يؤيده المنطق والعقل وحقائق التاريخ ، لنرجع الى الآراء الأخرى فى محاولة تقييمها والرد عليها ، فاننا نذكر أن الاسلام لا يعقل أن يحرم ترجمة مسرحيات وثنية يخلق فيها كاتبوها شخصيات على نحو ما يخلق النحاتون تماثيل تشبه الأصنام ، والاسلام هو الذى سمح للمترجمين أن يترجموا كثيرا من الآثار التى انتجها وثنيون ، فضلا عن كونها هى ذاتها آثارا وثنية ، ألم يسمح الاسلام بترجمة كليلة ودمنة عن اللغة الفهلوية؟ والشاهنامة للفردوسى الذى نقله البندارى عن الفرس فىعهدهم الوثنى ؟.. ان الأصل الفنى والفلسفى لعملية الابداع ، والتى يتم فيها تصوير الشخصيات ، هو المحاكاة ـ كما قال أرسطو فىكتابه فن الشعر ـ وليس الخلق من العدم ، والمحاكاة : هنا هى محاكاة الطبيعة المخلوقة من قبل الاله ، وعلى ذلك لايمكن أن يكون

الاسلام قد رأى فى تصوير الشخصيات التمثيلية تحديا لقدرة الله ، ومشاركة له فى قدرته على الخلق ، أما ان التراجيديات اليونانية ذات مضمون معقد وصعب، كما تقول بعض الآراء ، فليس ذلك أصعب من كتب المجسطى لبطليموس ، أو الجمهورية لافلاطون ، او الأورجانون لأرسطو وغيرها من كتب الرواقية والأفلوطينية التى ترجمها العرب ، فضلا عن التراجيديات التى عثر لها على ترجمات عربية ، أما أن الدراما اليونانية ، والادب اليونانى بوجه عام ، هى من الانسانيات ، فليس أحفل من الأدب العربى بالانسان ، وليس أكرم له من الاسلام ، ان وضع الانسان فى الاسلام وضع فريد : « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (سورة الاسراء ٧٠) ، والانسان العربى الذى اشتهر بالشجاعة والاقدام والكرم والعفة والشرف والأمانة فى الحياة والمجتمع ، هو نفسه الانسان الذي صوره الأدب العربى فى كل ألوانه ، من شعر ، وقصة ، وملحمة ، ومقامة .. الخ ، وهو نفسه الإنسان الذى أوجد كل هذه الألوان الفكرية العربية من علم وفن ورياضة وأدب .

أما لماذا لم يترجم العرب المسرح اليونانى — مع أملنا فى العثور على ما ينفى هذا الزعم — فلعل رأى طه حسين يكون على شيء من الصواب فى هذا المقام اذ يقول : (١) لم يعرف الادب العربى المسرح لأن الادب اليونانى كان قد اختفى حين كان العرب يقومون بترجمة

(١) المجلة — العدد ١١١ مارس ١٩٦٦ . ومقدمة كتاب : تجديد ذكرى أبى العلاء — دار المعارف — الطبعة السادسة ١٩٦٣ « المقدمة » .

الثقافة اليونانية ، اذ كان محظورا ، لأن المسيحية فى ذلك الوقت كانت تراه مفرقا فى الوثنيــة ، ولو كان معروفا حين ترجم العرب ثقافة اليونان لما ترددوا فى ترجمته ، وهنا يجب أن نقول أن العرب وقعوا على الأدب اليونانى ، فى نفس الوقت الذى وقعوا فيه على الفلسفة اليونانية ، وأنهم ترجموا منه أيضا ، ولـكن لم تصلنــا حتى الآن غير صــفحات قليلة ، من كتب مطولة ، ومنوعة .

وأما أن العرب عرفوا القصة والرواية وفن القصاص ، فان طه حسين يمضى فيقول (١) : لقد شاعت فى بلاد الشام أيام عمر بن عبــد العزيز مجالس كلاميــة فى مسجد البصرة ، ومجالس للقصص التاريخى ، وكانت تأتلف بمسجد الـكوفة حول أبى مخنف يحيى بن لوط وسيف بن عمر ، وكان العصر العبــاسى الثانى (بعــد منتصف القرن الثالث الى منتصـــف القرن الخامس الهجرى) عصر نهضة اعجمية ، أرادت فيه الأمم التى خضعت لسلطان العرب أن تســترد مجدها القديم ، واتخذت الأدب العربى وأدبها الخاص طريقا الى هــذه النهضة ، كما اتخذت الحرب والقتــال طريقــا لهــا أيضا ، ومن هنا نظمت تلك الأشعار القصصـــــية الفارسية فى الشاهنامة ، مع أن الشعر القصصى كان أثرا للنهضة والحرص على التحدث بذكر المجـــــد القديم ، واستحضار الآمال المستقبلة ، وقبل هذا كانت أحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم تـكتب أكثر من مرة ، وقد قصها الرواة فى ألوان من القصص ، وكتبها

---

(١) على هامش السيرة ــ الجزء الاول ــ دار المعارف ١٩٥٤ «المقدمة» ومن حديث الشعر والنثر ــ طه حسين أيضا ــ ص ٢٧ .

المؤلفون فى صنوف من التأليف ، فكأن القصة بذلك ، والرواية ، والقصيدة القصصية المطولة عرفت منذ أيام الجاهليين ، واستمرت فى نموها وتطورها على مر العصور العربية ، أن مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصى موجودة فى الشعر العربى ، ومنهـا انه مرآة لحيـاة الجماعة ، وخاصة عند جرير والفرزدق والأخطـل ، وما أدته الاليـاذة والأوديسة بالنسبة لليونان ، أداه الشعر العربى القديم من تصوير الحياة الاجتمـاعية وحياة الأبطال بالنسبة للعرب .

والى جانب الأدب أتاح الاسـلام لفنون التشكيل والتصوير والنقش والعمـارة أن تطرد بروح العالم الجديد الذى بشر به الاسـلام ، وقد تلقى العرب فى مواطنهم بعض النماذج المتأثرة بالمسرح الاغريقى حين تدهور هـذا الفن ، وحين تحطمت صيغة الحياة التى بررت ازدهاره فى بلاده الأصيلة (١) .

وهناك رأى آخر فى الحضارة العربية يدلى به صلاح عبد الصبور (٢) يقول فيه : كانت الحضارة العربيـة قبل الاسلام معاصرة للحضارة الاغريقية ، وقد نشأت دول عربية متتابعة ، سواء فى اليمن أوالشام أوالحجاز منـذ عام ١١٠٠ ق . م الى عام ٢٦٠ م ، واتصلت مصائرها بمصائر القوى العظيمة فى العالم القديم ، وبنى بعضها السدود وجند الجيوش ، ومنها الدول المعينية والسبأية والحضرمية ، وما زالت الحضـارة القديمة بائدة تحت الأرض لم يكشف عنها الغبار بعد ، وقد

(١) التراث اليونانى فى الحضارة الاسـلامية ـ عبد الرحمن بدوى ـ مكتبة النهضة ص ٣ ـ ٣٣ .

(٢) مجلة الفنون ـ المجلد الاول ـ العدد الثانى ـ ربيع ١٩٧١ بحث صلاح عبد الصبور : بين الاصالة وأحكام التقليد .

أحتوت هذه الحضارة ، على ما وصلنا من شذرات ، وأخبار ، على العديد من ألوان الفكر والفن ، ويكفى أن نذكر مثلا أن الدولة السبأية فرضت سلطانها على جميع امارات اليمن ووحدتها تحت رايتها فى القرن العاشر قبل الميلاد ، ثم برزت الدولة الحميرية فى القرن الأول قبل الميلاد وفرضت سلطانها أيضا على امارات اليمن ، وفى خلال هذه الحقبة ، وما سبقها وما تلاها ، كانت اليمن أرضا زراعية مستقرة ضمت حضارة مزدهرة ، فيها أدب شعبى متطور يتمثل فيما رواه شرية الجرهمى فى مجالس معاوية بن أبى سفيان ، وما رواه وهب بن منبه ودونه ابن هشام ، صاحب السيرة النبوية ، وقد ضم هذا الانتاج الادبى صورا قصصية شعبية تدل على ما كان لليمن من تقدم وحضارة ، ويكفى أن نعرف من ظواهر تلك الحضارة مئات القصور والحصون الكبيرة والمنيعة ، ولقد ورد ذكر سبأ فى القرآن الكريم مرتين : أولاهما ، فى سورة النحل (الآية ٢٢) : « فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين » ، وكان هذا فى موضع قصة سليمان الذى حشد الله له جنودا من الجن والانس والطير ، أما المتكلم فى الآية المذكورة فهو الهدهد ، وقد ذكر مما رآه ملكة سبأ التى أوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم ، وكانت هى وقومها يعبدون الشمس ، وأرسل سليمان هدهده برسالة اليها يدعوها الى الايمان بالله الواحد ، فجمعت قومها أولى القوة والبأس الشديد ، وعرضت عليهم أن ترسل اليه هدية ولكنه رفضها ، وهددها بجنود لا قبل لها بهم ، بل أمر عفريتا من الجن فأحضرها فى طرفة عين ، وهى على عرشها ، ولم تقبل فى البداية

ان تدخــل دين ســليمان ، ولــكنها حين رات أرض قصرها ــ الذى أحضر معها ــ حسبتها ماء وكشفت عن ساقيها كى لا تبتل ثيابها ، فقال لها سليمان أنه صرح أملس من زجاج ، فاعترفت بأنها ظلمت نفسها بعبادة الشمس ، وأسلمت مع سليمان لله . اما المرة الثانيــة فقد ورد اسم سبأ فى سورة سبأ (الآية ١٥ .) : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ،كلوا من رزق ربكم ، واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور» ، وهنا اشارة الى حضارة اليمن الزراعية والصناعية ، فقد برز اليمنيون فى صـــــناعة التماثيل والصحاف والزخارف والمعابد والسدود ، وبناء القصور ، ولقد سخر الله تعالى لسليمان الريح غدوها شهر ورواحهــا شهر ، وتوصــل قومه الى اذابة النحاس والمعـــادن الاخرى ، فهى معجزات أرسل بها سليمان ــ وكل نبى أرسل بلسان قومه ــ ليرد بها على أباطيل خصــومه ، وهذا ما وصلنا عن سبأ ، فما بالك بوجوه حضارتها الأخرى ؟ لقــد عثر الباحثون على ســتة آلاف نقش تضمنت أدعية واســـتغفارات ومراسيم تتعلق بالرى والضرائب والعمار ، وتؤرخ لحياة من بنى المعبــد ، والنقوش التاريخية التى دونت عليها أخبـــــار بعض الملوك ، ونقوش أخرى دينية وجنائزية ، فهل هذا كل ما بقى من حضارة اليمن ؟.. وهل هذا كل ماوصلنا ؟ اذن فأين النصـــــوص التى كتبت بالخط الاسفينى بالبابلية والأشورية ، وأين ما كتب عنهــــا باليونانية والرومانية ؟ وبالجملة : أين حضارة اليمن ، التى لقبت يوما بحضارة العرب السعيدة ؟ (١) .

(١) المجتمع العربى قبل الاسلام ــ بحث مراد كامل ــ المجلة العدد ٣٨ فبراير ١٩٦٠ ص ٧ ــ ١١ .

أما نحن فنعتقد ان علاقات وثيقة كانت تقوم بين الحضارات ، وأن تبادل مظاهر تلك الحضارات كانت من الأمور الشائعة فى ذلك الزمان ، ولا يعقل أن تتعاصر الحضارتان اليمنية والاغريقية قبل الميلاد ولا تتبادلان النفع ، ان المؤرخ اليونانى هيرودوت يكشف لنا عن علاقات وثيقة بين مصر الفرعونية ، واليونان الوثنية قبل الميلاد ، ويقول لنا فى مذكراته انه حين زار مصر رأى الطقوس المسرحية بنفسه ، وشهد بأصالتها ، وبأن اليونانيين تأثروا بها — مع ما انتقل من تجارة المصريين اليهم ، ومع ما كان يحمله الزائر اليونانى حين قدومه الى مصر أو عودته منها ، ولقد اعترف هيرودوت بأن اليونانيين ما هم الا تلامذة للمصريين ، ولكنه يعود فى مذكراته فيعمل على البر بوعده بعدم البوح بأسرار طقوس المسرحية المصرية رغم انه شاهدها ، ولو ذكرها لعرفنا مدى تأثر اليونان بثقافة المصريين المسرحية ، وبما أنه كانت لمصر علاقات مع اليمنيين ، ومع الاغريق، فاننا نجزم بانتقال بعض الآثار المسرحية بين الحضارات الثلاثة ، ولكنها آثار مندثرة ، ولعلها فى يوم تتكشف، كما تكشفت بعض الملامح مما يذكره المؤرخون .

وان انتقال مظاهر الحضارات ، وتبادلها لا يضيع معالمها ، بل ان لكل حضارة مميزاتها ، فالحضارة اليونانية اتجهت نحو السياسة والفنون ، والحضارة المسيحية اتجهت نحو الدين ، والحضارة العربية اتجهت نحو الدين والعلم والفلسفة والفن جميعا ، واستطاعت أن توفق بينها ، فكانت مشكلة التوفيق من أبرز مميزات الحضارة العربية ، أما مميزاتها الأخرى فيمكن اجمالها فى احترام الانسان ، والمساواة بين الناس ،

والتمسك بالمثل العليا ، وكرامة الفرد ، وحرية الفكر والعقيدة ، واتباع العقل وتمجيده ، والايمان بالتقدم.

ولقد عرف العرب الاستقرار قديما ، عرفوه فيما قدمنا فى حضارة اليمن، وعرفته مدن مثل مكة والطائف ويثرب وينبع ومنى وخيبر فى شبه الجزيرة العربية ، وعرفته بغداد ودمشق وفلسطين فى بلاد الشام وما جاورها ، بل تجاورت المدن الزراعية ، والمناطق الرعوية ، وأظهرت انماطا من السكان، فكان منهم الحضر المستقرون ، والبدو الرحل ، ويجب أن نفهم من معنى الترحال التنقل من مكان الى مكان ثم العودة الى المكان الأول وحيث يطيب المقام ، أى انه نوع من تبديل المكان وليس هجرة الى الأبد ، وبهذا المعنى يمكن القول أن العرب عرفوا حياة الاستقرار ، حضرا وبدوا ، وانهم لم ينفصلوا — عن الحياة ، ولم ينسوا — عاداتهم وتقاليدهم ، بل يمكن القول أن التنقل قد أكسبهم خيالا أوسع ، ورؤى أشمل ، وعلاقات أوثق ، وأوقفهم على الجديد باستمرار ، فليس الترحال اذن سبة فى جبينهم ، ولا مدعاة لجهلهم بألوان الفن والأدب ، ومنهـا فن المسرح ، ونحن نعرف فى التاريخ الأدبى أن شعر الرعاة — فى اليونان القديمة نفسها — كانت له مكانته ، وان شاعرا يونانيا — رعويا — مثل ثيوكرتيوس (٣١٥ — ؟ ق.م) كان أول من ابتكر شعر الرعاة كفن مستقل فى الأدب اليونانى ، وهو يشبه عند العرب المواويل الريفية أو حداء الابل ، وكانت مكانته لا تقل عن مكانة هوميروس فى شعر الملاحم ، بل ان فنـه القصصى احتوى على الملاحم أيضا ، ويذكر مؤرخو حياته أن له سبع ملاحم طويلة تستمد موضوعاتها من الأساطير اليونانية القديمة،

وقد استخدم فيها الأسلوب القصصى ، وفى بعضها استخدم الأسلوب التمثيلى المسرحى ، المليء بالحركة والحيوية (١) . وفى نظير هذا الأدب الرعوى ، فى الأدب العربى القديم ، نجد العديد من القصائد والملاحم المطولة ، مما وصلنا قبل التدوين وبعده ، وما وصلنا الا أقل القليل ، ومنها المعلقات والوان الرجز والحداء وأناشيد الحروب فى الشجاعة والكرم والرثاء ، والزجل والمواليا والكان كان والقوما (٢) .

وكما استقر العربى فى حياته ، استقر فى جماعته التى سميت بالقبيلة ، وهنا نحب أن نشير الى ملاحظة ترد على من يقول بأن الحياة فى القبيلة العربية تميزت بالفردية ، والتعصب ، والانعزالية ، ذلك أن تلك الحياة لم تعرف الافراد بل الجماعات ، فلا فواصل بين الفرد والقبيلة ، ولا كيان للفرد وحيدا ، وكان الشاعر هو المعبر عن قبيلته ، والمتكلم باسمها ، والمفاخر بمآثرها ، والمدافع عنها . وكان من نتائج ذلك كله ، الاستقرار والجماعية ، أن حضارة عربية سامقة ظهرت فى القرن الثانى الهجرى - أو الثامن الميلادى - ظهرت فيما أخذه العرب أو ترجموه من كتب اليونان والفرس الى العربية ، وفى مناهج العلم فى الجامعات والمعاهد، وقد استمرت هذه الحضارة مزدهرة لقرون طويلة ، لم يطمسها تقلص الملك فيما بعد ، أو توقف الركب ، أو أباطيل الخصوم .

ولقد تميزت حياة القبيلة العربية بنظام واتساق

(١) شعر الرعاة - محمد صقر خفاجة - دار الكتاب المصرى - قسم الترجمة بوزارة التربية والتعليم ص ٢٤ ، ٤٢ .

(٢) الشعر الشعبى العربى - حسين نصار - المكتبة الثقافية - أول مايو ١٩٦٢ - ص ٢٠ - ٢٨ .

وتماسك شديد يستند الى نسبها المشـــترك ومجدها التليد ، فكان لـكل قبيلة رئيس يعـاونه مجلس من الشيوخ ، ولم يكن فيها نظام وراثي بالمعنى الدقيق ، اذ السيادة فيها للجدارة الشخصية ، والأمر شورى بينهم ، وقد يحدث تنافس بين قبيلة وأخرى يؤدى الى انقسام أو حروب داخلية كتلك الحروب التى حـدثت بين بكر وتغلب وعرفت بحرب البسوس ، أو التى حدثت بين داحس والغبراء أو بين عبس وذبيان (١) ، وكان من آثارها جميعا تلك الملاحم الحربية التى نقلت صورا صادقة عن تلك الحروب ، وحفلت بالمغامرات والابطال والأحداث الدراميـة مما هو مقروء فى الـكتب ، ومما هو مفقود من تراث .



نتنقل بعد هـذا للرد على أدعاء آخر بأن العرب لم يعرفوا العقلية التحليلية ، بل كانت عقليتهم تركيبية ، وكان خيالهم بالتالى ضـيقا لا يعرف غير التحديد ، والعام لم يثبت من ذلك شيئا ، والا فاين منهم المعلقات الطويلة ، والاوصـاف الدقيقة للفروق بين الألوان ، وأين حوليات زهير ، وتنقيحات النابغة الذبيانى ، كما أن العرب ليسـوا أهل اختصار للقول ، اذ أنهم أحيانا يتهمون بالتطويل والافاضة كما فى كتب الفقه (٢) .

ويقول الجاحظ فى كتاب الحيوان (الجزء الأول ص ٧٥) ان العرب وجهوا قواهم الى قول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وتثقيف اللسـان ، وتصاريف الـكلام ، وجمعوا بين العقل والوجدان ، فقد تمثلوا فلسفة أرسطو بكل

(١) الحضارة العربية ـ شكرى عياد ـ المكتبة الثقافية ابريل ١٩٦٧ ص ٢٣ .

(٢) المجلة ١١١ ص ٣١ ـ ٣٢ رأى يحيى حقى .

ما فيها من علم وعقل بنفس القوة التى تمثلوا فيها صوفية أفلوطين الوجدانية الحدسية ، وبحكم هذه المزاوجة بين العقل والوجدان ، جمع العربى بين التخيل والواقع ، بين السماء والأرض ، بين المطلق والنسبى ، بين اللانهائى والمحدود ، بين الآخرة والدنيا ، وطالعنا فى الشعر العربى لقطات شعرية حسية أكثر مما فى شعر سواه ، واللقطة الحسية من الواقع المشهود هى أول خطوة فى طريق العقل ، وقد احتوى الشعر العربى أيضا قدرا كبيرا من الحكمة ، وهى حقيقة موضوعية يعمم بها الشاعر حكمه على الناس ، فالعقل بذلك كان ملاك الشعر العربى خاصة ، والفكر كله بوجه عام (١) . ويكفى أن نقول ان الملاحم العربية سبقت الملاحم اليونانية بأجيال ، وان هوميروس كان متأثرا بما نقل اليه من آثار بابلية ، هى فى الاصل ترجع الى نتاج العقلية العربية ، وهى عقلية ثاقبة تتغلغل فى الاعماق، والأطراف والحواش ، وتقدس حرية الفكر، وتبتدع من العلوم ــ النظرية والعملية ــ ما تمتلىء به آثار جابر بن حيان فى علم الجبر ، والخوارزمى فى الحساب ، وابن سينا والفخر الرازى فى الطب ، وابن رشد فى الفلسفة، وابن الهيثم فى البصريات والطبيعة ، والادريسى فى الجغرافيا ، والطبرى فى التاريخ ، ومحمد بن موسى فى الفلك ، ونحن نعرف أن ابن يونس بنى مرصدا فلكيا بجبل المقطم بمصر ، واخترع بندول الساعة عام ١٠٠٧ م ، كما نعرف أن أسس البحث العلمى ــ كما استقرت فيما بعد علما مستقلا ــ توصل اليها النظام ، اذ كانت كتاباته تسير على منهج الشك والتجربة ،

(١) العقل فى تراثنا العربى ــ زكى نجيب محمود ــ بحث بمجلة العربى الكويتية العدد ١٢٨ يوليو ١٩٦٩ ص ٣٦ ــ ٤٤ .

ودعا جابر بن حيـان الى اجراء التجربة ، وكان يقول بأن المعرفة لا تحصل الا بها ، وكان ابن حزم يرسـم نظريته فى المعرفة على أسس ثلاثة هى : شهادة الحواس ـ أى الاختبار ـ وتأويل العقـل من غير حاجـة الى استعمال الحواس الخمس ، والبرهان الذى يرجع الى شهادة الحواس وتأويل العقل معا ، وكان ابن الهيثم يجمع بين الاستقراء والقياس ، بل قدم الاستقراء على القياس ، وحدد الشروط الاساسية فى البحث العلمى ، وأهمها طلب الحقيقة دون أن يكون لرأى سابق أو نزعة أو عاطفة دخل فى الامر (١) .

وبفضل انتاج العقلية العربية ، توصل هنرى الملاح وفاسكودي جاما وكولولمبس الى ارتيـاد المحيطـات ، ودرس أفلاطون لوبيزون وفيروناتش علوم الرياضـة والجبر واللوغاريتمات ، وبحث البيرت الـكبير وتوماس ألين فى فلسفة الفارابى ، مما جعل فيلسوفا عالما مثل روجر بيكون (١٢١٤ ـ ١٢٩٤) يصرح بأن وجود الفكر الاوربى والعلم الاوربى كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية (٢) ، ولولا أتسام العقلية العربية بالانسانيـة والشمولية حتى يمكن تقبلها فى بيئة غير بيئتها ، اتسمت بالانسانية فى تحليل مشاعر الانسان ووجدانه فى تعمق ووعى ، كما اتسمت بالطبيعية والواقعية فلم تلجأ الى التهويل والتضخيم المبالغ ، واتسم الفكر العربى بالعقل والوجدان معا ، ومما يروى أن اعرابيا سـئل : لماذا آمنت بمحمد ؟ فقال : ما رأيت محمدا يقول فى أمر

---

(١) أضواء على الفكر العربى والاسلامى ـ أنور الجنـدى ـ ص ٣٦ ـ ٢٨ .

(٢) العرب والحضارة الاوربية ـ مفيد الشوباشى ـ المكتبة الثقافية ٤٣ . ١٥ أغسطس ١٩٦١ ص ٤٥ـ ٤٦ .

افعل والعقل يقول لا تفعل ، وما رأيت محمدا يقول فى أمر لا تفعل والعقل يقول افعل (١) ، ولا شك فقد نزل الاسلام هاديا للعقل فى جميع الأمور ، ونزل القرآن الكريم يحث على التفكير العقلى (٢) ، كما فى قوله تعالى : « قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون» (سورة آل عمران ١١٨) ، وقوله تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (سورة العنكبوت ٤٣) .

ويقول المفكر الباكستاني محمد اقبال فى كتابه : « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » : « لقد كانت أوربا بطيئة نوعا ما فى ادراك الأصل الاسلامى لمنهجها العلمى ، وليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى الا ويمكن ارجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية أو العقلية العربية بصورة قاطعة ، وبفضل هذه الثقافة فتحت مغالق العلم والتجربة التطبيقية بعد مرحلة من النظر والتخيل ، أو لعلهما مرحلتان متساوقتان متجاورتان ، بدليل أن النظر والتخيل فتح مغالق العلوم والفنون أيضا ، وسار العقل والوجدان معا فى شوط الحضارة العربية ، وامتلأت الكتب بألوان القصص والسحر والشعوذة والخرافات ، وعبقت المجالس بالسمر وألوان الفنون الموسيقية والرقص والغناء والانشاد وقص الحكايات ، وراح القصاصون والجوالون والحكاءون والرواة ينتشرون فى الأسواق

---

(١) المجتمع الاسلامى فى ظل الاسلام ــ بحث محمود أبو زهرة ــ كتاب المؤتمر الثالث لمجمع البحوث الاسلامية ــ القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٠٧ ، ٤٥١ .

(٢) الاسلام والعقل ــ عبد الحليم محمود ــ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٢ .

والمنتديات ، يقصون ويروون القصص والحكايات عن سالف العصر والأوان ، وعن حروب قامت ، ودول راحت وأخرى جاءت ، وأبطال جلبوا النصر وكافحوا كفاحا أسطوريا ، وكان العقل هنا يمزج بين الخيال والواقع بأسلوب مشوق هو خليط من النثر والشعر ، والقاء مناسب للغناء فى موضع الغناء ، والتمثيل بالتعبير والانفعال ، وتغيير الزى أحيانا ، وتقليد الصوت والحركة ، وذلك كله فى حشد يشاهد عن كثب ، وينفعل عن واقع مرئى .

وتبقى كلمة لعلها تقنع دعاة التحليل دون التركيب ، والتغريب دون التعريب ، فان العلماء يقولون ان الكشف تحليلى ، أما الاختراع فتأليفى تركيبى ، ومعنى هذا أن الذى يكتشف جديدا هو الذى يحلل ما بين يديه من أدوات ، ويستطيع أن يصل الى هذا الكشف الجديد ، أما الذى يعيد صياغة ما لديه من أدوات ، فهو يؤلف ، أو يركب بعض العناصر ليصل الى الاختراع ، ونتساءل : هل يمكن الفصل بين التحليل والتركيب ؟ هل يمكن الفصل بين الكشف والاختراع ؟ هل يمكن الاكتفاء بأحدهما دون الآخر ؟ هل يتوقف بعض الناس عند مرحلة دون الأخرى ؟ ان القائلين بأن العقلية العربية تركيبية (اختراعية) فى مقابل العقلية الأوربية التحليلية (الاكتشافية) يتلاعبون بالألفاظ ، ويضعون تقسيمات لا أصل لها بين العقليات ، فليس ثمة عقل يكشف ولا ينزع الى الاختراع ، وليس ثمة عقل يخترع دون أن يكتشف ، لأن المرحلتين ممتزجتان ، ولا يمكن الفصل بينهما ، وليست هناك حدود نهائية يمكن بها تقسيم الناس بهذا الشكل المتعسف ، فقد

اكتشف العرب وحللوا ، كما ألفوا وركبوا فاخترعوا ، فهم بذلك ــ كغيرهم ــ محللون ومؤلفون معـا ، وهم بذلك ــ وبما ذكرنا آنفا من أدلة علمية ــ يردون على تلك التقسيمات الخرافية التخريفية التي يلجأ اليها بعض المفكرين ، وبعضهم له وزنه وكيانه العلمى ، اننا نفكر عندما نبني بناء استدلاليا ، ولـكننا نفكر أيضا عندما نؤلف قصة أو نرسم أو نجمل ، ومنطق البناء والتجميل لايختلفان ، لأن البيت لا يشيد للاستعمال فحسب ، بل يشيد للاستعمال والجمال معا ، فبهذين الغرضين يعيش النـاس واليهما يهدفون ، وبهذا المثل البسيط نرد على الراسـمين للحدود ، الواضـعين للفواصـل والقيود ، المقلدين لأسـاليب الاستعمار فى التفرقة بين جنس وجنس ، والحط من صفات جنس على حسـاب جنس آخر ، لأغراض غير علميـة ، ولأهداف لا يقرها منطق ولا حس سليم .

والعقل العربى ليس عقلا تجريديا أيضا ، لأنه عرف الأسطورة والقصة ، وعبر بالحركة والايقاع فى فنونه ، وعرف الملحمة والمقامة ، وعرف التمثيل فى فن الراوى والحكواتى ومنشد الربابة الجوال ، لم يفرق فى المثالية والابراج العاجية ، بل اتسم دائما بالوسطية ، أى البعد عن الطرفين الحادين : الانحراف والعنف ، كما اتسم بالتكاملية ، أى الربط بين الروح والمـادة ، والفـرد والمجتمع ، كذلك اتسم بالحركة التى تتمثل فى القدرة على مواجهـة التطور ، ومجافاة الجمود (١) . فأى تجريد نراه فى العقل العربى؟ وأى ضيق، وأى ارتجال،

(١) أصالة الفكر العربى والاسلامى فى مواجهة الغزو الثقـافى ــ أنور الجندى ــ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ــ سلسلة كتب أسلامية العدد ١٠٠ سبتمبر ١٩٦٩ ــ ص ٥٨ .

وأى بديهة فيما يدعيه هؤلاء ؟ ولو راعى المدعون الموضوعية فى أحكامهم ، والتعقل فى آرائهم ، لما ساغوا مثل هذه الأقاويل المضللة ، ان العقل العربى يعرف تماما أن لكل مقام مقالا ، وأن للاطناب أو الايجاز مكانه حسبما يدعو اليه الموقف ، وأن التناسق بين الأفكار، ومعرفة موقع البداية والوسط والنهاية ، هى من الأمور البديهية التى شغلت منطق ابن سينا والفارابى وغيرهما من فلاسفة العرب ومفكريهم ، ويكفى أن التراث العربى ظل مصدرا وحيدا للتدريس فى جامعات أوربا خمسة قرون متواصلة ، ومنذ بدأت تخرج من عصر الظلام والجهل ، الى عصر النور والمعرفة بفضل ذلك التراث ، بل ان الحضارة الاغريقية لم تعرف ـ بسبب ضياع أصولها الأول ـ الا من خلال الترجمة العربية لها .

ثم نأتى الى نقطة أخرى ـ وليست أخيرة ، لان الكتاب كله محاولة دفاع عن قضية لا يحب البعض أن يقتنع بها ـ ترد على الذين يقولون بأن اللغة العربية لغة غير درامية ، بمعنى أنها لا تحتمل الحوار الدرامى، ولا تقدر عليه ، وأن المثنوية فيها تعوق توصيل الأفكار بكفاءة واقتدار ، وينس هؤلاء أن اللغة العربية حققت اتصال العرب بعضهم ببعض ، وهى الرمز الحى الذى حفظ لها كيانها ، وللعرب تضامنهم ، وهى التى جعلت لمعارفهم قيمتها الاجتماعية ، وحفظت تراثهم جيلا بعد جيل ، وأعانت العربى على ملاءمة سلوكه مع تقاليد المجتمع ، وكان لها أثرها الواضح فى تكوين عقليته وتفكيره (١) .

(١) فلسفة اللغة العربية ـ عثمان أمين ـ المكتبة الثقافية ١٤٤ ، أول نوفمبر ١٩٦٥ ، ص ١٧ ـ ١٩ ، ٤٦ ، ٥٨ ومتناثرات من الفصول كلها .

وللغة العربيـة مميزات عديدة ، منها المثالية التي تحسب حساب الفكرة والخاطر والمثال ، ومنها القدرة على التعبير الذاتي للـكاتب ، وحسن ابانته عما يريد قوله ، ومنها العناية باللفظ من أجل المعـاني ، فقـد يحتاج المعنى الى ألفاظ جزلة أو مبسطة ، فهي بذلك خدم للمعاني ، ويقول ابن جني في الخصائص (الجزء الأول ص ٢٢٨ - ٢٢٩) ان اللغة العربية أكثر اللغات قبولا الاشتقاق ، لتنويع المعنى الأصلي ، وتلوينـه ، واكسابه خواص مختلفة بين طبع وتطبع ، ومبالغـة وتعدية ، ومطاوعة ومشـاركة .. الخ ، ومنهـا وفرة الألفاظ الدالة على الشيء منظورا اليه في مختلف درجاته وأحواله ، وهذا يكسب اللغة وفرة في التلوين الداخلي بالأطياف والظلال والصور الذهنية المتعددة ، ومنهـا الايجاز في اللفظ والتركيز في المعنى دون الاخـلال بالوضوح والتميز ، وفي هذا يقول العقاد (١) : أن اللغة العربية في طليعة اللغات المعبرة ، فلا يعرف علماء اللغة لغة قوم تتراءى لنا صفاتهم وصفات أوطانهم من كلماتهم وألفاظهم ، كما تتراءى لنا أطوار المجتمع العربي من مادة ألفاظه ومفرداته في أسلوب الواقع وأسلوب المجاز » ، ومنها صفة الحركة والقوة ، فالعربية تطيل ليسـمع منها ، وتوجز ليحفظ عنها ، ذلك لأن القول والتفكير والعمل أمور متلازمة في الحياة العربية ، فقول العربي هو تفكيره ، وتفكيره بدء لعمـله ، ولذلك فان اللغـة العربية تتطلب من قارئها أو سـامعها أن يكون واعيـا

---

(١) لغة التعبير : اللغة العربية - عباس محمود العقاد - بحث بمجلة الازهر مارس ١٩٥٩ ص ٦٨٥ .

فاهما قبل ان ينطق وقبل أن يسمع (١) ، كما تتطلب منه ان يمارس النطق على الحقيقة ، وهى خاصة الانسان عن سائر الحيوان ، أعنى الوعى والفهم . وفى هذا يقول المستشرق ادوارد فان دايك : ان امتياز اللغة العربية جاءها عن وجهين : الأول من حيث ثروة معجمها ، والثانى من حيث استيعاب آدابها (٢). ولا غرو فالعربية هى لغة القرآن : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » (سورة فصت ٣) ، « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمى وعربى ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » (سورة فصلت ٤٤) ، « فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا » (سورة مريم ٩٧) .

وقد تضمن القرآن الكريم ، وكثير من احاديث الرسول قدرا كبيرا من الحوار ، وخاصة فى القصص القرآنى ، ثم حفظ لنا التاريخ ــ فيما وصلنا من نوادر وامثال وقصص وحكايات وأشعار وملاحم ــ الكثير من لغة الحوار الذى يمكن تجسيمه على خشبة المسرح ، ويستقيم نطقه ووضعه مع لغة التمثيل، وفى الأماكن التى ورد فيها ، ومما سيرد فى نطاق فصول هذا الكتاب ، وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على قدرة اللغة العربية ــ فصحى وعامية ــ على احتمال التعبير الدرامى والمسرحى ، وعلى تأدية هذا الدور بقدرة وكفاءة ، واننا لنقرأ الحوار فى التراث القديم ،

---

(١) عبقرية اللغة العربية ــ بحث محمد المبارك ــ مجلة منبر الاسلام يوليو ١٩٦١ .

(٢) تاريخ العرب وأدبهم ــ دايك ــ « أنظر أيضا فلسفة اللغة العربية » ص ١٠٤ ، وفجر الاسلام لاحمد أمين : الفصل الخامس : مظاهر الحياة العقلية ص ٥٠ ــ ٦٨ .

كما نقرؤه فى الانتـــاج الروائى والمسرحى الحديث ، فنفهمه ونستوعبه ونحفظه ، غاية الأمر اننا ندعو الى أن تكون للغة الحوار العامى مجالاتها ، وهى الأعمـال الاجتماعية والواقعية والمعربة ، وأن تكون للفصحى أيضا مجالاتها ، وهي الأعمال الذهنية والتايخية والمترجمة ، وما أعـد للقراءة فحسب ، وفى كلا اللغتين ينبغى أن تكون اللغة مؤدية ومعبرة عن أهدافها ببساطة ووضوح.

الفصل الثالث :

من تاريخ العرب الاجتماعي والفكري

اذا القينـا نظرة سريعة وموجزة على بلاد العرب ، لنصل الى مقارنة نودها بين طبيعة سطحها ومناخها ، وطرفا بين تاريخ اهلها ، وبين بلاد اخرى عرفت المسرح منذ نشأتها مثل مصر فى عهد الفراعنة ، ومثل اليونان فى تاريخها القديم ، فقد تيسر لنا مثل هـذه النظرة الوصول الى حقيقة مؤداها ان الشعوب فى بدايات تكوينها البشرى والعمرانى تتشـابه الى حـد كبير مع بعضها البعض فى معظم السـمات التى تتصـل بطرق العيش ووسائل التفكير البدائية ، ثم صعودا فى مدارج المعرفة، الى حد قد تتعقد فيه هذه السمات فتنفرد كل أمة بخصائص قد تقتصر عليها ، ولا نكاد نجد لها شبيها أو مثيلا فى أمة اخرى .

تعتبر بلاد العرب شـبه جزيرة واسعة ، تحدها الجزيرة العربية وبعض بلاد الشمال وفلسطين شمالا ، والمحيط الهندى جنـوبا ، والبحر الاحمر وبعض بلاد الشام غربا ، والخليج الفارسى (العربى) وخليج عمان والعراق شرقا ، وهى فى معظمها بلاد صحراوية قليـلة الامطار ، فيما عدا اليمن التى ينزل بهـا مطر موسمى تزرع عليه أشجار البن والنخيل والفاكهة ، وغيرها ،

وفيما عدا بقاع خصبة فى سوريا والعراق والشام ، ثم لحقت بها مصر بواديها الاخضر منذ الفتح الاسلامى ، فصارت بلدا عربيا ذا حضارة عريقة ، تمتد مثل باقى البلاد العربية الى الوراء عشرين قرنا قبل الميلاد على الاقل ، ثم لحقت بها أيضا بلاد أخرى بحكم الفتح العربى الذى امتد حتى الاندلس ، وبعض بلاد افريقيا وآسيا وأوشك أن يصل الى أوربا والصين ، فامتدت بذلك رقعة الحضارة العربية حتى كادت تشمل العالم المتمدين منذ نزل الاسلام دينا سادها منذ القرن السادس الميلادى ، وينقسم العرب الى فرعين ، حضر يسمون العرب ، وبدو يسمون الاعراب ، وأصلهم جميعا يرجع الى سام بن نوح ـ ولذلك أطلق على جنسهم : الجنس السامي ـ الذى قطن بجزيرة العرب ، وكان العرب فرعين : عرب بائدة أو عاربة ، وعرب باقية أو مستعربة ، والعرب البائدة هم العرب القدماء الذين منهم عاد وكانت بالاحقاف ، وثمود وكانت بالحجر ، وأميم وكانت ببادية ايار بن عمان والاحقاف ، وعبيل وكانت بيثرب ، وطسم وجديس باليمامة ، وعمليق بعمان والحجاز ، وتهامة ونجد وتيماء وبتراء بفلسطين ، وهم القوم الجبارون الذين منهم جالوت قاتل نبى الله داود فقتله داود ، ووباز وجرهم الاولى وكانت باليمن ، وجميع هؤلاء قد بادوا واحتجب تاريخهم ، ولم يبق من أخبارهم الا القليل ، أما العرب الباقية فلهم فرعان ايضا : عرب عاربة ، وهم عرب اليمن من أبناء قحطان ابن عامر ، وقد تفرق بعضهم ونزلوا ببعض جهات الجزيرة العربية ومنهم جرهم الثانية التى نزلت بمكة ، واستولت على الحجاز ، وتزوج منها اسماعيل ابن ابراهيم ، وقد الحدوا فى الحرم فأبادهم الله ، وعرب

مستعربة : وهم عرب الحجاز من أبناء اسماعيل، وكان عبرانى الاصل واللسان ، ودخل فى العرب وأخذ بلسانهم ، وتزوج منهم ، وكانت اللغة العربية لسانهم جميعا ، ما عدا اسماعيل بن ابراهيم قبل دعوته ، وانما نطق بها لما رحل مع أبيه الى الحجاز ، وتزوج من جرهم ، وهى قبيلة يمنية ، فتعلم منهم وتكلم بلسانهم.

وقد قامت حروب كثيرة بين عرب الشمال أو الحجازيين (العرب المستعربة) ، وعرب الجنوب (العرب العاربة) سببها اعتقادهم بما بينهم من خلاف فى الاصل واللغة والحضارة ، وكانت بينهما مفاخرات كثيرة ، ومنها ما كان بين الاوس والخزرج اليمنية ، وأهل مكة العدنانيون ، واستمر العداء بينهما قبل الاسلام وفى بدئه ، وكانت كل منهما تنقسم الى عدة قبائل ، والقبيلة نظام عربى اجتماعى ، تعتبر أسرة كبيرة، ويعتقد كل أفرادها أنهم من أب واحد ، وهى فى العالم تسمى باسم الأب كربيعة ومضر والاوس والخزرج ، وقد تنتسب الى الأم مثل خندف وبجيلة ، وقد تسمى باسم مكان مثل غسان ، وكان لكل قبيلة رئيس أو سيد اليه يرجع الفصل فى المنازعات ، وله الاحترام والإجلال ، وكانت حرية الافراد فيها كبيرة وواسعة ، كما كان لكل قبيلة شاعر أو شعراء يتغنون بمحامدها ومناقبها ، وكل فرد يتعصب لقبيلته التى تحمى كل فرد فيها وتدافع عنه ، حتى ولو اخطأ فى حق قبيلة أخرى .

أما العلاقات بين القبائل فكانت تشمل المسائل التجارية والفكرية على السواء ، كما اتصلوا جميعا بغيرهم من بلاد افريقيا وآسيا ومصر ، وبفضل أنشاء امارتى الحيرة (الفارسية) وغسان (الرومية) ،

وتبادلهم التجارة معهما ، نقلوا مدنيــة الفرس والروم وثقافتهم وأخبارهم وأقاصيصــهم ، وقــد تأثر الأدب العربى بشعرائهما ومفكريهما حتىأصبحوا جميعا جزءا من التراث العربى ، والحضارة العربية ، ومما يذكر أن أهل الحيرة علموا قريشا الزندقة فى الجاهلية ، والكتابة فى صــدر الاســلام ، وكان الغساسنة واسطة بينعرب الجزيرة والروم ، ينشرون حضــــــارتهم ، وينقلون أخبارهم ، ووفد عليهم كثير من شعراء الجزيرةكالنابغة الذبيانى والأعشى وعلقمة وحسان بن ثابت وغيرهم .

ثم نصل من ذلك كله الى عقائد العرب فى الجاهلية ، لنعرف أنهم كانوا يعبدون الشمس أو القمر أو النجوم أو الجن ، وكان بعضهم يقول بالزندقة التى تقوم على الهين : اله النور ، وهو أصل كل خير ، واله الظلمة ، وهو أصــل كل شر ، وبعضهم أنكر الاديان ، فـكانوا دهريين ، أما العبادات فكان أكثرها للأصنام والاوثان ، وفى ذلك يقول الـكلبى (١) : « وكان الذى سلخ بهم — أى العرب — الى عبادة الاوثان والحجارة أنه كان لايظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصــبابة بمكة ، فحيثما حلوا ، وضعوه وطافوا به ، كطوافهم بالـكعبة ، ثم سلخ بهم ذلك الى أنعبدوا ما استحبوا ، ونسوا ماكانوا عليه ، واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره ، فعبــــــدوا الاوثان ، وصــاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم .. وكانوا يستسقون بها المطر ، ويستنصرون بها على العــدو ، فاتخذ بنو لحيان سواعا ، واتخذت كلب ودا ، واتخذت

(١) الاصنام — هشام بن محمد الكلبى — مطبعة دار الــــكتب المصرية — الطبعة الثانية ١٩٢٤ ص٦ (سلسلة احياء الكتب الاداب العربية) تحقيق احمد زكى .

مذحج وأهل جرش يغوثا ، واتخذت خيوان يعوقا ، واتخذت حمير نسرا ، وهذه الاصنام كلها كان يعبدها قوم نوح ، وذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم : « قال نوح رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ، ولا تزد الظالمين الا ضلالا » (سورة نوح ٢١ — ٢٤) . وكان أقدم الاصنام مناة ، وأقيم على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة ، ويعبدها هذيل وخزاعة ، ثم كانت اللات بالطائف ، وهى صخرة مربعة ، وكانت العزى بقريش ، يزورونها ، ويهدون لها ، ويتقربون اليها بالذبح ، وتقول فى دعائها : واللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى ، فانهن الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى ، وقد ورد ذكرها أيضا فى القرآن الكريم حيث يقول تعالى : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، ألكم الذكر ولهم الأنثى ، تلك اذن قسمة ضيزى ، ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان » . (سورة النجم ١٨ — ٢٢) ، ومن أصنام قريش أيضا هبل ، تضعه فى جوف الكعبة وحولها ، وكان تمثالا من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى ، ثم جعلوها من ذهب . ومنهـا أيضـا أساف ونائلة ، حجران وضعا عند الكعبة ليتعظ بهما الناس ، ومنها مناف وذو الخلصة ، بين مكة واليمن فى تبالة ، وقد روى الكلبى عن أبيه أن فكرة عبادة الاصنام نشأت عندما مات آدم عليه السلام ، اذ جعله أولاد ابنه بنو شيث فى مغارة فى الجبل الذى أهبط عليه آدم ، — قيل بأرض الهند — وكان بنو شيث يأتون جسد آدم فى المغارة فيعظمونه ويترحمون عليه ، فقال رجل

من بنى قابيل بن آدم : « يابنى قابيل ان لبنى شيث دوارا يدورون حوله ويعظمونه وليس لـكم شيء » ، فنحت لهم صنما ، فكان أول من عبد الاصنام (١) .
وكان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين، ماتوا فى شهر فجزع عليهم أقاربهم ، وأقاموا لهم خمسة تماثيل على صورهم ، ونصبوها ، وعبدوها ، وصارت لمـا تلتهم من أجيال وقرون معبدا وشفاعة عند الله ، وبذلك عظم أمرهم ، وزاد أنصارهم ، واشتد بهم كفرهم وضلالهم .

والذى يهمنا من أمر عبادة العرب للأصنام والاوثان، أن هذه العبادة كانت تغلفهـا طقوس ومراسم وعادات تشـــبه الى حـد ما تلك الطقوس التى كان يقوم بها المصريون واليونانيون القدماء ، وكانت مناسـك الحج صورة من صور تلك العبادة ، وهي صورة درامية لتمثيل ذكريات ابراهيم الخليل ، وسيرة زوجته هاجر وابنهما اسماعيل ، وكان الممثلون فى هذه الطقوس هم جمـاعة الناس الذين يقومون بالمناســك وهم فى نفس الوقت الجمهور المشاهد ، أما السعى بين الصفا والمروة فـكان تخليدا لذكرى هاجر أم اسـماعيل ، اذ كانت تتردد بينهما باحثة عن المـاء لتروى به عطشها وعطش ابنها ، وهو دور درامي أيضا يقوم به الرجال والنساء جميعا ، وهـذه الظاهرة الدرامية كانت خاصــة بالعرب ، ولم يعرف لها مثيل فى البلاد التى عرفت الدراما بمعناها المعروف الآن (٢) ، لأن العـــــرب كانوا يميلون الى التوحيد ، أما الأمم الاخرى فكانت تميل الى تعـدد الآلهة وتقديسها ، وأسناد الصفات البشرية اليها ، اذ كانوا فى الاصل من البشر ممن كانوا ملوكا عظـاما أو

(١) الاصنام للكلبى ص ٥٠ ـ٥١ .
(٢) رأى على أحمد باكثير ـ المجلد ١١١ ص ٣٠

أبطالا فى تاريخهم . فلما ماتوا اتخذوهم آلهة وعبدوهم.

هذه الظاهرة ـ مع ظواهر أخرى سيأتى ذكرها فى فصول هذا الكتاب القادمة ـ تجعلنا نرى أن الدراما العربية لها سمات تنتمى الى خصائص العرب الاجتماعية والنفسية والثقافية ، وليس لنا بالضرورة أن نطبق عليها قواعد الدراما المصرية أو اليونانية أو غيرها من القواعد الدرامية ، لقد كانت للمجتمع العربى مميزات انفرد بها ، وان اشترك فى بعضها مع المجتمعات الاخرى ، ومن التعسف أن نطبق عليه ما نطبقه على غيره من مقاييس ومعايير درامية ، ومن هنا يكون من الاوفق ألا نقارن ـ دراميا ـ بين العرب وغيرهم ، وان كان من المفيد أن تكون هذه المقارنة لنعرف أن الخصائص الدرامية توجد فى كل أمة بمقدار ، وان تربة أى شعب تلائم الدراما بخصائص هذا الشعب ، بمعنى أن الدراما فى أى مجتمع تستمد خصائصها من خصائص ذلك المجتمع ، وتتفق مع ميوله واتجاهاته الفكرية ، وفى دراستنا للفكر العربى سنجد أن له مميزات خاصة به تجعل الدراما لديه تتسم بسمات معينة ، تأخذ كل مقوماتها منه ، وتتشكل وفقا لها .

من السمات الفكرية للأمة العربية مواسمها الأدبية التى كانت تعاصر موسم الحج ، حيث يأتى الناس من كل فج الى قريش بمكة ، فيتناقلون الآداب ، ويتناشدون الأشعار ، ويتحدثون بشرف أصلهم ، وكرم محتدهم ، وكانت الأسواق أو المواسم ثلاثة : سوق ذى المجاز ويستغرق ثلاثة أيام ، وسوق مجنة ويستغرق أسبوعا ، وسوق عكاظ ، ويستغرق شهرا ، وذلك غير موسم الحج الذى يستغرق عشرين يوما ، وكانوا فى هذه المواسم أو الأسواق الأدبية يقيمون حكاما بينهم ـ مثل القضاة ـ لنقد مايلقى من شعر ، وبيان غثه من سمينه

وتفضيل شاعر على آخر ، وكان لها أثرها البارز فى ترقية اللغة العربية ، وتوحيدها بين القبائل بعد ان تعددت لهجاتها ، وبذلك سادت لغة قريش دون لغه الحجاز أو نجد ، لأثر قريش ومكانتها عند جميع العرب ، كما ازدهر الشعر المقفى ، وتناول الحياة العادية والشئون الحيوية للعربى ، وبرز شعراء أمثال امرىء القيس وطرفة بن العبد ، وزهير بن أبى سلمى، والنابغة الذبيانى والمهلهل عبيد بن الأبرص ، والسموأل، وليلى العفيفة والخنساء وغيرهم (١) ويهمنا من هذه

(١) تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ـ حسن ابراهيم حسن ـ الجزء الاول ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٥٣ ص ٧١ ـ ٧٥ .

ومما يذكر ان هذه الاسواق كان يتعامل معها تجار من اليونانيين الذين يحملون انتاج الغرب لبيعه فى أسواق الهند والصين ، وجزء من المحيطين الهندى والهادى ، وكانت هذه التجارة تمر على كثير من القبائل العربية وفى قوافل من الابل (انظر : صور ملهمة من واقع المجتمع العربى ـ حسن عون ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٢ ـ ٢٧ ـ وكذلك : فجر الاسلام ـ أحمد أمين ـ ص ١٥ ـ ١٦ ، ١٣٨ ـ ١٣٩) فاذا ذكرنا ان العرب تأثروا من اليونانيين ببعض الكلمات المتداولة فى لغتهم ، ونقلوا بعض حكم سقراط وأفلاطون وأرسطو وأمثالهم (مثل كتاب ابن هندو ، وقد جمعت مطبعة الجوائب بمصر كتابا فيه حكم نسبت لافلاطون لم يذكر مؤلفها وان كانت نقلت من نسخة مخطوطة سنة ٨٩٣ هـ) وكانت فتوح الاسكندر المقدونى لكثير من بلاد آسيا وافريقيا سببا من أسباب انتشار الثقافة اليونانية فى الشرق ، وخاصة فى مصر وليبيا وسوريا وفلسطين والعراق ، وكان من سياسة مزج الجنس اليونانى بهذه الاجناس فى شتى صور الحضارة ، وكان أن انتشرت الثقافة اليونانية حتى بعد أن انسحب الجيش اليونانى ، وقد اشتهرت مدن عربية كثيرة بطغيان التأثير اليونانى مثل جنديسابور وحران والاسكندرية ، واستمر هذا التأثير منذ عام ٣٠٦ ق.م الى ٣٩٨م ، وقد استخدم العرب ما أخذوه من ثقافة اليونان وبنوا عليه وزادوا فيه وابتكروا (ضحى الاسلام لاحمد أمين ـ الجزء الاول ـ مكتبة النهضة ١٩٦٤ ـ الطبعة السابعة ص ٢٥٤ ـ ٢٨٣) ، ومما وصلنا بعض محاورات أفلاطون وسقراط وأرسطو ، وبعض قصص الالياذة والاوديسة ، بل نزعم انه وصلت مسرحيات وملاحم لم نعثر عليها بعد .

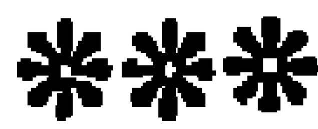
الأسواق والمسابقات الأدبية ماكان يلقى فيها من قصائد وملاحم شعرية ، وما تضمنته من أفكار درامية توشك احيانا أن تكون حوارا تمثيليا ، لاينقصه غير التمثيل، ومنصة مسرحية ، ومع ذلك فعنصر الدراما متوفر الى حد بعيد ، فالشاعر هنا ممثل ، يلقى قصيدته أمام جمهور من النظارة يتحلقون حوله ، أو يقف أمامهم على منصة عالية ، وقد يحدث رد من شاعر آخر ، أو حوار من مشاهد يجعل الأفكار تتصارع فيما يشبه الحوار الدرامى ، والى جانب الشاعر ، كان هناك القصاص أو المنشد أو المغنى الذى يقلد بصوته وحركاته الأشخاص الذين تدور القصة حولهم ، بل يطلعنا التاريخ الأدبى العربى ـ قبل الاسلام وبعده ـ أن الحكام والأثرياء كانوا يتخذون فى احتفالاتهم من يقوم بتقليد الحاكم أو الامير ، ومن يرد عليه ، وكانت هذه المشاهد الدرامية على قصرها تهدف الى تمثيل موقف معين يتسم فى الغالب بالفكاهة والسخرية ، ولا يخلو من عظة أو درس أخلاقى . ولقد عرف العرب لونا من القصائد المطولة تسمى بالمعلقات ، تحتوى على أفكار قصصية ، ولكن من المؤسف حقا أن النثر الجاهلى لم يصلنا منه الكثير ، لأن أحدا لم يعن بتدوينه أو حفظه كالشعر ، ولم يدون منه ما دون ـ وهو قليل ـ الا فى العصر العباسى ، ومما وصل من هذا النثر قصص تروى أخبارهم وأيامهم ومفاخرتهم ، كذلك لم يصلنا شيء من عرب اليمن ، والذى وصل بلغة عدنان، على ما أسلفنا ، وقد دون ما كتب بالعربية ، أما ماعداه فلم يكن يهتم أحد بتدوينه ، فاذا أضفنا الى ذلك أحداثا تاريخية راحت ضحيتها ملايين الكتب العربية ، مثل مكتبة نوح بن منصور سلطان بخارى التى كانت

تحوى حمل أربعمائة جمل ، ومكتبة الواقدى التى كان بها ستمائة صندوق تساوى حمل مائة وعشرين جملا، ومكتبة دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر الله ، وكانت تضم مليونا وستمائة ألف مجلد ، ونقل اليها المأمون حمل مائة بعير جاء بها من أوربا ، ومكتبة طرابلس الشام وكانت تضم ثلاثة ملايين مجلد تحت عناية قضاة آل عمار ، وكان يعمل بها مائة ناسخ بمرتبات كبيرة ، وقد وقعت هذه المكتبات وغيرها فى أيدى الصليبيين عام ٥٠٣ هجرية فأحرقوها وصارت رمادا ، كما أحرق الكاردينال كمنيس ـ « مطران طليطلة» ـ فى ساحة المدينة سبعين مكتبة عربية تحتوى احداها على ستمائة ألف كتاب ، وكانت دواوين الشعر فيها تملأ وحدها ٨٨٠ صفحة من الفهرست العام لها ، وكان ذلك عام ١٥١١ م ، ولا ننس أيضا ما أحرقه الكاردينال الاسبانى شيمتر من كتب العرب وتبلغ مليونا وخمسة آلاف مجلد فى ساحات غرناطة ، كما أحرقوا حمولة ثلاثة سفن مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة ، وكانت متجهة نحو ديار سلطان مراكش فسكبوها والقوا كتبها فى قصر الاسكوربال عام ١٦٧١م ـ ١٠٨٢ هـ وأتت النيران على ثلاثة أرباعها ، ولم يستخلصوا منها الا الربع الاخير ، وقدره ميخائيل القصيرى الطرابلسى الذى رتبها وكتب أسماءها بحوالى ٨٥١ ألف كتاب حوت معظم معارف العرب ولم يستوعبها كلها ، ولما فاجأ التتار بغداد بالهجوم بعد قتل الخليفة المستعصم ـ آخر خلفاء العباسيين عام ٦٥٦ هـ ـ جعلوا دأبهم السلب والنهب وأخذوا كتب العلم فى خزائنها ، وألقوا بها فى نهر دجلة فعبرت عليها جنودهم ، ولعل آخر تلك المآسى التى لحقت بالتراث

الفكرى العربى ، ما أحرقه الفرنسيون من مخطوطات ومطبوعات وجدوها بمكتبات قسطنطينية عندما احتلوا الجزائر عام ١٨٣٠ م (١) كذلك يذكر المؤرخون أن مكتبة الحاكم بالاندلس كانت تملأ محتوياتها من التراث أربعين حجرة فى كل منها ١٨ الف كتاب ، وكانت خزانة الكتب التى أنشأها عضد الدولة فى شيراز تشغل ٣٦٠ حجرة ، فاذا اضفنا الى ذلك حرق مكتبة الاسكندرية التى أنشأها البطالسة فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وجمعت من كتب العلم والأدب الكثير من أقطار العالم المتمدين فى ذلك الحين ، وقد احترق جزء منها قبل الاسلام ، وأغلبها بعده ، وحرق مكتبات فارس عام ٢١٣ هـ ، والى جانب هذا كله يجب أن نذكر أن بعض كتب التراث العربى حمل حملا الى مكتبات العالم ، وذلك مثل ما تحتويه المكتبة الكبرى بالفاتيكان بروما من آلاف الكتب الخطية القديمة ، وهى كلها من تأليف علماء المسلمين العرب ومفكريهم ، ومثل ما نقلته الحملات الاستعمارية على البلاد العربية ، اغتصابا أو شراء ، من مئات المخطوطات العربية الى مكتباتها فى لندن وباريس وبون وبرلين وغيرها ، وهى مراجع نادرة ووحيدة ، ولا توجد عنها اشارات فيما لدينا من تراث باق .. ولنتصور أن هذا التراث وصلنا ، وقلبنا فيه النظر ، فمن المؤكد اننا كنا سنحصل منه على بغيتنا

(١) أدبيات اللغة العربية ـ محمد عاطف ومحمد لصار وغيرهم ـ المطابع الاميرية ١٩٠٩ ص ٥٠ ـ (انظر أيضا : الفكر الاسلامى منابعه وآثاره ـ للكاتب الهندى محمد شريف وترجمة أحمد شلبى ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة ١٩٧١ ـ ص ٥٤ ـ وكتاب : تاريخ التمدن الاسلامى ـ جرجى زيدان ـ الجزء الثالث ـ دار الهلال ١٩٥٨ ص ٤٩) وكذلك : تاريخ اداب اللغة العربية ـ لجرجى زيدان ـ دار الهلال ص ٩٤ ـ ١٣٤ فصل : المكتبات .

فى الوقوف على كنوز العرب الثقافية والفكرية ، وليس من المستبعد أننا كنا سنجد فيه ترجمات مسرحية عن اليونانيين وغيرهم ، وما ادرانا بمسرحيات عربيـــه خالصة ، ألم تصلنا شذرات من ترجمة العرب لالياذة هوميروس ؟ وكتاب الشعر لأرسطو ؟ وثمانية عشر عملا لأفلاطون ؟ وبعض مسرحيات يوربيدس ؟ وكلها أعمال درامية فى المقام الاول ، ولعلهـا اذن تكون دعوة الى مواصلة البحث والتنقيب فيما وصلنا من تراث ، ثم فيما هو موجود فى مكتبـــات العالم ، ثم فيما زال قابعا فى باطن الارض ، أو مدفونا فى رمال لصـحراء الشاسعة .



لقد كان العرب فى جاهليتهم يعبدون الأصنـــام والأوثان ، وكانت لهم آلهة يعتقدون فى قدرتها فى دفع البلاء ، أو استجلاب المطر ، أو بها يتزلفون الى قوى أشد منها بطشا ، وأعلى منزلة : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ، ما نعبـدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ان الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون .. » (سورة الزمر ٣) ، ولقد عاصرت العرب أو تلتهم أمم اتخذت آلهة أربابا يعبدونها من دون الله ، بل لقد كانت لكل قوة من قوى الطبيعة اله أو آلهة تمسك بمقدراتها ، وتتصرف فيها كيف تشاء ، عرفنا مثلا من آلهة المصريين القدماء : آمون ، اله الخصب والنماء ، وحدحور اله الحب والفرح ، وتحوت اله القمر ، ورع كبير الآلهــة واله الشـمس والمـاء ، وجب ، اله الارض ، وتوت ربة السماء ، وعرفنـا من آلهة اليونان : زيوس كبير الآلهة يقابله عند الرومان جوبيتر ، وهيرا الهة الزواج يقابلها جوور عند الرومان ، وأبوللو اله الطب والشعر

والفنون والشمس ، وهو نفســـــه عند الرومان ، وافروديت الهة الحب والخيال وهى فينوس عنـــد الرومان ، وأريس اله الحرب ، يقـــابله مارس عند الرومان ، واثينا اله العلم والحكمة ، تقابلها منيرفا عند الرومان ، وغيرها ، وعرفنا عند العرب الاله : العزى أو عشتروت أو الزهرة ـ أو النجم الثاقب فى القرآن الـكريم ـ ويماثل زيوس كبير آلهــة اليونان ، وكان يغوث ونسر وسواع ويعوق آلهة من أصل بشرى،كآلهة اليونان ، أما اللات فيماثل أورانيـــــا اليونانية أو ديونيزوس ، وعرفنا من آلهة العراق القديمة : الاله أنوكبير أرباب السماء ، ونتسون الهة الحكمة ، وأرورو ربة الخلق ، وعشتار ربة الخصوبة والحب ، وانليل اله العاصفة ، وأيا رب الارض والحكمة (١) .

وحول هذه الآلهة جميعا نسجت القصص والأساطير، وألفت الملاحم والمسرحيات ، فاذا كان الانتاج اليونانى والرومانى قد وصل كاملا ، فان الانتـــاج العربى قد وصل بعضه مثل ملحمة جلجامش العراقيـــة ، والتى سبقت ملحمة هوميروس بقرن ونصف ، وتدور حول المغامرات البطولية والمواقف المأساوية لبطلها جلجامش، وهو أول بطل تراجيدى يعرفه تاريخ الأدب فى العالم ، ونموذج للانسان الذى يبحث دون كلل عن سر الحياة ومأساة الوجود الانسانى (٢) ، ومثل ملحمة الف ليلة وليلة ، وما نسج من حكايات وأساطير حول عنترة ، وقيس ، وغيرهم ، وحول اسـلام تميم الدارى الذى

(١) الاساطير ـ أحمد كمال زكى ـ المكتبة الثقافية ١٧٠ ـ أول مارس ١٩٦٧ ـ ص ٢٦ ـ ٥٠ ، وانظر أيضا : خيال الظل والتماثيل المصورة عند العرب ـ أحمد تيمور ـ دار الكتاب العربى ـ الطبعة الاولى ١٩٥٧ ص ٣١ ـ ٣٢ .

(٢) ملحمة قلقميش ـ تحقيق عبد الحق فاضـل ـ دار النجاح ـ بيروت ١٩٧٢ .

خرج هاربا من أرضه فى الشام وضل فى البحر كما ضل أوليس اليونانى والتقى بأهوال وغرائب ، ومنها رحلة الخضر ، وقصة عشق النضيرة بنت الضيزن الفضاعى ـ حاكم العراق ـ لعدوة سابور أجمل رجال عصره ، وكيف خانت اباها فى سبيل حبها ، فأطلعت سابور على حقيقة طلسم السور الذى عجز عن اقتحامه ، فملك المدينة وقتلها ؛ ومثل أساطير لقمان الحكيم ، عالم الأبدان والأزمان ، وواضع المواقيت والأشهر ، وياسر ينعم الذى ملك بعد سليمان ورد ملك حمير اليها بعد معارك هائلة ، وشمر يهرعش الذى كانت له انتصارات تفوق انتصارات هانيبال ؛ ومثل الضحاك أحد ملوك الأزد على أيام ابراهيم الخليل ، ووقف فى صفه بعد أن جادله فى الثالوث الالهى : القمر والشمس والزهرة ، ومثل شهريجيل بن يدع أب الذى انتصر على الدولة المعينية فى القرن الثالث قبل الميلاد ومثل هذه حكايات وهب بن منبه وعبيد بن شرية وابن سعيد والهمذانى ، ومثل الأساطير التى نسجت حول بناء الكعبة ، وضياع الحارث بن مضاض الجرهمى آخر ملوك جرهم ، ومثل حكاية ابن نيلوس الأكبر الذى اختطفه عرب سيناء ليقدموه ضحية للزهرة ـ أو النجم الثاقب ـ فى طقوس استعدوا لها طوال الليل (١) ، وهذه الحكايات والأساطير هى أعمال درامية بكل المقاييس الأدبية بما حوته من « حواديت » ، تجرى فى « زمان » و « مكان » ، وما تضمنته من «حوار» ، وما يستخرج منها من « ديكورات » و « اضواء » ، وهى بذلك لا تحتاج الا الى « اخراج » متمكن فاهم ،

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ـ الجزء الاول ، والتاريخ العربى القديم نيلسن وفرنزهومل ـ ترجمة فؤاد حسنين ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ ص ٢٦٣ .

و « اعداد مسرحی » یجعلها قابلة للعرض الدرامی.

***

وجاء الاسلام الحنيف بشرعته السمحاء ، فحرم عبادة الاوثان ، وسخر منها ، « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى» (النجم٢٢) ، « فاجتنبوا الرجس من الاوثان » (الحج ٣٠) ، « انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا ، ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا » . (العنكبوت ١٧) ، « انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضا» (العنكبوت ٢٩) . وما كان تحطيم ابراهيم للاصنام الا تعبيرا عن عدم جدوى عبادتها أو التقرب اليها ، « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام ، رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (سور المائدة ٩٠) .

وبمثل ما هاجم الاسلام الأصنام والأوثان ، هاجم صانعيها ومصوريها ، أو المنشغلين بها عن عبادة الله ، ويذكر من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ما رواه أسامة بن زيد حين قال : « دخلت مع رسول الله الكعبة ، فرأى فيها صورا فأمرنى أن آتيه بدلو فيه ماء ، فجعل يبل الثوب ويضرب به الصور، ويقول: قاتل الله قوما يصورون ما لايخلقون » ، وفى حديث آخر يقول : «انأشد الناسعذابا يوم القيامة المصورون، ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة » ، وقال بسر أنه لما اشتكى زيد عدناه فاذا على بابه ستر فيه صورة ، فقلت لعبد الله ، ربيب ميمونة زوج النبى ،

فقال : ألم يخبرنا زيد عن الصور يوم الاول ؟ » ، فقال عبد الله : « ألم تسمعه حين قال : الا رقما فى ثوب ؟ » ، ويروى عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال: انى أصور هذه التصاوير فافتنى فيها ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل مصور فى النار يجعل بكل صورة صورها نفسا تعذبه فى جهنم ، فان كنت لابد فاعلا فاجعل السحر وما لانفس له » ، وعن أبى هريرة أنه دخل دارا فراى أعلاها مصورا يصور فقال : سمعت رسول الله يقول : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا حبة ، وليخلقوا ذرة » (١) .

ونحن نذكر هذه الآيات الكريمة ، والاحاديث النبوية ، لأنها نزلت أو قيلت فى مطلع الاسلام ، وفى قوم كانوا لايزالون عاكفين على دين آبائهم ، وكان لابد من أوامر صارمة بترك الشرك وعبادة الأصنام ، وكل ما من شأنه أن يصرف الناس عن عبادة الله أو يشغلهم عن فروض دينهم الجديد ، أو يعود بهم الى عبادة غير الله ، وما ينصرف على التماثيل والصور ، يمكن أن ينصرف على باقى الفنون مثل قول الشعر : «والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » . (سورة الشعراء ٢٢٤ ــ ٢٢٦) ، « وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو الا ذكر وقرآن مبين » . (سورة يس ٦٩) ومثل الموسيقى أو اللهو واللعب ، ومنها المحاكاة والتقليد بالقول أو الفعل ، فلما انتشر الاسلام ، ورسخ ، أباح بعض اللهو والشعر ، وبرز الشعراء الاسلاميون

(١) التصوير الاسلامى ومدارسه جمال محرز ــ المكتبة الثقافية العدد ٦١ مايو ١٩٦٢ ص ٩ ــ ٢١ .

وانتشروا فى كلّ مكان ، وكان الرسول بنفسه يحضر بعض مجالس الطرب والعزف ، وأباح الرسم أيضا ، ونذكر فى هذا فتوى اصـــدرها الامام محمد عبده عام ١٩٢٢ بشأن المصورين ، فقال : ان الاحاديث الخاصة بهم جاءت أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسـببين : اللهو ، والتبرك بمثـال من ترسم صورته من الصالحين ، والأول مما يبغض الاسلام ، والثانى مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور فى الحالين شـــاغل عن الله ، أو ممهد للاشراك به ، فاذا زال هـذان العارضـان ، وقصدت الفائدة ، كان تصـوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات كما فى حواش المصاحف وأوائل السور ، ان الشريعة الاسلامية أبعد من ان تحرم وسيلة من افضل وسائل العلم ، بعد تحقيق انه لا خطر فيهـا على الدين لامن جهة العقيدة ولا من جهة العمل . وهناك فتوى أخرى للشيخ محمد رشيد رضا ، نشرتها مجلة المنار يوم ٣٠ ذى الحجة عام ١٣٣٠ هجرية ، قال فيها : « ان الدين الاسلامى يحرم ما كان فيه قصد التعظيم الدينى ، وما كان شعارا دينيا للكفار اذا قصد به التشبه بهم ، ومن يقول ان علة التحريم فى الصـور والتصوير هو محاكاة خلق الله تعالى يلزمه تحريم تصـــوير الشجر والجبال والأنهار والاراضى والشمس والنجوم والآلات والأدوات والدوائر والخطوط ، ومعنى الاحاديث النبوية ان الله تعالى يظهر للمصورين عجزهم يوم القيامة تمهيدا لعقابهم على مساعدة الناس على عبادة غيره ، واذا استعمل فى العادات يفسدها لأنه يحولها الى وثنية .. » ، ثم كان فى قول الرسول : روحوا القلوب سـاعة بعـد ساعة ، فان القلوب اذا كلت عميت ، تصريحا بمزاولة

الفنون اذا لم تؤد الى شرك أو وثنية او انصراف عن الدين ، وبذلك سمح للقاص ، والراوى ، والمنشد ، والمغنى ، والعازف ، والشاعر بالعمل على رقى هـذه الفنون ، بل كان القـرآن الـكريم فى قصصه رائدا ومعلما ، وان كان يهدف الى الوعظ والارشاد ، ولذا نراه يكتفى منها بما يلائم المقـام والغرض ، فهو حين يبين أن التوحيد هو دعوة جميع الانبيـاء والمرسلين ، يذكر ما يحقق هذا الغرض فى مثل قصص نوح وهود وصالح وشعيب ، وعنـــدما يدعو الى الصبر على المشركين ، يذكر ما نال الانبياء من الأذى والبلاء فى مثل قصص موسى وعيسى وأيوب وابراهيم ، وقصص القرآن الكريم فى هـذا المجال تختلف عن قصص التوراة التى تسرد بالتفصيل قصص الانبياء ودور المرأة فى حياتهم ، والصراع بين قوى الخير والشر ، وتبدأ قصة كل نبى بمولده وتنتهى بوفاته ، وتروى ما كان من أحـداث بين البـداية والنهـــاية ، ولمـا كانت تلك القصص تهتم برواية أفعال النبى ، فقد أطلق على أسفار العهد القديم أسماء الانبياء ، أو من قام بخدمات جليلة لنبى دينهم أمثال استير ونحميا ودانيال ، أما القصـــة فى القرآن الـكريم فهى بخلاف ذلك ، اذ لا نجد فيه قصة نبى كاملة فى سورة واحدة الا قصـــة يوسف ، أما قصـــة ابراهيم مثلا ، فنجدها فى سور الزخرف ، والأنعام ، وآل عمران ، والبقرة ، والتوبة ، ومريم ، والأنبياء ، والصافات ، ونجد قصة موسى فى عشرين ســــورة متفرقة ، وهكذا فى باقى قصص الأنبيـاء (١) . وقد

---

(١) قصص القرآن ــ بحث عبد الحميد جودة السحار ــ مجلة الهلال ديسمبر ١٩٧٠ ــ وبحث محمد أبو شهبة : عرض القصص القرآني ــ مجلة الازهر عدد يناير ١٩٧١ .

تدرج فن بناء القصة فى القرآن الكريم فى ثلاثة مراحل ، أولاها مرحلة ذكر الأحداث فقط دون ذكر الأشخاص ، وثانيها مرحلة الحوار حين دخل الناس فى الاسلام وأخذت الخصومة تشتد بين المؤيدين والمعارضين ، كما فى سور الشعراء والاعراف ، وثالثها حين ظهرت الشخصيات بالحوار مع الأحداث ، بل أخذت الشخصيات تتمايز بصفاتها ، وأخذ الحوار يلعب دوره ويحقق أهدافه ، وهنا يتكامل البناء القصصى ، ويأخذ شكله النهائى فى قصة يوسف التى تمثل فن البناء القصصى فى القرآن الكريم خير تمثيل ، ولهذا نجد أنها تصلح كشكل مسرحى جيد ، يمكن تقديمه بشيء من الاعداد الحديث ، حتى لا تظهر مثلا شخصية يوسف أو أحد الأنبياء الذين تتضمنهم القصة ، وان كنا لا نجد حرجا من ذلك اذا بلغ فن التمثيل والاقناع لها الحد الذى يوصل الهدف كاملا، وقد قامت بالفعل محاولات كثيرة وناجحة لتقديمها وهذا ينهض دليلا على أن الاسلام لا يحرم القصة ، ولا يحارب المسرح ، ولا أى فن من الفنون ، باعتبارها فنونا تهدف الى الارشاد والتعليم والترويح، بل لقد أصبحت الفنون - بشتى أنواعها - فى عصرنا من قبيل الترويح والتوجيه ، ولا تصرف الناس عن الدين ولا تدعو الى الشرك بالله ، فضلا عن أن بعضها هو من صميم الدين ، اذ تدعو اليه من خلال قصص الايمان والصالحين ، والبطولات الاسلامية والدينية ، والذى يرجع لتاريخ المسرح ، سيجده بدأ من الدين نفسه ، اذ ولد على باب المعبد فى مصر واليونان القديمتين ، وفى العصور الوسطى المسيحية ، وفى الهند والصين ، والمسرح بذلك يعد مرآة للمجتمع ، يصوره

بما عليه أهله من عادات وتقاليد ، وبما يؤمنون به من عقائد وأديان ، بل ان المسرح الاسلامى ظهر فى فترة مبكرة يصور أحداث مقتل الحسين فى كربلاء ، وظهر المنشدون والحكاءون والقصاص ، فى العصور الاسلامية الأولى يروون أحداث التاريخ الاسلامى ، وقصص الأنبياء والأبطال ، ظهروا فى المساجد وفى الأسواق وفى المنتديات ، وفى قصور الحكام والأمراء والأغنياء ، يروون بالحوار المنثور ، أو الشعر المنظوم ، ما يعد صورة صادقة للمجتمع العربى فى تلك الحقب والازمان، ثم تطورت الدراما الاسلامية ، ومنها أخذ المسرح الأسبانى والايطالى والألمانى والانجليزى كثيرا من قصصه وحكاياته ، ثم تطور الأمر الى اليوم لنجد المسرح الاسلامى يأخذ وضعه الفنى السليم ، ومكانته الصحيحة بين الفنون .

والى جانب القصص الاسلامى ، نجد القصص الشعبى ، الذى يدور حول موضوعات دنيوية ، تتصل بحياة الناس اليومية ، وتهدف الى سمرهم والترويح عنهم ، ومن ذلك ما ذكره المستشرق الفرنسى جوستاف لوبون (١) من أن التمثيل كان من وسائل التسلية عند الشرقيين ، وكان الممثلون من اللعب فى الغالب ، أو من الأشخاص الذين لم يحذقوا فن التمثيل ، والذين يسردون فصولهم برصانة كالقارىء ، وكان لوبون يلاحظ أن القصة منتشرة فى العالم العربى ، وتعتبر من أهم وسائل التسلية عندهم ، وللقصاص دور كبير ، وقد يحدث أن يقصوا ارتجالا ، ولكنهم يقتصرون فى الغالب على انشاد قصيدة ، أو تلاوة فصل من رواية ألف

(١) حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ـ نقله الى العربية محمد عادل زعيتر ـ دار احياء الكتب العربية ـ ١٩٤٥ ص ٤٠٠ ـ ٤٠٢ .

ليلة وليلة ، ومما يحكيه لوبون — وكان يزور أحياء يافا القديمة بفلسطين — انه أتيح له فى احدى الليالى أن يشاهد جمعا عربيا من الحمالين والنواتي والأجراء الذين كانوا يستمعون بعناية الى قصة عنترة ، ويعلق على ذلك : انني لاأشك أن يصيب قاص مثل ذلك النجاح لو أنشد جماعة من فلاحى فرنسا ما تيسر من شعر لامارتين أو شاتوبريان ، وبفضل ما نراه من تأثير القاصين فى الجمهور العربى ، ندرك ناحية من أخلاق العرب ، فنعلم انهم ذوو حيوية ووقار وتصور ، وأنهم يتمثلون ما يسمعونه فيصيرون كأنهم يرونه حقا ، ثم يصف لوبون الجمهور المشاهد لهذا التمثيل القصصى ، وكيف يضطربون ، وكيف يهدأون ، وكيف تلمع عيونهم فى وجوههم السمراء ، وكيف تنقلب دعتهم الى غضب وبكاؤهم الى ضحك ، وكيف يقاسمون الأبطال سراءهم وضراءهم ، « حقا ان تلك لروايات ، وان الحاضرين لممثلون أيضا » ، ثم يعقد لوبون مقارنة بينهم وبين مثيل ما يقدمونه فى أوربا فيقول : وحقا ان الشعراء فى أوربا مع نفوذ أشعارهم ، وسحر بيانهم ، وجمال وصفهم ، لايؤثرون فى نفوس الغربيين عشر معشار ما يؤثر به ذلك القاص الذى هو من الأجلاف فى نفوس سامعيه ، فاذا ما أحيط ببطل الرواية قال السامعون « حفظه الله » ، واذا شهر سيفه على أعدائه ، واثخن فيهم ، أمسكوا سيوفهم ، كأنهم يريدون انجاده ، واذا ما كاد يذهب فريسة الغدر والخيانة ؛ قطبوا وصرخوا قائلين : « لعنة الله على الخائنين » ، واذا ما قضى عليه أعداؤه الكثيرون ، تأوهوا وقالوا : « رحمة الله عليه » ، واذا ما رجع ظافرا قالوا : « الحمد لله الذى نصره » ، ويكون هتافهم وقتما يذكر

القاص محاسن الطبيعة ، ولا سيما الربيع : « طيب طيب ! » ، ولا شيء يعدل السرور الذى يبدو على ملامحهم عندما يصف القاص امراة جميلة ، فتراهم ينصتون له انصات من يكاد لبه يطير من الوجد ، والقاص اذا ما أتم وصفه قائلا : « الحمد لله الذى خلق المراة » ، قالوا : « الحمد لله الذى خلق المراة » . ثم يذكر لوبون (١) أن العرب زاولوا أنواع الأدب الاخرى، ولهم روايات فى المخاطر والحب والفروسية ، ويرى فى رواياتهم فوائد كبيرة اذ تشتمل على ضروب المخاطر العجيبة ، ولقد جمل العرب ــ بخيالهم الخصب وهم الذين لا نظير لهم فى الفن ــ كل شيء لمسوه ، وفى ذلك يقول سيديو (٢) : كان خيال شعراء الأندلس يتجلى فى الروايات والأقاصيص ، وكان العرب ــ وهم الذين فطروا على حب الأحاديث ــ يجتمعون تحت خيامهم ليسمعوا الأقاصيص الفريدة التى كان يتخللها بعض الأغانى والألحان الموسيقية ، ولم تكن الأقاصيص الاسبانية المقتبسة من اللغة العربية ، أو المنقولة عنها ، الا دليلا على مواسم ذلك الزمن ، ولم يكن ما فى اسبانيا ــ وخاصة فى غرناطة وطليطلة ــ من تمثيل الحروب بين النصارى والمسلمين ، والتفاخر، ورقص الفرسان ، والتشبيب والغزل ، الا من الأمور التى اشتهر بها عرب الأندلس فى أوربا .

يؤيد جرجى زيدان (٣) ما ذهب اليه جوستاف لوبون وسيديو وغيرهم من المستشرقين المنصفين للحضارة العربية ، فيقول : ان القصص والروايات لم تكن معدومة

---

(١) ، (٢) حضارة العرب ص ٤٧٤ .

(٣) تاريخ التمدن الاسلامى ــ جرجى زيدان ــ الجزء الثالث ــ دار الهلال ١٩٥٨ ــ ص ٣٠ ، ١٧١ ــ ١٨٠ .

عند العرب ، وقد نظموا على شبيه اليـاذة هوميروس أو شاهنامة الفردوسى ، مما تضمن كثيرا من أخبـار خروبهم المشهورة بين قبائلهم ، ونظرا لعدم تدوينهـا ضاعت من محفوظهم ، الا قطعا بقيت الى زمن تدوين الشعر فى الاسلام . ومما بقى بعض ما نقلوه من كتب مثـل محاورتى النواميس وطيماوس لافلاطون ، وكتب الخطابة والشعر والجدل والأخـلاق لأرسطو ، وكتاب رستم واسفنديار ، وكليلة ودمنة ، وبهرام شوس ، وخداينامة فى السير ، وآيين نامة عن الفارســـية ، وسندباد الـكبير والصغير وقصـة هبوط آدم وكتاب بيدبا فى الحكمة عن الهندية ، غير ما نقلوه على لسان الحيوان والطير والانسان ، وهذا يثبت مرة أخرى أن العرب عرفوا المسرح ، بلغة مبسـطة ، وبما يتفق مع طبائعهم وطبيعتهم وتقاليدهم وأحداث حياتهم ، ويظهر هـذا فيما أخذته عنهم أمم معاصرة لهم ، أو لاحقة عليهم ، حتى بلغ العرب قمة الحضـارة ، ثم انحدروا عنها لما انتصر الأعداء عليهم ، ثم احتووا تراثهم ، واكثر ما اهتموا به هو طمس معالم حضـارتهم ، أو نقلهـا اليهم ، وفرض مدنيتهم ، واستئثارهم بالســـلطة والسلطان ، وما فعلوه فى الجزائر وسوريا ولبنان ومصر غير بعيد ، ولولا بقيـة من شجاعة الصبر والثبات ، والتمسك بالعادات والتقاليد ، وحفظ التراث ، لجرف التيار دولة العرب الى مهاوى الضيـاع ، ولولا يقظة العرب بحصولهم على الاستقلال ، وان كان اسـتقلالا ناقصا ومشوها غير كامل حتى اليوم ، اذ ان أصـابع الأعداء ما زالت تعمل فى الخفاء والعلن ، سيـاسيـا واقتصادا ، وعلما وتعليما ، لولا هذه اليقظة ، لما كان لهم مكان بين الأمم الناهضة ، ولضاع ما بقى لهم من تراث معروف أو غير معروف .

الفصل الرابع :

ظواهر مسرحية قديمة

أولا : الرواة والقصاص :

الاستعداد القصصى خاصية يشترك فيها كل الناس، والقاص يختار لنفسه المواقف التى يريدها ، والانفعالات التى يحس بها ، ويستفيد من تجارب الغير، وقد وجد ذلك عند العرب قديما وحديثا ، كما وجد عند الأمم الأخرى ، ويقول المستشرق آدم ميتز: ان وجود اللهجات العربية المختلفة ربما كان السبب فى انتشار وانتعاش تقديم المحاكاة فى المدن ، حيث يلتقى الناس ، ونستطيع أن نعثر فى أدب العصر العباسى مثلا على نماذج تشبه مقطوعات المحاكاة ، وهى الحكايات العربية ، وهى لا تختلف كثيرا عن مضمون المحاكاة الحديثة ، التى تتضمن أسلوب المحادثة والحوار، كما أنها تقلد فى أجزاء منها أنماطا مختلفة من الشخصيات، وقد اتسع نطاق المحاكاة ليشمل فن القصاصين، وهم الذين تميزوا بقدرتهم على الملاحظة والتقليد ، ومنهم المداح والمقلد والحكواتى العربى ، وله حركات وحكايات مؤثرة كانت الاشارات وحركة الجسم تتخللها ، وترتبط فيها بالكلمات ، وتمتزج فيها الملح بالنكات فى لقطات مسلية من تقليد الشخصيات وهى تتكلم وتعمل ،

وكانت الفقرات تصل الى حد التمثيل الصـــــامت (البانتوميم) كنوع من التهدئة الضــاحكة أو الترويح الـكوميدى من التوتر الذى قد تخلقه حكاياتهم (١) . ومدا كله من الأمور المسرحية كما نعرفها اليوم بالمعنى الفني المتعارف عليه أكاديميا .

وقد سبقت الاشارة الى أن العصور العربيــة على اختلافها عرفت الوانا من الاحتفالات التى كان يقيمها الحكام والأمراء والأغنياء فى قصـــورهم ومحافلهم ، وتتضمن فقرات كثيرة من الغناء والموسـيقى وحكايات القصاص ، ومشاهد المقلدين والمضحكين والمهرجين ، فكان المضحك أو المهرج يقلد الحاكم أو الوزير ، فيرد عليه مضحك آخر ، وقد يرد عليه أحد المشـاهدين ، وكان المشهد يتضمن حكاية أو قصة حقيقية أومتخيلة بقصد التسلية بالطبع ، ولـكنها لم تكن تخلو من مغزى أو عبرة ، أو نقد أجتماعى لأوضــاع معينــة ، وقد يشترك فى المشهد الواحد عدد من المقلدين ــ الممثلين ــ يصل الى الخمسة أو يزيدون ، وقــد تحتــدم بينهم منافسة المدح أو القــدح فتروى القصص أو الحكايات التى ترفع البعض أو تهبط بهم . ومما يروى فى هذا الصدد أن رجـلا من بغــداد كان يخرج يومى الاثنين والخميس من كل أسـبوع الى مكان خارج المدينــة ، ويجتمع حوله الناس ، فيصـعد الى مرتفع وينــادى قائلا : « ما فعل النبيون ؟ أليسوا فى أعلى عليين ؟ » فيقولون : نعم ، ثم يأتى برجل يجلسه بين يديه يمثل به أبا بكر ، ويأخذ فى اطراء أعمــاله ، ويأمر به الى أعلى عليين ، ثم يأتونه بعثمان فيصف أعماله ، ثم يعلى

(١) دراسات فى المسرح والسينما عند العرب ــ يعقوب لنداو ــ ترجمة أحمد المغازى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ ص ٣٩ ــ ٤٠ .

ابن أبى طالب فيثنى عليه ويأمر به الى أعلى عليين ؛ ثم يؤتى بمعاوية فيندد بأعماله ، ويقفه فى الظلمة . ويفعل هكذا فى يزيد ، وقد عد بعضهم هذا العمل من قبيل التمثيل (١) . فها هنا محاكاة لأشخاص ، وتقليد لأعمال ، وتوجيه من قائد فريق ؛ أو رئيس فرقة تمثيلية ، أو مخرج مسرحى بلغتنا اليوم . وهنا مكان للتمثيل ومشاهدون ، وها هنا أيضا قصص تقال وعبرة تؤخذ يخرج بها الجمع وهم راضون ، كذلك يسجل المؤرخون أنه كان فى عصر محمد المعتضد بالله العباسى (خلافته من ٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) رجل اسمه ابن المغازلى ، ممن يقصون على الناس ، ويتبعون قصصهم بمحاكاة الصفات والخصائص للأشخاص الذين يقلدونهم ، وكان ابن المغازلى هذا حاذقا فى صناعته ، لايستطيع من يراه ويسمعه أن يمسك عن الضحك ، وقد مثل بين يدى المعتضد شخصيات من جنسيات وطبقات مختلفة ، كالأعرابى والملكى والتركى والنحوى والزنجى ، فكان فيها جميعا يأتى بصورة طبق الأصل من هذه الشخصيات أعجب بها الخليفة وجمهور المشاهدين ، فهذا ممثل فرد يقوم بأدوار فرقة كاملة ، ومتعددة صوتا وحركة ، ولا شك انه كان يأخذ من حياة من يمثلهم حكايات بسيطة يحاكيها ، وقد يشترك معه ممثلون آخرون يقدمون وجهة نظر مخالفة أو مؤيدة ، وقد يشترك فيها أحد المشاهدين بالتعلق ، ومما يذكر أن كتاب العقد الفريد يحتوى على فصول كاملة فى الأمثال والفكاهات والملح وأخبار المتنبئين والبخلاء والطفيليين ، وأيام العرب ووقائعهم وخطبهم ، وخاصة

(١) تاريخ اداب اللغة العربية ـ جرجى زيدان ـ الجزء الرابع ـ دار الهلال ١٩٥٨ ص ١٣٨ فصل : التمثيل العربى .

فى الفصول ٧ ـ ١٧ ـ ٢٢ ـ ٢٥ ، ويقول عنه مؤلفه فى المقدمة : « جعلت هـذا الـكتاب كافيا شـافيـا جامعـا لأكثر المعـانى التى تجرى على أفواه العـامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . » وعلى نمط حكايات العقـد الفريد ، نجد حكايات أخرى لابن النديم فى كتابه : الفهرست ، عن أخبـــار القدماء والجلساء والمغنين والمضحكين فضلا عن أسماء كتبهم وعددها ستة عشر كتابا فى أسماء عشاق الأنس للجن وعشـاق الجن للانس ، وهى كتب زاخرة أيضـــا بالقصص والحكايات ، كذلك نذكر كتاب معجم الأدباء لابن ياقوت الحموى ، وكتاب الأمثال لابن سلام الجمحى ، وكتاب المطرب لابن دحية ، وكتاب الزهرة لمحمـــد بن داود (٢٥٥ ـ ٢٩٧ هـ) ، وغيرها .

ولقد عرف العرب ألوانا من القصص حملت خصائصهم وعاداتهم ودلت عليهم ، وقد سبقت الاشارة اليها ، والذى يهمنا هنا أن نشير الى أن شعوبا أخرى حاكت قصص العرب ، كالفرس والأسبان ، كما حاكاها ادباء عالميون نذكر منهم لوبى دى رويدا (توفى ١٥٦٥ م) ولوبى دى فيجا (١٥٦٢ ـ ١٦٣٥ م) وكالديرون دى لاباركا (١٦٠٠ ـ ١٦٨١ م) فى أســبانيا ، وكورنى (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤) الفرنسى فى مسرحية السيد التى أخذها من احدى قصص العصر الجاهلى ، ومن ايطاليا نذكر دانتى اللجيرى فى الـكوميديا الالهية ، وبوكاتشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥ م) فى قصـــص الديكاميرون ، أو الصباحات العشرة التى كتبها (١٣٤٩ م) وتأثر فيهـا بقصص ألف ليلة وليلة التى كانت منتشرة على أيامه فى مصر والشام ، وقد ضمنها مائة قصـة وحكاية ، أسند روايتها الى سبع نساء وثلاثة رجـال ، اعتزلوا

المدينة جميعا فى بعض الضواحى فرارا من الطاعون ، وفرضوا على كل منهم حكاية يقصها على اصحابه فى كل صباح تزجية للفراغ ، ومن المعروف أن هذه الحكايات ملأت اقطار الدنيا ، واقتبس شكسبير الانجليزى (١٥٦٤ ـ ١٦١٦ م) من احداها مسرحيته : العبرة بالخواتيم (١) ، كما اقتبس منها بازيل (٢) ـ وهو كاتب ايطالى من القرن الرابع عشر الميلادى ـ مجموعته الايام الخمسة ويروى فيها قصصا كان أهل نابولى يتناقلونها شفاها ، وهى من أصل تركى وعربى . ونذكر أيضا قصص كليلة ودمنة التي نقلها ابن المقفع الى العربية ، ثم ترجمت من العربية الى الاسبانية ١٢٥١ م ، ثم اللاتينية ١٢٦٣ م بعنوان المرشد الى الحياة الانسانية ، ومن ثم انتشرت فى أوربا انتشارا واسعا ، ونذكر ترجمة رحلات السندباد الى العبرية وانتشارها فى أوربا بعنوان : « الرؤساء الحكماء السبعة » ، كما نذكر ترجمة بطرس الفونسو لمجموعة من القصص العربية فى أوائل القرن الثانى عشر ، وضمنها كتابه : « تعليم الكتاب » باللاتينية حيث أخذ موضوعات ٣٤ قصة عربية منها حكاية الصديق غير الصدوق ، وحكاية صاحب الكروم ، وحكاية الكلبة الباكية ، وحكاية الفلاح الطائر ، وقصص الشاعر والاحدب ، والينبوع والاعمى وزوجته ومنافسه ، والصناديق العشرة ، وكيس النقود ، واللص وضوء القمر .. الخ ، ومن حكايات لقمان الحكيم أخذ خوان مانويل ـ الاسباني (١٣٣٥ م) ٥٤ حكاية

---

(١) أثر العرب فى الحضارة الاوربية ـ عباس محمود العقاد ص ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢) دور العرب فى تكوين الفكر الاوربى ـ عبد الرحمن بدوى ـ مكتبة الانجلو ١٩٦٧ ـ الطبعة الثانية ص ٧٤ ـ ٩٧ .

ضمنها كتابه : «تبروئيو أوكوند لوكانور» ومعناه لقمان الحكيم ، ومنها حكاية التـاجر الذى عاد من الغربة ، وتتضمن مفزى مسرحية عطيــل لشكسبير ، غير أن مانويل كان ينهى حكاياته بنهايات سعيدة ، بينما أصولها العربية كانت تنتهى أحيانا بنهايات فاجعة . واستوحى الشاعر الالمانى فريدريش شيللر (١٧٥٩ ــ ١٨٠٥ م) قصتــه الشعرية « الذهاب الى مصهر الحداد » ، من القصة العربية « أحمد اليتيم » وقصتــه : « الرهن أو الضمان » من القصة العربية « الطائى وشريك » ، أما قصص ألف ليلة وليلة فقـد كانت نبعا لا ينضب القصص الاوربى وخاصــة عند الاخوين جريم (جيوم ١٧٨٦ ــ ١٨٥٩) وجاك لويس (١٧٨٥ ــ ١٨٦٣) فى قصصهما الشعبيــة الالمانية ، مثــل حكايات الاطفــال والبيت ، ومثل حكاية الصيــاد وزوجتــه رقم ١٩ ، وحكاية المــاكر وسيده ، وحكاية الطيــور الثــلاثة ، وحكاية عين الحياة . واستوحى منها هرفيز دى متز ملحمته فى القرن الثانى عشر ، كذلك استوحى منهــا سويفت (١٦٦٧ ــ ١٧٤٥) رحلات جلفر ، واقتبس منها لسنج الالمانى (١٧٢٩ ــ ١٧٨١) مسرحيته ناثان الحكيم ، ووضع تشوسر الانجليزى (١٣٤٠ ــ ١٣٩٩) قصص كانتربرى وخاصة قصــة : « الســيدة » على نمطها وكذلك منظومته : سكوايرتيل ، كما تأثر بها ديفو (١٦٦٠ ــ ١٧٣١) فى قصته : روبنسون كروزو ومن رسالة حى بن يقظان للفيلســوف العربى ابن طفيــل (توفى ٥٨١ هـ) ، وتأخذ ملحمة فرنسـا : قصة رولان موضــوعها من قصة عنترة العبسى العربية التى تبرز معالم البيئة العربية وتقالبدها ، ومما يذكر أن قصــة رولان كانت فاتحة النهضــة القصصيــة الاوربيــة فى

العصر الحديث (١) . كما تأخذ قصة كارمن الأندلسية ـ والتي استغلها بيزيه فيما بعد فى أوبراه الموسيقية الشهيرة من قصة مضاض العربية ، وهى القصة العاطفية من العصر الجاهلى . ولا تخلو الآداب الاوربية التى عاصرت القصص العربى القديم من بطل اسلامى أو نادرة اسلامية كما عند اديسون وبيرون وسوذى وكولريدج وشيلى من الانجليز، وجوته وهردر وهاينى من الالمان ، وفولتير ومونتسكيو وهوجو ولافونتين من الفرنسيين ، وقد صرح لافونتين مرة بأنه تأثر فى أساطيره وحكاياته بكتاب كليلة ودمنة الذى عرفه الاوربيون عن طريق العرب .

ولقد عرف العرب القصة منذ جاهليتهم ، وكانت تدور حول الوقائع الحربية التى وقعت بين القبائل : كيوم داحس والغبراء ، ويوم الفجار ، ويوم كلاب أو يوم ذى قار ، وكانت هذه القصص موضوعهم الاثير فى سمرهم ، وانتقلت معهم أيام اسلامهم ، ونجد فى تراث العرب المقروء كتبا كثيرة أشارت الى عدد من القصص العربى القديم نذكر منها ـ وسبق الاشارة الى بعضها ـ كتاب أمثال الميدانى ، وقيد الاوابد للبنجديهى ، وكتاب العالم الذى بداه احمد بن ايان ، وجمهرة الامثال للعسكرى ، والمستقصى للزمخشرى ، والفاخر للمفضل ابن نهمة ، وتزيين الاسواق للانطاكى وغيرها .

ومن نماذج القصص العربى الواقعى نذكر قصة المنخل اليشكرى والمتجردة زوج النعمان ، وقصة شريك مع المنذر ، وقصة رجل بنى ضبة ، وقصة النضر بن الحارث ذات الاصل الفارسى ، وذكرها ابن

---

(١) القصة العربية القديمة ـ محمد مفيد الشوباشى ـ المكتبة الثقافية ١٠٦ أول ابريل ١٩٦٤ ص ٤٧ .

هشام فى سيرته ، وأحاديث رستم واسفنديار الفارسية ، وغيرها .

ومما يذكر أن القصة فى صدر الاسلام كانت عملا رسميا ، وأول من قص فى مسجد الرسول هو تميم الدارى فى خلافة عثمان بن عفان ، وكان نصرانيا من اليمن واسلم فى السنة التاسعة من الهجرة ، وقد ذكر للنبى صلى الله عليه وسلم قصة الجساسة والدجال(١) وصورة هذه القصص أن يجلس القاص فى المسجد، وحوله الناس فيذكرهم بالله ويقص عليهم حكايات وأحاديث وقصصا عن الامم الاخرى والسابقة ، ولا يعتمد فيها على الصدق بقدر ما يعتمد على الترغيب والترهيب ، فهى نوع من القصص الاخلاقى الداعى للايمان ، ويقول الليث بن سعد (٢) : ان القصص النى عرفها العرب نوعان : قصص للعامة ، وقصص للخاصة، فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم ، وأما قصص الخاصة ، فهو الذى جعله معاوية أمرا معترفا به ، اذ ولى رجلا على القصص للترويج لحزبه والدعوة له ، ثم ارتفع شأن القصص ، حتى رأيناه عملا رسميا ، يعهد به الى رجال رسميين ، يعطون عليه أجرا ، ويذكر الكندى فى كتابه « القضاة » أن كثيراً من القضاة كانوا يعينون قصاصا أيضا ، وكان أول من قص بمصر هو سليمان بن عتر التجيبى عام ٣٨ هـ ، وجمع له القضاء الى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص ، وعن هذا الطريق

(١) فجر الاسلام ــ أحمد أمين ص ٦٦ (انظر : أسد الغابة الجزء الاول ص ٢١٥) الجزء الاول ــ الطبعة العاشرة ــ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ .

(٢) فجر الاسلام ــ ص ١٥٨ ــ ١٥٩ ، ١٦١ ، ومن أشهر الرواة العرب نذكر حماد الراوية (أبو القاسم حماد بن أبى ليلى) .

دخلت العربية قصص كثيرة من قصص الامم الاخرى وأساطيرها . فضلا عن القصص العربى الاصيل الذى استمد من البيئة العربية موضوعاته ، والتاريخ العربى يزخر بنماذج كثيرة منها ، وهى قصص درامية جيدة ؛ وبعضها يحتوى على حوار نثرى أو شعرى طريف ، فقد كان العرب ذوى خيال واسع ، وتفكير منطلق بحكم الطبيعة الصحراوية المترامية الاطراف ، والمليئة بالجبال والتلال والسفوح أو الرمال المنبسطة والممتدة الى ما لانهاية ، فاذا جن الليل ، وبزغ القمر أو افل ، ترى القوم وقد انبهرت منهم المرائى ، وسرح الخيال ، ويكفى أن نعلم أن حديث خرافة ليس بخرافة ، بل هو حديث صحيح عن رجل كان يدعى « خرافة » ، زعم يوما ان الجن اختطفته ومكث عندهم مدة ثم أعادوه الى قومه ، فراح يحكي غرائب مشاهداته فى بلاد الجن، وعجائب ما وقع له منهم ، فكان قومه يستمعون اليه ويعجبون به ، ثم يقولون : « أحاديث خرافة » وقد ضاعت حكاياته مع ما ضاع من قصص وتراث (١) . وشبيه بخرافة هذا قصاص عربى آخر يدعى سهل ابن أبى غالب الخزرجى ، الذى وضع كتابا فى الجن وأخبارها ، وحمله الى هرون الرشيد (خلافته من ١٧٠ ــ ١٩٣ هـ) ، فكان تعليقه بعد أن قرأه : « ان كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجبا ، وان لم تكن رأيته فقد وضعت أدبا » .. فخرافة والخزرجى كلاهما ممثل يحكى ، أو مؤلف يتخيل ، أو راو من خيال منطلق .

وتقرأ فى الادب العربى قصصا ، وحكايات تروى عن

(١) العرب فى قصصهم ــ عباس خضر ــ الدار القومية للطباعة والنشر ص ٥ ــ ٦ .

أشـخاص ، بعضـها حدث بالفعل ، وبعضها متوهم أو مصـنوع ، وكلا النوعين ادب قصصى فيه الحادثة المتكاملة ، والحوار الطريف ، ولا ينقصه غير التمثيل، وان قام راويها بتمثيل وقائعها وأحداثها وأشخاصها، فهذا قد لايكفى نقاد الدراما المعاصرة ، ممن يأخـذون بقواعد ارسطو وغيره ، ولا يرضيهم غير مسرح متكامل البناء ، وقصص تعد خصيصا ليشاهدها جمهور لابد أن يحجز للعرض مقعدا ، وينوى من قبل ذلك على سهرة درامية !.. ولو رجع هؤلاء الى التاريخ ، لوجدوا أن مسرحهم المفضل ـ يونانيا أو رومانيـا أو صينيـا أو هنديا ـ بدأ هكذا ، بقصة تروى ، أو حكاية يقوم بها ممثل فرد جوال أو مستقر ، ثم تطور ، هـذا المسرح البدائى ، عند العرب أيضا الى مسرح متكامل ، وادب درامى ، ستقرأ له أمثلة كثيرة فى هـذا الكتاب ، ويكفى هنا القول بأن المسرح بدأ عنـد العرب كما بدأ عند غيرهم من الأمم ، فـكرة بسيطة ، وممثلا فردا ومسرحا بدائيا ، وجمهورا غير مقيد ، ولا يشترط فيه شىء ، بل ولا يطلب منه أن ينوى على شىء !..

ومما نقرؤه فى الادب العربى القديم بعض القصص التمثيلية التى تدور على لسـان الطير والحيوان ، أو حول شخصيات انسانية مثل قصة الحارث بن عوف، سـيد بنى عبس ، الذى ذهب الى أوس بن حارثة ليخطب منه احدى بناته ، المكان خيمـة ، والملابس عربية ، واللسان فصيح ، والحوار كما يلى :

أوس : مرحبا بك ياحارث ، ما جاء بك ؟
الحارث : ويك يا أوس ، لقد جئتك خاطبا .
اوس : لست هناك (ومعناها الرفض)

(صمت ـ يتجه أوس نحو زوجتـه وهو متجهم)

الزوجة : من الرجل الذى وقف عليك فلم يطل ولم تـكلمه ؟

اوس : ذاك سـيد قومه الحارث بن عوف ، جاء خاطبا ورددته .

الزوجة : أولا تريد أن تزوج بناتك ؟ فاذا لم تزوج الحارث فمن ؟

(ويستمر الحوار حتى تسترضيه الزوجة ، فيلحق اوس بالحارث ويعود به ، ثم يتركه ويتجه نحو بنـاته الثلاثة يخاطبهن واحدة واحدة) :

الابنـة الـكبرى : لست بابنة عمه فيرعى رخمى ، وليس بجارك فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى .. (معنى هذا انها ترفض ، وكذلك رفضته الوسطى)

الابنة الصغرى : انى والله الجميلة وجها ، الصناع يدا ، الرفيعة خلقا ، الحسيبة أبا ، فان طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير ..

هكذا يدور الحوار حتى تنتهى القصـة بزفاف الحارث الى عروسه بعد أحداث كثيرة تدل على شهامة العربى وشجاعته ، وذكاء المرأة وحسن تصرفها (١) .

ولنقرأ معا قصة أخرى ، وهى قصة عمارة (٢) ، الحسناء العربية التى كانت تعمل جارية عند عبد الله ابن جعفر ، وكان يحبها ، ولما رآها يزيد ، وقعت فى قلبه ، ويدور الصراع بين الرجلين عنيفا ، ويستشير

(١) المرجع السابق ص ٧ ـ ٢٠ .

(٢) من قصص العرب ـ عبد الحميد ابراهيم أحمد ـ سلسلة من الشرق والغرب ، دار الكاتب العربى ـ القاهرة ١٩٦٧ ص ٨٩ ـ ٩٢

يزيد أصحابه ، فينصحوه بأن يلجأ الى الحيـــلة ، فيستأجر شخصا يتحايل على ابن جعفر حتى يصبح من أصدقائه ، وأولم له مرة ، وغنت عمارة ، فقدكانت حسنة الصوت ، ودار الحوار :

ابن جعفر : هل رأيت مثل عمارة ؟

الضـــيف : لا والله ياسيدى ، ما رأيت مثلها ، وما تصلح الا لك ..

ابن جعفر : (منتشيا) : ذلكم سرورى .

الضيـــف : ياسيدى انى والله أحب سرورك ، وما قلت لك الا الجد ، وبعد فانى تاجر أجمع الدرهم الى الدرهم طلبا فى الربح ، ولو اعطيها بعشرة آلاف لاخذتها

ابن جعفر : (متعجبا) : عشرة آلاف ؟ !

الضـــيف : نعم ..

ابن جعفر : (وكأنه يتحدى ، ولـكنه على ما يبـدو غير جاد) : أنا ابيعها بعشرة آلاف ..

الضـــيف : وأنا أخذتها ..

ابن جعفر : (وكأنه يمزح) : هى لك .

الضـــيف : وقد وجب البيع ..

وبعد أحداث يضطر ابن جعفر الى الوفاء بكلمته ، فيسلمها للضيف الذى يذهب بها حيث يزيد ، الذى يتصادف موته ، فيهبها خليفته معاوية له ، فيعود الى ابن جعفر يردها عليه ثانية بحجة انه راى مدى صبره عليها ووفائه بعهده .

وكثيرة هى القصص العربية الدرامية ، وكثيرة هى الـكتب التى تحتوى عليها ، نذكر منها ــ الى جانب ما ذكرنا ــ الـكتب الآتية :

ــ تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق للشيخ محمد داود الانطاكى ، ومطبوع بالقاهرة ١٩٥٢ باشراف

لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ــ كتاب التيجان فى ملوك حمير عن وهب بن منبه ، ومطبوع فى حيدر أباد بالهند عام ١٣٧٤ هجرية ١٩٥٤ ميلادية .

ــ ذم الهوى للامام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ــ وتحقيق مصطفى عبد الواحد ــ مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٦٢ .

ــ روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية، وتصحيح أحمد عبيد ــ مطبعة السعادة ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٥ م .

ــ طوق الحمامة فى الالفة والالاف للامام ابن حزم الاندلسي (٣٨٤ ــ ٤٥٦ هـ) وتحقيق حسن كامل الصيرفى ــ مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٥٠ .

ــ مصارع العشاق للشيخ أبى محمد جعفر بن أحمد ابن الحسين السراج ــ مطبعة التقدم بالقاهرة ١٩٠٧.

ــ الموشى أو الظرف والظرفاء لأبى الطيب محمد بن اسحق بن يحيى الوشاء ــ تحقيق كمال وصفى ــ مطبعة الخانجى بالقاهرة . وغير ذلك كثير ..

ولا شك ان هذه القصص ــ أو أغلبها ــ تصلح لتحويلها الى مسرح كامل ، غنى بالديكور والمناظر ، وبعضها يصلح أوبرا ، أو أوبريت لما يحتويه من موسيقى أو غناء ، وبعضها يحتاج لخشبة مسرح دوارة تقسم الى عدة أقسام حيث تجرى المشاهد سراعا ، فيمكن تغييرها بسهولة ، وهنا يمكن القول ــ بلا مبالغة ــ ان القصة العربية على قدمها وتطورها ، تحتوى على بذور الدراما ، كما نعرفها اليوم ، ولا تحتاج لغير جهد البحث والتنقيب والاعداد لتلائم روح العصر، بل حبذا لو احتفظنا لبعض القصص بجوها التاريخى وأحداثها

كما هي لتحسن المقارنة بين مسرحين ، ويوم نفعل ذلك سنجاهر ، بالفخر ، بأن أدبنا العربي عرف المسرح قديما ، كما عرفه حديثا ، وان الفرق هو فى الزمن والبيئة فحسب .

ولعلنا نتذكر — ونحن ما زلنا فى مجال الكتب القصصية ، والقصص العربية الدرامية — قصص البخلاء للجاحظ (١٥٩ — ٢٥٥ هـ) التى استمدها من بيئته العربية — ومن مدن العراق مثل البصرة على الاخص — فهى تدور حول أشخاص عاشوا معه ، وحوله ، وممن خالط وخالص ، ثم خلع عليهم جميعا أسلوبه الساخر ، وحكاياته الناقدة ، فبدت لنا صورا حية نابضة من حياتهم ، وكيف كانوا يتعاملون ويتفاهمون كما تدل على ما كان للجاحظ من احاطة بأساليب الحياة فى بلاده وعصره (١) ، وقدرة على الوصف والخيال والتصوير فى أسلوب فكه ، وكل قصة منها — والكتاب يحوى أكثر من مائة قصة — تدور حول البخل والبخلاء ، وكان الجاحظ واحدا منهم ، وقد روى على لسانه بعض القصص التى تصور حاله ، أو ترمز اليه ، وكل قصة — بما فيها من حوار — تصلح مشهدا تمثيليا قصيرا ، فيه البسمة ، والسخرية ، ودقة الوصف والتعبير ، وهذا نموذج منها ، فقد زعموا أن رجلا بلغ فى البخل غايته ، وكان اذا صار فى يده الدرهم خاطبه قائلا : كم من أرض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت .. لك عندى الا تعرى ولا

(١) كتاب البخلاء — أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — ضبط وشرح وتصحيح أحمد العوامرى ، على الجارم — جزءان — مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٧ ، ١٣٥٩ هـ (١٩٣٨ — ١٩٤٠) ص ٤ — ١٢ (المقدمة) .

(٢) البخلاء — الجزء الثانى — ص ٥٧ — ٥٨ .

تضحى ، ثم يلقيه فى كيسه وهو يقول له : اسكن على اسم الله فى مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه ، وفى يوم الح عليه أهله فى شراء شىء بدرهم ، فرضى أخيرا وأخذ الدرهم وذهب فرأى أحد الحواة يلف على نفسه أفعى لقاء درهم يأخذه ، فقال فى نفسه : أتلف شيئا تبذل فيه النفس بأكلة أو شربة ، والله ماهذا الا موعظة لى من الله ، فرجع الى أهله ، ورد الدرهم الى كيسه، فلما مات هذا الرجل ، قدم ابنه فاستولى على ماله وداره .

الابن : ما كان أدم أبى ؟ (أى طعامه)

قالوا : كان يأتدم بجبن عنده ..

الابن : اورنيها .. (فاذا فيها حز بالجدول من اثر مسح اللقمة)

الابن : ما هذه الحفرة ..

قالوا : كان لا يقطع الجبن ، وانما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى .

الابن : فبهذا أهلكنى ، وبهذا أقعدنى هذا المقعد ، لو علمت ما صليت عليه

قالوا : فأنت كيف تريد أن تصنع .. ؟

الابن : أضعها من بعيد ، فأشير اليها باللقمة !

وتقترب نوادر جحا (١) من بخلاء الجاحظ ، فى قصر مشاهدها ، وبليغ مقاصدها ، وساخر أفكارها ، وضاحك أسلوبها ، ومنها هذه النادرة : فقد كان جحا يوما مارا فى السوق فجاءه رجل من خلفه وصفعه صفعة شديدة .. فالتفت اليه جحا :

جحا : ما هذا ؟ !

(١) نوادر جحا الكبرى - جمع حكمت شريف - المكتبة التجارية - القاهرة .

الرجل : (معتذرا) عفوا ياسيدى الشيخ ، ظننتك احد أصدقائى الذين لا تكليف بينى وبينهم .

(فلم يتركه الشيخ وساقه الى المحكمة ، واتفق أن القاضي صديق للرجل ولـكنه حكم على جحا بأن يصفع الرجل كما صفعه ، ولـكن جحا لم يرض بذلك
القاضي : ما دمت غير راض، عن هذا الحكم فاننى أحكم بأن يدفع لك عشر دنانير جزاء نقديا .
(للرجل) : اذهب واحضر الدراهم ليأخذها الشيخ

(جحا ينتظر طويلا ، واخيرا اتضح أن القاضى أفسح للرجل وقتا حتى يهرب ، وحينئذ تقدم جحا من القاضي وصفعه صفعة قوية :
جحا : يامولاى القاضي ، أنا مشغول جدا ، أرجو أن تأخذ الدراهم متى جاء بها الرجل ، وخرج .

كذلك تقترب حكايات كليلة ودمنة لبيدبا الفيلسوف والتى ترجمها عبد الله بن المقفع ، بفارق أنها تدور على لسان الطير والحيوان ، مما يجعلها تصلح مسرحيات عرائسية للاطفال ، تقدم لهم مشاهد باسمة وساخرة لحوار درامى طريف ، يعجب الصغار ، والكبار أيضا ..



وكما كثرت القصص العربية وتنوعت ، كثر القصاص والرواة أيضا ، وقد سبق أن ذكرنا بعض النماذج لهم، وتبقى صورة طريفة نشأت من قديم ، وما زلنا نراها حتى اليوم فى الريف وبعض الاحياء الشعبية فى المدينة، وتلك هي صورة الحكواتى ، الممثل الفرد الذى يسرد حكاياته أمام حشود من الناس فى الاسواق والساحات الواسعة أو الميادين الكبيرة حيث يجتمعون بعد عمل أو تجارة أو صلاة جمعة أو عيد أو مناسبة دينية

معروفة ، وكان فى بداية ظهوره يتخذ صحن المسجد أو الدار مسرحا له ، وقد يقف على منصة عالية ، أو يجلس على دكة خشبية ، او بين الناس ، وكان يلقى قصصه بصفة مستمرة دون انقطاع الا لاستراحة قصيرة يسترد فيها أنفاسه ، ويستريح فيها المشاهدون ، لذلك لم يكن هناك وقت كاف لتغيير ملابسه ، وانما كان التلوين الصوتى يعطى سمات الشخصية وانفعالاتها كما كان يغير غطاء الرأس أثناء العرض لبيان الحرف المختلفة لاصحابها ، أو بيان أجناسهم وأعمارهم ، وكان احيانا يستخدم منديلا أو عصا يقلد بها الوحوش والطير (١) . وهكذا كان الحكواتى يقوم مقام فرقة مسرحية بأكملها ، وقد يستعين بزميل أو زميلين له يساعدانه فى تصوير الشخصيات ، أو يردان عليه ببعض جمل الحوار ، أو بتقليد حركات معينة ، حتى لقد بلغوا خمس شخصيات فى نهاية العصور الوسطى العربية ، أما الجمهور المشاهد ، فقد كان يسمع ويرى ويعجب بالتصفيق تارة ، وبالكلمات تارة ، وبالتعاطف حركة وشعورا فى بعض الاحيان ، وكان الحكواتى يقلد بالحركة والاشارة والصوت ، لدرجة تقنع مشاهده بواقعية ما يقدمه ، كان ينقل بصوته مواقف الوعيد والزجر والغضب ، ويحكى بنبراته مشاعر الفوز والنصر والغزل ، ويقلد غير العرب بلهجتهم وحركاتهم ، ويعمد فى كثير من الاحيان الى ابراز ما يشبه الحوار الدرامى بين رجلين أو امرأتين أو رجل وامرأة ، مقلدا صوت المرأة ، أو بين أطفال ، فيحاكى صوت الاطفال ، أما لغة التمثيل فكانت الشعر أحيانا ، والنثر فى كثير من الاحيان ، وقد يجمع بينهما ، كل فى موضعه ، وبالطريقة

---

(١) دراسات فى المسرح والسينما عند العرب ـ لنداو ـ ص ٤٠ .

المناسبة للالقاء لكل منهما ، وقد يصحب آلة موسيقية معه لتقوم بدور الايقاع ، أو اللحن ، أو الايحاء بمعنى معين لتأكيد الحدث ، ولقد عثر الباحثون على نماذج عديدة من الحوار القصصي على لسان الحكواتي وتابعيه وذلك مثلما جاء في سيرة بني هلال ودار بين الجازية والحارس (١) :

الحارس يقف على باب تونس ، والجازية تحتال عليه لكي يفتح لها ولجمع من النسوة من بني هلال ، وقد تنكرن في زى البائعات ، ومعهن أبو زيد الذى تنكر هو الآخر في زى امرأة على الرغم من سمرة بشرته :

الجازية : يابواب منصور ، افتح لي باب السور ، ندخل بدستور ، ونبيع العطارة

الحارس : المفتاح ما هو بيدى ، أروح اشاور سيدى ، ذا الباب الحديدى ، فتحه مشاورة .

الجازية : افتح وكون طايع ، جبنالك بضايع ، وتحت بدايع ، تصلح للامارة .

الحارس : لا افتح ولاش ، ولا عقلي بلاش ، انتم كنتم عطاش ، اشربوا من البيارة . وهكذا يستمر الحوار بهذه اللغة الدارجة الشعرية ، وبهذا الاسلوب المسرحي الخالص ، وهو أسلوب ينقل لنا صورة من لغة العصر ، لغة الحديث المتداول يومئذ ، كما انه ينقل صورة واضحة من العادات والتقاليد السائدة .

عرف الحكواتي في الدول العربية ، واخذ في كل منها صورة متشابهة وباختلافات بسيطة لا تكاد تذكر ، لانها تلتقي في النهاية بشكل واحد ، فهو في تونس يسمى : « الراوية » ، يجلس على منصة عالية جدا ، ومعه

---

(١) الشاعر والربابة ــ بحث عبد الحميد يونس ــ المجلة ٣٨ فبراير ــ ١٩٦٠ ص ٢٢ ــ ٢٩ .

عصا طويلة يرد بها على المتخاصمين والمتناحرين حول أبطال السير الشعبية ، ويمنعهم من أن يقتتلوا حول مصائر الابطال ، ويدافع بها أيضا عن نفسه حين تقضى وقائع السيرة بأن ينتصر بطل على بطل ، فيثور انصار المهزوم ، بل قد تصل الامور الى حد ضرب الراوية نفسه ! وعرف مسرح الراوى فى المغرب باسم « مسرح الحلقة » ، حيث يتحلق أو يتجمع حوله عشرات من المتفرجين على شكل حلقة يدور فى وسطها التمثيل، اما الممثلون فيقومون بادوار ثابتة ، يعرفونها مسبقا ، ويلبسون لها الملابس الملائمة ، ويديرون ظهورهم او وجوههم للمتفرجين لكى يروا التعبيرات المختلفة التى تتناسب معها ، وقد يصل ذلك الى حد اشراك بعض المتفرجين معهم زيادة فى الاهتمام بالعرض بين الحين والحين ، وذلك عن طريق توسيع الحلقة أوتضييقها (١) ولعل الشاعر عبد الله الجذوب يكون مثالا حيا على هذا المسرح المغربى منذ القرن السادس عشر ، وقد قضى حياته جوالا يحكى ويقص ، وله ديوان مكتوب تحفظه الرواة هناك . وقد استمر هذا المسرح فى المغرب الى اليوم ، حيث يقوم على رعايته واستمرار رسالته فنانون مثل : عبد الله سنوقى وأحمد الطيب العلج والطيب الصديقى ، ويقوم مسرح الحلقة ، أو مسرح الحلبة ، أو مسرح البساط ، وكلها مسميات لاشكال متقاربة ، على استيحاء التراث العربى القصصى القديم ، وملاءمته لواقع الحياة المعاصرة سياسيا واجتماعيا وثقافيا ، ومن يقدمونه من تراث مسرحى قديم بشكل معاصر قصص جحا ومقامات الهمذانى ،

---

(١) الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى ــ على الراعى ــ كتاب الهلال ٢١٢ نوفمبر ١٩٦٨ ص ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

وحكايات المداحين والمقلدين والحكواتية وغير ذلك ..

وقد عرفت الجزائر هذا اللون من التمثيل أيضا ، وكان مسرحه فى ساحة القرية ، ويدور الحوار بين شخصين يؤديان بعض المشاهد الفكاهية التى تتناول حياة القرية ، ويمثلان أحيانا مشاهد قصيرة تتخذ أسلوب المنولوج حيث يقلد الممثل ـ الذى كان يطلق عليه اسم « الجوال » ـ شخصيات الفارس والمناضل والبطل القومى ، وقد ظلت هذه الصورة للجوال فى الجزائر فترة طويلة حتى جاء الاحتلال الفرنسى فأبطلها مع ما أبطله من صور تمثيلية أخرى مثل خيال الظل والقره‌كوز ـ عام ١٨٤٣ ، لكثرة ما كانت تقدمه من سخرية وتعريض بجنود الاحتلال ، وأساليبهم فى معاملة الشعب ، ولكنها رغم ذلك ظلت منتشرة فى قرى الريف بشكل سرى ، ثم عادت بعد الاستقلال تحتل مركزها ، وتتطور مع ألوان الفنون الاخرى (١) .

وقد عرفت تركيا ـ وصلاتها بالعرب والاسلام معروفة منذ قديم ـ ألوانا درامية منذ غزاها السلاجقة فى أوائل القرن الخامس عشر (١٠٧١ م) ، فقد عثروا فى سهول آسيا الوسطى على نصوص من المجادلات والمحاورات العلنية التى يمكن اعتبارها مسرحيات مرتجلة من فصل واحد ، وهذا دليل على أن تركيا عرفت الدراما قبل ذلك التاريخ ، أما العثمانيون الاتراك فكان من المعروف ولعهم بفنون الرقص والغناء الفردى والجماعى ، والمحاورات المرتجلة التى كانت تعبر عن نوع خاص من ألوان الفن الدرامى ، وانشئت فرق تقدم هذا اللون ـ حتى فى فصائل الجيش ـ وتضم

---

(١) المسرح الجزائرى ـ ارليت روث ـ عرض سمير عوض ـ مجلة المسرح ـ العدد ٤٩ يناير ١٩٦٨ ص ٦٢ ـ ٦٥ .

ممثلين وراقصين ومغنين محترفين ، وقد أثبتت الاوصاف التى تركها مؤرخو المسرح التركى (١) أن ثمة نوعا من التمثيليات كان يقدم فى الاحتفالات والافراح ، وهى كوميدية يقوم بأدوارها الرجال فقط ، وتعتمد على الارتجال أيضا ، مع القدرة على الابتكار فى الحوار المنطوق ، وقد ظل هذا اللون سائدا فى تركيا حتى أواخر القرن التاسع عشر ، حيث عرفت المسرح بشكله الحديث والمعاصر ..

وعرفت مصر الممثل الجوال أو الحكواتى أو المحبظ ، وكل منهم ممثل فرد يقدم عروضه فى النوادى أو الشوارع أو الاحتفالات الشعبية أو فى حفلات الزواج والختان فى بيوت الاغنياء ، وكان يجتذب اليه جموع المتفرجين والمستمعين فى الاماكن العامة كالميادين والساحات الواسعة أو أجران القرى ، وكان أحيانا يصحب معه صبيا ليقوم بأدوار صغار السن ، كما كان يؤدى أدوار النساء بعد أن يرتدى زيهن ، أما العرض فكان يبدأ بالموسيقى والرقص ، ثم يليه مشهد تمثيلى له قصة كاملة من لون النقد الاجتماعى الساخر ، وقد يقوم بالادوار أكثر من محبظ واحد لعرض جوانب القصة وأشخاصها ، وقد يتبادل الممثلون النكات والتعليقات مع الجمهور ، وكانت تعتمد على الارتجال وحضور البديهة ، وبعضها يعد مسبقا ويرتجل بعض حوارها أثناء التمثيل ، وكان الممثل يعد مؤديا ومؤلفا معا دون تخصص فى عمل معين ، كما كان تجاوب الجمهور يجرى معه بالتعليق أو الاعجاب المسموع أو

(١) ألوان من النشاط المسرحى فى العالم — مختار السويفى — كتب ثقافية — الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٢ — عدد ١٦٨ ص ٤٧ — ٤٩ .

التنديد المصحوب بالعنف ، ويروى الرحالة الدانمركى كارسنين نيبر (١) انه شاهد مسرحية مصرية عام ١٧٨٠ ـ قبل الحملة الفرنسية ـ تمثل باللغة العربية ، وكان يؤدى الدور الرئيسى فيها ـ وهو دور سيدة ـ ممثل لم يستطع أن يخفى لحيته الكبيرة مما جعل المتفرجين لايقتنعون بالدور ، واكرهوا الممثلين على التوقف من منتصف المسرحية ، وكان التمثيل فى مصر ـ فى ذلك الوقت ـ ينزع الى وصف الحياة الشعبية ، واستخدام اللهجات الخاصة كوسيلة للاضحاك ـ كلهجة التركى مثلا ـ الى جانب الارتجال الذى كان معروفا وممارسا فى التجمعات الشعبية المختلفة منذ أيام الفاطميين .

ومن هذا ما يرويه الرحالة الايطالى بلزونى من أنه شاهد مسرحيتين قصيرتين ، تدور الاولى حول رجل يريد أداء الحج ، ويذهب الى راعى ابل ويطلب اليه أن يحصل له على جمل مناسب يركبه الى مكة ، ولكنه يغش الحاج فيطلب مبلغا أكبر مما عرضه صاحب الجمل ، بينما يدفع له مبلغا أقل ليحتفظ بالفرق لنفسه ، ويغش صاحب الجمل هذا الراعى فيعطيه جملا ضعيفا .. وفى النهاية ينكشف الخداع ، فيهرب الراعى بعد علقة حامية ، وتدور المسرحية الثانية حول أحد أولاد البلد يصطحب سائحا أجنبيا الى بيته وفى ضيافته ، وحين يأتى وقت الطعام يكتشف أن ليس لديه غير اللبن الرائب وخبز الاذرة ، وذلك بعد مواقف ضاحكة بينه وبين زوجته من جهة ، وبينه وبين السائح من جهة أخرى ، والتمثيل فى تلك المسرحيتين يجرى باللغة العامية ، وبينها لهجة الخواجا

---

(١) الكوميديا المرتجلة ـ على الراعى ص ٢٠ ، وكتابه فنون الكوميديا ـ كتاب الهلال العدد ٢٤٨ سبتمبر ١٩٧١ ص ٧٥ ـ ٧٩ .

السائح ، ويدور التمثيل على خشبة تشبه خشبة المسرح ، والجمهور يدخل ويشاهد فى وقت معلوم ولقاء رسم بسيط ، ثم نقرأ للمستشرق ادوارلين وصفا لمسرحية قصيرة شاهدها فى قصر الوالى محمد على بمناسبة ختان واحد من أبنائه ، وهى تدور حول فلاح فقير يدين لجباة الضرائب بألف قرش ، لم يدفع منها سوى خمسة فقط ، ولانه فقير وغير قادر على دفع المبلغ تكون النتيجة أن يسجن ، وتعمل زوجته على الافراج عنه بتقربها لاحد الوسطاء ثم لشيخ البلد ، ثم للناظر الذى يعجب بها فيعمل على اخراج زوجها من السجن . وهذه المسرحية تتخللها ألوان الموسيقى والرقص الى جانب التمثيل ، وتلبس كل شخصية الزى المناسب لها وتنطق بلهجتها المعهودة ، ويعلق على الراعى (١) على ذلك بقوله : « لو تخيلنا دارا كبرى للملاهى ، يعمل على أرضها الحاوى والمحبظ ومسرح الاراجوز ، وخيال الظل ، لاستطعنا أن نحيط بالطاقة التمثيلية الكبرى التى تمتع بها أهل بلدنا قرونا طويلة قبل أن يفد المسرح الاوربى الى بلادنا » . ولكن هل ينفى عدم وجود الدار وجود التمثيل ؟ بالقطع لا ، لان بلادنا العربية كلها عرفت الدراما ، والتمثيل ، منذ عرفت الحياة ، ومنذ أخذ الادب العربى ينتقل شفاها عن طريق الرواة قبل التدوين بقرن ونصف على الاقل، ولم يعرف التدوين الا مع مطلع العصر العباسى فى منتصف القرن الثانى الهجرى ، علما بأن الرواية شفاها تعتمد على الذاكرة والحفظ ، والحافظة قد تخطىء أو تضع كلمة مكان كلمة ، والراوى قد يروى عن رواة

---

(١) فنون الكوميديا ص ٨٢ – ٨٣ .

مختلفين أو من صحف غير منقوطة ولا مشكولة (١) ، فيقرؤها حسبما يصح عنده معناها ، وحسب اجتهاده الشخصي الذي قد يخطىء وقد يصيب ، وهكذا سار التدوين على منهج الاختيار ، والذوق الشخصي ، ولم يحاول الجامعون أن يضعوا كتبا شاملة لكل ما روى من أدب عن كل القبائل لصعوبة الوصول اليها نظرا لوعورة الطريق وطوله ، وقد يتراجع الجامع عن غرضه حين يرى كل هذه الصعوبات ، بالاضافة الى اختلاف اللهجة ، أو عدم مصارحة الناس له بالحقيقة تمسكا بالتقاليد أو ضنا بالمعلومات ، أو تضليلا عن الحقائق لاعتبارها ماسة بكرامة القبيلة أو مخلة بتقاليدها ، فاذا أضفنا الى ذلك انه لم يكن هناك نظام رسمى معين للتدوين ، أو مكافآت منتظمة للجامعين ، وانه قام بجهود فردية ، عرفنا لماذا وصلنا تراث الاقدمين منذ الجاهلية وبدء الاسلام ناقصا أو مشوها ، وبصورة لا تعطى كل الحقيقة ، ولماذا لم نقف على صور أخرى كان ينبغى أن نعرفها ، ولم يصلنا عنها شيء ، ومع ذلك فقد عرفنا من الشذرات التى وصلت ألوانا من القصة والرواية والحكاية والخرافة والامثال وغيرها ، مما يتناسب تماما مع بداية المسرح فى كل أمة عرفت هذا الفن ، عرفناها عن طريق المدون أو الجامع ، أو القاص الجوال ، كما عرفناها من « الاخبارى » المؤرخ ، الذى يروى قصصه مازجا بين الواقع والخيال ، فى ليالى السمر (٢) ، وقد اشتهر بهذا اللون الهيثم بن عدى (مات بمصر ٢٠٦هـ) ، وأبو بكر عياش ، ويموت بن المزرع

---

(١) ضحى الاسلام ـ أحمد أمين ـ الجزء الثانى ص ٢٧٤ .

(٢) ضحى الاسلام ص ٣٥٦ ـ من الجزء الثانى ، ومن الجزء الثالث ص ٣٥٢ . (أنظر الانساب للسمعانى ص ٢١ :

وهكذا نضيف ما وصلنا مشوها ، أو لم يصلنا بعد ، الى ما ضاع من تراث عن طريق الحرق أو النهب والسرقة ، وكله تراث ما زال طي المجهول الواعد بالخير الكثير .

ثانيا : الشعر والملحمة

اذا كان الشعر هو ديوان العرب ، ومصدر فخرهم ، ومناط عبقريتهم ، فاننا سنجد فيه ملامح درامية كثيرة ، نجدها فى المعلقات السبع ، كمعلقة امرىء القيس اللامية ، ومعلقة النابغة الذبيانى ، ومعلقة زهير بن أبى سلمى ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ، وبعض القصائد الطويلة ، كقصيدة ذى الرمة (١١٤ بيتا) ، وقصيدة الفرزدق (١٠٩ بيت) وقصيدة عبيد الراعى (٩٥بيتا) ، وقصيدة الكميت (٥٥ بيتا) ، وغيرها ، كما نجد ملاحم كاملة ـ كلها بلغة الشعر ـ كملحمة ابن عبد ربه ـ صاحب العقد الفريد ـ فى القرن التاسع الميلادى وتقع فى ٥٥٠ بيتا قسمها على سنى الحكم والحوادث التى جرت للملك الناصر فى الاندلس حتى انتهاء حكمه عام ٣٢٢ هـ (١) ، وكملحمة أبى طالب بن عبد الجبار ، الذى كان يسمى متنبى المغرب ، فى الاندلس ، ونشرها ابن بسام ، وقد وضعها ابان حروب العرب ، وتدور حول حرب العرب مع الاسبان ، وتقع فى ٥٠٨ بيت ، ومما يذكر أن الشعراء الجوالين الاسبانيين والفرنسيين أخذوا منها ملاحمهم فى العصور الوسطى ، ومنها أخذ التروبادور أناشيدهم القصصية ، وهى تدور حول مظاهر التصوف

---

(١) ادب الملاحم والملحمة العربية ـ محاضرة لزكى المحاسنى ـ مطبعة الازهر ١٩٦٠ .

والتبحر فى علوم التوحيد ، ثم ينتقل الى ذكر الدولة الاسلامية فى المشرق والمغرب وأسماء خلفائها ، ويبدأ بالدولة العباسية (١) .. ويذكر أبو يزيد القرشى فى كتابه جمهرة أشعار العرب أسماء سبعة من شعراء بنى أمية ويسميهم شعراء الملاحم ، ولكل منهم قصائد مطولة فى تصوير الحياة البدوية وما فيها من متع بريئة أيام الصبا ، ويتخللها ذكر وقائع الجاهلية وما كان بين القبائل المختلفة من صراع ، وهؤلاء الشعراء السبعة هم : الفرزدق وجرير بن عطية الخطفى والاخطل وعبيد الراعى وذو الرمة والكميت بن زيد الاسدى والطرماح ابن حكيم ، وكلهم عاشوا على أيام أبى يزيد الذى توفى سنة ١٧٠ هجرية ، كما نذكر ملحمة أبى الحسن بن حازم القرطاجنى التى بلغت الالف بيت (٢). وهناك من الملاحم الشعرية ايضا ملحمة عبيد بن شرية التى تبلغ حوالى ٧٠٠ بيت ، وهى تروى سيرة حياة البشرية منذ آدم الى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وتنقل صورة لحياة الجزيرة العربية والاديان العربية وتصف المعارك الحربية وانتصارات العرب والاسلام وسيادته للعالم (٣) .

تتضمن هذه القصص الشعرية ، أو الشعر القصصى أفكارا مسرحية ، نجد فيها حوارا وشخوصا مرسومة وأحداثا تتحرك ، ومعانى ظاهرة وكامنة ، ويكفى أن نضرب مثلا واحدا على ذلك بجزء من قصيدة الحطيئة

---

(١) المرجع السابق ، وأنظر كتاب : الملحمة فى الشعر العربى ــ سعد الدين الجيزاوى ــ المكتبة الثقافية ١٨٢ سبتمبر ١٩٦٧ ص ٣٠ ــ ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ ــ ٣٧ .

(٣) فى الرواية العربية ــ عصر التجميع ــ فاروق خورشيد ــ ١٩٥٩ الدار المصرية للطباعة والنشر ــ الاسكندرية ص ١٧٧ ــ ١٨١ .

التى جاء فيها :

وطـاوى ثلاث عاصـــب البطن مرمل
ببيـــــــداء لم يعرف بها ساكن رسما

ويقص فيها حكاية رجـل كان هو وزوجتـه وأولاده يعانون الفقر والجوع من كثرة سيرهم فى الصحراء .. وبينما هو سائر :

رأى شبحا وســط الظـلام فراعه
فلمـا رأى ضــيفا تشــمر واهتما

وقال :

هيـــا رباه ضـــيف ولا قرى
بحقك لا تحرمه تا الليـــلة اللحما
فقال ابنـــــه لمـــا رآه بحيرة :
أيا أبتى اذبحنى ويسر له طعمـــا

وبينما هم كذلك ، اذ رأى سربا من البقر الوحشى أتيا من بعيد ، فيأخذ فى مطاردته حتى يصطاد واحدة منها سمينة ، جهزها للضيف وأطعم منهـا أهله ، ثم تكون النهاية السعادة والرضا (١) .

وباتوا كراما قد قضـــــوا حق ضيفهم
وما عزموا عزما وقــــد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشـــــاشــــته أبا
لضيـــــــفهمو والأم من بشرها أما

فها هنا يتوافر بناء قصصى جيد للاحداث والاشخاص والحوار .

ونضرب مثالا آخر بقصيدة عمر بن أبى ربيعة التى أولها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبـــكر . . . .

---

(١) العرب فى قصصهم ــ عباس خضر ــ ص ١١ ــ ١٣ ، انظر أيضا بحث ملامح مسرحية فى النصوص القديمة ــ منذر شعار ــ مجلة الأدباء العرب العدد ٨ اكتوبر ١٩٧٢ ص ١٣ .

ولقد برز بعض الشعراء فى الالقاء ، الى جانب التأليف ، والالقاء هو نوع من التمثيل ، بل انهم كانوا يمثلون بالفعل ، وسنجد مثالا لذلك فى العصر الاموى، سنحضر احدى حلقات الشعر بأعلى مربض بمدينة البصرة ، وسنرى فيها من الشعراء : الفرزدق وجرير والاخطل ، الفرزدق يركب بغلة ، ويرتدى حلة جميلة (١) ، بينما يركب جرير فرسا ، ويلبس درعا وحلة تسمى « بيضة » ، ويتقلد سيفا ، ويقومون جميعا بهذه الحركات للهو واللعب ، وكان أهل البصرة ـ والعراق عامة ـ يقبلون على هذه الحلقات الشعرية للتفرج ، وكانت كل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها احد ما فى جعبته من سهام ، وتمضية أوقات الفراغ أكثر من اهتمامهم بالعصبيات القبلية ، فكانوا يصفقون لهذا تارة ، ولذاك أخرى ، وكان يكثر بينهم الهرج على نحو ما يفعل الناس الآن فى المسارح .

وهناك لون من القصص العربى يجمع بين الشعر والنثر ، ويأخذ شكل الملحمة أيضا ، ونذكر منها ملحمة الشاهنامة التى نظمها الفردوسى فى أكثر من ألف بيت ، وتدور أحداثها حول تاريخ الفرس القدماء ، واساطيرهم حتى نهاية الدولة الساسانية والفتح العربى ، ومثل ملحمة يوسف وزليخا للفردوسى أيضا ، ومثل ملحمة ليلى والمجنون للنظامى (٢) ، ومثل ملحمة ألف ليلة وليلة التى ترجع تاريخيا الى القرن الثانى عشر الميلادى، وقد ترجمت من الفارسية الى العربية فى العصر

(١) العرب والحضارة ـ على حسنى الخربوطلى ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٦ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ ، وكثير من هذه الحكايات والصور الطريفة تجدها فى كتاب الاغانى للاصبهاني ، وتحقيق ابراهيم الابيارى ـ دار الشعب بالقاهرة .

(٢) تيارات ثقافية بين العرب والفرس ـ أحمد محمد الحوني ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٦٨ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

العباسى ، وانتشرت فى العراق والشـــام ومصر أيام الفاطميين والايوبيين والمماليك ، ويقول عنهـــا ادوار لين (١) انها تمثل عادات العرب وطبائعهم ، وخاصـة المصريين ، وقد عرفت فى أصلها باسم « الهزار انسان» أى « الـكتب الخمسة » أو الالف خرافة ـ كما يقول المسعودى فى مروج الذهب ـ وسميت بالعربيـة ألف ليلة وليلة ، لان العرب كانوا يتفاءلون بالارقام الفردية، وهذه الملحمة تحتوى على كثير من القصص الحوارى الاسطورى الذى يحمل كل المقومات المسرحيـة بالمعنى القديم والحديث ، وقد استغلتها الدراما فى أعمـــال مسرحية واذاعية وتلفزيونية لا فى مصر فحسب ، بل فى العالمين العربى ، والاسلامى بوجه عام ، بل لم تخل منها أعمال ظهرت فى الهند وروسيا وأمريكا وفرنســا وأسبانيا وانجلترا فى مجالات المسرح والســـــينما والاذاعة .

وقد عرضت فى بودابست ـ عاصمة المجر ـ خلال شهرى يوليو واغسطس ١٩٧٤ ، ست قصص من ألف ليلة وليلة فى اطار خطة عرض نماذج من الادب العالمى، وهو من اعداد واخراج المخرج المجرى كاروى كازيمير، وتستوحى منها ، ديكورا وملابس وموســيقى ، جو الشرق بأساطيره وحكاياته .

نذكر بعد ملحمة الف ليلة وليلة ملحمة أخرى لا تقل عنها ذيوعا وانتشارا ، وهى ملحمة أبى زيد الهـــلالى التى تنقسم الى ثلاث حلقـــات ، الاولى تروى تاريخ ظهور الهلالية فى شبه الجزيرة العربية حتى استيطانهم بلاد السرو ، والثانيـــة ، تحدثنا عن رحلتهم الى بلاد نجد ، والثالثة ويطلق عليها تغريبة بنى هلال، وتشتمل

(١) الف ليلة تعيش معنا ـ بحث أحمد رشدى صالح ـ مجلة الجديد العدد ١٢ يوليو ١٩٧٢ ص ٢٩ ـ ٣١ .

عن حروبهم ووقائعهم فى بلاد العرب ، وتزخر بصور البطولة ، فضلا عن تصوير النفوس البشرية بما جبلت عليه من طمع أو أمانة أو خيانة أو حب أو غدر (١) . كما نذكر ملحمة عنترة بن شداد ، الشخصية التاريخية التى ارتبطت بالشعر الجاهلى ، وبالقصائد المعلقة على الكعبة ، وبالحياة الجاهلية القبلية لما كان له من دور كبير عن قبيلة بنى عبس ، وتدور فى الفترة قبل البعثة المحمدية وتنتهى ببداية عصر النبوة ، وتتبع قصة حبه لعبلة ابنة عمه حتى تعليق قصيدته على الكعبة لما أبلاه فى الحرب ضد الروم والفرس ، ولما أثبته من جدارة فى قول الشعر ، كجدارته فى الحب والحرب (٢) . كذلك نذكر ملحمة ذات الهمة التى تدور أحداثها أيضا منذ العصر الجاهلى حتى عهد الخليفة الواثق فى أواخر الدولة العباسية (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ ، ٨٤٢ — ٨٤٧ م) ، وتعتبر صدى روائيا للاحداث التاريخية الهامة التى دارت بين العرب والروم فى صراعهما الطويل الذى دار حول السيادة على منطقة البحر الابيض ، وهى من ناحية أخرى تثبت حق المرأة العربية فى المساواة بالرجل فى المجتمع العربى ، اذ تبرز خلقها فى الحفاظ على نفسها ، والوفاء بعهدها لمن تحب ، وتبين أنها لا تقل عن الرجل شجاعة ومروءة فى القتال ، ثم نذكر ملحمة الظاهر بيبرس التى تبدأ بذكر الخلفاء العباسيين المعتصم والواثق والمقتدر ، ثم بداية حكم الايوبيين لمصر وخاصة عهد الملك الصالح أيوب ، ثم عهد الظاهر بيبرس ، وتبدأ الاحداث الفعلية

(١) أبو زيد الهلالى — محمد فهمى عبد اللطيف — اقرأ ٤٧ — دار المعارف — أكتوبر ١٩٤٦ .

(٢) أضواء على السير الشعبية — فاروق خورشيد — المكتبة الثقافية ١٠١ — ١٥ يناير ١٩٦٤ ص ٣٢ — ٥٣ .

فى الخروج من مصر لتشمل العالم العربى كله ، وذلك بدء الحروب الصليبية ، واثبات مدى وحدتهم — على أساس الفرص المتساوية والعدالة الاجتماعية فيما بين العرب جميعا ، وهى تبين موقف الانسان من القدر ، وتثبت أن الانسان حر فى تخطيط مستقبله ، وبعد ذلك نذكر ملحمة على الزيبق ، التى تقع احداثها فى القاهرة فى أحد العصور الاسلامية فيما بين القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وتصور الفساد الذى استشرى فى اجهزة الحكم حتى ضاع معنى الامن ، وأصبحت اليد العليا للبطش والقوة لا للقانون والنظام ، وذلك فى عصر المماليك ، ومن هنا فالملحمة تحاول أن تنقد هذه الاوضاع ، وتقيم بدلا منها عالما من النظام والمثل العليا وان كانت تتوسل لذلك ببعض الحيل ، وتدافع عن موقف الانسان الفرد أمام المجتمع الذى يحس فيه أن حقه مهضوم وضائع ، ويتصدى على الزيبق لهذا كله فينتصر للامانة والشرف وحق كل انسان فى العيش حرا كريما فى مجتمع حر كريم (١) . ثم نصل الى ملحمة سيف بن ذى يزن لتكون لنا دليلا دراميا على أصالة القصة العربية ، وأهميتها فى التاريخ الادبى العربى ، وهذه الملحمة تدور أحداثها فى العصر الجاهلى بين الجزيرة العربية والحبشة ومصر فى عصر ماقبل الأديان السماوية الثلاثة ، ولكن الواقع يشير الى انها حدثت فى العصر المملوكى ، وتدور الحرب بين عبدة النجوم من الاحباش والمؤمنين بالله على دين ابراهيم الخليل من العرب ،

(١) وقد قدم مسرح السامر بالقاهرة خلال شهرى ابريل ومايو ١٩٧٣ ، ومن تاليف يسرى الجندى واخراج عبد الرحمن الشريف تجربة فريدة بعرض قصة هذه الملحمة فى اطارها الشعبى ، وبصورة حديثة ، ونجح فى ابراز مضمونها الوطنى فى اطار عصرى من خلال مائة وخمسين فنانا بين ممثل وراقص ومغنى .

ويتخذ اسم سيف رمزا عربيا لا يشير الى زمن احداث السيرة وانما يشير الى أحد ملوك حمير وآخرهم ؛ وهو من أسرة عريقة فى اليمن فى القرن السادس الميلادى ؛ والملحمة صورة أدبية باقية تثبت خصب الخيال العربى وقدرته على الخلق والابتكار ورسم المواقف الحية المليئة بالرموز ، مواقف الانسان المتطلع الى المعرفة طول حياته.

هذه النماذج الملحمية القليلة التى ذكرناها ، وهناك كثير غيرها (١) ، تثبت أن الدراما العربية تتنوع طولا ونوعا ، شعرا ونثرا ، موضوعا وتناولا ، وهى بذلك لون مسرحى لم يستغل بعد ، ولم يكشف عنه النقاب كاملا ، ويوم نلتفت اليه ، أو نأخذ منه ، سنعرف مدى أصالتنا الفكرية ، ومدى ما يمكن أن يمدنا به التراث من أعمال درامية هامة .

ثالثا : المقامة

تعتبر المقامة فى الاصل أدبا تمثيليا عرف منذ العصر الجاهلى ، وانها من القيام فى دار الندوة فى ذلك العصر ، وكانت تمثيلا مباشرا متواصلا ، يقوم به ممثل فرد ، وتعتمد على جمهور يحضر العرض ، فى النادى او مجلس الخلفاء أو قاعات الدرس أو أماكن السمر المختلفة (٢) ، وهذا الجمهور كان يقف أمامه ، او فى

(١) مثل ملحمة ايوب وناعسة التى قدمتها فرقة الالات الشعبية فى مهرجان نانسى المسرحى فى فرنسا فى شهر مايو ١٩٧٣ ، وقدمها المخرج المصرى حسن عبد السلام واعتمد فيها على الآلات الشعبية المصرية الخالصة مثل الناى والدف والمزمار والارغول والربابة ، وعرض الملحمة بقصتها المعروفة قديما ، وبمفهوم مسرحى معاصر ، تمثيلا وديكورا وملابسا ، ولقى العرض تشجيعا وتجاوبا طيبين .

(٢) المقامة على المسرح — فصل من كتاب : فنون الكوميديا — على الراعي ص ١٠ — ٣٠ .

وسطه ، فنان يؤدي دوراً دراميا ، ونلاحظ أن كل المقامات التي وصلتنا أعمال مسرحية من الدرجة الاولى يمكن تقديمها على المسرح ، وقابلة للتمثيل ، فهي تتضمن حوارا طويلا ، بل أن معظمها يقوم على الحوار المستمر وأحداثا قصصية تتطور دائما من بداية الى وسط الى نهاية ، يتخللها الصراع وألوان عديدة من العواطف المتباينة ، من حب وكراهية ، ورضا وسخط ، وقبول ورفض ، وهي بذلك نصوص درامية تنطبق عليها شروط المسرح المتعارف عليها .

ومن أشهر المقامات التي وصلت الينا ، مقامات الجاحظ (١٥٩ — ٢٥٥ هـ) ، ومقامات محمد ابن الحسن بن دريد (٢٢٣ — ٣٢١ هـ) ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨ — ٣٩٨هـ) ، ومقامات الحريري (٤٤٦ — ٥١٦ هـ) ، وعلى نمطها في العصر الحديث نذكر مقامات عبد الله فكرى ١٨٩٠ ، ومقامات ابراهيم الاحدب ١٨٩١ ، ومقامات اليازجي (١٨٣٠ — ١٨٨٩) وابراهيم المويلحى (... — ١٩٠٦) وعلى مبارك (١٨٩٣) .

والمقامة تشبه المسرحية أيضا في أنها فن جماعى تقوم على ارتباط النص بالوجدان الجمعى ، في أنها تعبر عن المجتمع ممثلا في أبطالها ، فضلا عن أنها تمثل في حشد يرتبط بها ذهنيا وعاطفيا ، فهي بحق رائدة للرواية والقصة والتمثيل أيضا (١) .

فاذا أردنا نماذج تطبيقية على صدق هذا الرأى ، فسنعثر عليها في مقامات الهمذانى مثلا ، ولتكن «المقامة المضيرية » ، نموذجنا الاول ، فبطلها هو التاجر حديث النعمة ، وكثير الفخر بنفسه وزوجه وماله ، والساعى

(١) ظواهر تمثيلية في الادب الشعبى العربى — بحاث عبد الحميد يونس مجلة المجلة العدد ٤٦ أكتوبر ١٩٦٠ ص ١٤ — ١٩ .

بالنصب والاحتيال والجشع ، والى جواره شخصيتان لضيفين أولم لهما ليتخذ منهما شهودا ونظارة لعمل فنى يؤلفه من واقع مغامراته (١) والمقامة مقسمة الى مشاهد درامية ، فيها حوار مسرحى كثير ؛ ونضرب مثلا لهذا الحوار بذلك المشهد الذى يدور بين أبى الفتح الاسكندرى — بطل مقامات الهمدانى كلها — وبين التاجر وبين الصبيان : يقوم أبو الفتح ..

التاجر : أين تريد ؟

أبوالفتح : حاجة أقضيها .

التاجر : يا مولاى ، لو رايتها ، والخرقة فى وسطها (يصف بذلك زوجته لأبى الفتح) وهى تدور فى الدور ، من التنور الى القدور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الابزار ، وانا اعشقها لانها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته .

أبوالفتح : صدعنى بصفات زوجته ، ولكن ها نحن قد انتهينا الى محلته .

التاجر : يا مولاى ، ترى هذه المحلة ؟ هى أشرف محال بغداد ، يتنافس الاخيار فى نزولها ، ويتغاير الكبار فى حلولها ، ثم يسكنها غير التجار ، ودارى فى السطة من قلادتها ، كم تقدر يا مولاى انفق على دار فيها ؟ قله تخمينا ان لم تعرفه يقينا .

أبوالفتح : الكثير ..

التاجر : يا سبحان الله ، ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ؟

(يتنفس الصعداء) سبحان من يعلم الاشياء

---

(١) فنون الكوميديا — على الراعى ص ١١ — ٢٢

أبوالفتح : أنتهينا ألى باب دأره ،
التـاجر : هذه داری ، کم تقدر یا مولای أنفقت على هذه الطاقة ؟
أبوالفتح : (لا يرد)
التـاجر : أنفقت والله فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ (لا يرد).. هكذا يستمر الحوار حتى تنتهى أحداث المقامة : فى أسلوب أدبى رشيق، وعبارة مسرحية سليمة ، وتستطيع تخيل الاحداث مجسمة على المسرح بالتمثيـل المبـاشر امام الجمهور ، وشخصية أبى الفتح شخصية أنسانية منتزعة من صميم الحياة والواقع ، وتشبه ما فعله بن جونســــون (١٥٧٣ ـ ١٦٣٧) الـكاتب المسرحى الانجليزى الذى جاء بعد الهمذانى بخمسة قرون كاملة، حين أخذ يكتب مسرحياته القائمة على الشخصيـــات مفردة الصفات مثل : المرأة الصامتة ، اجازة صـانع الاحذية ، لـكل انسان مزاجه، وسيجانوس ، وكاتلين، والراعى الحزين ، وقصــة روبن هود (١) ، وغيرها . ومن الجميل أن نذكر فى هذا المقام المحاولة النـاجحة التى استوحى فيها فنان المسرح المغربى الطيب الصديقى من مقامات بديع الزمان الهمذانى مسرحية عربية حديثة نقل فيها صورة من هذه المقامات ـ من العصر العباسى ـ الى العصر الحاضر ، وهو يعتبرها الارهاصات الاولى لفن المسرح عند العرب القدماء ، وقد قوبلت مسرحية الصديقى باعجاب كبير حين عرضت بمهرجان دمشـق الرابع للفنون المسرحيــة ١٩٧٢ ، ومهرجان أفيتيـون المسرحى بباريس ١٩٧٣ ، كما أنها عرضت من قبـل بباريس عام ١٩٦٤ فى مهرجان مسرح الشـعوب ،

(١) تاريخ الادب الانجليزى ـ كازاميان ـ باللغة الانجليزية ـ لندن ١٩٥٤ ص ٤٤٥ ـ ٤٥٥ .

ثم في مهرجان الحمامات بتونس عام ١٩٦٨ . وقد أخذ فنان المسرح العراقي يوسف العاني – مؤسس فرقة المسرح الفني الحديث ببغداد منــذ عام ١٩٥٢ – من الاشكال المسرحية القديمة في التراث العربي ، فقــدم مسرحية « بغداد الازل بين الجد والهزل » ، اعتمــد فيهــا على كتب الجاحظ ومقامات الحريري وحكايات أشعب ، وكانت أحداثها تدور في سوق بغداد القديمة. وهذا يدل على ما في المقامات من امكانيات درامية لاحد لها ، ولنأخذ مثلا ثانيا من مقــامات عثمان الحريري الموضوعة في أواخر القرن الخامس واوائل القرن السادس الهجري ، وهي تدور حول شخصيــة بطلهــا أبي زيد السروجي ، وتمثله شيخا شغف بالادب ، ثم ضــاقت به سبل الحياة حين ركدت سوق الادب ، فخرج من بلده « سروج » – في أعلى نهر الفرات بالبصرة – متنكرا يجوب الآفاق ، وكان يلبس لـكل حال لبوسها ، فهو تارة شحاذ يسأل الناس احسانا ، وتارة دجال يبيــع الرقى والتعاويذ ، وتارة واعظ أو خطيب ، وتارة سفيه يراوغ ويداور ، وهكذا طوال المقــامات الخمسين التى يحتويها الـكتاب (١) ، وفيها يتنقل الحريري ببطلـــه في أرجاء العالم الاسلامي ، من صنــعاء اليمن ، الى دمياط مصر ، ومن كوفة بغداد الى مكة الجزيرة ، ومن المغرب الى سمرقند ، وتفليس ، وشــيراز ، وعمان ، ونجران ، وغيرها ، وفيها يقدم لـكل شـــــخصية ما يقتضيها حال التمثيل من لهجة واســلوب وحوار ونبرة وزى ، وكل ذلك في مرونة خلقية عجيبة ، اذ تتردد سماته بين المروءة والشجاعة والـكرم والقنــاعة

(١) مقامات الحريري – أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحــريري البصري – المـكتبة الحسينية – القاهرة ١٣٢٦ هـ .

والخيانة والجشع والسرقة ، وهـذه المقامات (١) تعد تمثيلا صادقا لواقع المجتمع والعصر اللذين عاش فيهما المؤلف من خلال بطله ، فقد عاش الحريرى فى مجتمع سادته الفوضى والاضطراب والـكساد ، حين شـاخت الدولة العباسية ، وعم الفساد أرجاءها ، فألجأه ذلك الى تصوير بطله متجولا أو محتالا أو شحاذا ، بل أن الواقع المرير لحياته وحياة مجتمعه فرض عليه ذلك. وهذا التنوع فى شخصية البطل ، والموضـوعات المطروقة يخلق مجالات درامية أوسع ، وحركة مسرحية تتنوع باختلاف المواقع ، وتجعل للبطل سمات مسرحيـــة واضحة ، وللموضــــوعات مجالات كثيرة من حيث الديكورات والاضاءة والمـكان والزمان .. ولنجتزىء من حوار احدى هذه المقامات بعض الجمل، وهى من المقامة الخامسة عشر الفرضية (٢) ، ويدور المشهد بين الحرث ابن همام ، وأبى زيد السروجى ..

فى بداية المقامة يصور الحرث بن همام نفسه بأنه أرق ذات ليلة وتمنى أن يزوره أحد يؤنس وحدته ، «حتى قرع الباب قارع له صوت خاشع » :

الحرث (لنفسه) : لعل غرس التمنى قد أثمر، وليل الحظ قد أقمر ..

(ينهض الى الباب عجلانا) : من الطارق ؟

السروجى : غريب أجنه الليل ، وغشيه السيل ؛ ويبتغى الايواء لا غير ، واذا أسحر قدم السير ..

(يستدل الحرث من صوته وكلامه وشخصيته أن

---

(١) أبو زيد السروجى بين الادب والفن ــ بحث حسن الباشا ، المجلة ١٧ مايو ١٩٥٨ ص ٤٥ ــ ٤٨ .

(٢) مقامات الحريرى ، طبع القاهرة ١٣٣٦ هـ ص ١٣٦ ــ ١٤٩

فى مسامرته غنم وفى مشاهدته نعم ، فيفتح له البـاب بابتسام)
الحرث (للسروجى) : ادخلوها بسلام ..
(يدخل شخص قد حنى الدهر صعدته ، وبلل الفطر بردته ، وحياه ثم شكره على تلبية صـوته ، وأدنى المصباح منه فوجده أبا زيد ..
السروجى : أبلعنى ريقى ، فقد اتعبنى طريقى .
(يظنه الحرث جوعانا ، فيحضر له طعاما ، ولـكنه ينقبض انقباض المحتشم ، ويعرض اعراض البشم) .
السروجى : ياضعيف الثقـة ، بأهل الحقـة (أى المحبة) ، واستمع الى ..
الحـرث : هات ، يا أخا الترهات ..
السروجى : اعلم انى بت البـارحة حليف افلاس ، ونجى وسواس ، فلما قضى الليل نحبه ، وغور الصبح شهبه ، غدوت وقت الاشراق ، الى بعض الاسـواق ، متصديا لصيد يسنح ، أو حر يسمح ..
ويستمر الحوار ، وينتقل من مشهد الى مشهد آخر بين السروجى ، ورجل صادفه فى الطريق آخر النهار.. الرجل يبكي لشىء ألم به :
السروجى : يا هـذا ، ان لبكائك سرا ، ووراء تحرقك لشرا ، فأطلعنى على برحائك ، واتخذنى من نصحائك ..
الرجـل : والله ما تأوهى من عيش فات ، ولا من دهر افتات (أى مضى) بل لانقراض العلم ودروسه ، وأفول أقماره وشموسه .
السروجى : وأى حادثة نجمت ، وقضية استعجمت؟
(الرجل يبرز رقعة من كمه ..) أرنيها فلعلى أغنى فيها ..

الرجـــل : ما أبعدت فى المرأم ، فرب رميـــة من غير
رام . (يناولها له ، وهى تحتوي على ابيات من الشعر عن قضية ميراث ، يقرؤها أبو زيد السروجي بصوت يسمعه الجمهور ، ويلمح سرها) ..

السروجى : على الخبير بها سقطت ، وعند ابن بجدتها (أى العارف بها) حططت ..

هكذا يدور الحوار طوال المقامة ، وقد حرصنا على نقله بلغة الحريرى وأسلوبه كما جاء فى الـكتاب ، وهو يتضمن ما نسميه اليوم بالارشـــــادات أو التعليمات المسرحية ، وهى تعليمات يضعها المؤلف لوصف حركة دخول أو خروج ، أو حركة نفسية يريد أن ينقلهـــــا المتحدث الى المشاهد سواء بالتمثيل الصامت أوالحديث الحوارى الذاتى ، حيث يخاطب المتحدث نفسه ، أو لتعطى ايحاء نفسيا معينا ، أو حوارا لا يريد أن يسمعه شخص آخر غير المشاهدين ، وهى كما ترى عمل ذكى يدل على مهارة بطـــوايا النفس ، وما يريد المؤلف أن يصوره بشكل غير مباشر .

ومما يؤكد أن الفرس حاكوا هـــذه المقامات ، مثل حميد البلخى (1) (المتوفى سنة ٥٥٩ هـ) الذى نهج فى مقاماته نهج مقامات بديع الزمان الهمذاني والحريرى وان خالفهما فى عدة أمور منها انه لايدير قصصه حول شخص واحد كالاسكندرى أو الحرث أو السروجى ، وانما تحتل شخصيـــته ـ كمؤلف ـ المـكان الاول ، ويروى الاحداث عن كثير من أصدقائه لم يذكر أسماءهم ، وتتعدد فى مقاماته الابطال وتتغير أحوالهم . كذلك مما

(1) تيارات ثقافية بين العرب والفرس ـ أحمد الحوفى ص ٢٨٠ ـ ٢٨٢ .

يذكر أن فن المقامات تطور فى بلاد الاندلس الاسلامية ـ أسبانيا حاليا ـ الى أن اتخذ طابعا شعبيا ، يسجل مشاهدا من حياة الناس فى بيوتهم وشوارعهم وأسواقهم ، وصورا واقعية بعيدة عن تكلف النماذج الادبية الصماء ، فى أسلوب بسيط أقرب الى لغة الكلام، وبشكل فكه ساخر ونابض بالحياة والحركة ، ولسنا نستبعد أن تكون هذه المقامات الشعبية قد تجسدت فعلا فى صورة من صور الاداء المسرحى (١) . وهذا معناه أن عرب الاندلس عرفوا الادب التمثيلى وعالجوه، ومثلوه ، ومن ثم انتقل من اسبانيا الاوربية الى بلاد أوربا كلها ، ويذكر ابن قزمان القرطبى (توفى ١١٦٠م) فى ديوان أزجاله ، ان الادب العربى الاندلسى عرف نوعا من المسرح الغنائى الذى يقوم على محاورات تجرى باللغة العامية الشائعة ، وذكر منها بعض الازجال الحوارية الفكهة ذات الطابع الشعبى الساخر ، ولا نستبعد أيضا أن يكون ابن قزمان وغيره قد ابتكروا هذا اللون الادبى المسرحى وقدموه ، لاننا شاهدنا مثلا لها فى أسبانيا المسيحية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، والتاريخ ، فيما نعرف ، حلقات متصلة ، الجديد يأخذ من القديم ويطوره ، والاساس يظهر دائما ، بشكله أو بأشكال قريبة منه ، أو مطورة له ، ولكنه لا يختفى ولا يندثر .

---

(١) أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوربية ـ باشراف اليونسكو ـ الفصل الاول فى الادب : اعداد سهير القلماوى ـ ومحمود على مكى ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ .

الفصل الخامس

من كتب الدراما عند العرب

أشرنا فى الفصل السابق الى بعض الكتب التى تضمنت قصصا درامية مثل كتب البخلاء والمقامات ، وها نحن هنا نستزيد من هذه الكتب ، فنفصل فيها بعض القول ، لنرى مدى أهميتها التاريخية فى الادب العربى ، ومدى أسبقيتها على غيرها من كتب الدراما فى الشرق والغرب على السواء .

وأول هذه الكتب هو : « كتاب التيجان فى ملوك حمير » الذى رواه أبو محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبى ادريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه ، وقد جمع وهب فى القصص الاصلية — التى لم تصلنا الا أجزاء منها عن طريق راويه ابن هشام — ما كان يقع من قصص ملوك حمير وما وعته ذاكرته مما عرفه الناس رواية أو قراءة ، وتحكى هذه القصص قصة الكون منذ خلقه الله ، وخلق الحيوانات والسماء والملائكة والنجوم والجنة والنار وابليس والجان ، ثم خلق الازمنة والارض ... حتى خلق آدم وحواء وذريتهما حتى عصر ملوك حمير (١) ، ومن أهم

(١) كتاب التيجان فى ملوك حمير .. (انظر : فى الرواية العربية — فاروق خورشيد ص ١٣٦ — ١٤٦ ، ٨٧ — ١٣٥ .

قصص الكتاب بعد ذلك قصة حب مضاض ومى ، وهو حب عذرى شريف يبين عفة المراة وشجاعة الرجل ، وقد اخذت منها : روميو وجولييت لشكسبير ، وبول وفرجيني لسان بيير ، وتذكرنا على الفور بقصص متأخرة كقيس وليلى ، وقيس ولبنى ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، والعباس بن الاحنف (١) ، ثم قصة الحارث ابن مضاض ، آخر ملوك جرهم ، وتصور عجز الانسان وقصوره أمام قوة القدر الغالبة ، والضياع المخيف الذى يستشعره الانسان أمام سطوة القوى التى تحطم صراعه ، وموضوعها يشبه ما جاء بعد ذلك فى قصص اليهودى التائه والهولاندى الطائر ، وقصص سليمان مع الانس والجن والطير ، وقصص الخضر ، ومن قصص كتاب التيجان أيضا نذكر قصة ذى القرنين ، ويقال انه الاسكندر المقدوني أو الرومى ، أما عند وهب بن منبه فهو الصعب بن الحارث الرائش الحميرى ، وكان ملكا حميريا متجبرا ، ذا سطوة وجاه ، ثم يحكى قصته من خلال أحلام يرقى فيها الى السماء فامتلك شمسها ونجومها ، ثم جاع فعاد الى الارض ياكل جبالها ، ويشرب بحارها ، ثم تأتيه الانس والجن والوحوش فتجلس بين يديه فيفعل فيها ما يشاء ، ثم يستيقظ من نومه ، فيرسل الى وزرائه وأهل مشورته وقص عليهم ما رأى وطلب منهم تفسيره ، ويخرج بحقيقة نهائية وهى أن الانسان الى زوال ، مهما طغى وتجبر وانه عاجز قاصر أمام الله ، اما سبيله القديم فهو الزهو والطاعة والعبادة ، وشبيه بها قصة سيف بن ذى

---

(١) العشاق الثلاثة — زكي مبارك — اقرأ ٢٦ — دار المعارف — يناير ١٩٤٥ . انظر أيضا : جميل بثينة — عباس محمود العقاد — اقرأ ١٣ يناير ١٩٤٤ .

يزن التى اشرنا اليها ، وبعض قصص المغامرات الغربية الاخرى فى الاساطير اليونانية والهندية القديمة ..

والكتاب الثانى الذى نحب أن نشير اليه هو كتاب أخبار ملوك اليمن لعبيد بن شرية الجرهمى ، ويتضمن قصص الاولين وأساطيرهم بأسلوب يتسم بالعظة والعبرة ، ويهدف الى التربية والتهذيب ، وهو يتفق بذلك مع اتجاه القصة فى صدر الاسلام ثم فى العصر الاموى ، وهو يتعرض لحكايات الامم السابقة ، وهو يأخذ صورة المسامرة ، اذ يأتى عن طريق حوار بين عبيد وبين معاوية ، الاول يحكى ، والثانى يستنير بالاسئلة والاستفهام ، ويستعين عبيد فى بعض المواقف بقصص القرآن عن بعض الانبياء أو الاحداث التى وردت فيه ، ويثبت بذلك مطابقة الرواية للآيات الكريمة ، أما موقف معاوية بن أبى سفيان (٤١ ــ ٦٠ هـ ــ ٦٦١ ــ ٦٨٠م) أول خلفاء بنى أمية ، فهو موقف المناقشة وطلب البرهان والدليل على صدق ما يرويه عبيد ، فالكتاب اذن صور قلمية لمجالس حقيقية تروى أحداثا سبقت، وهو يجمع بين لغتى النثر والشعر بل انك لو جمعت الشعر فقط لبلغ وحده ملحمة كاملة .

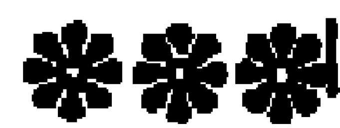
ولعل من أهم كتب القصص العربى فى صدر الاسلام ، كتب السير ، التى يحتل فيها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مكان البطولة والصدارة ، وتحتل مغازيه مسرح الاحداث ، وقصة الرسول نفسها منذ مولده ثم بعثه للناس كافة ، وكفاحه فى سبيل نشر دعوته ، والغزوات التى قام بها تصلح بالفعل أعمالا درامية فى المقام الاول ، ونكفى أن بعض الاعمال المسرحية والسينمائية والروائية قد أخذت منها موضوعها الرئيسى ونجحت نجاحا باهرا ، وبالفعل نجد بعض كتب

السير التى وضعها كتاب عاصروا تلك الاحـــــداث وشهدوها ، توفيها حقها بأســـلوب قصصى سليم ، ومعالجة درامية صحيحة ، ومن هؤلاء الـــكتاب نذكر وهب بن منبه الذى تناول الفترة المـكية والمدنية من حياة الرسول ، وعروة بن الزبير بن العوام ، الذى جاء ما دونه على هيئة رسائل الى عبد الملك بن مروان ، وذكرها ابن اسحق والواقدى والطبرى ، وهى تمثـــل أقدم المدونات التى وصلت الينـــا عن بعض الحوادث الخاصة فى حياة النبى (١) ، ومنهم أيضا ابان بن عثمان وعاصم بن عمر والزهرى وموسى بن عقبـــة ومعمر بن راشد ، ثم شيخ رجال السيرة محمد بن اسحق الذى ينهج نهج وهب بن منبه من بدئه بتاريخ آدم والانبياء ، حتى ظهور الاسلام ومغازيه ، وهؤلاء الـكتاب جميعـــا يهتمون فى تصوير بطولة الرســـــول وقصص غزواته بسمات ثلاثة أولها اتصال نســـبه بالاولين من أشراف العرب واهمية ابائه جميعا ، وثانيها دفاعه عن مبـــدأ وعقيدة تهدف الى الايمان والخير ، وثالثها ان قوة غيبية تسنده ، قوة خارقة تثبت صـــحة ما يدافع عنه من مبادىء سامية وتنتصر لهذه المبادىء فيتحقق للاسلام مجده وحضارته .

واذا كانت القصة قبل الاسلام ، وفى العصر الجاهلى تهيم فى عالم الجن والخرافات وتبين عقـــائد العرب الوثنية ، واذا كانت بعد الاسلام تعود سيرتها الدنيوية فتصور أحداثا ليست دينيـــــة فى الاصل ، وانما هى قصص شخصيات تدافع عن مبادئها أو تذود عن حمى أوطانها أو توضح سيرتها العاطفية ، فان قصص السيرة

(١) فى الرواية العربية ـ فاروق خورشـــيد ص ١٨٢ ـ ٢١٢ . أنظر أيضا : تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجى زيدان ـ الجزء الثانى ص ١٥٤ .

والمغازى تأتى كمرحلة انتقال بين هذين اللونين من القصص ، وان اتخذت نفس أسلوب السرد والحوار، ولعل كتاب السيرة لابن اسحاق (توفى ١٥١ هـ) يكون خير نموذج لهذا القصص الاسلامى ، فهو يجمع ماتناقله الرواة ، ويبوبه حسب أحداث التاريخ وحسب المكان والزمان ، وان كان ابن هشام ــ الذى روى كتابه وعلق عليه ــ يتدخل فى بعض المواقف لينقد أو يشرح أو يضيف ، كما فعل فى قصة داحس والغبراء وحروب الاوس والخزرج ، والكتاب بذلك محاولة لاشباع حاجة العرب ، والانسان بعامة ، الى القصص، واختيار لشخصية الرسول بطلا استعاضة به عن أبطال الجاهلية الذين يقصون عنهم ، لانهم وجدوا فى شخصيته وفاء بملامح البطل العربى وسماته ، أما المغازى ، فهى ملاحم بطولية تبين كيف ينتصر الحق على الباطل ، والايمان على الكفر ، والفضيلة على الرذيلة . والكتاب يحكى دخول اليهودية بلاد العرب ، ثم دخول المسيحية ، ثم نشأة عبادة الأوثان ، ثم دين الحنيفية ، حتى يظهر الدين الجديد ، دين الاسلام ، والاسلوب يجمع أيضا بين الشعر والنثر ، كسائر كتب السيرة والقصص الاسلامية .



وبعد مرحلة زمنية ــ تقاس بقرن أو قرن ونصف ــ يشهد الادب العربى مجموعة من كتب القصص ، ومنها ما يذكره عدد كبير من المستشرقين وهو كتاب « الفرج بعد الشدة » (١) للقاضى ابن تميم التنوخى (٣٢٧ ــ

(١) الفرج بعد الشدة ــ للقاضى أبوعلى المحسن بن أبى القاسم على ابن محمد بن أبى الفهم داود بن ابراهيم بن تميم التنوخى ــ مطبعة الهلال بالفجالة ــ القاهرة سنة ١٩٠٤ ، وهو من جزأين وأربعة عشر بابا .

٣٨٤ هـ) ، وهو من أكبر الكتب العربية احتواء على بدور الدراما ، وقد قارنت مجلة الساميات الالمانية بين احدى قصص الكتاب وبين رواية عروس كورنث للشاعر الالماني جيته (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) واعتبرت التنوخي من كبار أدباء العربية فى القرن الرابع الهجرى وتقوم قصص الكتاب على فكرة بسيطة هى سعى الانسان الدائب فى الحياة ، ثم اصطدامه بعقبات كثيرة ، لا تجعله يتوقف أو ييأس ، بل ينتصر عليها فى النهاية (١) ، ومن كتب التنوخي القصصية أيضا كتاب « المستجاد من فعلات الاجواد » ، واكثر حكاياته عن الخلفاء العباسيين ، ويوجد اصله فى مكتبات غوطا واكسفورد والاسكوريال وبطرسبورج واياصوفيا ، وكذلك كتابه « نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة » ، وهو مجموعة من القصص والاخبار التاريخية ويوجد فى مكتبة باريس (٢) ، وقد نشره أخيرا المجمع العلمى العربى بدمشق بتحقيق محمد كردعلى ، وقد ولد التنوخي بمدينة البصرة بالعراق ، وتلقى علومه على ايدى ابى العباس الاشرم ، وابى بكر الصولى ، والحسين بن محمود بن عثمان ، ونزل بغداد وأقام بها طوال حياته ، وكان من العلماء الحفاظ ، والشعراء المجيدين ، وله ديوان شعر كبير ، وقد تولى القضاء قبل أبى السائب عتبة بن عبيد الله فى بابل والقصر سنة ٣٤٩ هـ ، ثم ولاه الامام المطيع لله القضاء بعسكر مكرم وأيذج وغيره وتقلد بعد ذلك أعمالا كثيرة فى أماكن مختلفة .

(١) مجلة المسرح العدد ٤٤ أغسطس ١٩٦٧ ص ٨٣ ـ ٩٠ ونص مسرحية المنتظر لعبده بدوى ، وفكرتها تقوم على فكرة احدى قصص كتاب التنوخي .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجى زيدان ـ الجزء الثانى ـ ص ٢٨٥ .

أما كتاب : الفرج بعد الشدة ، فيذكر التنوخي أنه « جمع فيه اخبارا تنبيء عن رفع البلاء لمن صبر على المحن ، وتقوية العزيمة على التسليم لله مالك كل أمر ، وتصويب رأيه في الاخلاص ، والتفويض الى من بيده الملك ، ويرجو به انشراح صدور ذوى الالباب عندما يدهمهم من شدة ومصاب » ، ويقول التنوخي في مقدمة الكتاب أيضا « وقد جاء الكتاب في الوف أوراق لطول ما مضى من الزمان ، وان الله سبحانه وتعالى بحكمته أجرى فيه أمور العباد منذ خلقهم والى أن يقبضهم على التقلب بين شدة ورخاء ، ورغد وبلاء ، وأخذ وعطاء ، ومنع وصنع ، وضيق ورحب ، وفرج وكرب ، واقتصرت على أحسن ما رويته من الاخبار ، وأصبح ما بلغني في معانيها من الآثار ، وأصلح ما وجدت في فنونها من الاشعار ، وجعلت قصدى الى الايجاز والاختصار ، واسقاط الحشو وترك الاكثار . »

ومعنى هذا أن التنوخي حرص في قصصه على أن يكون صادقا وواقعيا ، وأن يدخل في موضوعاته مباشرة ودون حشو أو تطويل . والكتاب بعد هذا يقع في جزأين كبيرين وأربعة عشر بابا ، يستغرق بعضها خمسين صفحة كاملة ، وعشرات القصص الطويلة والقصيرة ، ولكل قصة بداية ونهاية ، كما تتضمن حوارا دراميا يصلح للتمثيل على خشبة المسرح . واذا كان لنا من أمثلة لهذه القصص ، ذكرنا بعضها ، ومنها :

ـ قصة الزوجة التي تغار على زوجها من خادمتها، فتوعز لدى خادمين آخرين لها أن يذكرا أمام زوجها أن الخادمة تخونه مع غيره ، ولكن الزوج لا يسرع بتصديق هذه التهمة ، ويشدد الامر على الخادمين ـ كلا على حدة ، وبالاغراء المادى ـ حتى يعترف

الخادمان بأن كلا منهما أخذ من الزوجة ألف دينار نظير عمله هذا ، ويقف الزوج أخيرا على هذه الحيلة وتبدو له براءة الخادمة فيحسن جائزتها ، ويتزوجها .

ـ قصة الخادم فى دار المقتدر الذى حنث فى وعد له أمام الله بأن لا يلجأ الى الكذب مرة اخرى ، فاذا به يضطر الى ذلك مرة فيحدث له ما لاتحمد عقباه ، وينوى التوبة مرة أخرى ، ولأنه صدق نيته هذه المرة ينجو من عقاب المقتدر ، وفى هذه القصة حوار طلى بين الخادم ـ بعد أن تاب ـ وبين أحد أصدقائه قابله مصادفة فى الطريق نقتطف منه هذا المقطع :

الصديق : (يقابله وقد شاب بعد شهور بزى التجار): انت فلان ؟

الخادم : نعم .. عبدك ياسيدى .

الصديق : ما هذا الشيب فى هذه الشهور اليسيرة ، وما هذا الذى أراه ؟

الخادم : (يتلجلج) فيحمله الصديق الى داره حيث يحكى له قصته ..

ـ قصة ذلك السجين أيام المقتدر ، وقد كان يسير يوما فى أحد شوارع بغداد ، واذا بحملة المشاعل يبحثون عن شيء ، ولأمر ما فضل أن يختفى وراء أحد الابواب ، واذا به أمام جثة لقتيل لا يعلم عنها شيئا ، واذا بهذا الحرس يكتشف أمر اختفائه وراء ذلك الباب، ثم يكتشف فى نفس الوقت أمر الجثة ، فيربطون بين الامرين ، ويقبضون على الرجل متهمين اياه بارتكاب القتل ، بينما هو لم يجن ذنبا ، ولأنه الوحيد الذى كان بالمكان ، يصرون على اتهامه بالقتل ، ثم يزج به فى السجن لمدة ستة عشر عاما ، ولا يفرج عنه الا عنوة عندما تشب الثورة ، ويصل العامة الى السجن ،

فيخرجون جميع من به ، ومنهم ذلك السجين المظلوم (١) .

ونقيس على مثل هذه القصص حكايات الكتاب التى امتلأ بها بجزئيه ، مما يصلح ولا شك افكارا للمسرح والسينما أيضا ، بما تحويه من امكانية التجسيم والتصوير ، وبما تتضمنه من دروس نافعة وعظات شديدة الاثر فى النفوس ..



ثم نمضى مع كتب الدراما عند العرب ، فنذكر كتابين متشابهين موضوعا ، ومتقاربين زمنا ، وصالحين للمسرح ، بل هما مسرح متكامل من أول سطر الى آخره ، الاول هو رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الاندلسى (٩٩٢ ـ ١٠٣٤ م) ، وهى من النثر المسجوع، وتدور فى عالم الجن (الزوابع) ، والجنيات (التوابع) وذلك فى رحلة يقابل فيها ابن شهيد أشهر شعراء الجاهلية ، وكتاب نثرها ، وينقدهم نقدا لاذعا ، كما ينقد التقاليد الادبية السائدة فى الاندلس فى ذلك الوقت، ويسخر من خصومه أشد السخرية ، وذلك فى أسلوب حوارى طريف ، ولغة قريبة من الحياة اليومية الجارية، مما يجعلها أيضا قريبة الى لغة المسرح ، وخاصة فى جزئها الثانى ، حيث يصور عالم الجن ، ويجد نفسه هناك فى بلد حفت به الاشجار ، وانتشرت فى كل بقعة فيه رائحة الازهار ، وفى هذا الجو يلتقى ابن شهيد بالشعراء ، وتكون أسئلته لهم أو أسئلتهم له ، وتكون النتيجة هذا الحوار المسرحى ، والاشعار التى تلقى فى

---

(١) الفرج بعد الشدة ـ تفاصيل هذه القصص بالجزء الاول ص٥٧ ، ١٢٢ ـ ١٢٣ ، ١٢٤ ـ ١٢٥ .

هذا الجو العبق ، والاحكام الادبية النقدية على شعره وشعرهم ..

اما الكتاب الثانى ، فهو « رسالة الغفران » لابى العلاء المعرى او (احمد بن عبد اله بن سليمان التنوحى، (٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ) الذى كتبه بعد رساله ابن شهيد بتسع سنوات ، وتاثر به فى جو الرحلة العام ، وان اختلف عنه مضمونا واسلوبا ونتيجه ، ورساله الغفران، كسابقتها ، تعتمد أساسا على الحركه والحوار ، وتصحبها فى كثير من المشاهد موسيقى تصويريه من العزف الآلى ، أو الانشاد الشعرى المعبر، والجديد فيها حقا « هو هذا الاخراج التمثيلى الذى عرض فيه ابو العلاء المعرى مشاهد العالم الاخرعلى سبيل التشخيص الذى يشبه الفن المسرحى » ، « وابو العلاء فى هذا

(١) رسالة الغفران ـ بحث بنت الشاطىء ـ مجلة تراث الانسانية المجلد الثانى ـ العدد السادس ٥ يونيو ١٩٦٤ ص ٤٣٣ . وقد ذكرت بنت الشاطىء ـ عائشة عبد الرحمن ـ انها اكتشفت رسالة أخرى لابى العلاء المعرى بعنوان : « الصاهل والشاحج » ، وذلك فى مكتبة الخزانه الملكية بالرباط ـ عاصمة المغرب ـ تبين أنه كتبهـا عام ٤٠٨ هـ فى ثلاثمائة وعشرين صفحة (أو نحو أربعين كراسة » ، والرسالة عبارة عن رواية حوارية بين حيوانين ـ هما الفرس والبغل ـ وتمثل عالم الانسان فى منطق الحيوان وعلى لسانه ، وذلك على طريق التشخيص والاخراج التمثيلى الزاخر بالحركة والحيوية ، وتسير المشاهد فتتدخل حيوانات وطيور أخرى كالجمل والضبع والثعلب والحمامة ، فالرسالة اذن مسرحية خالصة ابطالها من الحيوانات ، وأسلوبها يجمع بين السخرية والتهكم ، وتمثيل عالم الانسان بكل غروره وزهوه وتجبره وضعفه ، وخلال الاحداث نجد تفسيرا تاريخيا لاحداث عصرها فى مصر والشام من تعاقب الحكام والولاة والقادة ، وأحوال المجتمع وأوضاعه وطبقاته وصناعاته وحرفه أما الحوار فيجرى بالفصحى السائدة ، يتخللها شعر عربى تصل أبياته الى نحو الالف والخمسمائة بيت ، تجمعها وحدة المكان والزمان والحدث ، وهى أساسيات كل مسرح متقدم .

(انظر أعداد جريدة الاهرام ـ مصر ـ بتاريخ ٢٤ـ٥ـ١٩٧٤ ، ١٩٧٤/٧/٥ ، ١٩٧٤/٧/١٢) .

المجال التشخيصي التمثيلي ، مبتدع لا يجاريه أديب عربي آخر ، وقد تأثر في قصته بما في البيئة الاسلامية من وصف للحياة الاخرى ، وما ذكره القرآن الكريم والاحاديث النبوية في تصوير الجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والشفاعة ، وقصة المعراج التي حدثت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد تعمق المعرى هذه المرويات وانفعل بها ، وضمنها كثيرا من الاحداث والمشاهد وحوار الشخصيات ، فضلا عن الصراع الذى يتصاعد تدريجيا كلما انتقل من فصل الى فصل ، ومن مشهد الى مشهد ، وكل ذلك في أسلوب شيق تضمن كثيرا من آرائه في الحياة والحب والفلسفة والدين ، والعزلة التي فرضها على نفسه ، وكأن الرحلة بذلك متنفس له عن عالم أرضي لم يرض به ، ولم يرض عنه ، ومن المعروف أن رسالة الغفران جاءت ردا على رسالة بعث بها اليه ابن القارح ـ وهو اسم الكناية عن الاديب المتحدث على بن منصور الحلبي صديق المعرى ، وأحد المعجبين بعلمه وأدبه ـ وهي بعنوان : « في تقبل الشرع » ، ذم فيها الزنادقة والملحدين ، وهاجم الخارجين على حدود الدين ، وفيهما تمجيد للمعرى وتفوقه الفكرى الذى لايبارى ، والشوق المبرح للقائه (١) . وقد تخيل المعرى في رده على رسالة ابن القارح أنه قد صعد في نزهة بالجنة ممتطيا جودا من ياقوت ودر بعد أن يمر بأهوال يوم الحشر ويحظى بالشفاعة ، والرسالة أملاها المعرى عام ٤٢٤ هـ وهو في الستين من عمره ، وبعد أن نضج أسلوبه ، وأرهف حسه ، وطال تأمله في الحياة والناس ، وما رآه منهما

---

(١) الجنة والنار في الادب العربي القديم ـ بحث سيد نوفل ـ مجلة الهلال فبراير ١٩٧٤ ص ٤٠ ـ ٤٣ .

من حرب وضيق وتشتت ، مما ألجاه الى العزلة ، فكان رهين المحبسين : العمى والدار ، وتتكون الرسالة من مقدمة وقسمين رئيسيين ، يعبر فى المقدمة عن ضيقة بالملق والنفاق من بعض الناس ، فيصور ما يلاقونه على هيئة حيات وثعابين وهم فى الطريق الى الغفران فالنعيم ، فكأن الانسان يحصل على راحته بعد عناء ، وعلى فرحه بعد شقاء ، وعلى فرجه بعد يأس ، وعلى نعيمه بعد عذاب . وفى القسم الاول يصل ابن القارح ـ بطل الرسالة وراويها ـ الى الجنة ، فيرى ما فيها من مباهج ومتع ، يرى شجرها وقد جلس فى ظله علماء اللغة ورواة الشعر ، مثل المبرد وابن دريد وسيبويه والكسائى والاصمعى وغيرهم ، ويرى الولدان المخلدين ، والاباريق ، والشراب ، والعسل المصفى ، وحور العين ، والقصور ، والجياد ، وفى هذا النعيم المقيم ، وبالحوار الشيق السلس يتناول المعرى شئون الآخرة ، وكأنها أحلامه فى الدنيا وقد تحققت ، يرى الاعمى وقد ارتد بصيرا ، والاسود وقد أصبح ابيضا ، والاعشى احورا ، والهرم شابا ، كما يتناول أحوال الشعر وقوافيه ، وعالم الخمر والنساء ، ويتخلل ذلك كله الاغانى الملحنة ، والرقص البديع ، والعزف الشجى ، وتقام المآدب الحافلة ، وبعد هذا الجو الساحر الخلاب ، ينتقل المعرى ببطله الى مشهد آخر ، يطلعه فيه على أهل النار ، فيرى منهم بعض من كان يكره فى الحياة الدنيا ، ويراهم يتعذبون ويتألمون ، فيسارع بارجاعه الى الجنة وبذلك ينتهى القسم الاول من رسالة الغفران . أما القسم الثانى فيرد فيه المعرى على بعض المسائل اللغوية والادبية التى وردت فى رسالة ابن القارح ويتعرض لقضايا نقدية وتاريخية هامة ، ويذكر رأيه فى

فرق الامامية والمعتزلة والاشاعرة وغيرهم حتى تنتهى الرسالة أو المسرحية بمعنى حديث ، ولعلها تذكرنا ، بما حوت من نقد أدبى ومطارحات شعرية بمحاورة افلاطون ايون (١) ، التى تدور حول الالهام الشعرى ، وهل النقد الادبى له أصوله وقواعده ، ام هو مجرد تأثر كالالهام الشعرى والوحى ، وقد وضعها افلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧ ق.م) فى الفترة الوسطى من حياته - أى حوالى عام ٣٩٢ ق.م - وهى حوار مسرحى الاسلوب حول شعر هوميروس ومكانته ، كما لعلها تذكرنا بمسرحية الضفادع ، للكاتب المسرحى الكوميدى ارستوفان (٤٤٥ - ٣٨٥ ق.م) التى تتناول رحلة ديونيزوس - اله الخمر عند اليونانيين - الى العالم الآخر ، وهى تنقسم أيضا الى قسمين : الاول يدور فى النعيم ، والثانى فى الجحيم ، ويتناولان معا حوارا يدور بين أكبر شعراء اليونان وكتابهم المسرحيين ، سوفوكليس وابسخولوس ويوربيدس ، وأيهم أحق بامارة الشعر والادب ، وأيهم أجزل أسلوبا ولغة وفنا واستخداما للمقاييس والاوزان ، والمسرحية تجرى فى جو ساخر ، وأسلوب مشوق يختلط فيه الجد بالهزل ، وقد فازت المسرحية بالجائزة الاولى فى عيد اللينايا عام ٤٠٥ ق.م ، فاذا عرفنا أن المعرى قد اطلع فى فترة من حياته على الثقافة اليونانية ، وقد انتشرت فى العالم الاسلامى عن طريق الترجمات السريانية ، استطعنا أن نضيف أعمال الفلاسفة والشعراء ورجال المسرح اليونانيين الى ثقافة المعرى وتأثراته ، كما تأثر بقصة الاسراء والمعراج ، وما كتبه المفكرون على عهده حولها ، وأهمها ما كتبه

---

(١) ايون أو عن الالياذة - ترجمة محمد صقر خفاجة وسهير القلماوى مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ « المقدمة » .

الصوفيون وعلى الاخص كتابات محيى الدين بن عربى (توفى ٥٤٨ هـ) مثـل الملل والنحل وتاريخ الحكماء وغيرهما ، واستطعنا أن نقول كذلك أن ثقـافة اليونان كانتمعروفة عند العرب منذ بدأوا ترجمة تراثهم ، بما فى ذلك المسرح ، ولـكن يبدو انه لم يكن يجرؤ احـد على المجاهرة به ، لمـا احتواه من وثنية فى رأى بعض النقاد ! ..

ولقد كانت رسالتا ابن شهيد والمعرى نبعا لا ينضب لـكثير من الاعمال الغربية ، وعلى راسـها الـكوميديا الالهية لدانتى ، والفردوس المفقود لملتون على سـبيل المثال ، أما الكوميديا الالهية التى وضعها الايطالى دانتى اللجييرى (١٢٦٥ - ١٣٢١) فيؤكد المؤرخون انه استقى موضوعها من قصة الاسراء والمعراج ، وتعليقات وشروح المفـكرين العرب ، ومن كتـابات محيى الدين بن عربى أيضا مثل الفتوحات المـكية الذى وضعه قبـل مولد دانتى بربع قرن فقط . وممن اثبت هـذا الراى المفكر الاسبانى آسين بالاتشيوس فى كتابه : الاسـلام والـكوميديا الالهيـة ، وقد ترجم الى الانجليزية عام ١٩٢٦ (١) ، ويقول فيه : ان أصولا اسلامية ، من بينها رسالة الغفران قد كونت أسس الـكوميديا الالهيـة » وقد أورد فيه نصوصا من الغفران قارنها بنصـوص من الـكوميديا الالهية ، وفى ١٩٤٩ نشرت مكتبة الرسل بالفاتيكان فى روما كتابا للمستشرق الايطالى «تشيروللى» عنوانه : كتاب السلم - يعنى المعراج - ومسألة المنابع العربية الاسبانية للـكوميديا الالهية ، يؤيد فيه نظرية بالاتشيوس ، بنشر نصوص اسلامية وجدت مترجمـة

---

(١) مآثر العرب على الحضارة الاوربية - جلال مظهر - مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠ ص ١٠٣ .

الى اللاتينية والفرنسية فى المكتبة الاوربية قبل دانتى، وذيلها بفصل خاص عن دانتى والاسلام أثبت فيه تأثره بالغفران والمعراج وغيرهما من الآثار الاسلامية التى نقلت الى أوربا عن طريق اسبانيا (١) ، ويقول محمد عوض محمد فى محاضرة القاها بمؤتمر أندية القلم فى مدينة طوكيو عام ١٩٦٦ (٢) ، انه اطلع على الترجمة اللاتينية والفرنسية القديمة والايطالية لقصة الاسراء والمعراج ، والتى نشرت عام ١٢٦٤ م فى عهد الملك الفونسو فى اشبيلية ، وكان يعد نفسه ملكا على المسلمين والنصارى على السواء ، وترجمها أيضا ابراهيم الفقيه ، الطبيب اليهودى الى لغة قشتالة كما ترجمها المفكر الايطالى بونا فنتوار (١٢٢١ ــ ١٢٧٤) من الاسبانية الى اللاتينية والفرنسية ، وهذه الترجمات كلها كونت أسس الكوميديا الالهية التى بدأ دانتى كتابتها عام ١٣٠٧ ، واستغرق فى كتابتها عدة سنوات ، وتولى ولده طبعها ونشرها بعد وفاته (٣) ، فاذا أضفنا الى كل ذلك المام دانتى بالعربية والتراث العربى والعبرى ، وانه تأثر تأثرا كبيرا ــ وذلك باعترافه بسورة الاعراف فى القرآن الكريم ، لم يزاولنا أى شك فى تأثره برسالة المعرى ، وقد قسم دانتى كوميدياه أقساما ثلاثة تنقل فيها بأشخاصه بين جنبات الجحيم تارة ليرى طوائف الآثمين يلقون صنوف العذاب درجات على قدر آثامهم،

(١) رسالة الغفران ــ بحث بنت الشاطىء بمجلة تراث الانسانية ص ٤٢٣ ــ ٤٢٤ • انظر أيضا تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ــ الجزء الثانى ص ٢٦٥ •

(٢) اثر العرب فى الحضارة الاوربية ــ العقاد • ص ٥ ــ ٦ •

(٣) ترجم الكوميديا فى ثلاثة أجزاء ــ حسن عثمان ونشرتها دار المعارف بالقاهرة ــ أنظر أيضا : دانتى ــ مصطفى آل عياد ــ سلسلة اقرأ ١٦٤ ــ دار المعارف ــ أغسطس ١٩٥٦ ص ٨٣ • وما بعدها •

وليرى من لم يفعلوا الخير ولا الشر ، ومن غلبوا العاطفة على العقل ، والشرهين والبخلاء والمسرفين والكسالى والطغاة والقتلة والخونة ، ثم ينتقل فى القسم الثانى الى المطهر ، وهو يقع بين الجحيم والفردوس ، حيث يصبح الجحيم ذكرى للخطايا السابقة ، وفى المطهر نرى مشاهد مؤثرة ، اذ يلتقى دانتى بحبيبته بياتريشى التى تزوجت غيره ، وتعنفه على انحرافه بعد وفاتها ، فاذا كنا فى القسم الثالث : الفردوس ، فنحن ننتقل الى النعيم حيث نلتقى بمن قاموا بجلائل الاعمال والحكماء والمجاهدين والعادلين والمفكرين والمتأملين ، وكل ذلك فى أسلوب شعرى حوارى يتسم بالعمق والوضوح .

أما الكتاب الثانى الذى تأثر برسالة الغفران للمعرى فهو الفردوس المفقود أو الجنة الضائعة ، وقد وضعه الشاعر الانجليزى ملتون (١٦٠٨ — ١٦٧٤) عام ١٦٦٤، وحاول فيه كما يقول وضع مسرحية شعرية عن ملك أو فارس انجليزى عاش قبل الفتح النورماندى، وسوف يجعل منه النموذج المحتذى للبطل المسيحى، وانه بذلك يؤدى لانجلترا ماأداه سوفوكليس ويوربيدس لليونان، وانها من لون الشعر الغنائى ايضا اذ تتضمن أناشيد الثناء على الله وشكره على نعمه (١) ، وتدور حول تدمير الكون بسبب معصية الانسان الاول : آدم وهى المعصية التى كانت سبب الشرور والآثام، أما شخصيات ملتون فهى الله والملائكة والانسان الاول (آدم) والمرأة الاولى (حواء) والافعى والشيطان والملائكة ، ويتصور ملتون مجلسا للملائكة العصاة وسقوطهم من السماء الى

(١) عمالقة الادب — برتون راسكو وترجمة دريني خشبة وأحمد قاسم جودة — الالف كتاب — نشر مؤسسة روزاليوسف ١٩٦١ ص ٢٣٥ — ٢٤٠ .

درك كبريتي مهجور ، ويصـف أحاديثهم الحوارية ، وسقوط الانسان فى غل وحسد ، والتمهيد لخلاصه ، ثم يصف الفردوس بعد ذلك ، والحياة السعيدة فيه ، وهذا شبيه بما فعله دانتى ، وما فعله المعرى من قبلهما.



ويبقى لنا من كتب الدراما عند العرب كتاب يتضمن مسرحية متكاملة ، وهو كتاب ـ أو مسرحية ـ « يوم القيامة» للكاتب العربى السـاخر محمد بن محرز الوهرانى (١) . (٥٧٥ هـ) الذى عاش فى صـقلية والشام قبل مجيئه الى مصر ايام السلطان صلاح الدين الايوبى ، وكان يحترف الكتابة والخطـابة وصنـاعة الانشاء فى دمشق ، وتغلب على أسـلوبه روح الدعابة والسخرية رغم المناصب الرسمية التى تولاها ، وانما كان يكتب ما يكتب بعد الفراغ من عمله للترفيـه عن نفسه التى اثقلتها الهموم وضيق ذات اليد. وفى أخريات أيامه عاد الى دمشق ، ليموت فيهـا ـ كما ولد ـ ٥٧٥ هـ .

وللوهرانى أعمال كثيرة ، نذكر منها ما يخص مجال بحثنا المسرحى ، عمله الكوميدى الفذ «يوم القيامة» ، المسرحية الخالصة التى تتكون من ثلاثة عشر مشهداً ، تدور فيما يشبه حلما يراه المؤلف ، وكأن القيامة قد قامت ، وكأن المنادى ينادى ، فخرج من قبره الى أن بلغ أرض المحشر ، ثم يصور يوم القيامة كما يتخيله فى أسلوب حوارى رشيق ، خال من السجع ، فيه يصف ما أصاب المذنبين من الفزع خوفا من الله ، وفى هذا الجو يلتقى بأناس كثيرين ، قدامى ومعاصرين له ، ومنهم

---

(١) من التراث العربى ـ بحث محمد نعش ـ مجلة الهلال ينـاير ١٩٧٢ .

الادباء والشعراء والفلاسفة والصوفية والملوك والسلاطين ، كما يلتقى ببعض الملائكة ومنهم مالك خازن النار، وعزرائيل وجبريل ، ثم يصعد الى الاعراف المطل على الجنة ، ومما يذكر أن المشهد الرابع يحتوى على رقص وغناء وسط حلبة مخصوصة ، وحولها نرى ثلاثة من المذنبين بجرائم قتل فى حياتهم الدنيا يتلوون الما ، ويشتركون فى الرقص أيضا ، وتتوالى المشاهد ، وفى كل مشهد يتحدث الوهرانى مع — وعن — أشخاص مختلفين ، وفى أجواء مختلفة ، وفى المشهد التاسع يظهر النبى محمد صلى الله عليه وسلم مع اصحابه فى موكب عظيم يستقبل فيه بالتهليل والتكبير والطرب الذى يليق بمقامه ، وفى المشهد الثانى عشر نرى القتال الذى نشب فى الحياة الدنيا يوم صفين بين الامويين والشيعيين ، وفى المشهد الاخير يستيقظ الوهرانى ، المؤلف ، أو بطل المسرحية ، على سهم يصوبه محمد بن الحنفية الى صدره ، فيثب من نومه خائفا مذعورا . ويتسم الحوار أو مشاهد المسرحية كلها بالسخرية والرشاقة ، فهو يعرض نقائص من يهجوهم ومذلتهم فى حسابهم يوم القيامة ، وهو فى عرضه للأحداث وتصويره للشخصيات واختياره للزمان والمكان ، يمتاز بدقة التعبير، ومناسبة الجو الدرامى . وكأنه كتبها لتقديمها على مسرح حقيقى فيه ممثلون ومشاهدون .

هذه الاعمال الدرامية التى سبقت — ومنها رسالتا ابن شهيد العربى ، ومسرحية الوهرانى ، من الاعماق المسرحية حقا ، اذ تصلح تماما لتقديمها على خشبة المسرح بشىء من الاعداد ، وهى أعمال غنية بالديكورات المتنوعة ، تستلزمها اضاءة خاصة ، واعداد موسيقى يستغل جوانبها الراقصة والغنائية ، ويلحن ما بها من

قصـــائد مناسبة هى من روائع الشـــعر العربى ، مما يتطلب بالتالى مطربين ومطربات وراقصين وراقصـــات وعازفين وعازفات على درجة عالية من الجودة والاتقــان صوتا وحركة وتوقيعا ، وفوق ذلك تتطلب ممثـــلين ومخرجين ومهندسى ديكور واضاءة على درجة عالية من الثقافة المسرحية ، حتى يلموا بالاجواء التاريخيــة ، ومتطلبات الزى والديكور .. الى غير ذلك مما يحتاجه المسرح الحديث ، بل انها سوف تتطلب ايضا وســائل تكنيكية مسرحية متقدمة ، كالمسرح الدوار لسرعة تغيير المشاهد ، وكالمؤثرات الخاصة فى الصوت والاضـــاءة لتضفى على الاجواء طابعها الوارد فى النصوص ، وفوق ذلك سوف تتطلب جمهورا على مستوى فـكرى يليق بأعمال فكرية من الطراز الاول .. فهــل نجرب ؟ انها دعوة الى فنانى المسرح المثقفين .. فهل يستجيبون ؟
قل عسى .. !

الفصل السادس :

مسرح عربي خالص

تعتبر « القصة » ، أو « الحدوتة » أهم عناصر المسرح ، فما لم يكن هناك شيء يقال ، لم يكن هناك مسرح ولا مسرحية ، والقصة هي القالب الذى أجمع النقاد على ضرورته ليوجد فن مسرحى ، ولا بد لهذه القصة من عناصر فنية ، تجعل منها أحداثا تجرى وتتتابع على خشبة المسرح ، من هذه العناصر أن يكون لها بداية ووسط وذروة ونهاية ، ومنها أن يكون بها عنصر الصراع الدرامى بين طرفين او أكثر يجعل منها كيانا مرئيا أو مسموعا أو مقروءا يمكن فهمه ، ومنها أن يكون لها معنى ومغزى أو عظة أو عبرة تجعل المشاهد يتجاوب معها ويتأثر بها ، ومنها أن يكون أسلوبها حواريا على لسان الاشخاص فى « أخذ ورد »، ومنها أن تكون اللغة مفهومة ـ ولا يهم أن تكون عامية أو فصحى ، بحيث تصل الافكار عن طريقها بوضوح لا لبس فيه ، فاذا انتفت هذه العناصر من القصة او نقص منها أحدها ، تعذر على المشاهد الفهم ، وعلى الموضوع أن يصل ، ومن أهم عناصر المسرح أيضا عنصر المكان الذى تجرى فيه الاحداث ، ونراه أمامنا معبرا عن واقع الموضوع بالفعل ، ونعنى بالمكان أمرين :

مكان أحداث المسرحية ، ومكان خشبة المسرح ، بمعنى أن المشاهد يرى أمامه مكانين ، المكان الذى تدور من خلال المسرحية : بيت أو عمل أو شارع أو محطة .. الخ ، وهذا يبرزه الديكور ، والمكان الذى يجلس أمامه أو حوله أو بمعنى آخر خشبة المسرح ، ومن المناسب أن يتلاءم المكانان مع الاحداث والوقائع ، وهناك من العناصر الاخرى ـ كالزمان والعصر والملابس والاضاءة والديكور والاكسسوار ـ ما يساعد على تكامل العمل المسرحى ، وابراز معالمه وجوانبه المختلفة ، بحيث يعايش المشاهد النص ، وكأنه يراه فى الحياة على الطبيعة ، أو أقرب ما يكون الى الطبيعة ، وهناك عنصر هام فى هذا المجال وهو الاختصار أو التركيز، بمعنى أن المشاهد يرى فى خلال ساعتين ـ أو أكثر أو اقل ـ أحداثا قد تقع فى أيام أو شهور أو سنين ، وهنا لابد من التركيز على الاحداث الهامة ، والايهام بعنصر الاضاءة وتغيير الديكور للاحساس بمرور هذا الزمن، كذلك هناك عنصر أساسى لابد منه ، وهو الممثل الذى ينقل بتعبيرات وجهه ، وحركات جسمه ، وتكوينات صوته ما تحمله المسرحية من معان وعبارات ولهجات بحسب المواقف والمناسبات والاحداث .

ولقد عرف المسرح منذ نشأته هذه العناصر الاساسية فى فن الدراما ، عرفها المصريون، واليونانيون، والهنود والصينيون ، وتطور كل عنصر منها على مر الزمن حتى أخذ الشكل الدينى المتعارف عليه أو نراه قد خرج على بعضها فتغيرت واقعيته الى التجريدية أو الرمزية أو اللامعقول الى آخر هذه المسميات المعاصرة ، والمهم انها بدأت عناصر بدائية ، فعنصر الحدوتة تطور من فكرة بسيطة ، ومن مشهد

بسيط ، ومن ممثل واحد ، يحكي أو يمثل ، ثم الى قصة كبيرة فيها أحداث وصراع وفصول ، ومن قصة واقعية الى قصة رمزية أو أسطورية أو رومانسية بحسب المذاهب المختلفة التى عرفناها فى تاريخ الادب ، وبدأ المكان بالشارع أو البيت أو الساحة أو السوق أو العربة الجوالة قبل أن يستقر فى المكان المعروف والثابت كبناء مستقل له مؤسساته ونظمه ولوائحه ،

وبدأ الممثل فردا جوالا ، ثم فردين ، ثم ثلاثة .. ثم دخل العنصر النسائى ، ثم الكورس ، ثم أصبح فرقة كاملة تضم المئات من الجنسين أحيانا ، وبعد أن كان التمثيل بدائيا أصبح فنا له قواعده وأصوله وطرقه فى الالقاء باللهجة والنبرة .. وكل هذا فى باقى العناصر ، كالملابس والاضاءة والديكور ... الخ . وقد شهدت الشعوب على اختلافها كل هذه العناصر منذ بدايتها والى الآن ، فاذا أضفنا أن التمثيل شيء غريزى فينا ، لانه يقوم على التقليد والمحاكاة ، عرفنا أن الانسان — أى انسان فى أى مكان وزمان — ممثل بطبعه ، فهو.

يحاكي الطبيعة ، أو يحاكي الحيوان أو الانسان ، يحاكى أباه أو أمه أو اخاه أو أحد أقربائه فى حركة أو صوت أو فعل ، ولنا فى ألعابنا صغارا ، وحيلنا كبارا ، مثل آخر ، فالانسان يولد ممثلا بطبعه ، وهو غير مكره على التمثيل ، ولا التمثيل مطلوب منه ، ومن هنا جاء التمثيل فنا مستقلا على خشبة المسرح ليحاكي الواقع ، ويعكس البيئة ، ويعبر عن المشاكل الاجتماعية ، ومن هنا كان تجاوب الناس معه لانه يحاكيهم ، ويعبر عنهم ، ولعلنا نتذكر عبارة شكسبير فى مسرحيته « كما تحب » : ما هذه الدنيا كلها الا مسرح ، وما الخلق كلهم من رجال ونساء وأطفال الا ممثلون ، تارة يظهرون على المسرح ،

وتارة يخرجون ، وقد يلعب الواحد منهم فى لحظاته المعدودة أدوارا عديدة » .

نصل من هذا الى أن المسرح مادته الحياة ، ولغته التعبير عنها ، وعناصره موجودة فى كل شعب ، وقد تتفاوت درجات هذا الوجود ، ولكنه وجود على كل حال ، وهذا ما نراه فى عالمنا العربى ، وما رأيناه واقعا وتطبيقا خلال الفصول السابقة ، لقد عرف العرب المسرح منذ قديم الزمان ، عرفوه قصة ومكانا وممثلا وجمهورا ، ولا يكاد شعب آخر ينافسهم فيما صاغوه من قوالب للتعبير عن القص والاشعار به ، فهم أول من قالوا (١) من غابر الدهر : قال الراوى ، ويحكي أن ، وزعموا أن ، وكان ياما كان ، والامة العربية أمة قصصية بالطبع ، وقصصها تصور المجتمع وتعبر عن البيئة أصدق تعبير ، وهى تمتاز بدقة الوصف واللغة وفصاحة البيان ، والقدرة على استنباط الحقائق ، وروح الفكاهة والمرح ، والكشف عن النفوس وطبائعها والعقليات وسماتها ، واذا أمعنا النظر فيما خلفه العرب من أخبارهم وآدابهم ، وجدناه لايخلو من التمثيل وان لم يكن شعرا مجردا ، بل هو مزيج من الشعر والنثر ، وقد وصل الينا ــ كما أسلفنا القول فى قالب القصص والحقائق التاريخية ، وأكثرها يرمى الى تمثيل الفضائل التى يقدسها العرب ، كالوفاء وكرم الضيافة والمروءة والشجاعة والعفة ونحوها ، تمثلا يحببها الى الناس ، ويرغبهم فيها ، وجعلوا أبطالا رجالا أو نساء من المشهورين لتكون نماذج تحتذى وقدرة سلوكية تبتغى .

ولقد عرف المسرح العربى منذ مولده نوعا من

---

(١) تاريخ القصة فى الادب العربى ــ بحث محمود تيمور ــ المجلة العدد الخامس مايو ١٩٥٧ .

الدراما الخالصة عرفنا نماذج منها فىالمقامات والرسالات والملاحم ، ويبقى ان نتابع عرض هذا اللون من المسرح الخالص، ليقتنع من بقى فى قلبه شك فى وجود هذا المسرح فضلا عن مجرد معرفته ..

ومن هـــذا المسرح الخالص عرف العرب مسرحية مقتل الحسين فى كربلاء فى العاشر من شهر اكتوبر ٦٨٠م (٤٠ أو ٤١ هـ) ، وهى مسرحية كاملة تحكى قصة الحسين منذ مولده ، والى مصرعه على يد شمر بن ذى الجوشن ، من جيش يزيد ، عدو الحسين وهـذا الحدث على ما فيه من قسوة وبشاعة ، يحمل فى طياته امكانيات درامية لاحد لها ، جعلت أنصار الحسين ، وهم الشيعة فى العراق وايران وسوريا يعيدون تمثيل مشهد قتله كل عام ، وعلى مدى الايام العشرة الاولى من شهر المحرم ، تذكيرا به ، وايمانا بعدالة السماء وانتصار الحق ، وتخليدا لمعانى البطولة والشجاعة والصبر والتضحية عند الحسين وانصاره ، وفى تلك الايام ينتشر المتحدثون ، والممثلون ، على المنابر والاماكن العامة ، وبعض المنـــازل الخاصة ، يروون أحداث بطولة الحسين ، ويشـــيدون بمناقبه ، ثم يسردون المديح ويضمنونه حوادث تفسيرية مصحوبة بالغناء الرثائى ، والتوقيع المحزن ، وكذلك كانت تقوم المسيرات الدينية العنيفة التى تجعل مدينة مثل كربلاء فى حالة توتر دائم ، ويرى المستشرق جوبينو أن هذه الاحتفالات تشبه الطقوس الوثنية التى كانت تقام لأدونيس (١) .. اما الاحتفالات فكانت تبلغ ذروتها فى اليوم العاشر ، وهو يوم عاشوراء فيمثل مشهد القتل نفسه ، ويلقب بمشهد التعازى ، وهو يقـابل مسرح

---

(١) الاسلام والمسرح ـ محمـد عزيزة ـ ترجمة رفيق الصبان ص٤٢ ـ ٤٨ ، ٨٨ ـ ٨٩ ، ٩٠ ، ١٣٤ ـ ١٣٥ . والنص من ٩٨ ـ ١٣٣ .

الأسرار الذى عرف فى أوربا المسيحية خلال العصور الوسطى ، وهو مسرح ذو صبغة دينية وتعليمية ، وهذا اللون أيضا عرفه المجوس الفارسيون قبل أن يغزوها الاسلام واندحرت بانتصاره .

ومسرحية التعازى ، أو مقتل الحسين ، تروى قصة مصرعه مصحوبة بالموسيقى ، والمؤثرات الصوتية مثل اصوات الفرقعة التى تختلف حدتها فى كل مرة ، وهى تعرض فى الاماكن العامة ، فى الهواء الطلق ، أو فى تكية الدولة — فى ايران — وتبدو الديكورات واقعية يصحبها الرمز أحيانا ، كمنظر الدماء ، والرمال التى يرمز لها بالقش المنثور ، وكراس الحسين التى تنبعث منها الاشعار المقدسة ، ومنظر قتل أحد الفرسان العزل من السلاح لخصمه بسيف يقبض عليه بيده ، ولم تكن هناك نساء ، بل كان الرجال يقومون بأدوارهن اذ كان غير مسموح لهن بالظهور على المسرح ، ويقوم الصوت بالتعبير عن الدور المطلوب ، وللمسرحية ثلاث مراحل ، الاولى تتضمن المشاهد التى تسبق معركة كربلاء ، كزواج فاطمة وعلى ، وطفولة الحسين ، وموت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم موت فاطمة ، وأخيرا توجه الحسين الى كربلاء — من المدينة — مستجيبا لدعوة أهلها للانتصار لهم على حاكمهم الطاغية يزيد بن معاوية الذى يكرهه ويكره آل بيت النبوة . والمرحلة الثانية تروى مأساة كربلاء بمقتل الحسين على يد شمر بعد قتل ابن عمه مسلم بن عقيل وتآمر عمال يزيد عليه ، وطلبه زوجة الحسين وأخته زينب سبايا ، والمرحلة الثالثة ، ما بعد المعركة ، حين يحمل الجيش الاموى راس الحسين وبعض الاسرى الى دمشق ، وتحرر أسرة الحسين وتعود الى المدينة ، وتختتم المسرحية بمشهد

يوم الحساب الاخير ، حيث يقوم الحوار بين الحسين ويعقوب لمعرفة من منهما تعذب فى الدنيا أكثر من غيره ، ويحسم جبريل — أمين الوحى الالهى — النزاع لصالح الحسين ، فيصبح الحسين بذلك الشخص الذى سيتلقى مفاتيح الجنة ، ليدخلها المسلمون الصالحون ، ومن تاب من الخطاة والمذنبين .

ويهمنا فى النص القديم لمسرحية الحسين أن نقدم نموذجا من الحوار ، أعد عن النصوص الشيعية ، من الكتاب الفارسى : « جونج — ى — شهاديت » أو «نشيد الشهيد» ، ويدور المشهد النموذج بين الحسين وشمر (الذى تولى قتله) :

الحسين : اعلم اننى لن أعترف أبدا بسلطان رجل حقه فى الخلافة لا المبايعة الشعبية ، وانما لأنه ابن لأبيه .

شمر : لم أكن أنتظر غير ذلك منك ، ياحسين الكريم ، ياحسين المثالى ، أيها التقى الجميل .. وكم هو مؤسف أن تتفسخ هذه العظمة كلها فى لهيب الشمس ، فى أرجاء هذا السهل الكئيب ، حيا ، كنت تتحدى الملوك ، وميتا ستكون عطية للغربان الجائعة تدثر بكبريائك أيها الامير الذى سقط ، فحد سيفى سيعرف كيف يتلقى بريق نظراتك .

الحسين : أى قلق عميق أحسه فى قرارك المذعور، أى شمر ، لماذا يدفعك عذاب روحك الى ظلمات غرائزك الدنيا ؟

شمر : لا تكلف نفسك جهد اقناعى أيها النبيل، ان اغراء طيبتك العذبة لا تمس روحى

الصلبة ، انى أكره الضعف الانسانى، وأكره صوت التفاؤل الراضى عن نفسه .. كفى مزاحا ، بايع يزيد أو تهيأ للموت .

الحسين : انى ارضى بموتى الذى لا مفر منه ، ولكن اخبرني يا شمر ، لم تكرهني الى هذا الحد؟ وما الذى افعله وتحتقره ؟

شـــمر : ما يثيرنى فيك ياحسين ليس عظمتك او عذوبتك ، وليس تفاؤلك ، وانما هو الطابع المطلق لعواطفك .

الحسين : اى ثأر لى أن أعرف أنك انت جلادى ؟ اتقتلنى لأنك لا تستطيع ان تكون مثلى ؟

شـــمر : كفى ثرثرة .. تهيأ للموت .

الحسين : سأكون مستعدا بعد أن أودع أهلى الوداع الأخير .. ايمكننى ؟

شـــمر : اذهب واعلم اننى بانتظارك .. (الحسين يستدير نحو خيامه لتوديع زوجته شهرابانو، ويعهد اليها بأولاده ، كما يودع أخته زينب، وأصدقاءه ، وذلك فى منولوج طويل يقول فيه : « قريبـــا ســتفارق روحى التى تحررت جسدى ، وستذهب لتلقـاكم على ضفاف نهر الـكوثر فى الجنة ، بعيـدا عن اشواك هذه الحياة الدنيا .. »
ثم يدور حوار بين زينب والجوقة :

زينب : الحسين يذهب ، والارض تتابع دورانها..
يا لجنون العالم .

الجوقة : فى سهل الظلم .. النقى يتقدم .

زينب : الحسين يذهب ، والنجوم ما زالت تتلألا.
يا لعمى العالم .

الجوقة : الى لقاء موته ، النقى يتقدم .. تأوهي يا قبة السماء الزرقاء . ويختتم المشهد وقد رجع الحسين الى شمر :

الحسين : (لشمر) : تعال الى ، وانه مهمتك القذرة باجزار ، تعال ، وليسقط ليل الظلم على هذا السهل .

شمر : (يندفع نحوه) نعم سأعرف كيف أظلم بريق نظراتك (ظلام) . ويحتوى النص على شخصيات كثيرة مثل ابن سعد ، والملاك فيتروس ، وجعفر ، وسكينة، والحر ، والعباس ، وعلى الأكبر ، وعلي الأصفر ، ورسول يخبر الحسين بمقتل ابن عمه مسلم بن عقيل ، فضلا عن الجوقة التى تعلق على الاحداث ، ودورها يشبه دور جوقة المسرح الاغريقى بالفعل .

ان نص المسرحية يحتوى على كل عناصر الدراما ، فتمثيله يجرى على خشبة مسرح ، عبارة عن منصة فى وسطها صيوان خشبى دائرى أو مربع مفتوح من كل جوانبه ، والجمهور المشاهد حوله من كل مكان ، والتمثيل يقوم به ممثلون يطابقون بين النص والاداء ، ويحاكون بالصوت والحركة الاحداث الجارية ، ويغيرون ملابسهم فى أماكن جانبية ، ويستمر العرض ساعات متوالية تبدأ منذ الصباح .

وقد انتشرت القصة بتفاصيلها فى أكثر من بلد اسلامى لتمثل بنفس الاسلوب والاحداث ، وصحيح انها تعد قصة دينية ، ولكن العنصر السياسي واضح فيها أيضا ، وتوجد للنص أصل فارسى محفوظ بالمكتبة القومية بباريس ، ويحتوى على ٣٣ مجلسا يعرف باسم نشيد الشهيد ، كما يوجد له أصل عربى عراقى بعنوان : « كتاب لتين » طبعه وليم لتين فى المانيا ،

ويحتوى على ١٥ مشهدا منقولة فوتوغرافيا عن مخطوط عراقى مع مقدمة مختصرة ، وهناك نص ثالث يحمل عنوان « كتاب لويس » نشره بالانجليزية لويس بيللى ، ونجد حديثا مسرحية لعبد الرحمن الشرقاوى (١) نسجت على منوالها ، وهى مسرحية شعرية من جزاين يحملان عنوانا واحدا « ثار الله » ، اما الجزء الاول فبعنوان : « الحسين ثائرا » ويحتوى على ١٣ منظرا ، والثانى بعنوان : « الحسين شهيدا » ويحتوى على ستة مناظر، ولا يفصل أحداث الجزئين أى فاصل زمنى أو مكانى، ويركزان معا على قصة خروج الحسين من المدينة وأستشهاده فى كربلاء .



ومن المسرح العربى الخالص ، ما اكتشفه بعض الباحثين ــ من العرب والاجانب ــ على مدى النصف الاول من القرن العشرين ، من أدلة تاريخية ، ونصوص شعبية وغنائية ، ومن هؤلاء مثلا فلاندرزبيترى وزوجته مرجريت مرى ، فقد عثرا فى قرية « هوارة » بالفيوم على نص مسرحية باسم الفرس لتيموثيموس ــ من القرن الرابع قبل الميلاد ، وأحد نصوص الشاعر الملحمى اليونانى هوميروس ، وثلاثة برديات لأرسطو ، وبعض المسرحيات الكوميدية للشاعر هيروداس ، وفى قرية «جوروب» غرب الفيوم ، عثرا أيضا على محاورتين لأفلاطون هما لاجنيس وفيدون ، وأكثر من مائة بيت من ملحمة يوربيديس «أنتيوبى» ، وأجزاء من مسرحيات سوفوكليس وايسخولوس ، وأربع كوميديات كاملة لميناندر ، وكل هؤلاء من شعراء وكتاب المسرح اليونانى

(١) روايات الهلال ــ دار الهلال ــ القاهرة العددين ٢٧٥ ــ ٢٧٦ نوفمبر وديسمبر ١٩٧١ .

القديم ، فماذا تثبت هذه النصوص ؟ انها ولاشك تثبت وجود علاقة وثيقــة بين المسرحين الفرعونى واليونانى القديمين ، وانهما تبادلا الاعمال المسرحيه ، وان مصر العربية ـ بعد ذلك ـ استمر فيها هذا التبادل ، او بقى ما بقى من تراث يونانى معروفا على الاقل فى مصر ، ولم تكن المسافة بين مصر والبلاد العربية تجاوز عبـور البحر الاحمر ، او سيرا على الاقدام او الجمال ، عبر سيناء الى الشام والعراق ، أو عبر البحر الابيض الى أوربا ، وما كان ايسر السفر فى كل العصــور لتبــادل المنفعة ، تجارة وعملا وفكرا ، وقد روى احد علمــاء الآثار أن بعثة أجنبية شــاهدت حفلا راقصــا لاحدى الفرق الشعبية المحلية فى الفيوم ، واكتشـف أحـد أعضائها أن الرقصة هى بنفسها رقصة بعث أوزوريس كما تسجلها النقوش التى تصــــور الاسطورة ، وقد احتفظت بكل مقوماتها بدقة عجيبة منذآلاف السنين، كما اكتشفت البعثة أيضا بعض النصــوص الدراميــة الشعبية التى تمثلها بعض الفرق المحلية الجوالة بالقرى هناك ، وذلك مثل نص : « سارة وهاجر » و « سعد اليتيم » (١) ، وكلها من مكتشفات بعثة الفنون الشعبيه بالفيوم أيضا ، ولا يعرف لهما مؤلف معين ، وان كان لهما أصداء تاريخية بعيــــدة المدى ، وتعود الى فجر التاريخ المصرى ، وتصل بهما عبر أجيال طويلة الى دخول الاسلام الى مصر ثم الى العصر الفاطمى ، بعد اضافات تتناسب مع كل عصر ، وتتفق مع البيئة حسب ظروفها الاجتماعية .

---

(١) المقدمة والنصوص بمجلة المسرح ـ جمع شوقى عبد الحكيم ـ العــــددان ٤٠ ـ ٤١ ـ ابريل ومايو ١٩٦٧ وتم ذلك أثنـاء رحلة استكشافية لاحدى بعثات مركز الفنون الشعبية الى الفيوم ١٩٥٦ .

أما نص « سارة وهاجر » فيحكي قصة سارة والخليل ابراهيم برحلتـه ، وكذلك صـوت السكين تأسى لذبح بتمثيله أشخاص يحملون أسماء سارة وهاجر وابراهيم واسماعيل وبعض الرعيان واحدى الفتيات ، وكورس من بعض المنشـــدين يقومون بالتعليق والربط بين الاحداث ، كما نسمع صوت الملاك جبريل حين نزل يبشر ابراهيم برحلته ، وكذلك صـوت السكين تأسى لذبح اسماعيل ، ويدور الحوار بالشعر العامي ، وبالغنـاء الملحن ، بمصاحبة بعض الآلات الموسيقية البـدائية ، ونقتطف من النص هذا الجزء الذى يفتتحه الـكورس بالتمهيد للأحداث :

الـــكورس : كانوا سارة والخليـل أيام صباهم
بادعين فى الحسن والمولى عطـاهم
مدة من ليـــام ولا بلغوش منـــاهم
من الدرارى لا صـــبى ولا بنيـــة
من الدرارى لا صبى يا ابن الأكابر.
ســـــارة : يا خليـل الله لقيمته تدن صـابر
بس طـــــاوعنى وتزوج بهاجر
لأنها حرمة شريفة ومهتـــــدية
ابراهيـــــم : لأنها حرمة ، انما خايف عليـكى
بس من غيرة النسا قاسـية عليكى
حالف يمين ، العمر ما اتزوج عليكى
لو عطونى فى خلافك ميت صبيـة
ميت صبية فى خلافك لو سمحتى
افعـــــلى يا بنت عمى بما أمرتى
الـــكورس : بس يا سارة على الغيرة صبرتى
ينبنيـلك قصر فى الجنــة العليــة
ســـــارة : ينبنيلى قصر بس اذا كنت راضى

اسمح تزوج وانا اللى ابلغ مرادى .

ويستمر الحوار على هـذا النمط حتى آخر النص الذى يستغرق تمثيله نصف ساعة أو أكثر ، وواضح فيه القدرة على التعبير المسرحى فى لغة سهلة واضحة، وبطريقة درامية خالصة ، وتنتهى القصة عند تلبيـة ابراهيم نداء ربه بذبح ولده اسماعيل ، ثم افتدائه بكبش عظيم ، ويدور الحوار الختـامى التالى بين الـكورس وصوت السكين :

الـــكورس : انطرح ع الارض والخليل مشـــاور
قام سحب سـكينة مسنونة مضيـة
قام سحب سـكينة مسنونة جريحة
ناوى يدبح سماعين ابو القامة المليحة

صوت السكين : دبح ســـماعين يا ربى بليـــة
دبح ســـماعين بليـــة يا خليلى
دا انت مرسل أرسلك ربى الجليلى

الـــكورس : انثنت الســكين فى يد الخليلى
واتفدى سماعين بكبش للضحية
اتفدى سماعين بكبش للتمامى
لجل تفسير الخليل فى هذا المنامى
والعرب كلهم ضحخم بأغنـامى
وصار من الزمن هادا عيـد الضحية

أما نص « ســعد اليتيم » فانه يأخذ من اســطورة ايزيس وأوزوريس الفرعونية اطارها العـام ، بعد أن حذف المنشدون الاقباط أولا ، ثم المسلمون بعد ذلك ، ما يتنافى مع عقيدتهم ، ومع ذلك يظل الموقف الاساسى: أخ طيب ، وآخر شرير ، الشرير يقتل الطيب ، وينتقم ابن الطيب من القاتل ، ونجد فى النص بعض المشـاهد القديمة التى ما زالت باقية ، كمشـهد العجوز التى

نسيها المحتفلون فأفسدت بينهم وجلبت الدمار ، وهى تشبه ربات الغضب اللاتي يتسببن فى اشـعال حرب طروادة ، وكمشهد الصندوق الذى حمل سعدا فى الماء ، وهو يشبه صندوق أوزوريس، وكذلك صندوق موسي ، وكمشهد اصابة الأم بفقد بصرها الذى عاد بعودة ابنها بعد طول فراق ، وهو يذكرنا بقصة سيدنا يعقوب حين ادعى أبنـاؤه ان يوسف قد أكله الذئب فابيضت عينـاه من الحزن ، ثم ارتد اليه حين عثروا على يوسف والقوا عليه قميصه ، وهذا النص يستغرق فى تمثيله ساعتين أو أكثر ، ويحتوى على مشاهدكثيرة وشخصيات متعددة مثل الامير فاضـل والامير بدران والعجوز والاميرة فوز والصـياد والعبيد وصبيحة والملـكة الزوجة والخادم سعيد ، والقاضى والوهيدى دمج ،وغيرهم ، فضلا عن الـكورس الذى يتخللالمشاهد بالتعليق أو التمهيد للمشهد التالى ، أما لغـة الحوار فهى العامية أيضا ، وقد بلغ قدرا بعيـدا من النضج والوضوح واكتمال التعبير ، ويسر الانتقال من مشهـد الى مشهد ، ومن جو الى جو ، وما زال هذا النصأيضا يقدم حتى اليوم فى قرى الفيوم وغيرها من القرىالمصرية والعربية ، وسنأخذ فيما يلى نموذجا من الحوارالدرامى فى هذا النص مجهول المؤلف (١) :

(يبـدأ الفصـل الاول بالجوقة تمهـد للأحداث) :

الجـوقة : كان للأمير فاضـل كبـير العرب
سـلطان لا يعـلا فى الـكلام عليه
يحكم بخوف الله ولو عـزم طـال
ويوم الحرب كان صـاحب قتـال

(١) مقدمة النص بمجلة المسرح العدد ٤١ لفاروق عبد الوهاب .

لما يسير تركب وراه عزتو
كان الأمير فاضل وبدران أخوه
يحكوا بكلام ، كل العرب يسمعوه
وتستمر الجوقة فى هذا التمهيد حتى
يدخل الامير فاضل :

الأمير فاضل : كرم ياحنين .. يارب الكعبة بأبونا الخليل
ببير زمزم .. بمصلة سماعين
فاضل أتاك استجيب دعوته ..

ثم تحكى الجوقة كيف سافر الامير فاضل وأخوه بدران الى الحج ، وكيف حملت زوجتاهما ، فأنجب الاول ولدا ، وأنجب أخوه بنتا ، وأولما فرحة بذلك الولائم التى حضرها الجميع الا امرأة عجوزا نسيها الجميع ، وتعلق الجوقة على ذلك :

الجوقة : فرح الأمير فاضل فى ديك النهار
عمل الوليمة للكبار والصغار
بس العجوزة اللى اتنست فى الديار
قامت على البيت العمار هدتو
بقت تهد البيت وهى فى غضب

العجوز : سألتك يامفك الكرب ترمى مصيبة بين كبار العرب
تكون عجوز الشوم سبب فتنته ..

الجوقة : طالعه العجوزة بدرى طلوع النهار
ماشية لكن عينها تطق شرار

العجوز : يا بدران دا حكمك عوار
ولا راجل الا اللى تبان ذكرته
ما راجل الا اللى يكون باعه طويل
ولا يقولم عليه الرجال عويل
اذا كان مرامك عندخوك عيش ذليل
عرض افاك واحتمل سكتو

وهكذا يسير الحوار ، يطول أحيانا ، ويقصر أخرى، بحسب المواقف ، ونظل نتابع الاحداث .. مقتل الأمير فاضل .. وانتقام ابنه سعد له باعدام القاتل وهو عمه الملك بدران :

سـعد : تعالى يا عمى بقولك هنـا
موت أبويا وشمت فينا العدا
حيـاة نبينا الزين أتى بالهدى
ونشاهد قبـل الموت ما تنظرو

الملك بدران : تعالى يا سعد نقولك كلام
حاتموتنى ليه يا ابن الـكرام
حيـاة نبينا الزين عليه السلام
يحرم على النجع ماعدت ادخلو

سـعد : تعالى يا عمى نقـولك كلام
دا أخد التارحلال ماهوش‌حرام

الجوقة (فى تعليق الختام) :

ضربو بحد السيف رمى جبهتو
ضرب بحد السيف ياسامعين
جر صبيحة م الخطر ومروحين
كتب عليهـا بقت على ذمتو

تجرى هذه المسرحيات ، وغيرها ، مثل « قصة أيوب لمـا ابتلي » ، وقصـة « الجمل والغزالة » ، وقصـة « الأميرة خضرة الشريفة » ، وقصص الاولياء مثـل « السيد البـدوى ، وابراهيم الدسـوقى » وغيرها ، على لسان المداح ، الذى يقوم مقام فرقة كاملة ، والمداح ممثل فرد يجوب القرى والاحيـاء طلبا للرزق ـ لا الاحسان ـ وهو يعتبر نفسه صـاحب صناعة شريفة ومهمة دينيـة تهدف الى العبرة والموعظة ، والافادة

بقصص الانبياء ومناقب الاولياء وكرامات الصالحين(١) ويلبس لذلك زيه الخاص ، ويعتمد علي براعة التوقيع وحسن التقسيم ، مستخدما الدف متسع الاطار لضبط التوقيع وتمثيل المعانى فى الاداء ، أما القصص التى يرويها فترجع الى القرن الاول للهجرة فى دمشق وبغداد وغيرها من العواصم العربية ، وتجرى لغة هذه المسرحيات على لسانه بالزجل الدارج ، يتخلله تعليق ـ يقوم به أيضا ـ بلغة نثرية بسيطة ، أما قصصه فشائعة بين الناس ، معروفة منذ قديم ، فأيوب مثلا فى صبره وابتلائه مذكور فى أسفار العهد القديم ، وفى القرآن الكريم ، والعبرة فيها هى موقف الانسان من القضاء والقدر ، والوفاء بالعهد ، والتضحية بالنفس من أجل الحب الخالص ، وما زالت هذه القصة حتى اليوم مروية على لسان المداح ، وممثلة بشكل قديم ، وحديث على خشبة المسرح .

والى جانب شعر المديح القصصى ، نذكر شعر الموال الشعبى الذى يجلس فيه القصاص على دكة خشبية ، أو وقوفا على منصة عالية ، أو بين الناس ، حيث يضمن مواويله قصصا غرامية ، يعبر عنها بالزجل العامى، والغناء المطرب ، وقد يصحب معه آلة موسيقية تسمى « الارغول » ، أو الدف أو الطار ، ومن هذه القصص مثلا ما أرخ له ادوار لين فى مصر فى القرن التاسع عشر :

عاشـــق راى مبتلى قال له انت رايح فين
وقف قرا قصـــته ، بكوا ســـوى الاتنين
راحوا لقاضى الهوى لتنين ســـوا يشكو

(١) الوان من الفن الشعبى ـ محمد فهمى عبد اللطيف ـ المكتبة الثقافية ١١١ ـ ٢٥ يوليو ١٩٦٤ ص ١٣ ، ١٩ ، ٦٣ ـ ٧٣ .

بكيوا ثلاثة وقالوا : حبنـــا راح فين ؟

ويذكر ابن اياس ثلاثة اشتهروا بهــذا اللون على عهده ، وهم : أبو ســنه ، والمحلاوى ، والمحوجب ، وكانوا يرتجلون الموال على البــديهة ، ويذكرون فيه القصص المغناة ، ومنها قصة أبى سنه الذى عاش فى طنبطا موسرا ، وخانته زوجتــه فطردته بعد أن اعطت ماله للشاب الرومى الذى أحبته ، فأخذ يهيم فى البلاد مرددا قصتـه :

ما أصل يا سبع فايت موطنك وذليل
تنظر بعينك تلاقى كل شىء له دليــــل
أنا ما خلانى أفوت موطنى وأعيش ذليل ودليل
الا الشريك المخالف والزمان الاعــــوج
ودخلت ع النـــدل من غير معرفة ودليــل

وهنــاك نوع من المواويل يسمى بالآهات ، يغنيــه صاحب الموال بمصاحبة أرغول أيضا ، وقد برز هــذا اللون خاصــة فى ثورة ١٩١٩ فى مصر وبرز فيه بيرم التونسى ، ومنها تلك الآهة التى تحكى ثورة سعد زغلول ويقول فيها :

الاوله آه .. والثــانية آه .. والثــالثــة آه ..
الاوله بالبنــــادق ســـــكتوا الثوار ..
والثــانية جا اللورد ملنر يربط الاحــــرار
والثالثة تصريح فى فبراير وأصــــله هزار ..

وتمضى الاغنية القصصية فتردد مع الآهات كلمــات تضيف معنى جــديدا الى كل بيت ، ثم نذكر فن « الادباتى » الذى عرف منذ قديم ، ومنه أخذ مسرح الفودفيل أسلوبه ، وهو فن الشاعر الضاحك الذى يلقى حكايته اما منفردا أو مع جماعة من زملائه ، اثنين أو ثلاثة أو اكثر ، ويبدأ شيخهم بالمطلع فيردون عليه ،

ثم يمضى فى ايراد ما عنده من فن منظوم ، وفى آخر كل مقطع يردون عليه بالمطلع ، ويؤدون هـذا الشعر بما يبرز معانى الـكلام ، ويصورون ما تضمنه من دلالات بالحركة والاشارة المضحكة ، وغرضهم بذلك الترفيه عن الجمهور المشاهد ونقد بعض العادات والتقاليـــد بالسخرية والتهكم ، وتدور معظم قصصهم البسـيطة مثلا حول متاعب الرجل الذى يتزوج من اثنتين ، وعن المتاعب التى تقع بين الضرتين ، وعن مشاكسات الحماة لزوج ابنتها وعن الزوج المغفل الذى تجرى الامور فى بيته من وراء ظهره (١) . وقد نظم فى هذا اللون عبدالله النديم ويعقوب صنوع وحسين شفيق المصرى فى مصر، وبعض من رددوا أعمالهم فى المحافل والشوارع بل كانت فى مصر مجلات تنشر مثل هـذا اللون مثل المطرقة ، والاسـتاذ ، والبعكوكة ، وغيرها ، وأرخ لهم أحمـد تيمور فى كتابه « تراجم أعيان القرن الثالث عشر » .

ومن هذه الالوان المسرحية ، نذكر المسرحيـــات القصيرة التى كان يقدمها قصاص « صندوق الدنيا » ، وهى لون مسرحى طريف ، جمهوره لا يتعدى خمسـة أشخاص ـ غالبا من الاطفال ـ والفرقة ممثل واحـد يقوم بكل الادوار ، والموضـوعات قصص مستمدة من التاريخ العربى مصحوبة بصـور نشـاهدها من خلال عدسات مكبرة مركبة فى صنـــدوق خشبى مفرغ من الداخل وأمامه مكان تحريك الصور الثابتة باليـد ، وأثناء تحريكها تتغير المناظر وكأنها شريط سيـنمائى بالحركة البطيئة ، وكلما تغير منظر يحكى القاص حكايته، وتتسلسل الصور ، ومن ثم التعليقات التى تكون فى النهاية قصة متكاملة ، ومن هـذه القصص قصة أبى

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤ ـ ٨٣ .

زيد الهلالى ، وقصة الزير سالم ، وقصة عنترة وغيرها ، فهذا الصندوق (١) مسرح كامل متنقل، تطور فيما بعد فاستغل الدمى فأصبح يعرف بالاراجوز ، ثم استغل معها الشاشة الشفافة فأصبح يعرف بخيال الظل ، ثم ثبت بعد تنقل فأصبح مسرحا له مكانه الدائم ، وجمهوره الثابت ، وممثلوه المخصوصون ، وتقاليده المعروفة . ولقد انتشر صندوق الدنيا فى القرى والاحياء الشعبية ، بحكم امكان نقله من مكان الى مكان، وسهولة المشاهدة لقاء أجر زهيد ، وكثيرا ماشاهدناه ونحن صغار ، بل ما زال حتى اليوم يجذب انظارنا حين نراه نادرا ، فقد طغت عليه الاحداث ، وأوشك أن يصبح تراثا أخشى أن يضيع مع ما ضاع من تراث .

وعرف العالم العربى مسرح الاراجوز ، أو القره كوز، باللهجة التى سمعناها منه ، وهو صورة قديمة وباهرة لمسرح الاطفال ، بل الكبار أيضا ، وهو يشبه صندوق الدنيا فى أن لأصحابه حرية فى الحركة والتنقل به من مكان الى مكان،كما انه مسرح مكشوف يعرض قصصه فى الهواء الطلق ، وله ستارة تنزل على الدمى أو ترتفع عنها ، أما الممثلون فشخص واحد أو أكثر وقد يصلون الى الخمسة ، وهم على شكل دمى أو عرائس تتحرك بواسطة أيدى اللاعبين من تحت المنصة بحيث لا يرى الجمهور الا حركاتها وأصواتها ، أما الشخصيات الممثلة فهى ابن البلد أو الشرطى أو التاجر أو الشيخ ، ويظهر كل منهم بزيه المعروف به وتمتاز بألوانها الزاهية ، أما اللاعب المحرك فيقوم بدور التمثيل الصوتى ، بينما الحركات المطابقة تنعكس على حركات الدمى ، وهذا اللون من المسرح عرف منذ القرن الرابع عشر الميلادى ،

(١) خيال الظل - عبد الحميد يونس ص ١٠ .

وظهر فى تركيا ، والعراق ، وسـوريا ، ثم انتشر فى الشرق كله ، وقيل أنه ظهر من قبل فى الصين والهند وغيرها ، واتخذ فى كل بلد اسما عرف به ، فهو فى تركيا يعرف باسم ذو العيون السوداء ، وهو فى اليونان اسمه كراجيوزيس ، وهو فى ايطاليا اسمه بولشنيلا ، وهو فى روسيا اسمه تبروشكا (١) وهكذا ، وليس لهذا المسرح ديكور اللهم الا ستارة خلفية يرسم عليها بعض الرسوم المطابقة للأحداث ، وأما الاضاءة فضوء النهار أو انارة تحتية خفيفة وعامة اذا حدث التمثيل ليلا ، وتصاحب العرض موسيقى تصويرية هى فى الغالب صوت الطبلة أو المزمار ، أما الموضوعات فبسيطة تدور حول القاضى والتاجر والزوجة الخائنة واللص والشيخ والسائح ، وذلك فى مشاهد قصيرة أقرب الى مسرحيـة الفصل الواحد ، وتميل الى لون « الفارس » الاوربى ، فهى تهدف أولا الى التسلية من خلال موضوع نقدى ساخر قد تكون له نتيجة أخلاقية أو اجتماعية غير مباشرة .

ولأول مرة يظهر على هذا المسرح الصوت النسائى الذى يمثل الزوجة أو الابنة أو الخادمة أو العشيقة ، وتتجه بعض الموضوعات الى تمثيل قصص وطنية أو تاريخية كما فى قصص عنترة أو الظـاهر بيبرس أو أدهم الشرقاوى ، ولا ننس أن بعض رجال المسرح الحديث قد تأثروا بشخصية الاراجوز مثل جورج دخول السورى فى أوائل هذا القرن ، وعلى الـكسار ــ فى شخصيـة عثمان عبد الباسط ، ومحمود شـكوكو ، وعبد المنعم مدبولى ، وغيرهم فى المسرح المعاصر (٢) .

تطور الاراجوز الى مسرح عرائس متكامل ، نزل من

---

(١) الاراجوز المصرى وتراجيوزيس اليونانى ـ بحث مختار السويفى مجلة المسرح ٢٧ مارس ١٩٦٦ ص ١٣ ــ ١٦ .

(٢) فنون الـكوميديا ــ على الراعى ص ٥٠ ــ ٦٧ .

الصندوق الخشبى المرتفع ، الى خشبة مسرح كاملة تتعدد عليها الادوار ، وكانهم أشخاص يتحركون وفقا لميزانسين معين ، وأصبح تحريكها من أعلى بواسطة خيوط دقيقة لا تكاد ترى ، وقد عرفت العرائس أيضا منذ الفراعنة ، اذ يذكر المؤرخ اليونانى هيرودوت ان المصريين عرفوا هذا الفن ، اذ كانت النساء يحملن على رءوسهن دمى يسرن بها فى أعياد أوزوريس ، وكانت تتحرك بخيوط ، والقصد من ذلك تمثيل الاسطورة المعروفة باسمه والتماسا للقدرة على الانجاب ، وفى الهند استخدمت العرائس فى الاساطير منذ ثلاثة الاف سنة ، اذ صنعت زوجة الاله سيفا لنفسها دمية جميلة فلما رأتها بعد تمامها وجدتها بارعة الجمال فحملتها الى جبال الهملايا حيث مركز تجمع الآلهة (١) ، وقد عرفت العرائس أيضا فى العالم العربى وخاصة فى تونس ومصر وسوريا ، كما يذكر النظامى (١١٤١ — ١٢٠٣ م) فى كتابه « مخازن الاسرار » أن ايران عرفت أيضا هذا الفن باسم « لوبيت بازى » ، وكانت الدمية يحركها رجل من وراء الستار ويقوم بأدوار المهرج والبطل الاصلع والموسيقى (٢) ، ولعبت الدمى فى أوائل العصر المسيحى دورا هاما ، اذ استغلت الكنيسة امكانياتها فى التأثير على الناس ، فأمدتها بالكثير من التمثيليات والقصص الدينى لبث المواعظ والدعوة الى المسيحية ، وقامت بأدوار القديسين وأصحاب المعجزات الدينية ، ثم تحولت الدمى — بعد تحريم الكنيسة لها — الى تقديم قصص البطولات الشعبية ، بل وبعض القصص

---

(١) مسرح خيال الظل فى العالم العربى — احمد رشدى صالح — المجلة ٣٣ سبتمبر ١٩٥٩ ص ٢٥ —٣٧ — انظر أيضا كتابه : المسرح العربى — مطبوعات الجديد العدد ٤ يوليو ١٩٧٢ ص ٣٤ .

(٢) الاسلام والمسرح ص ٧٣ — ٧٤ .

العالمية لموليير وراسين ومارلو وجوته وشيللر وغيرهم، ولقد أوتيت الدمية قدرة كبيرة على التمثيل بفضل الامكانيات والحيل والمرونة فى تصميمها ورسم حركاتها، فاذا أضفنا الى ذلك الصوت الآدمي الممثل والمصاحب لهذه الحركات ، عرفنا أن مسرح العرائس يصل أحيانا فى تأثيره الى ما لايبلغه المسرح البشرى نفسه ، أما فى مصر فقد انتشر منذ العصر الفاطمى هـذا التمثيل العرائسى ، وصار له مؤلفون وملحنون ومغنون ولاعبون قادرون على التحريك والتعبير ، وكان هذا المسرح يقوم بدور نقدى هام أيام المماليك والاحتلال التركي ، أما فى العصر الحديث فقد أصبح مسرح العرائس فنا قائما بذاته ، يقدم عروضه للأطفال والكبار على السواء ، وكان مسرح العرائس المصرى الذى أنشىء عام ١٩٥٨ أحد معالم اصالة هذا الفن واثباتا لامكانياته الواسعة فى تقديم الدراما المسرحية المتكاملة نصا وتمثيلا وبناء وأداء ومما يذكر أن محمود شكوكو كون مسرحا للعرائس قدم فيه ثلاثة عروض هى : السندباد البلدى ـ والكونت دى مونت شكوكو ـ وشكوكو فى كوكب البطيخ ، وذلك فى خمسينات هـذا القرن العشرين . ثم أصبح عرض الاراجوز فقرة واحدة من خلال مشاركته فى الحفلات العامة بعد أن ضاقت ميزانيته عن تحمل مصروفات مسرح كامل .

كان هناك نوعان من التمثيل بالدمى ، أولهما تحريك الدمى أمام الجمهور مباشرة بواسطة خيوط أو بأيدى اللاعبين أنفسهم ، وهذا هومسرح العرائس الذى تحدثنا عنها ، وثانيهما تحريك الدمى بالقاء ظلالها على ستارة شفافة أمام الجمهور بحيث يرى الظلال ولا يرى اللاعبين أو الدمى صراحة ، وقد عرف هذا بفن مسرح خيال الظل ، وهو مسرح متكامل يصفه أحمد تيمور وصفا

كاملا فيقول (١) : كان أصحاب هذا المسرح يتخذون له بيتا مربعا يقام بروافد من الخشب ، ويكسى بالخيش أو نحوه من الجهات الثلاثة ، ويسدل على الوجه الرابع - المواجه للجمهور - ستر أبيض يشد من جهاته الاربع شدا محكما على الاخشاب ، وفيه يكون الشخوص ، فاذا أظلم الليل ، دخل اللاعبون هذا البيت ، ويكونون خمسة فى العادة ، منهم غلام يقلد النساء ، وآخر حسن الصوت للغناء ، فاذا أرادوا اللعب أشعلوا نارا قوامها القطن والزيت تكون بين ايدى اللاعبين ، أى بينهم وبين الشخوص ، ويحرك الشخص بعودين دقيقين من خشب الزان ، يمسك اللاعب كل واحد بيد ، فيحرك بهما الشخص على ما يريد ، وتتخذ الشخوص - أى الدمى - من جلود البقر ، فيصورون منها ما يشاءون ، ثم يصبغونها على ماتقتضيه ألوان الوجوه والثياب وأجسام الحيوان وجذوع الاشجار وأوراقها وثمارها وأحجار المبانى وغير ذلك ، بحيث اذا عرضت الصور أمام ضوء النار المشتعلة ، ظهرت زاهية بهية لشفوف تلك الجلود»

ويذكر ابن أياس (٢) أن ما وصل اليه علمنا عن اشتغال العرب بلعبة الخيال ، انها كانت من ملاهى القصر بمصر أيام الفاطميين (أواخر القرن الثالث الى منتصف القرن السادس الهجرى) . وان كانت أصوله ترجع وتتأثر بالتمثيل الاغريقى الصامت الذى وصل تركيا من الثقافة البيزنطية ، لملاحظة أن الغزاة الاتراك استبقوا فى خدمتهم الممثلين البيزنطيين ، وقد ظل الخيال يمارس فى مصر حتى منتصف القرن التاسع

(١) خيال الظل واللعب والتماثيل عند العرب - دار الكتاب العربى بمصر ١٩٥٧ الطبعة الاولى - ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) تاريخ مصر - ابن اياس - طبعة بولاق - الجزء الثالث - ص ١٣٥ .

الهجرى (٨٥٥ هـ) حيث أبطله الظاهر جقمق ، وأمر باحراق شخوصه لما رأى فيه من تبذل واسفاف ، ومع ذلك ظل بصورة ما حتى أشيع ان السلطان سليم شاه لما كان بالمقياس ، أحضر فى بعض الليالى خيال الظل (٩٢٣ هـ) ، فلما جلس للفرجة قيل أن المخابل صنع صفة باب زويلة ، وصفة السلطان طومان باى لما شنق عليه ، وقطع به الحبل مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك وأنعم على المخايل بثمانين دينارا ، وأخذه معه حين سافر الى اسطنبول ، وكان القاضى الفاضل أيام الناصر صلاح الدين الايوبى (١١٣٨ - ١١٩٣ م - ٥٣٢ - ٥٨٩ هـ) يؤيده ، ويرى فيه موعظة عظيمة ، ويقول : رايت دولا تمضى ، ودولا تأتى ، ولما طوى الازار - طى السجل للكتب - اذا المحرك واحد » ، وفى القرن الحادى عشر الهجرى ، وجد على أيام السلطان أحمد الاول العثمانى (١٦٠٣ - ١٦١٧ م) قصاصا يدعى الشيخ داود العطار - المناوى - المصرى ، الذى وضع المسرحية الطلية حرب العجم ، متأثرا بنصه المكتوب منذ ١١١٩ هـ - ١٧٠٧ م ، وقد اكتشف هذا النص عند المخايل المصرى حسن القصاص الذى توفى فى أوائل القرن العشرين ، ويدور النص حول كفاح المصريين ضد العدوان الاجنبى (١) ، ولغتها عامية دارجة ، كما تحتوى على بعض القصائد الشعرية ، وهى تبدأ بالمقدم يقول :

ما تنظر بعينك خيال الضل يا مشروح
معايا قطع فن مديح فنبنى مشروع
صنعة معلم رسمها جسم من غير روح
أشباح بلا أرواح طول الليل بتخيل
وكل منهم بياخد رقصته ويروح ..

(١) لعب النار الحديث : أو حرب العجم ، بحث فؤاد حسنين على - مجلة الفنون الشعبية العدد ٦ مايو ١٩٦٨ ص ٣٨ - ٤٤ .

ثم يدخل عليه الحاج أحمد الرخم وهو يغنى بصوت تخين :

الرخم : يا ليلى يا عين ..

المقدم : انت كمان ياغليض المناخير واقف تغنى ولنتش عارف ان العجم جايين يحاربونا ؟

الرخم : يحاربونا ؟ هو فيه عجمية بتحارب والله كنا ناكلهم .

المقدم : تاكل ايه يا مجنون هما المنادمين بيتاكلوا ؟..

الرخم : مش بتقول ان العجمية جاية تحاربنا ؟

المقدم : عجمية ايه يا مجنون ...

هذا الجزء من الحوار المسرحي شاهد على ما فى النص من محاولة درامية متطورة وعلى أن لغة المسرح المعروفة وجدت فى العالم العربى منذ قديم ، ويقول المستشرق منزل عن خيال الظل (١) انه يجمع بين فن التشخيص بالاشارات وبين الموسيقى والتصوير والشعر ، وانه يحتوى على فنون المدح والقص وفنون البهلوان ومروضى الوحوش الى جانب الرقص والغناء .

ولعل أبرع المخايلين المصريين هو الشاعر الساخر محمد بن دانيال الموصلى الذى ولد بالموصل بالعراق ٦٤٦ هـ واستقر فى القاهرة ٦٦٥ هـ ، وكانت له قوة بارعة على التندر والاضحاك ، وسرعة الخاطر، وقد توفى ٧١١ هـ فى مصر . أما شهرته فترجع الى أدبه التمثيلى فى بابات الخيال ، حيث تأثر بالبيئة المصرية فى عصره فحاكاها بالتمثيل وحافظ على لغتها ومألوف أهلها ، وأثبت فى نفس الوقت أن هناك اتصالا وثيقا بين اللهجات العامية والفصيحة ، وجعلها مفهومة فى الوطن العربى

(١) خيال الظل ـ عبد الحميد يونس ـ ص ٢٧ ـ ٢٨ ، ٤٩ ـ ٥٩

كله ، ومن أشهر مسرحيات ابن دانيال ثلاثة هى (١) : مسرحية وصال أو طيف الخيال ، وعجيب وغريب ، والمتيم والضائع اليتيم ، وكلها مكتوبة بالفصحى التى كان يتجاوب معها الجمهور فى ذلك الوقت (القرن الثالث عشر الميلادى) ، وتعد هذه المسرحيات صورا واقعية لمجتمعنا المصرى أيام الظاهر بيبرس ، وقد ضمنها ابن دانيال تعليمات مسرحية بما يتطلبه التمثيل من الملابس والمظهر الخارجى للشخصيات ، والحركات

المطلوبة منها ، أما العرائس أو الدمى التى تمثل وراء الشاشة الشفافة فقد بلغت حدا كبيرا من الاتقان ، والصنعة تشهد بما وصل اليه هذا الفن من تقدم ، ولم يقتصر تشكيل الدمى على هيئة شخصيات انسانية فحسب ، بل تعداها الى الحيوانات كالاسود والقرود والخراف والخيول والفئران والديوك وغيرها ، وكان رسمها مطابقا لها وبحيث يسهل تحريكها أمام الشاشة.

ومن اهم المخايلين المصريين نذكر حسن القشاش الذىعثر فى المنزلة على مخطوطين ظليين لمسرحية عمرها قرنان (١٧٠٦ م) ، ثم قدمها بعد ذلك فى القاهرة وقد جمع مسرحياته فى كتاب بعنوان : « ديوان مسرحيات خيال الظل » ، ضم اليه كذلك مسرحيات قدمها مخايلون مصريون مثل الشيخ مسعود ، والشيخ على النحلة ، والشيخ داود ــ بائع العطارة ــ (١) ، ومما يذكر أن القشاش استورد بعض عرائسه من سوريا ، التى كانت

---

(١) نصوص ابن دانيال فى كتاب : خيال الظل وتمثيليات ابن دانيل ــ ابراهيم حمادة ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ــ ١٩٦٣ من ص ١٤٣ الى ص ٢٤٦ .

(٢) دراسات فى المسرح والسينما عند العرب ــ لنداو ص ٧١ ــ ٨٨

متقدمة فى هذا الفن على زمنه ، ويذكر المؤرخون (٢) ان بابة الحمام السورية تحمل كل خصائص الحوار الدرامى الموزع على الشخصيات توزيعا سليما وبطريقة فنية جيدة تنسجم مع تطورالاحداث واهمينها، ونلاحظ ان جملة قصيرة ومركزة ، ولنقتطف من هذه البابة هذا الجزء من الحوار :

عيواظ (لتفاح الشلبى) : اهلا وسهلا كيف حال صحتك سيدى ، ليلتك سعيدة ، جاى انا واخى كركوز لعندك قاصدينك بغرض نحن الاثنين بطالين جايين لعندك بدنا نستكرى فى ها الحمام منك اذا بتأمر ..

تفاح : تحت أمرك عمى بخدامتك ، بس أنا بريد انصحك اذا بتقبل منى النصيحة ..

عيواظ : امر .. شوها النصيحة ..

تفاح : أخدوه قبل منكم جماعة ، ثلاث اربع خمس انفس كل واحد ياخده ليلة يحط له قيمة مائة وخمسين الف يقعد فيه ثلاث أيام ويهرب

ويستمر الحوار بهذه السلاسة الى النهاية ، وقد اكتشف المستشرق الفرنسى ادمون سوسيه عام ١٩٢٧ حوالى عشرين بابة سورية مثل بابة الحمام ، وباللهجة العامية الدمشقية، منها مسرحية الشحاذين، ومسرحية الطبيب الاجنبى ، ومسرحية الافيونجى ، ومسرحية الحفلة ، ومسرحية الخشاب .

ومن أهم مسرحيات خيال الظل فى مصر نذكر مسرحية لعبة التمساح التى تدور حوادثها على شاطىء

---

(١) مسرح عربى قديم ـ عادل أبو شنب ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق ١٩٦٤ .

النيل ، ويمثلها ١٢ ممثلا وتحكى قصتها حكاية عشاق الخيال والمشتغلين به ، أما الشخصية الرئيسية فهى شخصية الفلاح الذى ضاقت عليه أبواب الرزق ولم تعد تسعفه الزراعة على العيش ، ومنها مسرحية « حسن ظنى » وتدور حول فلاح يعمل بصيد الاسماك بعد أن فشل فى الزراعة ، ومنها مسرحية « علم وتعادير » ، وهى أشهر اللعب وأطولها ، وكانت تؤدى فى المقاهى وتقسم على سبع ليال ، فتستغرق أسبوعا كاملا. أما أشخاصها فيبلغون مائة وستين بين انسان وحيوان وأشجار ومبانى ، وهى تحكى قصة حب تاجر عراقى اسمه تعادير للفتاة المسيحية علم ، وتسلم بعد احداث كثيرة وتتزوجه ، ومنها مسرحية « أبى جعفر » وتحتوى على خمسين قطعة ، ومسرحية « الشونى » أو المركب ، وتدور حول الملاحين ، ومسرحية « الاولانى » ويظهر فيها مركب صغير للصيد تدور فيها الاحداث ، ومسرحية « الحجية » أو السفر للجميع ، وتحتوى على ثمانين قطعة وبها غناء على الربابة وطبول وتختراوانات (١) ..

وبهذا يصبح خيال الظل مسرحا متكاملا ، شخوصه بشر تمثل صوتا ، ودمى تظهر صورة ، وفيه مكان هو المسرح ، وفيه قصة لها بداية ونهاية ، وفيه اضاءة مسرحية تراعى حركة الاشخاص والاشياء ، وأجواء الليل والنهار ، وفيه اخراج وارشادات مسرحية يلقيها المخايل أثناء التمهيد أو فى سياق الحوار ، وفيه جو المسرح حيث أن العرض يتم مساء فتطفأ الصالة وتضاء أنوار المسرح ، وفيه جمهور يشاهد لقاء أجر معلوم ،

(١) خيال الظل واللعب والتماثيل عند العرب ـ أحمد تيمور ـ ص ٢٣ ـ ٢٧ .

وهذه هى بعينها عناصر أى مسرح نشأ فى الغرب أو الشرق على السواء ، وعرفه العرب منذ القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى ، فكان من أشهر نماذج المسرح العربى القديم ، واستمراره حتى مطلع العصر الحديث حيث دخل المسرح الاوربى ـ بحرفيته المتقدمة ـ بلادنا العربية ، وبالتحديد منذ دخول الحملة الفرنسية الى مصر عام ١٧٩٨ .

الختـام

... وهكذا نصل الى ختام البحث ، ومنا زلنا فى حاجة الى صفحات وصفحات ، مازلنا نحتاج الى جهد الباحثين والمنقبـين ، ما زال المجهول يطوى صـفحات كثيرة من التراث ، ما زالت مكتبات العالم فى كثير من محتوياتها سرا لانعلمه حتى الآن، أخذت الحملات التترية على مصر الـكثير من آثارها الفكرية منذ العثمانيين ، طوت البحار واالارض والنيران فى بطونها ملايين الـكتب العربية ، تسبب تأخر عصر التدوين فى ضيـاع فرص الجمع والتنقيب والتسجيـل للآثار النثرية وكثير من الآثار الشعرية فى التراث القديم ــ ومنذ الجاهلية ــ وخاصة حين تغلغل بعض الباحثين فى الدروب والنجوع الشعبية ، ثم حدثت غربلة استبعد فيهـا ذوو الابراج كثيرا مما جمع بدعوى عدم الاهميـــة ، أو الاغراق فى الشعبية النثرية ..

وهكذا قل فى التراث القديم منذ عهد نوح ، والا فأين نحن من التقدم الحضارى فى عصور الانبياء وآثارها ؟ وأين نحن من مظاهر التقدم العلمى مما نقرؤه فى القرآن الـكريم والاحاديث النبوية ؟ اننا نقرأ كل هـذا للعبرة والذكرى ، ولـكن أين التفاصـــيل ؟ بل أين بعض التفاصيل ؟.. ان أمامنا الـكثير حتى نقف على أقـل القليل من تراث ضخم وعظيم ..

ومع ذلك ، فمن خلال ما وصلنا من تراث ، مما ألمحنا اليه لمحات خاطفة فى هذا البحث ، عرفنا أن العرب شاركوا الانسانية كل مظاهرها ، ووضعوا لبنات خالدات ، وعلامات بارزات فى كتاب الحضارة البشرية، ولهم السبق الكامل فى كثير من مظاهر تلك الحضارة الباقية الى اليوم ، ويكفى أن النهضة الاوربية — والانسانية بعامة — تدين للعرب بكل تقدمها الحالى ، المرئى والمسموع والمكتوب ، ولولا قرون من التخلف والتواكل العربى لصار لنا اليوم وضع غير الوضع ، وذكر غير الذكر ، ومآل غير المآل .

ونستطيع ان نجمل ما توصلنا اليه فى بحثنا الى عدة نتائج منها :

● ان العرب منذ العصر الفاطمى — فى القرن الثانى عشر الميلادى ، والخامس الهجرى — عرفوا المسرح بشكله المتطور فى خيال الظل ، وهو مسرح متكامل فيه كل عناصر المسرح الحديث . ومن قبل ذلك عرفوه بشكله البدائى ، وكما ظهر فى كل الدول التى عرفته ، كاليونان والهند والصين ..

● ان العقلية العربية تستوعب — بكل مفاهيمها — ما يستوعبه كل عقل فى أى مكان ، وقد سقطت الى الابد دعاوى العنصرية ، ودعاوى التحليليين والتركيبيين ودعاة السفسطة اللفظية ، واثبت التحليل العلمى أن الانسان هو الانسان فى كل زمان ومكان .

● سقطت أيضا دعاوى الترحال والبداوة والصحراوية فى حياة العرب ، لأنهم عرفوا الاستقرار ، والزراعة ، والتجارة ، والعلم ، وما كان لهم من تنقل فالى عودة طلبا للرزق وسدا لمطالب العيش ، وهناك من المدن

العربية فى كل الاصقاع ما عرف الوانا من التقدم الحضارى فى ظل استقرار كامل ، وبهذا عرف المستقرون كل ما يقتضيه استقرارهم من ظواهر العلم والحياة .. مثلهم مثل غيرهم من البشر ..

● حينما ظهر الاسلام ، لم يمنع مظاهر الفن ، ولكنه وضع أولويات للاهتمامات الانسانية ، اذ كان عليه أن ينتشر ، وأن يزداد مؤيدوه ، وأن يستقر دينا للبشرية كلها ، وكان لابد من زمن تنصرف فيه الدعوة والدعاة الى النشر والانتشار ، ومع ذلك لم تلبث الفنون أن ظهرت ، وما العمارة الاسلامية وسائر الفنون الا مظاهر باقية وشاهدة ، ومنها فنون مسرحية بمفهومنا الحديث ، عرفها العرب بمنطقهم ، ووفق تفكيرهم وبيئتهم .

● شملت الترجمة العربية بعض آثار المسرح ، وقد وصلنا بعضه ، وضاع أكثره ، فضلا عن أن القصص العربى فى كل دروبه وآثاره يحمل أفكارا درامية فى المحل الاول ، وبعضها دراما خالصة كما أثبتنا ذلك فى الفصلين الخامس والسادس على وجه التخصيص ..

● كان التبادل التجارى — ومن ثم الفكرى — بين شعوب الارض ، والعالم العربى معروفا ومستمرا على مدى الدهر ، وكانت الزيارات لا تنقطع من مفكرين ومبعوثين وطلاب معرفة بينهم ، وعن هذا الطريق عرف العرب كل مظاهر الحضارات الاخرى ، فأخذوا وأعطوا .

● تحتمل اللغة العربية — نثرا وشعرا — شتى المواقف الانسانية ، وقد عبرت عن كل أغراض الانسان فى فرحه وحزنه ، فى انتصاره وهزيمته ، فى حبه وبغضه ، فى مطالبه الروحية والمادية ، فهى لغة مرنة تعرف أن لكل

مقام مقالا ، ولـكل موضع بيانا ، ولـكل موقف أسلوبا وتعبيرا ، وعلى هذا فان اللغة العربية لغة درامية تتسع للموضوعية والذاتية ، للشعر والنثر ، للعلم والفن ، ولها فى كل لون مفهوم ومنطوق لا يحتمـل اللبس أو التأويل .

● عرف الادب العربى ألوانا فكرية عديدة منها القصة والرواية والاسطورة والملحمة ، وقدمها قصاص ورواة وحكاءون ومقلدون ، هم بمعنى أو بآخر ممثـلون ، وجمهورهم مشاهدون ، ومكانهم مسرح بكل ما فى المسرح من معنى ، ولا يشك أحد فى أن التراث الفكرى العربى يمتلىء بالافكار الدرامية التى تصلح للمسرح ، وهو لنا اليوم مرجع لايمكن اغفاله ونحن نقتبس منه العديد من الافكار والآراء والمواقف كلما عاودنا الحنين اليه .

ولقد مضى بنا البحث الى دخول الحملة الفرنسيـة الى مصر عام ١٧٩٨ ، فماذا بعد ذلك ؟ عرف العرب المسرح بشكله المتطور والمعاصر ، وهنـا برز التراث العربى وأخذ مكانته على المسرح العربى ، أخذ منه مارون النقاش فى لبنان (١٨١٧ — ١٨٥٥) مسرحيات : هارون الرشيد وأبى حسن المغفل والسليط الحسود ، واخذ منه يعقوب صنوع فى مصر (١٨٣٩ — ١٩١٢) بعض أفكار مسرحياته وان غلفها باطار اجتماعى معاصر له ، وأخذ منه أحمد أبو خليل القبانى (١٨٤٢ — ١٩٠٣) فى سوريا ، ثم فى مصر ، مسرحيات : عنترة العبسى ، وكسرى انوشروان ، ومجنون ليلى ، والشيخ وضاح ، وغيرها ، وأخـذ منه فرح انطون (١٨٧٤ — ١٩٢٢) مسرحيات مثل صلاح الدين ومملـكة اورشليم وغيرها. وفى هــــذا الاطار أخذ أحمد شوقى ، وعزيز أباظة ومحمود تيمور وعلى أحمد باكثير وتوفيق الحكيم وابراهيم

رمزى وعباس علام ، وكتاب المسرح فى البلاد العربيـة الاخرى . وكانت معظم أعمالهم تدور حول شخصيات اسلامية وعربية مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وصـلاح الدين الايوبى والحجاج بن يوسف الثقفى ، وعنترة بن شداد ، والمأمون ، وعبد الرحمن الناصر ، وامرؤ القيس ، وجحا ، وأشعب ، وبلال ، والمعرى ، والزباء ، وولادة ، وقصص ألف ليلة وليلة ، وقصص الحروب العربية وفتوحاتها، وغير ذلك ، وما زال المسرح العربى فى مصر والعالم العربى يرجع الى ذلك التراث الضخم فى أعمـاله الحديثة والمعاصرة ، وهو يجد فيه مبتغاه .

وفى كل هذا مدعاة لمواصلة البحث فى تراثنا وعنه ، لـكى نصل الى شيء من التراث الضائع ، وسوف نجد فيه ما نطمح اليه من فكر أصيل ، وما نفتقده الآن من ادلة تاريخية على وجـود المسرح العربى قديما ، وان كنا نؤمن بهذا الوجود فيما قدمنا من دلالات وبراهين..

ولعلنا واصلون .

والله الموفق .

مراجع الكتاب

فيما يلى ثبت للمصادر التى رجعنا اليها بحسب ترتيب ورودها فى كتابنا : العرب والمسرح :

١ ـ اثر العرب فى الحضارة الاوربية ـ عباس محمود العقاد ـ دار المعارف ـ الطبعة السادسة ١٩٦٨ .

٢ ـ قشور ولباب ـ زكى نجيب محمود ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٧ .

٣ ـ الملك اوديب ـ مسرحية توفيق الحكيم ـ مكتبة الاداب ـ القاهرة .

٤ ـ فن القصص ـ محمود تيمور ـ مطبعة دار الهلال ١٩٤٨ .

٥ ـ دراسات فى القصة والمسرح ـ محمود تيمور ـ القاهرة ١٩٦٣ .

٦ ـ فجر الاسلام ـ احمد امين ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة العاشرة ١٩٦٥ .

٧ ـ قضايا الانسان فى الادب المسرحى المعاصر ـ عزالدين اسماعيل .

٨ ـ فن التمثيل العربى ـ زكى طليمات ـ مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٥ .

٩ ـ المسرح ـ محمد مندور ـ دار الشعب ١٩٥٩ .

١٠ ـ الاسلام والمسرح ـ محمد عزيزة ـ ترجمة رفيق الصبان كتاب الهلال ٢٤٣ ابريل ١٩٧١ .

١١ ـ اضواء على الفكر العربى والاسلامى ـ المكتبة الثقافية ١٤٩ ـ ١٩٦٦ .

١٢ ـ اراء واحاديث فى اللغة والادب ـ ساطع الحصرى ـ مطبوعات سوريا ١٩٦١ .

١٣ ـ الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيق ـ ابراهيم مدكور ـ دار احياء الكتب العربية ١٩٤٧ .

١٤ ـ فكرة صائبة عن الاجناس والعنصرية ـ فيليب جاسون ـ ترجمة شوقى طموم .
سلسلة من الشرق والغرب ـ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧ .

١٥ ـ على هامش السيرة ـ طه حسين ـ دار المعارف . الجـزء الاول ـ دار المعارف ١٩٥٤
١٦ ـ من حديث الشعر والنثر ـ طه حسين ـ دار المعارف
١٧ ـ التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ـ عبد الرحمن بدوى ـ مكتبة النهضة المصرية .
١٨ ـ شعر الرعاة ـ محمد صقر خفاجة ـ دار الكتاب المصرى ـ القاهرة .
١٩ ـ الشعر الشعبى العربى ـ حسين نصار ـ المكتبة الثقافية ـ ١٩٦٢ .
٢٠ ـ الحضارة العربية ـ شكرى محمد عياد ـ المكتبة الثقافية ١٩٦٧ .
٢١ ـ العرب والحضارة الاوربية ـ مفيد الشوباشى ـ المكتبة الثقافية ١٩٦١ .
٢٢ ـ الاسلام والعقل ـ عبد الحليم محمود ـ دار الكتب الحديثة ـ ١٩٦٦ .
٢٣ ـ التفكير السديد ـ جوزيف جاسترو ـ تعريف نظمى لوقا ـ مؤسسة الخانجى ـ الطبعة الاولى ١٩٥٨ .
٢٤ ـ أصالة الفكر العربى والاسلامى فى مهاجمة الغزو الثقافى ـ أنور الجندى ـ كتب اسلامية ـ المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ـ ١٩٦٩ .
٢٥ ـ العرب والحضارة ـ على حسنى الخربوطلى ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٦ .
٢٦ ـ فلسفة اللغة العربية ـ عثمان أمين ـ المكتبة الثقافية ١٩٦٥ .
٢٧ ـ الاصنام ـ هشام بن محمد الكلبى ـ مطبوعات دار الكتب ١٩٢٤ .
٢٨ ـ أدبيات اللغة العربية ـ محمد عاطف ومحمد نصار وغيرهما ـ المطبعة الاميرية ١٩٠٩ .
٢٩ ـ الفكر الاسلامى منابعه وآثاره ـ محمد شريف ـ ترجمة أحمد شلبى مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة ١٩٧١ .
٣٠ ـ تاريخ التمدن الاسلامى ـ جرجى زيدان ـ الجزء الثـالث ـ دار الهلال ١٩٥٨ .
٣١ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجى زيدان ـ دار الهـلال ـ الجزء الرابع .
٣٢ ـ الاساطير ـ أحمد كمال زكى ـ المكتبة الثقافية ١٩٦٧ .

٣٣ ـ خيال الظل والتماثيل المصورة عند العرب ـ احمد تيمور ـ دار الكتاب العربى ـ الطبعة الاولى ١٩٥٧ .
٣٤ ـ الدين والمجتمع ـ حسن شحاتة سعفان ـ مطبعة دار التاليف ١٩٥٨ .
٣٥ ـ ملحمة قلقميش ـ عبد الحق فاضل ـ دار النجاح ـ بيروت ١٩٧٢ .
٣٦ ـ فى الرواية العربية ـ فاروق خورشيد ـ الدار المصرية للطباعة والنشر ـ الاسكندرية ١٩٥٩ .
٣٧ ـ نهاية الادب فى معرفة انساب العرب ـ القلقشندى ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٥٩ .
٣٨ ـ التاريخ العربى القديم ـ نيلسن وفرتز هومل ـ ترجمة فؤاد حسنين ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ .
٣٩ ـ مروج الذهب للمسعودى ـ دار الشعب ١٩٥٩ .
٤٠ ـ التصوير الاسلامى ومدارسه ـ جمال محرز ـ المكتبة الثقافية ١٩٦٢ .
٤١ ـ حضارة العرب ـ جوستاف لوبون ـ تعريب محمد عادل زعيتر ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٤٥ .
٤٢ ـ دراسات فى المسرح والسينما عند العرب ـ يعقوب لنداو ـ ترجمة أحمد المغزى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ .
٤٣ ـ العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ المطبعة الشرقية ١٣٠٥ هـ .
٤٤ ـ دور العرب فى تكوين الفكر الاوربى ـ عبد الرحمن بدوى ـ مكتبة الانجلو ـ الطبعة الثانية ١٩٦٧ .
٤٥ ـ القصة العربية القديمة ، محمد مفيد الشوباشى ـ المكتبة الثقافية ١٩٦٤ .
٤٦ ـ العرب فى قصصهم ـ عباس خضر ـ الدار القومية للطباعة والنشر .
٤٧ ـ من قصص العرب ـ عبد الحميد ابراهيم ـ دار الكاتب العربى ١٩٦٧ .
٤٨ ـ كتاب البخلاء ـ الجاحظ ـ ضبط وشرح أحمد العوامرى وعلى الجارم ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ جزءان ـ ١٩٣٨ ، ١٩٤٠ .
٤٩ ـ الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى ـ على الراعى ـ كتاب الهلال ١٩٦٨ .
٥٠ ـ ألوان من النشاط المسرحى فى العالم ـ مختار السويفى ـ كتب ثقافية الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٢ .
٥١ ـ فنون الكوميديا ـ على الراعى ـ كتاب الهلال ١٩٧١ .

فهرس

صفحة

مقدمة ٧

الفصل الاول :

من آراء المعارضين ٢١

الفصل الثانى :

فى موقف الدفاع ٣٥

الفصل الثالث :

من تاريخ العرب الاجتماعى والفكرى ٥٦

الفصل الرابع :

ظواهر مسرحية قديمة ٧٩

ـ الرواة والقصاص ٧٩

ـ الشعر والملحمة ١٠٣

ـ المقامة ١١٠

الفصل الخامس :

من كتب الدراما عند العرب ١١٩

الفصل السادس :

مسرح عربى خالص ١٣٩

ختام ١٦٩

كتاب الهلال القادم

عصير حيـــــاتهم

بقلم : عبد التواب عبد الحى

رئيس التحرير : صالح جودت

يصدر ٥ يونية ١٩٧٥ ــ الثمن ١٢ قرشا

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Blakopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury,
R. 25 de Marco, 904
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

برز العرب فى كثير من جوانب الحضارة الانسانية منذ دخل الاسلام بلادهم ، واسهموا فى مختلف الفنون والاداب بقسط وافر ، وما زالت اثارهم شاهدا حيا عليهم ، مطبوعة فى كتب ، او خالدة فى اثار ، او محفوظة فى مكتبات العالم ومتاحفه •

ولهم فى مجال المسرح اثار عديدة ، من اشهرها تلك القصص الدرامية فى اعمال ابن الجوزى وابن عبد ربه وابن قيم الجوزية وابن حزم وحبيب البيرهمى وابن اسحق والتنوخى وابن السراج وداود الانطاكى وكتب الجاحظ ونوادر جحا وغيرها •

كما عرف العرب اعمالا درامية خالصة فى رسائل ابن شهيد والمعرى ، ومقامات بديع الزمان والحريرى وابن دريد والوهدانى ، وفى مسرح التعازى عن الحسين شهيد كربلاء ، وفى المسرحيات الشعبية العربية المعروفة قديما وحديثا •

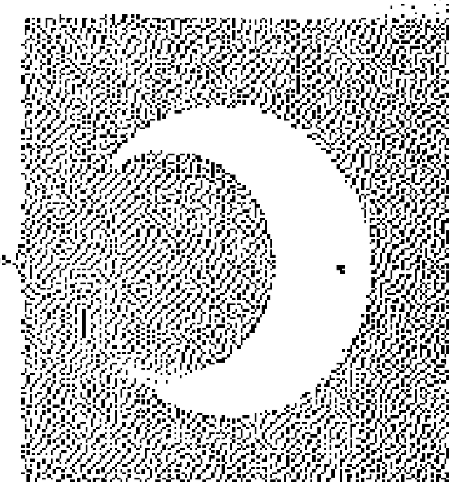
ويعد كتاب « العرب والمسرح » ـ بفصوله الستة ـ دراسة منهجية تاريخية تبحث فى اصول المسرح عند العرب ، ونشأته ودلائل وجوده واثاره الباقية •

وقد اهتم مؤلفه : محمد كمال الدين ـ من خلال دراساته المسرحية المتعددة ـ بوجهة النظر المعارضة لوجود المسرح العربى قديما ، وفند الحجج التى ذكرها المستشرقون وبعض المفكرين العرب •

والكتاب بذلك اضافة جديدة وهامة للمكتبة العربية فى مجال الدراسات المسرحية وفى ميدان لم يطرق كثيرا من قبل ••

١٢ قرشا

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

عصير حياتهم

عبد التواب عبد الحي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: فكري أباظة • نائب رئيس مجلس الإدارة: صالح جودت

رئيس التحرير: صالح جودت

المشرف الفني: جمال قطب

سكرتير التحرير: عايدة عياد

العدد ٢٩٤ – جمادى الاولى ١٣٩٥ – يونية ١٩٧٥

No. 294 — June 1975

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي : «١٢ عددا» في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربي والافريقي ١٢٠ قرشا صاغا • في سائر انحاء العالم ٦ دولارات امريكية او ٢٫٥ جنيه – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • في الخارج بشيك مصرفي قابل للصرف في جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادي – وتضاف رسوم البريد الجوي والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــلاف بريشـــة
الفنان جمــال قطب

عبد التواب عبد الحى

عصير حياتهم

فن الحياة .. عند أشهر
النجوم فى سماء الفن العربى !

دار الهلال

تقديم

صديقى : قارئى ..

« ... وكتابى هذا .. من مصادر خفة الظل فيه ، رقة حيـاة شخصياته ورهافتها .. انهم باقة من ألمع النجوم فى دنيا الفنون .. وجوهرة التاج فى صـــدر الكتاب : شخصـــية أم كلثوم !.. أم كلثوم : كما لقيتها وتحدثت اليها طويلا . وكما درســتها فى كل سطر كتب عنهـا ، بكل اللغات ، منذ الثلاثينات حتى الآن . ثم : ام كلثوم .. من عدة « ثقوب مفتـاح » فى أبواب جانبية كثيرة ، كلها تطل عليها !

ولقد حاولت ، محققا ومدققا ، أن أصـــل الى « جسم الحقيقــة » فى حياة كل فنان كتبت عنه .. لكن الفنانين ــ الممثلين بصـــفة خاصة ! ــ ناس انفعاليون . مراوغون . ممثلون دائما : على الشاشة على خشـــبة المسرح . وأيضا على مسرح الحياة !..

... يقول طب النفس عن النجم الممثل : « انه يتمتع عاده بكمية هائلة من الميول الاستعراضية . فهو يكسو الحقيقة بأخيلته المناسبة ، ويغيرها ، ويبالغ فيها !.. وهو يصـــدر فى ذلك عن دوافع ظهورية ، هى نفس الدوافع التى جعلته يختار لنفسه فن التمثيل ، دون غيره من اشكال الفن الاخرى !.. انه ممثل دائما ، وفى

كل وقت ! » ... ومثلما ينطبق هـــذا التوصيف على النجم الممثل ، فانه ينطبق على النجمة الممثلة أكثر !..

... وتتفق مراجع طب النفس على تشخيص واحد لشخصية الممثل .. تقول : « انه ، لدوافعه الظهورية ، شخصية شبه هستيرية Histerie Personality

.. والشخصية الشبه هستيرية شخصية اقرب الى الصحة ، طبيا ، منها الى المرض .. وهى تختلف عن الشخصية الهستيرية Histeroid Personality والتي تـــكون على حافة أقرب الى المرض ، منها الى الصحة » !..

....

...حتى يكون لى عندك حجتى واعتذارى، اذا اكتشفت وأنت تقرأ أننى قدمت لك « جسم الحقيقة » فى حياة فنانة أو فنان منهم ، بانقص من درجة الاكتمال !..

عبد التواب عبد الحى

أم كلثوم :
كلام .. في الشمس !

بجر غريق ، عميـــق ، أمواجه فن بلانيني يلمع ويصعد مع الزمن .. يصـعد .. ولا يهبط أبدا !.. وعلى رأس الموج عقل علماني ذكي يشوف المستقبـل ، وينقاد اليه !.. وفي أحشــــاء البحر الغريق عواطف انسانية نقية وكامنة ، وشخصـــية آسرة مصقولة ، وكاملة ، وليس في أعماق البحر وحشـة .. في عمقـه النوراني الفـة ومحبـة ، بحر يحب الحب والمحبين ، ويتغنى باسمهم وبأشواقهم ، ويعشق الله ويتصوف في عشقه له ومذلته اليه ! ويقـدس الوطن العربي ، حتى ليكاد يعبد ـ بعد الله ـ ترابه !

... عن بحر من احكى ، غير بحر حياة أم كلثوم ؟!

ومغى في بحر أم كلثوم ، نعوم .. أقصى الامل أن نصل ، بالجهد والبحث والحوار ، الى مسافة امتـار قليلة من أميال لا نهائية !..

كيف كانت أم كلثوم تفكر لفنها ؟ وبأى المقاييس تقيس؟

أعود بك الى أواخر ديسمبر عام ١٩٦٨ .. أم كلثوم مطهومة في تجهيز ٦ من أحدث أغانيها ، لتختار منها ٤ فقط تغنيها في حفلتين متتاليتين لصالح المجهود الحربي أين ؟ على المسرح القومي بأم درمان ، السـودان . عادتها قبل كل حفلة أن تجهز ضعف عدد الاغاني التي سـتقدمها فيها ، لتبقى في يدها دائما حرية الحركة ، وفرصة الانتخاب والاختيار .. وانتخاب القليـل من الـكثير « عنصر قياسي » من عناصر الـكفاية والتجويد!

وأم كلثوم فى حفلاتها لا تختار من أغانيها ما تغنيه ، بالقرعة .. وانما بالدراسة والفراسة !.. بنظرة مختلسة تفحص بها جمهورها من فرجة الستار ، قبل لحظات من رفع الستار !.. عادة ، أصبحت «اسلوبا» لها فى كل حفلة ، تختار بمقياسه أنسب أغانيها لجمهور « هذا المساء » .. منذ مساء الخميس ٢٧ يناير عام ١٩٣٥ ، عندما قدمت أم كلثوم على مسرح دار الاوبرا بالقاهرة أول حفلة — فى تاريخها الفنى — مذاعة على الهواء .. وحتى مساء الخميس ٧ ديسمبر سنة ١٩٧٢ ، عندما غنت « حفلة الوداع » !

وأم كلثوم تجهز اغانيها التى ستنتخب من بينها ما تقدمه فى حفلة ، اى حفلة ، قبل ميعادها ب ١٥ يوما على الاقل !.. و « تجهيز » الاغانى يعنى عند أم كلثوم « بروفات » يومية مع أعضاء فرقتها الموسيقية على لحن الاغنية مهما كان قديما ، ومهما كان لها فى غنائه بالسابق سوابق !.. وبروفاتها على أغانيها تتم غالبا فى ستوديو أم كلثوم بمبنى الاذاعة والتليفزيون ، أو فى احدى قاعات المعهد العالى للموسيقى بالقاهرة . هناك ، تعيد وتزيد ، وتتقن كل التراديد .. باستثناء تلك التراديد التى ترتجلها أحيانا على المسرح ، عندما تنسجم و«السخن» ، فتضيف للحن لحنا !

وأم كلثوم تجهز اغانيها ببروفات شاقة تستغرق أغلب النهار .. لكنها عندما تسافر لتغنى فى بلد عربى ، تجهز حقائبها للسفر .. نهار السفر !.. بقولها : « مايهمنيش غير فساتينى التى سأغنى بها .. وبعدها لا يهم .. أى هدوم احطها فى الشنطة تكفى » !

قبل سفرها الى الخرطوم أواخر ديسمبر عام ١٩٦٨ أم كلثوم بالتليفون .. وأمتع أحاديثى مع أم كلثوم كانت بالتليفون !..

* أول مرة تزوري الخرطوم ياست ؟

أم كلثوم : فى الحقيقة .. آه .. لـكن فى الخيال.. لا !.. انا اصلى قريت كثير عن السودان ، سياسة ، وشعر .. ومتشوقة أزوره !

* والجنوب .. جنوب السودان وجنته الخضراء .. هل تزورينه ؟

أم كلثوم : انا مالى بقى ومال الجنوب ؟ ! انا حاغنى فى أم درمان وبس .. بالـكثير ان اتمشيت شـوية فى النيل ، خصوصا عند النيل الابيض لمـا بيحتوى النيل الازرق ويضمه .. بيقولوا المنظر هناك ما بتنسيش ! « بفضـول وتخابث » : لـكن قل لى بقى : انت لازم رحت جنوب السودان ! ؟

* أيوه زرته وعشت فى أدغاله أمتع أيامى ..

أم كلثوم : « بانبهار صادق النبرة » .. ياسـلام ! عشت فى الغابات بقى .. فيها ايه الغابة ؟ !

* فيها الصدق مراية ، والفطرة عذراء لم تمس ! فيها كل مخلوق بحجمه الطبيعى ، وكل حيوان يحفظ مركزه تماما : الاسـد أسـد . والضبـع ضبع . ما تلاقيش ضـبع لابس باروكة أسد زى ما بيحصـل فى « غابة العمـارات » .. قصدى فى غابة المدينـة ! وجنب مدينة «جوبا» عاصمة « المديرية الاستوائية » وفى أقصى حدود الجنوب مع حدود أوغندة ، فيه حاجة اسمها الـ « جيم ريزيرف » .. حديقة حيـوان طبيعية ، تمشى فيها بالعربية ، تشوفى حيوانات الغابة كلها متعايشة وعايشة !

أم كلثوم : « مبهورة أكثر ! » .. شفت .. شفت الاسد على الطبيعة ؟ !

* لا ، لامؤاخـذة يعنى ، شفت الانثى بتاعته !..

شبل من أشبالها سرح بعيداً عن عرين العائلة في الدغل الكثيف .. طلعت تجرى بمنتهى اللهفة والحنان ، ولحقته .. ضبت بأسنانها في رقبته .. رجعت تجرى به وهو يتطوح بين أنيابها ، حتى قبل عرين العائلة بـ ٥ أمتار تقريبا .. و .. هب ، وبمنتهى القسوة ، طوحته في الهواء ليسقط في العرين زى الكرة لما تسقط في السلة !.. حنان متناه ، وقسوة متناهية ، والاثنان في قلب أم !

أم كلثوم : « بفضول ذكى ! » .. عجايب .. لكن الخرطوم دلوقت جوها ازاى .. الطقس يعنى ؟

* جو ربيعى . ديسمبر ويناير — وكنا في ديسمبر — بيسموهم في السودان : فصل الصيف !.. لا مطر ، والجفاف شامل . اما بقية شهور السنة فهى الشتاء . شتاء حار ، والامطار تفيض لها الانهار !

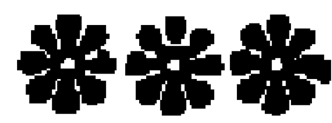
أم كلثوم : لكن صحيح الحشرات في الغابة اخطر من .. الحيوانات المفترسة ؟ !

* صحيح فعلا !.. ذبابة « التسى تسى » تقدرى تعتبريها « أسد طائر » !.. لدغتها والنوم حتى الموت! ذبابة « اللوا.لوا » قرصتها بدودة في الاوعية الليمفاوية تحت الجلد .. والدودة تلد مخلوقات ميكروسكوبية اسمها « فلاريا ».. والفلاريا تسبح في الدم.. وتتمركز في المركز العصبى للابصار وراء العينين مباشرة .. ثم فجأة تندفع لتشق بياض العينين ، فتفقد العينان نورهما !

أم كلثوم : « بخوف مسموع » .. أنا صحيح فلاحة بنت فلاحين .. لكن باخاف جدا من الحاجات دى ! مثيرة أى نعم ، لكن ضد مزاجى وطبيعتى على طول الخط .. أنا ما احبش اشوف خناقة .. ما احبش اشوف ماتش ملاكمة ، حتى لو كان اللى بيلعب محمد

على كلاى ! ما احبش أشوف منظر دم سايح ، ولو كان دم فرخة !

وانتهت المكالمة الطويلة ، جئت أحدثها ، فسرقت منى هى الحديث ! طبيعة غلابة فى أم كلثوم أن تشترى الكلام أكثر من أن تبيعه ! والصمت فن ، وحكمة ، وعبادة ، وغموض يثير !



ندخل معا الى عقل أم كلثوم ، قبل أن نركب معا بساط البحث عن «جسم الحقيقة» فى حياتها . أن سر أم كلثوم فى عقلها الذهبى وحنجرتها البلاتين ، معا ! قد يكون النجاح صعبا ، لكن المحافظة على النجاح فن أصعب .. والأسئلة تتداعى الآن :

كيف حافظت أم كلثوم على تألقها الصاعد الدائم على عرش الغناء ؟ ماهى أسرار شخصيتها الفنية والبشرية؟ ما هى صفاتها النفسية التى تنعكس على موقفها من الفن ؟ من الناس ؟ من المال ؟ من القيم ؟ من الحياة كلها ؟ !

دراسة مجهدة توصلنا للاجابة عن هذه الاسئلة . وأبادر فأسجل مقدما مصادرى فى هذه الدراسة .. انها أولا : معلوماتى المباشرة من لقاءاتى القليلة بأم كلثوم، ومكالماتى الكثيرة ! وثانيا : مانشر عن أم كلثوم فى الصحف المصرية والاجنبية فى الـ ٣٥ سنة الاخيرة . ومصدرى الثالث : كتاب « أم كلثوم » للدكتورة نعمات فؤاد ، وهو الكتاب اليتيم ذو القيمة فى المكتبة العربية كلها عن حياة سيدة الغناء العربى !

وأبدأ بالفكرة الأم عند أم كلثوم : فكرة الاتقان ، أو التجويد، وفكرة اتقان العمل الفنى هى ــ رأيى ــ السبب

الثاني فى نجاح أم كلثوم وتالقهـا الفنى الدائم . أما السبب الاول فهو بالطبع : حنجرتها البلاتين ! .. هى دائما تحرص ، تدرس ، نفكر قبل أن تقرر ، تنتخب القليل من الـكثير !

ولأم كلثوم فى هـذه النقطة أفكار واضحة .. تقول ام كلثوم : « تجويد العمل هو الطريق الى بقائه . العمل الذى يتم بكلفتة وسهولة ، يموت أيضا بسهولة ! اما العمل الذى تعطيه كل جهدك وفنك ، وتقيمه على أساس علمي ، وفى ظروف مواتية ، فانه يخلد طويلا ! »

وتقول أم كلثوم : « ان الاتقان فى رأيى لايحتاج لموهبة انه مثابرة ، عادة تكتسب ، عمـل ارادى يحتاج فقط الى : نظرة علمية مخلصة للمستقبل ، زائد اراده قوية! واتقان العمل والاخلاص له هو الذى يعطى للفرد ثمرة شهية اسمها النجاح ، ويعطى للأمة ـ أية أمة ـ بستانا مزهرا اسمه : الحضارة ! »

لـكن .. كيف تطبق أم كلثوم فكرة التجويد والاتقان على فنها ؟ كيف تترجم الفكرة الى سلوك فنى ؟

الـكلمات لام كلثوم ، وهى بعد فى دنيانا ، تجيب : « أى أغنية جديدة أقدمها للنـــاس ، لابد أولا أن تعايشني وحدى ســـنة كاملة كلاما ولحنا .. اترنم بالـكلمات ، واتذوق اللحن ، ومفتاح نجاح اى اغنيـة فى كلماتها .. لهذا اهتم بانتخاب الـكلمات لدرجة كبيرة ومدققة . أفاضل بين جرس الـكلمات ، ومعانيها . أزن الاخيلة الشعرية فى الاغنية بميزان حســـاس ولابد أن تطربنى كلمات الاغنية أولا ، قبل أن اتوقع أن يطرب لها الآخرون ! »

« والمفاضلة والاختيار» .. أمكلثوم تكمل « .. مبـدأ أطبقه دائما على كل ما يتعلق بفنى .. من الـكلمات ، الى اللحن ، الى أى الاغانى أغنيها فى حفلة هذا المساء !

... ورغم هـذه الدقة العلمانية فى العمل الفنى ، ورغم أن تصفيق الوجد الهستيرى فى حفلات أم كلثوم يعد أطول تصفيق يستحسن به مخلوق عمـل مخلوق آخر!.. رغم ذلك ، فان أحدا لايدرى شيئا عن تلك « اللحظات القاسية » التى تستمع فيها أم كلثوم لغناء أم كلثوم !.. فى أى من حفلاتها ، يحرص ابن أختهـا المهندس محمد الدسوقى على أن يسجل الحفل من أوله لآخره .. وعندما تنهى أم كلثوم وصلتها الاخيرة ، تطير الى البيت مباشرة .. لاتأكل شيئا رغم جوع النهار ، فهى لا تتناول يوم الحفل اى غداء او عشاء !.. فقط تشرب كوبا من عصير فاكهة الموسم ، وأذناها على شريط تسجيل الحفل ، تسمع نفسها .. ملهوفة لهفة..كأنها تلميذة صـغيرة تبحث عن اسمها فى مواكب طويلة من أسماء الناجحين !

أى فرق ـ يا ترى ـ بين أحاسيس أم كلثوم وهى تغنى ، ومشاعرها وهى تستمع لغنائها ؟ !

تقول أم كلثوم : « تغمرنى السعادة وأنا أغنى.. لكن عندما أستمع لنفسي ينتابنى الضـــــيق ! لماذا ؟ لأن « عملية » الغناء نفسها متعة وسـعادة لى .. لـكنى عندما أستمع لغنائى، أتحول الى ناقدة محايدة ، وأخشى أن أقول : قاسية !.. وتتملـكنى الهواجس الفنيـة وأنا أسمع : هذه الجملة كنت أستطيع أن أؤديها بطريقة أفضل . ماذا لو كنت قد رفعت طبقة صوتى هنا الى أعلى « الجواب » ، أو خفضته هنا الى عمق «القرار» ، وتظل كلمة « لو » على لسانى تعذب وجدانى ! »

ولأن أم كلثوم مجتهدة دائما ، كتلميـذة فى ليـالى الامتحان .. ولانها متقنة دائما تعشق التجويد وأسبابه ولانها كانت تعمل لفنها كأنها تعيش أبدا .. لهذا كانت

تتعلق نفسيا بالمستقبل وتظل دائما عليه .. «يعجبنى الليل ، والقمر فى السما هلال ! اشمعنى ؟ لان الهلال له مستقبل ، منظره فيه طمـوح كده ووعد بالنمو .. بيوعدني دايما انه حيكبر بكره !.. وانا احب الاشيـاء طموحة ، ولها مستقبل ! »

ولأن أم كلثوم تعتبر نفسها « تلميذة » فى حالة اجتهاد مستمر .. ولأن لـكل تلميذ عادة أساتذة يضعهم فى محراب عقله .. من هم اذن أساتذة أم كلثوم ؟

تعترف أم كلثوم للصديق الناقد الشاب رجاء النقاش فى حـديث خاص : « أول أســـــاتذتى هو القرآن ! حفظته ، جودته ، رتلته بكل طرق القراءة المعروفة ، تعلمت منه سلامة مخارج الالفاظ .. وسلامة النطق « أبجدية » مهمة جدا لأى صوت يغنى ، أو يخطب فى الناس أيضا ، فان الصوت الذى لايعرف كيف يخرج الالفاظ بحروف سليمة ، فانه لا يصل الى قلب المستمع وعقله ، ويسقط خارج اذنيه !

« أضف الى ذلك ان فى آيات القرآن موسيقيــــة لفظية أصيلة .. من يتذوقها يقيس عليهـا دائما ولا يسلوها ! هذا بجانب ما أخذته عن القرآن من عمق فى عقيدتى ، ومعايير صادقة وصالحة لمعاملاتى مع الناس»

... والاستاذ الثانى ؟

تواصل أم كلثوم اعترافها : « انه أبى ! فهو أول من اكتشف موهبتي الصوتية ، وبفطرته السليمة تعهد صوتى ورباه على أسس اكتشفت فيما بعـد أنها من أرقى الاسس العلمية لتربية الاصـــــوات فى معاهـد الموسيقى !.. كان يفرض على كل يوم : تمرينا صوتيا على التواشيح والابتهالات القديمة ، تدريبات رياضية عنيفة تقوى صدرى ورئتى .. والصدر السليم تنفس سليم .. غناء سليم !.. وبعد التدريب العنيف كان أبى

يعطيني بيده كوبا من اللبـن المزوج بالبيـض النيىء والسكر النبات !

« ان أبى هو الذى سـاعدنى على حفظ القرآن ، وتفهم معانيه ، ولهذا حفظت القرآن وفهمته أيضا ، وكثيرون حفظوا القرآن فى سن مبكرة دون أن يفقهوا فى معانيه شيئا !.. وفى كلمـة : لقد كان أبى أول راع لطفولتى الفنية » .

... ماذا عن الاستاذ الثالث فى محراب عقل سيدة الغناء ؟

تقول أم كلثوم : « انه الشيخ أبو العلا محمد .. أعظم من لحن القصيدة ، ومن القصائد التى لحنها لى فى أول شبابى الفنى : « وحقك أنت المنى والطلب » و « أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا » ، و « الصب تفضحه عيوبه » ..

« سنة كذا وعشرين — ! — أول ماجئت الى القاهرة مع أبى وأخى الشيخ خالد ، نزلنا فى لوكاندة «جوردون هاوس » فى شارع عماد الدين ، شارع الفن أيامها .. هناك التقيت بالشيخ « أبو العلا » لاول مرة ، وسهرنا كلنا حتى طلع النهار ونحن نستمع الى الحانه الشرقية الصميمة .. وما أكثر ما سهرت بعد ذلك أدرس عليه وأتعلم منه . ان الشيخ « أبو العلا » هو راعى شبابى الفنى الاول ! »

... والاستاذ رقم ٤ بين أساتذة « الاسـتـاذة » أم كلثوم ؟

أم كلثوم تنهى اعترافها : « أحمـد رامى ، رامى صديقى ، وزميل طريقى . لـكنه أيضا أستاذى ! .. مع رامى قرأت الشعر العربى بكل عصوره من الجاهلية للآن . كان يعمل فى دار الـكتب . وكان ينتقى لى أنفس

دواوين الشعر القديم ويعيرها لى ، فأقرأها ، ثم نناقشها معا .. واصبحت قراءة الشعر هواية عمرى المفضلة : أقراه لاتثقف . وأقراه لاستمتع . واقراه لاختار واغنى . ثم : أقراه لانتخب أجمل الابيات فى كل لون من الوان الشعر ، واحتفظ بها لأعيد قراءتها بلذة وتذوق من حين لحين . ولى مختارات من الشعر احتفظ بها ، تزيد على الف بيت من روائع الشعر العربى فى كل العصور ! »

... اذا كان هؤلاء هم الاساتذة الاربعة الكبار فى محراب عقل أم كلثوم .. فمن هو ــ عندها ــ المثل الاعلى أو « الاستاذ النموذج » للانسانية كلها ؟

تجيب أم كلثوم : « المثل الاعلى عندى مثلان .. من الرجال : محمد بن عبد الله ، سيد المرسلين وخاتمهم .. فهو نموذج علوى للانسانية المؤمنة ، والسلوك الصادق الشفيف ، والضمير اليقظان ، والارادة التى يلين لها الحديد !

« ... ومن النساء : السيدة خديجة زوجة النبى ، فهى مثال للانسانية النسائية الرفيعة ، فى سيرتها : بطولة الروح وقوة الشخصية ، وضعف الوفاء ! »



. وأم كلثوم تعامل المال بحرص العقلاء واعتدالهم . لكنها زهدت الفلوس تماما منذ عدوان « يونيو ــ حزيران » ، وتنازلت عن أجرها فى جميع حفلاتها للمجهود الحربى المصرى ، ولرجال الكفاح الفلسطينى المسلح ، الى أن تزول آثار العدوان .

. وهى لا تحب سيرة الفلوس ! فلوسها ، ممتلكاتها ، ما تدفعه من ضرائب .. « ملحوظة اعتراضية : عن سنة ١٩٦٦ ــ مثلا ــ دفعت أم كلثوم : ٢٤٫٥٠٠ جنيه

ضرائب متنوعة ، وهي تتقدم باقرارها الضريبى قبل موعده .. كانت دافعة ضرائب مثالية ! »

... حتى الفلوس التى جمعتها للمجهود الحربى ـ يقترب الرقم من المليونى جنيه ! ـ لا تحب ان تذكر رقمها .

سألتها مرة عن رقم ما جمعته للمجهود الحربى ، أجابتنى : « لا وحياتك .. بلاش أرقام . اذا كانت المبالغ اللى جمعتها قليلة ، لازم تكتر .. واذا كانت كتيرة ، لازم تكتر أكتر واكتر .. المهم : كله مننا .. ولنا ! »

لكن معلوماتى : ان خلاف امكلثوم الشهير مع رياض السنباطى منذ عدة سنوات كان لأسباب مالية ! وانها ، بجانب تنازلها عن اجرها فى الحفلات للمجهود الحربى، فانها تحتفظ لنفسها بأجرها عن طبع اسطواناتها ، وبعائدها السنوى من حقها فى الاداء العلنى لأغانيها .. والا ، فمن أين تعيش ، وتعول من تعول ؟ !

سنة «كذا وعشرين! » .. جاءت ام كلثوم من قريتها « طماى الزهايرة » بدلتا مصر ، لتزور القاهرة لاول مرة . كانت تدخر ١٥ جنيها هى كل تحويشة صباها، لكى تشترى بها من سوق الموسكى : الملون ، والمشجر، وكل أذواق العاصمة من الاقمشة والعطور والحلى الفالصو ! والمبلغ صرته بعناية فى منديل .. ثم .. ضاع المنديل !

... كانت لحظة قاسية ، تصفها أم كلثوم بكلماتها : « حسيت ساعتها انى أشقى واتعس بنت فى الدنيا ! ويومها ، نزلت مع أبويا نزور الهرم ، ماشفتش الهرم. الـ ١٥ جنيه كان منظرها أمامى ساتر أخضر معتم حجب عنى ضخامة هرم خوفو » ! !

والكتاب معلم ، يشكل شخصية الانسان و «يدرفل ذهنيته .. فما تقرأه تكونه ، وتتاثر به حتى العظام.. عظام جمجمتك طبعا !

... وليست المحاولة أن أحصى قرارات أم كلثوم ، كما ونوعا .. فقراءاتها كثيرة ، متنوعة طولا وعرضـا وعمقا ، فى بحور الشعر، الاسلاميات. والسيرة النبوية بتخصيص . القصة بأطوالها : قصيرة ، أوطويلة ، أو رواية. دراسات السير الذاتية «البيوجرافى» الجادة ، لشخصيات متفوقة ومؤثرة فى التاريخ ، والقليل جدا من كتب السياسة والساسة !

... عن كاتبها الذى ترتاح على صـــفحات كتبه وفكره ، تفصح أم كلثوم وهى تجيب :

« الدكتور طه حسين ... لا أحد « يطربنى » مثله ، ومثل فكره المبصر ، اللامع كصفو النيل فى ضوء القمر! ومن فرط حبى للشعر ، أحببت نثر طه حسين ! ففى نثره رقة الشعر ، وموسيقاه ، وأخيلته العميقة التى تتسلل الى الفهم بعذوبة ، ودون ارتطام أو اقتحام !

... يتصل فكر أم كلثوم ، فتواصـل : « أيام طه حسين بأجزائها الثلاثة ، هى فى حقيقتهـا ملحمة من القصائد الباهرة : قصيـدة عن القرية ، قصيـدة عن بكارة الطفولة ، قصيدة عن الحرمان وجفاف الحياة ، قصيدة ــ رغم كل ذلك ! ــ عن الامل !.. قصائد .. قصائد كلها ، أيام طه حسين ! » .

بجانب التربية ، أو ما يسميه علمـاء الاجتمـاع « النشأة فى البيت » .. اى العوامل يشكل شخصيـة الانسان ، وينميها ؟

... لاشك انه : السفر ! السفر مدرسـة تعلم ، مدرسة مفتوحة بلا اسوار تثير فيـك نوازع التمرد

والتحدى ، فتهرب عبرها قفزا !.. تلامذة المدرسة والجامعة ـ تربويا ـ لا تكفيهم الحصة أو المحاضرة .. يستكملونها بالرحلة !.. وأرقى المدارس الامريكية الآن وأغلاها مصروفات ، تجدها فى سفن عائمة تجوب بتلاميذها بحار المعرفة حول العالم !.. وفى « مدرسة السفر» ـ وما أكثر أسفارها ـ ماذا تعلمت أم كلثوم ؟

أم كلثوم تتحفظ أولا : « أنا ضد السفر للسفر ! أو السفر لمجرد المتعة والتصييف !.. ان كان على الصيف ، فمصايف مصر أجمل مصايف الدنيا .. وأنا كل سفرياتى لبلاد برة ، اما للعلاج ، أو للغناء ! » .

... وهى بعد هذا التحفظ تجيب على السؤال : « فى كل مرة أسافر برة وارجع ، أنزل من الطيارة ودقات قلبى هتافات تسبح باسم بلدى مصر أم الدنيا وأبوها الشرعيان ، بالميلاد . ميلاد الحضارة . وتاريخ هذه العلاقة الشرعية عمره ٦ آلاف سنة ! مصر أم الرخاء والطعام لكل معدة ! أم الجمال والطبيعة الآسرة والناس الابكار ، الذين لم تفض بكارتهم بعد مداخن المصانع ، رغم موج التصنيع الزاحف ! »

... «بيتهمونا فى أوربا وأمريكا اننا «بلد البقشيش» ، أو « البكشيش ياخواجا » !.. اتهام كاذب من أساسه أو بالقليل ، اتهام مبالغ فيه جدا !.. أى سواق تاكسى فى القاهرة يشكرك ويقبل ـ من القبلة ـ فلوسك التى تدفعها آخر المشوار حسب رقم العداد.. واذا استفتح بك ، أو كانت التوصيلة طويلة ، فانه يدعو لك بسعة الرزق ويعاملك بود أكثر !.. تروح نيويورك تلاقى سواقين التاكسى «بهوات» جدا ، و «نماردة» جدا .. مرة فى نيويورك أعطيت سائق تاكسى من التاكسيات الصفراء اياها ٦ دولارات ـ حوالى ٣٥٠ قرشا مصريا ـ بقشيشا

فوق اجرة العداد .. امسك الدولارات وراح يمدها تحت عينى بقرف وامتعاض ، ثم ضغط على دواسة البنزين بعنف .. ولا كلمة شكر ! ! »

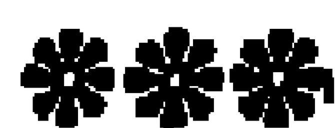
... وتواصل أم كلثوم : « ناطحات السحاب فى نيويورك لم يحرك منظرها القائم شعرة فى راسى !.. هرم خوفو عندى اكثر جلالا من « الامبير ستيت » ! والسد العالي فى أسوان يساوى عندى ٥ مدائن مثل نيويورك! وبالعكس ، راديو الترانزيستور الذى يضمه الكف ويستمع اليه العقل والوجدان ــ رايى ــ هو خلاصة المدنية ! » .

... « لكن أشياء كثيرة فى الخارج بهرتنى : الطرق الطويلة غير المتقاطعة ، أو ما يسمونه « هاى ويز » الريف الامريكى . الغابة السوداء فى المانيا . مسرحية «ماى فيرليدى» فى لندن ! متاحف باريس ، اللوفر وغيره ، وبهرنى عموما ذلك الاهتمام الفرنسى الملحوظ بالابقاء على كل ماهو تاريخى والاحتفاء به .. الفرنسيون ورثة طيبون لاجدادهم ! » .

... ومن « مدرسة السفر» ، عند أم كلثوم درس نستفيده : « فى أوربا وأمريكا شفتهم يحبون العمل ، لدرجة العبادة ! الشبان هناك يعملون فى أشق الاعمال واحقرها ــ بمقياسنا الشرقى ! ــ باقبال ولا تافف ! أبوه مليونير ، أبوه مستور الحال .. لكن الابن يعمل غالبا !.. يشترى كتب المدرسة ويدفع مصروفات الجامعة من عرق ذراعه ! يسافر فيدفع لنفسه ثمن التذكرة ، قطارا كان أو طائرة !.. صحيح انه ليس محتاجا الى الفلوس ليأكل ويتعلم .. وفى استطاعته ببساطة أن يترك عبء كل شىء على العائلة . لكنه يريد ان يحقق ذاته .. وأن يشعر برجولته واستقلاله

الاقتصادى عن العائلة ، مع أن شبابه مازال فجرا ! »

... « العمل اذن ليس عيبا ، العيب فى الاتكال ، والتوكل على غير الله ، والاشتراكية التى تنادى بها ــ دينا ودنيا ــ هى ببساطة : أن يشارك كل واحد فى حياة مجتمعه ، يأخذ دوره فى العمل والانتاج .. ويأخذ أيضا حقه فى عائد هذا العمل والانتاج !.. اذكر هنا حديثا عن النبى الكريم ، عندما سأل رجلا : « أين اخوك ؟ » أجابه : « انه يصلى ليل نهار ! » .. فعاد النبى يسأله : « ومن يزرع الارض ؟ » أجابه الرجل : « أنا يارسول الله » .. قال محمد صلى الله عليه وسلم : « والله انك لأفضل عند الله من أخيك » ! !



نتوغل معا أكثر فى شخصية أم كلثوم الفنية .. ان شخصيتها الفنية تظهر معبرة ملونة : نهار حفلة تقيمها .. ومساء ذلك النهار .. ثم ساعات الليل التالية للحفلة ــ الاصدق : ساعات السحر ! ــ بعد أن تعود الى بيتها فى شارع « أبو الفدا » على نيل الزمالك بالقاهرة، وفى وجدانها حس باطنى منتش بالسعادة والقلق معا !

... أم كلثوم تستيقظ أى صباح ــ عادتها ــ فى السابعة تماما .. لكنها نهار الحفلة تتأخر فى النوم ٤ ساعات أو أكثر ، تستيقظ حوالى الحادية عشرة .. لعلها تأخذ من النوم أكثر مما يجب ، استعدادا لسهر وجهد أكثر مما يجب !

... ولا فطور . لاطعام يدخل فمها طول النهار، غير كوب من عصير فاكهة الموسم .. وان اكثرت كوبين ! ثم يجيئها حلاقها الخاص يلف لها شعرها بطريقة كلاسيكية لا تتغير خطوطها كثيرا .. يلفه على البارد . لا نار ، ولا « ميزامبليه » !

... لحظات انتظار متململ ، كأم ترقب باللهفة والتوجس ساعة ولادتها !.. شاردة كأنها سقطت فى بئر من الفكر ! قد تطلب احدا على التليفون ، فاذا جاءوها به على السماعة .. تساءلت : « مين ده اللى على التليفون » ؟ ! .. قد تقرأ من الصحف عناوينها ، ثم تكومها وتنحيها !.. ما تكتبه الصحف وهى تزف أغنيتها الجديدة لايهمها مطلقا أن تقراه ، قبل أن تغنى الاغنية .. لكنها تقرأ بعناية كل سطر يكتب عن نفس الاغنية، بعد أن تغنيها ! ؟

أم كلثوم تفسر هذا اللغز : « شوف .. كل ما يكتب عن أغنية لى قبل ان أغنيها ، لايمكن أن يكون نقدا لفنى !.. ربما كان اعلاما ، أو تعريفا للناس بالاغنية الجديدة .. فلماذا اهتم أن أعرف عنها ، وانا التى ستغنيها ؟ ! »

... لحظات الانتظار المؤرق تمضى مع النهار .. يقطعها أداء الصلاة فور اذانها ، وتقطعها كذلك : «لعبة الصبر » ! .. ولعبة الصبر أو « السبع بنات » طريقة معروفة لـ « فتح السكوتشينة » او ورق اللعب .. وهى تلعب لعبة الصبر ، عادة ، كلما كانت فى حفلة الليلة اغنية جديدة !.. احيانا تصدقها اللعبة ، وتظهر لها من أول مرة أن الاغنية ستنجح .. واحيانا تخذلها !.. وعندئذ ، وبمنتهى التصميم ، تعيد أم كلثوم اللعبة مرة أخرى او أكثر .. الى أن تسلم لها أوراق الكوتشينة ـ مكرهة ! ـ بأن الاغنية الجديدة سوف يصادفها النجاح !.. فى كل منا حبل سرى يتعلق فى نهايته بالغيب والمجهول ! !

... الطريق الى الحفل ـ مسرح الازبكية . سينما قصر النيل . دار الاوبرا . أو مسرح « أبو الهول »

الصيفى ! ـ تقطعه عادة فى سيارتها الكاديلاك الفضية اللون ، ذات الراديو والتليفزيون والتليفون والثلاجة بالكهرباء .. والتى سبق ان اهداها اليها حاكم الكويت! وهى فى الطريق مجرد عينين غائمتين . وراء نظارتها الطبية الداكنه . تتمتم بالفاتحة . اعظم سورة أنزلت فى القرآن .. وتتلوها بآية الكرسى .. وتقطع بين الاثنتين بوصلات من الصمت المتأمل !..

... والمنديل الحريرى فى يدها بلون فستانها ، يلازمها على المسرح ، كنت اتصور أن لمنديل أم كلثوم وظيفة ، وان وظيفته أن يمتص انفعال يدها وهى تغنى ويسيطر عليها ، فلا تتحرك الا بحساب واستاذية .. ومصيبة بعض مطرباتنا انهن يبالغن فى حركة اليدين والذراعين ، لدرجة ارتكاب « جريمة الرقص » .. بجانب الغناء !.. لكنه اتضح لى ان لمنديل أم كلثوم وظيفة أخرى، مختلفة تماما .. تقول أم كلثوم : «عندما أواجه جمهورى ، ينتابنى نوع من الاضطراب .. وكأنى تلميذة مبتدئة أواجه أول امتحان لى !.. واضطرابى هذا ـ بصراحة ـ يظهر فى صورة عرق ينضح من يدى.. والمنديل ـ ببساطة ـ لأجفف به عرق اضطرابى!! » بعد ٥٠ سنة من الغناء والتمرس على مواجهة المستمع. أم كلثوم تخاف من مواجهته ، لدرجة الاضطراب ، لدرجة العرق !.. انها الحساسية الفنية المفرطة التى تميز فنانة أصيلة مثل سيدة الغناء ، عن أى واحدة أخرى « تبيع الغناء » !.. فالمستمع عند أم كلثوم له وزن « السيد المهاب » !.. تخضع لأمره فى الحفل، ان طلب أن تعيد ، أو مزيدا من الترديد !.. وهى تقرأ بعناية نقده لها فى خطاباته الخاصة اليها ، فهو عندها الناقد الحى المحايد !

ولا شيء يستطيع ان يحول بين أم كلثوم وبين جمهور حفلاتها ، حتى المرض !.. تحكى ام كلثوم : « زمان شوية .. موسم ٥٧ .. ويجينى يوم الحفلة الشهرية حته زكام ! ؟ صعب على الفي الحفلة .. كيف أتخلف عن جمهورى ؟ ! وفى الميعاد. اخذت بعضى ورحت المسرح وانا لا أدرى ماذا افعل ، ولا كيف سأغني !.. ووقفت على المسرح مقودة ، او كالمنومة .. ثم انفتح الستار.. وانفتح معه انفي وزال الزكام .. وانطلقت اغنى ! »

... والذى لم تقله أم كلثوم انها قدمت فى تلك الحفلة بالذات أغنية جديدة اسمها « غيرة » كلمات رامى ، ولحن السنباطى ، وانها ليلتهـا انتابتها الـكحة عدة مرات .. وقال الناس بدهشـة : « الله .. أم كلثوم بتكح ؟ ! » وصباح اليوم التالى لتلك الحفلة ـ فبراير ٥٧ ـ قلت لأم كلثوم بالتليفون :

* الناس استغربت لما كحيتى ـ لأول مرة فى تاريخك الفنى ـ وانت بتغنى ؟ !

أم كلثوم : وبيستغربوا ليه ؟ هو انا موش انسانة؟

* من غير شك .. انت كذلك !

أم كلثوم : ولى جهاز تنفسي جاير يصيبه البرد ؟ ! أهو انا بقى كان عندى برد ليلة امبارح .. ورغم كده غنيت... ولم يهن على جمهورى !

... ولقد نشرت كل ما سبق ـ فى حينه ـ فى مجلة « الاذاعة » القاهرية ، لأسجل لها لأى حد تعمل حساب مستمعها ... السيد المهاب !

سألت أم كلثوم ذات حفلة :

* بيضايقك « العمدة » بهتافاته ووجده ؟ !

... و « حافظ العمدة » أنت لاشـك سمعته .. لـكنك لم تسمع عنه : تاجر فاكهة مسـتور الحال ،

يعشق فن أم كلثوم ، يواظب على حضور حفلاتها اينما كانت ، منذ سنة ٣٠ ودون انقطاع !.. يقاطعها دائما بآهات اعجابه « والنبى كمان ياست .. ياست ياأستاذة الاساتيذ ! ».. و « عظمة .. على عظمة.. على عظمة!» كل ذلك بصوت يخرق طبلة اى أذن فى الحفلة . أو جنب الراديو !

... اجابتنى أم كلثوم : « يضايقنى ليه ؟ بالعكس ! المفروض الناس جايه تسمعنى علشان تنبسط ! » .

... وسألها الكاتب محمد التابعى مرة :

* يقولون انك تفضلين الجمهور الصاخب ، على الجمهور الهادىء الرزين .. لأن الاول يجعلك «تنجلين» فى الغناء ؟ !

أجابته أم كلثوم : « انا ؟ !.. وهل تصدق أن فنانا يرضيه أن يقطع أحد عليه انسجامه ؟ هل الجمهور وحده هو الذى يطرب ؟.. أن الفنان فى دوره لايقل استغراقا فى فنه ، عن الجمهور فى احساسه !

... ومع ذلك ، فالجمهور فى نظرى نوعان : نوع « يهتز » من الطرب .. ونوع « يتهازز » !.. أما أن يطرب الجمهور فيهتز ويعبر عن طربه ، بصورة من الصور المألوفة التى لا تفسد جو الطرب ، فذلك معقول .. لكن ذلك النوع الثانى .. النوع الذى «يتهازز» .. النوع الذى يثير الصخب فى هذا الجو الطروب.. فانه أعدى أعداء الفنان !

... لقد غنيت مرة لرجل واحد ! رجل ضرير ،كان يجلس فى الصف الاخير ، فى احدى الحفلات .. وكان يطرب ويحس الغناء احساسا صحيحا .. غنيت له وحده طول الليل .. وكنت فى منتهى السعادة بهذا التجاوب ، بينى وبينه !!

أم كلثوم ، فى احدى حفلاتها ، لم تزل .. لماذا تنفعل

وهى تغنى كل هذا الانفعال ؟.. لماذا يتحول انفعالها بالمعنى الى اضـطرام يجتاح تعبير وجهها ، ويهتز له بدنها كله .. حتى ليتحرك البدن من حين لآخر، خطوة الى الخلف أو الى الامام ؟ !

... أم كلثوم ــ هنا ــ تجيب : « انا اتامل معانى الـكلمات وانا اؤديها ، وانفعل بها كأنها احداث ساخنة فى حياتى !.. فيه عندك معانى فى أغانى تخلق عنـدى صورة فنية أستشعرها وانا اغنيها .. وترتسم امامى فى صورة ، بالضبط كصورة الـكاميرا !.. مثال ؟ اقول لك مثال .. لما اقول :

شمس الاصيل .. دهبت خوص النخيل ..
... يا نيــــــــــل ..
تحفة .. ومتصـــورة .. فى صفحتك ..
... يا جميـــــــــــل !

... كل هـذه التفاصيل الجمالية ، ترتسم أمامى وانا أغنى ، صورة بانورامية طبيعية !

... اغلق الستار، وانتهت حفلة أم كلثوم ، أم كلثوم فى طريق العودة الى البيت ، جوع النهار بطوله واغلب الليل ، لايهم !.. المهم أن تطمئن ــ بنفسها ، لنفسها ، على نفسها ! ــ وهى تستمع بلهفة واستغراق لشريط الحفل المسجل .. كأنها تعيد امتحان نفسها !.. وكأن التصفيق الطويل لفنها لا يعنى استحسانا !.. وبكلمات أم كلثوم :

« حكم الغير على عملى الفنى ، قد يقنعنى .. لـكن حكمى الشخصى ــ وحـده ــ هو الذى يعطينى الراى اليقين » ؟ !



أن تسأل سيدة عن عمرها .. سؤال ــ عند نســاء

الارض جميعا ــ وقح وقاحة !.. لا يعادله فى وقاحته، من وجهة النظر الحريمى ، الا ان تسأل المرأة عن لون ملابسها الداخلية ! ..

... و « عمرك كام سنة ياست ؟ »

سؤال يجرح ، ويحرج ، ولهذا لم أجرؤ يوما على أن أوجهه الى أم كلثوم .. أيضا لم يجرؤ غيرى أحد ! لكن قصاصات الصحف القديمة تذكر لأم كلثوم حديثا أدلت به ــ يونية « حزيران » ٦٥ ــ الى جريدة «ديلى اكسبريس » البريطانية . فى مدخل الحديث يقول المحرر على لسانه : « ان أم كلثوم الآن فى الخامسة والخمسين من عمرها » .. وتواصل أم كلثوم الحديث بعد ذلك على لسانها : « سوف أظل أغنى حتى آخر يوم من عمرى » !..

... واذا صدقت الديلى اكسبريس ، فان أم كلثوم ــ بالحساب ــ تكون من مواليد سنة ١٩١٠ .. بعكس ما قيل بعد وفاتها من انها من مواليد ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨ !

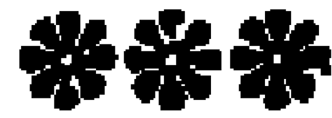
بيت متواضع من دور واحد وطوب أخضر ، فى قرية طماى الزهايرة بوجه مصر البحرى، شهد ميلاد أم كلثوم. وخضرة الزرع فى ريف مصر تزحف ، طبقا لعادة قديمة، على وجوه أهل الريف وسواعدهم وشما أخضرا.. لكن أم كلثوم نجت من ذلك الوشم اللعين ، والفضل لأمها السيدة « فاطمة المليجى » .. قروية بسيطة ، لكنها ذكية وواعية .. والذى حدث أن احدى الجارات من نساء القرية ، أخذت «خالد» شقيق أم كلثوم الاكبر الى صانع الوشم فى سوق القرية ، فدق له مساحات من العصافير ، والاسود ، وأسماك النيل ، على انحاء متفرقة

من وجهه وذراعيه .. وعاد الصبى يبكى من ألم وخز ابر الوشم ، وليس من كآبة الوشم الشائن.. وفى كعبه جاءت الجارة المتطوعه تبحث عن أم كلثوم الطفلة ، لتجرى لها بالمرة طقوس الوشم .. لكن الام انبرت مفزوعة تحمى ابنتها من تشويه أبدى .. ونجا جلد أم كلثوم من وشم العصافير ، وأسماك النيل !

« كتاب » الشيخ عبد العزيز .. أهم كتاتيب قرية طماى الزهايرة ، فهو يعلم جيدا وكثيرا ، ويقبض قليلا .. التلميذ بقرش صاغ فى الشهر !.. دخلت أم كلثوم الكتاب لتتعلم الحرف والرقم ، وتحفظ جانبا من أجزاء القرآن ، لكنها لم تكن موفقة فى دراستها .. اصطدمت بمقرعة سيدنا الشيخ عبد العزيز و «فلكته» وقسوته المؤلمة ، وهى من صغرها تكره الالم ، تكره أن تتالم هى ، أو يتألم الغير ! لهذا كرهت الكتاب وصاحب الكتاب وان لم تكره العلم والتعليم .. وقد كان من الممكن ان يحدث ذلك ، ويصبح التعليم عقدتها . ويقترن « الحرف » فى وجدانها بلسع العصا ، ولوحدث، لما قرات أم كلثوم بعدذلك قصيدة شعر ، ولا غنتها .. ولما قرأت فى الادب والسير الذاتية بتذوق وتعمق .. ولما تعلمت اللغة الفرنسية حتى أجادتها !

... ولقد أفرزت أم كلثوم كراهيتها لكتاب الشيخ عبد العزيز وصاحبه ، فى صورة شقاوات صغيرة وذكية .. مسألة دفاع عن النفس !.. كان سيدنا الشيخ ، من حين لآخر ، يأمرها هى وزميلاتها بأن يذهبن الى بيته ليساعدن زوجته فى شئون البيت .. و « مرة » تحكى أم كلثوم : « كنا نشارك امرأة الشيخ فى تنقية قمح الطحين ، تذكرت قسوة الشيخ وعيناى تفرزان حبات القمح على الطبلية ، والحت على فكرة الانتقام..

ليه لا؟ ! همست لزميلاتي مصدرة تعليماتي بأن يحتفظن بحبات البخر والطين التي يلتقطنها من أكوام القمح .. انتهينا ، وانفرجت أسارير زوجة الشيخ معلنة رضاها عن مجهودنا ذلك الضحى .. لكني غافلتها لحظة الانصراف وبعثرت على أكوام القمح النظيف كل حبات البخر والطين التي جمعناها ! »



في بيت عمدة القرية « فونوجراف » قديم .. تترامى منه أصوات الغناء بلا انقطاع ، من أصيل كل يوم حتى نهاية السهرة في القرية ، عقب صلاة العشاء !.. وطوال « فترة الارسال » هذه ، وآذان أم كلثوم رادار موجه الى دوار العمدة !

وفي البيت .. الشيخ ابراهيم ، أبوها منشد الموالد الرقيق الحال ، يلقن شقيقها « خالد » أصول فنه . وأم كلثوم تسمع وتشبع !.. في مرة ، تعثر خالد في ترديد توشيح من التواشيح القديمة التي كان يلقنها له أبوه .. فقفزت الصبية أم كلثوم من مكمنها كقطة جائعة في اتجاه سمكة : « والنبي يابا أقول أنا .. بس اسمعني ؟ ! » .. وهس سمع ، الاب استمع ، انبهر، اكتشف ، لأول مرة ، الكنز الخبيء بين يديه ! ..

... لحظة غير فيها نهر حياة أم كلثوم مجراه .. فالشيخ ابراهيم قرر بيقين وحماسة ان تصاحبه ابنته في الموالد والافراح ، ضمن بطانته ، لكنها بنت ، وهو ريفي ، والتقاليد عقبة ، كيف يتخطاها ؟ ! بذكاء ، لملم الرجل شعر ابنته تحت كوفية وعقال ، والبسها جلباب صبي ، وعليه بالطو أصفر أحيانا ، وأحيانا كحلي اللون .. وانطلق « الولد أم كلثوم » الى الافراح يغني!

... هذه السنوات من « الذكورة المصطنعة » ، أثرت

فى حياة أم كلثوم ـ تاليا ـ تأثيرا عميقـا حتى نخاع العظـام !.. فبملابس الولد خالطت أم كلثوم الرجال بندية ، واكتسبت منهم باللاوعى صفات أخلاقية كثيرة: حب التحكم والميل للقيادة والسيطرة ! الكلمة الواحدة النافذة بغير تراجع ! الـكبرياء ، والانف فى السماء ! أيضا أثرت فيها ذكورتها المصطنعة ، فانامت فى وجدانها كل مطالب الانوثة. فلم تتزوج الا فى سبتمبر سنة ٥٤ !

سنة ٤٢ ، سألوا أم كلثوم : لماذا لا تتزوجين ؟

أجابت أم كلثوم : « أخذنى كفاحى من أجـل فنى ، فأنسانى أن أتزوج ، بل لعلنى لا أصلح لأن أكون «ست بيت » بالمعنى المفهوم عندنا فى مصر ! .. والصدق معها خصوصا فى الشـطرة الاخيرة من هـذا الاعتراف .. فأم كلثوم ، مثلى ، لاتجيد من أعمال المطبخ شيئا بالمرة ! وعادوا فسألوها عن رأيها فى الدنيا .. بلا رجال ؟ !

أجابت أم كلثوم : « تكون دنيا ناعمة ، مليئة بالعفة! أيضا ، تزول الحرب ! ويخلو الغناء من كلمات الغزل ! وتتغير ، فى دنيا السياسة ، طريقة الحكم ! »

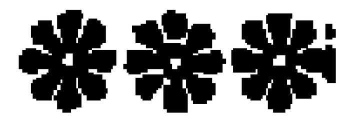
ثم سألوها عن الحب ؟

قالت بلا مجاملة : « قد يكون الحب مصدر سعادة ، أو نبع شقاء ، ولا شيء وسـط ! لـكن الحب دائما كالطفل العابث المدلل الشرير ، من طبيعته يستبد بفرض سلطانه !.. ولو قدر لى فى يوم من الايام أن ألقى هذا الطفل العابث « كيوبيد » لأوسعته ضربا ، حتى يكف عن عبثه واستهتاره !.. »

... لـكن الشائعات لم تترك أم كلثوم لعذريتها ، وانما طاردتها بالعرسان !.. زوجتها الشائعات على مر السنين بشخصيات كبيرة كثيرة .. النبيـل السـابق

عمرو ابراهيم! الشاعراحمد رامي! المثال محمود مختار، صاحب التمثال الاشهر « نهضة مصر » ! الشيخ عبد الرحيم بدوى صاحب « مطبعة الرغائب » ! وفقيه القانون المدنى المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهورى!

... وفى أوائل الخمسينات ، ارتبطت ام كلثوم مع محمود الشريف ملحن « الله أكبر» بفكرة الزواج .. لكن الفكرة قلعت قبل أن تزرع !.. ثم جاءها النصيب فى يونية « حزيران » سنة ٥٤ : دكتور حسن الحفناوى أستاذ الامراض الجلدية بكلية طب قصر العينى، صعيدى من مواليد أسيوط فى ٨ أغسطس سنة ١٥ ، متزوج سابق . وله أولاد . عاشق لفن أم كلثوم . ولشخصها أيضا !



أول أجر قبضته أم كلثوم فى راحة يدها ، كان روبية واحدة !.. الروبية ، تلك الايام القديمة ، عملة مصرية تعادل ٦ قروش .. تقاضتها عن غنائها فى ليلة فرح بالسنبلاوين ، مدينة تبعد عن قريتها ساعة بالحمار!.. وقدظلتأم كلثوم قابضة يدها على الروبية بحرص من يحوز ماسة « الكوهينور » ، الى أن عادت الى أمها فى البلد تهلل : « أم .. خدى منى يام ! »

... وأكبر أجر تقاضته أم كلثوم خارج القاهرة ، كان ١٤ الف جنيه استرلينى عن حفلتيها فى ليبيا ، وكما ذهبت الروبية الى أمها ، ذهبت الـ ١٤ الف استرلينى أيضا الى أمها مصر !

وأول مرة تكحلت فيها عيون أم كلثوم بزيارة القاهرة، كانت خريف سنة ١٨ .. عز الدين «بك» يكن يملك ضيعة قرب طماى الزهايرة. قرية أم كلثوم. سمع بها. ارسل يطلبها لتشارك انشادها فى احياء ليلة الاسراء ،

والحفل فى قصره بحلوان ، رآها « البك » من هنا ، وملأته الدهشة وخيبة الامل .. « هى البت المفعوصة دى اللى حتغنى ؟ ! » .. وأرسل يستدعى الصييت القديم الشيخ اسماعيل سكر .. وجاء الشيخ لينقذ ليلة الاسراء فى بيت البك الكبير !..

... والليل انتصف ، والحاضرون ابتلعوا من تواشيح الشيخ سكر حتى امتلأوا .. واقترح صاحب الحفل على مدعويه أن يستمعوا للصبية أم كلثوم من باب الفكاهة والتنويع ليس الا !.. وغنت الصبية كما لم تغن من قبل ، احست بالاهانة والتحدى ، فاجادت وتسلطنت ! وطرب الجميع .. حتى الشيخ اسماعيل سكر الذى جاء لينقذ الحفل ، طرب وانتشى ، وقاطعها وهو يستزيد ويطلب أن تعيد !

وبعد شهور ، عادت أم كلثوم الى القاهرة لتحيى فرحا متواضعا فى حى « كوم الشيخ سلامة » .. حى مكانه على خريطة العاصمة ، لا أعرفه بالضبط ؟.. ثم جاءت اليها سنة ۲۰ ، هذه المرة لتقيم وتشق لفنها طريقا .. أول حفلة عامة لها أقامتها فى سرادق على ناصية شارع الدواوين بالسيدة زينب ، نجحت نجاحا! تردد اسمها فى شوارع القاهرة وبيوتها ، هكذا بالنقل من فم لأذن ، ودون أى دعاية مكتوبة أو مسموعة !

... بعدها ، التقطها متعهد الحفلات « المعلم صديق» وقدمها على مسارح « دار التمثيل العربى » و « الكورسال » و « سينما فؤاد » . أرقى مسارح شارع عماد الدين ، كانت ما زالت تحتفظ بالزى الرجالى : العقال والجلباب الفضفاض الذى يخاصم تفاصيل الجسد فلا يقترب منها ! والبالطو الكاكى ، أحيانا كحلى اللون ! وكانت تنشد على الطريقة «الموالدية»

وحولها بطانة من المشايخ يرددون .. أحيـــــانا يدوى التصفيق فى القاعة ، فينبرى شيخ من أفراد البطـانة واقفا ، يبتسم ويرد التحية وكأنها موجهة اليه !

وسنة ٢٦ ، نقل نهر أم كلثوم الفنى مجراه نقـلة هائلة : استغنت عن بطانة المشايخ واستبدلتهم بتخت الآلات الموسيقية أيضا ، خلعت العقال والجلبـــــاب الفضفاض ، ولبست الفستان ، صحيح أنه كان دائما فستانا آية فى الحشـمة .. انما يكفى أنها كشفت صراحة عن « أنوثتها الفنية » !.. أضف الى ذلك أنها بجانب الموشح ، بدأت تغنى القصيدة والطقطوقة ..

... بالطبع لم تستطع أم كلثوم أن تقاوم ــ فى دفعة واحدة ــ تيار الذوق الفنى المنحل الذى اجتاح الجماهير المصرية ، أعقاب نهاية الحرب العظمى وانطفاء الحطب فى موقد ثورة ١٩ !.. اضطرت أن تساير فى البـداية بطقاطيق مثل : « ياست ليه المـكايدة » و « قال ايه؟ حلف مايكلمنيش ! » .. ثم ارتفعت بالتدريج الى مدارج الفن الرفيع ، وقدمت قصائد من الغزل الرقيق مثل : « وحقك أنت المنى والطلب » و « أراك عصى الدمع » فى لحنها الاول ، و « مالى فتنت بلحظك الفتاك ! » ..

... وبعدها ، انطلقت أم كلثوم تحلق بأجنحة خيال رامى ، وألحان داود حسنى ، محمد القصبجى ، زكريا أحمد ، ورياض السنباطى .. أعطاها القصبجى ألحانا ذات نغمات مديدة وترجيعات طويلة .. ولم يكن هـذا أول عهدها بالمد والترجيع الطويل .. فقد كانت أغانيها التى سبق أن لحنها لها الدكتور صبرى والشيخ أبو العلا فى العشرينات ، حافلة بالنغمات العالية التى تركب ذرى الصوت أو « الجواب » ، ولا تهبط الى «القرار» الا لتحتشد وتواصل الصعود الى الذروة مرة أخرى!

وبعد القصبجي كمرحلة ، جاء السنباطى ليواصل مع أم كلثوم رحلة النغم والشدو الآسر .. وأول لقاء بين أم كلثوم والسنباطى ، لم يكن فى القاهرة .. كان فى قرية « قرين . دقهلية » . كانت تحيى مع أبيها فرحا. وكان هو الآخر مع أبيه ، ينافسها فى احياء نفس الفرح! كان السنباطى ، أيامها ، يغنى ! وهو يغنى للآن مازال ، لكنه لم يعد ــ فى اعتناقى ــ يحوز اعجاب الكثرة كمطرب فقط !..

... وباعد الزمن بينهما سنين ، ثم التقيا صدفة سنة ٤٤ ، فى مقر شركة بيضافون للاسطوانات بالعتبة الخضراء .. هناك اتفقا على أول عمل مشترك لهما ، فكانت اغنية « ياطول عذابى » .. على أن السنباطى لم يلحق بأم كلثوم فى قمتها ، الا عندما لحن لها «سهران لوحدى » .. وسهر الناس يسمعون أول قمة من قمم « أم كلثوم ــ السنباطى » ... وبعدها ، تتابعت القمم !



أما عبد الوهاب ، فحكايته مع أم كلثوم حكاية تروى

... والدنا الكبير الكاتب فكرى اباظة يتذكر : « أيام شبابى من الدرجة الاولى ــ فأنا الآن شاب من الدرجة الثانية ! ــ عزمنا على ما اذكر مورو باشا .. الدكتور عبد الوهاب مورو .. وكانت العزومة محندقة، والصحبة جميلة : أم كلثوم ، وعبد الوهاب ، وتوفيق الحكيم ، والمرحوم كامل الشناوى ، والمرحومة كاميليا النجمة الذرية قبل انتشار الذرة ، والتى فتنت بشفتيها حواس الرجال فى الخافقين !..

... أحلوت السهرة ، وشعشع الانسجام ، عندما مالت أم كلثوم على المرحوم كامل الشناوى وقالت له

تعاتبه : أيه رأيك فى كاميليا ؟ جمالها حرك الجبال .. وأنت ؟ !

... وتحرك المرحـــوم كامل ــ ١٤٥ كج ــ وكان رحمه الله أحيانا يتحرك !.. ورد بأبيات من قصيدة يبدو انه كان قد بدأ ينسجها فى قريحته منـــذ بدأت السهرة .. تمتم :

« لست أقوى على هواك .. ومالى

« أمل فيك .. فارفقى بحياتى .

« ان بعض الجمـال يذهب قلبى .

« عن ضلوعى.. فكيف كل الجمال ؟ !

... وصفق الجميع استحسانا لرقة الشاعر فى كامل الشناوى .. ما عدا عبد الوهاب ، الذى أعلن انه مستعد لتلحين القصيدة الآن ، قبل أن يبرد الجمال فى تعبيرها ! وتشجعت أم كلثوم فأعلنت أنها على استعداد لأن تغنى القصيدة فى التو واللحظة ، اذا لحنها عبد الوهاب ! وحصل .. وظلت أم كلثوم تغنى « لست أقوى على هواك » بلحن عبد الوهاب .. ليلتها ، سرقتنا النشوة، حتى أدركنا الصباح ! »

أن يلحن عبـد الوهاب لأم كلثوم لحنا معلنا ، أمر ظل بعد ذلك سنين « تهمة » يتبـادلها الطرفان على صفحات الصحف !.. وأصبحت التهمة « قضية » ، اخيرا حكم الاثنـان فى القضيـة ــ فبراير ٦٤ ــ وجاء الحكم : « انت عمرى » !

ولم يكن أول لقاء « كلثومى ــ وهابى » ثمرة ترتيب من أى نوع ، الا ترتيب القدر !.. فلولا ذلك الشـاب المجنون الذى « فتح » جبهة عبد الوهاب صيف سـنة ٦٣ بشقفة من فخار وهو واقف ينتظر المصعد فى مدخل العمارة التى يسكنها بالزمالك .. لولاه لما كانت « انت

عمرى » !.. لولا أن عبـــد الوهاب أصيب ، وكانت اصابته تحتــاج لجراحة « عدة غرز » ، لمـا ذهب الى مستشفى الـكاتب .. ولما زارته أم كلثوم فى المستشفى ولا أعطته كلمات أحمد شفيق كامل ، ليلد لها أول لحن لأول لقاء فنى مذاع بينهما !

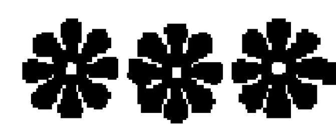
... وقد هاجت الصحف العربيــة ـ والقـــاهرية خاصة ـ تعليقا على « أنت عمرى » .. نشرت عنهــا صحف القاهرة وحدها ، فى أسبوعين فقط : ٧٥ خبرا و٣٠ مقالا وتحقيقا صحفيا !.. قال عنها المرحوم محمد القصبجى :« عمل موسيقى كبير!» وقال كمال الطويل : « بعض النـــاس كان ينتظر من عبد الوهاب معجزة موسيقية .. لـكنه قدم لحنا جميلا فقط ! » ومحمد الموجى قال أيامها : « اللحن فى مجموعه ليس معجزة.. وليس الامل الذى كنا نترقبه ! » .. وقال بليغ حمدى: « عبد الوهاب لم يفعل شيئا .. وأم كلثوم هى أم كلثوم!» أما فريد الاطرش فقد نظر كعادته الى مرآة ذاته .. وقال متضخما ! : « عبد الوهاب دعم رأيى وطريقتى فى التلحين.. وهى المحافظة على اللون الشرقى الاصيل!» بينما قال المرحوم كامل الشناوى : « هذا كسب لفن الاغنية ! »

... وتطوح عبدالوهاب بعد ذلك. فى الحانه لام كلثوم بين الاجادة والاعادة !.. الى أن جاء لحنه « هـــذه ليلتى » فى ديسمبر ٦٨ .. وقد كان ، فى اعتنــاقى ، لحنا عاديا من كل وجه وبكل قياس : موازير وتراكيب ووحدات موسيقية جميلة وغريبة .. لكنها مرصوصة ومتستفة مثل صفوف من مكعبات الاطفـــال باهرة الالوان !.. لحن . للحقيقة الفنيــة وحدها قش ! انما قش جميل براق ، مثــل القش الايطالى !.. أما

أم كلثوم ، فكانت تحت القش الطلياني ماسة مشعة بأشعة غلابة !

... عبد الوهاب أخيرا ، كانت اجمل أمانيه — والعهدة على الراوى الصديق صالح جودت ! — ان ينقل الى أم كلثوم ايمانه بالاغنية القصيرة ، ١٠ دقائق على الاكثر، من لون وطول « يا ليلة العيد انستينا » مثلا.. وأن تسجل أم كلثوم كل سنة دستة من هذه الاغانى القصيرة .. أو الاغانى « الفكة » ! عبد الوهاب أعلن استعداده لان يمون أم كلثوم ب « العدد » الذى تطلبه من مثل هذه الالحان !

... عبد الوهاب — فى كلمة — عاد الى السباحة فى بحره الضيق الذى استأنسه العمر كله ، وبرع فيه !



فى عيون أم كلثوم سر يزعجنا .. ويلزمنا بأن نقترب منه ، لنطمئن عليه !..

... رمد قديم أصاب عيون الطفلة أم كلثوم وهى فى شهرها الثانى .. لكنها نجت منه على يد طبيب من القاهرة ، بعد أن باعت أمها اسورة من ذهب كانت فى يدها ، لتفتدى بها العيون .. أغلى عيون ! ..

... بالطبع ، ليس الرمد القديم هو سر عيون أم كلثوم ، بحالتها الاخيرة.. السر يحكيه، بدقة علمية، طبيب عيون قاهرى مشهور .. يشخص الطبيب :

« غدة درقية Goitre — أصابت سيدة الغناء .. ربما سنة ٥٣ .. وكان لابد من جراحة ، والجراحة تمتزج بخطر عظيم .. فربما افقدت أم كلثوم أعز ما تملك : صوتها !.. كيف ؟ اشرح لك : العصب الرئيسى المسئول عن الحبال الصوتية فى الحنجرة ، حكمة ربنا انه يمر من خلال الغدة الدرقية ذاتها ! .. واثناء الجراحة ،

المفروض أن يقطع الطبيب الغدة من حول هذا العصب، ويبقيه مكانه حتى لايفقد المريض مع غدته ، صوته ! من هنا الخطر !..

... والذى انقذ ام كلثوم من عملية اكيدة يترصدها الخطر ، هى : الطاقة الذرية ! عولجت بها سيدة الغناء فى امريكا ، ونجحت من الجراحة ! لـكن من الاعراض المصاحبة للغدة الدرقية ، وتبقى أيضا بعد ازالتهـا بجراحة ، أو الشفاء منها بعلاج : حالة جحـوظ فى العينين ، أو ما يسمى Proptosis ، وهى الحالة التى يلاحظها الاقربون لامكلثوم.. انما ،كان يطمئننا كلنا ان مثل هذا الجحوظ لايؤثر ، الا قليلا ، على قوة ابصـار العيون .. أغلى العيون ! »

ويطمئننا الطبيب ، ويبقى استكمال ، ان أول حفلة لأم كلثوم يسجلها لها تليفزيون القاهرة فى يوليو «تموز» سنة ٦١ .. هذه الحفلة لم تذع ، أيضا لن تذاع مطلقا! والسر أن كاميرا المصـور اقتربت جدا من أم كلثوم ، وراحت تسجل بنهم كل ملمح وكل عضلة فى وجهها وهى تغنى !.. وعندما شاهدت أم كلثوم الشريط فى عرض خاص ، اعترضت .. قالت بكلمات محتجة : « ليـه المصور يهجم على بالشكل ده ، وكأنه يصور أفكارى ؟ ! لا .. لا ! » .. ثم أضافت معيارا ذكيا لكى يلتزم به المصور التليفزيونى دائما وهو يتعامل معها : «الـكاميرا لازم تقف حيث تقف قوة الابصـار العادية للمستمع العادى الذى يجلس فى أول صف » !..

... وقد كان .. من يومها ، وحتى وفاتها !

أعرف أن أم كلثوم لها فى مرآتك صورة « محبـة » ولهانة ماذا عن صورتها فى مرايا الغير ؟ ..

... عنها كان نجيب الريحانى يقول : « انها فنانة

يتجمع فيها الذكاء النادر ، والشخصية الجبارة ! وهي فنانة تؤمن – عن يقين – بأنه لابد لها أن تفوز دائما ، وأن تتفوق ! » .. لاحظ أن كلام الريحاني يرجع تاريخه للأربعينات .. يعنى فى أعقاب تولى أم كلثوم السيادة المطلقة على عرش الطرب ، بعد أن أفلست أمامها : منيرة المهدية ، فتحية أحمد ، ملك .. وغيرهن !

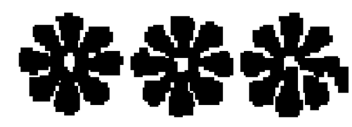
... وعنها كتبت مجلة « تايم » الامريكية تقول : « ان أسطورة أم كلثوم تكبر وتستمر منذ ٣٢ سنة ، لأنها أشهر وأقوى شخصية فنية فى الوطن العربى ، وليست هناك أية علامة على أن أم كلثوم تتأثر بالزمن .. فالعرب يؤمنون أن الايام تزيدها قوة ، وتضيف الى صوتها ولا تأخذ منه !.. وفى الشرق الاوسط هناك شيئان لا يتغيران ، ولا ينال منهما الزمن : أم كلثوم ، وأهرام الجيزة ! »

... ولقد كان لأم كلثوم صورتها فى مرآة عباس محمود العقاد ... العقاد يصف الصورة بكلماته : « انها المطربة الموهوبة التى أثبتت أن الغناء فن رءوس وقلوب ، وليس فن حناجر وأفواه فحسب ، فهى تفهم ما تغنيه ، وتشعر بما تغنيه ، وتعطيه من عندها نصيبا وافيا ، الى جانب نصيب المؤلف ونصيب الملحن ! »

... وعن أم كلثوم – الممثلة .. لا المطربة ! – قال المسرحي الكبير زكى طليمات كلمته : « انها أحسن ممثلة فى الشرق ، وليست هناك ممثلة أخرى لها مثل مواهبها واستعدادها ! » .. لاحظ أن أم كلثوم كانت من أكثر الفنانين بخلا فى الظهور على الشاشة .. فى طول حياتها ، لها ٦ أفلام فقط هي : وداد ، نشيد الامل ، دنانير ، عايدة ، سلامة ، وفاطمة !

... وقال عنها مصطفى محمود كلاما شابا : «صوت

يمشي بين الاصوات جميعها شامخا كأنه مسلة فرعونية، أو مئذنة عربية فى جامع عتيق جليل ! صـــوت فيه نورانية ، وأبهة ، وفخامة ، وخفة بنت البلد ، ودلعها ، ودلالها ، وشخلعتها ، وأنوثتها ، ومصريتها ! صـــوت يشبه جوادا عربيا أصيلا، مهر عنيد ، جموح ، منطلق!»



وأم كلثوم بنت مصر ! انها ترتبط بمصر وبالعروبة برابطة روحية خاصة .. أكثر خصوصيـــة وعمقا من رابطة كل واحد فينا بوطنه وبعروبته !.. انها أشـــبه برابطة الامومة ، أو البنوة !..

... عندما مات سـعد زغلول سـنة ٢٧ ، رفضت أم كلثوم أن تغنى فى حفل عام قبل مرور أربعين يوما.. وكانت أيامها تحيى حفلة مســــاء كل يوم جمعة من الاسبوع ! وبعد مرور « أربعين » سعد ، كتب لها رامى « نشيد سعد زغلول » ، ولحنه محمـد القصبجى ، وغنته فى أول حفل عادت به الى جمهورها بعد الحداد.. وكلمات النشيد كلها دموع وطنية ورثاء !

... وسنة ٤٨ .. حرب فلسطين الطويلة وفى معركتها الاولى .. أم كلثوم تطلب من « الفريق حيدر باشا » ، وزير الحربية أيامها ، أن تسافر لتغني للجنود على خطوط القتال .. لـكنه يرفض طلبها اشفاقا عليها من المخاطرة! لكن أم كلثوم لم تستسلم .. انطلقت تحارب ، بطريقتها، مع المحاربين.. قامت بحملة لحساب المجهود الحربى، بلغت حصيلتها أيامها ٢٢ ألف جنيــه .. أضافت هي اليها ٥٠٠ جنيه من مالها ، و ٤٠جنيها أجرها من الاذاعة عن كل مرة يذاع فيها « نشيد الشباب » الذى أنشدته خصيصا من أجل فلسطين !..

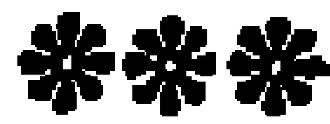
... وأثناء حصار قوات الفالوجا فى معركة ٤٨ ..

أرسلت القوات المحاصرة برقية الى القيادة تطلب أن تغنى لهم أم كلثوم فى حفلها الشهرى أغنية «غلبت أصالح فى روحى » .. ولمحت أم كلثوم ما فى مطلع الاغنية من ايحاء قد يسيء ، ففنت الاغنية دون أن تشير الى طلبها.. ثم غنت « أنا فى انتظارك » ، بعد أن طلبت من مذيع الحفل أن يعلن أنها تلبية لطلب قوات الفالوجا المحاصرة .. فكانت فألا طيبا بنجاة المحاصرين !

... وجاء عدوان يونيو سنة ٦٧ ، وانتهت المعركة الثالثة فى حرب فلسطين الطويلة بهزيمة عربية مؤلمة.. فى الايام الاولى بعد العدوان ــ سر أذيعه ! ــ مرضت أم كلثوم ، بلا مرض ! اعتلت صحتها لاسباب غيرعضوية حيرت الطبيب ! فقدت شهيتها للطعام ، وعاشت فترة على المقويات والفيتامينات ، وظلت تلازم بيتها على نيل الزمالك ، لا تزور ولا تزار ، ولا ترد على التليفون !..

... وانقضت الايام الاولى للصدمة .. وجمعت أم كلثوم نفسها لتحيل حزنها على الهزيمة الى غضب.. وغضبها الى طاقة وارادة .. واستأنفت الحرب ضد العدو : راحت ــ على طريقتها ــ تغنى ، والاجر للمجهود الحربى ! وحدت صفوف نساء مصر فى «تجمع وطنى» ونشطت تجمع المال وحلى النساء .. وفى عامين اثنين حققت أم كلثوم رقما يذهل : مليونين من الجنيهات !

... أم كلثوم بنت مصرها ، وعروبتها !



وبعد صراع مع الموت أمتد مائة ساعة ، توقف قلب أم كلثوم عن النبض وهى مسجاة فى غرفة الانعاش بمستشفى المعادى ، فى الرابعة والنصف تماما بعد ظهر يوم الاثنين ٣ فبراير سنة ١٩٧٥ .

... ماذا بعد أم كلثوم ؟ !

... سؤال يفجعنا ويجزعنا .. لأننا لم نواجه به أنفسنا من قبل .. لكن : ينبغى ان نواجهه الآن !

... بعد أم كلثوم ـ والعمر المديد لها ـ بالطبع لن ينتهى الغناء !.. قد نبتكر الوانا جديدة من الغنـاء الطويل أو القصير ، قد نطور الاغنية معنى ومبنى ، قد تصبح الاغنية دقيقة ، أو ثانية ، أوجملة مفيدة واحدة، تصاحبها جملة لحنية واحدة !.. قد تظهر أصوات ذات خصائص جديدة ، وطموح شاب وثاب الى ملء فراغ ما بعد أم كلثوم !..

... لـكننا ، أبدا ، لن نكرر أم كلثوم .. فسيـدة الغناء هى أعظم بصمة فنية على صفحة الغناء العربى.. والبصمات لا تتكرر !



أطلقوا عليها ألقابا كثيره يصفونها .. قالوا : مطربة العصر ، كوكب الشرق ، قيثارة الله ، سيدة الغناء ، معبد الحب !..

مع الـكاتب الصديق كمال النجمى :

... لـكننى اقول ، انها كالشمس التى وصفـها أحمد شوقى :

ما كلام الانام فى الشمس الا ...

انها : الشمس .. ليس فيها كلام !

... وكل ما فات من « كلام » ، لم يكن أكثر من حزمة واحدة من اشعة شمس أم كلثوم .. استطعت بعدسة البحث المتواضـعة ، أن أجمعها فى بؤرة هـذه السطور ..

... لـكن الشمس ـ بالطبع ، وبالطبيعة ـ ليست حزمة واحدة من شعاع !

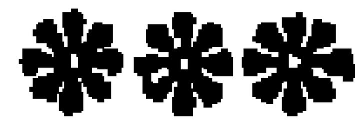
فيروز :
لماذا يسمعها المثقفون ؟

« الكسر » صعب !..

... أن تأخذ من الواحد الصحيح ثلثه ، تضعه على شريحة زجاجية تحت عدسات التأمل والدراسة .. تتشتت فى ذهنك تأملاتك ، وتختلط عليك دراستك.. فخصائص « الواحد الصحيح » ــ حتى فى علوم الحساب ــ موحدة ومشعة فى كل كسوره .. وما تستخلصه منه بمفهوم « الموافقة » ، يقودك اليه أيضا مفهوم « المخالفة » أو المفهوم المعكوس !.. بالضبط مثل الفزورة اللفظية المشهورة فى جملة « بكر معلق بقلع مركب» .. تستطيع أن تقراها بنفس المعنى من الاول للآخر ، أو من الآخر للأول !.. وقصد الكلام : أن تدرس من الواحد الصحيح ثلثه .. حيرة .. والكسر صعب !

ولقد حاولت أن أكسرها .. فيروز!.. حاولت أن أفصلها عن ثلثيها الآدميين : زوجها « عاصى حنا الرحبانى » ، وشقيقه « منصور » .. ليمتد !.. وأدخلها بعد ذلك فى عصارتى .. لكن عصارتى توقفت منى ، وفشلت المحاولة !.. فالكل فى شركتهم الفنية واحد .. والواحد كل !.. حتى « فرنشة » الشعر الكستنائى الناعم المنسدل غالبا على جبين فيروز ، تتكون من ٣ خصلات بالضبط ، سألتها : اشمعنى ؟.. أجابتنى فيروز : لكل واحد منا خصلة .. رمز وحدتنا الفنية !

عصارتى ياعصارتى .. أحتاج كسارة !.. اواستسلم لقواعد الحساب المقررة على سنة أولى ابتدائى .. ولدى فى سنة أولى لايعرف الكسور ، ويتعامل بالكاد مع « الواحد الصحيح » .. ويبدو انه لا طريق الى بنت وديع حداد واولاد حنا الرحبانى الا طريق الواحد الصحيح .. فالثلاثة ، فيما يبدو ، وحدة فنية طبيعية لا يكسرها كسار .. وقد غلب منى الحمار !



أى ثلث فيهم يتكلم ، قليل الكلام عن نفسه ، وكثيره عن الواحد الصحيح .. الثلث الاول – فيروز – يتكلم!

* زقاق البلاط .. ياحيى القديم ، أقدم أحياء بيروت وأحدثها ، أفقرها وأغناها ، فيه حوارى من البلاط القديم ، وشوارع بالاسفلت واشارات المرور الملونة ! فيه ناس تأكل لتعيش ، وناس تعيش لتأكل ، فاللذة الابيقورية لعبتهم ، وثراؤهم يسمح لهم بممارسة اللعبة ! فيه قصور لأغلب الحكام والشخصيات السياسية ، وفيه شقة مثل شقتنا القديمة ، غرفتان بالبلاط .. أجر ابى – الاسطى وديع حداد – من جمع حروف الطباعة فى مطبعة جريدة « ليه‌جور » – يعنى. النهار – التى تصدر بالفرنسية ، لا يسمح لنا بغرفة ثالثة !

تشرين ثان « نوفمبر » ٢١ منه ، سنة ٣٥ .. فى احدى الغرفتين اليتيمتين .. ولدتنى أمى ، لم يفرح أبى بابنته البكر ، فقد كان يريد ولدا .. الله أعطاه الولد من بعدى .. أخى يوسف الموظف بشركة التأمين الاهلية ببيروت .. ثم استأنفت أمى خلفة « البنات » أختى هدى شريكة فنى ، وأختى آمال خريجة مدرسة الراهبات .. لتصبح الاغلبية فى بيتنا للحريم !

* ملامحي الطيبة الهادئة .. أغاني الناعمة .. لا تضحك عليك ! بعكسها كنت في طفولتي وصباي : عنيدة ، شقية ، مقاتلة ، أظافري طويلة متحفزة دائما للدفاع ! أبي يدلل أخي يوسف ، يعطيه من حقي أكثر من حقه ! أغار، أتصنع الاعذار لأضرب أخي يوسف كل حين علقة ساخنة لاسباب طفولية صغيرة ! أجذبه من شعره وأقصه بقدمي بحركة بارعة لايجيدها الا قبضايات بيروت .. يجيء أبي ، يشيلني من فوق أخي يوسف ، يصفعني حتى تدمى شفتي ، يتساءل قلبي الصغير : لماذا يحميه أبي ؟ لماذا يعطيه من حقي ، أكثر من حقه ؟!

الآن تغيرت ، تركت القتال والتصدي للأمور لزوجي عاصي ، سلمته أظافري ! لم أستبق لي الا عنادي في فني !

* « دخيلك .. بتصـــور كتير ما بتشبع » !.. استجابت أصابع رفيقي المصور ، وتوقفت عن مداعبة وجه بنت الاسطى وديع حداد بعدسته الملونة ، عادت الى تعصر ذهنها .. : مدرسة الاناث الاولى ببيروت ، مدرستي ، مدرسة ابتدائية يعني ، درست فيها ٤ سنين فقط ، لم آخذ « السيرتيفيكا » ، الشـــهادة الابتدائية يعني .. اكذب عليك ؟ ! أخذني الغناء قبل الامتحان بشهور ! كيف ؟ بالقادم عم باحكيلك !..

شاطرة بكل شيء في دراستي ، ماعدا الحساب ، يابيي يابيي على ها الحساب! ليش الناس عم بتتحاسب؟ ليش مايخلوها على الله ؟ ! لحد يومنا لا أحفظ جدول الضرب لا أعد الفلوس الفكة ، لا طبعا .. أعد الفلوس الكبيرة بعناية سهلة !

* نصف ساعة بالاسبوع ندرس موسيقى وأناشيد، من أجل النصف ساعة كنت أتحمل هم دراستي طوال

الاسبوع ! بالبيت لا اذاكر ولا أفتح كتابا ، يكفينى ما اسمعه فى الحصص لانجح ! امضى الوقت فى لعب«الجلة» ـ يعنى : البلى ـ مع اخواتى ، او « الطابة » ـ الكرة الكاوتش ـ او اتشاجر مع اخى يوسف لآخذ منه حقى! احيانا أشتغل مع امى بالبيت ، أطبخ ، اكنس، امسح، لا .. لست طباخة لهذه الدرجة ! لا اعرف مثلا كيف اطبخ طبق « الكبة » اللبنانى المشهور.. أجيد فقط سلق المكرونة الاسباجتى ! كفايانى !

اذنى على الراديو اسمع ، أسمع ، ساعات أدندن لنفسى ، أيوه فاكره منها حاجات : « ياما رق النسيم » للجميلة الصوت ليلى مراد ، وينها ليلى مراد ؟ ؟! و «ياديرتى مالك علينا لوم» للمرحومة اسمهان، عشقت الغناء !

* ربيع سنة ٤٩ .. حفلة مدرسة الاناث السنوية، اشترك فى نشيد جماعى مع بنات المدرسة ، فاكره اسمه : « يا وطنى الاغر » ، سليم فليفل استاذ السولفيج بمعهد الموسيقى ببيروت يحضر الحفل ، يستكشف أصواتا جديدة يقدمها فى ركن الاناشيد الوطنية الذى يشرف عليه فى الاذاعة ، اختارنى مع بنتين من زميلاتى ، لا .. لا أذكر اسميهما فقد انقطعا عن الفن بعد خطوات قليلة !

« حاكى بيك يابنيتى .. ناخدك الكونسير فاتوار؟ » ده سليم فليفل ، حاكيت بيى ما اعترض .. فالدراسة فى المعهد بالمجان ! التحقت بنفس الوقت بفرقة كورال الاذاعة ، بمرتب ١٠٠ ليرة « ١٢ جنيها تقريبا » ، أيوه فتاة كورس يعنى ، صوت من ضمن حزمة الاصوات الخلفية تردد وراء اية مطربة مشهورة ! كنت ادرس أصوات المطربات وطريقة كل منهن فى الاداء .. وادرس

السلم الموسيقى وعلم الاصوات فى المعهد . كنت أريد أن أصنع من نفسى شيئا هاما .. لكنى لم أكن أتصور لنفسى – أيامها – مستقبل فيروز !

* فيروز .. لست صاحبة الاسم ! اسمى فى جواز السفر : نهاد وديع حداد ، حليم الرومى الملحن ورئيس قسم الموسيقى باذاعة بيروت هو الذى اختار لى اسمى ، الحقيقة كان سيسمينى شهر زاد .. لكن أستاذ شهر زاد اسم شايع ، وفيه مطربة مصرية بها الاسم ! واقتنع حليم واستقر على تسميتى الفنية : فيروز !

* عاصى رحبانى ليس أول من لحن لى ، أول الحانى بعد أن خرجت من حزمة الصوت الخلفية وضعها لى حليم الرومى .. من أشهرها « ياحمام يامروح بلدك » الى أن التقيت بعاصى ، لو سارت الامور بعد أول لقاء بطبيعية ما كنت .. وما كان الرحبانية ! كيف ؟ عم باعترف لك بالتو !..

أواخر سنة ٥٠ .. مكتوب من حليم الرومى الى عاصى رحبانى الملحن بقسم الموسيقى ليحضر حالا لدار الاذاعة ، حضر حليم ، قدمنا لبعض من شان يسمعنى ويعمل لى الحان ، غنيت له «ياديرتى» لاسمهان ماعجبته ! قلت له «ياحمام» قاطعنى فى نص الاغنية : « يامدموازيل» صوتك بالحاضر ما بينفع .. بدك تدريب كتير !.. بعد سنتين من الشقا والدراسة والانزواء فى حزمة الاصوات الخلفية ، جاى عم بتقول بدى تدريب كتير ؟! كرهته لحظتها وتمنيت لو أصفعه !

* تلاقينا بعدها كثيرا ، ذاب الجليد ، بدأ كل منا يفهم الآخر ويقتنع به ، لحن لى أول الحانه « حبذا ياغروب » من أشعار « قبلان مكرزل » ، سقط اللحن ولم يشتهر ! استفدنا من اخطائنا وبدأنا نبحث من

شخصية غنائية اطل بها على آذان المستمعين ، اكتملت معالم شخصيتي الفنائية سنة ٥٤ .. فى اغنية «عتاب»

حاجي تعاتبنى ؟ .. يئست من العتاب !

ومن كتر ما حملتنى ها القلب داب !

ذاعت الاغنية واشتهرت ، اصبحت اعلانا متكررا فى الاذاعة اللبنانية عن شخصية فيروز الفنائية ، وشخصية الرحبانية ـ كلمات ، تلحين ـ الفنية كانون ثان ـ يناير ـ سنة ٥٥ ، وبعد ٥ سنوات من الدراسة المتبادلة والحب .. تزوجت عاصى ، ٤ أولاد .

* دخلنا معا بستان الفواكلور ، من أشهر الاغنيات الشعبية : « يابا لا لا .. بتريد تحاكينا لا لا » و «هيك مش الزعرورة » ، ومن أشهر الاسكتشات التى أصبحت أصبحت نواة للمسرح الفنائى : « جيران القمر» و«الليل والقنديل» و « بياع الخواتم »

سكتشات » ؟.. يتدخل عاصى مصححا .. « هذا مسرح غنائى ماية بالمية » !.. ويتشتت بنا الحوار، يقول منصور : مسرحياتنا الفنائية لا تهتم فقط بالموسيقى، وانما تهتم أيضا بالحالة المسرحية ، بالدراما ، هذا يميز مسرحنا الفنائى عن الاوبريت مثلا التى لا تهتم كثيرا بالعقدة الدرامية والمعالجة المسرحية ، ولهذا انقضى عهد الاوبريت فى العالم ، اصبحت موضة فنية قديمة ! وفرق آخر بين مسرحنا الفنائى والاوبرا مثلا ، فالاوبرا عمل فنى متكامل موسيقيا ، مسرحيا لا ! الاوبرا لا تهتم كثيرا باللحظة الدراماتيكية على المسرح ، قدر اهتمامها بالموسيقى ، كلمة مثل « الى اللقاء » يستفرق القاؤها مسرحيا ثانية واحدة .. ثانيتين .. لكنها فى الاوبرا قد تمتد، وتتكرر وتتطور تطويرا نغميا موسيقيا يستفرق اداؤه ١٠ دقائق كاملة .. فى هذه الدقائق الـ ١٠ يكون

الحدث المسرحي قد تعطل تماما !

اذن ماهي خصائص مسرحكم الفنائى .. عاوز افهم؟!

يفهمني عاصي : النص المسرحي عنـــدنا يوازي النص الموسيقى تماما ويعادله من حيث القيمة والتفصيل .. الموسيقى لا تطغى على الكلمة ، وتراعى اللحظة المسرحية فلا تعطلها ، فى مسرحنا الفنائي كل عنــــاصر المسرح وادواته ، فى مسرحنا لا نستعمل الاصوات السوليست ـ المنفردة ـ على الطريقة الغربية الكلاسيكية .. وانما نستعمل فى الحوار طرقا شرقية مختلفة ومتميزة .

✻ النسبة الغالبة من سميعتك فى مصر يافيروز .. مثقفون ، اشممنى ! عندك تحليل ؟ فيروز تقول : نفس الظاهرة فى لبنان والدول العربية .. لكن خطابات كثيرة تصلنى من عمال ومزارعين وصغار موظفى الدواوين ! ولا أعرف تحليلا لهذه الظاهرة !

لـكن عاصي يعرف تحليلا : « الاطار الفنى المخلص المدروس الذى تظهر فيه القواعد العلمية ببروز.. هذا « طعم » يجذب فى رايي المثقفين الى فننا ! »

✻ تقلع أسنان الرحبانية ولا تستطيع أن تحصل على صورة بيانية لاقتصاديات فنهم ! كم تتقاضى فيروز فى الاغنية ، فى الحفلة ، فى الاســــــطوانة ؟ كم يتقاضى « الرحبانية اخوان » فى اللحن ، فى كلمات الاغنيـــة ؟ سر مالى مغلق ، يقول عاصي : « أسأل صبرى شريف مدير فرقة الفنون الشعبية اللبنانية .. يحكى لك » ! وبالمناسبة عاصي يؤلف الـكلمات ويلحنهـا ، منصــور كذلك ، احيانا يختلطان ، واحد يؤلف والآخر يلحن ، والعكس. ثلثان والثلث الثالث فيروز، ربما كانت الثلث الاول!

✻ فيروز: «بياع الخواتم».. فيلمى الاول ، بالطبع لن يكون الاخير ! لا أستطيع أن اقول ان تمثيلى فى مستوى

فني الفنائى .. وراء ظهرى اكثر من ١٥٠٠ اغنيـــة واسكتش ومسرحية غنائية . لا ، لامفاضلة كلهم اولادى!

* عاصي : عاوز تطل على فيروز فى مرايتى ؟ اوصف لك : زوجة بسيطة ، وفنانة بسيطة ، حيث لا انشغال بفنها تقعد فى بيتها لتشرف على تربية الاولاد ، لاتراها كثيرا فى مجتمعات بيروت ولياليها ، شخصية اجتماعية انما فى حدود ، لا تتميز بلازمة أو عادة ـ نسميها «تك» ـ يمكن أن تشيع ويقلدها البنات ! خجولة من الظاهر ، انما تحت خمار الخجل شخصية عنيدة ، خصوصا فى فنها ، تنازلت لى عن اظافرها منذ زواجنا .. لـكنها احيانا تستردها منى ! سـميعة ممتــازة لـكل انواع الموسيقى والغناء ، تسمع كلاســيك وراقص ، تسمع اسطوانات أغانى بكل اللغات .. طبعا لا تعرف بجانب اللغة العربية غير اللغة الفرنسية . لـكنها لا تهتم بمعنى الاغنية تهتم بطريقة الاداء .. واهتم انا ومنصور بطريقة تركيب الجمل اللحنية أو « فورميولا اللحن » !

* منصور : يصلح خبرا .. اقرأ الآن «عودة الروح» لتوفيق الحكيم ، سوف نحولها الى مسرحيـة غنائيـة نشترك مع عبد الوهاب فى وضـع الحانها وتوزيعها ، وتمثلها عناصر فنية مصرية مع فيروز .

ندرس عروضا لانتاج افلام مشتركة مع مؤسسـة السينما ، ندرس أعمال الشيخ سيد درويش ـ العشرة الطيبة ـ الباروكة ـ شـهر زاد .. وغيرها ـ بهدف اعادة توزيع عمل فنى منها أو اكثر .. لنحيى تراثنا ، ويعود الشيخ سيد الى آذاننا !

***

قلت لـ «نونو» .. اسم الدلع لنهاد على لسان زوجها .. عاصى يدلع نهاد ـ اسـمها الحقيقى ـ ولا يدلع

فيروز ، اسمها الفنى !..

* لنجاة الصغيرة رأى فى صوتك ؟ !

ـ شو بتقول ؟

* تقول ما معناه : « صوت فيروز صوت سحابى ، لا تنقصه الشفافية .. انما ينقصه طعم الارض ! ؟ »

ـ محبتى لها ولصوتها .. وتقديرى ! « ملحوظة : امتقع وجه فيروز غضبا ! »

* هل تحسين بمنافسة صباح .. هناك فى بيروت ؟

ـ صباح محبوبة جدا .. كويسة .. وايلها لونها !

* بعد غياب سيدة الغناء العربى أم كلثوم .. تعتقدين : من يمشى فى شارعها .. من يملأ فراغها العظيم ؟

ـ لا أحد .. حتى أنا !

* كيف تتصورين مستقبل فنك ؟

ـ فن الفنان مثل حجر الماس ، ينضج فى بطن الارض ببطء ، ويتغير .. واتمنى أن يكون فنى بالمستقبل أكثر عمقا ، أكثر شعبية !

* هذا عن فنك عربيا .. ماذا عنه عالميا ؟

ـ لم يجد لسانها اجابة للسؤال !.. أجاب منصور رحبانى : عندك شاعر الهند طاغور ، له حكمة تقول : « من المحدود تنفتح أمامك طاقة الى اللا محدود ! » .. ونحن بدأنا فننا لبنانيا ، أصبح الآن عربيا ، ونتمناه عالميا !

نجـــاة :
حاجات كده ..!

اعلان على يد محضر ! ..

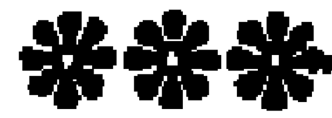
تعلن نجاة الصغيرة انها فشلت فى ان « تكبر » على لسان الجمهور ! الجمهور عاوز كده ، عاوزها «صغيرة» على طول ! تقول لحد : نجاة.. يكمل طوالى : الصغيرة .. تقول له : الصغيرة .. يقول لك : نجاة ! اللقب الذى أطلقه عليها متعهد الحفلات القديم المرحوم صديق احمد وهى على أول السلم الفنائى ، ليميزها عن مطربة الوقت والاوان « نجاة على » ، لزق فيها على السنة الناس .. ويكاد يقتحم عليها اسمها الرسمى فى البطاقة العائلية .. وبطاقة التموين !

ونجاة الصغيرة ــ ٣٧ سنة وكسور ! ــ تحس ان « الصغيرة » لقب على غير صاحبه ا.. فهى تستطيع أن تغنى الآن على المسرح من غير ما تقف على كرسى.. ليراها الجمهور ! وهى أم لشاب على ابواب جامعة كامبريدج . اسمه « وليد » ، وعمره الآن ١٧ سنة . وهى الآن والايام التالية ، تدير اعمالها بنفسها ، بعد أن استقلت تماما عن صنف الرجال !.. وقد طلبت من المذيعين ومندوبى الاعلانات ان يركزوا على اسمها فقط .. « نجاة » كده حاف .. كل هذا ، ولو !.. لا احد يريد أن « يفطمها » عن لقب « الصغيرة » !

جرى ايه يا أم وليد؟ ملاحظ انك تستعملين فى حديثك كثيرا لازمة « حاجات كده » .. نفس اللازمة بتاعة « عبــــد الوهاب » وبنفس حركاته .. انت بقيت

« وهابية » ، حتى بالقول والاشارة ؟ ! والرد جاهز : « ابدا .. أنا عند عبد الوهاب باقعد وادرس ماتعجبنيش فيه حاجات كتير .. انما تعجبني موت ادارته لفنه .. امتى يغني .. وامتى يعرض اسطوانة ، وامتى يخبيها زى الرز لغاية ماتيجى مناسبتها ! عليه ادارة !.. ومنه باستفيد واضيف لتجاربى ! » ..

... شوف بقى ازاى نجاة .. « الصغيرة » ؟ !



« ماى سـويتى » .. والترجمة « ياحلوتى » .. اسم الدلع الذى يناديها به ابنها وليد ، ماى سويتى الذ فى أذنها الف مرة من اسمها الرسمى نجاة .. قولى ياحلوتى !..

* ميلادى الرسمى لايهم غير حكيمة المستوصف التى نزلت للدنيا على يديها ! على كل ، أنا من مواليد سنة ٣٨ ، يعنى ٣٧ سنة عمرى . انما ميـلادى الفنى هو أهم تاريخ فى حياتى ، وقد ولدت فنيا سنة ٥٧ ، عندما غنيت « أسهر وانشغل أنا » ، فسهر معى النـاس وانشغلوا بفنى !

* أول حفلاتى اقمتها فى بلكونة بيتنا المطلة على ميدان الاوبرا ، وحدى فى جانب من البلكونة والنهـار بيودع الميدان ، واخواتى فى جانب آخر يتعلمون الحساب بقراءة نمر العربيات التى تمر !.. تخنقنى رغبة فى أن أغنى .. اسرسع اى اغنيـة تخطر انغامها على اذانى .. احيانا الحن ، جملة مثل « يابتـاع الدرة » اغنيها بالحان مختلفة كل مرة بطريقة ولون ، تغمرنى حالة انسجام حتى تبتل عيناى بدموعى !

* صوت أم كلثوم فى أذنى أغلب أوقات يقظتى .. فأبى لايفتح الراديو لغير اغانيها ! أخى عز الدين يدرس

الموسيقى فى المعهد ، ويعصر فى البيت أشواقه على الكمان كلما هزته أشواق ، يزهق من العزف ، فينادى سامى اخويا الاكبر منى مباشرة ، ويمرنه على السلم الموسيقى كل العائلة كانت تعتقد أن صوت سامى ـ موظف بشركة الشرق للتأمين الآن ـ هو مستقبله ! سامى نفسه لم يكن يعتنق رأيهم .. كان يتمرن على «السولفيج» مجرد أداء واجب !

فى ليلة مت من غيظى !.. وقفت فى وسط لمة العائلة وقلت : « ماهو يابابا لازم تسمعونى وتسيبكم من سامى .. سامى موش عاوز .. لكن أنا عاوزة وغاوية » ! القصد ، سمعوا لى « هلت ليالى القمر » .. طيبوا خاطرى بكلمة ، ونادوا على سامى : « تعالى بقى انت ياسامى .. يالله سمعنا كده واطربنا» ! ماذا اقول لهم؟!

* شهور قليلة وانقلب الميزان ! فقد اخى عز حاسته لصوت سامى ، ومسك فى ! اكتشف انى لا انشز ابدا، وأمشى على السلم الموسيقى دون أن أتشرف بمعرفته علميا ! اكتشف فى قدرتى على حفظ اى لحن بمجرد أن أسمعه مرة ! كلبشت فيه .. أصبحت ظله القصير كلما راح الى معهد الموسيقى !

* أحمد خيرت زوج أختى الكبيرة ، وعميد مفتشى الموسيقى والاناشيد بوزارة المعارف أيامها ، سنة ٤٤ حفلة على مسرح حديقة الازبكية ، والمناسبة ملكية ! فى الحفلة مع أطفال بابا شارو لألقى معهم نشيدا بالمناسبة. قلنا النشيد. تأخرت أم كلثوم والدور دورها وقتها . احمد خيرت ، لكى يشغل المسرح الخالى ، يطلب منى أن أطلع واغنى اى حاجة لأم كلثوم الى أن تصل ، غنيت « حبيبى يسعد أوقاته » ، بعد أول مطلع الصالة ارتجت بالتصفيق ، أصوات تناهت من آخر

الصالة : « شيلوا الـكمبوشة » .. كمبوشة الملقن ـ لشدة قصرى ـ تحجبنى عن عيونهم ! واحد من عمال المسرح يحضركرسيا ويرفعنى لاقف عليه واكمل الاغنية!

طالعة بعد الستار لقيت « الست » فى الكواليس ، حضنتنى ام كلثوم وباستنى وهى تتمتم بمزيج من السعادة والدهشة : « كل ده وانت قد كده ؟ ! آه ياعفريتة ! »

* متعهد الحفلات المرحوم صديق أحمد سمعنى وسمع عنى ، جاء يتفق مع أبى لأشترك فى عدد من الحفلات فى الاسكندرية ، بعد مقاوحة اقتنع أبى بأن يسمح لى بالغناء مؤقتا : « واهى لغاية ما تكبر شوية ويبقى عندها ١٠ سنين .. نقعدها » ! قبل أبى عرض صديق احمد ان اشترك فى ٣٠ حفلة ، الحفلة ب ٥ جنيهات كاملة .. بداية مشجعة للاحتراف !

«اليكم المطربة المعجزة نجاة الصغيرة» مذيع الحفلة فى مسرح سينما فؤاد » بالاسكندرية . غنيت سلوا قلبى . مفاجأة للجمهور .. فالقصيدة جديدة غنتها أم كلثوم مرة واحدة منذ أيام قليلة ! فكرى أباظة يكتب فى « المصور » : « مثل هذه الطفلة مهما كانت معجزة كيف يسمح لها بالسهر الى مابعد منتصف الليل ؟ ! » .. وعبد الوهاب يقول فى حديث صحفى فى مجلة « الفن » : « موهبة زى دى موش معقول تشتغل.. انى اطالب الحكومة بالحجر عليها والحاقها بمعهد لتتعلم، الى أن يسمح لها سنها بالسهر ومواجهة الجمهور» !

* خط التعليم فى حياتى خط قصير.. مجرد نقطة! لم أدخل فى حياتى مدرسة ! لكنى علمت نفسى بنفسى أبى أعطانى مفاتيح القراءة والكتابة ، علمنى « ألف باء» أخذت المفاتيح ورحت أجربها فى صفحات الصحف

والمجلات وكلمات الاغانى ، كنت أضـــع الحرف جنب الحرف حتى تنطق الـكلمة ، واضع الكلمة بجوارالكلمة حتى تنطق الجملة ! وبعـد مران قاس على صـفحات الصحف والمجلات ، انتقلت الى الـكتب ، قراءة النفس الطويل اتعبتني فىالبداية ، لكني روضت عقلي وتعودتها استمتع الآن بقراءة الـكتب النفسية الناعمة ، أستمتع اكثر بقراءة الحكم والامثال .. حكمة واحدة لبرناردشو مثلا تعطيني جانبا عظيما من خبرة عمره ، فى سطرين!

منذ ٤ سنوات وانا آخذ دروسا فى اللغة الانجليزية، المدرسة واحدة صاحبتي .. وبدلا من الدردشة بالعربى، بنتكلم بالانجليزى . استطيع الآن ان ادخل مع ابنى وليد فى حوار طويل باللغة الانجليزية !

* « نجاة الصغيرة .. نجاة المعجزة » .. معجزة ليه ؟ لصغر سنها ! لـكني كبرت ، أصبحت بنت ١٤، وتغيرت سحنتي الطفلة ، وتفاصيل جسمى ، لم أعد معجزة وانا اغنى « نهج البردة » و « ولد الهدى » . لابد أن انفطم عن ام كلثوم واصنع لنفسى شخصيـة فنائية .. لابد !

محنتى هذه شغلتنى عن بنوتيتى واحلام سنىالمراهقة اخى عز وقف بجانبى فى محنتى ، جاب لىكلام اغنية « اوصفوا لى الحب » من مأمون الشناوى ، واعطاه لمحمود الشريف ليلحنه . وانا احفظ اللحن من الشريف انتابنى احساس كسيح .. تمنيت لو أن احـدا غنى الاغنية قبلى ، لأغنيها انا وراءه ! غنيت الاغنية بربع «اسم شخصيتى ، وربع طريقة اخى عز فى الاداء ، والنصف البـاقى تقليـد لحركات أم كلثوم وايماءاتها الغنائية .. كيف اشتهرت « اوصفوا لى الحب » أول اغنياتى بعد الاستقلال ؟ انا لا اعرف !

* تزوجت المهندس الزراعى كمال منسى ، لم أستطع أن أعطى كلى لزوجى ، فنى لم يسمح ولا أعصابى ، اختلفنا ، انفصلنا بعد ٣ سنين وشوية ، لا أبدا موش تضحية كبيرة ولا حاجة .. عندى فنى . عندى وليد رجلى حبيبى . عندى الستر .. الى ان تقهرنى يوما سهام الحب العاقل وأغير رأيى .. ربما !

اتجوز عبد الحليم ؟ دى كانت اشاعة .. وده كلام ناس عاقلين برضه ؟ ! لا ، لا .. المرحوم كامل الشناوى كان مجرد أبويا الروحى !.. اسمع بقى لحد حكايتى مع المرحوم عز الدين ذو الفقار ، واسمح لى .. دى أسرارى الشخصية قوى وذكرياتى الخصوصية جدا !

* فى أواخر عمر زواجى مرت بى سنة عصيبة ، انعكست آثارها على فنى ، غنيت يجى ٣٠ أغنيــة « مختارات اذاعة » ، أغانى لا اذكر أسماءها ، أغانى زى الميه السخنة لما تشربها فى حر اغسطس ، فلا تروى لك عطشا !

كان الرجل يسيطر على وعلى فنى ، الرجل أبى ، والرجل عز أخى ، ومن بعدهما زوجى .. تحررت من سيطرة الرجل وغنيت « أسهر وانشغل أنا » ، نجحت الاغنية ، اعتبرها تاريخا لميلادى الفنى ! لكن شخصيتى الغنائية لم يكتمل لها طابعها الا فى المرحلة التالية .. مرحلة « أيظن » و « ساكن قصادى » و « الشــوق والحب حلى » و « شكل تانى » و « أنا باستناك » ... قصائد سهلة وبســيطة وتحكى حكاية .. من بســاطة قصائدى حفظهــا الاولاد ورددوها .. وقد كان مجرد الاستماع الى قصيدة فى الماضى عمــل يخص ، ويرغم المستمع على الرجوع الى كتاب « العروض » أو «مختار الصحاح » من حين لآخر ، ليتابع فهمه للقصيدة !

يقول نزار قباني فى قصيدة لى ، من الحان محمد عبد الوهاب :

تعود شعرى الطويل عليك ..
تعودت أرخيـــه كل مســاء ..
سنـــابل قمح على راحتيــك ..
تعـــــودت أتركه يا حبيبى ..
كنجمة صـــيف على كتفيــك ..
فـكيف تمل صـــداقة شـعرى ..
وشـعرى ترعرع بين يديك ؟ ! ..
... خيال ناعم ، وكلمات مثل « الغريبة » !

* لى فى السينما أفلام . أولها «هدية» ومثلته مع عزيزة أمير وعمرى ٨ سنين ، بأجر ٢٥٠ جنيها ، وثانيها وثالثها ، أفلام كده ! ورابعها « شـاطىء المرح » وقد قفز أجرى فيه الى ٤ آلاف جنيه ، بتقول شوية ؟ هم الحقيقة اعتبروا أجرى ٧ آلاف .. لأنهم دفعوا لعبد الوهاب ٣ آلاف أجر تلحين أغانى الفيلم !

* أحلل لك صوتى : صوتى ديوان كامل ، يعنى ١٠ مقامات ، مفيش النهاردة صوت أكثر من ١٠ مقامات ! والمسألة ليست مسألة مقامات بالعدد مثل الليمون ! فيه أصوات ٤ أو ٥ مقامات مثل صوت عبد الحليم ، لـكن عبد الحليم يلعب فى مقاماته القليلة بموهبة وذكاء!

من أحسن ما قيل فى وصف صـوتى كلمة لـكامل الشناوى : « انه ضوء مسموع » ! وأسوأ ما قيل لم أسمعه بعد ! رأى أم كلثوم الذى تقول عنه نشرته مجلة لبنانية منذ سنين .. قالت مامعناه ان صوتى لايميزه شىء ، ولذلك كل أغانى لون واحد !.. لـكن لأم كلثوم رأى قديم فى صوتى .. كانت دائما تقول عنه فى مجال

المقارنة بين الاصوات انه « حاجة تانية » .. وأنا أعتز برأيها القديم !

* أحلل لك جمهورى : البنات والصبيان ، الشباب من الجنسين ، الرجال والسيدات حتى سن الاربعين، ورصيدى من السيدات فى هذه السن أكبر، والمفروض العكس ! وتحليلى يستند الى خطاباتهم لى !

* لا أستطيع المقارنة ، انما أبدى لك رأيى ..

صوت فيروز : صوت سحابى لا تنقصه الشفافية ، انما تنقصه الواقعية ، ينقصه طعم الارض !

صوت أم كلثوم : قوى ، عفى الاداء ، طويل النفس، مقتدر يهضم شخصية اللحن ويطويها تحت نبراته.. ان صوت أم كلثوم شارع مقفول عليها ، لا مكان فيه للمشاة ولا راكبى السيارات وعساكر المرور ! وبعد أم كلثوم لن يجرؤ أحد على أن يمشى فى شارعها .. وسوف يبحث السميعة عن شارع آخر !

* أمشى على درب فنى ، واحدة واحدة .. تخطيطى الطموحى قصير المدى ، على قد شوفى ! أشوف النخلة اللى هناك عند الافق مثلا ، أقول : هى دى ! أوصل لها ألاقى الافق جرى بعيد عند نخلة تانية .. أواصل المشوار !



أسأل نجاة .. قولى لى ياحلوتى :

* لك فى الاندماج الفنى وأنت تغنين طريقة متميزة ، تقاطيع وجهك تمثل المعنى مع المغنى ! أسألك : ايه النغمة اللى تسلطنك وتعطيك مفاتيح الاندماج الفنى ؟

ــ مافيش نغمة بعينها .. انما فيه آلة توحى لى وتشبك بأنغامها وجدانى .. زى القانون ، زى الجيتار، زى البزق !

* والتصرف اللى « يفوقك » من حالة الاندماج ؟

ـ « قهوة ، شاى ، كازوزة ، ليمونادة ، فراولا » أصوات عمال البوفيه فى الحفلة !.. ولذلك بامنع عمال البوفيه من الظهور فى الصالة وانا اغنى !

* كيف تندمجين.. بتحسى المعنى فى المغنى وتمثليه؟

ـ المعنى ، زائد انفعال اللحن بالمعنى كما يصوره فى لحنه ، أقتنع ، انفعل ، اؤدى .. فيصدقنى الجمهور !

* بتبقى سامعة أصوات السميعة وآهاتهم ؟

ـ أسمع رنة الابرة فى الدقائق الاولى .. من صيحاتهم من طريقتهم فى السكوت وفى التصفيق باعرف أى جمهور هم ! أحيانا تلاقى جمهـور جاى « يتفرج » على نجاة ويهرج ! وجمهور جاى «يسمع» نجاة وفى أغنية بالذات .. المهم بعد دراســة سريعة فى الدقائق الاولى لازم أسيطر على الجميع .. انبسط من حتة أعيدها .. ما انبسطش انقل على طول .. لغاية ما يبقى الكل مستمع واحد !

ازاى ده بيحصل ؟ مسالة احساس .. ومران !

* لماذا تسبلين عينيك اغلب الوقت ؟

ـ عادة وحشة بأحاول ابطلها ! وان كان تسبيـل العينين يعطينى حالة من الانعزالية والتجرد تسـاعدنى على الاندماج الفنى !

* ما رأيك فى طريقة أم كلثوم فى الاندماج الفنى ؟

ـ استاذة !

* وطريقة محمد رشدى ؟

ـ بيشاور بايديه كتير ! بيقـــلد غيره فى اداء دور المايسترو للفرقة الموسيقية .. بجانب الغناء !.. اظن كلامى واضح !

* ماذا يضيف الاندماج لامكانيات الصوت الفنية ؟

ـ لايضيف شيئا .. انما يساعد الفنان على نقل اقتناعه الى الجمهور .. ومن غير اندماج يصبح الغناء مجرد القاء .. والقى زى ما انت عاوز شوف مين بقى حيسمعك !

* وحدك عندما تندمجين مع نفسك .. بتدندنى تقولى ايه ؟

ـ ادندن اى حاجة .. يمكن اردد صوت بياع .. ادندن نداءه بنبرة حلوة ينفرد بها صوتى ، وأريد أن أمرنها واعمقها !

* كيف تهيئين نفسك لليلة حفلة أو ليلة تسجيل.. لك « بروتوكول » ؟ !

ـ أؤجل كل همومى ، وعندى قدرة فائقة على هذا التأجيل ! انام ٩ ساعات فى الليلة السابقة ، وساعتين ظهر نفس اليوم ، فى اعتقادى مفيش اى حاجة تحسن الصوت ، حتى السكر النبسات بيعطش ويخلى حالة الواحدة حال ! انما فيه حاجات بتتعب الصوت ، وهذه امتنع عنها .. زى اى طعام فيه حديد : الرمان ، البرتقال ، القشطة ، السبانخ ، زى شرب الماء بكثرة قبل الغناء ، بيرخى أوتار الصوت .. والحاجات دى كلها تجربة ، وليست نصيحة طبيب !

* أيهما أصعب : الاندماج فى اغنية أمام جمهور .. ام الاندماج فى دور سنيما أمام الكاميرا ؟

ـ بالنسبة لى الاندماج أمام الكاميرا أصعب .. وتسأل غيرى تلاقيه يقول لك العكس !

***

آخر نقطة : الزمن سرق منها طفولتها ، لم تلعب « الاولى » فى الحارة ، أو تشتر « عسلية » و «دوم» من الدكانة على الناصية !.. كانت من بلكونة بيتهم

للحفلة ، ومن الحفلة لحبسة البلكونة ! ولهذا فان فى أعماقها رغبة دفينة فى أن تعتزل الفن فى وقت مبكر يسمح لها بأن تمارس طفولتها !

... لكن أين ذلك الكتف الامين الذى ترخي عليه شعرها بحب واطمئنان تلك الامسية الحالمة القادمة .. وتمارس طفولتها .. أين ؟ !

هدى سلطان :

سنتك سنة كبيسة .. يابهيجة !

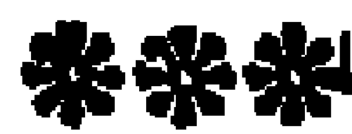
كانت سنة كبيسة « يابهيجة » .. مع انها حسب التقويم الفلكى ، لاتقبل القسمة على ٤ ! ليلة رأس سنة ٦٦ كنت يابهيجة سعيدة سعادة .. استقبلت السنة الجديدة فى ملهى من ملاهى الهرم . رقصت يابهيجة وفرحت ..

لكن السنة الجديدة لم تكد تلدأيامها الاولى ، حتى شاخت فجأة أمام عينيك .. احترقت !.. فى يناير فتحوا بطن احدى بناتك فى عملية جراحية مفاجئة . فى ابريل غضبت من زوجك السابق فريد شوقى ودخلت المستشفى تطلبين من طب الاعصاب شفاء لايقدر عليه . فى مايو : انفصلت عن زوجك بالطلاق ، بعد ١٥ سنة من الوفاق! وفى اكتوبر مات محمد فوزى.. راح منك أخوك !.. سنتك سنة كبيسة يابهيجة !

لاتكلمينى عنه ، أعرف عن علاقتكما أنها كانت «عشقا» بين أخوين !.. كنت ترقصين معه فى ملاهى الليل برومانسية زائدة ، يغار لها زوجك فى قعدته.. ويزوم! وكنت تقولين عنه أنه « واحدة صاحبتك » ، من فرط ائتمانك له على أحرج أسرارك !.. لكنى وسط الكراسى التى تطايرت فى « الخناقة العائلية » بعد موته ، لم اعرف تشخيصا لمرض فوزى الذى حمله الى العالم الآخر ؟ ! سرطان ؟.. « أبدا » ، مرض غريب شخصه أطباء لندن باسم « كارسونويد » ، يصيب النخاع الشوكى فى أسفله ، ويزحف الى أعلى ، يدمر

الخلايا. ألم فظيع كان يصرخ له فوزي كل يوم مرة ، عندما أصيب به قبل ٣ سنين من وفاته .. وفي أيامه الاخيرة كان يزوره الألم ١٠ دقائق كل ساعة ! ٣ حالات سجلتها المراجع الطبية في العالم كله لمرض الكارسونويد .. وفوزي كان الحالة رقم ٤ ! »

... وتسرح بهيجة .. تغيم عينـــاها وهي تقول ببساطة ومفاجأة : « تعرف ان الدور دوري.. أنا كمان عيانة بالـكارسونويد » ؟ !



* بهيجة عبــــد العال عبد السلام الحو ، واسم الشهرة : هدى سلطان ، اختــارته لي أختي الـكبيرة ومحاميتي : مفيدة عبد الرحمن ، وعندما اشتغلت في السينما سنة ٥٠ ، مشيت باسمي الجديد في الفن !

بيتنا بيت العائلة في شـــــــارع طه الحكيم ، حي اسكاروس قلب طنطا واقدم عمران فيها ، ١٥ اغسطس سنة ٢٥ ، يعني في اغسطس القادم أصل محطة السن الحرجة .. سن الخمسين ! اكثر من كده صراحة ؟ ! أمي تركية الاصــل . وأبي مزارع يملك ١٠٠ فــدان وكسور . بالميراث نابتني الكسور، ٧ فدادين !.. أصل أمي كانت الزوجة الثالثة والاخيرة لأبي ، تزوجها وعمره ٥٥ سنة ، وهي في الـ ١٥ ! ١٦ أخ واخت ، اشقائي منهم ٤ فقط ، أكبرنا فوزي ، الله يمتعه بالجنة ونعيمها!

* مدرســة أم كلثوم .. مدرستي ! وعيت لقيت أم كلثوم في بيتنا ، اســطوانات تدور على فونوغراف قديم ! سمعتها وشاركت أبي ولهه بصوتها. كنت أدندن معها .. أمشي مع « عرب » صوتها ـ العرب : تموجات الصوت داخل المقام الواحد ـ واتبختر بصوتي المسرسع! أبي وهو يحتضر طلب ان يسمع أم كلثوم في دور « هو

ده يخلص من الله » .. وكان صوتها هو آخر ما سمعه من الدنيا !

* الخص لك تعليمي : سنة رابعة أولى من مدرسة طنطا الاولية ! قدمت فى مدرسة المعلمات ، لكنى لم أدخلها ، قعدونى ، حيجوزونى ! كنت بنت ١٥ عندما تزوجت لأول مرة ، بلاش تفاصيل فى النقطة دى وحياتك .. أصلى باتألم !

« بمعلوماتى : دام الزواج لشهر واحد ، العريس موظف متواضع بسكة حديد طنطا ، أبو « نبيلة » بنت هدى الكبيرة ، وزوجة الضابط رائد شريف الحكيم ، نبيلة كانت معروفة فى مدرسة ليسيه الحرية أيام التلمذة باسم : نبيلة فريد شوقى ! »

* الخص لك ثقافتى : عندى عادة نهمة .. اذا اشتريت قرطاس ترمس ، قبل ما آكل الترمس أقرأ القرطاس !.. وعلى الأكل ، الكتاب قبل أى طبق !

أيام قعدتى فى البيت قبل زواجى الاول .. زبونة دائمة فىمكتبة البلديةبطنطا. قرأتأغلب روايات تشارلز ديكنز ، والمنفلوطى ، ألف ليلة ، كليلة ودمنة ، فرغت من الادبيات ، فانتقلت الى أرفف الكتب العلمية : قرأت مراجع عربية كثيرة فى الطب ، اذكر منها كتاب مارى ستوبس « أصل الامراض » !

الآن .. قراءة القصص لذتى ، طويلة ، قصيرة ، مترجمة ، مؤلفة ، مفيدة .. أو « هرش عقل » مثل مؤلفات أجاثاكريستى البوليسية !

***

* مدرسة طنطا الاولية وعمرى ٩ سنين ، بوادر فنية .. حفلة المدرسة على مسرح البلدية ، غنيت لأم كلثوم « انتى فاكرانى والا ناسيانى » ، أداء كاللحن

طبق الاصل ، مع الفارق فى الصوت ! صمتت الصالة ، بعد أن كان يختلط فيها أصوات باعة الكازوزة بقزقزة اللب ببكاء اطفال على صدور أمهاتهم ! تصفيق الحاضرين وتهليلهم زرع فى نفسى بذرة امنية : ان اصبح مطربة !

* أوائل سنة ٤٩ .. الاذاعة تعترف بصوتى كمطربة، وتذيع لى أول اغنية « حبيبى ما لقيتش مثاله » ، لحن أحمد عبد القادر ، فى القاهرة اسكن غرفة فى شقة احدى العائلات بشارع « الملكة » ، رمسيس الآن

جبريل نحاس صاحب شركة « نحاس فيلم » يعلن عن حاجته لمطربة تمثل دور البطولة فى فيلم « ست الحسن » . تقدمت للشركة . اختبار صورة وصوت فى ستوديو نحاس ، عقد بـ ٣٠٠ جنيه . أزمة مع أخى فوزى .. الله يمتعه بالجنة ونعيمها ، كان يخاف على من شوك الاشتغال بالفن !

* ٦٠ فيلما ، أذكر منها بالخير دورى فى « حياتى هى الثمن» ، عرض من ١٠ سنين . وصل أجرى لـ ٤ آلاف جنيه . لكنى من سنتها لم أدخل بلاتوه . أصلى «حرقت» زى ما بيقولوا بلغة السينما .. عملت ٦ أفلام فى موسم واحد . سقط أغلبها ، وسقطت معاه ! لكنى استفدت درسا للمستقبل : أن أقرأ قصة الفيلم بعناية قبل أن أفكر فى توقيع العقد !

* شفت لى «وداد الغازية» ؟ أول أوبريت بالمعنى . عملت قبلها « عفريت الست » و « جوز مراتى » فى فرقة فريد شوقى .. روايات غنائية .. لكن «وداد» شكل تانى ! كنت حزينة لظروف عائلية ، قلقة ومرتبكة لكنى كنت أول ما أدخل المسرح أبقى كلى وداد .. أرقص وأمثل وأغنى فى نفس واحد ! وزير

الارشاد أيامها سلم على بعد ما شـاف الاوبريت وقال لى : « احنا كسبناك » ! وأنا حاسة انى أنا اللى كسبت فن الاوبريت . عاوزة أدبله مستقبلى . عاوز أتفرغ واتخصص له . يرضيني كام واتفرغ ؟ كانوا يدفعون لى ١٠ جنيهات فى الليلة فى « وداد » .. آخد ٥٠٠ جنيه مرتبا شـهريا ، وانقطع له ! الاوبريت هو الفن « الناقص نمو » فى بلدنا !

* لى أكثر من ١٠٠ أغنيـة ، أشهرها لحن فوزى « الودع » ، فوزى كان أكثر الملحنين فهما لامكانيـات صوتى .. لحن لى ٣٠ أغنية ألحانا على قد المقاس ! مطربة والا ممثلة ؟ الاصل عنـدى الطرب .. يعنى : مطربة ممثلة !

دخلى من فنى الآن : ولا مليـم ! بأقول لك من ٧ سنين وأنا فى حالة بطالة تقريبا ! أكبر دخل لى ، سنة ٦٠ وصل لحوالى ٢٠ ألف جنيه ، ضاعت كلها سدادا لديون فيلم « بور سعيد » ! احتقر الفلوس .. أعاقبها بأن أصرفها !

* الزمن أخد منى حاجات كتير ، أخد منى أعصابى .. كنت هادئة باردة الاعصاب ، أصبحت أعيش فى توتر دائم ! كنت أنام ملء جفونى بعد دقيقـة ، أصـبحت اتقلب مع الارق كل ليلة ساعات من العذاب ، أقطعهـا بقراءة كتاب ! مريضة .. عندى آلام مستمرة فى ساقى وفى ظهرى . لم يفدنى اى علاج . قال الاطباء : التهاب فى الاعصـــاب ، وقالوا : خلل فى الدورة الدموية ، وقالوا : آلام روماتزميـة .. والحقيقة التى أحسـها وأملأ بها مخاوفى اننى مريضة بالكارسونويد ، نفس مرض اخى فوزى .. من يشفينى من مرضى ، أو من مخاوفى ؟!

* لم امر بفترة مراهقة بالمعنى .. وعيت لقيتنى فى حضن العريس .. فقد تزوجت لاول مرة وانا بنت ١٥!

* أنا ست متزوجة الآن .. لكن بعيدا عن ظروف ازمة طلاقي من فريد ، استطيع أن ارى بوضوح أسبابها الحقيقية : حرص زائد منى على كرامتى .. واساءة استعمال من فريد لحريته التى كنت أعطيها له بكرم ! واى زوج ـ أعتقد ـ فى صراع دائم بين الحلال .. والحرام ! أصل الحرام طبق متفطى ومرغوب !

* بالمعنى اللي بتقوله عن الصداقة ، عندي صديقتان: ليلى فوزى ، ونهلة القدسي . أومن أيضا بصداقة الرجل ، والرجل صديقى : جلال معوض !

* تعلمت فى مدرسة الحياة ، مدرسة الناس، تعلمت الحرص فى المعاملة والشك قبل اليقين . وان « سوء الظن من حسن الفطن » فعلا حديث شريف عالى الحكمة ! تعلمت أن الانسان كل يوم يتعلم، وانه لايتخرج ابدا من مدرسة الحياة ، الا عندما يخرج منها ! تعلمت أن أى حكم ليس نهائيا .. فالحقيقة نسبية.. والاحكام والمواقف أيضا نسبية .. اذن من الممكن دائما اعادة تقديرها والرجوع فيها !

* بناتى الـ ٤ .. أتمنى أن أسقيهن من تجاربى ما لايشل فيهن شوقهن الى تجاربهن الجديدة ، اتمنى ان اجنبهن التطرف فى أى شىء .. فالتوسط عقل .. والعقل زينة !

***

* عبيطة ، وحياة ربنا أنا عبيطة!.. فى سذاجة فلاحة ترى « البندر » لأول مرة !.. ساعات أصدق حاجات ماتتصدقش.. أول ما اتجوزت فريد ـ أول فبراير ٥١

ـ سكنا فى عمارة الشمس فى شارع قصر العينى، فريد طالع فى يوم نفسه مكروش وعرقان .. « مادريتيش.. موش عم فضل البواب ، الاسانسير نزل عليه بططه.. اتلموا الناس .. شالوه .. وبعدين اتنين مسكوه من يمة .. وأتنين من يمة .. وهب شدوه قوى.. اتعدل جسمه ورجع زى ما كان تانى ! » .. صدقت وطلعت اجرى أشوف عم فضل ازاى فردوه بعدما اتبطط ! ؟ نده لى فريد : « انتى صدقتى برضه ياعبيطة .. دانا بأهزر » !

❋ فى شخصيتى شىء من الرجولة ! .. مثلا ، ما احبش أعيط قدام حد ، حتى لو كان جوزى .. أحس ان الدموع ضعف .. وانا أكره أن إظهر أمام مخلوق بضعفى !

❋ احساسى الجوانى قوى : ان مستقبلى فى أولادى .. وليس فى فنى ! ؟



قلت لوداد الفازية ! ..

❋ الاتصال بالفولكلور المصرى « ا.ب » اتصال الفن بالجماهير .. رأيك ايه فى الاغنية الفولكلورية بصورتها الحالية ؟

ـ مفيش أغنية فولكلورية بالمعنى ، باستثناء «بلادى بلادى » لحن سيد درويش ، الذى يغنيه الآن محرم فؤاد. ماعدا ذلك ألحان خليط بين الفولكلور والهرمنة الغربية ، وليس هكذا ينبغى أن نتناول الفولكلور .. اننا نصبح كمن يأكل الملوخية .. بالشوكة !

❋ ومن يقدم الاغنية الشعبية بصورة أليق وأأصل محرم فؤاد ، محمد رشدى ، عبد الحليم ، هدى سلطان ؟

ـ محمد رشدى .. لونه الغنائى يصلح نواة لاحياء الفولـكلور !

* كيف ترين اذن أعمال المسرح الغنائى الفولكلورية؟

ـ ينقصـــها التركيز لتساعد المتفرج على استيعابها وترديدها .. حد خرج من « وداد » أو « هدية العمر » يردد لحنا سمعه ؟ ! .. واذا لم يردد الشعب فولكلوره المستنبط منه ، فهذه شهادة ناطقة بسقوط ذلك العمل الفولـكلورى فنيا !

* وشغل زكريا الحجاوى بتاع زمان ؟

ـ زكريا بعد دراسته ومعايشته الطويلة للفولـكلور المصرى ، أصبح أقدر الناس على أن يستنبع منه صورا فنية غنية .

سمعت له « أيوب المصرى » فى الراديو ، بكيت بكاء واصبحت أبكى كلما سمعت لحن أيوب .. ولو فى ملهى ولو كانت هناك راقصة ترقص على انغامه !

* لماذا تخاصم السينما أصولنا الفنية الشعبية ؟

ـ غلطة كبيرة .. مع انها نبع غنى ، واى عمـــل فنى يستوحى أصولنا الفولـكلورية نجاحه مؤكد بكل مقياس .. حتى مقياس شباك التذاكر !

* فى دنيا الفن .. أيهما أولى النهاردة بالاهتمام : الترجمة والاقتباس .. أو الاتصال بأصولنا الفولكلورية نستنبطها ونطورها ؟

ـ أن نتصل بأصولنا الفنية الشعبية .. هـــذه هى القضية .. أما الترجمة والاقتبـــــاس فلهما دورهما الثانوى !

* بين الادوار الفولـكلورية .. نفسك فى دور ايه ؟

ـ دور ناعسة أيوب ، يأسرنى وفاؤها !

* ايه فيك غلاب : شخصية بنت البلد التى ركبت القطر من طنطا للقاهرة درجة تالتة .. والا شخصيـــة الفنـــانة التى تكسب من غير عــدد ، وتلبس اغلى مما تقلع ، وتأكل من فريزر الثلاجة ؟ !

ـ أنا بنت حى اسكاروس .. طلعت والا نزلت !!

فايدة كامل:
.. في السن الخطرة!

« قولي : سين ! » .. فايدة كامل نطقت الحرف بلثغتها المعروفة ، لثغة خفيفة تبقى على حرف السين، ولا تحوله الى ثاء بالصورة الكاريكاتورية التي ترسمها لها لبلبة ، كلما قلدت فايدة على المسرح ! ولثغة السين عند فايدة لم تقفل فى وجهها الطريق الى الميكروفون، بالعكس أصبحت من علامات صـــوتها المتميزة ، ولا ينافسها فى هذه العلامة غير محمد عبـد الوهاب الذى ينطق السين ثاء وتحتها شرطة ! وفى علم الاصـوات . يقولون : « الحرف سليم .. ما دام يوصل المعنى ، ولا ينقلب بالنطق الى حرف آخر » !

ومن سنة ٥٠ الى يناير ٦٤ وفايدة تكافح فى كليـة الحقوق بجامعة القاهرة ، وشوقها فى الليسانس، لكنها عندما حصلت عليه لم تشتغل به فى وظيفة ، انطلقت فى المضـمار السيـاسى . وعنـد فايدة يمتـزج الفن بالقانون بالسياسة ، وتطلع هى بفكرة تحويل قطاع الفن من « قطاع خدمات » الى « قطاع انتاج » .. يتحقق ذلك بتصدير الفن والفنانين من القاهرة الى كل الاسواق العربية والعالمية الممكنة .. وبهذا تضمن ايرادا سياسيا ومعنويا ، فوق الايراد المنتظر من العمـلة الصعبة ! والفكرة محل دراسة ، والفكرة «تسيس» الفن ، وتستثمره دوليا فى خدمة المجتمع !

معاك يا فايدة :

* عبد الرحمن الخطيب الحلاوى، اسم جدى لوحده وابى محمود كامل ، الاسماء فى عائلتنا بالكبشة !.. أخى سليمان يحمل وحده اسم : محمد سليمان جميل ! نبقى اسمى على بعضه : فايدة محمود كامل عبد الرحمن الخطيب الحلاوى !

١٦ يولية ٣٢ ، فى بيت العائلة بشارع المحجر بالقلعة أبى كان أيامها مدرسا فى مدرسة راتب باشا الابتدائية

كلنا ٩ ، ٦ بنات و ٣ صبيان ، أنا السادسة بينهم ، فوق أختى أميرة كامل بسنتين .

* ٢٧ سنة تعليم ! قسم الروضة فى مدرسة سوهاج الابتدائية ، مدرسة البهية البرهانية الابتدائية بالحلمية أخذت الابتدائية من غير تفوق سنة ٤٢ !

دخلت السنية الثانوية والمعهد العالى للموسيقى المسرحية مع بعض فى المدرسة للظهر، وفى المعهد بعد الظهر، والليل للحفلات والافراح ، كريمة السعيد ناظرة السنية أم ومربيبة .. كانت تشفق على من المجهود فتأمرنى فى حصص الاشغال والالعاب أن أتوجه الى صيدلية المدرسة .. وأنام ! لولا رعايتها ، وفيتامينات أبله صديقة «حكيمة المدرسة» يمكن كنت بركت كالناقة فى منتصف الطريق !

توجيهى أدبى سنة ٥٠ ، ودبلوم المعهد العالى للموسيقى المسرحية قبلها بسنة ، تحسبها تلاقينى سقطت فى ثانوى سنتين ، فوق الـ ٦ سنين مدة الدراسة أيامها . يستهوينى المنطق القانونى وأنا أتصفح كتب أخى سليمان جميل الذى سبقنى الى كلية الحقوق ، وتخرج مثلى بعد ١٤ سنة ! دخلتها ، كنت قد تزوجت وأصبحت أما ، لكن أمنيتى التى ملكتنى أن أصبح

أما جامعية ، تحققت امنيتى فى يناير ٦٤ ، دراسة القانون تضبط ذهنية الانسان ، وتعطيه احساسا دائما بالامان والتوازن بين ماهو «حق» .. وماهو «واجب»!

* لم اقرأ كتبا غير مقررة ، الا فى مرحلة الجامعة ، توسعت فى القراءة عن الاشتراكية ، وعن اليوجا كفلسفة ورياضة روحية ، تعلمت من اليوجا كيف أنام كلما انتابنى ارق ! تعلمت منها معنى السعادة والشجاعة ! الاهرام والجمهورية ، الكواكب وصباح الخير .. صحافتى المفضلة !

* عمرى ٤ سنين ، على سطح بيتنا بالقلعة ، وايقاع صفيحة عسل فاضية ، اغنى لنفسى !.. لأم كلثوم .. قلت : «طال انتظارى» ولليلى مراد « ياما أرق النسيم» وغنيت لعبد المطلب « بتسألينى باحبك ليه » .. أول نبت فن !

عاوزة مراية اشوف فيها صوتى .. اذن اخرى غير اذنى .. لقيت مرايتى فى قعدة عائلية وعمرى ٧ سنين، مختار التتش – المرحوم – ابن عم والدى ، وكل اشقائى واخواتى البنات ، كلنا قاعدين فى شكل دايرة فى صالون بيتنا ، سمر ، والغناء بالدور ، عدانى الدور، صرخت ، انشلت وانهبدت ، سكتونى.. « ياجماعة خلوها تغنى.. خلوها تتسد » ! طلعت السطوح جرى ورجعت بصفيحة العسل الفاضية ، فرقتى الموسيقية ! غنيت « ياما أرق النسيم » لليلى مراد ، وجوم ، سمع هس ، تصفيق اعجاب ، ابى حضننى واخذنى على حجره بقية السهرة بعد يومين جاب لى عبده قطر وعبد المنعم عرفة وفؤاد محفوظ يدرسون لى أصول الموسيقى العربية ، ويدربون صوتى على التواشيح القديمة . أصبحت « مشروع مطربة » باعتراف العائلة !

* عازف الـكمان اسماعيل رأفت سمعنى ، قدم لى فى « معهد فؤاد » . لقيت معى فى المعهد نجاة الصغيرة وأختها .. سعاد ؟ لأ .. أظن اسمها زينب ، فى حفلة المعهد السنوية غنيت نشيد « وطننا الـكبير» ، غنيته دويتو مع أخويا عبد الرحمن ، مصطفى رضا مديرالمعهد قدم لى فى الاذاعة ، اقتنـع بى مدحت عاصم مراقب الموسيقى بالاذاعه أيامها وقبلنى مطربة بالاذاعة وعمرى ١٣ سنة ! لحن أحمد عبد القادر «فراشة حيرانة» أول أغنية لى سمعها الناس فى الراديو ، لـكن ميلادى الفنى لم يعلن الا سنة ٤٧ عندما غنيت لحن‌أخى عبد الرحمن « لياليك ياقمر» .. ياسلام .. الاغنية دى عاشت معايا فى الحفلات لغاية سنة ٥١ !

* بدأت أتجه الى النشـيد الثورى ، وثوار يوليو مازالوا بسلاحهم !.. غنيت « مايضـيعش حق وله مطالب» فى حفلة بمعهد الموسيقى خريف سـنة ٥٣ وتتابعت أناشيدى : « دع سمائى » و « حاضرب لآخر نقطة فى‌دمى». و«عادالسلام يانيل»أيام العدوان. ارتبطت بعدها بأحداث الثورة العربية . والفضل لصوت العرب.

غنيت لـ « ثورة الجزائر » و « شـعب العراق » و « البركان العربى » فى فلسـطين ، وثوار اليمن وأفريقيا ، جاءتنى خطـابات المسـتمعين من كل مكان باسم « السيدة مطربة الاحرار » !

والخط العاطفى فى أغنياتى ماشى لم ينقطع .. غنيت للبنـات « أنا فت ١٦ سنة » وكنت فتها فعلا ب ١٠ سنين ! غنيت « يا واد يا سمارة » و « أتوب وأرجع لـكم » وللسنباطى « اتصالحنا » ، فى ٢٢ سنة غناء غنيت اكثر من ٥٠٠ أغنية ونشيدا .

* أجرى فى الاذاعة ١٠٠ جنيه فى الاغنية ، فى الحفلة

ما بين ٨٠ و ١٠٠ جنيه فى القاهرة ، ومن ٢٠٠ الى ٣٠٠ خارجها ، طبعا باروح اغنى فى افراح ، انا كنت لسه سهرانة فى فرح امبارح ، ليلة الفرح فى رايى اجمل ليلة يمكن ان يشارك فيها الفنان . فى اى فرح أحس كأن الفرحة فرحتى !

* أحلل لك صوتى علميا .. مساحته ١٢ درجة صوتية تبدأ من درجة القرار « الحسينى عشيران» الى « جواب البوسلك » . والسلم الموسيقى ٧ درجات . اى ان صوتى أوكتاف كامل و ٥ درجات صوتية ، ومساحة صوتى تكفينى وتريح أى ملحن يلحن لى !

* ظهرت على الشاشة فى ٣ أفلام : « انا وانت » و « على قد لحافك » سنة ٤٩ ، و « أرض السلام » مع فاتن حمامة سنة ٥٦ . سينما تانى ؟ توبة !

* الله ـ لا الزمن ! ـ هو الذى يعطى ويأخذ ، أعطانى أكثر مما طلبت : زواج مستقر وسعيد . واولاد يضرب بهم المثل ، ومال أكثر مما أحتاج ، انا عاجزة عن حمده ، أغطى عجزى بتهجدى وصلاتى .. فانا ـ استغفره ـ من عباد الليل !

***

* فى السن الخطرة ـ المراهقة ـ كنت مشغولة بدراستى المزدوجة وفنى. وكان أبى حارسى. كان يبث فى نفسى دائما خط دفاع ضد غرائزى .. يقول لى ويكرر كلامه : « يا بنتى : كل من فى الوجود يطلب صيدا .. غير أن الشباك مختلفات » ! الحقيقة عقدنى من الجنس الآخر ، لدرجة اننى كنت كلما سمعت كلمة اطراء بريئة لذكائى او لحدائى انتفض متنمرة ، وآخذ من قائلها موقفا نفسيا عدائيا !

* لواء محمد النبوى مدير مكتب السيد ممدوح

سالم رئيس مجلس الوزراء ، زوجي . تزوجنا بالطريقة العائلية التقليدية .. بنتان : نوارة وايناس . كليـة البنات . وولد : محمود . الاورمان النموذجية . لا . الآن فى بيتنا ديموقراطية عائلية ، كل أمور العـــائلة أناقشها مع الاولاد ، والرأى الصائب للأغلبية !

* عاطفية فى البيت ، أعامل زوجي وأولادى بعواطفى وعقلانية فى الشارع ، أعامل الناس بالمنطق ، ملتزمة ، مخططة ، لا ... شجاعة برضه .. لو لقيت حرامى فى شقتى قد أقاوم عنفه بعنف ، وعندى رصيد من حركات المصارعة اليابانية .. وربما عفوت عنه اذا اشفقت عليه لظروفه !

***

معايا يا فايدة ! ..

* لكل شعب فى الدنيا نشيده الذى يترنم به فى المناسبات ، الا احنا !.. فين نشيدنا الشعبى ؟

ـ لم يولد بعد ، يمكن لمركزنا الثورى النامى المتغير .. المؤلف عاجز عن احتواء حركتنا الثورية والتعبير عنها بشمول وتشوف ! وعموما « الله أكبر » بيعتبر نشيدنا القومى مؤقتا .

* ما هى مواصفات الكلمة فى النشيد القومى .. المعانى السامقة التى تتخيلين أن يزرعها المؤلف فى صياغته للنشيد ؟

ـ أولا : ضرورى أن تتصـــف الكلمات بالتعبير القومى .. وبالعمومية والرمزية ، فلا تعبر عن حدث ثورى بالذات تفوت مناسبته ويصبح تاريخا !.. والمعانى السامقة كثيرة : الحرية ، العدالة ، الانتاج ، الاخلاص ، الاحساس بالمسئولية القومية فوق المسئولية الشخصية التضامن والوحدة ، الايمان بالله .

* ومن ترشحين لصياغة كلمات النشيد ؟

ـ قدرة صلاح جاهين !

* ومن ينشده ؟

ـ المجموعة .. وصوتى شعاع يشارك مع أصوات المجموعة !

ماجدة :
كلى عاطفة .. كلى عناد !

ألو ياطبيب . الو يامستشفى . ألو ياموزع . الو يا نقاد !.. تليفونات فى تليفونات ، وبين التليفون والتليفون مكالمة ترنك من بيروت ! البنت حالها ملا بالها وفاض عليه . وتداعت عليها الكوارث كما تتداعى المعانى فى راس مضطرب .. تلفت أعصابها ، انسلخت، أصبحت كأسلاك عارية فوق الجلد ! وفى ليلة سهر ، سابتنى لحظة ودخلت الجناح الآخر من شقتها ـ ٩٢ شارع النيل. تليفون ٨١٧٩٩٥ ـ صرخت بصوت مذبوح ، بكت بنهنهة من تغلبه ظروفه بعد أن اعتاد العمر كله أن يغلبها ، ثم سقطت فى غيبة طويلة عن وعيها!
مالك يا « فوفة » ؟

... « ماما جت لها جلطة عملت لها شلل نصفى ، وماتت الله يرحمها ! اخويا توفيق عمل حادثة بعربيته انكسرت فيها رجله اليمنى كسرين ، عربيتى الاستيشن اتدشدشت فى مصادمة ، والحمد لله ماكنتش فيها ! النقاد بيهاجموا فيلمى الجديد هجوم من يفتعل خناقة! حاسه انى لوحدى ! حاسه انى زى طور المصارعة والمتادور بيرشقه بسيوفه ! صعبان على ! » ...

وأسى حقيقى ملأ أنفها بالدموع .. لكنها ضبطت نفسها بسرعة وقدرة عندما دخلت ابنتها « غادة » وراحت تغنى لها : « ماما زمانها جايه » أغنية الصغيرة المفضلة من كثرة غياب أمها عنها .. غريقة فى عملها وحالها !

سيبك يا ماجدة من الشجن .. نتكلم فى الزمن !..
* اسمى فى شهادة الميلاد : « عفاف على كامل عبد الرحمن احمد الصباحى » . واسم الدلع « فوفة » .
تواريخ : ٦ مايو ٣٧ ، ١ مارس ٦٣ ، ١٦ مارس ٦٤ بالترتيب : ميلادى، زواجى، ميلادغادة.. تاريخ طلاقى؟ موش فاكرة !
* أول منظر ثابت فى ذاكرتى منظر بيتنا فى شارع السكاكينى ، عمرى أقل من ٤ سنين ، ساعة عصرية ، قاعدة على ترابيزة السفرة فى الصالة ، ودادة نوارة تغمس لى البقسماط بالشاى ، وأبى نائم ، والشقة هس ! ضرب الجرس ، ناس يسألون عن بابا ، ردت دادة نوارة بتعليمات هامسة من أبى : «على بيه خرج» سبت البقسماط يغرق فى فنجان الشاى وقلت لهم : « ماتصدقوهاش.. بابا جوه عندنا ! » .. أول علقة من بابا أخدتها لهذا السبب !
* بتقول : صحيح كان عندى دادة ؟ ! فاكرنى بافشر؟! لا دانا مش راضية أقول انه كان عندى « دادتين » ! أنا جدى الكبير أحمد الصباحى كان عضوا فى مجلس شورى القوانين ، كان يملك ٧ الاف فدان قطعة واحدة، كان يملك قرية بكل زمامها ، قرية مسطاى مركز قويسنا منوفية ، وكان عنده ٤٥ جارية ، و ٣٦ زوجة ، حريم! لكن العائلة تفتتت عندما اشتركت فى اشعال ثورة ١٩، بطش بها الانجليز ، وصادروا أغلب أملاكها ، يوسف الصباحى جدى لأمى نفوه الى مالطة مع الخديو عباس حلمى ! عبد القادر الصباحى عم امى شنقوه فى ميدان السيد البدوى بطنطا !
لم يصل لأبى من ثروة العائلة غير ٩٠ فدانا ، و ٣ عمارات فى الاسكندرية ، باعها كلها و « فنطز » بثمنها

فى شبابه ! وورثت أمى ١٢٠ فدانا ، لم يتبق منها الآن غير ٤٥ !

... يعنى : أنا بنت ناس !

* انفصل أبى عن أمى بالطلاق وعمري ٤ سنين ، حتى لا تشعرنى أمى بالصدمة أدخلتنى القسم الداخلى بمدرسة « جابيس » العبرية بجاردن سيتى ، كنت سمينة ، متر مربع ! تشوفنى تقول دول بيرضعونى فتة! وشعرى أسود خيلى ، كثيف وناعم مثل القطيفة ! « مدام ربيكة » مدرستى كانت تقرصنى من خدى وتقول لى : « ياقطتى » !

كنا نصلى كل صباح باللغة العبرية ، اليد اليمنى فوق الراس . وأصابع اليد اليسرى تغمى العينين. واللسان يرطن : « شماى ازرائيل ، أدوناى اليهينو ، أوناى ايخات ، باروخ تشام ، كوبول مالخوتو ، يولام بايين » آية من التوراة تشبه فى معانيها سورة « قل هو الله أحد » !

« تيتة نظيرة » جدتى لأمى غضبت منى لانى أصلى صلاة اليهود. علمتنى الفاتحة والتحيات وتسابيح الصلاة واظبت من يومها على صلاتى حتى سن ١٤ .. ثم انقطعت!

* دخلت مدرسة البون باستير. بعد ٥ سنين وصلت لشهادة « البريفيه » ، كنت «لبلب» فى اللغة الفرنسية، أما الانجليزية فكنت فيها بليدة بلادة ! كان ترتيبى دائما الثانية على الفصل ، ولولا عقدة الانجليزى كنت أطلع الاولى ! كانت أمنيتى أن أطلع محامية .. أو زعيمة نسائية كبيرة ! حققت « زعامتى » فيما بعد ـ لاشك ـ فى السينما !



* لم يخطر على بالى أن أشتغل بالسينما ، وأن كنت

أيامها من عبادها وروادها ! كانت نجومى : جنيفرجونز، أوليفيادي هافيلاند ، يحيى شاهين ، وراقية ابراهيم ، باسلام على « الاستاذة » راقيـة وهى بتقول فى فيلم « زينب » : « بكره والا بعـــده حموت يا أم .. وصيتكو اخواتى .. لما تجوزوا حد منهم ماتجوزهش غصبن عنه .. أحسن ده حرام » !

كان لى ٣ صديقات زميلات فى المدرسة ، يونانيات : كاليوبى ، فورتينيه ، زويا .. كان كل طمـوحهن أن يشتغلن فى السينما ، فى يوم قلن لى : « تيجى معـانا نروح الاذاعة علشان يشغلونا فى .. السينما ؟ ! » .. رحت معهن بدافع أن أدافع عنهن وأمهـد لهن العمل بالسينما .. عن طريق الاذاعة ! قابلنـا المذيع حافظ عبد الوهاب مدير اذاعة الاسكندرية الآن ، ضحك معانا وضحك علينا وقال : « أما تكبروا يابنـات وتخلصـوا المدرسة .. ابقوا تعالوا أشغلكم فى السينما » !

المهم ان انا اللى كنت غاوية دراسة القانون . طلعت ممثلة ! وزويا وفورتينيه وكاليوبى درســــوا حقوق فرنساوى !.. شوف النصيب !

* شافنى زكى طليمات قال لى : انت ياشاطرة تنفعى فى السينما » ! تكررت هذه الجملة على أذنى ، حتى اقتنعت بها ! اقتنعت أيضا بضرورة ان أثأر لزميلاتى اليونانيات اللاتى فشلت فى اظهارهن على الشاشة !

كان ذلك سنة ٥١ . صديقة لى من أصـل مجرى اسمها « مدموازيل سو » جارتنا فى شارع السكاكينى، عمها « مسيو سابو » صاحب ستوديو شبرا ، كان ينتج فيلم « الناصح » لاسماعيل يس ، ويبحث عن وجـه جديد لبطولة الفيلم ، قدمتنى سو لعمها ، قال :« نعمل لها تست » ، ويوم الاختبار السينمائى كان يوما !..

ملأوا شـــفتى ووجهى بالاحمر والابيض ، بنت ١٤ ، وأول مرة فى حيــاتى أستعمل التواليت ! وقفت أمام الـكاميرات لا أعرف ان كانوا يصورونى بالـكاميرا دى أو دى ! تايهة ومخيولة ! قالوا لى : امشى.. مشيت ، اقفى .. وقفت ، لفى لفيت .. تانى يوم مسيو سابو شاف التست ، عمل لى عقد ب ٢٠٠ جنيه ، ووقعت بأنى استلمت المبلغ مقدما .. بعدها قال لى : «الوجوه الجديدة خبيبى موش يمسك فلوس.. نجيب له فساتين كتير للفيلم معلهش .. مبروك عليك الفساتين » !

بدأ التصوير ، انقطعت عن الدراسة ، بعد أن حولت عنوانى الى عنوان صديقتى فورتينيه لتصل اليه خطابات الغياب ! والفرصة فى البيت لا تعوض ، فأخى توفيق فى سفر طويل ، وأخى مصطفى طالب فى كلية الشرطة ، وأمى فى مستشفى الدمرداش تجرى جراحة ورم ليفى .. كنت أخرج الى الاستوديو بالفســتان ومن فوقه مريلة المدرسة امعانا فى التمويه !

* انتهى تصوير الفيلم وقامت القيامة ، فقد عرفت العائلة ! أخى توفيق قدم فى مسيو سابو بلاغا للنـائب العام ! أخى مصطفى هدده بأن « يروح فيه اللومان » اذا عرض الفيلم قبل أن يتخرج فى كلية الشرطة ! جاء الاعمام والاخوال من قويسنا منوفية ليسووا حسابهم مع البنت المفعوصة التى « ارتكبت » فيلما سينمائيا ! حبسونى فى البيت فلم أكمل الدراسة ، أمى وحدها ، الله يرحمها ، هى التى وقفت فى ظهرى .. قالت لهم : « اللى حصــل حصــل .. وأهى زى ما كانت بتروح المدرسة تحت عنينا . تروح الاستوديو » !

ولم يعرض مسيو سابو فيلم « الناصح » الا بعــد سنة كاملة فعلا .. بعد أن تخرج أخى مصطفى فى كلية الشرطة !

* استأنفت العمل بالسينما تحت رقابة أفراد العائلة حراسة خاصة ترافقني الى الاستوديو ، تفلية دقيقة لكل عقد .. وممنوع الادوار الخليعة ، ممنوع المايوه ، ممنوع اللمس ، ممنوع أن يقبلني أحد !

اول فيلم عملته بفلوس فيلم « ليلة الدخلة » جبريل تلحمي عمل لي عقد ب ٢٠٠ جنيه ، وقبضتهم المرة دى قبل توقيع العقد !

مثلت بطولة بعض الافلام الفاشلة مثل «بين ايديك» و « دعوني أعيش » .. والفيلم الاخير كان من الممكن أن ينجح لولا جفاف قصته.. كله عن استخراج البترول!

* انجذب أنتباه الناس لي في فيلم « لحن الخلود » وفي فيلم « مصطفى كامل » كتب عني النقاد .. قال سلامة موسى في « الاخبار » : « هذه الممثلة الصغيرة الكبيرة ذكرتني بسيلفيا سيدني » !

عملت مكتب في شارع الساحة ، تليفون وسكرتيرة اسمها « سوزي » .. « واللي عاوزني يجيني المكتب» !

مثلت دورا من أصعب أدوارى في فيلم «مرت الايام» في موسم ٥٤ دور انسانة في كل مراحل العمر ، من ١٤ الى سن ال ٥٠ ! وفي حياتي الفنية أدوار أخرى صعبة ومتلونة ، أدوارى في : أين عمرى ، جميلة بوحيرد ، المراهقات ، الحقيقة العارية ، ومن أحب .

* أنتجت ، ظهرت في أفلامي وجوه جديدة أصبحت اليوم قديمة ومعروفة ، عد معي : زيزي مصطفى ، عمر ذو الفقار ، جلال عيسى ، محمد أباظة ، نادية النقراشي ، ليلى طاهر ، ايهاب نافع .. وغادة بنتي !

* التقيت بايهاب في حفلة كوكتيل في السفارة السوفييتية ، كأننا كنا نبحث عن بعضنا ثم التقينا ! تأخرت عربيتي ، عرض على أن يوصلني بعربيته الايزبيللا

السوداء ، وكانت توصيلة ! تزوجنا فى أول مارس سنة ٦٣ ، استقال « الرائد » ايهاب من القوات الجوية ليمشى معى فى شارع الفن !

... لكن لاسباب كثيرة ، تفرع به وبى الطريق .. اتفقنا ، وافترقنا !

* مسرفة جدا .. « تعليق ليس خبيثا !.. : سابتنى ماجدة لتطفىء نور الانتريه .. ثم عادت لتستأنف الحوار!» أجرى ٣٥٠٠ جنيه فى القطاع العام ١٠ و ٧ الاف فىالقطاع الخاص، عنالتمثيل فقط ، وألف زيادة للانتاج ! كنت فى فترة مدينة بـ ٥٦ الف جنيه للبنوك ولشركة مصر للتجارة الخارجية وبعض الاستوديوهات. أدفع ألف جنيه كل شهر سدادا لكمبيالات الدين ، انخفضت مديونيتى الآن الى ١٦ ألفا ! وكلام فى سرك ايجار مكتبى مادفعتوش من ٨ شهور !

... وهذا هو كل مكسبى من السينما !

* تسألنى عن مستقبلى فى السينما بعد ١٠ سنين ؟ أقول لك : بعد ١٠ سنين بالكتير سأسيب السينما وأتفرغ لبيتى ! السينما أعطتنى ، لكنها أخذت منى أعصابى وشبابى .. ولن أسمح لها أن تأخذ عمرىكله!

***

قولى لى ياقطتى ! :

* سر نجاح البنى آدم شخصيته الخاصة فى عمله وشخصيته العامة فى المجتمع. كيف صنعت شخصيتك الخاصة ، شخصيتك الفنية ؟

ـ بالاستقلال ، بالمحاولة الدائبة لصنع الجديد المعجز بالاعتماد على نفسى ، وليس على « الشلة » فليست لى أى « شلة » سواء فى الوسط الفنى أو الصحفى ! وعندما ظهرت لقيت فاتن حمامة وشادية

ومديحة يسرى يملأن الشاشة .. فكان لابد أن أصعد اليهن بشخصية فنية جديدة تفسح لى معهن مساحة على الشاشة !

* وامتى بالضبط شعرت باكتمال شخصيتك الفنية ؟

ــ فى فيلم « مرت الايام » .

* بعد كم سنة من اشتغالك بالفن ؟

ــ ٣ سنين .

* تعتقدين : لك مدرسة ؟

ــ مفيش كلام !

* مدرسة ايه ؟

ــ مدرسة الادوار الصعبة !

* ما وجه الشبه والتماثل بين فنك وفن فاتن حمامة ؟

ــ ... ان كلا منا على القمة !

* فيه فرق بين صوتك وانت تتكلمين معى .. وصوتك وانت تمثلين ؟ !

ــ أبدا .. الصوت واحد .. فقط فى أدوار الدراما الحزينة .. يتهدج صوتى وتظهر فيه بوضوح «بحته» المعروفة !

* ومن شخصيتك الاجتماعية : عصبية أنت .. ام باردة الاعصاب ؟

ــ عصبية جدا ! لو زعلانة منك اقاطعك ولا اتعامل معك ، ولو كنا انت وانا وحدنا على جزيرة !

* ... عاطفية أم عقلانية ؟

ــ كلى عاطفة . كلى عناد . طفلة كبيرة » كما كانت تقول لى امى !

* ... كم فيك من الذكاء ؟

ـ ...ما يكفى ليحسدنى عليه الناس ! عندى شغال اسمه سالم ، جاى من الصـــعيد ، من بلد اسمها سمصطا . طلب منى أن اشغله فى البوسطة . قلت له طيب أقعد لغاية ما القى لك شغل.. وكان يتصور ان من الممكن أن أشغله ـ بالتليفون ـ على بال ما يشرب القهوة ! المهم قعد سالم ، وكل ما التليفون يضرب يرد عليه ويقول : « أنا ســالم ، اللى جاى من سمصطا ، علشان أشتغل فى البوسطة ، ستى قالت لى اقعد هنا لغاية ما القى لك شغل .. مين حضرتك بأه ؟ ! »

... ساعات أسمع سالم بسذاجته وبراءته ، اقول لنفسى : ياريتنى كنت سالم !

* ... وكم فيك من الـكبرياء ؟

ـ ... لحد الضرر ، وضيــاع المصلحة ! ان دينى كبريائى !

* ... ومن الارادة والايجابية ؟

ـ ... ما كفانى لأن أكون من أردتها ، منذ اشتغلت بالفن !

* ... ترضين لابنتك « غادة » بصمة طبق الاصل من شخصيتك ؟

ـ ... انى أتمنى لها شخصيتى ، لـكنى لا أتمنى لها مهنتى !

سعاد حسني :
يتيمة .. فى بيت بابا وماما !

نقطة بنقطة .. كأنها حنفية ماء مغلقة .. تحدثك سعاد حسنى عن أيام صباها ! عيناها الواسعتان الجميلتان مسبلتان ، والاصابع العشر الدقيقة فى يديها تغطى وجهها وعينيها .. جو من يتذكر أحداث بئر الماضى .. وربما كانت تصطنع لنفسها ظلمة كظلمة أحداث البئر البعيدة !

لكنها لا تلبث أن تحس انها كشفت لى من أحداث البئر المظلمة أكثر مما ينبغى ، أكثر مما يصح فى تقديرها العاطفى الطيب أن ينسب اليوم اليها ! فترفع أصابعها، وتواجهنى بعينيها الطحينيتين ، وتقول برجاء : «ماتخلى التفاصيل دى لقعده تانيه .. أقله أكون سألت ماما .. انا كنت لسه صغيرة خالص » !

لكننى أحاورها أداورها . وتستسلم سعاد، وتعود فتصنع بأصابعها « شيشا » أمام عينيها المسبلتين ، قبل أن تغرق فى البئر وتواصل الحديث !

وفى بئر ماضيها ـ الصراحة ـ نقطتان تتحرج منهما سعاد ويحمر وجهها خجلا .. ظروف اليتم المقنع التى عاشتها فى بيت أمها بدون أب .. أو فى بيت أبيها بدون أم ! فقد انفصل الزوجان بعد أن أنجبا ١١ ولدا وبنتا. وكانت البنت فى الخامسة من عمرها ، عندما افترقا كل فى بيت وحياة . وظلت ٨ سنوات تتنقل بين البيتين ، كالعرب الرحل ، تنقلت بالضبط ٨ مرات ، لكل مرة

فى ذاكرتها « قرصة » ألم ! لـكنها لا تنكر أن ضياع الصبا وآلامه كانا هما الوقود « الجاف » الذى دفعها فى رحلة النجاح ! كيف ؟ هـذا تفصيـل آخر تقرؤه تاليا !

ونقطة الحرج الثانية فى بئر ماضيها هى نصيبها من التعليم ! من فى مثل هذه الظروف التعيسة يواصـل تعليمه بنجاح ؟ ! بيت أبيها الخطاط الفنـان المرحوم محمد حسنى ، يقع فى كعب سينما أوبرا ويطل باستحياء على الميدان الـكبير ، وبيت أمها هناك فى نهاية شـارع السكاكينى . وحسب موطنها بالطبع . تتغير المدرسة ! تنقلت من مدرسـة لمدرسة ٨ مرات ! هـذه الظروف القلقة لم تسمح لها بأن تصل فى دراسـتها أبعـد من الابتدائية ، لـكن عباس العقاد ـ صاحب الـ ٧٤كتابا ـ لم يذهب فى دراسته أيضا لأبعد من هـذا الحد ، وأم كلثوم وعبد الوهاب كذلك ، أو دون ذلك ! ومافات تحصيله فى المدرسة يمكن بالجهد والارادة تحصيله فى عرض الحياة !

فجأة .. تسعد سعاد وهى تستعيد آلام ماضـيها الحزين ، تضحك وهى تتذكر ، ربما لانها اليوم بمنجاة من هذه الآلام ، وربما لتؤكد لى بواقعية صدق الحكمة الانجليزية القديمة التى تقول : « هناك آلام مرة ونحن نعانيها ونتحملها .. لـكنها تصبح حلوة عندما نتذكرها ! »



قولى يا سعاد .. قولى :

* أنا بنت حرب ! جئت للدنيا فى عز الحرب ، فى ٢٦ يناير سنة ١٩٤٣ .. يعنى يوم ٢٦ يناير هو عيد مولدى ، هو أيضا يوم حريق القـاهرة ! وقد وعيت يوم احترقت القاهرة ، لـكنى لا أتذكر شيئا بالطبع عن الحرب الثانية . وكلما احتفلت بعيد ميلادى ذكرنى لهب

الشموع بلهيب النيران ترتفع فى سماء القاهرة ، فى ميدان الاوبرا ، وبيتنا المطل على الميدان ـ بيت أبى ـ ينكمش كأنه يخشى النار ، وأختى كوثر تصنع لنا لقمة القاضى، تقليها على نار غير النار ، ثم تبيعها لى ولاختى سميرة الطبق بمليم ! شغل عيال !

* تسألنى عن أقدم ما فى بئر أيامى ؟ لا أتذكر شيئا بالضبط ، آه .. تذكرت الآن حادثتين .. الاولى فى ساحة قصر كبير ، ربما كان قصر عابدين ، سرادق كبير ، أكبر سرادق شاهدته فى مأتم أو فرح فى حياتى ، لكنه كان فرحا ، بدليل اننى كنت هناك لأغنى ! لعله كان احتفالا بعيد جلوس الملك ، أو عيد وقوفه .. لا أذكر! المهم اننى جئت مع أطفال بابا شارو ، سيارات ، جنود فى أزياء ملونة ، سيدات على أكتافهن فراء ، ورجال بالطرابيش وملابس السهرة الغريبة وعلى عيونهم «مونوكل» .. لكنى لم أر الملك ! وتأخرت بنا السهرة ، فرحت فى نوم عميق وأنا جالسة على كرسى صغير وراء الكواليس، وأفقت على أنامل تربت على وجهى لأستيقظ ، كان دورى ، فقمت الى التخت المنصوب لأواجه هذه الوجوه الغريبة ، وأغنى ، ويبدو أنهم طربوا لى ، فقد صفقوا .. صفقوا طويلا .. فزعت من تصفيقهم ! ولست أدرى لماذا تصورت اننى ارتكبت خطأ ما يستوجب هذا التصفيق فبكيت من الهلع بصوت مسموع ! .. وجاء بابا شارو ليحتضننى ويهدىء من فزعتى أمام الناس ، فيزداد تصفيقهم ، وتزداد حدة بكائى .. ثم ينسحب بى الى ما وراء الكواليس لأجد فستانا جديدا وعلبة شيكولاتة فى انتظارى ، قطعة منها ملأت بها فمى ، فألهتنى عن مواصلة البكاء !

والحادثة الثانية بعدها بعام ، كان عمرى وقتها أقل

من ٥ سنوات ذهبت الى الاذاعة لأغنى فى برنامج بابا شارو ، وقفت على كرسى أمام الميكروفون ورحت اغنى على الهواء : «طولى شبر، وجهى بدر، صوتى سحر، كلى بشر » ! وقد كان طولى أيامها شبرا بالفعل ، شبرين على الاكثر ! انبسط لأدائى أحمد خيرت مؤلف الاغنية وملحنها ، فأعطانى « كبشة من الملبس » ، وعدت الى البيت لأجد أمى تجمع ملابسها وملابس اخوتى فى حقيبة قديمة ، وفى عينيها دموع ، بينما الغضب يسيطر على وجه أبى وهو ينفلت خارجا من الشقة و « يرزع » الباب وراءه بعنف !

... غادرت الشقة مع أمى واخوتى فى طابورطويل، تتقدمنا حقيبة الملابس القديمة ، سكنا فى شقة بشارع السكاكينى ، عرفت فيما بعد ان أبى طلق أمى ، افتقدت عروستى الصغيرة التى نسيتها فى بيت أبى ، وصديقاتى الصغار من بنات « الحتة » !

* تزوجت أمى ، نشب بينها وبين ابى نزاع حولنا كل اخواتى عادوا الى بيت ابى ، وبقيت وحدى مع امى وزوجها . دخلت احدى المدارس الابتدائية القريبة من البيت بعد عامين صحبتنى امى فى زيارة لابى . يبدو انها كانت قد اتفقت معه على ان اعيش هناك مع الاولاد.. فقد انتهزت فرصة انشغالى باللعب معهم ، وتسللت خارجة من البيت . بكيت بحرقة . ثم نسيت كل شىء بعد قطعة « كنافة بالصنيبر » قدمتها لى اختى كوثر !

*بعد اشهر استردتنى امى . وبعد عام استردنى أبى ! تنقلت ٨ مرات فى ٨ سنوات بين البيتين . وسحبت أوراقى ٩ مرات من مدرسة لمدرسة ! كنت عند أمى عندما مرضت بالحمى . اخذنى ابى من المستشفى بعد ان تماثلت للشفاء واستطعت ان امشى دون ان « اتمكز »

على أحد !.. لكن الحمى تركتني جلدا معلقا على شماعة من عضم !

*تزوجت اختى نجاة من « ابوطفلها » كمال منسى . استعدت عافيتي وبدات حيوية « بنت ١٤ » تتدفق فى جسدى وتملؤه بالدوائر ! كنت فى زيارة لامى عندما انتحت بى على جنب وسالتني : « تحبى تقعدى معايا هنا يا سعاد ؟ » .. اجبتها : « ياريت ياماما ! » ..



*صيف سنة ٥٧ .. الفنان عبد الرحمن الخميسى صديق خالى . كان مطهوما بتكوين فرقة انصار التمثيل المسرحية . دعاني لاتفرج على البروفات . بهرنى المسرح كنت أقف وراء الكواليس وأعيد أداء بعض المشاهد التى شفتها . لمحنى الخميسي ، خبط جبهته وقال : « هايلة .. فيك صدق فنانة لها مستقبل ! » .. ضحكت ولم اصدق ! اعطانى نص رواية هاملت تحفة شيكسبير وطلب منى ان احفظ دور « أوفيليا » . عشت الدور وحفظته عن ظهر قلب ، لكن الفرقة فشلت لعدة أسباب قبل أن ترتفع لها امام الجمهور « ستارة »!

*مسلسلة الخميسى الاذاعية « حسن ونعيمة » .. اخذها المخرج بركات ليخرجها فيلما لحساب شركة صوت الفن . كان بركات يبحث عن وجه جديد يمثل دور نعيمة فيصدقه الناس .. كانت وجهة نظره ان أى ممثلة مشهورة تمثل الدور ، سيقول الناس : « دى فلانة .. موش نعيمة ! » .. وهو يريد أن يقدم لهم نعيمة الفلاحة الساذجة المفرمة التى تعطيهم احساسا بأنهم يكتشفونها لاول مرة ! .. رشحنى الخميسى للدور:

* دخلت ستوديوناصيبيان ليجرى لى بركات الاختبار المشهور .. لحظة يحس فيها الوجه الجديد انه يملك

خاتم سليمان ، أو لايملك شيئا بالمرة ! طلب منى وأنا امام الكاميرا أن أقول « سى حسن » بدرجات متفاوتة من الخجل .. قلتها ٣ مرات .. فى المرة الثالثة طلعت منى وانا أذوب خجلا بالفعل ! كنت احس انها فرصتى اليتيمة .. وان من ورائى ظروف يتمى المقنع فيما بين بيت امى وبيت أبى .. تشبثت بفرصتى كالغريق .. ولم أعرف انى نجحت الا وصوت المخرج بركات يقول : « برافو.. انت موش عاوزه تست . انت عاوزه عقد تمضيه حالا » !

*طلب الفنان محمد عبد الوهاب أن يرانى . زرته فى بيته بصحبة بركات . قال لى : « تعرفى تغنى ياحلوة ؟ » .. غنيت له « كل ده كان ليه » . انبسط قوى وقال لى : « ابقى غنى لنفسك كتير .. انت مستقبلك كبير» . عبد الوهاب يعتبر التمثيل « غناء » للمواقف الدرامية . وهو يحكم على وجوه التمثيل الجديدة بطريقتها فى الغناء !

*وقع معى بركات ٣ عقود الفيلم بـ ٢٥٠ جنيها فقط طلبت منه أن يختار لى اسما جديدا ، لكنه لم يجد اسما أرق منه .. سعاد حسنى ، اسمى الحقيقى .. فأبقيت عليه ! دخلت ستوديو ناصيبيان لأمثل دور نعيمة . جاءت فاتن حمامة لتعمل دوبلاج فيلمها « بين الاطلال » سلمت علينا كلنا ، ودخلت صالة العرض لتنفذ المهمة . انتهزت فرصة استراحة قصيرة وتسللت وراءها . استفدت منها ـ دون أن تدرى ـ درسا كبيرا فى فن الدوبلاج !

*بركات احتكرنى بالعقود الثلاثة ، وانشغل بفيلم « دعاء الكروان » . استأذنت منه ومثلت دورا صغيرا ـ ٥ دقائق ـ فى فيلم « ثلاثة رجال وامرأة » . مثلت

بعده دور اخت عبد الحليم فى فيلم « البنات والصيف » كتب عني النقاد يقولون : « وجه مصرى مريح يدخل القلب ، فيه مميزات فاتن حمامة الفنية ، لكنه يؤدى باستقلال ودون تقليـد ! » .

تهافت علي المنتجون ، مثلت بطولة ٨ أفلام فى سنة واحدة وحوالى ٩٠ فيلما ، فى ١٨ سنة فن ! من أعز أفلامى : « صغيرة على الحب » وهو فيلم استعراضي غنائى اغنى فيه لأول مرة ، وفيلم « القـاهرة ٣٠ » وقد عرض فى مهرجان كارلو فيفارى سنة ٦٧ .

اعتبر « خلي بالك من زوزو » و « أميرة حبى أنا » ميلادا جديدا للفيلم الاستعراضي .. رأيك انت ايه ؟ !



أقول لك يا سعاد :

* ما الذى أعطاك مفتاح الشاشة الفضية : جمالك أو موهبتك أو صلاتك الشخصية الناجحة ؟

ــ سذاجتى ! كان كل المطلوب منى فى فيلم « حسن ونعيمة » أن أكون صغيرة وساذجة ، وقد كنت صغيرة وساذجة بالفعل ! يضاف الى ذلك صـدق احساسى الفنى .. فقد تربيت فى بيوت قلقة لـكنها عامرة بالفن أختى سميرة كانت ترسم ، ونجاة تغنى ، وأبى ينافس بجمال خطه حروف الطباعة !.. يضاف الى ذلك آلام صباى التى دفعتنى الى أن احقق ذاتي واصبح شيئا ، اذا كنت قد أصبحت بالفعل شيئا ! وتشجيع عبـد الرحمن الخميسى لي.. كان يقول لى : « انت احساسك مضبوط زى القهوة اللى باشربها ! » .. وحكمة قديمة قرأتها لسعد زغلول ، فيها يقول : « اذا قيل انك نابغة .. فدع الراحة ! »

* كل بنت تحلم بالستارة الفضية ، تكهربها الفكرة خاصة فى سنوات المراهقة .. ثم يتبـــدد الحلم مع انحناءات نهر الحياة ، وتقنع البنت فى الآخر بستـارة شباك فى بيت زوجية من صنع النصيب ! كلمى البنت بمنتهى الصدق النفسى ، عن أسلحة الطريق الى الستارة الفضية ومتاعبها ؟ ..

ـ هناك الاساس : موهبة . واحســاس فنى .. بمعيار : ان لـكل فعل عند الانسان رد فعل قد يكون أكبر من الفعل ، أو أقل منه ، أو مساويا له تماما ، والانسان الذى يقابل الفعل برد فعـل أقل أو أكبر ، لا يصلح للتمثيل ! الموهوب فنيا هو الذى يعطى الفعل رد فعل مساويا له .. بالمقاس ! يعنى اذا قرصـتك الآن ، فأنت لست فنـانا اذا لم تحس القرصة .ـــ. او اذا وقفت مفزوعا وصرخت بأعلى صوتك .. ولكنك فنان أكيد ، اذا رسمت على وجهك تعبيرا معقولا فيه مزيج من الالم ، والدهشة ، والتساؤل !

وهنـــاك الطريق : اذا أحست البنت انها موهوبة صادقة الاحساس بالمعيار السابق ، فعليهـا أن تجرى وراء الفرصة ، ولا تنتظرها ! .. أنا ذهبت الى مسرح الخميسى ، ولم ينتقل مسرح الخميسى الى بيت أمى ! عليها ان تتقدم لمخرج تليفزيون أو سـينما ، وأرشح لها من مخرجي السينما بركات ، وصلاح ابو سيف ، فاكتشاف الوجوه الجديدة فى دم الاثنين هواية ! وليس شرطا أن تكون جميلة ، حتى القبح له أدواره على شاشة السينما ! وأى أجر واى دور فى البداية لايهم ، المهم أن تتشبث بفرصتها وتؤديها بصدق ونجاح !

... ثم عليها بعـد ذلك أن تدرس النـاس وتعيش مشاكلهم ، الناس هم مادة الحياة ، والحياة مادة الممثل!

وعليها أيضا أن تشاهد أفلاما كثيرة وبانتظام .. وأن تقرأ !

* وماذا قرأت أنت ؟

ـ في الاول قرأت كتاب «اعداد الممثل» لدستويفسكي

* تقصدين ستانيسلافسكي ؟ !

ـ بالضبط .. أصل اسمه صعب !.. وكتابه يقوم على أصول مسرحية معقدة .. قرأته فأحسست انى « ولا حاجة » وانى لن أكون في المستقبل شيئا ! قرأت بعد ذلك سلسلة وزارة الثقافة عن فن السينما ، لم أستفد منها ، فهي تصلح للهواة المبتدئين !

انفتحت بعد ذلك على قراءة الادب . قرأت أعمال نجيب محفوظ ، وتوفيق الحكيم ، واحسان عبد القدوس ، أقرأ أحيانا الروايات البوليسية ، وأواظب دائما على قراءة الصحف والمجلات القاهرية والبيروتية.

* وأنياب الذئاب الجائعة في الوسط الفني ؟

ـ اى طمع جنسي في بنت تشتغل بالفن ممكن أن يقف عند حده بكلمة جادة ، ولا احد يستطيع أن يأخذ من المرأة شيئا ، غصبا عنها ! والممثلة التى تعتمد على هذه الوسيلة القذرة لتصل ، ليست فنانة .. تبقى « حاجة تانية » !

* والشلل التى أصبحت في الوسط الفني قاعدة ونظاما ؟ !

ـ لكل قاعدة استثناء !

* قولى لى : استطعت أن تنتزعى لنفسك مساحة كبيرة على الشاشة .. أيهما أصعب : الحصول على مساحة من الشاشة .. أم المحافظة على هذه المساحة؟

ـ المحافظة على النجاح أصعب بكثير من الوصول اليه !

* حدثيني عن آلام البنت المصرية ؟

ـ تاه منها الطريق ، أخذت حقوقها فى القانون ، فى الواقع لا ! الديموقراطية موجودة كنظام يسود المجتمع .. ربما .. لكنها مفقودة كنظام يسود العلاقات المنزلية ! ما زال الرجل هو السيد . ما زالت البنت تخطىء فتفقد عذريتها .. ويخطىء الرجل فلا يفقد عذريته ! مازال الشاب يمارس الجنس لسن متأخرة ، ثم يتزوج ، بينما تتردد البنت ألف مرة قبل أن ترتكب « الحرام » !

* كما تفهمين .. ما معنى الحب ؟

ـ الحب ليس وصفا ، الحب معاناة ! هل يستطيع أحد أن يصف بصدق شعوره ورصاصة تدخل قلبه؟ !

* افتحى قلبك .. حبيبك : من هناك ؟ ..

ـ لا أحد ، حتي شوف ! وحكاية عبد الحليم معى اشاعة قديمة عديمة الاساس . وقد يحدث أن يميل قلبى لأحد ، ثم لا يلبث أن يستعيد توازنه بفعل مشاغلي اليومية .

وصدقنى : لا وقت عندى الآن للحب !

... اسابيع ، وانتهت حكاية سعاد حسنى مع المصور صلاح كريم ، لم يكن حبا ـ تقول سعاد ـ ولم يكن زواجا .. مجرد علاقة فشلت قبل أن تنضج !

... شهور ، وتزوجت سعاد المخرج الشاب : على بدرخان .. ولو أنه يؤكد أنه هو الذى تزوجها !

نادية لطفي :
طبيعة امرأة .. وأخلاق رجل !

ضحكتها تتعشق !.. تتدفق بسخاء وصفاء .. طويلة وممدودة ومسترخية كعجينة العسلية في يد الحلواني !.. متكررة لدرجة انها تضحك بين الضحكة والضحكة .. عصبية حتى ليخيل اليك انها تغطى بضحكتها صراعا داخليا حادا هادر الصوت .. أو انها تضحك بدلا من أن تصرخ !.. لكن ولو .. ضحكتها تتعشق !

وسرها في صدرها ، تتنفس ، لكنها لا تبوح بسرها .. حتى ولا لصديقة مخلصة تنكشف عليها عادة وهى في الحمام ! عاوز تنرفزها اسألها عن جوانيتها ، عن خفق قلبها .. تختنق على لسانها العبارة ، وتسقط على اجابة السؤال شيشا محكما وسريعا كشيش الكاميرا .. وتقول لك بتوحش : اللى جوايا ملكى أنا .. أتنازل للغير عن ملكيته علشان ايه ؟ !

وأعصابها سايبة كمفاصل حرامى متلبس بجريمته ! تثيرها كلمة فتجز على أسنانها ، أبى عندما يغضب كان يفعل مثلها ! لكنها تبدو في غضبها كقنبلة جميلة ونظيفة تقتل بدون ألم ! حيرتها في أظافرها ، تقضمها اذا داهمها موقف مثير للقلق ! عنيدة ومتمردة .. تهرب من الضرورى والملزم .. وتستجيب للاختيارى بشهية واخلاص ! لسانها موصل ردىء ، لا تجيد التعبير به عن نفسها .. ياصعوبة مهمتى وانا أتذوقها بطرف عقلى ، لأنقل لك الآن مذاقها !..

يا نادية لطفى .. ؟

* نعم.. دلوقت اسمع الاسم أرد عليه! ماعندكش فكرة .. أصعب شيء أن تغير الواحدة اسمها .. تطلع من جلدها وتلبس جلد واحدة ثانية ! « بولا محمد شفيق» اسمى الحقيقى ، واسم الدلع « بومبى » . لم يهمنى اسمى الحقيقى وأنا أخلعه وألبس اسما جديدا. انما صعب على اسم الدلع ، أحسست وأنا أغير اسمى أن أيام الدلع راحت !

أول اشتغالى بالسينما ـ التفاصيل بعدين ـ قعدت مع رمسيس نجيب ونيازى مصطفى نبحث عن اسم عربى .. بولا اسم خوجاتى خالص ! قالوا ليلى؟ قلت لهم : مراد .. قديمة ! قالوا : سميحة ؟ قلت لهم : أيوب ! فكرت شوية خطر لى اسم « نادية لطفى » بطلة قصة احسان عبد القدوس « لا أنام » .. الاسم رنان وناعم وبدأ يشتهر بعد أن نشر احسان القصة ، ومثلت فاتن حمامة الدور فى الفيلم.. قلت لهم : نادية لطفى ؟ قال رمسيس نجيب : حلو قوى يا .. مدام نادية !

« مدام نادية .. خلاص حنصور يامدام نادية » .. يزعق نيازى مصطفى فى بلاتوه ستوديو نحاس ، وأنا أصور أول مشهد فى أول أفلامى.. أسرح والا أرد ؟.. واحدة صاحبتى كانت معايا فى الاستوديو قالت لى : « الحقى يابومبى .. بينادوا عليكى » قمت على البلاتوه جرى !

ماذا يأسرنى فى اسم « بومبى » .. مع انه اسم كلبة لولى عند واحدة صاحبتى ؟ !

* ما تحاولش .. ده سر ! » .. « تبقى عديتى الـ ٣٠ بسنين » .. « طبعا .. أنا من مواليد ٣ يناير سنة ٣٨ » .. « أهو انتى كشفتى السر ! » .

* أبى محاسب قانونى ، حاسب فلم ينجب غيرى ! طفولتى الاولى فى بيت العائلة شـــارع فارسكور بمصر الجديدة ، فى حديقة البيت ألعب أغلب النهار ، وكلب وولف قد النمر يحوم حولى ويحمينى !

* ٤ سنين عمرى .. دخلت مدرســـة « نوتردام ديزابوتر » . سمينة قد فيل صغير ، البنات ينادوننى بتريقة مؤلمة « ترونجة هانم » .. أضحك معاهم على نفسى وأنا نفسى اعيط ! لبس الراهبات الابيض فى اسود كان يثير فى نفسى رغبة خبيثة فى الضحك . أعجز عن كتم ضحكتى أثناء الحصة فتشخط فى « السـور » « باولا .. آجونو » .. اطلع بره الفصل واجثو على ركبتى لآخر الحصة !

وكنت رغاية .. لدتى أن أكلم جارتى « والسور» تتكلم وتشرح ... اشمعنى هى بترغى ؟ ! وتصطـادنى اذن«السور»بحساسية رادارصواريخ.. تعاقبنى بواجب منزلى ، أكتب فيه بالفرنسية جملة « لايجب أن اتكلم فى الفصل » ٥٠ مرة .. اعتدت العقوبة لدرجة انى كنت أكتب الجملة ٣٠٠ مرة وأكثر ، على سبيل الرصيـد وكلما تكلمت فى الفصل وعاقبتنى ، قدمت لها الواجب من الرصيد الجاهز !

أخذت « السيرتيفيكا » ــ الابتدائية ــ سنة ٤٨ .

* دخلت مدرسة « سان شارل » الالمانية ببـــاب اللوق ، لعبية قوى ! قليلا ما كنت أستمتع بالفســحة بين الحصص زى البنات ، كنت أقضى أغلب الفسح فى « أوضـــة الفيران » بأوامر مشـــددة من « شيفستر سيسيليا » ناظرة المدرسة ! يا راجل فيران ايه ؟ ولا فيران ولا قطط .. مجرد بدروم كبير تحت المدرسة .. فى ركن منه بيانو .. ولا فيه ولا كرسى واحد اقعـد

عليه .. أفضل واقفة متذنبة .. تعذبنى للحظة أصوات البنات وهن يلعبن فى حوش المدرســــة ويستمتعن بالفسحة .. ثم أعتــاد الحبســة .. وأطل من نافذة البدروم على شارع يوسف الجندى ، أتسلى بمراقبة أحذية النــاس وهم يمرون من أمامى مبتورين ، كأنهم جميعا مجرد سيقان وأحذية !

* اتخطبت ، اتجــــوزت ، رحت مع زوجى الى الاسكندرية. خلفت أحمد ابنى، عمره دلوقت ١٩ سنة. راجل يعنى !

صوتى يعترض : « ليه الـكلفتة دى بقى ؟ ! جوزك السابق وعارفه .. « عميد بحرى » عادل البشارى ، احنا اتفقنا من الاول على الـكلام بمنتهى الصدق .. زى ما تكونى مسترخية على كنبة طبيب نفسى ! ؟ »

وحياتك بلاش اسمه ، أصلنا سبنا بعض ، ويمكن ذكر اسمه بيحرجــه ! المهم انه كان جواز عائلى .. البنت كبرت يبقى لازم نفرح بيها .. قلت زى بعضــه افرح معاهم ، واتجوزت ! قعدت من مدرســة ســان شارل قبل ما آخد شهادة « الاوبرشبــولا » ــ تعادل الثانوية العامة ــ بسنة كاملة ، كل بنات شلتى ســابوا المدرسة ورايا ، وكل واحدة تعلقت فى ذراع عريس !

* زوجى كان راجل مودرن ، تقدمى جدا ، بعكس بابا ! عثرت على حريتى فى بيت زوجى ، وجدت نفسى بدات أفكر فى مستقبلى ، هل كل مهمتى فى الدنيا أن الد واربى ؟ ! لابد أن احقق ذاتى ، لابد أن أعمل ، اعمل ايه ؟

فكرت أرسم ، أطرز ، أشتغل صحفية ، أو سكرتيرة لرئيس مجلس ادارة .. لـكن اشتغل فى السينما ؟ لم تخطر الفكرة على بالى !

* شتاء سنة ٥٨ ، في زيارة عائلية للموزع جان خوري ، أخته صديقتي ، رمسيس نجيب معزوم عنده على السهرة ، شافني . « تعرفي يا مدام بولا انك تنفعي في السينما خالص .. عندي لك دور هايل !..» وشرح لي رمسيس فكرة الدور .. صحفية تساعد بتحرياتها خطيبها ضابط الشرطة في القبض على مجرم هارب ، تتعرف على المجرم ، يأمن لها ، تغدر به وتسلمه لخطيبها ! الفيلم « سلطان » . والمجرم فريد شوقي ، أما الصحفية فكان رمسيس نجيب يبحث عن وجه جديد يمثل دورها .. وجه يقنع الناس برائحة الحبر والرصاص السايح !

اختبار للصوت وللصورة ، واختبار في التمثيل ، بكيت فيه بدموعي وليس بنقط الجلسرين ! وعقد احتكار لمدة سنة مع رمسيس نجيب أمثل فيها فيلم « سلطان » بأجر ٥٠٠ جنيه ، والفيلم الثاني بـ ٧٠٠ درس في فن الالقاء على يد عبد الوارث عسر ـ حتة أستاذ ما يتعوضش ! ـ ثم دخلت ستوديو نحاس لامثل دوري في أول أفلامي ، نجح فيلم « سلطان » نجاح شباك وايراد ، لصق بي دور آمال الصحفية في أخبار اليوم ، لدرجة ان أحد عمال السد العالي سألني مرة : « صحيح ياست آمال حتسيبي الصحافة .. وتمشي في السينما ؟ ! »

* أول متفرجة أحسست بنادية لطفي ، تلميذة أردنية من رام الله ، اسمها « هدهد ميخائيل » ، كتبت لي خطاب أعجاب ، رديت عليها : « قرأت خطابك ٥ مرات .. انه أول نور يسطع علي!» هدهد أخذت الدكتوراه من جامعة لندن ، الآن .. وما زالت تكتب لي !

* احسست أن نجوم السينما يبالغون في أداء

ادوارهم مبالغة مسرحية ، لماذا لا يكون التمثيل طبيعيا يحاكي ايقاع تعاملنا العادي فى الحياة ؟ اعتنقت مبدا « الطبيعة » فى أداء أدوارى !

فيلم « حب الى الابد » فيلمى الثانى ، مثلته أمام أحمد رمزى ، كان وزنى ٥٨ كج ، وزن مثالى لمثل طولى، لم أكن أعرف أن السينما ـ بسبب التضخيم ـ تزيد الوزن ٥ كج تقريبا أكثر من الحقيقة . زكى طليمات كتب عن الفيلم .. « اثنان بمثل هذه السمنة الواضحة ـ يقصد أحمد رمزى وأنا ـ كيف يمثلان دورا كله غرام ؟ ! » .

وكتب مصطفى محمود : « القصة ساذجة ، والاخراج امريكانى .. وأهم ما فى الفيلم هى نادية لطفى نفسها ، وقدرتها على التعبير بوجهها ببلاغة ! » .. كلام مصطفى محمود زرع فى نفسى الامل ، وكلام زكى طليمات اسقطنى فى بئر من اليأس ! ورحت أفكر : امشى فى السنيما.. والا أبطلها ؟ ! لكنى أخذت درسا من كلام زكى طليمات .. عرفت أن التمثيل ليس مجرد أداء .. شكل وتكوين أيضا !



* مثلت حتى الأن بطولة ٦٥ فيلما ، لكن أغلبها أفلام هلس ! افلام قليلة اخذت فيها خطوة لقدام .. لكن موش هيه ! موش ده اللى فى دماغى لنفسى وللفيلم المصرى ! من الادوار التى أضافت الى : دورى فى فيلم « حبى الوحيد » مع عمر الشريف ، وفى « الخطايا » مع عبد الحليم ، وفى « السمان والخريف » مع نجيب محفوظ ، وفى « جريمة فى الحي الهادىء » مع رشدى أباظة !

* أنقر لك على بطن السينما المصرية بأصابع طبيب، وأشخص لك داءها : فقر فكرة ، فقر تكنيك ، معالجة قديمة ومعادة ، السينما عاوزة دم جديد ومكن جديد، قبل ما يقف حالها !

* أنا من جوه ؟ اكذب عليك . اداري . وقد أبالغ! اسأل غيري .. يصدق عني !

طيب اسمعي يا نادية رأى واحدة صاحبتك الروح بالروح ، وتوصيفها لجوانيتك : راجل لها كبرياء الرجالة وعنادهم .. حتى في معاملتها معهم تعاملهم بندية ومساواة فعلية ! تحتفظ بأسرارها الشخصية في بئر سحرية . تأمن لي أن أدخل عليها الحمام ، لكنها لا تستأمنني على أسرار حياتها الخصوصية ! في حالة غضب دائم ، وتمرد دائم على الواقع ! تعامل الناس حسب سلوكهم ، وليس كلامهم .. « الكلام ببلاش وسهل ، أما السلوك فموقف عاوز صدق ومجهود » ! أشبهها بفرسة عربية عفية .. تلح عليها وتلزمها ، تهرب منك .. تسايسها تاخد عينيها ! تتعامل مع الدنيا بنفسية طفلة .. علشان كده باحبها زي بنتي .. مع اننا من عمر بعض !

***

صوتك يا نادية – لامؤاخذة ! – صوت راجل لابس فستان .. أو امرأة لابسة بدلة !.. نتكلم في «الصوت» بكل معنى :

* ايه رأيك في صوتك ؟

– صوت عادي ، لا أخنف ، ولا أقرع ، ولا عاري من التعبير ، له شخصية مقبولة ومتميزة ، ممثلين سينما صامتة كتير فشلوا في الاستمرار بعد أن نطقت السينما، لأن أصواتهم كانت بلا شخصية !

* البعض يقول أن صوتك ليست له «شخصية».. له « شخص » .. يعنى شوية رجالى ! ؟

ــ يوسف شاهين بيقول عن صوتى : « صوت طعم طعامة خاصة » ! واحسان عبد القدوس قال عن صوتى مرة : « له بحة تميزه بين ألف صوت » ! وصديقى المرحوم كامل الشناوى وصفه بأنه : « ليس رقيقا لحد التخاذل.. ولا عنيفا لدرجة الاقتحام .. هو مزيج من الاحساس والنضج » !

تعرف أن صوتى بصمة من شخصيتى : طبيعة امرأة .. وأخلاق رجل ؟ !

* بسبب صوتها .. قعدت كلوديا كاردينالى سنين تمثل بصوت غيرها .. كانوا بيعملوا لأفلامها دوبلاج ! واجهت نفس الصعوبة فى الاول ؟

ــ ابدا ، لو حصل يمكن كنت سبت السينما !

* ايه ملاحظاتك على الصوت فى السينما ؟

ــ حاجه ما تسمعش ! ابقى قايله الديالوج واسمعه ما افهمش أنا باقول ايه ! مكن التسجيل مكن أثرى.. من ايام السنيما الصامتة !

* والموسيقى التصويرية ؟

ــ أغلبها اسطوانات من السوق محشورة فى الفيلم، مع ان المفروض تنعمل لكل فيلم موسيقاه التصويرية الخاصة ، واذا نجحت ممكن تطبــــــع بعد كده على اسطوانات !

* طبقات صوتك .. تسمح لك تصوتى ؟ !

ــ دورى فى « المستحيل » فيه مشاهد كلها صراخ!

* أقصد الصوت البلدى « الحيانى » ؟

ـ ممكن قوى .. اذا كان ده شيء لازم للدور الذى أؤديه !

* والزغرودة المطوطة ؟ !

ـ أنا على زغروتة ولا زغروتة جمالات زايد فى « عيلة مرزوق أفندى » !

* بتغنى ؟

ـ اغنى لنفسى .. وتحت مسئوليتى الشخصية !

* بتغنى لمين وانت فى الحمام ! ؟

ـ الاغنية الاخيرة .. الاغنية الشائعة .

* والاغنية التى على لسانك اليومين دول ؟

ـ « شباب الحب » لعبد الحليم حافظ !

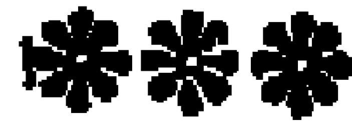
سميرة أحمد :
بذمتك .. أستاهل ؟!

حى «الابجية» فين؟ ما اعرفش ! قرب «الجيوشي» .
جيوشي ايه ؟ ! عند « القرافة » .. قرافة ايه ؟ !
قرافة كبيرة كده هناك ، اسمها ايه ؟ .. صحيح أما أنا
عبيطة .. اذا كنت أنا ياللى اتربيت هناك وشفت فيها
أول الدنيا ، موش عارفه .. يبقى انت حتعرف ؟ !
قصر الكلام .. بيتنا كان هناك فى الابجية ..
منه للجبل .. تسأل عن بيت أحمد أفندى ابراهيم خضير
باشكاتب الاستئناف ، ألف يد تدلك .. البيت أصله
كان معروف شمس .. لم يكن هناك غيره تحت بطن
الجبل ! وفوق .. فوق .. قرب السحاب .. تكية
التنابلة الاتراك .. فاكر بابا سرى ؟ كنت اطلع هناك أنا
ونجاة بنت صاحب البيت ، بابا سرى يملأ لنا الحجر
ذرة .. نرمى للحمام فى غية التكية ياكل ويمسح فى الارض
منقاره ! ويغيب منا النهار فى قعدة حلوة وبريئة .
طعام . وحمام . ونسمة صيف طرية يحجزها الجبل
لنفسه ، فلا تسقط على القاهرة ! وأمى عارفه مكانى ،
تستغيبنى . تبعت لى أختى خيرية على التكية . ننزل
نغرق فى بطن الجبل .. نفوت على معسكر الجيش
المصرى .. الحرب الاولى ايه ؟ ! الحرب الثانية طبعا !
والتجول فى الجبل ممنوع من غيبة الشمس لطلعة النهار
.. لكن الاومباشى ثابت كان يعرفنا . يشخط فينا :
قف من أنت ؟ ثم يبلع شخطته ويلم عنا سلاحه ..

—

« كتاكيت احمد افندى خضير .. اتفضلوا اجيب لكم بفاشة ! »

... ومن كام يوم ، جاني واحد صول في الجيش.. طلب مني صورة عليها امضائى .. قلت له اكتبها باسم مين ؟ قال لى بدهشة وعشم : « باسمي ياست سميره يا نوارة الشاشة .. الاومباشي ثابت بتاع زمان » .. طوالى افتكرت أول أيامى .. أيام حى الابجية !



وكبرت سميرة بنت احمد أفندى ابراهيم خضير باشكاتب الاستئناف وطلعت الجبل من تانى .. جبل تانى .. جبل الفن ! رحلة طويلة نظمتها من حي الابجية الى فيللا دورين فوق سطح العماره رقم ٤ شارع ابن مالك على نيل الجيزة .. وفى الفيللا حمام سباحة وتليفون سرى رقم : ٨٤٨٧٢٧ !

الغرق مرق . والعيش ناشف . والموهبة تعطى ببطء .. ماسة تلمع ، لكنها لا تضيء ! رحلة ينكسر لها كتف رجل !

... ومعك يا سميرة .. من أول المشوار :

*« سمرة » اسم الدلع . صغيرة فى بيت العائلة ، وكبيرة فى بيت الزوجية ، والاسم يدغدغ أذنى .. حتى ابنتى « جليلة » تناديني الآن : « ماما سمرة » ١٥ نوفمبر ٣٨ ، صدقنى ، فما دمت لم اعبر سن الاربعين ، فلن أكذب فى سنى ! شارع « فاروق » فى أسيوط ، يعني صعيدية المولد ! البنت نمرة ٣ بين ٧ صبيان وبنات . اول صدمة فى حياتى ، كانت فى سور المدرسة !.. سور عالى وفيه حديد مدبب ، زى ما تقول مدرسة روضة ، بابا اخذنى من يدى اليها اول يوم ، قال لى : اسمعنى اختك خيرية فى سنة اولى

ابتدائى وما بتعيطش ؟ وسابنى وخرج بره السور . جريت وراه على السـلم وقعت . بصنيت ، عينى اتخزات فى حديد السور المدبب ، بكيت دم ، وكرهت المدرسة كره ؟!

نفس المشـهد اعادته ابنتى جليلة ، من كام سنة ، قدمت لها فى الميردى دييه ، البنات صرخن فى وجهها « جليلة بنت سميرة احمد » وهجموا عليها وباسوها البنت من الذعر اتبلت كعصفورة ، وآخر النهار قالت لى وهى تبكى : « شوف لى مدرسة تانية يا ماما ، عارفة انهم بيحبونى ، لكن دول بيبوسونى كتير قوى ياماما » !!

* انتقل أبى الى القاهرة . حرب . وازمة مساكن مثل ازمة الايام دى مرتين .. تكومنا ٩ انفار فى غرفة ببيت عمى فى سوق السلاح ، كأننا نكتة عن أزمة المساكن!

دخلت مدرسة يوسف أغا الاولية . كنت ألفة الفصل وأول من تجيب على أسئلة المفتشين . أبله نبوية مدرسة الفصل كانت تطبطب على شعرى كل صباح وتقول لى : ياسلام ياحلوة لو كنت اتجوزت ، كنت جبت امورة زيك .. لكن ياحسرة !

* أبى باشكاتب قد الدنيا فى محكمة الاستئناف . منظره كل يوم وهو يخب فى طريقة الى المحكمة ويتبختر ببدلته الصيفى البيضاء ومنشته الخيلى ، منظر ملوكى . لو كنت من الحكومة لاعطيت ابى ١٠٠ جنية فى الشهر لكنهم كانوا يعطونة ١٨ جنيها فقط ، على ٩ انفار فيها الـ ٢ !.. أرخص من التراحيل !!

لكن ابى فوق وجاهته كان دءوبا وفنانا . كان خطاطا وكان يرسم بالزيت ، ويكسب رزقه من هوايته شركة مع عم حسنى « ابو نجاة وسماد » .. كنا مبسوطين ،

اتذكر ان أبى كان يشترى لى كل عيد فستانين !
* ضـــاع النور من عينى أبى .. ســقطت « الكاتاراكتا » سحابة تعمى عينيه . كنت احمل له الفداء كل يوم فى « عمود » وازوره فى مســتشفى قلاوون .. استرد بصيصا من نور عينيه فعاد الى عمله فى المحكمة ، لكنه توقف عن الرســم وكتابة اليفط . انقطع الرزق الاضافى . وعادت العائلة الى مســتوى التراحيل !
كبار العائلة بناتها .. اختى نوال ١٦ سنة ، وخيرية ١٤ سنة ، وأنا بنت ١٢ سنة ، لكن تشوفنى – لنضجى المبكر – تقول اختهم الكبيرة ! قررنا ان نشتغل ونضع اكتافنا الصغيرة تحت حمل العائلة !.. نوال اشتغلت خياطة فى « صيدناوى » وانا وخيرية احترنا نعمل ايه .. نعمل ايه ؟.. رحنا للريجسير « فلادمير » بمرايل المدرسة نشتغل كومبارس !
حسب التسعيرة كانت البنت ام فستان عادى ايجاره من عند الريجسير ٢٥ قرشا ، تأخذ جنيها فى اليوم .. البنت ام فســتان سواريه ايجاره ٣٠ قرشا ، تأخذ ١٥٠ قرشا .. انا وخيرية كنا نؤجر السواريه ، بشلن زيادة نضمن ٤٥ قرشا مكسب ! كنت احلم بفاتن واتمنى ان اكون فى يوم مثلها ، وارى افلام تحية كاريوكا فاقول لنفسى : « آه لو تبقى أختى الكبيرة » ! أول فيلم فى حياتى سنة ٥٠ وقفت مع شادية كانى واحدة صاحبتها هى تغنى وأنا اتمايل مع صوتها براسي .. آخر انسجام اسم الفيلم « بشرة خير » وكان بشرة خير .. بالفعل !
***
* سنتين وانا كومبارس صامتة ، سنة ٥٢ نطقت !! نطيت من على سلم الترامواى انا وفاتن حمامة فى فيلم

« أنابنت ناس » وقلت « اللى يكسب » ، جملة مفيش غيرها ، وسبت فاتن تكمل دور البطولة ! يومها الصبح رحت الاستوديو بفستان اختى نوال الجديد ، حسن الامام مخرج الفيلم فحص بنظراته بنـــات الكومبارس واحدة واحدة ، وقفت عينـــــــــــاه عندى وقال : « تنفع دى .. هاتوا المقص ! » وبالمقص ودون اكتراث راح يقص الفســــتان الجديد هرابيد .. موش بياعة يانصيب ؟! بكيت بدموع صامتة على فستان اختى لكن المخرج طمأننى : « ولا يهمك اجيبه لك واحد غيره » .. ومن يومها وفستان اختى فى ذمة حســـن الامام !

* طالت الجملة التى امثلها فى فيلم « حبيب الروح » وقفت امام ليلى مراد وقلت لها : « تشربى شمبانيـــا ياليلى هانم ؟ » أنور وجدى بعد « الشوت » قال لى « اسمعى يا شاطرة ، خدى الـ ١٥٠ قرش دول ، والمرة الجاية حاعملك بطلة » ! ومات أنور وجدى قبــل أن يحقق لى حلمى ! والموت ايضـــــا هو الذى اخذ منى أول عقد بطولة كنت قد تعاقدت عليــــه مع عزيزة أمير لامثل فيلما باسم « همسات الرمال » مقابل أول ١٥٠ جنيها فى حياتى ، وماتت عزيزة قبل تنفيذ العقد !

* بعد ٢٠ فيلما كومبارس وبطولة ثانية فى ٤ سنين مثلت أول دور بطولة سنة ٥٦ ، دور العمياء فى فيلم « اغلى من عينية » احتـــــكرتنى « أفلام الهلال » ٥ سنوات بمرتب شهرى ٢٥ جنيها ، يرتفع الى ٥٠ جنيها بعد ســــنتين من بدء تنفيذ العقد . رغم ضآلة المبلغ احسست بأول نسمة استقرار فى حياتى ، كنت اعطى المبلغ كاملا لابى ليرفع الاسرة من مستوى التراحيل ، وآخـــذ لنفسى جنيها كل أسبوع أتشـــبرق به وأكوى شعرى !

* عوضت نقص تعليمي : درست اللغة الفرنسية ٤ سنوات فى مدرسة « فكس » .. ودروس خصوصية فى اللغة الانجليزية لمدة سنتين .. أصبحت أجيد الفرنسية واعرف الانجليزية ! تتلمذت فى الالقاء على يد أبي الفني عبد الوارث عسر ، قرأت أشعار مجنون ليلي . تعلمت كيف أقرأ بفهم مسموع ! قرأت وحدى اعمال توفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، ويحيى حقى، واحسان عبد القدوس .. عندما مثلت بطولة « خان الخليلى » و « قنديل أم هاشم » فيما بعد أحسست بالفة نحو دورى ، من كثرة ما قرأت الروايتين من قبل بتأمل فنى !

* فشلت فى عدد من الافلام .. أو بالادق ، فشلت أدوارى فيها ! أدوار مرسومة فى السيناريو بصورة مقنعة ، لكن التنفيذ أساء الى واليها ! لم أعثر على نفسى الا سنة ٥٦ فى قصة احسان عبد القدوس الثانية من فيلم « البنات والصيف » ، دور فتحية الشغالة فى بيت رجل مسن يطاردها باغرائه .. دور عقدة ؛ لكنى وفقت فى حل عقدته ! كتب عنى احسان : «لقد مثلت سميرة احمد الدور بصورة أفضل مما كتبته» ! وقال سعد الدين توفيق فى مجلة « المصور » : « أما عن أداء سميرة فلا تكفى صفحات المصور » ! وقالت عنى فاتن فى مجلة « الاذاعة » : « أقنعتنى بكل حركة وكل ايماءة منها .. لدرجة انى صدقت فعلا انها مظلومة » !

* بلاش نتكلم عن أيامى مع زربانللى ، تسمح لى؟ ! وعلى كل ، فقد كانت علاقة شرعية لها ظروفها :

* التقيت بزوجى السابق السيناريست وجيه نجيب سنة ٦٠ . عز الدين ذو الفقار كلمنى عن بطولة فيلم

« رجل فى حياتى » . قرأت السيناريو مع وجيه . أعجبنى . اتفقنا . لظروف التوزيع تأخر التنفيذ . جاءنى وجيه فى يوم وقال لى : تيجى ننتج الفيلم سوا ومعانا يوسف شاهين ؟ تحمست للفكرة . أثناء التصوير فى اسكندرية أحسست ان كل لقطة تقربنى أكثر من وجيه . قلب أبيض لبن . ونفس صافية مراية . وعقل منظم الكترونى! وفى يوم راكبين العربية رايحين « أبو قير » قال لى ببساطة كاريكاتيرية « تيجى نتجوز ؟ » .. قلت : « نتجوز» .. وكم كانت سعادتى عندما تحققت النكتة !

... لكن الزمن غيره ، بعد عشرة السنين .. افترقنا بالطلاق ! الاسباب بالتحديد ؟.. أرجوك تعفينى !

* فى دائرة الاعتزاز عندى دورى فى فيلم «الخرساء» سنة ٦١ . أول عرض فى سينما « ديانا » وأنا باعبر لوكيل النيابة بالاشارة ازاى قتلت محمد علوان أبو طفلى ، الناس صفقت .. وعبد الوهاب وعبد الحليم كانوا فى اللوج جنبى قالوا فى نفس واحد : برافو ياسميرة .. ده بجد اعجاز !

مثلت بطولة ٥٠ فيلما من سنة ٥٦ حتى الآن . دورى فى « قنديل أم هاشم » و «خان الخليلى» قفزا باسمى الفنى سنين لقدام !

وصل أجرى الى ٣٠٠٠ جنيه فى الفيلم ، لكنى مستعدة أن أتنازل عن نصف أجرى لامثل فى فيلم أعتنق قصته وأومن بدورى فيه !

* سمعتنى أغنى ؟ ! طيب اسمع :

دوقنى حنانك دوقنى
وفى بحر نعيمك .. غرقنى

مشـــــتاقة لموجة حنيـــــــــه
تخطفنى وتطـــــير كده بيـــــه
وتخلى الحب معـــــــــــديه
وان قلت ف عرضـــك الحقنى
كدابة ... اوعى تصـــدقنى !

الـكلام لصلاح فايز . ولحن محمد ضياء الدين ، والاسطوانة طبعتها صوت القــاهرة . كل من سمعنى قال : دى داليـــدا المصرية ! سمعت أيضا ان أغلب سائقى التاكسى فى بيروت يديرون الاسطوانة أثناء المشوار ليسرقوا وقت الزبون .. وفلوسه !

***

تكلمت عن نفسك كثير يا « سـمرة » .. آخـــد فرصة أتـكلم ! ..

* بيت الفنانة ــ واقع شائع ــ ليس بيتها ! طعامها ليس صنعة يديها ! نظافة البيت شغل خدم ومكن ! أولادها تربية غيرها ، تصنعهم الدادة ! نناقش القضية على مقاسك : كم شغالة عندك ؟

ــ اثنان .. سعيد للسفرة والصالون والانتريه . وايلين لغرف النوم . وأنا للمطبخ وتربية جلجلة .

* هل تستطيعين وحدك اعداد « عزومة » لـ ٥ أشخاص ؟

ــ لـ٢٠ ! انا مشهورة فى الوسط الفنى بطبق محشى ورق العنب . وصينية البطاطس بالفخـذة ! ساعات أفنن وابتكر .. عملت روستو بطريقة جديدة .. لحمة بتللو أو ضانى ، ٥ أو ٦ بصلات مقشرة وصحيحة . ملح وفلفل وعصير ليمونة . فى طاجن مغطى فى فرن ناره هادية .. أكلة خفيفة على المعدة جدا !

* هل تمسحين الشقة .. تدهنين الباركيه !

ـ كنت أعملها زمان من باب الرياضـة . دلوقت خسيت ٧ كيلو برجيم عنيف . ضعفت . لما انحنى على الارض أدوخ واقع من طولى !

* تفصلين بنفسك فساتين للبيت ولخروج النهار ؟

ـ الحقيقة ليس عندى أى فكرة عن فن التفصيل!

* تفهمين فى تربية الاطفال ؟

ـ جليلة تفهمنى .. أتعلم منها ، واتعلم فيها !

* طيب ما سبب الزغطة التى تصيب الطفل الرضيع أحيانا بعد الرضاعة ؟

ـ ماعرفش الحقيقة .. تعرف انت ؟ !

* أيوه . الدكتور مصطفى الديوانى فى كتابه «حياة الطفل » ـ صفحة ٨٩ ـ يقول ان الزغطـة تعنى.. أولا : ان المعدة مملوءة بأكثر مما يلزم .. ثانيا : ان الطفل سليم يهضم غذاءه جيـدا .. ويندر أن يتقيـأ الطفل بعد الرضاعة متى بدأت الزغطة !

ـ أيوه صحيح.. أتارى ماما زمان كانت تهنن أطفالها وتقول : يا زغطة كبريه .. يا زغطة سمنيه !

* افتراض : هل تسمحين لبنتك بالسهر مع ولد صاحبها ؟

ـ لا !.. كله الا كده !

* كيف تواجهين أول كذبة على لسان طفلتك ؟

ـ أصدقها .. علشان المرة الجاية تنكسف تكدب !

* زوجك ـ افترضنا ـ تأخر خارج البيت .. هل تسهرين فى انتظاره ؟

ـ على قد ما أكون باحبه .. وعلى قد ما اقدر أقاوم النوم !

* من اجوبتك .. تعطين نفسك كم درجة من ١٠ كست بيت ؟

ـ ٨ من ١٠ .. بذمتك موش استاهل ؟ !

شويكار :
الأصل تركي.. وخفة الدم مصرية!

بطة بكيني بيضاء . ذكية . شقية . كلها حيوية . تتحرك في البيت عادة بخطوة سريعة كأنها تجري وراء أوتوبيس ماشي لتلحقه !.. ودوائر نصفها الاعلى بارزة للأمام في « بوز » رياضي صحي يغري بالحسد عيون العذارى ، وبالاشتهاء عيون أصحاب الجرأة غير العفيفة!

فاتنـــة بجد ، وبكل مقاييس الجمال ، وكوميديانة فنانة والاسم الاول : شويكار . يليه «طوب صقال ». « طوب » و « صقال » مع كل هذا الجمال ؟ ! .. شيء يحتاج لتفسير يقنع !

قالت لي « شوشو » :

* أفسر لك حكاية « طوب صقال » ، الذيل الذي يتدلى في آخر اسمي !.. طوب صقال رتبة عسكرية عثمانلية كان يحملها جدي « ابراهيم » . أصـــله كان ضابطا في الجيش العثمانلي . والرتب أيامها يحـــددها شكل اللحية . صاحب اللحية المربعة هو الخديو شخصيا وجدي ابراهيم كانت لحيته مدببة ، لحية من يحمـــل رتبة « طوب صقال » ! ولشجاعة جـدي وفتوحاته ، أقطعه الخديو ــ لا أذكر اسمه ! ــ اقطاعية كبيرة في الشرقية . وتزوج جدي من مصرية .. وتناســـــــل واستوطن !

وتقرأ اسمي في شجرة العائلة . شويـكار ابراهيـم احمد شكري ابراهيم « طوب صقال » .. يعني جدي ــ بصحيح .. موش كلام مسرح! ــ كان «كائد تابية»!

* أصل جمالى ؟ ! الاصل زى ما قلت لك تركى.. لـكن خفة الدم مصرية .. التراكوة الصرف دمهم تقيل جدا ! وجمالى زى مابتقول‌انت «اموى» .. يعنى طالعه لأمى !.. أمى ما زالت جميلة جمال !.. أسمع منها عنها انها كانت تدخل الحفلات الراقيـة فتـدير رقاب الرجال !

أبى مزارع يزرع أرضه التى هبطت عليه من اقطاعية جده . كانت حوالى ٢٠٠ فدان . نابنى منها ١٢ فدانا وكبشة قراريط .. فقد قسم أبى التركة علينـــا ــ ولدين ، ٥ بنات ــ فى حياته .. رضا ! من مواليـد بيت جدى لأمى فى الجيزة ، ٤ نوفمبر ٣٨ . صدقنى! شقية ، حتى وأنا فى اللفة !.. الراديو يكون مفتوحا على موسيقى راقصة ــ تحكى لى أمى ــ أرقص.. أظل أهز ساقى بنشاط وايقاع الى أن تسقط اللفة عنى.. وأتعرى ! أم صغيرة تملأ لى غرفة خاصة باللعب والدمى الجميلة المتحركة ، واب شيخ لـكنه يحبنى بعبادة .. ماذا يشقينى ؟ !

* فى ليلة أحسست لاول مرة ان الدنيا دنيا !.. مندفعة من صغرى . اقع على الارض كثيرا فأبكى . وتجىء أمى فتضرب الارض « آآه » فأمســح دموعى وينتهى الموقف !.. ليلتها لقيت أمى فى ركن منزو من غرفة النوم تبـكى بحرقـة . فزعت . ضربت الارض تحتها « آآه » ، لـكنها استمرت تنهنه وعيونها تسح دمعا ! فجأة انتصبت واقفة بعصبية . جمعت ملابسها الغالية فى حقيبتين بغير نظام . وانسلتت خارجة تتعثر فى حقيبتيها وحبات دموعها ! صرخت من‌كل صدرى : « رايحه فين يا ماما .. خدينى معاكى » .. لـكنها تركتنى واختفت !

وجاء أبى .. قفزت الى حضنه أستنجد به ، لكنه أعادني الي الارض بقبلة وجملة غامضة بتارة : « ربنا يا بنتى عايز كده » ! لورى انجليزى مفلوت عياره دهس أخى أحمد قبل شهور ، وما زال للحظتها يمشى ببطء ويتعكز . سندته أنا وأختى شريفة الى غرفتنا ، وجلسنا متكودين على بعضنا نتألم . أسرح بعينى الى ضوء لمبة سهارى فى الطرقة المؤدية لمدخل الشقة ، يهيأ لى أن شبح أمى داخل يهفهف عبر حزم الضوء الضعيفة .. لكن العبث ان يتحقق خيالى ! وبكيت حتى شربت دموعى المنهمرة .. أحسست ليلتها أن فى الدنيا آلاما كثيرة غير ألم الوقوع على الارض!.. عمرى ٦ سنين .. لكنى أحسست ، فى ليلة ، أنى شخت سنين !

* فى الصباح صممنا كلنا ان نشوف أمنا . أخذنا « عم نصر » الطباخ فى تاكسى الى بيت جدنا فى الجيزة لقيتها هناك .. ملاك . الشعر طويل مبدور مظلم ظلمة ليلة كئيبة . والعيون الخضر خنق البكاء اخضرارهما بكماشة من دم ! أمى التعيسة ! تليفون من أبى : «خلى الاولاد عندك .. كده أسبوعين تلاتة » !

وعندما عدت برغمى الى بيت أبى وجدت فيه بنتا جميلة . وردة فى الـ ١٧ . وسحبتنى عمتى دولت الى المطبخ وأغلقت الباب وهى تقول : « اسمعى بأة .. دى دلوقت مرات باباك .. يعنى لازم تعامليها زى ماتكون أمك تمام .. انت فاهمة ؟ ! » .. ولم أفهم لحظتها لماذا يتبنى أبى بنتا جديدة ! ؟

* دخلت مدرسة .. « نوتر دام دى لاديفيرانت » بمصر الجديدة . داخلية أنا واختى « شريفة » أمى ممنوعة .. من الاتصال بنا ، بأوامر أبى . وهو لايزورنا

الا اذا استدعته « المير دى فيلنيفر » ناظرة المدرسة ليعاقبنى على شقاوتى بقسوة .. ثم يعدل هندامه وينصرف !

عطشانة الحنان .. كان من الممكن أن تعقدنى ظروفى عقدا رهيبة منحرفة .. لكنى كنت عابثة شقية وبريئة .. وكانت سلامتى فى شقاوتى وانفجارى ! أسمع هتاف أى اضراب عابر فأقفز من على السور لأمشى مع المضربين وأردد الهتاف ! أفتح حنفيات الحريقة فى أول الليل لتصبح المدرسة غرقانة للركب ، ونستمتع بيوم بطالة ! أحاول الانتحار بالقفز من شباك غرفتى فى الدور الخامس بالمدرسة ، لولا ان تلحقنى البنات و « السور » المشرفة ! فى أعماقى رغبة محرقة فى أن احتج ، لكنى لا أعرف كيف أصوغ احتجاجى !

بعكس هذا كله كنت فى الدراسة .. ذاكرتى كاميرا تحتفظ بكل شيء يدور أثناء الحصة وللسبب نفسه تجدنى احفظ أدوارى الآن بسرعة ، بس امسك الخشب ! وكاميرتى تكفينى . تغنينى عن المذاكرة . وتعطينى ترتيب الاولى على الفصل دائما ! أذكر مرة واحدة وأنا فى خامسة ابتدائى ، بنت اسمها « ايزابيل » طلعت الاولى على بفرق نصف نمرة .. مت بغيظى ! فكرت كيف أنتقم منها ؟ حفرت لها حفرة بجوار سور المدرسة وسحبتها الى هناك .. قلت أزرعها يمكن تطرح ! لكنها بكت . صعبت على . حضنتها وقبلتها بصفاء وحنان ، وهمست فى أذنها : « طيب تحرمى تطلعى الاولى عليه » ؟ !

أخذت السير تيفيكا ـ الابتدائية ـ سنة ٤٩ .

* فى نفس المدرسة ، فى القسم الثانوى . انشغلت بجزء من حيويتى فى حفلات المدرسة السنوية . بروفات .

بطولات لروايات كثيرة .. « ذات الشريط الازرق » لفيكتور هوجو . قصة سيدنا يوسف وامرأة العزيز ، بتلخيص من التاريخ . رقص جماعي ايقاعي . القاء لقطع محفوظات . . اذكر منها قطعة شعرية اسمها « قلب أم » كنت القيها بدموعي :

أغرى امرؤ يوما غلاما جاهلا
بنقوده .. حتى ينال به الوطر
قال : ائتني بفؤاد أمك يا فتى
ولك الدراهم والجواهر والدرر
فمضى فأغرز خنجرا في صدرها
والقلب أخرجه ، وعاد على الاثر
لكنه من فرط سرعته هوى ..
فتدحرج القلب المعفر ، اذ عثر ..
ناداه قلب الام وهو معفر :
«ولدى حبيبى .. هل أصابك من اثر؟ !»

... شوف قد ايه قلب الأم ؟ !

* أخذت « البريفيه » ــ التوجيهى ــ سنة ٥٣ ، عمرى ١٥ سنة . رأى العائلة ان البنت كبرت ولازم يجوزوها ويفرحوا فيها ! حسن نافع ، شاب ٢١ سنة محاسب قانونى . تقدم لى ، أتفق مع ابى على كل شىء ، وجاء مع أمه يزورنا . ما صدقت وافقت !.. أقله علشان أقدر أشوف أمى بحرية . واخواتى يبقى لهم بيت فيه الحنان !

لم أدخل سينما فى حياتى الا مع زوجى !.. فاكرة السينما « ريفولى » .. والفيلم « المائدة المستديرة » لميل فيرر وآفا جاردنر! رزقنى ربنا بابنتى « منه لله » سنة٥٧ . مات أبوها بعد شهور من مولدها .. حبيبتى المسكينة. افقت من حلم زواجى الذى مر كطيف الخيال

.. ارملة فى الـ ١٧ .. وأم لطفلة ترضعها من تحجث ملابس سوداء غير مكسمة !

زوجي بلا معاش ، فقد راح وهو لم يبدأ .. ابى غطاء لايكفى.. لابد أن أعمـــــل لاربى ابنتى أحسن مما تربيت أنا !.. أيضا لـكى انسى ! قدمت طلبـا لشركة شل . امتحنونى . قبلونى موظفـــــة فى قسم العلاقات العامة بمرتب ٢٠ جنيهـا !.. وكادت ظروفى تسوقنى لمصير آخر تماما !

* الفنان محمود السباع ، نسيبنا وقريبنا. يزورنا، آخذ رايه فى شغلتى الجديدة .. يعترض .. ويعرض على أن أعمل معه فى فرقة انصار التمثيل بمرتب ١٠ جنيهات فى الاسبوع . وافق أبى بتحفظ : « بس اوعى يابنتى تعملى حاجة .. وتندمى عليها » ! شهور وأنا اتمرن على دورى فى رواية «حبر على ورق» مع السباع ومحمد توفيق . وليلة الافتتاح كانت ليلتى. أحسست انى أولد من جديد . وجهى واخبارى عرفت طريقها الى أعمدة الصحف . طلبنى جمال الليثى لامثل البطولة الثانية مع عمر الشريف ونادية لطفى فى فيـلم « حبى الوحيـد » ، بأجر ٢٥٠ جنيها . مثلت بطولة فيلمى السادس « عروس النيل » فى نفس السنة ، ووصـل أجرى لـ ٦٠٠ جنيه ! رصيدى من افلام السينما حتى الآن ٣٢ فيلما . قفز أجرى الآن الى ٢٥٠٠ جنيه .. أظن منتهى التواضع !

لى فى المسرح الـكوميدى : « السكرتير الفنى » . و « أنا وهو وهى » التى صنعت فيما أعتقد اسمى الفنى ! و « أنا فين وانتى فين » و « حالة حب » .. وعلى مسرح الفنانين المتحدين : « أنا وهو وسموه » و « حواء الساعة ١٢ » .. و « سيـدتى الجميلة »

أضخم عمل مسرحي قدمته الفرقة ..

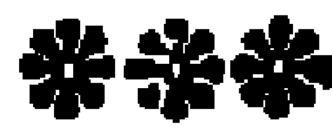
* شتاء ٦٣ .. اول مرة أشوف فؤاد . معه في مسرحية « السكرتير الفني » نستعد لتقديمها على مسرح الهوسابير . مهموم . عصبي جدا . مبهدل في لبسه باهمال من يعطي للدنيا قفاه ! .. لكنه على المسرح أستاذ .. حتة أستاذ ! ذكي . قوى الشخصية . حاد الذاكرة . يبهرني اداؤه فيخرس لساني .. وافيق على بوزه ملويا في اتجاهي حتى لايراه الجمهور وهو يصرخ هامسا : « اتكلمي .. انطقي » ! وأقول له رايي في فنه بين الكواليس فلا يصدق مديحي .. وتضيع منه عيناه في سقف المسرح وهو يغمغم : «ميرسي ياشوشو .. انتي بتديني ثقة في نفسي .. أقرب الناس لي ــ يقصد زوجته الاولى ــ الله يرحمها ــ عاوزين يهدوا المسرح فوق نافوخي ، علشان أفشل وانحط زي ما انا موظف صغير في حسابات الجامعة » !

تقاربنا . تفاهمنا . تكلمنا في التليفون بالساعة ! كان كل منا متألما ، فجمعنا الالم ! وفي ليلة على مسرح الاوبرا نقدم معا « أنا وهو وهي » .. أنا وهو ممددان على الارض نداعب الهواء بهزة الساق .. لحظة صمت الا من الموسيقى التصويرية .. فجأة صرخ فؤاد هامسا دون أن يلتفت الي : « ما هو أنا ما اقدرش أعيش من غيرك ياحبيبتي .. احنا لازم نتجوز » ! .. وجاءه ردي مذهولا : « ياخبر يا فؤاد » .. لكني فرحت في أعماقي وصدقت الخبر ! .. فلم يكن هناك طريق آخر ليتخلص كل منا من آلامه ! تزوجنا في ٢٨ نوفمبر ٦٤ ..

... وزواجنا نصيب . وطلاقنا أيضا . تفاصيل ؟ مفيش داعي !

* أنا كوميديانة ، والكوميديا هى الفن الاصعب لا هواية ولا غيره .. الفن بالنسبة لى عملية اخلاص يعنى ممكن أشتغل وأنجح فى أى ميدان آخر، ما دمت مخلصة ! غنيت فى « أنا وهو وسموه » وفى « خوا الساعة ١٢ » و « سيدتى الجميلة » .. وغيرها .. سمعتنى ؟

فتحت لى بسؤالك باب كبير للتفكير .. أنا فعلا لاز. أقدر موقفى من تانى وأوازن بين عملى بالمسرح وعملى فى السينما .. وبينى وبينك أنا احب السينما .. فن أسهل ، وفلوس اكتر ، وتعب أقل .. والمسرح .. جاتة البلا ! ! !



قلت لبطتى البكينى البيضاء :

* عاوز أعرفك من ودانك ! .. كلمينى عن سمعك. ودانك .. حجمها مناسب على جانبى راسك ؟ ! .

ـ أيوه صغيرين : « تزيح شعرها عن أذنها ببساط ودهشة » .. حتى شوف ؟ !

* تلبسين فيهما « حلق » طراز ايه عادة ؟

ـ النوع الطويل المدلدل .. دهب أو فالصو موش مهم !

* ماذا سمعت بأذنيك : آخر نكتة مثلا ؟

ـ قبل ما تدخل باقول لأمى : « عبد التواب اتأخ يا ماما .. عصير حياتى » .. ردت أمى بمنتهى الجدية « معلهش ياحبيبتى .. تحبى أعصر لك حاجة تانية» ؟

* وأجمل حكمة دخلت اذنيك ؟

ـ دع الامور تجرى فى أعنتها !

* وأعذب صوت تنخلع له أذناك ! ؟

ـ صوت أم كلثوم ، ودعاء الكروان .. « ومر كروا

لحظتها صدفة فى سماء الزمالك يترنم بدعائه الشهير!»
* والعطر الذى تضعينه خلف أذنيك ؟ !
ــ مدام روشا .. القزازة الصغيرة منه ب. ٣٦٠ قرشا !
* « المراة ودنية » .. كذب والا صدق ؟ !
ــ الرجالة ودنيين أكتر .. الواحد منهم يزوم بلذة وهو يسمع : « هيه .. ياسلام .. بأه كده .. ياخبر مهبب ! »
* هل تنظفين اذنيك عادة بعد الحمام ؟
ــ طبعا ..
* طيب .. وما رايك فى القاعدة الشهيرة فى طب الاذن التى تقول : « لا تضع فى أذنيك شيئا أصغر من كوعك ! » .. يعنى ما تلعبش فيهم أبدا بعود كبريت أو ورقة مبرومة مثلا .. مضر جدا ! ؟
ــ ما أنا باعمل بالقاعدة .. باستعمل الفوطة فقط !
* ما النغمة التى تسمعينها فتسيب لها مفاصل وسطك ؟ !
ــ إلفالس .. نغمة ملائكية ، أرقصها كأنى طايرة بجناحين !
* هل مفتاح شخصيتك كلمة تتقال فى ودنك ؟ !
ــ مفيش كلام !
* ايه هى ؟
ــ الكلمة الحلوة .. قلبى وعقلى مفتاحهما الكلمة الدوق !
* وهل أزمتك الاخيرة مع فؤاد سببها كلمة قليلة الدوق ؟ !
ــ وحياتك عندى : لحد هنا .. واسمح لى !

سميحة أيوب :
لكى يهدأ الأغبياء !

همهمة . غمغمة . حركات غريبة . تحركات ملسوعة فى كواليس المسرح القومى . والممثلون وجلون . المنطق معهم والانسجام وهم يخبون فى أرديتهم الاغريقيـــة الفضفاضة . لـكن المنطق سرعان مايسقط مع الانسجام عندما يطفىء أحدهم عصبيته بسيجارة بلمونت يشعلها ويفنى فى أنفاسها .. حتى الاغريق أهل مدينـــــة « أرجوس » كانوا يدخنون البلمونت ؟ !

« سارتر وصل ياجماعة .. استعدوا » .. يهرول المخرج ســـعد أردش ينشر الخبر فى الـكواليس . المدخنون من أهل ارجوس يطفئون أعقـــاب البلمونت ويسرعون كل فى اتجاه . وسميحة أيوب ـ اليكترا . الندم . سارتر ـ واقفة آمنة . لـكنه أمان مصطنع ! منذ أرسل سارتر قبل وصوله القاهرة بشهرين يطلب أن يرى « ندمه » على المسرح ، وهى تصطنع هـــذا الامان ! مسيو كلودستيه رئيس تحرير «الاوبزيرفاتير» الباريسية قال لها بمواجهة : « لابد أن يراك ســارتر بنفسه . لـكنه فنان صريح فاحذريه . انه اذا لم يعجبه اداؤك سوف يفجر رأيه فى وجهك دون أى مجاملة ! »

.. وفى الاسبوع الاخير قبل العرض كانت سميحة قد فلسفت الموقف لنفسها بنفسها : « كل جهـــدى وفنى اقدمه . واعجابه نصر فنى . أما عدم اعجابه فأعذاره كثيرة . ربما كان متعبا من زحمة برنامج زيارته . ربما كان لحظتها عكر المزاج . العيب فيه اذن ، وليس فى

فنى ! » .. وارتاحت سميحة لهذا الافتراض. ارتاحت اكثر عندما ضمها زوجها سعد الدين وهبة الى صدره قبل أن يغادرا الشقة ــ ١٥ ش أبو الفداء الزمالك . ت ٨١٨٥٨٣ ــ وهمس بتمن : « باذن الله تبيضى وشى الفن الليلة دى » !

لكن خبر وصول سارتر الى المسرح هز كل شىء . حتى دقات قلبها احتدت عليها وارتفع صوتها ، والممثلون وأفراد الكورس الذين سبقوها الى الظهور على المسرح يؤدون بتوتر وعصبية . يادى المصيبة ! وسحبت كرسيا وانهارت عليه لتستريح الدقائق القليلة الباقية. ثم انطلقت فى موعدها بالضبط الى عرض المسرح. اليكترا فى ثوبها الابيض ، وفى قمة البهجة ، وأهل أرجوس كلهم يعصرهم الندم والحداد . ويعترضها ايجست كمسمار شائك : « ما معنى هذا الثوب الابيض ؟ ! » وترد بنت أجا ممنون : « لبست أفخر ثيابى . أليس هذا يوم عيد ؟ ! الحداد ؟ ! لست أخاف موتاى ، ولا شأن لى بموتاكم » ! وترقص اليكترا . وتشيع البهجة فى نفوس نساء أرجوس ، فيخلعن أقنعة الحزن والندم ويرقصن معها. . وينقر سارتر بأصابع يده اليمنى على مسند مقعده طربا لهذا الاستهلال الموفق !

وينتهى الفصل . ويصعد سارتر ليشد على يد الجميع . يخص سميحة بعبارته الفرنسية .. « اليكترا بتاعتى .. بنت اجاممنون الحقيقية .. كم كنت رائعة .. ! » وتلاحقها مدام سيمون دى بوفوار .. « لم أكن اتصور أن أجد هنا كل هذا الفن » ! .. ووسط هذا العطر ، يقول لويس عوض للمخرج سعد أدرش بصوت مسموع: يا أخى ماكنتش قادر تخليهم يقولوا أوريست ، بدلا من أوروست ؟ ! » دكتور لويس يقصد ان يكون نطق

أسماء أبطال الرواية فرنسيا صحيحا . ملاحظة شكلية بدت فى غير محلها وسط كل هذا الثناء على المضمون !

***

قولى « ياسميحة اليكترا » !..

* سميحة عثمان أحمد على أيوب . أسماء شهرة فنية : رابعة العدوية. سمارة. فاكر سمارة ؟! زوجى سعد قدام الناس يقول لى : ياسميحة . وبيننا وبين بعض يقول لى : ياروحى !

٨ مارس سنة ٣٣ . لا .. اذا كان علشان خاطرك نخليها ٣٤ ! سوق السلاح . بيت وقف قديم زى بيت جحا تدخله ماتعرفش تطلع منه ، بيت العـــائلة ! أبى كان ناظر وقف الامير على كاشف . حلوا الوقف سنة ٥٣ فنابه ١٩ الف جنيه. رضا! لكنه كان يتصور ان الحجج تعطيه ملكية حى السيدة زينب بأكمله . صرف الـ ١٩ الف جنيه على القضايا ليفوز بحى السـيدة . فخسر كل شيء !

٣ بنات . الوسطى أنا . متزوجتان وليست لهما بالفن صلة .

* ٤ سنين. جاردان مدرسة ، زى ماتقول مدرسة حضانة . طفل زميلى ، لكنى أحبه ! مصروفى مليمان أشـــترى كل يوم بمليم طرشى وبمليم تلج أقرقشة . الطفل حبيبى يحب البونبونى. أحيانا يعطينى واحدة. وأجامله فأعطيه قرن شطة مخلل .. يأكله . يتألم من الحرقان حتى البكاء . يصعب علي. أهوى له بكراستى على فمه الى ان ينسحب الألم !

فى يوم ضبطته يلعب مع طفلة أخرى . لازمها اغلب النهـــار . جاء بعدها يكلمنى فلم أرد عليه . سقط من عينى .. الخائن الصغير !

* تعليمي : مدرسة سان جوزيف . ٦ سنوات ، لكنى لم أدخل امتحان السرتيفيكا . شهور قليلة فى مدرسة النيل الثانوية . سنتان فى مدرسة التجارة المتوسطة . تخبط ، فأبى غارق فى قضايا الوقف ، وامى ست دقة قديمة تعليم البنت فى رأيها.. زى عدمه ! زينب بنت زميلتى فى التجارة . قدمت فى معهد التمثيل ورايحه تمتحن.. « تيجى معايا ياسميحه . دانتى حتشوفى كل ممثلين البلد ؟!» .. رحت معاها بمريلة المدرسة الزرقاء ، وشعرى المتهدل كخيوط المكرونة الاسباجتى !.. زكى طليمات : « تحبى تمثلى ايه ؟».. افتكرنى جايه امتحن ! سقت فيها .. « أمثل حاجه ليوسف وهبى».. ضحك يوسف وهبى فى قعدته وسط هيئة الممتحنين ! قلت لهم حتة من سكتش دينى بالفرنسية تعلمته من أيام مدرسة سان جوزيف . قبلونى مستمعة. قبلوا فى دفعتى فاتن حمامة ، لكنها لم تستمر فى الدراسة أكثر من سنة واحدة ! بعد شهور من المثابرة قيدونى طالبة منتظمة بالمعهد ، واعطونى ٦جنيهات فى الشهر مثل بقية الطالبات . فرحت بالمبلغ ، كأنه ٦ ملايين !

... أخذت الدبلوم سنة ٥٣ والتقدير : جيد جدا .

* ثقافتى : قرأت فى حرفية المسرح . نصوص مسرحيات . أدب معاصر ، مصرى وعالمى . فى مكتبة البيت ٢٠٠٠ كتاب تقريبا . نصفها قرأته ، والنصف الآخر نفسى أقرأه ! لا . لاأشترى . سعد هو الذى يمون المكتبة أولا بأول . أقرأ الصحف الثلاث ، لكنى أثق أكثر بأخبار « الاهرام » . المجلات الاسبوعية عدد فاضى ، وعدد ملىء بالمواد القوية . لماذا يتذبذب خطها البيانى هكذا ؟ يبدو انهم يعملون فى المجلات الاسبوعية

من غير خطة !.. « بصوتي : ملاحظتـــك صحيحة ياسميحة ! »

* معدني الفني موجود أصلا. انما كان عليه تراب .. تراب الحساب الجاري . ومسك الدفاتر . وطرق التجارة التي درستها في مدرسة التجارة ! في معهد التمثيل نفخوا التراب ، بان المعدن !

* ١٠٠ مسرحية تقريبا . أولها دور « ماريان » في « البخيل » أيام المعهد . واعزها « الانسان الطيب » لبريخت . أعتبر دوري ، دور « ليزا ماكاي » في «المومس الفاضلة» ، أهم نقطة تحول في حياتي المسرحية .. عملته سنة ٥٨ . أول دور معقد «كاراكتير» أخرج به على روتين أدواري الناعمة السابقة . بين الـ ١٠٠ مسرحيـة التي اشتركت فيها ما بين ٢٠ و ٣٠ فقط مصرية عصرية ، والباقي مسرحيـــات مترجمة اغلبها تاريخي ، وبالذات من أصل اغريقي ! مثلت كذلك أغلب مسرحيات توفيق الحكيم ، وسعد وهبة . لا ، فيه فرق .. زمان كنت قالب . الآن عجينة طيعة ومرنة واكثر نضجا ! احب شيل الحديد في المسرح .. أحب اشيل الادوار الخصبـة الصعبة ! أول أجر لي بعـد الاحتراف ٧ جنيهات من المسرح الحديث ، الآن لا أعرف مرتبي بالضبط .. كل اشهر أقبض رقم شكل ! ..

* كويسة ورخيصة وبنت مسرح ، لكن بختي مع السينما نعسان ! ٢٠ فيلما . أولها دور صغير في فيلم « المتشردة » وآخرها دور البطولة في «جفت الامطار». بدأ أجري بـ ٣٠ جنيها . الآن الف جنيه .

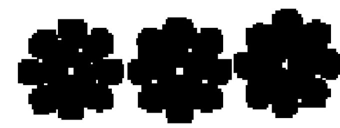
* الاذاعة معهد لتربية أصوات الممثلين . صـوتي يعرف طريقه الى ميكروفون الاذاعة في «عذراء الربيع» ؛ برنامج غنائي سنة ٤٩ . حتى الآن أكثر من ٥٠٠ تمثيلية

وبرنامج . أكثرها قيمة : رابعة العدوية ؛ وأكثرها شهرة : « سمارة » ! ١٠ جنيهات فى النصف ساعة.. كانوا ٢ وانا مبتدئة !

* التليفزيون نبع وتدفق لستر فنانى المسرح ماديا ! حاجات كتير نجحت لى على شاشته : خيال المآتة ، الجدار ، الضحية ، لقاء الوداع ، والطريق ٤٠ جنيها فى النصف ساعة .

* سميحة أيوب ٦٠ سنة ؟ تقصد «تيزة سميحة»؟! يتهيأ لى حتكون الصحة عدمت . لكن سنى لن تعوقنى عن أداء الادوار الكبيرة المناسبة .. « أم » مكسيم جوركى مثلا . وجايز اتجه بشدة للاخراج المسرحى .. مين عارف ! ؟

* أمراض دائمة .. لا ! بس عندى ضعف فى الاعصاب . باخد مهدىء « أنسيدون » . ميزته انه يهدىء الاعصاب ، ويعالجها أيضا . وميزة ثانية : تعاطيه لايؤدى الى الادمان !



* وعيت على دنيا الانثى لقيت نفسى متزوجة الممثل محسن سرحان ! ابنى محمود الآن عمره ٢٣ سنة . قسوة منه ، وعدم تكافؤ فى السن . مرحلة خايبة فى حياتى استمرت ٣ سنين ! محمود مرسي زوجى الثانى . أستاذ فى فنه لى منه ابنى علاء ١٥ سنة . الحب يزرعه اثنان ، ويقتلعه اثنان : أى حبيبين !

* زوجى سعد وهبة . شفت له « المحروسة» سنة ٦١ ، قلت المسرح كسب قلما جديدا يكتب له ! ابلغته اعجابى . سنة ٦٢ ، نقرأ « السبنسة » استعدادا لتقديمها . أحسست باهتمامه بى . فاجاتنا اشاعة بأننا بنخرج نتفسح مع بعض. الاشاعة ، رغم كذبها ، قربتنا

لبعض أكثر ! من الاعجاب الثنائى نبت الحب . تزوجنا فى ٢٩ سبتمبر سنة ٦٣ . انجب ؟.. ولماذا أظلم طفلا ثالثا ؟ !

* الناس زى الايام ، فيهم الحلوة والمرة . لكنى لم أعد أبكى زى زمان كلما خاب أملى فى انسان ! أقرف من النفاق ، لا أحب أن أسمعه موجها لى .. أيضا تقطع رقبتى ولا أنافق أحدا !

* أخاف من الموت . كيف يسقط الانسان الباسق الجياش هكذا فجأة ؟ ! كيف يصمت الناطق ؟ ! ضعفى نحو الالم ـ الم الآخرين ـ يبلغ حد الانهيار !

* حسابى مع نفسى حساب يومى . أصفيه أولا بأول ، ثم أضع دماغى على المخدة .. فأنام ! أحيانا تترسب فى نفسى على مدى النهار تراكمات معتمة ، فأحس انى مكبوسة بلا سبب مباشر .. ويكفى أن أصرخ ـ أينما كنت ـ صرخة طويلة مليئة ، فأشفى على الفور من كبستى !



اقول لك ياسميحة :

* زوجة المسئول عن عملها . زوجة سعد الدين وهبة ، أحد كبار المسئولين فى وزارة الثقافة .. كسبانة والا خسرانة ؟ !

ـ خسرانة مية المية . لقد طلقت السينما طول ماهو فى منصبه ، ليهدأ الاغبياء !

* ولو جاء فى منصب مسئول عن المسرح ؟

ـ لا .. هنا مفيش أى حرج . المسرح أصلا بتاعى !! الا اذا عينوه مديرا للفرقة القومية ، ساعتها أشوف لى فرقة تانية أشتغل فيها !

* بالقياس : فاكره نجيب محفوظ أيام ما مسك

مؤسسة السينما ، منع رواياته من انها تروح السينما !

عمل زى ناظر المدرسة اللى رفد أولاده من مدرسته خوفا من شبهة الكوسة ! ؟

ـ بالضبط .. نجيب محفوظ هو نجيب محفوظ ، قبل الوظيفة ، وبعد الوظيفة . فلماذا لا يكون كذلك أثناء ممارسته للوظيفة ؟!

* هذه الحساسية . هذا الميل الغريزى لاستعمال « حزام العفة » فى غير موضعه ، خوفا من الشبهة .. نعالجه بأيه ؟

ـ بقانون يحتم على كل مسئول فى الدولة تعددت صلاحياته ، أن يجند كل هذه الصلاحيات فى خدمة الدولة .. دون حرج !

* هذا ليس علاجا . انه ضد قانون « الوظيفة الواحدة » . وضد تقدم صفوف الاجيال الى مواقع القيادة ، بصورة طبيعية ! ان المسألة فى حاجة الى ضبط أكثر دقة .. : رأيى !

سناء جميل :
.. أحكى لكم عن عقدتى !

من اول كلمة احسست أنها تصدر عن صدق نفسى ، فأعطيت لكلامها ثقتى !

قالت لى ان فى أغوار شخصيتها عقدتان نفسيتان . عقدة الاحمر ، وعقدة الاصفر !.. استمعت وصدقت !

قالت لى ان عقدة الاحمر هى عقدة الدم . وعمرها ٥ سنين ، أعطاها ابوها يوسف عطا الله المحامى ٥ قروش كاملة مصروفا من غير مناسبة . أو لعله كانت هناك مناسبة لا تذكرها . أخذت القروش الخمسة ونزلت على سلم البيت فى حى فيكتوريا بالاسكندرية تقفز لتصرف ما فى الجيب . عادتها من صغرها أن تقفز بدلا من أن تمشى ، وأن تصرف كل ما فى الجيب !.. التوت تحتها قدمها ، فارتطمت جبهتها بالحائط ، ثم ارتدت الى الخلف لترتطم مؤخرة رأسها ببسطة السلم . لم تفزع من ألم الجراح قدر فزعها من منظر الدم وهو يتدفق فوق ملابسها البيضاء طوفانا أحمر ! وراحت القروش الخمسة . وبقيت لها عقدة الدم ! اصبحت لاتطيق منظر فرخة تذبحها سكين ! وساقتها ظروفها مرة الى احدى دور السينما تعرض فيلما أمريكيا .. فى الفيلم قطيع بقر لابد أن يعبر نهرا . فى النهر أسماك متوحشة وفكر راعى البقران يلقى للأسماك ببقرة تنشغل بالتهامها الى أن يعبر القطيع النهر . ألقى البقرة . ركزت العدسة عليها والاسماك تنهشها بقسوة ، ودمها يتدفق ليملأ الشاشة الملونة ، ويختلط بمياه النهر . وصرخت

« ثريا يوسف عطا الله » ـ اسمها الذى تعرفه : سناء جميل ! ـ وتقلصت معدتها حتى كادت تفرغ مافيها.. وأسرعت تهرول بخطوات مضطربة خارجة من السينما!

قالت لى : « بيقولوا من يعرف الاصل البعيد لعقدته النفسية فانه يتحرر منها .. وأنا أعرف أصل عقدتى ، ولكنى ما زلت عبدة لها ! »

... واستمعت وصدقت !

وقالت لى ان «عقدة الاصفر» سببها أمها ! كانت سيدة سمينة ، لها تحت ذقنها «لغد» . وكان من عادة الصغيرة ثريا أن تداعب أمها بأن تقرصها من لغدها ! وفى صباح استيقظت مبكرة وصعدت الى سرير أمها لتمارس مع لغدها مداعبتها اليومية . فوجئت بأمها ممددة واهنة الانفاس . وعيناها صفراوتان ، وجاء الطبيب ليقرر أن الام مريضة بالصفراء والتهاب حاد فى المرارة . ومن يومها والكبيرة ثريا تفتح عينيها على اتساعهما كل صباح امام المرآة ، لتتأكد من بياضهما ، خوفا من مرض الصفراء !

... واستمعت وصدقت !

وقالت لى ان عمرها ٤٩ سنة .. فهى من مواليد ٧ ابريل سنة ٢٦ . ثم عادت فقالت انها آسفة لان ذاكرتها ضعيفة من ناحية الارقام ، وانها من مواليد سنة ٣٠ ، فى نفس الشهر واليوم .

... واستمعت . لكنى ـ الحقيقة ـ احترت اى الرقمين أصدق ؟ !



قالت لى : « انا مانيانى المصرية » فى شهادة النقاد. وثريا يوسف عطاالله فى شهادة الميلاد .. وسناء جميل فى شهادة الفن ! ..

* تعلمت كيف أفك الخط من الشمال لليمين فى مدرسة الميردى ديبه . كنت فى القسم الداخلى. شقية جدا . زعيمة جدا . أكبر شلة بين البنات كانت شلتى!

دخلت فريق التمثيل ، انتخبونى رئيسة للفريق من أول يوم ! كنت جشعة فنيا .. أختار لنفسى أعظم الادوار ، واترك الأدوار الهزيلة لفراخ الفرقة ! أول مسرحية قدمتها الفرقة فى حفل نصف السنة كانت مسرحية «سندريللا» اخترت لنفسى دور الساحرة التى مهدت لسندريللا الطريق الى قلب الامير ! وكانت « الاخت تيريز» مراقبة الفصل ساخطة على لشقاوتى .. لكنها كانت معجبة بفنى .. وكنت أنتظر يوم الحفل كل سنة بفارغ الصبر لكى أتلقى من الاخت تيريز كلمة اعجاب حلوة تروينى !

* أعترف انى كذبت على « أبونا » الكسندر قسيس كنيسة المدرسة وأنا « أعترف » أمامه ! كان من عادة التلميذات أن يجلسن أمامه كل أحد ويعترفن . وكنت أعتبر البنت التى تعترف أمام الاب الكسندر وتتناول منه كسرة القربان بنتا فاضلة مطهرة . لكن ماذا أقول للأب الكسندر ؟ ماذا يمكن أن ترتكبه بنت صغيرة فى مدرسة مغلقة الابواب ؟ ! لجأت الى خيالى لافوز ببركة الاب الكسندر . اعتدت أن أكذب عليه كل أسبوع كذبة جديدة .. « لم أود صلاتى قبل أن انام بالامس يا أبانا .. » .. « شتمت فايزة زميلتى يا أبانا وكذبت عليها .. » .. ويأمرنى الاب الطيب بأن أردد « أبانا الذى فى السموات ... » ٥٠ أو ١٠٠ مرة حسب جسامة الذنب .. ثم يمنحنى كسرة من قربانه !

... الرب يغفر لى !

* أخذت شهادة « الباشو » ـ الابتدائية ـ سنة

٤٣ ، كان ترتيبى الثالثة على المدرسة . أبى حجزنى فى البيت لكى أنتظر ابن الحلال . لكننى كنت طاقة متفجرة ، لا تركد ولا تنتظر ! .. كنت أدور كالنحلة فى غرف البيت : أمسح البلاط ، وادهن الباركيه ، وأطبخ طعام العائلة. فاذا فرغت من شغل البيت ، جلست فى ركن من بلكونة البيت أقرأ « كليلة ودمنة » و « ألف ليلة وليلة » لاسترد لغتى العربية التى فقدتها فى مدرسة الميردى ديبه ! صممت على أن أكمل تعليمى . قرأت فى « أخبار اليوم » وصفا حزينا لموكب محمود العيسوى قاتل أحمد ماهر وهو فى طريقه الى المشنقة . بكيت اشفاقا عليه . قررت أن أدخل كلية الحقوق وأطلع محامية !

* دخلت مدرسة «كورموران» الثانوية . وصلت فيها حتى السنة الثالثة . لم تعجبنى المدرسة ولا الدراسة. كان النظام فيها سائبا .. والبنات «يزوغن» من الحصص ويقضين النهار مع الشبان فى حديقة الاسماك . ترحمت على أيام الداخلية الصارمة فى مدرسة الميردى ديبه !

* التقيت بصلاح سيد أحمد . شاب جارنا ضابط فى الجيش ، وكنت صديقة لزوجته . كان يهوى التمثيل ويستعد لتقديم أوراق التحاقه بمعهد التمثيل. اغرانى بأن أقدم أوراقى معه الى المعهد . دخلت المعهد سنة ٥١ . كان زكى طليمات فى منصب العميد .اسس العميد فرقة « المسرح الحديث » . استعان بعناصر من طلبة المعهد وطالباته ، وكنت منهن . زكى طليمات هو الذى اختار لى اسمى الفنى : سناء جميل !

* كانت طريقتى فى الالقاء ركيكة للغاية .. فلم أكن بعد قد استرددت لغتى العربية التى فقدتها فى مدرسة

المبردى ديبه ! استعنت بمدرس خصـوصى أعطانى فى سنة كاملة جانبا من دروس النحو والصرف والبلاغة . قرأت بنهم أعمال توفيق الحكيم وطه حسين . قرأت عددا من المترجمات، خصوصا ماعرف منها عن الفرنسية. وكنت اقرأ الاصل الفرنسي والترجمة العربيـة فى وقت واحد ، وأتأمل كيف استطاع المترجم ان ينقل الى العربية الجو الفنى أو الادبى للنص الفرنسى . تمكنت من لغتى العربية !



* شهد مسرح الازبكية مولدى الفنى شتـاء سـنة ٥٢ . كنت مع فرقة المسرح الحديث نقـدم لموليير الساخر مسرحيـة « مريض الوهم » . مثلت دور « انطوانيت » الوصـيفة فى بيت الرجل الموهوم على روحه الذى تخونه زوجته ، وتحب بنته شابا وتريد أن تتزوجه. ومع النمو الدرامي للدور، اتخفى فى النهاية فى شخصية طبيب ، وانجح فى اقناع الرجل الموهوم بأنه ليس مريضا ، وبأن زوجتـه تخونه ، وبأنه يجب أن يستجيب لنداء الحب ويسمح لابنته بأن تتزوج الشاب الذى تحبه ! تألقت فنيا فى هذا الدور بشهادة النقاد؛ وكلمات الاعجاب التى تلقيتها من زملاء فنى .

كنت اتقاضى ٦ جنيهات فقط مرتبا من الفرقة . و ٦ جنيهات اخرى منحة من المعهد لى ، ولـكل طالبة تعمل على المسرح .. من قلتهن أيامها !

* استقال زكى طليمات من منصب العميد . ضمت فرقة المسرح الحديث لفرقة المسرح القومى ، وكان يديرها يوسف وهبى . خلافات. معاملة لا تليق . ادوار صغيرة وتافهة لا تتجاوز الوقوف على المسرح نصـف دقيقة والقاء كلمة واحدة ! أخذت فنى بين أحضانى واستقلت!

هرب معى أغلب الكفاءات الفنية الشابة ، أمثال : نور الدمرداش ، عبد المنعم ابراهيم ، وعصمت رافت .
أخذت دبلوم المعهد سنة ٥٤ ، كان ترتيبى الثالثة فى المواد ، والاولى فى التمثيل !

* اشتغلت بفرقة اسماعيل يس عند افتتاحها . امضيت فى الفرقة ١٠ أشهر اعرق كل ليلة على خشبة المسرح . وفى الآخر فصلتنى السيدة فوزية حرم اسماعيل يس ! .. دعتنى ضمن اعضاء الفرقة على حفل عيد ميلاد ابنها اسماعيل . انشغلت فلم أذهب فى الموعد . قالت عنى « الست » انى « قليطة » واصدرت أمرها الى المرحوم أبو السعود الابيارى بفصلى . رجانى الابيارى ان أعتذر لها واسوى المشكلة . أبت على كرامتى! قعدت شهرين ــ بقية مدة العقد ــ اقبض ٣٠ جنيها مرتبى دون عمل . وتدور الايام ويجىء اسماعيل يس، الله يرحمه ، ليقول فى التليفزيون ان سناء جميل « تخرجت » فى فرقته !

* وسنة أخرى ضائعة اشتغلتها فى المسرح العسكرى وجاء أحمد حمروش ليدير المسرح القومى . سأل وعرف كل شىء عن الكفاءات الشابة التى هربت من المسرح أيام يوسف وهبى . طلبنا . عدنا كلنا الى الفرقة كانت أيام حمروش العصر الماسى للفرقة . انشأ مكتبة فنية . انفتحت الفرقة على العالم العربى . سافرت الى الكويت ولبنان وسوريا والمغرب . قدمت مسرحيات عظيمة عالمية ومحلية : ماكبث شيكسبير . ثم غاب القمر لشتاينبيك . سلطان الظلام لتولستوى . بيت من زجاج لجان كوكتو . والناس اللى فوق لنعمان عاشور !
كان أجرى أيامها ٣٠ جنيه . اليوم لم يزد كثيرا .. اصبح ٨٥ جنيها . من يتصور ؟!

* حكايتى مع السينما حكاية غامضة وغير مفهومة ! بدايتى شهد لها الجميع سنة ٥٩ فى فيلم «بداية ونهاية» الفيلم فاز بالجائزة الثالثة فى مهرجان موسكو . كتب النقاد السوفييت اعمدة المديح لفن « نفيسة» ، اسمى فى الفيلم . كان أجرى فى منتهى التواضـــع ، ١٥٠ جنيها ! بعده بطولة فيلم « بلا دموع » . ثم « فجر يوم جديد » سنة ٦٢ .. وقفز أجرى فيه الى ألف جنيه ، وهو أيضا رقم متواضع ! ومن يومها لم يسأل احد عنى! هل لانى بدأت بأجر متواضع ؟ أم لانى كنت أذهب فى مواعيد الاستوديو بدقة « ساعة الجامعة » ، بينما يتأخر غيرى بالنصف يوم ؟ ! أم لانى كنت أحفظ أدوارى صم ، وأقف أمام الـكاميرا وأنا فى «الفورمة» ، فلا تعاد لى لقطة واحدة ؟ !.. لا افهم !

سمعت أنهم فى بيروت أنشأوا ناديا فنيا باسم أصدقاء فن سناء جميــل . وصلنى أخيرا عرض ببطولة فيلم لبنانى . صعب على !

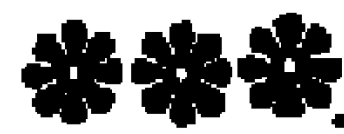
* اشتركت فى ٤٠ تمثيلية تليفزيونية . أعتز منها بأدوارى فى : رنين . الوارثة . التمثال . أجرى ٤٠ جنيها عن النصف ساعة . قدمت فى الاذاعة حوالى ٢٠٠ تمثيلية فى ١٩ سنة . لا اظهر على المسرح القومى طوال الموسم ـ أى موسم ـ غير مرة واحدة ! اذا كان الموسم القادم ينتظرنى بمثل هذه البطالة المقنعة فسوف أستقيل .. انى لا أرضى أن أتقاضى أجرا ، مهما كانت ضآلته ، بلا عمل !

* زوجى لويس جريس، العضو المنتدب لمؤسسة روز اليوسف التقيت به فى بيتى ! صديقتى خـديجة صفوت الصحفية السودانية عرضت على ان تقيم حفلا تكريم للصحفيين الذين ساعدوها فى مهمتها فى القـاهرة

سنة ٦٠ .. لم تجد مكانا لاقامة الحفل بتكاليف معقولة. عرضت عليهاان تقيم الحفل فى بيتى . جاء لويس مع زملائه وفى قلبـــه نيه مبيتة . شاهد فى فيلم « بدايه ونهاية » قبل أن يحضر الحفل . راح يناقشنى فى دورى ولما فرغت معلوماته عنالفيلماستسلم لصمته وخجله. أحسستبقلبىانالمسألةليستمسألة «نفيسة بدايةونهاية» وانما مسألة سناء جميـــل شخصيا ! تتبعت كتاباته فى صباح الخير . وفى يوم اتصل بى بالتليفون وهمس من أول كلمة : « تتجوزينى ؟ » .. سقطت السماعة من يدى على السجادة من فرط الارتبـــــاك . ومن فرط الارتباكأيضالماستطع انأرفعها.. فتمددت علىالسجادة بجوارها وهمست من قلبى : موافقة. ياطفلىالخجول!

✻ لا أستطيع أن ادعى أن بينى وبين سميحة ايوب صداقة عميقة . كل مابيننا زمالة عميقة لم نشأ فى يوم أن نرفعها الى مستوى الصداقة ! هى ممثلة عظيمـــة ومتطورة . لم أقلد فى يوم فنها ، وهى أيضا . لمـــاذا يقارنون بيننا اليوم ويضعوننا فى موقف المبارزة ؟

ويتكلم لويس جريس بعد صمت دام ٤ ساعات منذ بدأت قعدتنا : « ربما لانكما أهم فرستين تركضان على خشبة المسرح ! »



قلت للسيدة حرم لويس جريس :

✻ نتكلم الآن عن اقتصادياتك كفنانة ، وعن قضيـــة الفنان و « أكل العيش » .. لك رصيد فى البنك ؟

— خمسة جنيهات وضعها لويس باسمى فى دفتـــر توفير أيام حملة الادخار التى تبنتها مؤسســـة « روز اليوسف » !

✻ وكم متوسطدخلك الشهرى ؟

ـ احيانا يرتفع الى ٢٥٠ جنيها . وأحيانا لا أجد غير مرتبى من المسرح !

* ومتوسط انفاقك ؟

ـ الطرفان فى بيتنا يتقابلان .. الدخل والمصروف .. و « الله جاب ، الله خد » !

* مدينة ؟

ـ انى أومن بالحكمة الانجليزية التى تقول : ابدا لا تكن دائنا .. ولا مدينا !

* عند مستوى اقتصادى معين .. عند مستوى كاف من رصيد المال يضمن احتياجات الحياة المقبلة .. يستطيع الفنان أن يفرض فنه لوجه الفن وحده ، دون تقيد بمقتضيات أكل العيش .. لاى حد تخضعين فنك لخبزك ؟

ـ أنا لا أقبل عملا لا اقتنع به فنيا مقدما .. ولن أعملها ولو مت من الجوع !

* غيرك يعملها ؟ !

ـ حرام أن يصل الفنان فى بلدنا الى هذا المستوى .. حرام أن يتنقل فنان كبير مثل توفيق الدقن بين استوديوهات الاذاعة والتليفزيون والسينما ، وكأنه يلعب « دوخينى يالمونة » لكى يلقط الرزق الكافى له ولعياله .. مع انه مريض : عنده سكر ، وعنده ضغط، وعنده طقم أسنان .. منتهى الحرام !

* تعرفين قيمة القرش ؟

ـ لا !

* تشربين ؟

ـ القليل يصلح المعدة ، ويرطب الاعصاب !

* أى خبز تأكلين .. البلدى أم الفينو ؟

ـ البلدى يوكل .. رغم سماره !

* حدثينى عن طموحك المـادى .. طموح الفلوس وحب التملك ؟

ـ لااعتقد انى سأملك يوما شيئا له قيمة.. ارضا مثلا أو عمارة . وكل ما أخشاه أن أمرض يوما ، فلا أجد أجر الطبيب !

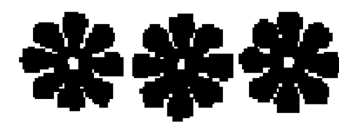
صفية المهندس :
صوت بنت في الجامعة .. بضفاير ثانوى !

مساحة كبيرة من شخصية «ماما شارو» ، أو صفية المهندس ، تجدها عريانة فى برنامج «الخير والبركة» ! فيه بنوتها لابيها - ٨٠ سنة - الذى تعيش معه فى « بيتها » ، وتخدمه بكفوف الراحة ! وفيه وفاء لذكرى أمها التى رحلت من زمن ، وتتمنى لو تعرف طول ذبذبة روحها لترسل اليها البرنامج على نفس الموجة ! فيه وفاؤها ووجدانها البللورى الصافى . فيه رومانسيتها وحساسيتها المفرطة ، حساسية المريض نحو الصحة ، والفنان نحو كل قيمة جمال ! وفيه - ربما - عملية تقديم « سبت » لمن يريد أن يجد « الاحد » فى المستقبل قدامه !.. فماما شارو عبرت سن الاربعين بشهور ، وعدد من السنين لا يعلم مداها الا الله ، وادارة شئون العاملين بالاذاعة !

لكنها أكثر صحة . أكثر سمنة . أكثر أمومة . زمان شوية كنت أقول لها « يا ماما صفية » ، فهى تصر على انى شبه ابنها مصطفى الخالق الناطق ! .. لكنى لما التقيت بها اليومين دول اتكسفت اقول لها « يا ماما صفية » .. قلت لها : « يا أبله ! » ويزيد من شباب أبلتى جمال صوتها وسلامته وصغر سنه .. صوتها فى أذنى - راديو . تليفون . سماع مباشر - صوت بنت فى سنة أولى جامعة ، تحتفظ خلف ظهرها بضفاير ثانوى ! ..

... انأخوف ما أخافه أن يأسر صوتها أحد الشبان،

فيتقدم بسلامة نية الى زوجها و « أبو عيالها » الثلاثة .. بطلب يدها ! !



قالت لي صفية المهندس، اول وكيلة وزارة في الاذاعة المصرية ، ونحن نتكلم عن الشهرة .. « شهرة ايه يا أخ .. طيب بذمتك مين فينا أشهر من الثانى .. أنا والا مسحوق رابسو ؟ ! »

والاجابة الموزونة مثل تواضعها : مسحوق «رابسو» طبعا !

وبرنامج « الخير والبركة » ـ رغم اعباء الست الوكيلة ! هو آخر عنقود ابله صفية . الاخ الاصغر لبرنامج « ربات البيوت » وبرنامج « المراة العاملة ». تقدمه بعد اللحن المميز الرقيق بجمل أكثر رقة.. تقدمه الى الشموع التي اضاءت طريق طفولتنا، وما زالت تشيع الدفء في شبابنا .. الى الذين نخفض لهم جناح الذل من الرحمة .. الى الذين يملئون بيوتنا وحياتنا بالخير والبركة !.. وفكرة البرنامج طلعت لها من البحر في قعدة صيف في المعمورة ، سنة ٦٦ ، عيد ميلاد والدها زكى المهندس . جملة عابرة من قريب يجامل « عقبال ١٠٠ سنة يازكى بيه » .. رد الشيخ بزهد الشيخوخة : « البركة فيكم انتم .. احنا خلاص شبعنا دنيا » .. « ازاى يافندم » .. ده القريب المجامل « ـ ذانتم الخير والبركة » !.. لطشها التعبير التقليدى كأنها تسمعه لاول مرة !.. الاذاعة تهتم بالطفل والرجل والمراة ؛ فلماذا لا تخاطب في برنامج مستقل أهل الخير والبركة ؟ كيف بتجاهل شباب اليوم شباب امبارح بهذه الصورة القاسية ، وكأنهم سيخلدون في الدنيا شبابا ؟! وقررت أن تنفل بنفسها البرنامج ، لكي تزرع الخضرة

فى قلوب شباب امبارح .. تقول لهم أن الحياة بالنسبة لهم لم تنته . وانه يمكنهم فى هذه السن أن يرشفوا بسعادة وتأمل عصير الحياة !

فى حلقة من برنامج الخير والبركة قالت صفية المهندس بخبث لشاعر الشباب أحمد رامى : « لو عملت خط بيانى لشباب أغانيك ، نشوف فيها سنك بالضبط .. فشعرك بكشف عمرك ! فى « أنت الحب » تقول :

ولما أشوف حد يحبك
يحلى لى أجيب سيرتك وياه
أسأله .. ان غبت عنه .. ياحبيبى
يشتاق اليك قدى أنا ؟ !

وتساءلت صفية : « حد يقعد مع العذول، كده رجل على رجل ، ويجيب سيرة الحبيب المشترك.. وياه ؟ ! سلوك يفضح فعلا عمر الحبيب ! » .. ورد رامى : « بالعكس .. أنا قلت فى شبابى معانى أكتر من كده صفاء وسلامة ومسالمة .. أنا طول عمرى راجل مسالم .. حتى مع عواذلى » !

وتشرف صفية المهندس على برنامج « ربات البيوت» منذ صيف سنة ٤٧ ..كان اسم البرنامج « ركن المرأة» . ولم يكن فى الاذاعة كلها غير فستان واحد بداخله المذيعة المبتدئة صفية المهندس، فعهدوا اليها بتقديم البرنامج! ومن سنوات انشطر البرنامج برنامجين : ربات البيوت. والمرأة العاملة .. وتلاحظ صفية المهندس أن ربة البيت بدات تلتحم بالمجتمع ومشاكله .. وكانت الى سنوات قريبة تتصومع داخل مشاكلها مع زوجها .. وتربية أولادها .. وعلاقتها المضطربة بحماتها ! أما أخطر قضية تواجهها المرأة العاملة الآن فهى : ثقافتها التى تنتهى وتتجمد عادة عند حدود المؤهل الدراسى !

وافتح الميكروفون على صفية المهندس ، وأسـيبها تتكلم .. :

* زكي محمد المهندس يبقى والدى .. وكيل المجمع اللغوى الان، وعميد كلية دارالعلوم قبل ٢٠ سنة . والمهندس ليس اسم أحد أجدادى .. هولقب جدى محمد .. فقد كان المهندس الوحيد فى حى سـيدنا الحسين ، فأطلق عليه أهل الحتة « محمد أفندى المهندس» لزق اللقب فى العائلة ! عمرى فىالاذاعة ٢٨ سنة . وفى الدنيا « .. » سنة ! ولانى الانثى الوحيدة الان فى بيتنا ، أتمتع بمركز ممتاز.. الكل يدلعنى .. بابا يناديني «ياصوصو» . وشعبان يقول لى «ياوظـ». أما أولادى الثلاثة فيسألون عنى أباهم اذا وصل البيت قبلى .. « القطة حتيجى امتى من الاذاعة يا بابا ؟! »

بيتنا ، بيت العائلة ، فى العباسية الشرقية .. حى المشاهير . من أولاد الحى : نجيب محفوظ . احسان عبدالقدوس. صلاح الشاهد. انور وجدى. وعبدالحليم .. حافظ لا .. نويرة ! الثانية بعد أختى درية حرم الدكتور ابراهيم انيس أسـتاذ اللغات بجامعة عمان وبعدى بسنة أخى فؤاد المهندس وبعـده بسنة اخى سامى ، وهو مهندس بالاسم والمهنة أيضا !

* جئت اتكلم .. تهتهت ! .. صـاحبتنى التهتهـة حتى المرحـلة الثـانوية . لوتنبألى أحد أيامها بانى سأصبح فى المستقبل مذيعة ، لضحك الجميع للنكتة وفطسـوا ! لكن تهتهتى كانت طريقى الملهم الى ميكروفون الاذاعة .. ساقتنى الى فرق التمثيل فى ثانوى وفى جامعـة .. ورآنى محمد فتحى وانا أمثل مع فريق كلية الآداب على مسرح دار الاوبرا فرشحنى للعمل فى الاذاعة بعـد التخرج .. شـوف النصيب !

انطوائية حتى بين اشقائى. تهتهتى طوتنى ! فى . نوبة ماشية مع ابى ويدى فى يد أخي فؤاد على كورنيش الاسكندرية .. شفت معزة . عيطت وقلت .. « عاوزة و..».. لم يفهمني أبى . ظن أن « فؤاد » قرصنى فقرصه من اذنه عقاباله ! فى البيت عاد أبى يسألنى فقلت له .. « عاوزه م .. بقول عاوزه م .. م .. ع .. ز .. ة » ! اشترى لى معزة . لكنها بعد شهور قفزت من سطوح بيتنا فى العباسية ، وانتحرت!
أبى كان أستاذا فى التربية وعلم النفس . عالجنى بطريقته . نبه على اخوتى بصرامة الا يسخروا منى وأن يستمعوا لتهتهتي بصمت واحترام ! كرر التنبيه على أبلتى فى مدرسة روضة أطفال العباسية. شجعنى دائما على أن أقرأ دروس المطالعة بصوت عال !

* طفل اسمه « كمال » زميلي فى الروضة . جنب بعض على تختة واحدة . ايدينا فى ايدين بعض فى طابور الصباح وهو يمشى الى الفصل . بسكويت وكوب لبن فى الفسحة . لكنه لا يحب البسكويت.. كنت أعطيه كوبى وآخذ نصيبه فى البسكويت .. انا آكل ، وهو يشرب بسعادة ! نقلونا مرة من جنب بعض، فبكينا بكاء حتى صعبنا على الابله فأعادتنا لبعضنا ! فى الجامعة ـ فيما بعد ـ رايحة كلية الآداب ، لقيت كمال رايح كلية الزراعة .. ضحكنا من بعيد لبعيد ، وافتكرنا صداقة البسكويت !
عادية ـ كنت فى دراستى . أتعس لحظاتى اذا جاء مفتش واختارنى لاجيب عن سؤال .. تخرسنى تهتهتى فلا أقول شيئا ، مع ان الاجابة فى رأسى حاضرة ! أخذت الابتدائية سنة ٣٧ .

* مدرسة السنية الثانوية .. دخلت فريق التمثيل

لاحل ما بقى من عقدة لســانى ! كنت أبلد تلميــذات المدرسة فى الهندسة والجبر والتدبير المنزلى ، مع انى درست التدبير على يد أبلة نظيرة نيقولا شخصيا ! دخلت مرة « اليمكخانة » لامتحن فى التدبير . أعطونى فرخة أنظفها وأطبخها ، فقعت مرارتها ، فأصبحت الشوربة فى طعم شربة الملح الانجليزى ! سقطت طبعا . وفى الدور الثانى أعطونى بطة .. سلقتها بأحشائها لاتفادى مرارة مرارتها !.. أبلة نظيرة نجحتنى رغم ذلك ، لكنها قالت لى : « اذا فلحتى .. ابقى قابلينى » !.. وتمر الايام وتقابلنى أبلة نظيرة فعلا .. تجىء لتقول حديثا فى ركن المرأة سنة ٤٩ .. قلت لها بغرور أول الشباب : « ايه رأيك بأه يا أبله .. أدينى فلحت أهه ! ؟ ».. أجابتنى ســاخرة : « أعمل ايه يابنتى .. يدى الفولة للى بلا أسنان » !

* تمكنت منى هواية التمثيل .. فى البيت فى ساعة الفراغ كنت أنزل لامثل فى بير السلم مع أخى فؤاد .. غالبا كان يمثل دور طرزان .. وأحيانا يتصورنى أسدا يهاجمه فيطبق فى زمارة رقبتى بعنف يؤلمنى ! ويضحك أولاد الحتة ، ويدفع كل واحد حق التذكرة شــوية لب ، أو عفاريت الست !

غرقت فى مكتبة أبى .. كتب الادب والتربية وعلم النفس أرفف أرفف ! قراءاتى دفعتنى الى التفوق فى الدراسة . أخــذت البكالوريا ســنة ٤٢ . الاولى على المدرسة ، ٧٦ ٪ ، قسم أدبى .

* أختى درية تزوجت .. اذن أتزوج وأقعد ، بلا دراسة بلا دياولو ! اتجاه عائلى ! صممت على دخول الجامعة ، دخلت كلية الآداب قسم انجليزى . فريق التمثيل بالــكلية كان يقدم حفلاته على أشهر مسارح

المدينة . فى ليـلة كنا نقدم رواية شكسبير « زوجات وندســور المرحات » على مسرح دار الاوبرا . اللورد كيلرن ، المندوب السامي ، موجود . النقراشي رئيس الوزراء . كبـار شخصيات الدولة والحكم ! نجاح . تصفيق فى كل مرة أظهر على المسرح . بابا شارو ــ حكى لى ــ كان بين المتفرجين يومها .. حط عينه على .. راجع البرنامج المطبوع ليعرف اسمى فوجده « صوفى زكى ». قال لنفسه : «تبقى مسيحية موش من دينى » .. وصرف نظر !

* محمد فتحى مراقب برامج بالاذاعة ، يعرفنى من نادى خريجى قسم الادب الانجليزى ، فقد كان رئيس النادى . شافنى أمثل أكثر من مرة . فى مرة قال لى : « يالله شدى حيلك كده وخلصى .. علشـان ناخـدك الاذاعة » !

أخذت الليسانس بدرجة جيد سنة ٤٦ . محمـد فتحى هو الذى أبلغنى بالنتيجة بعد أن عرفهـا من الـكونترول ! عمل لى « تست » سريع ، وقال لى : « تيجى من بكره تستلمى الشغل » ! وافق أبى بعـد تردد ، فقد كان الاشتغال بالاذاعة أيامها تصرفا منتقدا كالاشتغال بالرقص فى شارع محمد على ! أعضاء مجمع الخالدين قابلوا أبى بثورة .. منصور « باشا » فهمى قال له : « بأه تعلمها يا زكى بيه ، وآخرتها ترميها فى الاذاعة ؟ ! ما يصحش برضه ! » .

* وحيدة ــ أيامها ــ فى مبنى كله رجال .. لكنهم فى الاذاعة كانوا يساعدوننى لدرجة التدليل ! تمرنت على العمل الاذاعى مع عبد الوهاب يوسف وعلى الراعى . واجهت الميكروفون لاول مرة لاقدم أغنية « نسمة حائرة» لعبد الوهاب وشعر عزيز أباظة .. من لخمتى قلتها :

« .. شعر عزيز أباشا باظة » ! حتى الآن تنشد أعصابي وأنا أفتح الميكروفون .. ودايما أقرأ الفاتحة!
رواد قهوة البرابرة بشارع الشريفين القديم ، والراديو يذيع بصوتي ، كانوا يقولون لبعضهم : «الحق .. البت أهيه بتقرا » ! وفي مرة دخلت مع أحد المقرئين لاقدم التلاوة ، فانزعج الشيخ وطالب بأن يقدمه مذيع رجل .. بدعوى انه يخشى على نفسه من الفتنة !
* قدمت « ركن المرأة » صيف سنة ٤٧ ، كان مجرد عملية تجميع لكل الاحاديث النسائية الموزعة على البرامج في برنامج واحد ! كان فيه عبارة تقليدية أقولها بعد اللحن المميز للبرنامج .. « سيداتي آنساتي .. ركننا يبدأ الان».. في يوم تغيبت لمرضي.. قدم مذيع زميل البرنامج دون تصرف في التقديم . كان صوته الرجالي وهو يقول .. « ركننا يبدأ الان .. » .. حاجه تضحك !

كان محمد محمود شعبان المشرف على البرامج الثقافية ، بما فيها ركن المرأة . رئيس جاد وصعب . يحاسبني على أقل هفوة حساب الملكين ! اشتكيته مرة لمحمد قاسم مدير الاذاعة ، قال لي المدير : « معلهش يابنتي .. هو يمكن شديد شوية .. لكن ده الاذاعي اللي ممكن يعمل منك حاجة فعلا » !.. وبعد شهور استطاع بابا شارو أن يعمل مني زوجة له ! جاءت ، هكذا ، بعد شيء من الالفة .. قال لي ذات يوم وتقاطيع وجهه لا تفصح عن شيء .. « قولي لي ياصفية .. أقدر أقابل باباكي فين ؟ » .. أجبته : « على قهوة بورفؤاد .. بعد الضهر » .. وجاء أبي آخر النهار يسألني : « ايه رأيك في الاستاذ شعبان ؟ » .. دق قلبي ، وصمت لساني! وكنت قد رفضت قبله عشرات العرسان،

بعضهم أصبح الآن وزيرا أو أستاذا فى الجامعة .. أحسست ان شعبان غير الكل .. جاد ، راجل ، شفاف ، عاطفي ، صافى القلب ، معدن ! تزوجنا فى ٢٣ نوفمبر سنة ٥١ ، ٣ أولاد كلهم صبيان لكنى أحبه أكثر من أولادى !

* الزواج نظام اجتماعى طبيعى . بعد ٢٤ سنة تبقى منه العشرة والالفة ، يبقى السلام والتكافؤ ، يبقى السكن ! والطلاق مهما كانت دوافعه فهو أبغض الحلال .. لكنه قد يكون الحل السعيد لمشكلة شخصين لم يأتلفا ! تمر بنا الان كمجتمع مرحلة انتقال .. ألغينا الزواج عن طريق الخاطبة ، ولم نوجد بديلا للخاطبة كوسيلة للاتصال الاجتماعى .. أولادنا سيجدون بديلا، سيبتكرون تقاليد جديدة للزواج العصرى ! رأيى : ليس اقل من ٥٠ جنيها ميزانية لفتح بيت زوجية مبتدىء ومعقول .. لذلك العروسة العاملة مفضلة دائما .. بنت البيت لم يعد السوق سوقها !

* لا تسألنى عن فشلى ، فأنا محظوظة وموفقة وأمى داعية لى ! كزوجة وأم - أعتقد - ممتازة . كست بيت بالمعنى التقليدى ٥ على ١٠ ! فأنا لا أدخل المطبخ الا لاعمل بعض أصناف الحلو التى أعرفها ! عندى المرارة، مرض مزمن من أيام حملى فى ابنى مصطفى . وعندى ضعف فى الاعصاب . مزاجى النفسى متقلب .. أحيان أجد نفسى « مكبوسة » .. وأحيانا مرحة وفرحتى دندنة طروب على لسانى .. هكذا دون أسباب مباشرة ! أحس ان الدنيا لا تساوى الصراع من أجلها . وأحس انها تتسع لسعادتى ، وسعادتك ، وسعادة الكل !



أقول لصفية المهندس :

* أيهما يعبر أكثر من الآخر : الصوت .. أوالشكل؟
ـ الصوت أصدق .. زى البصمة !
* وكيف ترين بصمتك .. ما هو توصيفك لصوتك؟
ـ يصفهالنقاد أصدق كلمةجميلة كتبها عنى كمال النجمي فى « الـكواكب » ، لا أذكرها ولـكننى أشكرها ! وكلمة كتبها احسان مرة فى « أخبار اليوم » ، قال :
« ... صوت صفية المهندس يشعرنى بأنى فى بيتى ان فيه هـدوء البيت .. وراحة البيت .. واحترام البيت .. وحنان البيت .. وحب البيت » !
* الصوت يفضح صاحبه .. يفضح فيك ايه أكثر؟!
ـ وضوحى ، وطيبة قلبى !
* الصوت الاذاعى الجيد .. ممكن يكون صـــوت غنائى جيد ؟
ـ موش شرط .. ولا العكس أيضا .. هناك مطربات عظيمات تسمع صـوت الواحدة منهن فى التليفون .. ياحفيظ !
* لماذا رفضت الاشتغال بالتليفزيون فى أول أيامه ؟
ـ التليفزيون عاوز دم جديد .. بنات صغيرات يبدأن ويكبرن فيه .. ويبقى بتاعهم وهم بتوعه ! ده زائد ان الراديو خلاص .. حياتى !
* هل صحيح ان الشكل السمح ينفتح أمامه باب الرزق ؟ !
ـ الى حـد كبير .. فالوجه السمح يفتح القلب . وأقصد بالسماحة الوجه الرايق ، المبتسـم البرىء ، لا الوجه الجميل !
* اذن هناك علاقة بين سماحة الوجه ، والنجاح فى الحياة ؟
ـ أكيد !

* وكيف تعللين نجاح القرود .. أقصـد أصحاب الوجوه القبيحة ، لكنهم لامعون فى أعمالهم ؟ !

ـ صاحب الوجه القبيح الناجح غالبا خفيف الدم . موهوب . قوى الشخصية !

* ما هى مواصفات صوت المذيعة الناجحة ؟

ـ السلامة فى التكوين والجاذبية .

* ومواصفات صوت مذيعة التليفزيون الناجحة .. وشكلها ؟

ـ تقاطيع الوجه المعبرة . الشخصيـة المقنعة .. وقبلهما سلامة الصوت وجاذبيته .

* صوتك .. له فضل عليك ؟ !

ـ أى نجاح حققته فى حياتى ـ ان كان هنـاك لى نجاح ! ـ الفضل فيه لصوتى أولا .. وعقلى ثانيا .. وثالثا : لسلامة نيتى !

فؤاد المهندس :
هو .. والمنديل المحلاوى !

تشوفه خلف ساتر الكواليس فى الايام الاولى لأى مسرحية جديدة .. آخر خانكة ! يشد شعر مدبولى من الغيظ !.. ويلعب حواجب الغضب لشويكار، فوق عيون حمراء الهبها ارهاق العمل ، ولبس النظارة الطبية مسافات زمنية طويلة!.. ويأخذ المخرج ركبة فينحنى صاغرا ويتألم !.. ويصرخ فؤاد المهندس بحدة من عل عليه مصرانه الاعور ... « أنا قلت ميت مرة موش عاوز اعمل النص ده . زفت . شخاخ عيال » !!.. هكذا على طول احساسه الاول فى أيام افتتاح مسرحياته الجديدة .. أكثرها نجاحا ، وأكثرها فشلا !.. وأتذكر اسم الدلع الذى كانت تناديه به زوجته السابقة شويكار .. كانت تقول له يا « فو » .. و « فو » بالفرنسية يعنى « مجنون » .. وشويكار تجيد الفرنسية ، بينما لايعرف فؤاد منها غير كلمة « مون ليفر » .. وترجمتها « كتابى » !!

ويظل « فو » تحت جلد دوره وأدوار الآخرين فى المسرحية طول الاسبوع الاول من الافتتاح . صوت الملقن عال ؟ لايهم . المهم أن يصل أعضاء الفرقة الى الفورمة، ويلبسوا الدور دون أن تصدر عنهم اية أخطاء مزعجة! وكلما زادت درجة التوفيق فى الاداء ، كلما زاد عدد الركعات التى يصليها « فو » بجوار الباب الجانبى لمدخل المسرح ، وكلما زادت الركعات طولا وعمقا ..

« باستجديه التوفيق بطمع والحاح .. أستجدى مين غيره ؟! »

وتنقشع ايام الافتتاح بعصبيتها الملونة . يهدأ صوت الملقن بعد أن كان يزعق فى جماعة طرش !.. ويخرج المهندس من تحت جلد دوره ليطل بجزء من انتباهه على المتفرجين . يرى وجوههم وجها وجها ، بعد أن كان لايرى منهم الا صفوفا من الملامح الماسحة !.. يراقب تأثير عبارات الحوار المضحكة فيهم . يسجل فى باطن ذاكرته انطباعا سريعا ! متى يضحكون ؟ ومتى يقزقزون اللب، أو يدخنون السجاير «كتيمى» رغم أنف المحافظ ؟ ! ومتى يأخذ الواحد منهم تعسيلة وكأنه فى بيتهم ؟ ! ومن هذه الحصيلة الانطباعية يعيد المهندس تقدير الموقف الفنى للمسرحية الجديدة ، ويضع على خدودها لمساته الاخيرة !

... ولد فنان . أستاذ . انما : فين المدرسة ؟ !



فؤاد المهندس معك على الخط يقول .. والحديث يطول :

* وعيت لقيت أبويا مفتش لغة عربية ، ولقيته يخلع الجبة والقفطان زى « الدراعمة » ـ خريجى دارالعلوم ـ ويلبس بدلة رمادى مخططة بقلم أزرق ، ويدخل دنيا الافندية ! وعيت لقيت أبويا « بيه » رسمى ... وكنت أحرص على أن أكتب اسمى على كراريس مدرسة الظاهر الابتدائية : فؤاد زكى بك محمد المهندس !

جئت كالفرج فى ٧ سبتمبر سنة ٢٤ ، لاصبح الذكر الوحيد فى البيت اذا استثنينا أبى! ملى صغير ورعيتى أختى درية ، وأختى صفية المهندس ! ٧ سنين وطلباتى فى البيت أوامر .. وفى يوم أحسست أن فى البيت

انقلابا ، وانى أخلع عن عرشى .. غرفة نوم أمى مغلقة وهى تزوم أحيانا ، وتصرخ أحيانا بألم .. هدأ صراخها، وارتفع صراخ غريب يشبه مواء قطة . اقتحمت عليهم الغرفه فوجدتهم مطهومين فى لف مولود صغير فى خرق بيضاء قديمة .. « موش تبوس اخوك سامى يا فؤاد وتقول له حمدلله على السلامة ؟» .. واحسست ان ذلك الحيوان المغموص هو خالعى عن العرش ، ومصدر الخطر على هيبتى وسيادتى . وفزعت الى ابى فى غرفة مكتبه .. « بابا .. الواد اللى انتو جايبينـــه ده .. بيشتمنى » !! وأخذنى ابىعلى قد عقلى.. « معلهش ياحبيبى .. حاقوم دلوقت أكسر لك رقبته » ! تعودت فيما بعد أن أعايش أخى وأحبه ، لـكنى ظللت لفترة أتلذذ بذبح القطط الصغيرة بأى قطعة زجاج أصادفها.. مواؤها كان يذكرنى بلحظة ميلاد أخى ، لحظة سقوط عرشى ! ..

* من صغرى والتقليد لعبتى . أقلد شخصية أى حد بعد ٥ دقائق ، مهما كانت شخصيته ماسحة ! اقلد أبى لأمى ، وأمى لأبى ، وأقبض مصروفا مضاعفا من الاثنين ! صقلتنى دروس ابى لى فىالالقاء ..كان يحرص أن أسمع له قطع المحفوظات مع تمثيل المعانى.. وكبرت فنسيت المحفوظات ، لـكنى مشيت فى التمثيل !

* ألخص لك تعليمى : مدرســة الظاهر الابتدائية بالعباسية. عسكرىالداورية فى الحتة ، من اجل بريزة شهرية ،كان يمر على بيتناكل يوم ليوصلنىالمدرسة.. يطل براسه من قضبان بوابة البيت ويهدر .. « هوه الواد فؤاد لسه ماراحش المدرســـة ! ؟ » من فزعى أعملهــا على روحى .. وتنشط أمى فتغير لى ملابسى المبلولة وتسلمنى للشاويش يجرنى .. الى المدرســة !

من يومها أصبح التعليم فى نظرى أبغض الحلال عند الله!
من مدرسة لمدرسة ، اخذت الابتدائية من مدرسة العباسية سنة ٣٧ .

دخلت « فاروق الاول » الثانوية ، العباسية الثانوية الان . ومن سنتها حتى بكالوريوس التجارة وانا من هواة المذاكرة الصيفية ، أزعل لو ماجانيش ملحق أمتحنه فى سبتمبر ! أوائل سبتمبر ٣٩ ، رايح آخد درس الفرنساوى عند الدكتور جمال صدقى ـ طالب طب أيامها ـ لقيته دافن وجهه فى الجرنال وهو يصرخ : « هتلر عملها .. الحرب قامت » ! رميت كتبى ونزلت أجرى فى الشارع أزف البشرى للناس ، كنت أتصور مادام فيه حرب يبقى مفيش ملحق !.. اتضح انى غلطان !

اخذت الثقافة سنة٤١ . وتوجيهى٤٢ بمجموع ٤٣٪ اعدت السنة لاحصل على مجموع يدخلنى الطب كرغبة العائلة ، لكنها فرقت معى بنطا بالناقص .. حصلت على ٤٢ ٪ فقط ! ٥ سنين فى كلية التجارة ، ٤ منها قضيتها فى تأمل حيوانات الجنينة ـ حديقة الحيوان ـ وهى فى اقفاصها .. تأكل . تغضب . تغازل بعضها وتمارس الجنس !.. اخذت البكالوريوس شعبة محاسبة سنة ٤٨ .. والتقدير ـ موش حتصدق ـ جيد !

* ألخص لك ثقافتى : أعترف انى متأخر نسبيا فى ثقافتى العامة ، لكنى أعد الآن خطة لاثقف نفسى !.. روايات الجيب ذبحت اهتمامى لفترة طويلة . من الكتب القليلة المؤثرة قرأت : «كفاحى» لهتلر . و«حياة محمد» لحسين هيكل . أقرأ الاهرام من الشمال لليمين، أبدؤه بالصفحة الاخيرة وانتهى بمانشيت الصفحة الاولى ! أقرأ الكواكب وصباح الخير .. وآخر ساعة والمصور أحيانا !

* العصر الحديث ، الديكتاتور الاعظم ، أضــواء المدينة ، مسيو فيردو .. كل أفلام شابلن شـفتها فى صباى. اتهبلت وقلت : «عايز لمستقبلى من ده ! » سنة ٣٥ وما بعدها احترفت الوقوف عند دكان السجاير على باب مسرح الريحانى .. ويجيء الريحانى ويطلب علبة معدن ممتاز وهو مجعوص فى كارتته ، أسارع اليه بالعلبة وأعود لصاحب الدكان بالفلوس .. لحظــات قصيرة ، لـكنها عندى كانت شهية كالطعام !

* تاريخ وبيعيد نفسه !.. فى مدرسة فاروق الاول الثانوية. فرقة المدرسة فى حفلة تقدم «يوليوس قيصر». لم يعجبنى تمثيلهم ، ففتحت أنا وشلتى عليهم مدافع التريقة !.. حرمونى من دخول حفلات المدرسة. كونت فرقة خاصة . فرقة رابعة رابع ، من زملائى فيهــا يعقوب ابن الشيخ زكريا أحمد ، ومصطفى عبد الرازق ابن وزير الاوقاف أيامها ، وصلاح ذو الفقار.. الناظر نجيب هاشم ـ سفيرنا السابق فى روما ـ شاف لنـا سكتش « فرقة حمدان » على ألحان زكريا أحمـد .. حل فرقة المدرسة ، واعترف بفرقتنا . من يومى وانا فى خصلة انشاء الفرق الخاصة ! !

* فى الجامعة.. أحسست بثقل دم الفرق الرسمية.. أنشأت فى كل كلية فرقة خاصة وأنا رئيسها ! دار الاوبرا نقدم مسرحية « فيوليت » من اخراج حسن حلمى الله يرحم أيامه.. دورى دور « وبشوت » . أدخل على المسرح بملابسى الرومانية وغصن الزيتون يعلو راسى ، واقول لزوزو حمدى الحكيم بكل شجاعة ووقار: «هأنذا وبشوت».. الناس فطست من الضحك ، انهم يسكتوا؟ أبدا .. درت حول نفسى ابحث فى ملابسى عما يضحكهم، لم أجد شيئا .. طلعت باللبس الرومانى جرى على

الكواليس ، على ميدان العتبة .. وحسن حلمى فى ظهرى .. « ياولد .. يافؤاد .. ارجع يافؤاد » .. قلت له وغصن الزيتون يهتز فوق رأسى من الانفعال : « موش راجع .. ياعم أنا ماليش فى الدراما » !.. وقلبتها كوميدى من يومها !

* نور الدمرداش تخرج سنة ٤٦ وساب رئاسة فرقة الكلية .. مسكتها انا . الريحانى كان ممنوع عليه أن يدخل بفنه حرم الجامعة ، رحت له وطلبت منه يخرج لنا رواية .. اندهش على روحه ، لكنه احبنى واحببته لدرجة العشق الفنى ! أخرج لفرقتنا .. فى فصلا من روايته « حكاية كل يوم » .. فى هذا الفصل يحكى الريحانى جانبا من تجربته الغرامية مع بديعة مصابنى ! رضعت من الريحانى حاسة الكوميديا والقاء الديالوج الكوميدى .. كان يقول لى : « يا ابنى أنا باديلك خلاصة ٣٧ سنة فن ! » رافقته فى مشواره الاخير من رحلة فنه .. حتى شفته على مسرح محمد على بالاسكندرية وهو يمثل آخر رواياته « الدنيا على كف عفريت » .. ويسقط فى الفصل الثانى يهذى من حمى التيفود . ويرسل طبيبه ليشترى من لندن شحنة من « التيرامايسين » العقار الجديد الساحر .. لكنه يموت فى المستشفى اليونانى ظهر ٨ يونية سنة ٤٩ .. وغروب نفس النهار ـ أقدار ! ـ تصل شحنة التيرامايسين بالطائرة !!

* سنة ٥٣ ، اسمى الفنى بدأ يظهر للعيان . محمود ذو الفقار يقدمنى للسينما فى بطولة فيلم « بنت الجيران » أمام شادية ، وبأجر ١٠٠ جنيه ، كانوا ١٠٠ ساعة نحس !.. الفيلم سقط ، وعمل لى نكسة فنية فضلت أعانيها منزويا فى ركن بابا شارو مع « البغبغان »

و « أبو الفصاد » والاطفال حتى سنة ٥٥ !
عملت فرقة الكوميدى الجامعية ، لكنها قفلت بعد أسبوعين .. مفيش تمويل ! انفتحت طاقة القدر فى برنامج ساعة لقلبك « محموووود .. ياحبيببى » ! كبر البرنامج وكبرنا كلنا معاه . لكن البعض يفضلونها عدا ونقدا ، فانهبلوا على احياء الافراح والليالى الملاح ..
كسبوا فلوس، وخسروا الفن.. وحلينا فرقةساعةلقلبك المسرحية ، وساعة لقلبك الاستعراضيـة أكثر من مرة لهذا السبب ! المرة الاخيرة سنة ٦٠ .. شافنا د.ثروت عكاشة وزيرالثقافة والارشادالقومىأيامها فقال لناعبارته الشهيرة : « لا تفسدوا الفن ! » .. قالها بالانجليزية :
«Don't spoil the art !» سنتها دب الخلاف المالى بين أعضاء الفرقة ، فضلفوا بابها للمرة الاخيرة !
* لا . كل ده وأنا فى الوظيفة . أنا لغاية النهاردة فى الوظيفة . من سنة ٤٨ وأنا مراجع حسـابات فى الجامعة . ارتكبت اخطاء حسابية ما زالت حسابات الجامعة تعانى منها للآن !.. الآن موظف فى مكتب عبد العزيز وصفى وكيل وزارة الثقافة . أروح أعمل ايه؟! درجة ثالثة على ما اظن ، الا اذا كانوا رقونى ! .. تلاقيهم رقونى !
* فى الفرقة الثالثة من الـ ١٠ فرق بتوع التليفزيون عملت « السكرتير الفنى » ، عثرت على نفسى . أديت دورى لاول مرة بشخصيتى الفـنية المستقلة ، الذين يقولون انى كنت ألبس جاكتة الريحانى مخطئون، التبس عليهم الامر . فالسكرتير الفنى هى نفسـها « الجنيـه المصرى» التى قدمها الريحانى سـنة ٣٧ . وعنـدما فشلت أعاد كتابتها وقدمها باسم « الدنيا ماشية كده»! وأنا لسنت فأرا فى كم الريحانى !.. لا أحب الكوميديا

التى تخرج من بنطلون مقطع وجاكتة بكم ونص.. احب الكوميديا القيافة . الكوميديا اللى تطلع من الروب دى شامبر ومن دبوس الكرافتة الايرجنس ! تلاقينى كده فى «أنا وهو وهى» و « أنا وهى وسموه » و « حواء الساعة ١٢ » و « سيدتى الجميلة » !

* الضحك عندى للحياة . لكن فى غيبة النص الكوميدى الهادف ، لابد ان أقدم الضحك للضحك ، فهو رغم كل شىء صحى ومفيد ! أفهمونى الله يريحكم !

* فرقة المتحدين .. أجرى فيها كان ٢٥٠ جنيها ، زائد ٤ ٪ من الارباح . وفى السينما ٣٠٠٠ جنيه قطاع خاص و ٢٠٠٠ قطاع عام . أطلب المساواة ! مثلت حتى الان حوالى ٥٥ فيلما . أنا لسه عملت حاجة !.. عاوز أعمل الفيلم الاستعراضى الغنائى ، واغنى فيه أنا وشويكار.. عاوز أعمل الكوميديا الانسانية : سينما ، ومسرح !

* الزمن أخذ منى نص نظرى ، ٦ على ١٢ بالنضارة وكانت باعينى ٦ على ٦ ! الزمن نزل لى البواسير ! وعلمنى أن أفتح عينى لأكل ملبن ! فى المسائل الفنية ساعات أبقى غبى جداً ، وساعات أفهمها وهى هلام! أغلب ساعات يقظتى معتم المزاج ، لكنى من العتمة أصنع الكوميديا ! !



* خام وشرفك .. لم أذق طعم الجنس الا عندما تزوجت لاول مرة سنة ٤٨ ! حفظتنى تربية أبى الدينية لى ، بالاقناع لا بالارهاب والتخويف من النار !

* شبه أم كلثوم طبق الاصل . وأنا جناينى فى جنينة

فن أم كلثوم .. لهذا تزوجنا ! اسمها : عفت السرجانى « المرحومة » . اخصائية اجتماعية . ولدان : أحمد ومحمد . حاربت ميلى للمسرح وشبقى به ، من هنا افترقنا ! أعطيتها ٦ الاف جنيه وسيارتى الفولكس ، تحويشة العمر ، على سبيل التعويض !

* فى بيتى نار . أبحث عن من ينجينى . شفت شويكار فى «السكرتير الفنى» . طيبة . حنون . معجبة بفنى . فرفرت من حبى لها ونحن نمثل معا « أنا وهو وهى » .. قلت لها ونحن ممددان بالتوازى على خشبة المسرح أمام الجمهور .. « تسمحى لى أتجوزك ؟ ! » .. ردت بعتاب وسعادة : « ما تنطق يا أخى من الصبح » ! تزوجنا فى ٢٨ نوفمبر سنة ٦٣ .

ليه اتطلقنا ؟ احكى لك — أخ لاخ — موش للنشر :

* شيال هم أكثر من عتالين محطة مصر ، لكنى أغفر الاساءة ولا أحمل حقدا للمسىء .. أنساها وأنساه أخاف من العتاب أن يجرح بكلماته من أخطأ فى حقى .. ويفيد بايه ؟ ! لا أنافق . أجامل معلهش .. أقول للاعور انت نصف مفتح !

* أصدق لحظات الالهام أجدها فى .. الحمام ! فيه اقرأ نصوص مسرحياتى الجديدة وأعدل فيها على أصوات الحنفيات المفتوحة على الفاضى ! .. جملة القانون مفيهش زينب فى « أنا وهو وهى » ولدتها وأنا ، لا مؤاخذة ، على « الكابينيه » ! ! السبب ؟ معرفش

.. يمكن علشان الحمام هو « بيت الراحة » الخصوصي .. وفيه يجد الانسان نفسه مع نفسه مستورا عن الاخرين ! وفى الحمام آكل المانجة ، فاكهتى المفضلة .. آخد الحبايتين التيمور وأقلع لهم ملط .. وأنزل تحت الدش « هم . هم » آكلها ببقى . وبشنبى . ودقنى. الفمط روحى والتذ! تقول لى شوكة وسكينة ؟! ياخسارة المانجة فى الشوكة والسكينة !

* خواف قوى . كنت شجاعا زمان ، وقلبت معى بجبن ! وأخاف من الضلمة ! من التليفزيون لايفرقع ! من ركوب ديزل مصر ـ اسكندرية السريع الذى لايقف على محطات ! أقف على طبلية الاعدام ولا اركبش طيارة! أخاف من الكلاب ، ومن عين الحسود ! لا .. أنا أمثل أدوار الشجاعة عن جبن أصيل ، وعلى سبيل التعويض .. تمام زى ما كتبت انت مرة عن فريد شوقى !

* حياتى بلا خطايا ، وربنا فوقنا يعلم .. باعتقد انى سأدخل الجنة حدف ! مؤمن بأن هناك يدا قوية تنجينى دائما .. يد الله !



قلت لـ « فو » المهندس :

* انت يا ابنى أستاذ ، رغم كل شيء .. انما أستاذ من غير مدرسة !.. قيمة فنية عظيمة مجردة ! لماذا لا تعطى قيمتك الفنية طعما مصريا واقعيا .. لماذا لا تتزوج بفنك الجسم المصرى ، تعايشه وتعيش منه وله .. لماذا لا تتعامل بفنك مع المنديل المحلاوى ، وبساتم المكن ، ونظارات المثقفين الطبية ؟ !

ـ حيحصل قريب .. قول يارب !

* « واحد جه يقعد على قهوة قعد على شاى » .. نكتة هادفة ؟ !

ـ لا، نكتة هايفه ! مفيهاش مضمون ولا لها «ايفيه»!

* اذن اتفقنا : الـكوميديا مضمون يخدم الحياة ؟

ـ مفيش كـلام ، انما كمـان مفيش نص ! النص الـكوميدى المصرى لسه ما اتخلقش .. اعمـل ايه ؟ اعمل دراما ؟ !

أمين الهنيدى :
إنت مريض .. والاعبقرى ؟!

يستطيع ابن أمين الهنيدى الطفل أن يأخذ من جيب والده كل يوم ٥٠ قرشا كمصروف شخصى ، يعنى ١٥ جنيها فى الشهر . طيب ولما يكبر الولد ويروح الجامعة ، ياخد كام ؟! مشكلة !

... الثانية صباح اليوم ، مشهد لايراه رواد مسرح الجمهورية . الباب الخلفى للمسرح . باب الممثلين . عم على البواب فى قعدة انتظار ، وابنه الطفل اسماعيل كمشان فى حجره كقطة سياميز ، وجه صبوح كالصباح ، وجفون كسرها النعاس ، لكنها تبربش وتقاوم وتستجدى اليقظة ، الكل انصرف الا امين الهنيدى .. لكى أمين ، الا يعلم أن اسماعيل فى انتظاره ؟ ! .. فجأة تفنجل عيون اسماعيل ويقفز من حجر أبيه منتترا ، ويده الصغيرة قد اللقمة تضرب تعظيم سلام لامين الذى هل على السلم . ويبتسم أمين حتى لتملأ ابتسامته كل الاتساع بين أذنيه ، يهتف بمناجاة كلمته عديمة المعنى التى اعتاد ان يرددها لاسماعيل كلما التقى به فى مثل

هـذه اللحظة ، من باب « الهلفطة » والمشـاكسـة : « براكس » .. ويرد اسماعيل بلسـان الطفـولة : « بلاكس » ! وتنهمز خطوات امين مسرعة على الدرجات الباقية من السلم ليحتضن اسماعيل ويقبله بحنان ، شلال من الحنان ، ويدس فى يده التى قد اللقمة ورقة ب ٥٠ قرشا ، ويمضى بسعادة الى أقرب تاكسى ينقله الى أقرب « بار » .. أحيانا الى البيت ! « لو ابنـك يا امين .. تدى له ٥٠ قرش مصروف ؟ » .. بعينين غائمتين باشواق الابوة : « أدى له عينيه » !

هذه الابوة اليتيمة التى لا تجد ابنا ، من يتمها ؟ ! « عششت على اخواتى بعد موت أبويا لغاية ماربيتهم، دلوقت قفلت على ال ٥٠ سنة عمر، ولسه يادوب عريس. اتجوزت وخرى ومتشوق ابوة ! »

... والشوق الآن ارتوى ، ولد امين الهنيدى ولدا الاسم « نصر » . اشمعنى ؟ امين يرد : « علشان ربنا ينصرنى بيه .. وينصر البلد ! »



ماشى كلامك يا امين .. قول .. امين الهنيـدى يقول .. وهو يحب دائما ان « ينفرد » ويقول :

* امين عبد الحميد امين محمد محمد الهنيدى ، امين باسمى وبأخلاقى ، فى حياتى لم أسرق غير شـلن

فضة من جيب أبويا وأنا عمرى ٦ سنين ! قلت اشترى به كورة ، رحت دفنت الشلن فى جنينة قريبة من بيتنا فى القناطر الخيرية ، لغاية ما تيجى الفرصة ، ضميرى انبنى . عاقبت نفسى بأن سبت الشلن مدفون لغاية النهاردة ، وتبت توبة ، لا . . ما اقولكش على مطرحه ، لتروح تاخده !

ابن فجر!.. من مواليد فجر يوم الخميس ٢٤ اكتوبر سنة ٢٥ ، المنصورة ، أبويا أيامها كان باشكاتب سجن المنصورة . ٦ أولاد منهم بنت واحدة ، أنا بينهم الخامس ..وخامسهم قلبهم !

* أبويا من سجن لسجن ، واحنا وراه ، رقوه ودوه ليمان طرة ! كتاب الشيخ محمد فى طرة ، وعمرى ٥ سنين ، آية فى سورة « الفجر » تقول : « ارم ذات العماد» كنت آجى لحدها وينعقد لسانى ، الشيخ محمد يشغل المقرعة والفلكة ، لو شرح لى معنى الاية لحفظتها . ووفر على نفسه عناء ضربى .. لم أعرف الا اليومين دول من حديث دينى فى الراديو أن «ارم» اسم مكان . و « ذات العماد » يعنى اللى فيه أعمدة!

* انتقلنا القناطر الخيرية . سنتان فى مدرستها الاولية ، ودخلت ابتدائى ، ٤ سنين كر وأخذت الابتدائية من مدرسة السيدة حنيفة السلحدار بشبرا سنة ٣٦ .

سنتان فى مدرسة مكارم الاخلاق الاسلامية الثانوية ، وحولت لمدرسة النيل الثانوية بشبرا . مدرسة حرة . مدرسة مفاسد الاخلاق . زبالة مدارس الحكومة كانت فيك يا مدرسة النيل ، من فاقدين ، ورياضيين محترفين « فتونه » ، وهواة المذاكرة على ضوء شاشة السينما ! انفجرت وفجرت ! سقطت سنة « بدل هلس » ، ثم انتبهت قبل أن يجرفنى التيار ! اخذت الثقافة سنة ٤١ ، والتوجيهى أدبى سنة ٤٢ .

* ٤ سنين صياعة بين كليات الجامعة ، آداب ، حقوق، لقيتها صعبة بالعربى، رحت الحقوق الفرنساوى! كل ده علشان أحقق مرامى ، واطلع محامى زى يوسف بيه وهبى فى رواية « الدفاع » . أول فيلم سينما تتكحل به عيونى وأنا على دكة الترسو فى سينما الاهلى سنة ٣٤ ! فشلت . فى بيتنا قعدت . النهار للنوم ، والليل للصرمحة والبرمجة والخناق ! ابويا دفع لى أكثر من ٢٠ جنيه غرامات فى جنح ضرب . طاقة معطلة تتفجر بطريقة خاطئة !

« زى الجدار وقاعد فى الدار .. ماتشوف لك شغلة ! » .. أبويا قال .. شفت لى شغلة قراض تذاكر فى السكة الحديد ، لكن قبل ما استلم الوظيفة ضعبت على نفسى !

* سمعت عن معهد التربية البدنية العالى.. كأنى صياد مؤهل قلت أدخله وأطلع لى بدبلوم ! توجيهيتى قديمة ، لكنهم كانوا يتوسعون فى المعهد ويقبلون أى توجيهية مهما كانت اثرية ! ٣ سنين فى المعهد وانا ماشى جنب الحيط زى اللى عنده سوابق وخايف ينكشف ، يترفد ويضيع ! اخدت الدبلوم سنة ٤٩ ، بترتيب : أول الدفعة ! !

مدرس تربية بدنية فى المدارس الثانوية بين القاهرة والخرطوم. بعثة دراسية فى أكاديمية اعداد القادة بمدريد سنة ٥٦ ، العدوان الثلاثى حصل وانا فى غربتى ، تألمت ألما ! أخدت الدبلوم ورجعت مدرسا فى المعهد الذى تخرجت منه . مازلت للحظة بوظيفتى ، درجة ثالثة . ٥٥ جنيها وشوية ! باروح المعهد كل يوم ، بس بالتليفون .. باعتذر كل يوم عن عدم الحضور !



* بذرة الفن نبتت فى وانا فى ابتدائى. «رسيم» آخد فى الرسماية ٧ من ٧ ، والكراسة تلف الفصل ! فى ثانوى هويت المونولوج ، وقلدت اسماعيل يس وثريا حلمى فى الافراح واعياد الميلاد وطهور الاولاد ! انتقلت للتمثيل .. فى اجازة الصيف مع « فرقة جامعة فؤاد » لصاحبها المرحوم أنور المشرى ، أشترك فى تقديم

روايات الريحاني ، كل ده هواية ، فن للفن

* فى الخرطوم الثانوية ، محمد أفندى المصرى « أبو لمعة » مدرس زميلي فى المدرسة . نشاط فنى للركب وحفلات سمر فى « النادى المصرى » . صيف سنة ٥٤٠ ، فى الباخرة النيلية من وادى حلفا فى طريقنا للقاهرة . بنفتح الراديو سمعنا قافية مضحكة بين حسين الفار وسلطان الجزار .. ايه ده ؟ برنامج جديد اسمه « ساعة لقلبك » . وصلنا القاهرة ندور على عبد المنعم مدبولى ومحمد يوسف « الفتوة » ويوسف عوف ، لقيناهم بيدوروا علينا ! بيسجلوا حلقة من البرنامج فى نادى بنك مصر : « تقولوا حاجة ؟ » .. ده مدبولى .. طلعت أنا والمصرى قلنا نكتتين .. فهمى عمر قال لنا : « خلاص بقيتوا معانا .. أصبحتم محترفين» .. رحت أصرف أول أجر من احترافى للفن لقيته ٩٩ قرشا ، تمام زى أسعار الاحذية فى محلات « باتا » أيام زمان!

عملت شخصية «فهلاو» . كنت فيها الفلاح الساذج الذى يسند الفتوة فى فكاهته . ماطولتش فى شخصية فهلاو .. علشان كده ماحرقتش ولا اتحبست داخل « الشخصية النمط » زى اللى اتحبسوا !

* فرقة ساعة لقلبك المسرحية . أول دور مسرحى دور الخدام فى رواية الريحاني « ما كان من الاول » .

الجمهور فى بور سعيد افتكرنى خدام بصحيح جاى من بيت حد من أعضاء الفرقة ! الناقد القصير المكير عبد الفتاح البارودى كتب قال : « ... فى الرواية بطلان ، فؤاد المهندس كبطل رسمى للمسرحية ، والخدام « فهلاو » الذى لا أعرف اسمه الحقيقى ! »

* مع فرقة تحية كاريوكا من يوم تأسيسها سنة ٦١ دور الشاويش رشوان على على على رضوان فى مسرحية « بلاغ كاذب » ، والشيخ حسن فى « شفيقة القبطية » نجح نجاحا ، رغم كده اختلفت معهم لانشغالى فى مهرجان عيد النصر ببور سعيد . تحية كاريوكا قالت لى : « نشوف غيرك » .. عزت على كرامتى ، وقلت لها : « شوفوا » .. جابوا عبد الغنى قمر يسجل قدام التليفزيون دورى .. دور الشيخ حسن !

* كبرت بفنى ، عملت أول دور بطولة ، الشيخ علام فى رواية أنيس منصور « حلمك ياشيخ علام » . ٣٠ رواية تقريبا منذ احترفت ، ٤٠. جنيه من مؤسسة المسرح ، والمتحدين أزيد شوية ! كنت « ضيف » عند الجميع ، النص اللى يعجبنى أشتغله ، لا ، للمؤسسة فضلها على عينى وراسى .. لكن فضلها لايستعبدنى .. أو يستوظفنى ! الان . أصبحت صاحب فرقة ..

تجربة جديدة أخوضها .. ياراحت ، ياجت !



* كومبارس فى السينما ، من سنة ٣٩ وأنا باشتغل كومبارس ! كنت أتردد على مكتب الريجسيير قاسم وجدى ، والدور ب ٣٠ صاغ ! كنت فاكر ان الممثل بيقف كده ساعة التصوير ووراه شاشة بيضاء ينطبع عليها . ولم أفهم الفولة الا عندما دخلت ستوديو مصر لامثل دور « واحد بيصلى » ، وسط عشرات المصلين فى « جريدة الحج » !

أفلام كثيرة هلس . وأدوارى فيها هزيلة . دور الشيخ حسن فى فيلم « منتهى الفرح » نقطة مضيئة ، رد لى اعتبارى الذى اعتدت عليه الست كاريوكا ! من أفلامى الموش بطالة : « غازية من سنباط » ، و « غرام فى الكرنك » مع فرقة رضا ، ماشى فى السينما فى خطين بلونين : اللون الشعبى اللى زى الكشرى بالشطة ، مثل دورى فى « غازية من سنباط » ، واللون الاستعراضى مثل دورى فى « غرام فى الكرنك » ، لا موش ساكت ولا ناوى اتجمد على كده ، أبحث عن آفاق سينمائية جديدة !

* شخصية سنقر فى مسلسلة « أذكى رجل فى العالم » ومسلسلة «أشجع رجل فى العالم» أنجح أعمالى فى الأذاعة وأكثرها قيمة ، عايش على قيمتها لدلوقتى!

* انطوائى شوية ، اكلم نفسي فى مشاكلى ، ولا اكلم الاخرين ! الاخرون يعطونك الحل الامثل لمشاكلك ، وليس غيرك يمكن أن يعطيك الحل الواقعى : « واللى ايده فى الميه ... » !

قل لى يا أمين :



* من معلوماتك فى علوم التربية البدنية : العقل السليم فى الجسم السليم .. كلام جد ؟ !

ــ فسيولوجيا ، المفروض انه صحيح !

* وما رأيك فى أن أغلب العباقرة ــ يقول التاريخ ــ كانوا معتلى الصحة ، وان هناك نظرية قديمة للعالم الالمانى « ايكباوم » تقول أن العبقرية صفة مصاحبة للمرض والاعتلال ! ؟

ــ أن جيت للجد المرض يرهف الاحساس ، ويثير الدوافع الكامنة الى الكمال ، فاكر ليلة ما اكلنا العدس سوا فى كافتيريا هيلتون .. صبحت عيسان بانفلونزا حادة وحرارة ٤٠ وشرطة ، لكنى فى المساء

قدمت احسن ما عندى على المسرح ، كنت موفقا لدرجة أثارت دهشة زملائى الممثلين !

* يعنى : انت مريض .. والا عبقرى ؟ ؛

ـ أنا أمين الهنيدى ! !

فهرس

صفحة
تقديم ٧
كلام فى الشمس ! ٩
لماذا يسمعها المثقفون ؟ ٤٥
نجاة ... حاجات كده ! ٥٤
سنتك سنة كبيسة ... يا بهيجة ! ٦٥
... فى السن الخطرة ٧٤
كلى عاطفة ... كلى عناد ! ٨١
يتيمة ... فى بيت بابا وماما ٩٠
« طبيعة » امرأة .. و « أخلاق » رجل ! ... ١٠٠
بذمتك : ... أستاهل ؟ ! ١٠٩
الاصل تركى ... وخفة الدم مصرية ! ١١٨
... لكى يهدأ الاغبياء ! ١٢٧
... أحكى لكم عن عقدتى ! ١٣٥
صوت بنت فى الجامعة... بضفاير ثانوى ! ... ١٤٥
هو ... و « المنديل المحلاوى » ١٥٦
أنت مريض ... والا عبقرى ؟ ! ١٦٧

كتاب الهلال القادم :

كائنات العوالم الأخرى

بقلم : ميشيل تكلا

رئيس التحرير : صالح جودت

يصدر ٥ يولية ١٩٧٥ ـ الثمن ١٢ قرشا

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Bishopsthorpe Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



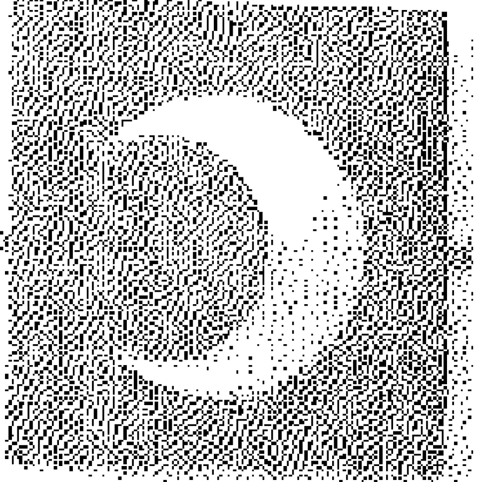
هذا الكتاب

تعد النجوم فى السماء ؟! .. شىء لا يمكن ! .. لكن نجوم هذا الكتاب يمكن عدهم بسهولة .. من اول ام كلثوم التى غابت فتركت فى اذاننا فراغا ككهف ضرس بعقل مخلوع .. الى فؤاد المهندس وشويكار وفيروز ونجاة وفريد شوقى ؛ وغيرهم عشرات .. وكلهم نجوم تحلق فى سماء الفن العربى ! •

وفى نطاق الحقيقة نقول : ان عبد التواب عبد الحى، مؤلف هذا الكتاب ، يعتبر من خيرة كتاب السيرة الذاتية « البيوجرافى » صدر له قبل ذلك فى سلسلته المتميزة « عصير حياتى » كتابان كتاب بسنة ٦٦ ، تضمن سيرة ٣١ شخصية عربية هامة سبقت الجميع الى تحقيق طموحها .. وكانت الشخصية الرئيسية فى الكتاب هى شخصية الرئيس انور السادات .. ثم كتاب « سر مصر : عبد المنعم رياض .. حيا وشهيدا » .. يوليو ٧١ .. وهو المرجع الوحيد فى المكتبة العربية عن شهيد العسكرية المصرية المبطل ..

وهذا الكتاب ـ تحت عينيك ـ هو الكتاب الثالث فى هذه « السلسلة » لكنه ، هذه المرة ، يتميز بما فيه من نعومة لنجوم الفن • واثارتهم • وتجربتهم من السفح الى القمة وحتى اكاذيبهم ايضا ! •

انه كتاب للقراءة التى تحقق المتعة كتاب يربط بين العقول والعواطف



سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

كائنات العوالم ا[illegible]ى

د. ميشيل بكلا

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: فكرى أباظة ● نائب رئيس مجلس الإدارة: صالح جودت

رئيس التحرير: صالح جودت

المشرف الفنى: جمال قطب

سكرتير التحرير: عايدة عياد

العدد ٢٩٥ ـ جمادى الاخرة ١٣٩٥ ـ يولية ١٩٧٥

No. 295 — July 1975

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون: ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى: «١٢ عددا» فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا . فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات امريكية أو ٢٫٥ جك ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشــــة
الفنان جمــال قطب

ميشيل تكلا

كائنات العوالم الأخرى

دار الهلال

الباب الاول :

من الظواهر الغريبة في الكويت

حقيقة الأطباق الطائرة

لا تزال اسطورة الاطباق الطائرة تلعب دورا هاما فى اذهان الناس . فكثيرون يقولون انها جاءت اصلا من كواكب أخرى بهاكائنات بلغت درجة كبيرة من الحضارة، وآخرون يقولون انها مجرد وهم وخيال .

وقد اثارت هذه الاطباق الطائرة فضول الناس طوال الخمسينات حتى وضحت الحقيقة فى منتصف الستينات . فقد جاءت أصلا من البرازيل ولم تات من كواكب بعيدة أو قريبة ، بعد ان عكف فريق من علماء ثلاث وعشرين دولة على صناعتها فى أشكال مختلفة ثم أطلقوها الى الفضاء . وقد عاش هؤلاء العلماء فى غابة من غابات البرازيل النائية وفى سرية تامة ، وأعطيت لهم جميع امكانات صناعة هذه الاطباق ..

وأخيرا أزيح الستار عن سر الاطباق الطائرة التى بلبلت أفكار الناس طوال السنوات ١٩٥٢ الى ١٩٥٧. ووقف أحد الذين صنعوها يقول : « لقد طرت باحدها الى المريخ .. وهناك وجدت سكانه فى غاية الظرف وخفة الدم .. حقيقة انهم لا يشبهوننا ولكنهم يحبون اكل الاسماك .. وقد يرجع سبب ذلك الى وجود عدد هائل من القنوات فى الكوكب الاحمر الجميل » ..

وكشف المغامر فيما بعد ان الخطة الاصلية تضمنت

صناعة ثلاثة أطبـــاق كبيرة لتقل عدد من الركاب من البرازيل الى المـكسيك ومنها الى شاطىء ميامى بحيث لا تستغرق الرحلة أكثر من عشرين دقيقة فقط ، ثم تواصل الاطباق بعدها السفر الى واشنطن وأوربا لاثارة فضول الناس ..

وبعد أن أثارت هـذه الاطبـاق فضول الناس فعلا فى مختلف بلاد العالم ... انتشرت القصص والشائعات عن ركابها الذين جاءوا من المريخ أو الزهرة ، وهبطوا الى الارض واختطفوا بعض الفلاحين من ايطاليـا ومن المـكسيك . وكثرت روايات شاهدى العيان ، وفاضت انهر الصحف بقصص خرافية وقف العلم منها موقفـا حيـاديا حتى كشفت البرازيل فى مؤتمر صحفى عن حقيقتها وحقيقة العلماء الذين صنعوها بعد أن اختفوا فى غابات البرازيل النائية ردحا من الزمن ...

انواع الاطباق الطائرة ..

هناك أكثر من خمسين نوعا من الاطبـــاق الطـائرة بأحجام مختلفة ظهرت فى سموات العالم فى فـــترات متعاقبة ، واحـــدث ظهورها أكثر من دوى فى الدوائر العلمية ، ونسجت حولها القصص والاسـاطير . فمن قائل انه رآها رؤيا العين وشاهد فيها أشخاصا جاءوا من الفضاء العريض ومن كواكب غير معروفة ودخلـوا بها جو الـكرة الارضـــــية أملا فى غزوها فى يوم من الايام ..

وقد ذكر العلماء ان هـذه الاطبـاق الطـائرة ليست فى الواقع سفن فضاء بل مجرد انعكاسات من اجســام طائرة أو من الظواهر الطبيعيـــة المألوفة ، وانه حتى وقتنا هـذا لم تتحقق الا عمليات استكشاف خارجيـة

محدودة لكوكبنا الارض من الفضاء بفضل المركبات التى تدور حاليا حول الكواكب القريبة والبعيدة عنا.

وكل ما فى الامر أن هذه الاطباق الطائرة ما هى الا ظواهر تصدر عن ضوء الشمس أو أضواء أخرى تنعكس من البالونات أو الطائرات وهى على ارتفاعات عالية ، أو مجرد قطع من المادة تحملها الرياح وتذهب بها الى مسافات بعيدة فى الفضاء ، أو بللورات من الثلج أو عدسات من الهواء تكونها طبقات من البرد فوق الهواء الساخن ..

وحتى النجوم اللامعة تبدو من خلال هذه العدسات الهوائية كبيرة الحجم وتشع ألوانا مختلفة تتخذ اشكالا غريبة تبدو للانسان كأنها أطباق طائرة فيتوهمها الفرد ويظنها سفن فضاء بها رواد من الكواكب الاخرى.

ويقول الدكتور دونالد منزل احد مشاهير الفلكيين فى عصرنا الراهن انه لا وجود اطلاقا للأطباق الطائرة وهى مجرد شهب لامعة أو أسراب من الطير أو الحشرات أو طيور ليلية تشع من فوق أجسامها طفيليات لامعة أو فقاقيع كونتها الرياح فتخيلها الانسان أطباقا طائرة .

عالم مضاد لعالمنا ؟

ان اكتشافات العلماء الحديثة لما هو مضاد للمادة قد دعاهم للاعتقاد بأن هناك عالما مضادا لعالمنا بكواكبه واقماره يسكنه بشر من نوع آخر .. والمادة المضادة هى الصورة أو المرآة العكسية للمادة الارضية كما يعرفها العلماء ، وعلى رأسهم العالم المعروف ليدرمان الذى يقول بأن هناك من الاسباب ما يدعوه الى الاعتقاد بأن نفس العدد من الذرات والذرات المضادة خلقت

عندما بدأ الكون حياته .. اما أين يقع ذلك العالم المضاد لعالمنا فى الفراغ فشىء يجهله العلماء تماما ولا يمكنهم تحديده . وان هذا العالم غير مختلط أو متصل بعالمنا بالمرة ..

سكان الكواكب السالبة

قد يكون سكان هذه الكواكب السالبة على شىء كبير من الخلق والكياسة ولكن لايمكن أن يعيشوا فى كوكبنا لانهم سيكونون مختلفين عنا فى طريقتين أساسيتين :

اولا : انهم يسيرون بطريقة عكسية .

ثانيا : ان الزمن عندهم عكسى أيضا .

فالزمن عندنا يسير الى الامام لاننا نتذكر الماضى ولا نعرف شيئا عن المستقبل . ومن حيث اننا نتذكر الماضى فان الوقت الذى يسير بالعكس فى الكواكب السالبة يجعل سكانه يتكهنون بالمستقبل بسهولة .

تعليل النظرية العكسية

اننا نسير مع الزمن الى الأمام لا الى الخلف .. وان العالم السالب يسير مع الزمن الى الخلف لا الى الامام ،. فاذا فرضنا اننا نمر الآن بهذه الكواكب السالبة فلماذا لا يحدث الفناء أو الابادة التامة لكوكبنا الارضى ؟ ..

لن يحدث الفناء لان قوانين الطبيعة تقول بأن سيرنا مستمر وليست هناك قوة تستطيع أن توقفه ، ومن حيث أننا لا نرى حولنا كمية معقولة من المادة المضادة لنا ، فنحن فى مأمن من أى فناء أو دمار قد يصيب الكرة الارضية فى أى يوم من الايام ..

عالم أرضى آخر ؟

ان العالم الارضى الذى نعيش عليه مجرد عالم من مجموعة العوالم الاخرى المنتشرة فى الفضاء .. وقد تكون هناك مجموعات كاملة من العوالم السالبة لعالمنا فى تركيبها المادى . وان قرب هذه العوالم منا معناه الابادة التامة للجنس البشرى ..

هذا ما يقوله العالم الكبير بروس فريش فى أحدث كتاب ظهر له .. فقد دلت النظريات العلمية الحديثة على احتمال وجود كواكب أخرى مزدحمة بسكانها ، ولكن على طريقة عكسية مغايرة لتركيب الكرة الارضية . ودلت البحوث الطبيعية والكيميائية على وجود جزيئات الكترونات وبروتونات فى الاشعاعات الكونية تركيبها مضاد لتركيب ما يقابلها فى جو الكرة الارضية .

كما أعلن الدكتور ليدرمان أستاذ الطبيعة بجامعة كولومبيا واربعة من معاونيه عن نتيجة تجربتهم المثيرة فى محطم الذرة الذى تبلغ قوته ٣٠ بليون فولت الكترونى بمعامل بروكهامن بلونج ايلاند .. فقد استطاع هؤلاء العلماء انتاج ابسط انواع المادة المضادة لكوكبنا الارضى اطلقوا عليها الديتريون السالب اى النواة ذات الايدروجين السالب . وقال العالم ليدرمان « ليس هناك أدنى مجال للشك فى احتمال وجود سكان للنجوم والكواكب البعيدة المنتشرة فى الفضاء وأن هؤلاء السكان على درجة كبيرة من الثقافة الفكرية » ..

آراء العلماء الانجليز

لنرجع الى الوراء قليلا .. الى عام ١٩٢٨ عندما

أعلن العالم الانجليزى بول ديراك عن نظرية من نظرياته الفلكية عن الالكترونات وقدم تفسيرين : التفسير الاول عن ماهية الالكترون نفسه والتفسير الثانى كان للذرة لها نفس الخاصية لكن ذات شحنة سالبة . ولم يستطع العالم البريطاني أن يتقدم أكثر من هذا القدر فى تفسيره لخصائص الالكترونات حتى استطاع العالم الامريكى كارل اندرسون فى عام ١٩٣٢ أن يعثر على الالكترون الموجب ، وتكهن ديراك عن احتمال وجود البروتون السالب وتم اكتشافه فعلا فى عام ١٩٥٥ ، باستخدام محطم الذرة ببركلى . ومنذ هذا التاريخ استقر راى العلماء على أن كل ذرة موجبة لها ذرة سالبة . وذكر العالم البريطاني ايضا فى نظريته العلمية المعقدة أنه لابد أن يكون هناك نفس عدد الذرات المضادة كذرات فى العالم . والحقيقة العلمية الراهنة تقول بأن هذه الذرات عندما تنتج من الطاقة فى محطم الذرة فانها أى الذرات العادية والذرات السالبة أو المضادة تولد فى ازدواج .. وبما أننا مخلوقون من المادة فلا بد من وجود عالم مضاد لعالمنا فى مكان ما مخلوق من هذه المواد السالبة أو المضادة فى تركيبها لكوكبنا الارضى . وعلى ذلك علل العلماء انفصالنا من هذه العوالم السالبة كان من ألزم الضروريات لبقائنا . فاذا تقابلت الذرة العادية مع الذرة السالبة فانهما يفنيان بعضهما البعض ويعودان الى تكوين طاقة جبارة . وهذا التفاعل استدل عليه العلماء كسبب رئيسى الطاقة العظيمة المنبعثة بسبب اصطدام مجرتين فى كوكبة الدجاجة . كما أن الاجسام الجديدة التى ظهرت أخيرا فى الفضاء واطلق عليها العلماء « كواسار » كان مصدرها طاقات عظيمة فى الفضاء تولدت من انفجار المادة .

انفجار ١٩٠٨

ان أعظم انفجار ارضي طبيعي حدث عام ١٩٠٨ فى سيبيريا . ففى ذلك العام حـدث انفجار قدرت قوته بثلاثين ميجا طن أطاح بالاشجار فى مساحة قدرها ٢٠ ميلا . وتعددت النظريات والتكهنات عن سر هـــذا الانفجار الرهيب . وقال العلماء أن مذنبا من المذنبـات دخل جو الـكرة الارضيـة فسبب الانفجار العظيم . ولكن التعليل العلمى الحديث الذى ساقه العالم ويلارد ليبى الذى حصل أخيرا على جائزة نوبل فى الطبيعـة ذكر شيئا آخر غير نظرية المذنب . فقد استطاع هـذا العالم أن يحدد عمر أى مادة عضوية مما بها من كمية الـكربون . فالاشعاعات الـكونية تصـطدم بالـكربون العادى الموجود فى ثانى أكسيد الـكربون فى الهواء وتكون نظيرا مشعا أي الكربون « ١٤ » . والنبـــــاتات تمتص هـــذا الـكربون الجديد كما تمتص الـكربون العادى . وعندما يتحلل الـكربون ١٤ فان الاشعاعات الصادرة من كربون النبات تقل وتحدد عمر النبات .. واستطاع العالم ليبى ان يقرر بأن الانفجار المذكور جاء نتيجة لانفجار المـادة السالبة لمـادة كوكبنا الارضىعام ١٩٠٨ .

حافة الـكون ..
والمسافة بين الارض والنجوم

اكتشف عالم الفلك المشهور مارتن شمدت أبعد جسم فى الفراغ الـكونى وسجله تحت رقم « ٣ س ـ ٩ » ولفت هـذا الاكتشاف الخطير أنظار العلماء فى أصقـاع الارض كلها ، وبدات المراصـد والعدسات القوية تتجه نحو هـذا الجسم الغريب الموجود فى حافة الـكون أو

فى نهاية العوالم . وبعد بحث طويل ومراقبة مستمرة اتضح أن الضوء المنبعث من هذا الجسم بدأ رحلته فعلا مباشرة بعد ولادة الكون . ودلت الصور العديدة التى التقطت له بواسطة عدسة تلسكوب قمة بالومار المعروف التى يقدر قطرها بمائتى بوصة وهى أكبر عدسة تلسكوبية فى العالم ، دلت على أن الجسم الغريب يبتعد عن الكرة الارضية بنسبة ٨٠ ٪ من سرعة الضوء ..

ان مثل هذه الاجسام التى يطلق عليها علميا اسم « كواسار » تغير أدراكنا بالكون ، فبعدها ومصدر قوتها وطاقتها يعد طلسما أمام الفلكيين ، ولكن الوقت يقترب لمعرفة أصل الكون بفضل المعلومات التى يحصل عليها العلماء والفلكيون من مراقبتهم المستمرة لمثل هذه الاجسام الغريبة الموجودة فى حافة الكون !!! ..

وقد اجريت تجربة مثيرة فى المعمل الفلكى اللاسلكى بمدينة مانشستر ببريطانيا لقياس المسافة بين الارض وأول نجم يبعد عنها بعدا خياليا فى الاطراف البعيدة لمجرته الضخمة . واعتمدت التجربة على حساسية الهوائى والاجهزة الحاسبة المتصلة به التى استطاعت أن تجمع بين قياس الاشارات اللاسلكية الصادرة من النجم البعيد على مدى تسع عشرة ساعة ، وكانت القياسات السابقة تعتمد على دراسة النبضات القوية التى تنتشر فى ممر الاشارات اللاسلكية ، وتحتوى على ذرات كهربائية مركزة أساسها الالكترونات . أما طريقة القياس الجديدة فتعتمد على امتصاص الاشارات اللاسلكية بالنسبة الى وجود الايدروجين المحايد والذى تم التعارف عليه عن طريق الاجهزة اللاسلكية الاخرى بسبب كثرة انتشاره فى مجرة النجوم البعيدة .

ورغم أن طريقة القياس الثانية معقدة من الناحية التكنولوجية فان كمية غاز الايدروجين المحايد قد أمكن دراستها بدقة وذلك بشتى الطرق العلمية المعروفة .

وكان من نتائج هذا القياس أن المسافة بين الارض وابعد نجم فى حافة الكون قدرت بمائة الف سنة ضوئية أى أكثر من التقديرات السابقة التى كانت تعتمد على دراسة هيئة النبضات اللاسلكية الصادرة عن هذه النجوم . وتكشف هذه المسافة العظيمة عن أن هذه النجوم قوية عما كان يظن سابقا ، مما أدى الى احداث انقلابات متعددة فى بعض النظريات الفلكية المعاصرة ..

وفى صيف ١٩٦٧ وبطريق الصدفة اكتشف العالم البريطانى « انتونى هيوش » بجامعة كمبردج اشارات لاسلكية تنبعث من السماء لم يسبق أن اكتشفها انسان . وجاءت هذه الاشارات على هيئة نبضات منتظمة كل ثانية وثلث ثانية . وكان مصدرها نجما نابضا . وبعد ذلك بعامين استطاع عدد كبير من العلماء تفسير لغز هذه النجوم النابضة .

يقول أسيموف أن كل نجم نابض يشع طاقة عظيمة اثناء خفقانه ، ولكن بما ان نبضاته قصيرة فان موجات لاسلكية ذات كثافة منخفضة تصدر عنه بمستوى ثابت . وعلى مرور الوقت اكتشف العلماء نجما ذا نبضات فى سديم السرطان ووجدوا انه يشع فى الضوء المرئى فكان يتلألأ فى وقت هذه النبضات ذات الموجات اللاسلكية ، ولم يفكر عالم أن يختبر هذا النجم الذى يلمع لمعانا عظيما ثم يخبو اللمعان ثلاثين مرة فى الثانية. وعن طريق نبضاته هذه السريعة بدا الضوء الصادر منه كأنه ثابت للعين المجردة وكذلك لاجهزة الرصد . وعليه

فما هي هذه النجوم النابضة ؟..

يقول أسيموف : اذا أصدر جسم من الاجسام طاقة في فترات متفاوتة فان شيئا ماديا لابد أن يحدث له اثناء هذه الفترات . وقد يكون هذا جسم يتمدد أو ينقبض فيترتب عن ذلك انفجار طاقة مع كل انقباضة أو انكماشة ، وربما يدور هذا الجسم على محوره أو يدور حول جسم آخر ومن ثم يصدر طاقة متفجرة مع كل لفتة أو دورة .

وكانت المشكلة التي واجهت العلماء وهم يراقبون هذه الظاهرة أن النبضات كانت سريعة تتراوح سرعتها بين أربع ثوان الى جزء واحد على ثلاثين جزء من الثانية . والنجم النابض لابد أن يكون جسما ساخنا والا لما صدرت عنه مثل هذه الطاقات الكبيرة ، كما لابد أن يكون جسما صغيرا والا لما استطاع أن يفعل ذلك بسرعة هائلة .

أما الاجسام الصغيرة الساخنة التي لاحظها العلماء فقد كانت نجوما صغيرة « أقزاما » وقد تكون في ضخامة شمسنا وتحتوي على درجة حرارتها أو أكثر منها . فهل من الممكن أن تصدر هذه النجوم البيضاء نبضات بالاتساع والانكماش أو بالدوران ؟ وهل من الممكن أن نجمين من هذه النجوم الاقزام يدوران حول بعضهما البعض ؟ ..

يقول العلماء : انه يمكن لنجم أن ينكمش بعنف تحت سحب الجاذبية بحيث تجبر النواة الذرة في داخلها بأن تنكمش ، وفي الحال تتفاعل الالكترونات والبرتونات لتكون نيترونات ، ويصبح النجم نيترونا خالصا أو من نيترون هلامي ، وهذا النجم النيتروني قد يبدو كبيرا كالشمس ولكن عرضه لايزيد عن عشرة أميال .

ونجوم النيترونات لم يسبق اكتشافها لصغرها حتى أن بعض علماء الفلك كانوا يشكون فى وجودها . ومثل هذه الاجسام الصغيرة تستطيع أن تدور بسرعة تكفى لانتاج النبضات . وهناك ظروف قد تهرب الالكترونات من سطحها عند نقطة معينة ، وبدورانها فان الالكترونات قد تنتشر مثل الماء من رشاش دائر ، واثناء الدوران فان بعضها يذهب فى اتجاهنا وينتج موجات لاسلكية وضوءا واضحا ..

وقد افترض العالم توماس جولد بجامعة كورنيل أنه اذا كان الامر كذلك فأن نجوم النيترونات هذه قد تفقد طاقتها بعد وقت ، وأن النبضات سوف تخفت تدريجيا . وقد فحص هذا الفرض فوجد صحيحا لان النجوم النابضة تبدو واضحة للعلماء بعد ان كانوا يشكون فى وجودها ....

الاضواء الحمراء

ان اصل العالم هو شغل الانسان الشاغل ، ومجال تفكيره الدائم ، وانطلاقة تخيلاته التى لا تحد . فهل العالم أزلى أبدى أم كانت له بداية واذا كان الامر كذلك فمتى كانت هذه البداية ؟

هذا هو السؤال الذى وقف أمامه عدد كبير من العلماء يحاولون الرد عليه مستندين على حقائق جديدة لم تظهر لهم الا اخيرا بفضل الاجهزة الحديثة كالعيون التى ترى ما وراء النجوم والاذان التى تسمع ما فى الكون من أصوات بعيدة تحددها بلايين السنين الضوئية فى الفضاء العريض اللانهائى ...

فى الخمسين سنة الماضية ، وعلى الاخص فى الثلاث سنوات الاخيرة على وجه التحديد استطاع العلماء أن يسلطوا هذه العيون وتلك الاذان على ركن من أركان

العالم فيروا أمورا غريبة ، ويسمعوا أصواتا قادمة من حافة الكون كأنها تتحدث اليهم أو تكاد تكشف لهم عن سر الوجود فيمعنوا فى النظر الى الاضواء الباهرة ويصيغوا السمع الى الزمن وهو يتحدث اليهم ..

بعد ذلك استطاع هؤلاء العلماء ان يذيعوا على العالم اسرارا جديدة طالما حاول الانسان سبر غورها ومعرفة كنهها ..

نظرية الضوء الاحمر

هناك نظرية معروفة فى علم الفلك عن طبيعة الضوء الذى يتحول عادة الى ضوء أحمر ..

تقول النظرية : اذا كان جسم يبتعد عن الارض بسرعة منتظمة فان الموجات الضوئية المنبعثة منه تطول ، أو تتحول الى لون أحمر .

فمنذ جيل مضى ، اكتشف الفلكيون ضوءا احمر تحول من الضوء الذى يصلنا من المجرات البعيدة . (وهى عبارة عن أنظمة تحتوى على بلايين النجوم) وكلما كانت المجرة بعيدة اشتد تحول الضوء الى لون أحمر قان .. وكانت النتيجة العلمية التى توصل اليها العلماء : ان هذه المجرات تتحرك مبتعدة الواحدة عن الاخرى وكلما ابتعدت كلما ازدادت سرعتها .. وتعيد هذه الصورة الى ذهن القارىء الشظايا المتناثرة من اى انفجار وهى تندفع فى كل اتجاه بقوة وعنف..

هناك نظرية أخرى عن أصل الكون تقول : ان مادة الكون اتحدت فى ذرة واحدة أصلية ثم حدث منذ ١٥ مليار سنة انفجار كبير شتت اجزاء من هذه الذرة الواحدة الاصلية الى جميع الاتجاهات فى الفضاء .. ثم تجمعت هذه الاجزاء من المادة وكونت المجرات ،

ولـكنها ظلت تبتعد بعضها عن البعض بسرعة منتظمة وعلى مسافات منتظمة أيضا .

وهذه النظرية توحى بوجود عالم يمتد بصفة دائمة فى فراغ لا نهائى ..

ولكن العلماء عدلوا هذه النظرية ونقحوها وادخلوا عليها فكرة العالم المتذبذب ففى هـــذا العالم المتذبذب يحدث انفجار كل ٨٢ مليـــــار سنة وان المجرات تطير منفصلة فى رحلتها اللانهائية الى نقطة معينة ثم تعود لتلتحم وتكون ذرة واحدة أصلية وتستعد للانفجـــار الجديد .. وهذه تمثل صـــورة واضـــحة المعالم لعالم « مغلق » غير محدود ..

راى ائمة العلماء

ان العالم الـكبير الدكتور روبرت ديكى أســـتاذ الطبيعة بجامعة برينستون ــ وهى نفس الجامعة التى أتم فيها العالم اينشتين بحوثه الخالدة عن الذرة ــ قدر بأن العالم تكون نتيجة لانفجار رهيب ، وان بعض بقايا الانفجار من المـادة الاصلية الاولى يمكن العثور عليهـا بالبحث والاستقصاء .. وان الموجات لابد قد طـالت بسبب تمدد الكون ، فلا يمكن والحالة هذه العثور عليها كضوء أو كأشعة اكس ، ولـكنها أصـــبحت موجات لاسلـكية ، وان الموجات اللاسلـكية والضوء المرئى لهما أطوال مختلفة ومغناطيسية مختلفة أيضا وقد تم ولادة هذه الاصوات فى الفضاء .

وفى الوقت نفسه تحقيقا لنظرية عالم الطبيعة ديكى عن وجود أصوات غريبة فى الفضاء البعيد وكيف تكونت عبر مرور بلايين الســـنين نرى أن العالمين بنزياس وديلسون من معـامل بيل المشهورة حاولا التخلص من

اصوات غامضة غريبة كانت دائما تتـــــدخل وتفرض نفسها على جهاز استقبال ركب خصيصا لالتقـــاط الاشارات اللاسلكية من أحد الاقمار الصـــناعية . وبالبحث ومواصلة التحرى اتضح ان بعض هـــذه الاصـــوات كان صادرا من مجرتنا الرئيســـية ـ طريق التبـــانة ـ وبعض المجرات الاخرى . ومع ذلك لم يستطيعا عزلها .

الاصوات اللاسلكية

ان جميع الاجسام التى تكون حرارتها فوق الصفر تصدر أصواتا لاسلكية . وبقياس حرارة هـــذه الاصوات الصادرة اتضح انها تبلغ ٥ر٣ درجة مئوية فوق الصفر .. وذكر علماء برينستون ان الاصـــوات الصادرة من انفجار المادة الاولى بلغت حرارتها ١٠ درجات مئوية فوق الصـــفر ، وان العالم فى حالة امتداد ، وان مادة جديدة تتكون باستمرار لملء الثغرات. وان مجرات جـديدة تحل محل المجرات التى ترحـل بصفة دائمة فى الفراغ ، وان هناك نفس العدد من المجرات فى الفراغ . وعلى ذلك فان الكون ظل على هذه الحال فى زمن غير محدود وسيظل كذلك لزمن غير محدود أيضا (ولم تذكر النظرية كيف تكونت المادة الجديدة التى ملأت الثغرات) .

نظرية الحالة الثابتة

اما نظرية الحالة الثابتة فتتركز على التقـــــاط الاصوات الصادرة من الفضـــاء البعيد .. وبعد أن يستطيع العلماء تفسير وجود الاجسام المضيئة الغريبة فى حافة الكون التى تم اكتشافها أخيرا . فاصل هذه الاجسام كان يظن انها مجرد نجوم داخل مجرتنا ولكن فى عام ١٩٦٠ اكتشف العلماء انها تشع طاقة من الموجات

اللاسلكية على هيئة ضوء . وفى عام ١٩٦٣ اكتشف العالم مارتن شميدث ان أحد هذه الاجسام ينبعث منه ضوء احمر قوى مما أثبت بالدليل القاطع انه جسم خارج مجرتنا ..

وثبت أيضا ان قوة لمعان هذه الاجسام تفوق لمعان مجرتنا بمائة مرة وان سرعتها ١٤٩٠٠٠ ميل فى الثانية ..

ويقول شميدث أيضا : ان الضوء الذى نراه منبعثا من هذه الاجسام قد تركها منذ بلايين السنين قبل ولادة الشمس والارض ، وعندما كان الكون فى ثلث حجم ما عليه الان ، وان الضوء الذى نراه من هذه الاجسام قد ابتدأ رحلة منها منذ عدة بلايين من السنين بعد ولادة الكون مباشرة ..

عود على بدء

والان ما علاقة هذا كله بالسؤال الخالد : متى بدأ الكون ؟ فى الماضى كان الفلكيون يقولون ان الرد الصحيح على هذا السؤال هو عد المجرات فى الفراغ .. ولكن بما ان الضوء المنبعث من المجرات البعيدة خافت فان الفلكيين لم يستطيعوا عد المجرات البعيدة مطلقا ..

ولكن باكتشاف « الكواسار » أى الاجسام الجديدة البعيدة فى حافة الكون فان عاملا جديدا [illegible] الى النظريات الفلكية الحديثة .. فما دام الفلكيون يستطيعون رؤيتها وهى على هذا البعد المترامى فى الفضاء فمن السهل عليهم الان عد المجرات السابحة فى الفضاء .

وأخيرا يأمل العلماء ان يردوا على هذا السؤال الخالد فى مدى عامين او ثلاثة أعوام .. وهو السؤال الذى ظل حائرا فى أذهان الناس منذ آلاف السنين .

الشمس أقدم الكواكب

هناك نظريات عديدة عن أصـــل النظام الشمسى تضاربت خلال ربع قرن من الزمان . فمنها نظرية تقول ان الكواكب السيارة المعروفة تكونت فى نفس الوقت الذى تكونت فيه الشمس ، وأخرى تناهض هـــذا الرأى وتقول بأن الشمس تكونت أولا قبل أن تتكون الكواكب وثالثة تقول أن الكواكب هى التى تكونت قبل الشمس ..

والحقيقة العلمية هى ان الكواكب تكونت فى نفس الوقت الذى تكونت فيه الشمس والنظرية القديمة عن النظام الشمسى تقول ان الكواكب أصغر عمرا من الشمس

أما النظريات الجديدة فتقول باختصار ، ان النظـام الشمسى تكون أولا فى سديم ـ أى فى سحابة ضخمة من الغازات ـ معظمهـا أيدروجين وغبـار كونى وتركزت السحابة ، وفى وسطها تكونت الشمس وبعض أجـزاء اخرى تجمعت واصبحت كواكب ، وتحولت الشمس تدريجيا الى نجم حقيقى وفقـدت الاجزاء الخارجيـة حرارتها وأصبحت كواكب باردة ..

كوكب بلا اقمار

كوكب واحـد يدور حول الشمس ولا تدور حوله اقمار.هو بلوتو .. وحتى وقتنا هـذا لم يكتشف له

العلماء قمرا يدور حوله رغم امكانيات العلم الحديث واجهزته الدقيقة التى ترصد ابعد ما فى الكون من نجوم واقمار .. اما اورانوس فله خمسة اقمار ولنبتيون قمران . واكتشف كويبر القمر الخامس للكوكب اورانوس فى عام ١٩٤٨ والقمر الثانى لنبتيون فى عام ١٩٤٩ .

وبين مجموعة الكواكب الاربعة الداخلية الاخرى فليس للزهرة او عطارد اقمار اما المريخ فله قمران والارض قمر واحد.. وقد اكتشف أحد العلماء البولنديين قمرين آخرين يدوران حول الارض ايضا فى شهر مايو ١٩٧٣ .

الصيف فى الشتاء

لما كانت الارض تدور على محورها ، فان القطب الشمالى يشير الى نجم معين ، ولكن هذا الدوران يجعلها ترف وتستغرق الارض ٢٦٫٠٠٠ سنة لاكمال رفة واحدة ؟ اى ان المحور يكون دائرة على خط عمودى فى حين ان انحراف المحور يظل على درجته المعروفة ٢٣٫٥ . واثناء هذا التقدم الملحوظ فى حركة دوران الارض فان المحور يشير تدريجيا الى نجوم مختلفة . ونصف الرفة تستغرق ١٣٫٠٠٠ سنة . وفى مدار الارض الذى تكون فيه فى فصل الشتاء يتحول هذا الشتاء الى صيف اى مرة كل ١٣٫٠٠٠ سنة .

مدارات الكواكب

يميل الكوكب بلوتو عن سطح الكسوف بسبعة عشر درجة ، وعطارد بسبع درجات ، اما جميع الكواكب الاخرى فتتراوح درجات ميلها من درجة الى ثلاث درجات عند متابعتها للخط المدارى كما تفعل الارض .

فمدار الزهرة مثلا دائرى تقريبا واختلاف مركزها بمقدار ٧٠٠ر. أما الارض فمقدار اختلاف مركزها ٠١٧ر ومدار عطارد اهليلجى ودرجة اختلاف مركزة ٢٠٦ر. وبلوتو ٢٤٩ر – وهى أعلى درجة بين الكواكب الاخرى .

هل تبرد الشمس ؟

تقول بعض النظريات الحديثة ، ان الشمس قد تبقى لمدة عشرة آلاف مليون سنة أخرى وقد تبرد بعد ذلك أو تشتد حرارتها أو تخبو نهائيا ..

والحقيقة ان الشمس بعد هذا العمر الطويل سوف تشتد حرارتها . ونحن فى حياتنا على الكوكب الارضى لن نلحظ أى زيادة فى درجة حرارتها ، ولكن عندما ينتهى وقت الشمس فان زيادة حدة أوكثافة الاشعاعات قد تشوى الكرة الارضية وتلهبها فتغلى مياه المحيطات ، وبعد ذلك قد تستغرق عدة ملايين من السنين لتخبو نيرانها النووية المشتعلة .

كسوف الشمس والقمر

المعروف ان عدد مرات كسوف الشمس فى العام اكثر من كسوف القمر بحيث لايزيد عدد الكسوف على سبع مرات . وفى كل خمس مرات كسوف للشمس تقع فى عام فهناك كسوفان للقمر .. واذا حدث الكسوف القمرى فكل انسان على الارض يراه ، ولكن عندما يحدث الكسوف الشمسى فان الظل الذى يعكسه القمر يقع على سطح الارض فى احزمة رفيعة ولذلك لايرى انسان هذه الظاهرة ..

كرات نارية من السماء

تسقط من السماء أحيانا كرات نارية لوحظت أثناء العواصف الرعدية فى حجم كرة القدم أو البرتقالة ، وتظل تتوهج لعدة ثوان فقط تخبو بعدها . وقد رآها كثيرون رؤيا العين . ولكن العلماء يعزون رؤيتها الى بعض التأثيرات البصرية والحقيقة انها تسقط على اثر حدوث العواصف الرعدية الضارية ، ويعقب سقوطها حدوث صوت صاخب كصوت الريح العاتية ، ويكون لونها ابيض أو أزرق مشوبا بالصفرة ، وتنحدر على الطرقات أو الارض بسرعة خيالية حتى تصطدم بالجدران أو الصخور فتحدث انفجارا رهيبا .

ومثل هذه الظاهرة تحدث احيانا فى الفواصات لاحداثها تيارا كهربائيا عنيفا يصل الى مائة وخمسين الف امبير من مصدر كهربى قوته ٢٦٠ فولتا فقط وكذلك فى بعض الاجهزة الكهربائية فى وجود أو غياب ظاهرة البروق .

ولما كان سقوط هذه الكرات النارية من الظواهر النادرة فان البحوث الحديثة قد أثبتت أن المراقبين أو الذين شاهدوها قد أجمعوا على انها تتكون عادة عند قنوات البروق ، وان وميضها قد يولدها . وبما أنها تظل لعدة ثوان فقط فانها لا تفارق هذه القنوات أو

تبعد عنها كثيرا لذلك تكون ظاهرة عامة لكن نادرا ما يراها الانسان . وتحدث دائما أثناء العواصف الرعدية وتسقط على الارض أو تسبح فى الهواء أو تسقط من بين السحب مباشرة الى الارض . وهى دائرية الشكل قطرها من أربع الى ثمانى بوصات أو من نصف بوصة الى عدة أقدام ... والوانها مختلفة والغالب هو اللون الاحمر والبرتقالى والاصفر ويمكن رؤيتها بوضوح أثناء النهار ، وهى شديدة اللمعان . ولا يستغرق ظهورها اكثر من خمس ثوان وأقصاها دقيقة واحدة . وتتحرك هذه الكرات أفقيا بسرعة ياردتين فى الثانية . وقد تظل ثابتة فى الهواء لا تبدى أى حركة أو تسقط من السحب نحو الارض ..

وتصف معظم التقارير هذه الكرات على انها تدور أثناء حركتها على محاورها وأحيانا تقفز على الارض . وكثيرا ما تحرق الاجران وتذيب الاسلاك أو تسقط فى البحيرات فتحدث صوتا كصوت الحديد المحمى عندما يوضع فى الماء ، وتصدر عنها رائحة تشبه الاوزون أو الكبريت المحروق أو أكسيد النتريك . وتجذبها عادة الاشياء المعدنية كالاسوار المصنوعة من الاسلاك الشائكة أو خطوط التليفون . وكثيرا ما تدخل هذه الكرات البيوت من المداخن أو من خلال زجاج النوافذ . وتتلاشى هذه الكرات بطريقتين فتحدث انفجارا أو تتلاشى فى هدوء ... ويحدث الانفجار بسرعة ويعقبه صوت رهيب اما الطريقة الثانية فتحدث بسرعة أو ببطء ، وتترك أثرا أو بقايا ، وأحيانا تنقسم الى كرتين أو أكثر . وتخلو الدوائر العلمية من نظريات عن كرات النار التى تسقط من السماء ولا تنهض مطلقا بل تفتتها الجاذبية

الارضية وتجعلها تتلاشى تماما . ويغلب على ظن العلماء ان مصدر الطاقة لهذه الكرات يكون دائما من داخلها أو خارجها فاذا كانت القوة من الداخل تكون الكرة عبارة عن غاز أو هواء يحرق ببطء بسبب الايونات الموجودة فى الكرة ذاتها ، وبسبب التفاعلات الكيميائية ، أو تصبح كرة من الهواء الساخن الذى يحتوى على شوائب عند الضغوط الجوية ، أو تكون بلازما ذات كثافة عالية « غاز متأين » وتصبح لها صفات المواد الصلبة ، أو تتكون بسبب الدوامات الهوائية التى تحتوى على غازات مثيرة . أو انها عبارة عن مجال كهرومغناطيسى ذو تردد مرتفع منحصر فى فلالة من الهواء المتأين على هيئة كرة .

واذا كان مصدر طاقتها من الخارج فانها تنقسم الى ثلاثة أقسام : الاول مجال كهرومغناطيسي قوته مئات من الميجاسايكل فى الثانية . والثانى : تيار ثابت يتدفق من السحب الى الارض . والثالث : تركيز ذرات من الاشعاعات الكونية .

ويبقى سؤال : هل هناك علاقة بين كرات النار هذه والاطباق الطائرة ؟

يقول العلماء هناك ظواهر جوية لم يعرف كنهها بعد . فبعضها يدعو الى السخرية وبعضها سوء تفسير لبعض الظواهر الطبيعية المعروفة كالشهب أو كاعادة دخول مركبات الفضاء فى جو الكرة الارضية سواء كانت هذه المركبات من عالمنا او عوالم اخرى .

وبرغم أن هناك مشاهدات كثيرة لاجسام أو أشياء على هيئة أطباق طائرة سجلها رجال موثوق فيهم فان الدليل لايزال ينقصنا فيما يختص بمركبات فضاء

جاءتنا من كواكب اخرى . وحتى كتابة هذه السطور لم يعثر على طبق طائر محطم او استطاعت دولة من الدول أن تأسر واحدا من هذه الاطباق الطائرة ، وأخيرا يمكن القول بأن كرات النار التي تسقط من السماء لا تزال من الظواهر الطبيعية المحيرة . أما كرات الضوء او الاطباق الطائرة فهى أكثر منها لمعانا تتراوح اقطارها من عشرة الى عشرين قدما وتوحى الى من يراها انها شديدة اللمعان كالبرق وقد تبدو لمدة دقيقة أو أكثر. وعندما تظهر هذه الاجسام مباشرة بعد البروق فمن الواضح أن يطلق عليها العلماء كرات البرق ولكنها احيانا ما تظهر بالقرب من السحب او فى داخلها او فى الثلوج فى غياب البروق وأحيانا أخرى ترى فى السماء الصافية الاديم .

المذنبات : ألعاب السماء النارية

ظلت المذنبات لاجيال عديدة تخيف الناس وترعبهم . وبين وقت وآخر وبدون سبب معروف يظهر مذنب لحظات ثم يختفي . وللمذنبات أشكال تختلف عن أشكال الاجسام السماوية الاخرى لها ذيول مشوشة تشبه شعر امرأة تنتحب . وكلمة مذنب مشتقة من الكلمة اللاتينية بمعنى شعر ، وكان يظنها الناس دليل شؤم .

وفى القرن الثامن عشر اجتمع رأى العلماء على ان المذنبات تتحرك فى مدارات عادية حول الشمس ولكن بطريقة مستطيلة . وفى نهاية أطراف مداراتها تختفي هذه المذنبات ولا تظهر الا فى النهايات القريبة مرة كل اثنى عشر عاما أو مائة أو ألف عام .

وفى عام ١٩٥٠ أعلن عالم الفلك الهولندى « جان هندريك اورت » انه توجد سحابة عظيمة بها مليارات من الكويكبات تدور حول الشمس على مسافة سنة ضوئية واحدة أو أكثر . وهى أبعد من الكوكب بلوتو أبعد الكواكب عن الشمس، بالوف المرات . وبين وقت وآخر وبسبب جاذبية النجوم القريبة لها فان بعض هذه الكويكبات تبطىء فى حركتها المدارية ، وتشرع فى السقوط نحو الشمس ، وفى كثير من الاحيان قد تتوغل فى النظام الشمسي وتتحرك نحو الشمس حتى تصبح قريبة منها بملايين قليلة من الاميال ، ومن ثم تحتفظ بمداراتها الجديدة وتبدو على هيئة مذنبات .

وفى الخمسينات أيضا أعلن عالم الفلك الامريكى فرد لورانس هويبل ان المذنبات تتكون من غازات النشادر والميثان مع حبات من الصخور والحصى . وفى سحابة المذنبات البعيدة جدا عن الشمس فان غازى النشادر والميثان والمواد الاخرى تتجمد على هيئة بللورات ثلجية. وهذا التكوين الثلجى للمذنبات يظل ثابتا على حاله ولكن ماذا يحدث لاحد هذه المذنبات عندما يقترب من الشمس ؟ يقول العالم أسيموف :

عندمايدخل المذنب النظام الشمسى فان زيادة الحرارة التى تصله من الشمس تبخر الثلوج ، ومن ثم تفرج عن ذرات الصخور المحبوسة فى طبقات السطح . وتكون النتيجة ان يصبح قلب المذنب محاطا بسحابة من الغبار والبخار تتضخم كلما اقتربت من الشمس .

ومن الشمس تخرج الرياح الشمسية فى كل اتجاه على هيئة مجرى من السحب ذات ذرات نصف ذرية . وتبذل الرياح الشمسية قوة أعظم من قوة جذب المذنب فتبعد سحابة الغبار والبخار عن الشمس وتحولها الى ذيل طويل . وكلما اقتربت السحابة من الشمس استطال الذيل وأصبح رفيعا جدا ..

ومن المعروف أن المذنبات لاتعيش طويلا بمجرد ان تدخل فى النظام الشمسى . فاذا مرت بالشمس فقدت الكثير من مادتها وعلى الاخص بعد عودتها مرة وراء أخرى ، فيقل حجمها ويصبح قلبها عبارة عن قطع من الحجر أو تتحطم الى سحابة من الشهب الصغيرة .

وهناك عدد من مجارى الشهب تتحرك فى مدارات ثابتة حول الشمس وعندما يدخل بعضها جو الكرة الارضية تتحول الى مجموعة من الشهب أو العاب السماء النارية . وهى بالطبع بقايا المذنبات النافقة .

مراصد جوية لدراسة الفراغ

يقال انه عندما يموت الفلـكيون فان ارواحهم تذهب الى القمر لان الرؤية تكون حسنة واضحة من هناك ! ! ولـكن هذا القول الاسطورى اصبح لا حقيقة له بعـد ما حققه الفلـكيون الاحياء من معجزات فى عصر الذرة والفضاء !

خطا علم الفلك فى السنوات الاخيرة خطوات واسعة، واستطاع العلماء أن يضيفوا اليه نظريات جـديدة كان موضوع اكتشافها مستحيلا أو يحتـاج الى عدة قرون كاملة . ولـكن برغم هذا النجاح فان مشاكل هندسية كثيرة لا تزال تبرز من وقت لاخر يجب سرعة حلهـا لتحقيق أحلام الانسان التى راودته منذ فجر التاريخ .

فالعلمـاء اليوم على وشك سبر غور جو الارض ومعرفة أسراره معرفة دقيقـة .. فجو الارض يعوق بحوث الفلكيين فى أمور ثلاثة : منها انه يرسل موجات ضيقة طـويلة الى الارض بقوة تتـراوح من ٢٩٠٠ الى ٣٠٫٠٠٠ انجستروم ــ ووحدة الانجستروم تعـادل واحدا على عشرة الاف من المايكرون أو بمعنى مبسـط واحدا على عشرة الاف سنتيمتر ــ وهى احدى النوافذ التى يرى الفلـكيون من خلالها السماء وما حوته من أقمار ونجوم وكواكب فيصورونها تصـويرا دقيقا اذا

حصلوا على اجهزة تصوير دقيقة تستطيع عدساتها ان تنقل ما وراء هذه النوافذ الضيقة من أجسام .

وبالطبع كلنا يعرف ظاهرة لمعان النجوم فى قبة السماء أو لمعان شريط من الهواء فوق ممر ساحن فى الفضاء .. فهذه الظواهر ومصدرها الاصلى الفواصل التى يعكسها جو الارض على عدسات الفلكيين ، وفى عصرنا هذا وبرغم صناعة عدسات قوية أو تلسكوبات جبارة فلا تزال الرؤية غير واضحة أو محدودة جدا .. لذلك فان التغلب أو التخلص من هذه العوائق سيفتح الباب على مصراعيه أمام الفلكيين والعلماء ويقضى على نصف المشاكل القائمة حاليا . وقد فكر الكثير من أئمة الفلكيين وعلى راسهم العالم الفلكى الذائع الصيت « هارولد هيستريت » فى حلول سريعة لتطوير علم الفلك وذلك بارسال أجهزة فلكية الى الفضاء البعيد ، أو الى خارج جو الكرة الارضية للتخلص من الموجات التى تعوق مواصلة البحث والاستقراء .

اذن فما هى أصول أو قواعد علم الفلك الجديد فى عصر الذرة والفضاء ؟ أول هذه الاصول أو القواعد المرسومة ارسال « بالونات » الى الفضاء للحصول على معلومات سريعة مباشرة بدلا من الحصول عليها من طريق « الاقمار الصناعية » التى تستغرق وقتا فى ارسالها الى الفضاء الخارجى ، وانتظار ما ترسله من معلومات . وبجانب ارسال البالونات والاقمار الصناعية يمكن ارسال الصواريخ بأجهزة دقيقة للاستطلاع . وقد تم فعلا الحصول على معلومات نادرة عن طريق الصواريخ فى السنوات الاخيرة ساعدت على اضافة نظريات جديدة الى علم الفلك . ولكن لا تزال هناك مشكلة واحدة

تعترض طريق العلماء هى عامل الوقت ، أو بمعنى أدق الوقت الذى تستغرقه الاجهزة للبقاء فوق جوالارض. ومن المعروف ان هذه الاجهزة لا تمكثغير دقائق معدودة فقط رغم امكانات الانسان الحديثة وملايين الجنيهات التى تنفق لارسالها الى خارج جو الكرة الارضية لدقائق قليلة .

ويقول العالم « هيستريت » بجانب مشكلة الوقت الذى تستغرقه الاجهزة الدقيقة فى تصوير ما تراه فى الفراغ البعيد تصادف هذه الاجهزة الدقيقة مشاكل أخرى منظورة ، مثل وحدات الضوء ، والطاقة المغناطيسية التى تؤثر عليها تأثيرا مباشرا فتعطل عملها الرئيسى الذى ارسلت من أجله . فوحدات الضوء تصدر عن الشمس وعن بعض مصادر أخرى فى السماء . وقد تلعب الجاذبية دورا آخر لو لم تعد هذه الاجهزة اعدادا علميا دقيقا للتغلب على ظاهرة الجاذبية . كما ان المغناطيسية تعلن عن نفسها ايضا من تأثير المغناطيسية الارضية وكذلك يؤثر الفراغ على ميكانيكية الاجسام المتحركة . ففى الفراغ يحدث أن تلتحم الاجزاء المعدنية بعضها ببعض ومن ثم يتغير التركيب الميكانيكى أو الكهربائى لهذه الاجهزة فتتعطل تماما ..

ازاء هذه المشاكل التى تعترض تطور علم الفلك فى هذه الحقبة من التاريخ يرى العلماء ضرورة صناعة اجهزة دقيقة حساسة ، وتثبيتها فى اجسام الاقمار الصناعية ، بحيث لا تتأثر بوحدات الحرارة أو الضوء أو المغناطيسية فى الفضاء البعيد . وكذلك ضرورة صناعة تلسكوبات قوية لا تتأثر أجهزتها بما سبق ذكره من موانع وعوائق . ويمكن التغلب على هذه الصعاب

جميعها بارسال اجهزة دقيقــة الى مدار معين بحيث يمكنها ان تعمل من هناك مدة طويلة .. لمدة عام أو بعض العام . ويعد العلماء العدة من الان لتحقيق هــــذه الاهداف التى ستحدث تطورا مباشرا فى علم الفلك سوف يظهر أثره قريبا .

ولعــل أول الاجهزة التى يصممها العلمــاء الان هى تلسكوبات الفضاء والحقيقة ان فكرة صناعة تلسكوبات من هذا النوع ترجع الى عام ١٩٥٧ عندما ارســل أول تلسكوب منها الى الفضاء . وفى مارس عام ١٩٦٢ ارسل الى مدار معين تلسكوب لرصد وتصوير النظام الشمسى فى قمر صناعى زنته ٤٥٠ رطلا فى مدار دائرته ٣٠٠ ميل وكان الهدف الرئيسى من هذا الجهاز هو دراســـــة اشعاعات الشمس كضرورة للتمهيد لرحلة الانســـان وهبوطه فوق القمر .

وضع خريطة للسماء

ان برج المراقبة الذى اطلقه العلماء منذ سنوات الى الفضاء يحتوى على ثلاثة عشر جهازا منفصلا معظمها مسلط على الشمس . وتشمل الاجهزة عدسات قوية لدراسة الاشعاعات القوية الصادرة عن الشمس مثل أشعة اكس واشعة جاما وجهاز خاص لقياس ذرات الغبار المنتشرة فى الفراغ .

وكذلك لوضع خريطة للسماء أو بمعنى آخر مسح السماء فان عجلة دائمة الدوران مركبة فى أحد الاجهزة تعمل بصفة دائمة وتشمل العجلة جهازا لتصوير الاشعاعات الصادرة من الشمس للتحقق من وجود اشعاعات داخل القمر الصناعى ، أو الكشف عن ذرات نشطة تصطدم به . وبالعجلة أيضا جهاز آخر لدراسة حزام « فان الن » المشع الذى تم اكتشافه منذ سنوات قليلة .

ويقوم العلماء الان بعمل مرصد جوى جديد لارساله الى الفضاء البعيد وسيزن المرصد ٣٣٠٠ رطل به مجموعة من الاجهزة وزنها الف رطل وسيدفع صاروخ من طراز « اطلس » المرصد الجديد الى ارتفاع خمسمائة ميل .

وينقسم المشروع الجديد الى ثلاث مراحل . تنقل

المركبة الاولى زوجين من الاجهزة لوضع خريطة كاملة لنجوم السماء فى المناطق ذات الاشعة فوق البنفسجية. وسوف يستغرق المرصد ستة أشهر كاملة فى رسم هذه الخريطة الدقيقة التى سوف تحدث انقلابا خطيرا فى نظريات علم الفلك الموضوعة ..

وستطلق المركبة الثانية أو المرصد الثانى لدراسة عدة مئات من النجوم فى المنطقة ذاتها وكذلك دراسة عدد من النجيمات والسديم وما بينهما ..

أما المركبة الثالثة فسوف تطلقها جامعة «برنستون» لقياس الاطياف فى المناطق ذات الاشعة فوق البنفسجية .

وسوف يتم اطلاق هذه المراصد الجوية لدراسة الكون والفراغ قبل نهاية عام ١٩٧٥ بحيث ترتفع الى ٢٣٥٠٠ ميل فوق الكرة الأرضية. وسوف تكون أقطار التلسكوبات التى ستركب فى هذه المراصد الجوية من ٥٠ الى ٧٢ بوصة بحيث تستغرق فى الفضاء خمس سنوات كاملة للدراسة والبحث .

ولن يقتصر الامر على ذلك ، بل سوف يرسل العلماء عددا كبيرا من الفلكيين فى هذه المراصد لتشغيلها وادارتها ورسم خرائط كاملة لما يرونه على هذا الارتفاع الشاهق من الكرة الارضية . وذلك بجانب معامل الفضاء التى تم ارساؤها خلال السنوات القليلة الماضية ، والتى لاتزال تدور حول الاض .

منازل للناس فوق النجوم

فى السماء مساحات شاسعة من الارض الفضاء تقدر بستة مليارات من الافدنة لكل شخص يعيش على هذا الكوكب الارضى المزدحم .

يقول العلماء انها أرض طيبة صخورها كتلك الصخور التي توجد فوق سطح القمر تصلح للزراعة وبناء المساكن واقامة المدن .. أرض صالحة لحياة النبات ، بها من الاوكسجين ما يكفى جميع المخلوقات . تدفئها الشمس التى تعمل على نمو المحصولات ويمكنك الحصول على هذا القدر الكبير من الارض فوق النجوم بدون الخروج عن بيت النجوم أو ما نسميه بطريق التبانة .

ان كوكبتنا بها ستمائة مليون كوكب تصلح للحياة . أى كوكب واحد لكل ستة أشخاص . أضف الى ذلك كوكبة المرأة المسلسلة ، وما بجوارها من اربع كوكبات فيصبح لكل انسان كوكب خاص به يستطيع أن يعيش فيه ويمرح فى أرجائه ..

وهذا الكوكب الذى يمكن أن يحصل عليه كل انسان هو كوكب ازرق لا أبيض ولا أصفر ولا احمر ولا اخضر ، وجميع الالوان ما عدا اللون الازرق خطرة لا تصلح لسكنى الانسان . وفى هذا الكوكب الازرق الجميل سحب قطنية بيضاء تسبح فى سمائه . واللون

الازرق هنا يعنى وجود جو ممتاز يسمح بالحياة وكذلك وجود محيطات وبحيرات وهى مياه سائلة يمكن أن تسبح فيها البواخر والقوارب تختزن الحرارة وتلطف الجو ومن ثم تهطل الامطار لتقضى على سحب الغبار ..

ليس ما ذكرناه مجرد أوهام أو خيـــــالات بل هى افتراضات مؤسسة علميــة اسمهــا « داند » تركزت بحوثها فى مسح السماء للعثور على نجوم تصلح لسكنى الانسان ، الغريب ان هيئة بحوث الفضاء أعلنت فى ١١ سبتمبر عام ١٩٦٤ ما يأتى :

انه يوجد مقــابل كل نجم من نجوم هــذا الــكون (وعددها مائة بليون كوكبة) ٦٠ شمس أو كوكب مائت اكبر من حجم المريخ تصلح لسكنى الانسان .

وبالطبع لن يكون كوكب الازرق مثل الــكوكب الارضى الذى تعيش عليه الان . فقد يكون دافئا او شـــــديد الحرارة كالمناطق الاستوائية أوشديدة البرودة كسيبيريا، ومع ذلك فلن يكون شـــديد البرودة كجرينلاند حيث استطاع الاسكيمو أن يعيشوا . وعليه فقــد يكون جو هذه الــكواكب الزرقاء أفضل من جو الــكرة الارضية به رياح خفيفة وشتاؤه وصيفه معتدلين ..

يقول العالم فريتزلايبر أن طول اليوم هناك قد يكون ٩٦ ساعة أو مجرد ثلاث ساعات فقط . وقــد يكون له قمر وقد لا يكون له قمر على الاطــلاق ... وربمــا تتغير هيئة الانسان على هــــــذه الــكواكب الزرقاء فتقوى عضلاته ويتخلص من بدانته ليستطيــع العيش خفيفا متنقلا فوق أرض هــذه النجوم .. وقد تــكون الجاذبية فيها نصف أو ثلاثة أرباع الجاذبية الارضيــة وبذلك يصبح الانسان فى خفة الغزال .

جو الـكواكب

ان جو هـذه الـكواكب الجديدة قد تكون اسـمك من جو الـكرة الارضية بثلاث مرات أو أخف منه بثماني مرات حتى تعتـاده وبذلك تستنشق أوكسجينا نقيا . ولن تـكون ظروف الحيـاة هناك أقسى من تلك التي يعانيها سكان مناطق الاوكانكويلشا فى جبال شيلى حيث يعيش الناس على ارتفاع ثلاثة أميال ونصف ميل فوق مستوى البحر ..

يقول العلماء ان الإنسان هناك سيكبر صدره ويتضخم ويكره التدخين ولا يقدم عليه . والسماء بالليـل تبدو غير السماء التى اعتدنا رؤية النجوم فيها .. سـماء مرصعة بالنجوم اللامعة وسترى عددا كبيرا منها تتالق العين المجردة وربما يكون كوكبك السماوى فى منطقـة داكنة ـ فى غبـار سحابة من السحب ـ او فى حافة الـكوكبة ومن ثم لن تستطيع أن ترى النجوم اطلاقا ..

وقد يكون لـكوكبك قمر أو قمران او حلقـة تدور حوله كالحلقة التي تدور حول زحل أو قد يكون بقربه كوكب آخر مثل الـكرة الارضية .

وقد يدور كوكبك حول شمسين قريبتين من بعضهما البعض أو منفصلتين ، وفى هذه الحالة تكون الشمس البعيدة مجرد نقطة من الضوء فى سماء كل ليـلة تلمع لمعان القمر . وقد تكون الشمس الاخرى احـدى نجوم النظام الشمسى ..

سكان الـكواكب الحقيقيين

يقول العلماء : يحتمل أن يكون بهذه الـكواكب سكان حقيقيون يسيطرون عليها سيطرة تامة . وفى هذه الحالة

فان سكان الكرة الارضية يجب أن يتعلموا من الآن الطريقة الصحيحة لمعاملة الشعوب الغريبة ويعطونهم قدرهم من الاحترام ويتحرروا من التعصب بأنواعه كتعصب الجنس أو اللون .. وقد تكون هذه الشعوب على قدر كبير من الذكاء والحضارة ولديهم من الاسلحة الذرية الضخمة ما يهدد عالمنا بالفناء ..

نظريات جديدة

تغيرت النظريات العلمية أخيرا . فمنذ ربع قرن من الزمان كان العلماء يظنون :

أولا : ان الكواكب خاوية تماما لا تصلح لسكنى الانسان . أما الان فان عددا كبيرا من علماء الفلك يعتقد بأن كل نجم من النجوم له كوكب أو أكثر ..

ثانيا : ان هذه الكواكب التى تصلح لسكنى الانسان وأقربها كوكبة قنطورس تبعد عنا بأربع سنوات ضوئية . وهذه الكوكبة عبارة عن ثلاث نجوم قريبة بعضها من بعض . اثنان منها يشبهان شمسنا . وان أمل العثور على كوكب هناك هو أمل ضعيف بنسبة ١ : ٩ .

ولكن الامل كبير فى العثور على كواكب صالحة لسكنى البشر على بعد ٢٤ سنة ضوئية ـ والسنة الضوئية هى التى يسافر فيها الضوء بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية .

ولعل أبعد نجم فى طريق التبانة فى الجانب الاخر منه يبعد عنا بثمانين الف سنة ضوئية .

ولنفرض ان العلماء استطاعوا أن يبنوا سفن فضاء تطير بسرعة نصف سرعة الضوء فقد تستغرق الرحلة ثماني سنوات للوصول الى كوكبة قنطورس ومائة وستين

الف سنة لعبور المجرة ذاتها .. وبالنسبة الى ماذكره العالم اينشتين فليس هناك شيء يستطيع أن يرحل اسرع من الضوء .

ولكن العالم يتغير وكذلك النظريات العلمية وليس أدل على ذلك أن نستشهد بالحقائق الاتية :

اولا : عبر كولومبس المحيط الاطلنطى فى تسعة اسابيع .

وتستطيع اليوم اى سفينة فضاء ان تعبره فى ١٥ دقيقة .

ثانيا : ان أول رجل وضع قدمه على سطح القمر وصله فى اربعة أيام فقط .

من يدرى فربما يأتى اليوم الذى تهبط فيه أنت على كوكب من هذه الكواكب الزرقاء الجميلة أو احد أحفادك بفضل وسائل العلم الحديثة التى أتت بالمعجزات فى السنوات الاخيرة ، وبفضل بحوث الفضاء التى ينكب عليها العلماء ليل نهار لايجاد أنسب الحلول لمشكلة تضخم السكان فى الكوكب الارضي .

طبقة الأوزون مهددة بالزوال

فى السنوات الاخيرة شمل التلوث جو الكرة الارضية وكذلك البحار والمحيطات بسبب هطول أمطار الاشعاعات اثر الانفجارات النووية التى تجريها الدول الكبرى استعداد لحروب المستقبل النووية . وفى الآونة الاخيرة بدأ العلماء يركزون اهتمامهم بطبقة الاوزون الموجودة فى جو الارض ، والتى تحمى الحياة من جرعات قاتلة من أشعة الشمس فوق البنفسجية . وقد وجد هؤلاء العلماء ان طبقة الغاز هشة قد يعتريها تخريب شامل أو ابادة تامة بسبب الاستمرار فى التجارب النووية ، بجانب ما تحدثه الطائرات المدنية والعسكرية التى تزيد سرعتها عن سرعة الصوت من انتهاك لهذه الطبقة التى تحمى الانسان وكذلك بسبب الرشاشات الهوائية .

ان الاوزون هيئة من هيئات الاوكسجين له ثلاث ذرات بدلا من ذرتي الاوكسجين فى كل جزيىء للغاز ، ويتكون عندما تمزق الاشعاعات جزيئات الاوكسجين العادية أو عن طريق الكهرباء . ويلاحظ بوضوح بعد العواصف الرعدية بسبب رائحته المميزة . ومعظم الاوزون فى الهواء مركز فى طبقة توجد على ارتفاع يتراوح من ١٥ الى ٣٠ ميلا فوق الارض حيث يمتص كثيرا من الاشعاعات فوق البنفسجية للشمس . والخطر ينحصر

فى ان الاوزون بعيد كل البعد عن حالة الاستقرار، فهو يعطى ذرة من ذرات أوكسجينه الى الذرات الاخرى ، ويتحول الى أوكسجين عادى وبذلك لايستطيع أن يحجب الاشعاعات فوق البنفسجية من الشهب عن الحياة الارضية .

ففى بحث حديث لاحد علماء جامعة ميتشيجان اتضح ان غازات علب الرش لابادة الحشرات أو تلك التى تستخدم فى التجميل ورش شعر الرأس بالالوان الفضية أو الذهبية تحتوى على مركبات الكلورين مثل غاز الفريون، وهى غازات شديدة الاستقرار تحت الظروف العادية . ومن ثم تتراكم فى طبقات الجو السفلى وتنهض تدريجيا نحو طبقة الاوزون . وعند تلك الارتفاعات فان الاشعاعات فوق البنفسجية تحطم غاز الفريون وبعض الغازات الاخرى من مركبات الكلورين ، وتسبب اطلاق سراح ذرات الكلورين التى تتعامل بدورها مع الاوزون وتحوله الى أوكسجين عادى .

يقول العالم سيسرون صاحب هذا البحث : حتى لو أوقفنا استخدام الرشاشات الهوائية فى الحال، فان الغازات الموجودة فى الجو سوف تسبب نقصا قدره ١٠ ٪ فى طبقة الاوزون عند حلول عام ١٩٩٠، وسوف ينتج عن ذلك زيادة كبيرة فى سقوط الاشعاعات فوق البنفسجية على الكرة الارضية ويصاب الناس بسرطان الجلد . وقد يؤثر ذلك على الطعام والمحاصيل الزراعية وطبقات البلانكتون فى المحيطات ، وأخيرا فان زوال طبقة الاوزون سوف تحدث تغييرا جذريا فى جو الكرة الارضية .

ويؤمن عالم الطبيعة الجوية ماك اليروى بجامعة

هارفارد على أقوال العالم سيسرون ، وان استخدام الرشاشات سيقلل من طبقة الاوزون بنسبة ١٠ ٪ فى مدى عشرين عاما و ٤٠ ٪ عند حلول عام ٢٠١٤ وتهدد الحياة الارضية بالفناء .

وهذه التحذيرات التى ينادى بها العلماء تطابق التنبيهات الاخرى الخاصة بالتأثيرات المخربة لاكاسيد النتريك التى تعرى الاوزون من ذرته الثالثة وتحوله الى أوكسجين عادى . فهناك كميات كبيرة من اكاسيد النتريك تطلقها عوادم الطائرات فوق الصوتية فى رحلاتها اليومية عبر القارات والمحيطات ، وقد كشفت احد البحوث عن أن ٥٠٠ طائرة تقوم برحلات منتظمة بالقرب من طبقة الاوزون قد تضعفها أو تقللها بقدر ١٢ ٪ فى خلال ٢٥ سنة .

وفى الشهور الاخيرة حذر العلماء أيضا من خطر اكاسيد التتربك التى تطلقها الانفجارات النووية لانها تقضى أيضا على طبقة الاوزون التى تحمى الانسان من أخطار الاشعة فوق البنفسجية .

الباب الثانى :

الإنســـــان والقـــــمر

متى كان للأرض قمران ؟!

اكتشف العلماء اخيرا وجود صخرة أو كتلة كبيرة من الحديد فى مزرعة احد الفلاحين فى الارجنتين . وكانت كتلة الحديد تزن ثلاثة أطنان كاملة وكانت كذلك عبارة عن قمر صغير يدور حول الكرة الارضية فى الماضى السحيق وسقط القمر فى مزرعة المواطن الارجنتينى « لازاروميلوفيتش » .

ظل العلماء يبحثون طوال السنين عن هذا القمر الذى اختفى فجأة من السماء وأرسلت البعثات تلو البعثات لتبحث عنه فى أماكن متفرقة فى الكرة الارضية حتى فطنوا الى احتمال وقوعه فيها واخيرا نجحوا فى العثور عليه فى شمال الارجنتين .

وبعد شق الانفاق وحفر الارض والتنقيب فى المنطقة المشار اليها عثر العلماء كذلك على أربع فجوات اخرى أحدثتها الشهب المتساقطة من السماء ، وبذلك اصبح عدد هذه الفجوات تسعا ، وبلغ وزن الشهب ثلاثة عشر طنا ونصف طن من الحديد والنيكل والمعادن الاخرى وكانت أكبر فجوة قطرها ١٠٠ ياردة . وأزال العلماء شجيرات الشوك والنباتات البرية التى نمت فى الفجوة وعلى حوافها منذ مئات السنين وعلى عمق أربعة

أقدام عثروا على كميات من الفحم الحجرى الذى تكون بعد سقوط الشهاب وحرقه وابادته للاشجار التى كانت تنمو فى المنطقة ورجع تاريخها الى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد بتحليل عينات الكربون الذى عثر عليه .

الهنود والاسبان

سمع الرحالة الاسبان الاوائل من الهنود الذين كانوا يعيشون فى المنطقة عن كتل من الحديد سقطت من السماء فى « حقول السماء » ؛ كما كانوا يطلقون عليها فى ذلك الوقت . وفى الحال تكونت بعثات فيما بين الاعوام ١٧٧٤ و ١٧٧٦ لفحصها على أمل أن يعثروا فيها على كميات من الفضة مثل تلك التى عثروا عليها فى بيرو من قبل . ودلت العينات التى عادوا بها على انها من الحديد الخالص . ولكن المغامرين الاسبانيين لم يقتنعوا بما اكتشفوه فأرسلوا بعثات أخرى للتنقيب على أمل العثور على مناجم من الحديد . وعهد بهذا العمل الى الضابط ميجيل روبين دى سليس من البحرية الاسبانية الملكية فواصل عمليات التنقيب والحفر ، ولكن الرمال التى تراكمت أخفت تحتها كتلة أخرى زنتها ١٥ طنا ولم يعثر عليها بعد ذلك ..

وأخيرا وفى عام ١٨٠٣ عثر على كتلة أخرى فى نفس المنطقة زنتها طن واحد اقتنع العلماء بأنها من الشهب التى سقطت فأرسلوها الى المتحف البريطانى بلندن .

وفى عام ١٩٢٠ اكتشف عالم آخر أن المنطقة لاتزال غنية بمجموعة نادرة من الشهب . وفى عام ١٩٢٠ استقر رأى العلماء على ان كثرة تساقط الشهب فى شمال الارجنتين أحدث فجوات كتلك التى رآها الرواد فوق سطح القمر ..

وتوقفت عمليات التنقيب فى المنطقة عن كتل الحديد التى سقطت من السماء منذ الاف السنين . وأخيرا بدأ العلماء يهتمون مرة أخرى بهذه الفجوات فعثروا على أنها سقطت على خط مستقيم طوله عشرة أميال من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى .. وعلى بعد الف ميل من الشمال الغربى وجدوا خطا موازيا من الفجوات على طول ساحل شيلى بأمريكا الجنوبية .

واعتقد هؤلاء العلماء أن الخطين نشآ أو تكونا من نفس الشهاب ويبدو أن الارض اسرت شهابا وجعلته يدور حولها كقمر ثان لها لان مداره كان دائريا تقريبا ، وكان اتجاهه نحو خط طول الارجنتين . وكان هذا القمر منخفضا فلم يطل به الوقت لاستمرار الدوران حول الارض كقمر ثابت لها . فحدث ان قوة جاذبية الارض مزقت هذا الشهاب الى قطع صغيرة تناثرت ثم سيطرت طبقات الجو العليا وتحكمت فى قطع الشهاب المتناثرة فجعلتها تهبط هبوطا حلزونيا الى سطح الارض .

وسقط الجزء الاكبر من هذا الشهاب الضخم ـ شمالى الارجنتين بينما انطلقت القطع أو الشظايا الاخرى فى خط مستقيم على طول ساحل شيلى بعد سقوط الجزء الاكبر من الشهاب فى الارجنتين بثمانية وثمانين دقيقة .

ما هى الشهب ؟

الشهب قطع صغيرة حادة من المادة الكونية تدخل الغلاف الجوى للارض بسرعة عظيمة فتحترق بسبب الاحتكاك الشديد . ومتوسط سرعة الشهاب ٤١ كيلو مترا فى الثانية ويظهر للعين المجردة عند احتراقه على ارتفاع ٩٦ الى ١٤٤ كيلومترا .. والقطع الكبيرة قد

يشاهد انفجارها الى ما يشبه وابلا من الشرر فاذا كانت سرعتها بطيئة وصلت منها أجزاء الى الارض وسميت نيازك . ومجموعات الشهب تسمى رذاذ الشهب وذلك يصادف دورات بعض المذنبات فمثلا رذاذ شهب المرأة المسلسلة ، التى تظهر عادة فى أواخر شهر نوفمبر من كل عام شوهد عند اقتراب المذنب بيلا. والاسديات رذاذ من الشهب يرى منبعثا من كوكبة الاسد التىظهرت عام ١٧٩٩ و ١٨٣٣ و ١٨٦٦ اتضحت صلتها بأحـــد المذنبات . هذا هو التفسير العلمى للشهب التى أقرته الموسوعات العلمية المعروفة ويحتمل وجود قمر مشابه لهذا الشهاب الذى سقط منذ الاف السنين فى شمال الارجنتين وقد يكون مصيره السقوط فى يوم من الايام على جهة أو منطقة ما من الـكرة الارضية .

جول فيرن يتنبأ بغـزو القمر

جـول فيرن الـكاتب الفرنسي الذى وضـع حجـر الاساس للاساطير العلمية الحديثة ذكر فى كتبه ومؤلفاته منذ ثمانين عاما ان الامريكيين أول من سيغزون القمر، بل وذهب فيرن الى ابعد من ذلك واختـار للامريكيين الموقع الممتاز الذى سوف يطلقون منه سفينتهم لتشق طريقها الى القمر فى رحلتها الطويلة المرتقبة من اواسط فلوريدا ..

وفى روايته المعروفة « من الارض الى القمر » ذكر فيرن كيف أن ثلاثة من الامريكيين تسـلقوا مركبة على هيئة دانة مدفع أطلقها مدفع ضخم عملاق وبعـد ٩٧ ساعة و ٢٠ دقيقة اقتربوا من القمر وداروا حوله ثم انحرفوا عنه وذهبوا الى النجوم حيث تركهم فيرن هناك فى نهاية قصته ..

والغريب أن العـالم الفرنسى حدد فلوريدا بالذات وذكر أن مدينـة تامبا هى أنسب مكان يمكن اطـلاق الـكبسولة منه . وتقع مدينة تامبا عبر شـبه جزيرة فلوريدا من كيب كيندي المـكان الذى تطلق منه اليوم الاقمار والصواريخ ومركبات وسفن الفضاء . وهذا مما يجعل تكهنـات فيرن مثيرة وذات مكانة فى تاريخ العلوم اليوم .

وقد استغلت أحدى دور النشر الفكرة فقامت بعرض أفكار العالم الفرنسى الكبير فى لوحات فى أحد المعارض الباريسية فتقاطرت عليه الجماهير ونجح المعرض نجاحا عظيما .. واستخلصت الدار أفكار فيرن من عشرة من رواياته وأعادت طبعها بلغتها « الفرنسية » وظلت أبواب المعرض مفتوحة للجمهور حتى يوم ٣٠ ابريل عام ١٩٦٦ ، وزينت واجهة المعرض بعبارة كتبها فيرن فى احدى رواياته « أن ما يستطيع الانسان أن يتخيله يستطيع الآخرون أن يحققوه » .

ولم يقتصر تفكير فيرن على مركبات الفضاء التى ستهبط فوق سطح القمر بل تكهن وتخيل امكان اختراع الانسان لطائرات الهليكوبتر واكتشاف الغواصات للقطبين الشمالى والجنوبى والمناطيد ورى الصحارى وبناء ناطحات السحاب والتليفزيون . وكل ما تراه اليوم ولم يكن معروفا فى عصره ..

وتضمن معرض باريس بعض كتابات فيرن عن آلات وأجهزة غريبة معقدة لاتزال غير مفهومة .. واستغلت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فكرة انشاء المعرض فعرضتا أفلاما ملونة عن سفن الفضاء والاقمار الصناعية وصورا واضحة عن سطح القمر والاجهزة الدقيقة التى استطاعت أن تلتقط هذه الصور على مقربة من سطحه فى محاولات متعددة كللت بالنجاح .

ولد فيرن فى نانت بفرنسا عام ١٨٢٨ ومات فى أمين عام ١٩٠٥ وكان مولعا بالسفر فى المحيطات التى استهوته وأوحت اليه بالكتابة عن الفضاء والبحر وكان دائما يقول : أحب الحرية والموسيقى والبحر .. !!

القمر وصور ٣١ يوليو عام ١٩٦٤

كان العلماء الى ما قبل ٣١ يولية عام ١٩٦٤ يعرفون القليل عن سطح القمر . من ذلك انه يعكس سبعة فى المائة من الضوء الذى يصطدم به ، وان سطحه ساخن أثناء النهار بدرجة تسمح بغليان الماء ، ويبرد بشدة أثناء كسوف الشمس ، وأن طبقة من الغبار تغطى سطحه تبدو ناعمة أحيانا وخشنة أحيانا أخرى ، ويقدر سمكها من صفر الى عدة أميال .. وان المنحدرات الشديدة تبدو عارية تماما تستقطب الضوء بطريقة مغايرة للمسطحات المغطاة بالغبار .

واستطاع العالم الفلكى الانجليزى المعروف اكسل فيرسوف أن يؤكد أن السطح القمرى مغلف بصخور مزبدة أخف من الماء تتكون من زجاج بركانى انتفخ من عشرين الى خمسين مرة أكثر من حجمها الاصلى عندما لفظها الفراغ . وتمكن العلماء السوفييت من أن يلتقطوا صورا واضحة لهذه الصخور وأطلقوا عليها اسم « لونايت » وقدروا سمكها بتسعين قدما .

أما المناطق الداكنة التى تسمى ماريا أو البحار ـ كما سماها جاليليو ـ فقد تعرضت لمناقشات حادة بين العلماء وفى منطقة « بحر الغيوم » سقطت سفينة الفضاء « رينجر ٧ » فى اليوم الحادى والثلاثين من شهر يولية عام ١٩٦٤ .

ومنطقة ماريا أو البحار توجد فى المناطق المنخفضة بالقمر وتبدو كأنها بحار حقيقية اذا صح وجود الماء فى القمر ـ ويدعى العالم جون جليفارى ـ أستاذ الفلك بجامعة برنستون ـ انه كانت هناك بحار وعندما تبخرت تركت وراءها بعض الاشياء الحية . ورسم الدكتور

توماس جون بجامعة كورنيل بحرا من الغبار يتدفق على هيئة سائل سميك من السيول البركانية .

وفي يوم ٣١ يولية عام ١٩٦٤ استطاعت سفينة الفضاء « رينجر ٧ » أن تلتقط صورا على بعد الف قدم فقط من سطح القمر كما استطاعت أن تشاهد الفجوات على اختلاف أنواعها واحجامها وكان لبعضها حواف حادة شديدة والبعض الآخر حواف دائرية ملساء .

وعندما عرضت الصور لاول مرة على الصحافة العالمية تمكن العالمان الدكتوران جيرار كوبر بجامعة اريزونا ، وايجين شوميكر ـ العالم الجيولوجى المعروف ـ أن يدليا بتصريحات هامة فقال الدكتور كوبر : كنت أتوقع أن أرى شيئا لم يظهر لنا من قبل ، وأن يكون بالسطح فى منطقة ماريا أو البحار شقوق أو أخاديد أو تجعدات واننا لسنا بصدد طبقات من الغبار فحسب بل بصدد شيء لايشبه الرمال .

ثم قال عن الحواف المستديرة : ان القمر كان ولا يزال عرضة لتساقط جزيئات دقيقة وكبيرة عليه ، فهناك أمطار من المادة تهطل على سطحه باستمرار ، وانها تؤثر على عوامل التعرية ، وتسبب نعومة بعض مناطقه وخشونة المناطق الاخرى .

فسأله الصحفيون ـ وهل تتوقع خطرا لو وضعت قدمك فوق سطح القمر ؟

فأجاب : لا خطر على الاطلاق !

وبعد خمسة أيام أعلن الدكتور كوبر فى الكونجرس :

« اننى على استعداد بأن أراهن بأنك اذا سرت على القمر فكأنك تسير على ثلج مجروش » .

وبرغم ذلك فان الصور لم تكشف عن أن البحار عبارة عن حقول من السيول البركانية ، وهنا احتدم النقاش بين العلماء فادعى بعضهم ان سطح القمر قد نحتته البراكين . وقال آخرون : ان لا اثر للبراكين فيه لانه تكون من استمرار تساقط الشهب والنيازك عليه.

وقال الدكتور هارولد أورى بمعهد كاليفورنيا التكنولوجى بأن مصدر الحرارة فى القمر قد يكون الاشعاع كما هو الحال فى الكرة الارضية وايده فى ذلك الدكتور زيدرك كوبال أستاذ الفلك بجامعة مانشستر بانجلترا الذى قال ان قوى المد فى القمر اقوى من قوى المد فى الكرة الارضية بمائة مرة . وقد يسبب ذلك تقليب السطح من اعلى الى أسفل بخمسة عشر قدما كل شهر لتكوين حرارة داخلية تتراوح بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ درجة مئوية .

وفى عام ١٩٥٩ رأى العالم الفلكى السوفيتى المشهور نيقولاى كوزريف شيئا يشبه الغاز يتصاعد من فجوة الفونسس ، كما استطاع ستة علماء آخرون رؤية بقع حمراء تتألق احيانا فى فجوتى الفونسس واريستاركوس وتخبو احيانا اخرى فقرر كوزريف ان سبب ذلك هو الغازات البركانية الساخنة التى تحتوى على الايدروجين ، وان البقع الحمراء سببها لمعان أو اضاءة بعض المواد فوق سطح القمر التى تتراكم تحت وابل الجسيمات المتساقطة من وهج الشمس .

وقال العالم بروس فريش انه سواء أكانت هذه الاجسام بركانية أو حجرية فان فجوة اريستاركوس وغيرها من الفجوات الكبيرة تقع فى وسط اضواء ملونة تشع لعدة مئات من الاميال . وقد سقطت السفينة

رينجر ٧ مباشرة فوق فجوة كوبرنيكوس وكشفت الصور كما قال الدكتور كوبر عن أن الانقاض المتناثرة على سطح القمر تكونت من مواد وبرية وقد احتوت على صخور ضخمة كما استطاعت أن تكون فجوات ثانوية بأعداد عظيمة هائلة .

وبعد الحصول على هذه الصور النادرة قرر العلماء أن أنسب مكان لهبوط الانسان على سطح القمر يجب أن يكون فى المناطق الناعمة الملساء بعيداً عن مناطق الفجوات لانها كالسموم تماما . وتمكن العلماء أيضا بفضل هذه الصور أن يقدروا المناطق المغطاة بالصخور بواحد فى المائة فقط من السطح ، وهذا معناه أن عددا كبيرا من البقع الناعمة بالقمر يمكن أن تهبط عليها سفن الفضاء وسوف تخرج منها أذرع ميكانيكية لالتقاط بعض الصخور تصورها فى الحال عدستان تليفزيونيتان ، وتسلط عدسات تصوير أخرى على الجوار ، ويقوم مرجف بتسجيل وقياس الزلازل القمرية .

وقد أطلقت فى عام ١٩٦٦ سفينة فضاء أخرى حلقت على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم فوق جبال القمر وصورت الفجوات بين المناطق التى هبطت عليها سفن الفضاء الاخرى .

لونا تهبط على القمر

عندما هبطت المركبة السوفييتية لونا ٩ فوق سطح القمر حققت هدفين : أولهما : ان سطح القمر صلب يستطيع تحمل مركبة وزنها ٢٢٠ رطلا أو أية مركبة أخرى أثقل من المركبة السوفييتية يديرها انسان فى المستقبل القريب .

وثانيهما : ان هذا الهبوط لن يثير زوبعة من الغبار.

وبذلك فتح الاتحاد السوفييتى المجال أو الباب على مصراعيه للذين حاولوا الوصول الى القمر قبل عام ١٩٧٠ . وقالوا ان خروج رجال الفضاء من هذه السفن عند هبوطها فوق سطح القمر شاق متعب والطريق ملىء بالحفر والنقر والاسنان التي تمزق الاحذية وأردية الفضاء فى حالة ما اذا سقط الانسان على أرض القمر .

وكشفت الصور السوفييتية العديدة التى التقطتها لونا ٩ ان سطح القمر بركاني مكون من الحمم التى تفور من مناطق مصهورة الى السطح ثم تجف مكونة فى وسطها حفرا أو نقرا حادة ذات أسنان او حواف قوية قاطعة .

وفى منتصف الستينات أعلنت دوائر بحوث الفضاء الامريكية ان صور المركبات الامريكية رينجر كشفت ان

سطح القمر مصقول كالمرآة . وأربكت هـذه الصـور العلماء وضاعفت من حيرتهم فقالوا أنهم لايعرفون المواد التى تتكون منها صخور القمر ولا الغبـار الناعم الذى يغطى سطحه فيجعله مصقولا كالمرآة ، فقد كشفت صور لونا ٩ عن نواح صخرية بركانية وحمم وفجوات وكشفت مركبات ريتجر عن سطح مصقول أملس .

وسـبق أن تكهن العـالم المعروف كوبر بأن سـطح القمر بركاني وحققت صور لونا ٩ نظريته . ولم يتعجب لها أيضا العالم المعروف الدكتور جولد الذى اكتشف ان سطح القمر ناعم أملس وقال انه منذ سنوات كشف صدى الرادار عن سطح خشن للقمر سمكه بوصـة أو بوصتان أو فى بعض مناطق أخرى كان السطح أملس ناعما حريريا ..

ولـكن المركبة السوفييتية خققت نصرا علميا كبيرا ونظرية فلكية هامة . فقد أرسلت المركبة صورا مختلفة على يومين متعاقبين ، ولـكن هـذه الصور اثبتت أو اوضحت أو كشفت عن أن مركز السفينة قد تغير بطريقة ما وخرجت قليلا أو انحرفت عن طريقها المرسوم ..

وان حركتها المفاجئة ربما سببتها بعض تعديلات أجريت فى داخلها تلقائيا . وربما كان سبب انحراف السفينة حدوث زلزال فى مكان ما فى القمر أى عند اقتـراب السفينة منه .

فالنشاط البركانى يهز عامة سطح القمر ، وهناك عالم سوفييتي واحد هو الدكتور نيقولاى كوزيريف يعتقد بانه رأى نشاطا بركانيا حادا فى احدى فجوات القمر اثناء مراقبته الدقيقة لسطحه خلال تلسكوب له عدسة قوية .

وقد حقق بعض الفلـكيين الامريكيين ملاحظة العالم

السوفيتي بقولهم انهم رأوا أيضا مناطق حمراء أطلقوا عليها مناطق « الياقوت الحمراء » فوق سطح القمر فى حين أن بعض الفلكيين الآخرين قدموا بعض تفاسير أخرى مختلفة عن هذه المناطق أو البؤر الحمراء الشديده الوهج عندما سطعت فجأة فوق سطح القمر فى أوقات معينة من السنة .

محاولات الهبوط فوق القمر

قام السوفييت بعدة محاولات للهبوط فوق القمر بسفن خاصة بها اجهزة دقيقة معقدة قبل أن ينجحوا بالهبوط هبوطا ناعما مريحا باونا رقم ٩ . وقد لاقت المركبة الامريكية « رينجر » نفس النجاح وهبطت هبوطا ناعما أيضا ، والغرض من هذا كله التمهيد لرواد الفضاء بالهبوط بمركباتهم بنفس الطريقة ، وفوق مناطق ناعمة بعيدة كل البعد عن الفجوات النارية او الحمم البركانية ، حتي يستطيعوا الخروج سالمين لمباشرة بحثهم عن طبيعة جو القمر ونوع الحياة فيه ومعرفة صخوره ومعادنه .

وبما ان السوفييت لا يعلنون عادة عن برامجهم فمن العسير أن يعرف العلماء اذا كان برنامج الهبوط قد سار طبقا للخطة الموضوعة ام لا .. ولكنهم توقعوا انه بمجرد أن تهبط المركبة الامريكية فوق سطح القمر بنجاح فمن المنتظر ان ترسل معلومات دقيقة عن طبيعته ، وقد يتناول المشروع الامريكى تصوير المركبة السوفييتية لونا ٩ ولونا ١٠ وبذلك يمكنهم معرفة ماذا حدث للمركبة تماما عند هبوطها ,وما حدث لها من أضرار وتخريب .

ومما لاشك فيه ان ما يفعله الامريكيون لايغيب على

السوفييت فهم يصورون أيضـــا المركبات والسفن الامريكية الراسية فوق سـطح القمر لمعرفة أشـكالها وأحجامها وماحدث لها عند هبوطها . وأصبحت المسألة مجرد سباق بين الدولتين الـكبيرتين ومجرد صراع عنيف بينهما . أيهما يكسب المعركة ويغزو القمر أولا ويهبط برجاله وعتاده عليه ..

ان الطريق طويل .. والتكاليف باهظة والعمــل متصل .. والعقول الجبارة تعمـل ولا تـكل وعبقرية الانسان لا حدود لها .. وســوف تـكشف الصفحات القـادمة عن حلم البشرية الذى داعب خيـال الـكتاب والشعراء منذ فجر التاريخ عن كيفية الوصول الى القمر .

هبوط الانسان فوق القمر لاول مرة

برزت فى الولايات المتحـــدة الامريكية والاتحاد السوفييتى صناعة جديدة الغرض منها الهبوط بسفن فضاء قوية فوق سطح القمر قبـل حلول عام ١٩٧٠ والرحلة الى القمر ليست مجرد مغـامرة فحسب بل هى من المشروعات الصناعية الجبارة التى ظهرت فجأة فى تاريخ البشرية ولا سيما فى الدولتين الـكبيرتين .

ففى الولايات المتحدة الامريكية وحدها عملت أكثر من عشرين الف شركة فى ٤٧ ولاية ونقلت جبالا من المادة من مكان لآخر استعدادا لغزو القمر والهبوط على سطحه واستعد ٣١٥٫٠٠٠ رجل للعمـل فى مشروع أبوللو أو برنامج القمر . وأنفقت الحكومة بسخاء بلايين الدولارات لانجاز هذا المشروع العلمى العظيم قبل عام ١٩٧٠ .

تكاليف الاهرامات الثلاثة

يعد مشروع أبوللو أعظم مشروع علمى حققه انسان

القرن العشرين وقدرت تكاليف بنائه بما يوازى ما أنفق على بناء الاهرامات الثلاثة وما استنفدت من جهد ومال ورجال بثلاث مرات . واكثر مما انفق على بنـاء أول مفـاعل ذرى وانتاج أول قنبلة ذرية أنهى بها الحلفـاء الحرب العالمية الثانية بخمس مرات .

وقدر الاخصائيون تكـاليف بناء المشروع العظيم بعشرين مليار دولار أنفق نصفها فى مشروعات ميركرى وجمينى وغيرها من المشروعات الاوليـة الاستطلاعية الضرورية اللازمة . أما سفينة القمر نفسها « ابوللو » فتكلفت خمسة مليارات دولار واتسعت لثلاثة رجـال للسفر الى القمر والعودة الى الارض . أما الخمسـة البلايين دولار الاخرى فقد تخصص لبناء صواريخ من طراز ساتورن حرف ف لقذف السفينة الى الفضاء الخارجى .

اسباب تـكاليف المشروع

يتساءل الناس لماذا يتكلف المشروع مثل هذه المبالغ الطائلة من المـال ؟

ان السبب الرئيسى هو مشكلة الحرارة التى تصادف العلماء وتقض مضاجعهم وتقلقهم ، فالدروع الواقيـة اللازمة لسفينة ابوللو ترتفع درجة حرارتها الى ٤٨٤٠ درجة فهرنهايت فى طريق عودتها الى الارض . اما فى الفراغ فان درجة الحرارة تنخفض الى ٢٩٠ درجة تحت الصفر لذلك فان سبائك معينة من المعادن كان لابد من صناعتها واجراء الوف التجارب عليها قبل ارسالها الى الرحلة البعيدة وبداخلها رجال . فهذه اذن احدى المشاكل العديدة التى تكلفت مبالغ طائلة للتغلب عليها .

وبداخل الصاروخ توجد صمامات ضخمة فى حجم

الحقائب الكبيرة ومحطات للوقود أكبر من الثلاجات ومحركات تزن ٥ر٢ طن أو أكثر ..

وهذا الصاروخ بثقله يطير بسرعة ثلاثة أضعاف الطلقة النارية ، ولكى يفلت من جاذبية الارض يجب أن تزيد سرعته باثنتى عشرة مرة ضعف الطلقة النارية أيضا . وتوقع العلماء أن تقوم السفينة بأول رحلة لها فى عام ١٩٦٩ .

اطلاق السفينة

وفعلا أطلقت السفينة من كيب كيندى عام ١٩٦٩ ونقلها الصاروخ ساتورن لمدة دقيقتين ونصف دقيقة وانتهت المرحلة الاولى ، وبدأت فى الحال المرحلة الثانية لمدة عشر دقائق، ثم المرحلة الثالثة لنقل السفينة الى مدارها بالقرب من الارض ، وهنا بدأت السفينة رحلتها الى القمر بسرعة ٢٥٠٠٠ ميل فى الساعة .

رجلان فوق القمر

ظلت السفينة بعد انطلاقها ثلاثة أيام كاملة فى رحلتها فى الفضاء متجهة نحو القمر حتى أصبحت على بعد ثمانين ميلا من سطحه . وفى الحال هبط منها رجلان الى سطح القمر فى مركبة خاصة ، فى حين ظل رجل الفضاء الثالث فى السفينة الام . وقام الرجلان بعملية استكشافية سريعة وتقابلا مع الرجل الثالث فى السفينة الام بعد أن جمعا المعلومات المطلوبة عن القمر وفجواته .

وفى رحلة العودة الى الارض اقترب رجال الفضاء من الكرة الارضية عن طريق بهو عرضه ٤٠ ميلا . واحترق الجدار الخارجى للكبسولة عند اصطدامها بجو الارض ثم هبطت السفينة فى البحر حيث انتشلتها

طائرة هليكوبتر الى سفينة ضخمة .
يقول الدكتور درايدن فى تعليقه على رحلة الانسان الى القمر :
ان زجاج الطائرات النفاثة الحالية مصمم بطريقة يمكن أن يتحمل بواسطتها دفع الرياح والضغط الجوى عند سرعة ٦٠٠ أو ٦٥٠ ميلا فىالساعة وانه من القوة بحيث يتحمل اصطدام الطيور به ولكن سفينة الفضاء التى تطير بسرعة تتراوح بين ١٧٠٠٠ ميل . و ٢٥٠٠٠ ميل يجب أن تتحمل قوة اصطدام النيازك الجوية الصغيرة » .

اطلس لجغرافية القمر

نظر أحد العلماء الى خريطة القمر المنشورة أمامه بعد أن استطاعت المدسات التليفزيونية أن تلتقط صورا عديدة له وقال :
سنمضى ثلاثة أيام عند عبورنا مناطق الابينين ثم نعبر بحر ابمريوم الى جبال التنريف ونتوقف عند القمة السوداء بعض الوقت نواصل بعدها رحلتنا الى منطقة الكوكازوس .
لقد أمضى هذا العالم مئات الساعات أمام خريطة القمر الجديدة يفحصها فحصا دقيقا ويؤشر على الاماكن التى يمكن ارتيادها فى المستقبل عندما تنطلق أول بعثة أرضية الى القمر .. وقد قامت احدى دور النشر بطباعة اطلس للقمر وهو مزود بشرح كامل لجغرافيته وطوبوغرافيته ــ تخطيط الاماكن ووصفها ــ ببساطة وبغير غموض .. ويحتوى الاطلس على رسومات كاملة لكل منطقة من مناطق القمر مع شرح واف لطبيعتها وأحوالها .

ومناطق القمر كالابينين والـكوكازوس والقمة السوداء هي أماكن حقيقيـة ثبت وجودها فوق سـطح القمـر ويمكنك عن طريقها تحديد خط السـير وتمييز البحار والجبال والسهول والفجوات كأنك في طائرة تحلق بها فوق القمر ، وبالاطلس أيضا ٢٣ لوحة ممتازة لأوجـه القمر وبه ٧٧ صفحة تشمل معلومات حديثة عنه أيضا من كسوفه الى نوع جوه وتأثيره على المد والجزر . ويحتوى أيضا على ٢٠ صفحة من المعلومات الطريفة عن طريقة الوصول اليه ، استرشدت به أول مجموعة من الرجال الذين استطاعوا الهبوط على سطحه عام ١٩٦٩ . وقد شارك العالم المصرى دكتور فاروق الباز فى تحديد أماكن هبوط مركبات أبوللو على سـطح القمـر واطلق أسماء مصرية وعربية على بعض مناطقه الهامة . ودكتور الباز هو أحد المصريين الذين هاجروا أخيرا الى الولايات المتحدة الامريكية ..

القمر مولود الرياح الشمسية

فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يولية عام ١٩٦٩ وصلت الى الـكرة الارضية شحنتان من صخور القمر فى صناديق مفرغة الهواء ومغلقـة باحكام . وكانت الشحنتان تحتويان على خمسين رطلا من صخور غريبة وتراب أسود ، وقد هبطت بهما مركبة أبوللو ١١ من بحر الهدوء بالقمر على بعد ٢٥٠,٠٠٠ ميل من الارض .

وشرع العلماء يجرون اختباراتهم وبحوثهم على هذه الثروة التى هبطت من القمر الى الارض فى أعظم رحلة قام بها انسان العصر الحديث . وكذلك على عينات جاء بها رواد أبوللو ١٢ من بحر العواصف بالقمر .. وقد أرسلت بعض هذه العينات الى معامل مختلفة فى العالم

كله لفحصها وكتابة التقارير المفصلة عنها .. وأخيراً تم كتابة كل التقارير العلمية عن هذه الثروة القمرية ، التى تكلف الحصول عليها مليارات الجنيهات ،.وحققت بعض الافكار القديمة عن القمر وطبيعة تكوينه ، وقضت فى الوقت نفسه على بعض النظريات الخاطئة وبرزت تبعا لذلك عدة اسئلة عن الشمس والنظام الشمسى ..

هبطت أبوللو ١١ وفى داخلها ٤٦ قطعة من حجارة القمر وصخوره أخذت كلها من الطبقات العليا للسطح القمرى . واختلفت احجامها من صخور فى حجم الكرات الصغيرة الى أخرى طولها خمس بوصات . ومن النظرة الاولى لهذه الصخور بدت مثل الصخور الارضية ، ولكن الفحص الدقيق اثبت اختلافها اختلافا كليا عن صخورنا الارضية وانها لا تشبهها فى قليل او كثير. وقد طعمت بخطوط زجاجية ، وغطى بعضها بقطع زجاجية تناثرت هنا وهناك وقد تكونت على هيئة بقع على سطحها .

وكان أكثر من ثلث المادة القمرية ترابا . ونصف هذا التراب زجاجا اغلبه حاد وقطع من الزوايا الزجاجية لا لون لها و ١٠ فى المائة عبارة عن قطع دائرية حمراء كاملة الاستدارة أو بنية أوخضراء أو صفراء أو قرمزية اللون . وفى الكوكب الارضى قلما يعثر على قطع زجاجية طبيعية فى التربة .

وعولجت صخور القمر وترابه بالالكترونات وسلطت عليها نظائر مشعة وبخرت بالاقواس الكهربائية لمعرفة عناصرها الاصلية . وكل الصخور سواء أكانت فى الارض أو فى القمر تتكون أساسا من نفس المادة الخام والعناصر التى وجدت فى الفراغ قبل ان يتكون النظام الشمسى

والتى تكونت منها فى حقيقة الامر الكواكب والاجرام السماوية الاخرى ..

اذن فما الذى عثر عليه العلماء ؟ لم تكن مواد مختلفة أو من نوع آخر بل وجدوا اختلافا ظاهرا فى التركيب والنسب ــ فنسبة اليورانيوم الى البوتاسيوم فى صخور القمر كانت أعلى بأربع مرات عنها فى صخور الارض ، وخمس عشرة مرة أكثر من النسب الموجودة فى الشهب والنيازك ..

وعثر العلماء على ٦٨ من مائة عنصر فى صخور أبوللو ١١ وكانت تشبه صخور البازلت التى توجد عادة فى قيعان المحيطات . ولكنها تختلف عنها اختلافا كبيرا فى بعض الاحوال وذلك لان بها نسبا قليلة من الصوديوم ونسبا عالية من التيتانيوم وهى مثل صخور الارض تحتوى على نسب ضئيلة من الذهب والفضة ..

مولود الرياح الشمسية

ان كيمياء صخور القمر عاونت العلماء على حل كثير من الالغاز والاسرار التى حيرت الانسان ردحا طويلا من الزمن . ولعل أهم هذه الالغاز أو الاسرار ولادة القمر ذاته . فهل كان القمر يوما جزءا من الارض ؟ وهل تكون بطريقة فريدة أو بأخرى طوفانية هوجاء ؟

ان النظرية العلمية عن القمر للسير جورج دارون ابن عالم الاحياء المشهور تشارلس دارون صاحب نظرية التطور تقول بأن الارض والقمر كانا جسما واحدا . وانه منذ مليارات السنين عندما كانت الارض فى هيئة من البلاستيك نزعت منها قطعة بسبب سحب جاذبية الشمس . ثم كونت هذه القطعة القمر . ولكن العلماء

الآخرين يقولون بأن الاختلاف الدقيق بين صخور الارض والقمر يلقى شعاعا من الشك على صدق نظرية دارون. ومن ناحية أخرى فان التشابه الاساسى بين الصخور الارضية والقمرية يهدف الى نكران النظرية التى تقول بأن القمر تكون أصلا من جزء آخر من النظام الشمسى ثم أسرته الجاذبية الارضية .

أما النظرية العلمية الثالثة فتقول ان الارض والقمر تكونا فى نفس الوقت وبنفس الطريقة . ولكن المشكلة انه فى العصور الاولى كانت جزيئات تراب ما بين النجوم والكواكب وغازاتها والانقاض الاخرى تتحرك هنا وهناك بدون هدف ، وكأنها أعواد ذرة ترقص رقصات عشوائية فاصطدمت الذرات بعضها ببعض ، والتحم بعضها وكون قطعا كبيرة من المادة الصلبة . جذبت اليها قطعا أخرى من انقاض الفراغ وترابه حتى تكونت الكواكب فى آخر الامر .

وبرغم ان العلماء يختلفون فى التفاصيل ، لكن معظمهم يتفق على ان القمر ربما يكون قد ولد بنفس الطريقة . ومع ذلك فان المادة القمرية التى أحضرها رواد أبوللو الى الارض لا تؤكد ولا ترفض هذه النظريات ..

والصخور القمرية تحتوى على معلومات عظيمة وفريدة فى نوعها . فهى تحتوى على قطع من الشمس على هيئة عناصر يطلق عليها الغازات النادرة « وسميت كذلك لانها نادرة جدا فى الارض ولها طبيعة النيازك » . ففى الارض نجد ان معظم الغازات النادرة قد حبست مواد الارض البدائية فى الوقت الذى تكونت فيه الكرة الارضية ويتكون بعضها من تحلل العناصر المشعة . ولكن هذه

الاسباب لا تبرر وجود الكميات العظيمة من هذه الغازات النادرة التي وجدت في صخور القمر لان نسبة وجودها تقدر بعشرة آلاف مرة اكثر من تلك الموجودة في النيازك .. اذن فمن أين جاءت هذه الغازات ؟

يقول العلماء ردا على هذا السؤال :

جاءت هذه الغازات من الرياح الشمسية أو من مجارى الغازات العظيمة التي تغلى وتفور فوق سطح الشمس وتمتد في موجات هائلة لعدة مئات من ملايين الاميال في الفراغ . وبما ان القمر غير مدرع بجو أو مجال مغناطيسي فان هذه الذرات تصطدم دائما أو تسقط على مواد السطح ويبقى بعضها فيه .

ويقول العالم روبرت بيين عالم الطبيعة المعروف بجامعة مينوسوتا الذى رأس مجموعة من العلماء انصب بحثهم على طبيعة هذه الغازات : اننا نتوقع أن نعرف الكثير عن التركيب الكيميائى للشمس من هذه الغازات وربما نفهم الكثير عن طبيعة سريان وامتداد جوها الخارجى في الفراغ .

الصخور عمرها مليارات السنين

قدمت صخور من القمر رغم ذلك تفسيرا للرجل الذى هبط على سطحها من الارض كما يقول البروفيسور انتونى تركفيتش بجامعة شيكاغو . فقد ذكر أن صخور أبوللو ١١ لها لون داكن وسبب ذلك أنها مشبعة بمعادن أثقل في وزنها الذرى من الكالسيوم وهى معادن كالتيتانيوم والحديد . وصخور بحر الهدوء هذه رسمت خطا واضح المعالم عن الصخور الاقل تشبعا ذات الالوان الخفيفة التي أخذت من مرتفعات القمر ، والتي عرف

العلماء طبيعتها الـكيميائية من مركبة الفضاء سيرفيور السابقة والتى هبطت على القمر قبل هبوط أبوللو ١١ عليه بأكثر من عام .

وصخور القمر الداكنة والفاتحة تتحد لتكون ما يشبه وجه انسان على القمر . وعن طريق الفحص الكيميائى الدقيق استطاع العلماء أن يكونوا نظريات علمية هامة عن تكوين القمر الجيولوجي .. وتقول احدى هـذه النظريات بأن القمر ليس كتلة صماء من الصخور المتجانسة . بل قد يكون للقمر قشرة على سطحه مثل الارض . وهذا دليل على ان كثافة الصخور فى المرتفعات القمرية أقل من كثافتها على وجه القمر كله . وقـد يعنى هذا انه فى زمن غائر من التاريخ أذيب او انصهر جزء من القمر وان المواد الخفيفة نهضت الى السطح لتكون قشرة له ..

وفى عينات القمر وجد الجيولوجيون أن معظم الصخور المـكونة للمعادن تشبه تلك التى وجدت فى صخور الارض النارية او البركانية « مثل صـخور البايروكسين والاوليفين والفلسبار ـ وهو نوع من الصوان المتبلور ـ وانها تكونت بنفس الطريقة التى كانت تجرى فى الارض ، وربما فى نفس الوقت أيضا ، ولـكن علماء التعدين عثروا على معادن لم يقع نظر الانسان عليها من قبل . ووجود هذه المعادن كان سببه قلة وجود الاوكسجين فى الوقت الذي تكونت فيه على القمر .

ولعل أغرب شيء وقف عليه العلماء هو عمر هـذه الصخور . فقد سبق ان حدد العلماء عمر الارض ب ٤ر٦ مليارات من السنين . ومع ذلك فان عمر أقدم صـخرة فى الارض لايزيد عن ٣ر٥ مليارات من السنين . ويقول

العلماء أن النشاط الجيولوجي والبيولوجي للارض قد أباد كلية كل سجل لاول مليار سنة عليهـا . ولـكن الصورة تختلف فى القمر لخاوه من الهواء والماء . وعليه فان صخوره لم تتعرض لهـذا الانقراض الزمنى أو لعوامل التعرية واعادة تشكيلها . ويأمل العلمـاء أن يعثروا على صخور قديمة جدا فى العينات التى جلبها رواد أبوللو ١١ ، ١٢ ..

وقد عثر العلماء فعلا على صخرة واحدة قديمة جدا . فمتوسط عمر الصخور التى جلبت من القمر تتراوح بين ٣ر٣ الى ٧ر٣ مليار سنة . ولـكن الاهم هو أن صخرة فى حجم الليمونة جاءت من مرتفعات القمر قدر عمرها بـ ٦ر٤ سنة ..

هل القمر بارد ام ساخن ؟

احتدم النقاش بين العلماء فى الآونة الاخيرة عن المعنى الذى تحمله صخور القمر . ونشأ عن ذلك مدرستان من الفكر : مدرسة تحبذ ان القمر ساخن واخرى تقول انه بارد ..

فالمدرسة الفكرية الاولى التى تقول بأن القمر سـاخن تعتقد أن له قلبا مضهورا كالارض . وفى فجر تاريخه لفظت البراكين كميات عظيمة من الحمم على سـطحه تجمدت فيما بعد لتكون بحار القمر العديدة المعروفة . وفى الحقيقة ان الصخور التى جلبت من بحار القمـر تشبه الحمم الارضية ..

أما المدرسة الفكرية الثانية التى تقول بأن القمر بارد تعتقد أنه بارد حتى قلبه ، وان معظم هيئات السطح مثل الفوهات والبحار قد تكونت بفعل تساقط الشهب

والنيازك عليه ، وبسبب ركام اوانقاض الفراغ الموجودة دائما فى جوار أى كوكب جديد يولد فى الفراغ،فالحرارة المتولدة من شدة الاصطدامات قد صهرت السطح القمرى، وخلقت أو كونت نوع الصخور التى أحضرها الرواد . لذلك رأى العلماء أن يضعوا حدا لهـذا الصراع الحاد الذى احتدم بينهم بسبب طبيعة القمر ، وذلك بثقبهم ثقبين على أرض القمر ، عمق كل ثقب عشرة أقـدام ووضع اجهزة خاصة لقياس درجة الحرارة على هـذا العمق ، ولقيـاس النسبة التى تهرب بها الحرارة من القلب الى السطح .. .

طلائع الحياة العضـوية

وهناك سـؤال رئيسى آخر برز الى الوجود ويأمل العلماء أن تجيب عنه صخور القمر فى يوم قريب ٠فبرغم ان القمر ظل مدة طويلة يعتبره العلماء كوكبا ميتا .. فأن علماء الاحياء لم يرفضوا رفضا باتا احتمال وجود بعض انواع طلائع العضـــــوية فية مثل جزيئات مركبات الكربون .. ولكن وجود مركبات الكربون فى الصخور القمرية التى جلبت الى الارض كان مخيبا للأمال لان نسبتها كانت ضئيلة جدا اى بنسبة أجزاء قليلة الى المليون . ومعنى هـــذا انها قد تكون نتيجة للتلوث من وقود الصاروخ أو من المعالجة البشرية لها على الارض

سموم فى تراب القمر

فى الوقت الذى فحص فيه علماء الارض الصخور القرية أملا فى العثور على دلائل الحياة فى القمر ، كان البعض الآخر يبحث عن هيئات الحياة التى قد تشبـه

الحياة على الارض . ولكنهم لم يعثروا على دليل قاطع . وقد عرضت أربعة من الصخور القمرية لبعض انواع من البكتريا فلم يكن لها أى تأثير مباشر على ثلاث عينات منها . وفى العينة الرابعة وكانت ترابا أخذ من عمق قدم واحدة من أرض القمر قتلت البكتريا فى الحال .

ويقول العلماء الباحثون أن البكتريا قتلتها سموم موجودة فى تراب القمر .. فما هى هذه السموم ؟ لا أحد يعرف عنها شيئا بعد .

وأعيدت التجربة عدة مرات . وقد بدأ العلماء يخافون من خطورة هذه السموم وتلويثها لجو الارض لذلك سوف تتخذ اجراءات صحية شديدة فى المستقبل لبعثات أبوللو حتى يعرف سر عامل السموم هذه .

تراب القمر والنباتات الارضية

وازداد الامر تعقيدا عند نثر تراب القمر على نباتات ذات خلية واحدة وأخرى متعددة الخلايا وعلى خضروات ذات درجات عالية من التطور كالقمح . فكان اثر التراب بسيطا على النباتات المعقدة ربما لقلة كمية التراب القمرى بالمقارنة الى حجم النباتات ذاتها . أما النباتات الدنيئة بما فيها من نباتات السرخس وحشيشة الكبد وبعض الطحالب فقد ازدادت خضرة وفى بعض التجارب نمت نموا عظيما .. فما الذى سبب هذا الاثر؟

ان السبب لايزال مجهولا كما يقول العالم تشارلس ووكنشو وهو عالم النبات الذى قام بهذه التجارب .

وفى الوقت الذى تضاربت فيه آراء العلماء عن المعلومات الحقيقية التى كشفت عنها الصخور القمرية

والتراب القمرى ، ربما لانهم يشتركون فى ولادة علم جديد وافكار دقيقة وقواعد تطبق على جيولوجية الارض ولا تطبق على جيولوجية القمر .. ولكن مادة القمر قد جاءت الى الارض أخيرا حيث يمكن للعلماء أن يكتشفوا محتوياتها وقد ياتى الوقت الذى يكشفون فيه عن هذه الاسرار .

فجوات القمر

أعلن الدكتور آلان ميلز بجامعة ليستر بانجلترا عن ولادة نظرية جديدة عن فجوات القمر ، فذكر أن بعثات أبوللو اثارت تساؤلات عديدة عن طبيعة القمر واصله اكثر مما قدمته من حلول . ولعل أبرز هذه التساؤلات : كيف تكونت فجوات القمر المنتشرة على سطحه ؟.. اغلب الظن أن هذه الفجوات قد تكونت من نشاط البراكين أو من سقوط الشهب والنيازك بعنف وضراوة فوق سطح القمر والمريخ .

وتتلخص النظرية الجديدة بأن فجوات القمر قد تكونت عن طريق تفاعل هادىء بعد استقرار الاتربة والحصى فوق سطح الكوكب مباشرة ، وبعد فوران الغازات الساخنة والباردة المندفعة من جوف القمر ذاته . وانه اثناء هذا الفوران الغازى اهتز سطح القمر لمدة مؤقتة وأصبح فى الحالة التى تعرف باسم الطبقة السائلة ، وهى حالة تتجمع فيها الذرات من اى حجم كانت من الغبار الى الحصى وتصبح فى حركة دائمة بسبب تيار الغازات . ورغم انها صلبة فان المادة فى هذه الحالة تتصرف وكأنها سائلة .

ولكى يثبت العالم نظريته الجديدة صنع نموذجا

للســـــطح القمرى من اللباد وغطاء بطبقة خشنة من مسحوق الصخور ، وعندما سلط على هــذا الســطح هواء نفاثا مضغوطا (وهو يمثل الغاز المضغوط الموجود تحت سطح القمر) تكونت طبقة ســائلة ، وعندما رفع الهواء النفاث المضـــغوط تحول المسحوق الى فجوات دائرية ذات حواف عالية . وكان هـــــذا مماثلا لصور الفجوات القمرية الموجودة فوق سطح القمر .

وفسرت نظرية الدكتور ميلز ظاهرة أخرى لها اهميتها بالنسبة الى وجود عدد من الفجوات بالقرب من بعضها البعض فى مجموعات متقاربة لافتة للنظر . وقد علل ذلك الى أن الغـــاز قد يتسرب او يهرب مرة أو مرات من نفس التشققات أو من نفس المراكز الضعيفة للفجوات ، ومن ثم يتكرر تكوينها فى نفس المنطقة الواحدة . ولكن على مرور الوقت فان ضغط الغازات داخل القمر قد يضعف فيصبح السطح صلبا قويا وبالتالى يصغر حجم الفجوة ويستمر فى الانكماش .

وتقول النظرية الجديدة للعالم ميلزان عمر الفجوات الموجودة فوق سطح القمر يزيد عن ثلاثة آلاف مليون سنة مع ظهور فجوات صغيرة وحديثة فى مجمـــوعات مختفية . وتؤكد النظرية أن الغــازات لا تزال تتسرب بطريقة ما من داخل القمر ، وأن هذه الغــازات المتسربة ضــــئيلة ولا تستطيع ان تكون فجوات ولكنها موجودة أو يمكن رؤيتها . وقد يفسر ذلك سر ظهور ومضات الضوء أو البقع الملونة التى رآها علماء الفلك أكثر من مرة فى قيعان هــــذه الفجوات .

ونظرية فقاعات الغازات تؤكد حقيقة ان القمر ارتج أو اهتز لمدة نصف ساعة بعد أن هبطت عليه مركبــة

انتربيد الملحقة بمركبة أبوللو ١٢ . ويعتقد الدكتور ميلز ان القمر ملىء بالفجوات المفرغة المملوءة بالغازات التى تشبه أو تتصرف كغرف الصدى التى تحتفظ بالاهتزازات لفترات طويلة .

والدكتور ميلز أول عالم ينفرد بشرح نظرية الطبقة السائلة ،ولعل الاغرب من ذلك أن العالم البريطانى روبرت هوك كان قد تناولها بالبحث والتفصيل فى عام ١٦٩٥ وخطرت له الفكرة عندما لاحظ وجود تشابه كبير بين فجوات القمر والآثار التى خلفتها الاتربة التى اثارتها الرياح العنيفة فقد كونت هى الاخرى فجوات تشبه فجوات القمر .

* ماذا حدث لابوللو - ١٣ وهى فى طريقها الى القمر؟

بعد عودة مركبة الفضاء أبوللو ١٣ الى الارض شرع مئات من العلماء فى اجراء الوف الاختبـــارات لمعرفة الاسباب الرئيسية التى سببت انفجار خزان الاوكسجين رقم ٢ .

وفى هيوستون ، مركز بحوث الفضـــــاء ، اعلنت الهيئة الخاصة المكلفة بالبحث انها عثرت على السبب، وهو حدوث ماس كهربائى فى الاســلاك التى تتصــل بالمراوح فى داخل الخزان ، والتى تعمــل على ان يكون الاوكسجين فى درجة الخلط الصحيح . واكتشـــف العلماء أن خزان الاوكسجين رقم ٢ كان قد سقط بقدر بوصـــة واحدة فى المصـــنع الذى جمعت فيه المركبة الفضائية بكاليفورنيا . وتجرى بحوث أخـــرى وتجارب عديدة للتأكد من أن الحادثة قد خربت الاســلاك فى مراوح الخزان فسببت العطل .

ومنذ عودة رواد أبوللو ١٣ الى الارض بسلام ومستقبل بحوث الفضاء يعتمد اعتماداً كليا على نتائج البحث عن الاسباب التى أدت الى فشل الرحلة الثالثة الى القمر . وهاجم النقاد أساليب مركز بحوث الفضاء وكذلك الميزانية الخاصة ببحوث القمر . فى حين ناهض الآخرون المشروع وقالوا ان الفوائد العلمية التى ستجنى من ورائه لن توازى المبالغ الطائلة التى تنفق عليه والبشرية تتضور جوعا فى بعض مناطق من الكرة الارضية . ومع اختلاف الآراء فى هذا الشأن فان مشروع الفضاء لن يحيا فقط بل هو على درجة كبيرة من الاهمية ، لذلك مول تمويلا أكثر من ذى قبل .

السبب .. ؟

ولعل السبب المباشر فى ذلك يرجع الى الرواد انفسهم وما تركوه من آثار انسانية فى نفوس ملايين المشاهدين أمام شاشات التليفزيون ، وأن عودتهم سالمين الى الارض كانت أقوى من اطلاق المركبة نفسها . وان النجاح الذى صادفه علماء الارض فى استرجاع المركبة كان من أبرز المعجزات العلمية فى هذا القرن .

وفى الاسبوع الاول من شهر مايو عام ١٩٧٠ اعتمد البيت الابيض مايقرب من أربعة مليارات من الدولارات لهيئة الفضاء لسنتها المالية ١٩٧١ بزيادة ٢٦٨مليونا من الدولارات تخصص لاجراء بحوث تقدمية بما فى ذلك مكوك فضائى يطلق فى الثمانينات .

الاعمال الصحية ..

ومن المشاكل التى أثارها الرواد بعد عودتهم مسالة الاعمال الصحية فى المركبة . فقد تسرب الماء وبلت قدما الرائد سويجرت لمدة يومين لان نظام مركبة

القيـادة لم يكن يعمل بانتظام . وقـد ازدحم الرواد الثلاثة فى المركبة القمرية التى تتسع لرجلين اثنين . وبعد مرور عدد من الساعات ازدحمت المركبة القمرية بالقمامة . ثم جاءت مشكلة التخلص من « بولهم » ، وتناقش الرواد طـويلا فى ذلك وفـكروا فى قذفه الى الفضاء ، ثم عدلوا عن هذه الفكرة لان ذلك الاجراء قد يغير مسار المركبة . وقام « فرد هيس » فى الحال بالبحث فى مقصورة القيادة فعثر على عدد من الاكياس البلاستيك ، كما عثر على خزان اضافى سعته خمسة جالونات لاستخدامه كخزان للبول والنفايات الاخرى . وفى الوقت نفسه بدأت مقصورة المركبة القمرية تبرد الى درجة ٢٨ فارنهايت ، فاخذ الرواد فى دعك أيديهم بقوة وتحريك اقدامهم لتسرى الحـرارة فى ابدانهم . وقال لوفيل : لـكى نحصل على قسط من النـوم أسدلنا ستائر النـافذة وقد منع ذلك تسرب حرارة الشمس الى الداخـل ، وسبب تبخر المـاء الذى تجمع وتساقط على الحوائط ، وأصبح عاملا آخر من عوامل التبريد فى المركبة .

وقال لوفيل : كنت أفكر ان المركبة القمرية سـوف تصبح تابوتا لنا نحن الثـلاثة ، وقـد تمضى عشرات السنين قبل أن يدخل التابوت جو الـكرة الارضيـة ويحترق تماما .. وكان أملنـا أن نعود الى الارض أحياء أو أمواتا وذلك افضل من الا نعود على الاطلاق.

سبب الانفجار ..

ولم يكن هناك حل للـكشف عن السر الذى سبب الانفجار . وقد عينت هيئة خاصة للبحث فقـررت ان السبب قد يرجع الى مروحتين صغيرتين داخل خزان

الاوكسجين الذى يبلغ قطر كل منهما ٢٦ بوصة وهما مصنوعان من سبائك النيكل والصلب . وكانت مهمة أسلحة هذه المراوح أن تجعل الثلاثمائة والعشرين رطلا من الاوكسجين البارد يسرى خلال الخزان وتمنعه من الانتشار فى طبقات مختلفة من الحرارة والكثافة .

وقد ذكر مدير برامج ابوللو العالم روكوبترون أن احدى هذه المراوح قد اصطدمت بشىء مثل سلك معزول أو قطعة من الالومنيوم وكونت شرارة سببت الانفجار ، ورغم ان الخزانات لا تنفجر عادة الا اذا بلغ الضغط الفى رطل على البوصة المربعة فان المؤشر فى الخزان الاول أوضح ان الضغط بلغ الف رطل عند لحظة الانفجار . فاذا كان الاوكسجين قد تسرب خلال الصمام بسرعة غير عادية فمما لاشك فيه ان المؤشر كان يسجل ضغطا غير صحيح .



لونوخود ((١)) بحوث فوق القمر ..

يقول السير برنارد لوفيل عالم الفلك البريطانى الشهير : ان بحوث الاتحاد السوفييتى المتقدمة فى الفضاء تكشف عن ثورة حقيقية للسيطرة على الفراغ.. فلأول مرة فى التاريخ أطلقت محطة أوتوماتيكية الى القمر وهبطت عليه ثم عادت الى الارض بعينات من الصخور القمرية بمعاونة مثقاب ثقب القشرة القمرية ..

فى يوم ٢٠ سبتمبر عام ١٩٧٠ هبطت المحطة السوفييتية الاوتوماتيكية « لونا ١٦ » بهدوء ونعومة بالقرب من بحر الخصوبة . وفى الحال برز مثقاب كهربى وثقب حفرة قطرها ١٤ بوصة فى السطح القمرى وجمعت مغرفة خاصة العينات الارضية ووضعتها فى وعاء مثبت فى كبسولة العودة . وفى يوم ٢٤ سبتمبر هبطت

إلكبسولة وبداخلها الثروة القمرية في منطقة أعدت لذلك على بعد خمسين ميلا من جسكازجان بالاتحاد السوفييتي .

وهكذا في عدد قليل من الايام استطاعت أول محطة أوتوماتيكية أن تهبط فوق القمر وتعود منه بشحنة من الصخور والتراب القمرى لا تقدر بمال .. وقد سارت الرحلة الاوتوماتيكية حسب الخطة الموضوعة لها بدون ادنى خطأ او تغيير في مسارها . فتوجيه المركبات نحو الشمس أو القمر أو الارض يعتمد فيها الوقت على المركز الرئيسي لمجور المركبة ذاتها . وهل تحتاج المركبة في هذه الحالة الى تغيير اتجاهها قليلا او بدرجة ١٨٠؟ ان تصحيح الاتجاه يحتاج الى فترات مختلفة من الوقت رغم ان أجهزة التوجيه البصرية تكون قد التقطت صورا للأرض ، ولكن الاشارات الصادرة منها تصل ببطء شديد الى الارض ، ويحدث هذا عادة في كل مركبة تتجه نحو القمر أو أى كوكب آخر . وقد سببت هذه المركبة الفضائية الاوتوماتيكية قلق كثير من العلماء السوفييت أثناء رحلتها الى القمر ، لان الاجهزة التى ركبت بداخلها كانت الاولى من نوعها . وكان لابد من متابعتها متابعة دقيقة للوقوف على مدى فاعليتها اثناء الرحلة الطويلة . وعندما تأكد العلماء السوفييت ان المركبة او المحطة الاوتوماتيكية قد هبطت بنعومة بالغة فوق سطح القمر ، وان آلة اخرى تخرج منها لثقب قشرة القمر كادت قلوبهم تتوقف عن ضرباتها . فقد كان هذا الانتصار العلمى الرائع اول حدث من نوعه في العالم . وتخيل العلماء كيف يكون أمر بعض سكان القمر وهم يرقبون المثقاب الكهربائى وهو يحفر أرضهم ليحصل منها على عينات من الصخور والتراب وكيف تستطيع

هذه المركبة الغامضة أن تقوم بذلك بدون أن يظهر منها انسان أو مخلوق ليقوم بهذا العمل المعجز الغريب .

وفجأة قرأت العدادات الارضية في مركز بحوث الفضاء السوفييتى ان درجة الحرارة فى قسم أجهزة الصاروخ تهبط بسرعة عما قدر لها . فقد كانت المركبة تقوم بعملها فى الليل اى فى درجات حرارة منخفضة لذلك اطمأن العلماء لما يجرى هناك فوق القمر ..

ولعل أهم لحظة فى تاريخ رحلة هذه المركبة هى لحظة انطلاقها من فوق القمر فى رحلة عودتها الى الارض ، فعندما دار محرك الصاروخ كانت تلك لحظة من لحظات انتصار العلم . فقد أدارت المركبة محرك الصاروخ أوتوماتيكيا لاول مرة فى تاريخ الكون لتنطلق عائدة من القمر ، حتى اذا ما اقتربت من الارض لتهبط عليها كانت تلك أيضا من اللحظات التاريخية النادرة . فمن اللحظة التى تدخل فيها الكبسولة جو الارض يفقد العلماء الاتصال بها حتى يعود الاتصال اللاسلكى ويعرف العلماء ان المركبة بخير . فاذا حدث أدنى خطأ أو على سبيل المثال اذا لم يفتح البراشوت فان المهمة تفشل فى الحال ويذهب هباء كل مجهود بذل لتحقيق هذا الحلم العظيم . ومن الامور الصعبة العثور على الكبسولة عند هبوطها فى منطقة محدودة فكثيرا ما تقع فى دغل أو فجوة أرضية . لذلك ترقبها العيون مراقبة شديدة . فاذا وقعت الانظار على البراشوت وهو ينفتح استطاع أصحابها أن يحددوا مكانها ، وفى الحال تهبط طائرات الهليكوبتر بجوارها . ويتم كل ذلك بدقة متناهية . لقد هبطت لونا ١٦ على سطح القمر فى الليل حيث تهبط درجات الحرارة الى ١٥٠ درجة فارنهايت تحت الصفر . وعلى علماء الارض أن يتأكدوا من

صلاحية عمل الاجهزة أو المحطة فى هذه الدرجة المنخفضة من الحرارة ، وكذلك صلاحية عملها أثناء النهار القمرى اى فى درجة حرارة قدرها ٣٠٢ فوق الصفر ، وبين مدى درجات الحرارة هذه أى بين درجة ٢٢٨ تحت الصفر ودرجة ٣٠٢ فوق الصفر لابد من فحص اجهزة المحطة لكى تعمل فى اعلى درجة من الدقة والاحكام. فالجهاز اليدوى على سبيل المثال ، عليه أن يحتفظ بالعينات ويغلق عليها باحكام فى الكبسولة الخاصة بها. ومعنى ذلك ان هذا الجهاز اليدوى عليه أن يعمل بدقة متناهية وبطريقة آلية لا تسمح بكسور المليمتر من الخطأ . وأن يعمل كذلك فى هذه الدرجات المتفاوتة من الحرارة بنفس الدقة والاحكام . كما أن الجهاز الاوتوماتيكى عليه أن يعمل فى فراغ يشكل خطورة على الاجزاء المتحركة ، لذلك روعيت العناية الفائقة عند تركيب هذه الاجهزة الاوتوماتيكية المعقدة ونظام الضوابط ونظام التوجيه الآلى .

ومما يجدر ذكره ان هذه المحطات الفضائية تخضع لاختبارات عنيفة على الارض قبل اطلاقها الى الفضاء البعيد . لذلك تصنع كبسولات عديدة تدور تحت ضغوط عنيفة وترج على مناضد اهتزاز وتلقى من الطائرات عند ارتفاعات عالية واخرى منخفضة فوق البحر والغابات والجبال والحقول والصحارى . وقد لا تتحمل هذه الكبسولات هذه التجارب العنيفة أو قد لا تتحمل درجات الحرارة العالية التى تماثل تلك عند الدخول فى جو الكرة الارضية فيعاد صناعتها وتجربتها من جديد . كما تخضع وحدات القوى لنفس التجارب . وبعد أن يزود الصاروخ بالوقود تطلق المركبة ويجرى تعديل المسار بعد انطلاق المركبة بيوم واحد

ويعدل للمرة الثانية فى اليوم التالى وفى اليوم الثالث تفحص صواريخ الهبوط والاقلاع .

ان الفرق الوحيد بين لونا ١٦ وغيرها من المركبات التي سبقتها هو قدرتها على الهبوط فى منطقة معينة فوق القمر ثم العودة منها الى الارض . فلونا ٩ ولونا ١٣ طارتا الى القمر مباشرة بدون أن تدورا حوله . ومن ناحية المبدأ فان اى محطة أوتوماتيكية تستطيع أن تهبط فوق سطح القمر ولكن من العسير أن تهبط فى منطقة معينة . لذلك كان لزاما على العلماء أن يجعلوا لونا ١٦ تدور حول القمر دورتين قبل أن تلمس سطح القمر بدقة متناهية .

ويعتقد العلماء السوفييت أن ارسال مركبات أوتوماتيكية الى القمر أفضل من مركبات بها رواد لان ذلك لايكلفهم كثيرا ،وفى الوقت ذاته تعود المركبات بعينات من تراب القمر وصخوره ، كما تقوم بقياس الحرارة ومستوى الاشعاعات وغير ذلك ..

وبعد أن غادرت لونا ١٦ سطح القمر أو بحر الخصوبة فيه ، بدأ العلماء يتصلون بها على فترات متقطعة . وقد نجحت هذه التجربة نجاحا منقطع النظير شجع المشرفون على بحوث الفضاء في الاتحاد السوفييتى مواصلة البحث فى السفن الاوتوماتيكية التى سوف تلعب دورا هاما فى بحوث الفضاء فى المستقبل ، وعلى الاخص عند ارسال مركبات الى الكواكب البعيدة مثال ذلك الرحلة الى كوكب الزهرة .. وهل يستطيع الانسان أن يتحمل ظروف هذا الكوكب حيث يزيد فيه الضغط بقدر مائة جو من جو الارض وترتفع فيه درجة الحرارة الى ٩٣٠ درجة فارنهايت ؟ أو كوكب المشترى أو زحل أو المريخ .. لابد اذن من ارسال مركبات أوتوماتيكية

تؤدى نفس العمل الذى يؤديه رواد الفضاء ..

كان لابد من ارسال هذه المركبات الاوتوماتيكية مثل لونا ١٦ وغيرها الى القمر قبل ارسال مركبات أخرى تقوم باستكشاف القمر والحياة عليه مثل لونوخود ١ .

ففى اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر عام ١٩٧٠ هبطت محطة الفضاء السوفييتية لونا ١٧ فى بحر الامطار على جانب القمر الذى ينيره ضوء الشمس . وفى نفس اليوم انفصلت من المحطـــة مركبة لونوخود « ١ » الاوتوماتيكية والتى تعد معملا آليا . أما ملاحو هـذه المركبة فكانوا فى مركز البحوث السوفييتى يوجهونها آليا ويتكون الملاحون من خمســة رجال : الرئيس والسائق والمهندس الجوى والملاح وضابط اللاسلكى المختص بالهوائى المصمم بطريقة خاصة لنقل الصور التليفزيونية من القمر الى الارض .

ويجلس السائق على مقعد وثير أمام لوحة تليفزيونية تنقل له ما يحدث على مسافة ٢٥٠,٠٠٠ ميلا ليباشر حركات المركبة التى تحمل مجموعة من الاجهزة العلمية الدقيقة . ويعتمد الملاح على معلومات جوية فضائيـة ليقرر أو ليحدد مكان المركبة لونوخود « ١ » ويحدد لها طرقا جديدة لعبورها . أما ضابط اللاسلكى فلا تفارق عيناه هوائى المركبة ليتأكد انها لا تخرج عن نطاق الارض، أما المهندس الجوى فمسئول مسئولية تامة عن صلاحية وسلامة الاجهزة الكهربائية والآلية ، وكذلك عن درجات الحرارة والضغط فى داخل المعمل المتحرك أو المتنقل وعلى عجلات المركبة أيضا .. أما الرئيس فهو مسئول عن تنظيم العمل ويعاون الملاحون عقل الكترونى ينسق المعلومات التى تصله من المركبة المتجولة بطريق اللاسلكى .

ظل العمل قائما لمدة خمسة أيام متصلة أرسلت خلالها المركبة معلومات على جانب كبير من الاهمية . ثم دخل على المركبة الليل القمرى الذى ابتدأ فى يوم ٢٤ نوفمبر حيث اختفت الشمس وراء الافق القمـــرى حتى يوم ٨ ديسمبر . وبعد أن أعدت المركبة نفسها لاستقبال برودة الليل القمرى توقفت الحياة فيها لمدةأسبوعين ..

اذن فما الذى تم عمله أو تطبيقه خلال ذلك النهـــار القمرى الطويل ؟

خلال خمسة أيام كاملة كانت لونوخود «١» نشطة تماما قطعت مسافة ٢١٦ر٥ ياردة تحركت خلالها فوق مناطق وعرة بما فى ذلك فجوات وأخاديد وصخور . وقـــد استجابت المركبة لـكل التعليمات التى صـــدرت اليها من الارض ونفذتها بدقة بالغة ، وأكدت صـــــــلاحية المعادن التى صنعت منها المركبة لتحمل درجات الحرارة العالية والمنخفضة أثناء تجوالها فى النهار وسكونها فى الليـــل القمـــرى الطويل ، وقد وصلت الارض صـــور تليفزيونية دقيقة لاجزاء مختلفة من بحر الامطار كشفت عن طبيعة أرض هذه المنطقة التى تختلف اختـــــــــلافا كبيرا عن مناطق الـكرة الارضية ، وكذلك عن تـكوين السطح فى بحر الامطار الذى يبعد من المناطق الاستوائية التى سبق أن فحصتها مركبات لونا المختلفة .

كما قام العلماء بدراسة شاملة للصخور القمرية التى صادفتها المركبة أثناء تجوالها ، وأجريت دراسات هامة على طبيعة هذه الصخور وصفاتها الميكانيكيـــة بمعاونة جهاز مخروطى الشكل له أسلحة تدخل فى الارض. كما استخدمت أشعة اكس وطرق طيفية اخرى للتأكد من محتويات القشرة الارضية للقمر من العناصر الكيميائية.

وقد ركب جهاز أشـــــعة اكس تلسكوبى فى مركبة

لونوخود « أ » لتسجيل أشعة اكس الصادرة من أعماق الـكون ، ولو كانت هـــذه الاشعة خافتة أو ضعيفة فالقمر على عكس الارض لا جو له وبذلك فهو لايعوق وصول أى أشعة كونية له واصطدامها بسطحه .

ومن الاجهزة الدقيقة الهامة المركبة على عجلات هذه المركبة عاكس لاشعة ليزر . وقد صمم هـــذا الجهاز المهندسون الفرنسيون . والغرض منه قياس المسافة بين الارض والقمر بدرجة عالية من الدقة وبخطأ لا يزيد عن عدة ياردات فقط .

وبمواصلة الاتصال بمركبة لونوخود على فترات تزيد عن عشر مرات أمكن الحصول على ذخيرة من المعلومات التى ترسل بين وقت وآخر الى أكاديمية العلوم فىالاتحاد السوفييتي لدراستها دراسة وافرة .

ولونوخود هو أول انسان آلي مفكر يستطيع أن يوجه نفسه ويحصل على غذائه من الطاقة بفضـــــل بطارية شمسية ، ويستطيع أن يدور حول نفســه وأن يتجنب العقبات ، ويتحسس الارض وينتزع عينات من تربة القمر واجراء تحليلات كيميائية معدنية وارسال نتائجها على الفور الى مراكز المتابعة الارضية . وقد استطاعت المركبة خلال ما يقرب من مائة يوم بعـد انفصـالها من محطة الفضاء الأوتوماتيكية « لونا ١٧ » أن ترســـل نتائج هذه التحاليل الـكيمياوية المعدنية .

وســــوف تظل لونوخود فوق القمر ولن تعود الى الارض . كما استطاعت أن تضع على سطحه عددا من الاجهزة العلمية التى تعمل لامد طويل لقياس الهزات التى يتعرض لها القمر وتحديد مجالات الاشـــــعاع والمغناطيسية .

وقد اختار العلماء السوفييت منطقة بحر الامطـــار

حيث انها أكبر منطقة مستديرة ومنبسطة على سطح القمر . وقد لاحظ العلماء ان محطات الفضاء السوفييتية التي اطلقت الى القمر كانت تزداد سرعتها عندما تصبح فوق هذه السهول المستديرة ، ويبدو أن السبب في ذلك هو ازدياد قوة جاذبية القمر هنـاك . ويقول علمـاء الجيولوجيا ان هذه الظاهرة يفسرها وجود مادة معينة على سطح القمر لمواصـلة البحث عن طبيـعته ، وما التي تتكون منها المناطق المحيطة ببحر الامطار . واغلب الظن أن مركبة لونوخود استطاعت خلال ثلاثة شـهور معرفة هـذه المادة وطبيعتها . ولابد أنها قد ارسلت التقارير اللازمة الى العلماء في مراكز المراقبة الارضية. وهذا ما سوف تكشف عنه بحوث العلماء في المسـتقبل القريب . وقد حدا ذلك بهم الى ضرورة بقاء هذه المركبة على سـطح القمر لمواصـــلة البحث عن طبيعته ، وما يحيط به من غموض . ومن المؤكد أيضا ان بقاء المركبة هناك سوف يعاون العلماء على الحصول على معلومات هامة أخرى .

شهاب يرتطم بالقمر

اعلن احد علماء مركز الفضاء الامريكي أن شهابا قد ارتطم بسطح القمر في يوم ١٤ مايو عام ١٩٧٢ بقوة تعادل مائة الف طن من مادة « ت.ن.ت » الشديدة الانفجار، مما أدى الى احداث حفرة مثل فوهة البركان. وأعرب العالم الامريكي « جاري لاثام » عن اعتقاده بأن هـذا الحدث النـــادر قد يؤدي الى كشف كثير من أسرار القمر . وقال ان قوة الارتطام ظلت تحدث اشـارات على أجهزة مراقبة القمر لمدة ثلاث سـاعات متصلة . وان هذا الشهاب قد استقر في مكان قريب ـ الى حد

لايدعو للارتياح ـ من محطة رصد الهزات الارضية التى تركها رواد سفينة الفضاء الامريكية أبوللو ١٤ على سطح القمر عام ١٩٧١ ..

والحقيقة ان ارتطام شهاب على القمر ليس بالشيء الجديد على العلم أو العلماء . لان النيازك تسقط عليه بصفة مستمرة ، وعلى هيئة أمطار دائمة أو متقطعة ، جاءته من الفراغ . وقد تكونت معظم الفوهات الموجودة حاليا على سطح القمر من أمطار الشهب والنيازك هذه. حتى اذا مرت عشرات الالوف من السنين ، بدأ سيل الامطار يخف ، ثم يتوقف بعض الشيء . ومن وقت لآخر يسقط شهاب أو نيزك ، فيحدث هزات عنيفة ، تسجلها فى الحال الاجهزة الارضية التى صممها الانسان خلال السنوات العشر الماضية عندما بدأ يوجه اهتمامه بالقمر ، ويرسل الاقمار الصناعية لرصده ورصد غيره من النجوم والكواكب والاقمار .

ولما كان القمر فراغا لا حياة فيه ، فان ارتطام أى جسم به يحدث انفجارا عنيفا يعادل مئات الالوف من أطنان مادة « ت.ن.ت » المعروفة . وقد لفت الانفجار الاخير نظر علماء مركز الفضاء فى هيوستون وهو المركز العلمى الذى يسيطر على رحلات أبوللو الى القمر، وقد نجحت خمس رحلات منها هبط فيها الرواد على سطحه وساروا عليه ، ورأوا فوهاته ، وجلبوا بعض صخور وأتربة منه الى الارض لفحصها وتحليلها ، لمعرفة تكوين القمر ، وعمره ، وهل كانت به حياة فى الازمنة القديمة، أم كان منذ تكوينه خاليا معدوما من الحياة ؟

وتشاء الصدف أن يسقط الشهاب بجوار رصد الهزات الارضية التى تركها رواد الفضاء أبوللو ١٤ على سطح القمر فى عام ١٩٧١ . وقد سجلت هذه المحطة

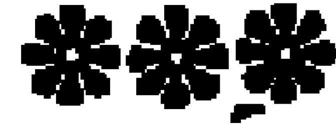
كما سجل غيرها من المحطات التى أرسيت فوق سطح القمر عن طريق رواد أبوللو ١٥ و ١٦ سجلت الكثير من الهزات الارضية الخفيفة التى وقعت على القمر ، وكشف فى الوقت نفسه عن أسبابها . ومنها استطاع العلماء أن يستدلوا على أسرار كثيرة كانت مغلقة عليهم عن هذا التابع الذى يدور حول الارض بنظام رتيب ..

ان طبيعة تكوين القمر لايزال لغزا مغلقا على العلماء ، رغم انهم ذهبوا اليه أكثر من مرة . لكن الجدل العلمى لايزال قائما فهل كانت بالقمر براكين ، أى هل كان له قلب مصهور كقلب الارض ، ثم خمد هذا القلب وبرد ومات ، وأصبح عدما فماتت الحياة بموته؟ وأصبح بالصورة التى هو عليها الآن ، تهطل عليه الاشعاعات الكونية والشمسية ، وتهب عليه الرياح الشمسية القاسية ، والانواء والاعاصير فتلهب يومه الذى يطول الى أربعة عشر يوما من أيامنا الارضية ، ثم تهبط فيه الحرارة فى ليله الذى يطول أيضا الى أربع عشرة ليلة من ليالينا الارضية ؟

واذا كان الامر كذلك ، فما هو سر هذه الفجوات التى تزركش سطحه ؟ هل هى من فعل الشهب ؟ أغلب الظن انها لكذلك لان الشهاب الذى سقط على القمر فى الرابع عشر من شهر مايو عام ١٩٧٢ كون حفرة مثل فوهة البركان ، سوف يطلق عليه العلماء اسم العالم لاثام الذى اكتشفه بعد تسجيله ورسمه على خريطة القمر ، وقياس أتساع فوهته وعمقها . وكل ذلك سوف يتم فى القريب العاجل لاهمية الشهاب الذى سقط على القمر من الفراغ الكونى بهذه القوة الخارقة وهذا الاندفاع الجبار .

ومن محاسن الصدف أن الشهاب لم يسقط أثناء

وجود رواد أبوللو ١٦ على سطح القمر أو أثناء تجوالهم بين فوهاته بسيارتهم الكهربائية والا لسبب كارثة رهيبة . فسقوط مثل هذا الشهاب يعد نادرا فى عصرنا الحالى ، ولا يتكرر عادة الا بعد مرور الوف من السنين .



يختلف وجه القمر عن وجه الارض اختلافا كبيرا ، فقد ظل الاول ثابتا لايتغير زهاء مليار سنة أو أكثر ، بينما كان الثانى عرضة للتغير المستمر خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن . ويقول العلماء ان تغيرا واحدا طرأ على احدى فجوات القمر منذ اكتشاف جاليليو لسطحه ، وهذا التغيير لايزال موضع جدل ونزاع بينهم حتى يومنا هذا .

كانت النظرية العلمية الاولى لتعليل وجود الفجوات التى تظهر بوضوح على سطح القمر تتلخص فى انها من فعل البراكين أو عبارة عن حلقات مرجانية ، أو بقايا مواد منصهرة . كما ان الظلال التى تبدو على سطحه كثيرا ما خدعت العلماء . كذلك لعبت انعكاسات أشعة الشمس على سطحه دورا كبيرا فى ارتباكهم ، اذ تغيرت ارتفاعات الجبال ، وازدادت أعماق الفجوات ، حتى تم اختراع تلسكوبات ضخمة حددت الاشياء ، وكشفت عن حقائق ثابتة ، منها أن فجوات القمر لها صفات أساسية ، وليست من نوع الفجوات التى تحدثها البراكين الارضية لانها تبدو كأطباق الفناجين .

وفى القرن الثامن عشر استطاع العالم الفلكى الالمانى « شروتر » أن يقيس آلاف الفجوات التى تبدو على سطح القمر قياسا دقيقا واستطاع أن يشرح ماهية هذه الفجوات فقال انها تتكون من انفجار أجسام خاصة عند اصطدامها بسطح القمر ، وهذه الاجسام تكون فى

الغالب نيازك أو شهبا ..

ومن المعروف ان اصطدام الشهب بسطح القمر يولد هزات أرضية عنيفة وقذائف زجاجية تعرف باسم « تكتايتس » وقد عثر عليها بوفرة فى الهند الصينية واستراليا وتشيكوسلوفاكيا وليبيا .وتتراوح مساحتها بين بوصتين وثلاث بوصات مربعة ، وأوزانها بين نصف رطل ورطل كامل . وتمتاز بألوانها الثلاثة الزاهية البنى والاخضر والاسود . وسوف تصل الكرة الارضية بعض هذه القذائف الزجاجية بعد مرور بعض الوقت من جراء اصطدام ذلك الشهاب بسطح القمر . والسبب فى وصول هذه القذائف الينا هو أن قوة الجاذبية فى القمر تعادل سدس الجاذبية الارضية ، وان سطحه يغطى بستار كثيف من مسحوق صخور مشتعلة يطلقون عليها الصخور القمرية ، فلو عبث انسان بهذا المسحوق كما فعل رواد الفضاء أحيانا ، فانه يرتفع لقلة الجاذبية الى عمود شاهق يزيد على مائة قدم .

ولما كان القمر عرضة لهجمات الشهب يوميا ، وليس له جو يساعد على هبوط ما يتناثر من سطحه ، فان حركة الشهب الفجائية وهى تنطلق بسرعة خمسة وأربعين ميلا فى الثانية ، تحدث انفجارات شديدة تنشأ عنها حرارة عالية تحيل المسحوق الذى يغطى سطح القمر الى قطع متماسكة ، ثم تقذف بها الى الفراغ الخارجى بسرعة ميلين فى الثانية . فتفر هذه القذائف من مجال الجاذبية القمرية ، وتصبح تحت سيطرة الجاذبية الارضية فتهبط الينا على شكل قذائف من الزجاج النادر .

سراديب وأنفاق القمر

المعروف ان سطح القمر مرصع بنحو مائتى الف فجوة معروفة كلها للعلماء ، منها مائة وخمسون فجوة قطر الواحدة منها ٥٠ ميلا أما أكبرها فهو كلافيوس اذ يبلغ قطرها ١٤٦ ميلا وعمقها ثلاثة أميال وتحيط بها سلسلة من الجبال الحادة التى ترتفع ميلين . وقد تكونت هذه الفجوات من فعل اصطدام الشهب والنيازك بسطح القمر كما أسلفنا . وثمة على الارض مثيلات لها تكونت أيضا بفعل اصطدام الشهب بالارض كفجوة اريزونا بأمريكا التى يبلغ قطرها ٤١٥٠ قدما وعمقها ٧٠٠ قدم . وهنالك فجوات أخرى حديثة العهد باستراليا قطرها ٢٨٠ قدم . وغيرها كثير فى أمريكا والبلاد العربية وسيبريا والارجنتين والبلطيق . ويقول العلماء ان النيزك الذى كون فجوة أريزونا كان قطره ٦٤٧٣٠ قدما . أما أقطار الشهب التى تصطدم بسطح القمر فتكون فجوات قطرها ٢٠ ميلا واقطارها فى الغالب ٧٥٠ قدما ..

ومن الاكتشافات الحديثة نفق طوله عدة أميال يخترق أحد الجبال فى القمر ، وتمتاز جدرانه بلمعان يشبه لمعان الزجاج . ويعلل العلماء وجود هذا النفق بأنه ربما يكون قد نشأ عن اصطدام شهاب بقمة الجبل ، فاخترقها مكونا اياه . فعلى مرور القرون كان القمر عرضة

لـكثير من هجمات النيازك والشهب ، فنجم عن ذلك ان تكونت على سطحه طبقة سميكة من رماد الشهب . فعندما يمر شهاب بسرعة تتراوح بين عشرين وثلاثين ميلا فى الثانية فانه يبخر الرماد المسحوق فتنصهر المادة الموجودة تحت الطبقــة المتبخرة ، وتبرد بسرعة مكونة طبقات أخرى خزفية لامعة تشبه اللمعان الذى تتركه الصاعقة على الرمال . فاذا زحف شــهاب واطىء على سطح القمر بسرعة فانه يستطيع أن يحدث نفقا خــلال الرماد الناعم الذى يغطى القمر، فاذا اصطدم بما تحت من المواد الصلبة اخترقها مكونا سراديب .

وقد اشتبه العلماء فى أن تكون بعض الفتحات فوهات براكين لانه فى الجهة الغربية للقمر توجد فتحتان يطلق عليهما مسببر ويكدنج وهما قريبتان بعضهما من بعض، ولـكنهما تختلفان عن فوهات البراكين المعروفة . وقــد لوحظ ان فتحة كل فوهة ممتدة فى اتجاه متواز . وفى نواحي جبال القمر الاخرى التي يبلغ ارتفاعها عدة آلاف من الاقدام توجد فتحات مماثلة مما يدل دلالة قاطعةعلى انها مع صنع النيازك أو الشهب .

الباب الثالث

كائنات العوالم الأخرى

هل نحن وحدنا في هذا الكون؟

قبل أن يتوصل الانسان إلى الحقائق العلميـــة عن الكون ، كان واثقا كل الثقة من وجود حياة أخرى فى الـكواكب البعيـــدة عنه . وفى ذلك قال الفيلسوف الابيقورى مترودوريس ، فى القرن الرابع قبل الميلاد ، اذا افترضنا ان الارض هي الـكوكب الوحيـــد الذى تزدهر عليه الحياة فهذا افتراض خاطىء كمن يفترض أن حقلا من الحنطة لا تنمو فيه الا حبة واحدة .

وفى القرون الوسطى ، عنـدما كان يظن ان الارض مركز الـكون وان العوالم الاخرى لاحياة فيها ، كان عالم الفلك البولندى كوبرنيكوس لا يؤمن بذلك . ولكنه لم ينشر رأية هـــذا فى كتابه بعنوان « ثورة الاجسام السموية » حتى اسـتلقى على فراش الموت . فبعد سـنوات من الدراسة وصل الى حقيقة ان الشمس وليســت الارض هى التى تحتل المركز . وان الارض واحدة من الكواكب العديدة التى تدور حولها

ـ واضـــاف الراهب الدومنيكى جيوردانوبرونو ـ رأيا اشد خطورة ، وهو ان هنـــاك شموسا لا حصر لها توجد فى الفراغ . وأن أعداد هائلة من الكواكب كالارض تدور حول هـــذه الشموس تماما كما تدور الكواكب

الحالية المعروفة لنا حول الشمس، وأن مخلوقات بشرية تعيش في هـــذه العوالم . والغريب ان برونو هـذا مات حرقا في عام ١٦٠٠ على انه من الهراطقة . ومع ذلك عاشت نظريتـه من بعده . والحقيقة انه بعـد اختراع التلسكوبات اللاسلـكية الحديثـة اتضـح ان الـكواكب ليست مجرد بقع من الضوء بل أصبح اعتقاد الناس انها آهلة بالـكائنات الحية .

وفي القرن الثـــامن عشر ذكر عالم الفلك جوهان الرت بود صاحب قانون بود الذى يقول : « بأن كل كوكب يبعد عن الشمس بمرتين عن الـكوكب السابق له » وأن نفس النسبـة الرياضيـة تثبت بالنسـبة لروحانية سكانه . وطبقا لهذا القانون وبما أن كوكب المريخ هو الرابع من الشمس فانه يكون أكثر روحانية من سكان الـكوكب الثالث « الارض »

وفي عام ١٨٧٧ أعلن عالم الفلك الايطالي جيوفاني كيابارللي عن رؤيته لقنوات تربط المنـــاطق الداكنة بعضهـا ببعض في المريخ . ورغم ان كلمـة « كنالي » باللغة الايطالية تعني ببسـاطة مجاري أو أخاديد ، ولـكنها ترجمت الى الانجليزية على انها « قنوات ».

وكان معنى ذلك انها صنـــاعية وقد أوحى ذلك للديبلوماسي الامريكي برسيفال لوول أن يدرس الفلك ويبني مرصدا خاصا لدراسة كوكب المريخ فلاحـظ وجود مئات من القنوات على سـطحه وقال انها من عمل مخلوقات بشرية متقدمة ..

وطبقـــا للنظريات الجديثة والتجارب المستمرة استطاع الانسان أن يفهم سر أصل الحياة . وانها بدأت بعد وقت قصير من تكوين الـكرة الارضيـة منذ ٦ر٤

مليارات من السنين . وكان كوكبنا الاصلى أو الاولى مغلفا بجو سميك من غازات النشادر والميثان والايدروجين وبخار الماء . وربما بسبب اشعاعات الشمس فوق البنفسجية أو بسبب البروق الشديدة التى ألهبت جو الارض الهائج ، أو ربما بسبب الحرارة المنبعثة من البراكين التى كانت تلفظ الحمم فوق سطح الكوكب البكر كله ، تحطمت بعض الجزيئات الجوية ثم اتخذت فى تركيبات مختلفة . وبعد أن غسلت هذه الجزيئات فى بحار الارض تحولت الى أحماض امينية ، ومركبات عضوية على هيئة مكعبات من البروتين والحياة. وكونت بعض التفاعلات الاخرى فى هذا « الحساء » أحماضا ، نووية أصبحت هى الاخرى جزيئات أساسية تباشر انتاج البروتين فى الخلايا الحية .

الجزيئات الاصلية

واخيرا وبعد مرور ملايين السنين ، وبعد تفاعلات لا حصر لها ، ولد جزيىء طويل له قدرة خارقة على الانقسام الى أقسام تجذب بعض الكيميائيات الاخرى التى أصبحت بدورها صورة طبق الاصل من الجزيئات الاصلية .

فبظهور هذه الجزيئات الاصلية كان التطور البيولوجى قد بدأ عمله أو سيره على الطريق .

وفى عام ١٩٥٣ قام طالب حديث التخرّج يدعى ستانلى ميللر ، بتجربة مثيرة على هدى اقتراح قدمه الكيميائى هارولد أورى الحاصل على جائزة نوبل فى الكيمياء ، فقد استطاع ميللر أن ينتج أحماضا امينية وبعض المركبات العضوية الاخرى وذلك بتمرير تيار

كهربائى خلال خليط من الفازات تمثل جو الارض الاولى. وبعد ذلك قام عدد من العلماء باعادة التجربة واستخدموا مصادر مختلفة من الطاقة مثل الاشـــــعاعات فوق البنفسجية ومصابيح الحرارة وموجات الصدمات . ثم قام الـكيميائى المعروف سيدني فوكس بتجربة متقدمة ونجح فى ربط أنابيب تجارب الاحمـاض الامينيـة بما يسميه « بروتينيات » وهى عبارة عن فضلات ضئيلة من البروتينات تعمل على أن تكيف نفســها الى كرات من البكتريا ..

وعليه أصبح من المقطوع به ان مركبات كيميائية مماثلة تحتل مكانتها فى الفراغ . فمن بين الوف الشهب التى تصطدم بالارض كل سنة فان ٢ ٪ منها يحتوى على مركبات عضوية أو كربون غنى . وفى مناسبات متعددة أعلن العلماء أن هذه الشهب تحتوى على أحماض أمينية وبعض آثار من الحياة فى الفراغ البعيد . ولـكن معظم العلماء قالوا ان الاحماض الامينية قد التقطتها الشهب أثناء اختراقها لجو الارض أو فى المعامل فيما بعد ..

وأعيد النقاش مرة أخرى وتمكن العالم بونامبروما أن يصنف ١٧ نوعا من الاحماض الامينية فى شــهاب سقط حديثا فى استراليا واثبت ان هذه الاحماض جاءت من الفراغ

دوامات السحب

هناك اعتقاد سائد بأن الـكيميائيات الاساسية للحياة يمكن العثور عليها فيما وراء النظام الشمسى . ففى عام ١٩٦٨ وجه علمـاء جامعة كاليفورنيا تلسكوبا لاسلـكيا نحو منتصف الطريق اللبنى أو جـزيرة النجوم حيث توجد الشمس والتقطت الاذن الالـكترونية الضخمـة

للتلسكوب انبثاقات منبعثة من جزيئات النشادر. ولاول مرة عثر على جزيئات ثانية فى السحب الصاخبة للغازات التى تحتل فراغات هائلة بين النجوم . ومنذ هذا الاكتشاف عثر على ٢٤ جزيئا فى أول أكسيد الكربون والفورمالدهيد والكحول الاثيلى والماء ، وجدت كلها فى الفراغ البعيد . فاكتشاف هذه الجزيئات البعيدة ومعظمها مهم للحياة تثبت أن التركيز الكيميائى الذى قاد الى وجود الحياة على الارض قد يكون فى طريقه خلال الكون . ويؤكد العلماء ان الحياة فى اى مكان آخر فى الكون قد لاتشبه نوع الحياة التى نحياها على الارض. وان الحياة فى أى نوع من هيئاتها قد تكون موجودة فى أى كوكب أو قمر من أقماره . وانها تستطيع أن تتطور بين الجزيئات السابحة فى الفراغ أو بين النيران النووية للنجوم . ولكن هل هناك كواكب خارج النظام الشمسى ؟

ان القدرة على العثور أو الكشف عن كوكب فى مدار حول أقرب جسم سماوى للشمس تكاد تكون مستحيلة أو ليست فى استطاعة أى تلسكوب قوى ضخم . ولكن كثيرين من علماء الفلك يعتقدون أن هناك مليارات من الكواكب فى الكون . فالشمس عبارة عن نجم عادى فى جزيرة بها ١٠٠ مليار نجم أى فى كوكبه الطريق اللبنى.

والطريق اللبنى بدوره واحد من مليارات المجرات فى الكون . وليست الشمس النجم الوحيد الذى تدور حوله مجموعة من الكواكب . بل ان النظريات الحديثة الخاصة بتطور الاجسام السماوية تقول بأن تكوين الكواكب حول النجوم العادية مثل الشمس هو حقيقة أكثر منها احتمالا . وان هناك كواكب لايمكن رؤيتها بأى حال من الاحوال.. وبتحليل جزء فى ممر نجم برنارد

وهو من أقرب النجوم الى الشمس ويبعد عنا بقدر ست سنوات ضوئية أو على بعد ٣٦ تريليون ميل ، اتضح ان كوكبين فى حجم المشترى وعطارد يدوران حول النجم ويبذلان قوة جذب تؤثر على مسارهما . وتوحى هذه الملاحظة بأن هناك كواكب أخرى صغيرة تدور حول نجم برنارد ، وان عددها حوالى ٥٠ مليار كوكب فى الطريق اللبنى وحده .

ولا يظن العلماء ان كل هذه الكواكب بها حياة . ولكى يكون عليها حياة فيجب أن تدور حول نجم يلمع لمعانا ثابتا لمليارات السنين . ويجب أن يكون له منطقة فى الفراغ حيث تسقط عليها الاشعاعات الشمسية بنسبة معتدلة لتؤكد وجود الحياة . ومن المتفق عليه أن هناك من مائة الف الى مليون حضارة تكنولوجية فى الطريق اللبنى . وتبعد كل حضارة عن أخرى بعدد من مئات السنين الضوئية وكل واحدة تستطيع أن ترسل الى الاخرى اشارات لاسلكية مفهومة .

ويعتمد هذا العدد على طول الزمن الذى يستطيع ان يعيش خلاله اى جنس من الاجناس كمجتمع تكنولوجى . وان حضارة من هذه الحضارات قد يكون عمرها من اربعين الى خمسين سنة بعد أن تكون قد استطاعت أن ترسل اشارات لاسلكية عبر الفراغ ثم تفنى نفسها فى محرقة نووية أو تلوث نفسها حتى الموت .

وعلى ذلك فان رحلات الفضاء قد تكون مستحيلة تماما للاتصال بأى حضارة أخرى فى نظام شمسى آخر . فاذا أرسل رائد فضاء فى صاروخ سرعته خمسة أميال فى الثانية فانه سيصل الى أقرب نجم بعد ثمانين الف سنة . أما النجوم البعيدة فسوف تجعل رحلته تمتد الى مئات الالوف أو ملايين أو مليارات السنين .

أما اذا استطاعت الحضارات التكنولوجية أن تظل لعدة مئات من ألوف السنين فان عددها سوف يكون كبيرا وتقل المسافة بين بعضها البعض ويكون اللاسلكى هو طريق الاتصال بينها ..

لقد أرسل الانسان اشارات قوية الى الفراغ خلال السنوات الخمس عشرة الماضية باستخدام الرادارات الحربية وأجهزة الارسال القوية . فاذا كان هناك جنس تكنولوجى متحضر على بعد عشرين سنة ضوئية فان الاشارات الارضية سوف تصله فى عام ١٩٧٦ . واذا كان هذا الجنس قد استلمها وأرسل الينا اشارات مماثلة فانها سوف تصلنا فى عام ١٩٩٦ .

ولكن كيف يتم التفاهم بهذه الاشارات وهناك مشكلة اللغة .

فى مناسبات متعددة خلال العقد الماضى وصلت الارض اشارات لاسلكية جاءت من الفراغ ، ومن أجناس ذكية . وفى منتصف الستينات اكتشف أحد العلماء السوفييت بعض الاشارات اللاسلكية التى جاءت من مصدر غامض وفهم أنها نبضات لاسلكية صادرة عن جنس راق . وفى عام ١٩٦٧ عثر العالم البريطانى انتونى هيوش على ارشادات صادرة من الفراغ على فترات منتظمة وقال العالم انها جاءت من جنس أخضر اللون أو من رجال لونهم أخضر أو « البولسار » . وقال أيضا ان هذه الاشارات يتفاهم بها سكان المجرة تماما كما يتفاهم سكان الغابات عن طريق الطبول .

الحياة على الكواكب الاخرى ..

الدكتور ملفين كالفين ، الحاصل على جائزة نوبل فى الكيمياء وأستاذ هذا العلم بجامعة كاليفورنيا له رأى

عن احتمال وجود الحياة على الكواكب الاخرى.. فقد حصل على جائزة نوبل عام ١٩٦١ وذلك لاستطاعته اتمام الدورة الكيميائية للتركيب الضوئي فى النباتات الخضراء !

ان معلوماتنا عن طبيعة الكون تعتمد على المعلومات التى وصلتنا من الفضاء الخارجى ، بفضل الاجهزة الحديثة التى نقلتها عبر الفضاء الاقمار الصناعية والصواريخ ، أو عن طريق الموجات اللاسلكية التى التقطتها التلسكوبات اللاسلكية المركبة فى مناطق معينة من الكرة الارضية . والحقيقة ان العلماء استطاعوا أخيرا وفى شهر يناير عام ١٩٦٣ الحصول على معلومات من النيازك والشهب نفسها تؤكد وجود الحياة على الكواكب الاخرى ..

والحقيقة العلمية الاخرى أن العلماء بدأوا بالفعل غزو الفضاء واستكشاف المناطق البعيدة ، فيما وراء جو الكرة الارضية وسوف يستكشفون قريبا الكوكبين القريبين منا : الزهرة والمريخ .

وسوف يكون للاستكشافات الجديدة أثرها لا فى الافاق العلمية والادبية فحسب بل سيكون لها اثرها المباشر فى معرفة طبيعة الكون وتكوينه .. وفى هذا يقول الدكتور كالفين : لقد بدأنا بالفعل مناقشة بعض المحاولات الصغيرة بالاتصال مع شعوب أخرى أومخلوقات لها ما لنا من قوة الفهم والادراك ، زد على ذلك أن لهذه المخلوقات قوة جبارة لا نعرف كنهها بعد ..

والمعلومات التى حصلنا عليها عن طبيعة تطور الذرة والتى تجعلنا نعتقد اعتقادا جازما بأن هناك أعضاء حية نشأت من تسلل الجزيئات ونشاطها بفضل الحرارة والبيئة اللتين تدرجت فيهما . وليس هذا كله وليد

مصادفة من المصادفات ، أو حادثة من الحوادث ، لان هذا الواقع يمكن تخيل حدوثه على كوكبنا اذا مكنا لمجموعة من الجزيئات المماثلة نفس البيئة والحرارة والنشاط الذرى ..

ولكن السؤال الذى يراود أذهان العلماء اليوم هو : هل هناك بيئات مماثلة فى أماكن أخرى غير الكرة الارضية ؟ ..

يرد العالم كالفين على هذا السؤال بقوله : ان نوعى المعلومات المباشرة التى حصلنا عليهما موجودان بالفعل فى نظامنا الشمسى ، وهما الاشعاعات الكهربائية المغناطيسية ، أى الضوء والموجات اللاسلكية ، والشهب التى يرجع أصلها الى حزام الكويكبات بين المريخ والمشترى ، فبما أن القمر لا جو له فلا يمكن أن يوجد به أحياء من أى نوع . بل قد يكون القمر بمثابة مخزن للجزيئات والقطع المتناثرة عبر الفضاء حيث استقرت به ولا تزال على سطحه بحالتها الطبيعية ..

أما الكواكب القريبة من الارض فمنها كوكب الزهرة ولا جو له وحجمه كحجم الكرة الارضية ، وجوه عبارة عن سحابة كبيرة لا ينفذ اليها الضوء المرئى ولذلك لايستطيع العلماء رؤية سطحه ، وبالتالى لايعرفون نوع جوه اطلاقا ..

أما المعلومات الاخرى التى حصل عليها العلماء عن سطح كوكب المريخ فهى غزيرة بالقياس الى المعلومات الخاصة بكوكب الزهرة . فهم يعتقدون أن للمريخ فصولا يختلف بعضها عن بعض وذلك بالنسبة للون النباتات التى تظهر على سطحه فى فترات معينة من السنة . ففى أقصى الشمال تظهر قلنسوة بيضاءتغطى قطبية ، ثم يعترى الكوكب تغير كبير فتظهر منه مناطق

داكنة يطلق عليها العلماء المناطق الخضراء أو المنـاطق الحمراء اللامعة ..

الحياة فى الشهب ..

يقول العلمـاء اذا اتفقنا مع الراى القائل بأن أصـل النيـازك والشهب فى مكان ما بالنظـام الشمسى ، فان الاختبار الـكيميائى لتركيبها يمدنا ولا شك بمعلومات ذات أهمية كبرى .. والغريب فى الامر أن الســـواد الاعظم من النيازك والشهب يحتوى على أنواع معينة من المواد العضوية . وهذه حقيقة عرفت منذ أكثر من مائة سنة . وقد استطاع العلماء فى السنوات الاخيرة فحص هذه المواد العضوية فحصا دقيقا وأمكن الاستدلال على أصلها ونوعها ..

فمنذ عدة سنوات فحص العالم مالفين كالفين المـادة المختلفة فى الشهب التى سقطت فى مناطق مختلفة من الـكرة الارضية فتأكد من وجود الهيدروكربون « فحم + ماء » وعلى أنواع مختلفة من الذرات تحتوى على المواد الاصيلة للحياة . فدلت هـذه الاكتشـافات على وجود نوع من الحياة البدائية فى النظام الشمسى حيث عمل فيها التطور الكيميائى عمله ..

مخلوقات الـكواكب الاخرى ..

اســـتدل العلماء اذن على احتمال وجود الحياة فى الـكواكب الاخرى . وأن هناك أنظمة متعددة فى الفضاء الفسيح تحتوى على كواكب تشبه كوكبنا الارضى وأن لهذه الـكواكب نوعا من الحياة تطور بفضـل الحـرارة والبيئة النووية . وأن مخلوقات تسعى فى هذه الكواكب لها حضارات خاصة ، كما أن بعضها ربما يكون قد عمر فيها أكثر من انسان الـكرة الارضية ، وأن الحياة فى

البعض الاخر لا تزال فى طور التكوين .

ويقول كالفين أن بعض حضـارات الفضاء قد تفوق حضارة الارض ، نظرا لان مخلوقات الـكواكب الاخرى على جانب عظيم من الذكاء والتحضر بدرجة لم يحققها انسان الكرة الارضية المحدود العمر .. وهـذا مما دعا العلماء الى أن ينصتوا باهتمام بالغ الى الاشـارات التى التقطتها التلسكوبات اللاسلـكية الجبارة والتى تدل على وجود أنواع راقية من الحياة فى الفضاء البعيد ..

نجمة الصباح أو الزهرة

بدأ العلماء يدرسون كوكب الزهرة مباشرة بعد أن اخترع التلسكوب . ففى عام ١٦١٠ اسـتطاع العالم الايطالي جاليليو أن يسلط تلسكوبه البدائي على أوجه الزهرة ويسجل الـكثير عن التغييرات الضوئية الساقطة عليه وهى تشبه الى حد كبير ما يعترى القمر من تغييرات كل شهر ..

وفى عام ١٧٦١ اكتشف العالم الروسى «لومونوسوف» جو كوكب الزهرة . وكان هـذا الاكتشاف بمثابة أول خطوة على جانب كبير من الاهمية . فقد وجهت أنظار العلماء فى كل مكان نحو هذا الـكوكب اللامع الذى بدا وكأنه يشبه الارض فى كل شىء .. وشرع علماء الفلك وكتاب القصص الخيالية يؤكدون أن كوكب الزهوة هو مرفأ الإمان المثالى للانسـان اذا أراد أن يهجـر الـكرة الارضية ، وذكروا أن الزهرة تبدو وكأن بها كل الظروف المواتية للحياة وتطور الاحياء عليها . فحجمها وكتلتها وقوة جاذبيتها تشبه الى حد كبير مثيلاتها فى الـكرة الارضية . كما أن لها جوا عظيما رغم أن طبقة من السحب تخفى سطحها تماما عن الانظار وأنها تستحم

فى ضوء قوى للشمس ضعف ما تتلقـــــاه الارض من الشمس .

وكلما تعمق الانسان فى دراسة هذا الـكوكب كلما قل أمله فى احتمال وجود الحياة عليه . وفى بدء هذا القرن أضيفت أجهزة قياس أخرى ، مثـل تلك التى تقيس الاشعاعات الخفية للاجرام السماوية ؛ كالاشـعة تحت الحمراء ، الى مجموعة أجهزة علمــــاء الفلك القديمة كالتلسكوب والعين المجردة وعدسات التصوير. فقـد كشفت هـذه القياسات عن حرارة الـكوكب والتكوين الـكيميائى لجوه فوق سجف السحاب . ولكن النتائج كانت مع الاسف متناقضة ..وفى الخمسينات من هـذا القرن فتح علم فلك اللاسلـكى الباب على مصراعيه لعدة حقول . فالتلسكوب اللاسلكى ذو الهوائى الضخم الذى يبدو على شكل قصعة او طبق ، استطاع ان يقيس الموجات اللاسلكية غير الظاهرة ، وكذلك الموجات الطويلة بطريقة أفضل من قياس الاشعة تحت الحمراء .

فالموجات اللاســلكية تصدر عادة عن اى جرم ساخن بما فى ذلك الـكوكب الارضى والزهرة والنجوم . وهذه الموجات اللاسلـكية أو الذبذبات الالـكترومغناطيسية ليست اشارات واضحة . وهى تشبه الاشارات التى تسمعها أحيانا فى الراديو ولـكنها تمد العلماء بمعلومات هامة عن مصدرها . كما انها تمرق خلال الجو بدون عناء أو عائق . والتلسكوبات اللاسلـكية مثل اذان الارض تستطيع أن تسمع أوهى الاشــــــارات اللاسلـكية وأضعفها ، وهى تمرق خلال أى جو من الاجواء .. وبناء على ما تقدم استطاع العلماء أن يعرفوا ان حرارة سطح كوكب الزهرة مرتفعة جدا . وظنوا أن درجـة الحرارة هذه ترتفع عن درجة غليان الماء ، وأن هناك اختـلافا

بسيطا بين درجة حرارة النهار والليل. وعليه استطاعوا أن يخلصوا الى حقيقة أن الحياة مستحيلة والحالة هذه على سطح كوكب الزهرة .. كما أن نتائج بحوث العلماء السوفييت والامريكيين الذين استخدموا فيها الرادار اكدت صحة المعلومات التى توصل اليها العلماء الآخرون ووجدوا أن الكوكب يدور على محوره مرة كل ٢٣٠ يوما من أيامنا الارضية . فأذا استطاع الانسان ان يهبط على هذا الكوكب فى يوم ما فانه سوف يرى شروق الشمس وغروبها مرة واحدة فى السنة .

وكان قياس درجة حرارة سطح الزهرة من أعظم الانتصارات العلمية التى استطاع ان يحققها علماء فلك اللاسلكى فى هذا القرن . وان كانت النتائج لا تزال تحتاج الى دقة أكثر ، بل قد أثيرت حولها الشكوك فى بعض الدوائر العلمية . وظل الضغط الجوى للكوكب غير معروف رغم ان أرقاما عديدة قد حددت من جو واحد الى ما يعادل مائة جو حتى أن بعض العلماء قالوا أن جو الزهرة يحتوى على البترول .

وفى عام ١٩٦٥ أعلن العالم السوفييتى المعروف جوزيف تشكلوفسكى صاحب كتاب « الكون والحياة والعقل »: أن الظروف الطبيعية الموجودة على سطح كوكب الزهرة تجعل احتمال الحياة عليه ضربا من المستحيل ..

مركبات الفضاء تتجه نحو الزهرة ..

وجه الاتحاد السوفييتى أول مركبة فضاء الى كوكب الزهرة فى يوم ١٢ فبراير عام ١٩٦١ وأطلق عليها اسم « الزهرة رقم ١ » . وفى يوم ١٢ نوفمبر عام ١٩٦٥ أطلق مركبة أخرى « الزهرة رقم ٢ » ولكنها انفجرت فأطلق بعدها بأربعة أيام « الزهرة رقم ٣ » وفى أقل من

أربعة شهور هبطت المركبة الاخيرة على سطح الكوكب فى يوم أول مارس عام ١٩٦٦ وتركت على سطحه علما للاتحاد السوفييتي . وقد مهدت هذه الرحلات الطريق الى الزهرة ولاجراء قياسات على الطبيعة هناك لجو الكوكب . وفى يوم ١٨ أكتوبر عام ١٩٦٧ وبعد أكثر من أربعة شهور للمرحلة الطويلة دخلت مركبة « الزهرة رقم ٤ » جو الزهرة وظلت ترسل لمدة ٩٣ دقيقة معلومات على جانب كبير من الاهمية للارض عن حرارة الكوكب وضغطه وكثافته وتكوينه الكيميائى . ومدت هذه الاذاعة القصيرة علماء الارض بمعلومات غنية ووفيرة عما حصل عليه علماء الفلك خلال عدة قرون من المراقبة والملاحظة الدقيقتين .

وظن العلماء أو افترضوا أنه بمقارنة جو الكرة الارضية بجو كوكب الزهرة فان الاخير لابد أن يكون من النيتروجين وأن ثانى أكسيد الكربون فيه قدر من ١ الى ١٠ فى المائة . ولكن الحقيقة العلمية بعد اجراء التحاليل الدقيقة كشفت عن أن ٩٠ ٪ من جو الزهرة عبارة عن ثانى أكسيد الكربون . وأن افتراضات درجات الحرارة والضغط قبل ارسال هذه المركبات الفضائية قدرت بعدد قليل الى مئات الدرجات المئوية ، ومن جو واحد الى مائة جو على سطح الكوكب . ولكن مركبة « الزهرة رقم ٤ » أوضحت أن درجة الحرارة تقترب من ٢٧٠ درجة مئوية وأن للكوكب ١٨ جوا .

أما مركبة الفضاء الامريكية « مارينر ٥ » التى مرت بكوكب الزهرة على مسافة ٢٤٨ ميلا بيوم واحد بعد اتمام رحلة « مركبة الزهرة ٤ » فقد أجرت دراسة مختلفة للكوكب ، وأمدت النتائج التى حصل عليها الامريكيون بالاضافة الى المعلومات التى حصلت عليها

« مركبة الزهرة رقم ٤ » فيما يختص بالغازات ، أمدت العلماء بمفهوم أوضح للجو العلوى لـكوكب الزهرة ، وهو ما لم تدرسه مركبة الفضـاء السوفييتية اثنـاء هبوطها على سطح الـكوكب . ومع ذلك فقد ظلت أسئلة عديدة لم يستطع العلماء أن يجيبوا عليهـا لان المركبة السوفييتية « الزهرة ٤ » كانت قد توقفت عن العمل تماما قبل أن تصل الى هدفها . واعتقـد العلماء أن درجة حرارة السطح والضـغط الجوى كانا اعلى من التقديرات التى كشفت عنهما مركبة الزهرة ٤ . وظن العلماء أن الضغط الجوى المرتفع للـكوكب وكذلك كثافة البيئة الغازية له قد أضرا بالمحطة الاوتوماتيكية وبما فيها من أجهزة الـكترونية دقيقة ..

وفى يوم ٥ يناير عام ١٩٦٩ أطلقت «مركبة الزهرة رقم ٥ » وبعدها بستة أيام أطلقت مركبـة الزهرة رقم ٦ أيضا . وكانت هاتان المركبتان أكثر تعقيدا وفاعلية عن « مركبة الزهرة رقم ٤ » ، واكثر دقة عند قياسهما لتركيز الغازات فى جو الزهرة . فقد أوضحت المركبتان أن نسبة ثانى أكسيد الـكربون يتراوح من ٩٣٪ الى ٩٧ ٪ والنتروجين من ٢ ٪ الى ٥ فى المائة والاوكسجين أقل من ٤ر٠ فى المائة وبخـــار المـاء من ٤ الى ١١ ملليجراما لـكل لتر واحد .. وتراوحت درجات حرارة الـكوكب من ٢٥٠ درجـة مئوية الى ٣٢٠ درجـة مئوية والضغط الجوى من ٥ و ٠ الى ٢٧

وبعد أربعة شهور ونصف شهر وصلت المركبتان الى كوكب الزهرة وكان مقدرا أن يدخلا جو الـكوكب خلال يوم واحد أى أن تدخل مركبة « فينس ٥ » جو الكوكب فى الساعة السادسة صباحا ودقيقة واحدة فى يوم ١٦ مايو عام ١٩٦٩ « وفينس ٦ » فى الساعة السادسـة

صباحا وخمس دقائق فى يوم ١٧ مايو عام ١٩٦٩ .

وعند بدء هبوط المركبتين كانت سرعة كل منهما تزيد عن ٦٫٨ ميلا فى الثانية . وخلال وقت قصير هبطت السرعة الى ٦٨٩ قدما فى الثانية ، وبعد أن حددت الاجهزة الاوتوماتيكية التى تنطلق فيها براشوتات الهبوط ، استطاع الهوائى اللاسلكى أن يحدد كذلك مسافة بعد المركبة عن سطح الكوكب فى مدى يتراوح بين ٣١ و ٢٫٦ ميلا . ففتح الباراشوت وفى الحال بدأت عمليات القياس ، ونقلت الى علماء الارض بالإرسال اللاسلكى السريع .

وظلت « فينس ٥ » تنقل المعلومات لمدة ٥٣ دقيقة و « فينس ٦ » لمدة ٥١ دقيقة . وطبقا للمعلومات التى حصل عليها العلماء من « فينس ٥ » اتضح أن الضغط الجوى ٢٧ على ارتفاع ١٥٫٥ ميلا فى حين أن « فينس ٦ » سجلت نفس الضغط على ارتفاع ٦٫٨ ميلا وكان هذا الفرق فى قراءات الارتفاع يرجع الى طبيعة وعورة جو هذا الكوكب الغريب .

وهبطت المركبتان بالقرب من بعضهما البعض كما كان مقررا على الجانب الليلى للكوكب حيث توجد جبال عالية عليه .

واختلاف درجات الحرارة والضغط الجوى بالنسبة الى الارتفاعات التى سجلتها كل من المركبتين جعل العلماء يقدرون مستويات السطح . فالارقام التى حصل عليها العلماء من « فينس ٥ » اكدت ان الحرارة ٥٣٠ درجة مئوية والضغط الجوى ١٤٠ ومن « فينس ٦ » اتضح ان الحرارة ٤٠٠ درجة مئوية والضغط الجوى ٦٠ .

ولايزال العلماء يفحصون سيل المعلومات التى حصلوا عليها بعد هذه الرحلات الجريئة لمركبات الفضاء

الاوتوماتيكية التى غزت جو كوكب الزهرة . وقد يجرى تعديل على بعض الارقام التى ذكرت او أذيعت ، ولكن أصبح من المؤكد بصفة قاطعة أن الحيـــاة ضرب من المستحيل على كوكب درجة حرارته قاتلة .

ويقول العالم الدكتور جوزيف تشكلوفسكى فى كتابه « الكون والحياة والعقل » : لايمكن أن تعيش مركبات البروتين فى مثل هذه الظروف . وأخيرا وفى غيـــاب محيطات مائية حتى وفى التكوين البدائى لكوكب الزهرة فان ذلك كان عقبة كؤود وقفت فى سبيل تكوين الحياة البدائية عليه فلم تتحقق على الاطلاق .

وفى نفس الكتاب وفى الفصل الخاص باحتمال وجود الحياة فى بعض كواكب المجموعة الشمسية يقول المؤلف:

برغم الظروف الصارمة الموجودة على سـطح كوكب المريخ فان هناك أكثر من احتمـــال لوجود بعض أنواع الحياة عليه اكثر من احتمال وجودها فى جو حار ساخن أو ملتهب مثـل جو الزهرة . أما الكواكب الكبيرة الاخرى مثل كوكب المشترى فقد تثبت لنـا أنها أكثر صلاحية لوجود الحياة عليها عن كوكب الزهرة .

وقد استطاعت مركبات الفضاء السوفييتية والامريكية التى أطلقت خلال الاعوام القليلة الماضية أن تكشف عن حقيقة هـذا الكوكب الذى أطلق عليه العلماء « نجم الصبـــاح اللامع » منذ قرون عديدة ولكن لم يخطر ببالهم أن الحرارة تلفحه بصفة دائمة ، وتجعل الحيـاة على سطحه من المستحيلات . وبتبـادل المعلومات بين هيئات الفضاء السوفييتية والامريكية أمكن تعديل العديد من النظريات الفلكية عن هذا الكوكب الذى سمى باسم الهة الحب عند الاغريق .

وأخيرا وبعد هذه الرحلات الناجحة اتجهت أنظـار

العلماء الى ارسال مركبات فضاء معقدة الى الكواكب الاخرى البعيدة كالمريخ وعطارد وزحل والمشترى لكشف النقاب عن أسرارها ، والتحقق من أجوائها للتعرف على مدى ما فيها من معالم الحياة . فقد ضاق سكان الارض بكوكبهم ، واتجهت أنظارهم أيضا الى الكواكب الاخرى البعيدة أو القريبة على السواء .

اسرار الكوكب الاحمر

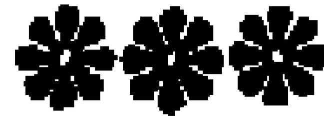
العلماء السوفييت يعتقدون اعتقادا جازما بأن الكواكب الاخرى بها سكان على درجات كبيرة من الذكاء والحضارة .. ولعل الذى ألهب حماس هؤلاء العلماء هو الفيلسوف الايطالى جوردانو برونو ، الذى تحدى اللاهوتيين واعتقد أن لكل انسان وجهة نظر فى العالم خاصة به . وان الحق المطلق فوق ادراك الانسان ، وان العالم مؤلف من عناصر أولية لايرتد بعضها الى بعض .. بل تعمل وفق قوانين يحكمها مبدأ كونى شامل ، فاتهم بالزندقة واحرق فى البندقية عام ١٦٠٠ ميلادية .

ويعتقد آخرون أنه لايوجد انسان الا على الكرة الارضية ، وبها أرقى أنواع الحياة العضوية وان الكواكب الاخرى لا أثر فيها للحياة .

وهذا الاتجاه فى التفكير يتجاهل الحقائق التى تشير الى احتمال وجود حياة نشطة فى كوكب قريب من الكرة الارضية .

ولن يضير العلماء شيء أن يقفوا على أسرار الكواكب القريبة أو البعيدة ليتأكدوا بأنفسهم ، وبذلك يضعون حدا للجدل القائم بينهم . وفى هذا يقول الاكاديمى السوفييتى بارباشيف من أوكرانيا : ليس هناك مايدعونا الى رفض احتمال وجود بشر فى أى كوكب من الكواكب،

وعلى الاخص فى كوكب المريخ المشهور بنباتاته وكسائه الاخضر الجميل .. كما اقترح مؤسس علم بيولوجيا الفضاء ، العالم تيخوف عدة طرق لاثبات وجود مزارع على سطح المريخ ، وافقه عليها العالم الامريكى فستو ملفين سليفر ، وأقر بأن المريخ به كائنات على درجة عالية من الذكاء .



يقول العالم فيلكس زيجل : ان الحياة تكونت فى المريخ من الخلية الاولى ، وتدرجت حتى ظهرت المخلوقات الذكية . وأن هناك الكثير من الدلائل على سطحه . فالحياة لها خصائص ممتازة تنفرد بها . فبمجرد أن تظهر ، تبدأ فى الدفاع عن نفسها ، وفى هذا الكفاح الذى قد يستمر لعدة ملايين من السنين ، فان نظامها أو تركيبها يتحسن تدريجيا ، بحيث تصبح غير متعارضة مع المؤثرات الخارجية . وفى غياب الكوارث الكونية كسقوط الشهب والنيازك مثلا ، فان هذا الانتصار المبهج للحياة يؤدى الى ظهور هيئاتها الممتازة من المخلوقات المفكرة الذكية .

وعلى ذلك ، فهناك حياة عضوية على سطح المريخ . وقد أثبت ذلك العالم شيخوخة بتسجيله الصفات الخاصة ببحار المريخ ، والتى تشبه الى حد كبير صفات النباتات الارضية على كوكبنا ، تحت ظروف جوية قاسية . وفى عام ١٩٥٨ وجد عالم الفلك الامريكى سينتون ، أن طيف النور لبحار المريخ بها مناطق امتصاص مطابقة تماما للذرات أو الجزيئات العضوية .

لنفرض جدلا أن بالمريخ مخلوقات بشرية ذكية يحاولون حل مشكلة الجو المعقد الموجود فى الكرة الارضية ، ولنفرض أن لديهم تلسكوبات غاية فى القوة

فمع ذلك فانهم لن يستطيعوا أن يرونا من كوكبهم ، لأن أجسامنا صغيرة أو ضئيلة .. ولكنهم قد يعرفون مثلا بوجود مخلوقات ذكية على الارض ، وذلك بطريقة غير مباشرة عن طريق وجود الظواهر الصناعية وبعض الحقائق العلمية الاخرى .. فاذا راوا بقعة خضراء فى صحراء برتقالية اللون ، فسوف يسجلون ظهور منطقة جديدة من الغابات على أرضنا . أو اذا رأوا صفحة من الماء قالوا أن بحيرة كبيرة قد انشأها أهل الارض .. حتي الاقمار الصناعية التي أطلقها الانسان الى الفراغ فى السنوات الخمس عشرة السابقة لايمكن لسكان المريخ أن يروها ، وذلك لضآلتها . بل قد يحتاج الامر الى تلسكوبات حساسة خيالية .. واذا أضفنا الى ذلك عامل الكثافة وجونا الملبد بالغيوم التى تحيط بالارض ، وحقيقة أن كوكبنا كالزهرة ، كثيرا ما يختفى فى أشعة الشمس ، فلا شك أن هناك أكثر من صراع بين علماء المريخ عن حقيقة وجود الحياة على الارض .

ويرى العلماء على سطح المريخ شبكات معقدة من القنوات الغامضة ، وقد التقطوا لها عشرات الالوف من الصور الفوتوغرافية فى هيئاتها المتغيرة الغريبة .. ففى المريخ عدد كبير من المناطق النباتية تمتد فى أقواس لدوائر ضخمة . وعن طريق التلسكوبات العظيمة ، أمكن التمييز بين الواحات المتفرقة المنفصلة بعضها عن بعض .

وشبكات القنوات هذه متصلة ولا تنتهى منها قناة بطريقة غامضة ، بل كلها مرتبطة ببعضها البعض ببحر أو بقناة اخرى . ويتراوح عرض كل منها من ٢٠٠ الى ٣٠٠ كيلومتر . وهذه القنوات متصلة بالقمم الثلجية عند القطبين ، وكأنها هى مصدرها . وكان عالم الفلك الايطالى جيوفانى كيابارللى هو الذى اكتشفها

فى عام ١٨٧٧ ، وقال عنها أنهــا عبارة عن نظـــام رى ممتــــاز ، وأكد هـــــذه النظرية من بعده عالم الفلك الامريكى برسيفال لوول .

ان كلمة قناة يستعملها العلماء مجازا .. والحقيقة ان مايرى على وجه المريخ ليس قنوات مائية صناعية بل نبـــاتات تنتشر حول شرايين المياه المختفية . وقد تكون هذه الشرايين أنابيب تنقل الماء المذاب من القمم الثلجيـــة الى جميع أجزاء الدنيا فى هـــذا الكوكب الاحمر . وفى الربيع عندما تذوب قمة الثلوج القطبية تنتشر النباتات على طول هـــذه القنوات فى نصف الكرة لذلك القطب . وتجرى موجة المياه الداكنة نحو خط الاستواء بسرعة أربعة كيلومترات فى الساعة ، وقد تكون هى نفسها سرعة المياه الجوفية فى المريخ أيضا ..

ومن المعروف أن الربيع فى الكرة الارضية ينتشر من الجنوب الى الشمال ولكن العكس يحدث فى المريخ ، فالربيع يتحرك من القطبين الى خط الاستواء وهـذه حركة غير طبيعية ، بل صناعية . فليس فى المريخ من الاسباب الطبيعية التى تجعل الماء يتحرك من القطبين الى خط الاســـتواء . ولا يمكن عزو ذلك الى الرياح المشـــبعة بالرطوبة ، لان الجو فى المريخ جاف لدرجة كبيرة . ولعل الاغرب ان الموجة الداكنة لا تتوقف عند خط الاستواء ، بل تعبره وتتحرك الى مسافة بعيدة متوغلة فى داخل نصف الكرة الآخر .. فاذا كانت الرطوبة قد حركتها قوى طبيعية ، فلا بد أن تغير اتجاهها بعد عبور خط الاستواء .. ولكن هـــذا لا يحدث ، وعليه فمن المؤكد ان شرايين المياه المختفية قد ضخت المياه الواهبة للحياة فوق سطح المريخ كله .

ان المناطق الاستوائية فى المريخ قاحلة جافة جرداء

ولكن عندما يأتى الربيع ، يرى العلماء ان كل قنـــاة تنقسم الى قناتين وهى ظاهرة غريبة محيرة .. فبدلا من قناة واحـــدة تجرى قناتان متوازيتـــان كقضـــبان السكك الحديدية . ومعنى هذا وجود قنوات مضـاعفة فى المناطق الاستوائية. ولا تعبر هذه القنوات الصحارى المريخية ، بل بحاره أيضا ، وهى عبارة عن مســـاحات شاسعة من النبـــاتات الخضراء .. وربما كانت هــذه المساحات الشاســـعة قيعانا للبحار الحقيقية فى الازمان السحيقة من عمر هـــــذاالــكوكب الفريد ، ولــكنها أصبحت الان جافة تماما . وهذا يؤكد مرة أخرى أن شبكة القنوات قد أنشئت عنـــدما جفت هــذه البحار وحدث نقص شديد فى مورد المياه .

أما ظــاهرة الواحات ، فتوحى بوجود تجمعات من المخلوقات فى نقط داكنة ربما كانت قرى ومدنا .. ومعنى هذا كله أن مخلوقات هــذا الــكوكب استطاعت أن تقهر الطبيعة وتنتصر عليهـــا .. ولــكن عالم الفلك الامريكى ماكلافلن يقول أن قنوات المريخ عبارة عن أرصـــفة من الغبار البركانى . وقوله هــذا غير صـــحيح لان هــذه القنوات تجرى بطريقة مخالفة للطبيعة العضوية. وعليه فان قنوات المريخ هى بلا شك من صنع مخلوقات غاية فى الذكاء .

المريخيون يطلقون قمرين صناعيين

المريخ من الكواكب الغامضة القريبة من الكرة الارضية ، وهو نجم أحمر لامع أطلق عليه القدماء اسم المريخ نسبة الى اله الحرب « مارس » وهو ليس جبار الارض فحسب بل هو شبيهها أو صورة منها . يدور على محوره مرة كل ٢٤ ساعة و ٣٧ دقيقة ولياليه وايامه فى طول ليالى وأيام الارض . ويميل محوره على مستوى المدار مثل الارض . وعليه فان تغييرات الفصول فيه تتبع نفس النظام كما هو الحال فى الكوكب الارضى .

وللمريخ جو لكنه خفيف عن جو الارض وكثيرا ما تنجرف السحب عبر وجه الكوكب وأحيانا تغطى الثلوج البيضاء مساحات شاسعة منه . ويرى الضباب فى النهار . ولكن التكوين الكيميائى لجو المريخ لايشبه هواء الارض لانه يحتوى على كميات ضئيلة من الماء والاوكسجين .

وتغطى القطبان قمم بيضاء من الثلوج والجمد تذوب وتنكمش فى الربيع وتتمدد فى الخريف . وقد يرى علماء الفلك المريخيين الذين يرقبون الكرة الارضية من مراصدهم نفس الصورة لقطبى الارض .

والفرق بين المريخ والارض كبير وملحوظ ، فالمريخ لا محيطات أو بحار أو بحيرات به على الاطلاق وليس

به جبال أو تلال . فسطحه ناعم املس . وجوه خشن جاف لانه قريب من الشمس عن الارض .

وأميز ما فى المريخ قنواته التى أثارت أكثر من جدل بين علماء العالم . وقد اكتشف هذه القنوات لاول مرة عام ١٨٥٩ العالم الايطالى « انجلو سيشى » وهى ظاهرة لا وجود لها على كوكبنا الارضى . واكد هـذه الظاهرة فيما بعد العالم الايطالى الاشهر «جيوفانى كيابارللى» . ففى عام ١٨٩٣ نشر بحثا ذكر فيه أن هـذه القنوات صناعية ومن هذا التاريخ والنقاش يحتدم بين العلمـاء عن طبيعة هذه القنوات .. من الذى صنعها وما الذى تمثله ؟..

ويذكر العالمان ميخائيل فاسيليف وسرجى جوشيف أن العالم السوفييتى تيخوف هو أول من صور قنوات المريخ واثبت أن العمـل الهنـدسى الرائع الذى يغطى سطحه مصنوع من شرائط نباتية وأن المناطق الداكنة والتى يطلق عليها مجازا مناطق البحار عبارة عن مساحات شاسعة تغطيها النباتات .

وعلى ذلك فان نوعا من الحياة يوجد فى المريخ. ولكن الى أى درجة من الحضارة بلغت هذه الحياة ؟.. وهل توقفت عند مستوى النباتات الدنيئـة التى تتمثل فى نباتات أو حشـــائش البحر والفطريات أم أن النحل والفراشات تتنقل بحرية تامة بين براعم زهور المريخ ؟ وهل تجوب الحيوانات الراقية غابات « بحار» الـكوكب الاحمر الفريد .. وهل كان « كيابارللى » مصيبا عندما أعلن أن بالمريخ مخلوقات ذكية ؟..

وتبرز عدة أسئلة لابد من اثارتها :

أول سؤال : هل المريخ عالم أصبح فى حكم الفنـاء

وأن عصره الذهبى قد انقضى وفات أو أنه متخلف فى تطوره عن الـكرة الارضية ؟

وثانى سؤال : هل برزت فى الكون حضارتان تسيران جنبا الى جنب فى النظام الشمسى ؟

وثالث سؤال : هل يمكن الاجابة على هذين السؤالين عن طريق علم الفلك الحديث ؟

ورابع سؤال : هل يســـــتطيع العلماء قهر متاهات الفراغ الخارجى بالتحليل المنطقى المنظم ، وأخيرا بالوصول الى الكوكب ذاته والهبوط على سطحه بالوسائل العلمية الحديثة ، لكشف الامر كشفا يضع حدا لصراع النظريات المتضاربة حول هذا الكوكب الغريب ؟

ان الرد على هـــذه الاسئلة الاربعة يتبلور فى البحث عن حقيقـة قمرى المريخ ودراسـة نظرية البروفسور ايوسيف تشـــكلوفسكى أستاذ الطبيعة والرياضـيات السوفييتى المعروف . فأبحاثه الخاصة عن قمرى المريخ والنتائج العلمية المذهلة التى توصل اليها أثارت أكثر من جدل فى الدوائر العلميـة فى العـالم بعد اذاعتها مباشرة وشغلت أذهان العلمــاء الى يومنا هـــذا ...

القمران فوبوس وديموس

أول شىء ذكره العالم تشكلوفسكى أن القمر فوبوس معنـــاه (الخوف) والقمر ديموس معناه (الرعب) اكتشفهمـــا العالم الفلكى الامريكى هول فى عام ١٨٧٧ وفوبوس هو القمر الداخلى للمريخ يدور فى مدار يكاد يكون دائريا نصـف قطره ٩٤٧٦ر٩ كيلومترا ويبعد عن السطح بقدر ٦٠٠٠ كيلومترا . ويدور حول المريخ مرة كل سبع ساعات و ٣٩ دقيقة . ويوم المريخ كما ذكرنا

٢٤ ساعة و ٣٧ دقيقة وعليه فان فوبوس هو القمـر الوحيـد فى النظـام الشمسى كله الذى تقل فيه مدته المدارية عن المدة المحورية للـكوكب الذى يدور حوله . ويتحرك ديموس أيضا فى مدار دائرى تقريبـا بنصف قطر قدره ٢٣٫٥٠٠ كيلومترا ويتم دورة واحدة فى ٣٠ ساعة و ١٨ دقيقة . ويدور القمران فى مستوى خط الاستواء .

وهذان القمران الصغيران أو الدقيقان من الاجسام التى يصعب رؤيتها بالتلسكوب وهـــذا هو سبب اكتشافهما أخيرا. وتحت الظروف المواتية يبدو القمران كنقطتين من الضوء أو كأضعف النجوم التى تبدو للعين المجردة فى ليلة صافية . ولولا قربهمـا لـكوكب المريخ الذى يدوران حوله لمـا أمكن ملاحظتهما فى التلسكوبات ذات القوى المتوسطة .

ويبدو القمر فوبوس من المريخ وكأنه يبزغ من الغرب ويغرب من الشرق .. ويتحـرك بسرعة عكس دوران السماء المزدحمة بالنجوم . ويبدو قطره ثلث قطر القمر الذى يدور حول كوكبنا الارضى ولمعانه أقل من قمرنا بخمس وعشرين مرة ، أما ديموس فيبدو لرجل المريخ كنجم لامع يتحرك ببطء عبر السماء .

ومما يؤسف له أن أجهزتنا البصرية التى نستخدمها فى مراقبة الاقمار والنجوم والكواكب ضعيفة غير قوية، يصعب قياس أقطار الاقمار بها ، لذلك تقدر أحجامها من درجة لمعانها . وعليه فقد قدر قطر فوبوس بستة عشر كيلومترا وثمانى كيلومترات لديموس وانهما يعكســان ضوءا أبيض بدلا من الضوء الاحمر الذى يعكسه كوكب المريخ ذاته

والغريب أن كتلة القمرين غير معروفة للعلماء رغم تقدم العلوم فى عصرنا هذا . ولنفرض أن كثافتهما تشبه كثافة الصخور العادية فان كتلة فوبوس تبلغ الف جزء على مليون جزء من كوكب « المريخ » وكتلة ديموس تبلغ جزء على عشرة أجزاء من فوبوس ..

هذا هو كل ما يعرفه العلماء عن أقمار جارنا «المريخ» وهما يعدان فلتة من فلتات الطبيعة بالنسبة الى أقمار الكواكب الاخرى المعروفة فى النظام الشمسى ، كما أنهما صغيران بالنسبة للاقمار الاخرى ما عدا الاقمار الصناعية التى أطلقها انسان الكوكب الارضى خلال السنوات الماضية . والمعروف أيضا انهما غير قريبين لكوكبهما وأن الزمن المدارى لفوبوس أقل من الزمن المدارى للمريخ وهى ظاهرة فريدة فى نوعها .

لقد وضعت نظريات علمية وكونية لشرح أصل كوكب المريخ وأقماره ولكنها غير مقنعة على الاطلاق. فاذا كان القمران عبارة عن نجمين أسرهما الكوكب فما كان لهما أن يكون مدارهما دائريا تقريبا وفى مستوى خط الاستواء .

وللقمر فوبوس ظاهرة أخرى غريبة ففى عام ١٩٤٥ قام العالم الامريكى « ستيوارت شاربلس » برصد قمرى المريخ وقارن نتائج بحثه ببحث مماثل للعالم الروسى الفلكى « ستروف » فى بداية هذا القرن . فقد قاس « ستروف » الاضلاع القائمة المدارية لفوبوس وديموس . وعن طريق هذه القياسات أمكن حساب موضع القمرين فى اى وقت كان فى المستقبل طبقا لقوانين الرياضة الفلكية .

ولدهشة « شاربلس » وجد أن فوبوس تحرك الى

الامام ومن مركزه المعروف منذ وقت « ستروف » بقدر درجتين ونصف درجة وكانت هذه صدمة بل فضيحة لعلم ميكانيكا الفلك ..

فضيحة ميكانيكا الفلك

بما أن فوبوس يتحرك بسرعة فانه لا بد قد اقترب من كوكب المريخ وهـذا ما يحدث مع اقمـار الارض الصناعية . فالسحب الجوى يؤخر او يخفف من سرعتها فتهبط الى مدار منخفض حيث تتحرك فيه بسرعة . ولـكن التغيير فى حركة القمر فوبوس عظيم بدرجة أن العلماء حاليا يشاهدون احتضار جسم سماوى يجرى بطريقة بطيئة وفى مدى خمسة عشر مليون سنة سوف يسقط فوبوس على كوكب المريخ . وهذا زمن قصير فى الميزان الفلـكى ..

ولـكن كيف يمكن تفسير سرعة دوران القمر فوبوس؟

يقول العالمان ميخائيل فاسيليف وسرجى جوشيف فى أحدث بحث لهما عن اقمار المريخ الصناعية « لقد كان ذلك موضوع بحث قام به العلماء فى مختلف بلاد العالم واصـــــدروا فى ذلك عددا من البحوث الهامة المطبوعة . وربما كان هناك سببان رئيسيان للرد على هذا السؤال :

أولهما : المقـاومة التى يلقاها القمر أو القوة التى تؤخر الاقمار الصناعية الارضية ، ولكن الحسابات التى يجريها علمـــــاء الفلك الامريكيين وعلى رأسهم العالم « فريد هويبل » لاتؤيد هذه النظرية على الاطلاق . فاذا كان هـذا القمر من مادة الـكواكب أو الاجســام الكونية ، وفى هـذه الحالة لابد أن يكون أكثف حول المريخ عنه حول الارض ، فلابد أنه يؤخر أيضا من سرعة

القمر البعيد ديموس . وسبب ذلك جو المريخ ذاته الذى يبلغ هذه الكثافة عند ارتفاع ٧٥٠ كيلومترا . ولكن بالرغم من الجاذبية الخفيفة للمريخ فان جوه لايمكن أن يكون بهذه الكثافة عند ارتفاع ٦٠٠٠ كيلومتر من السطح . ويقدر البروفسور تشيكلوفسكى بأن جو المريخ فى هذه الحالة قد تخفف أو تبدد على مرور عشرات ملايين السنين .

وثانيهما : وجود قوى المد والجزر ، فمن حيث أن المريخ ليس به مياه أو بحار على سطحه فان قوى المد والجزر موجودة فى قشرته الصلبة الجامدة . وقد ذكر « السير هارولد جيفريز عالم الفلك البريطانى المشهور ، والخبير فى شئون المد والجزر » أن قوى المد والجزر فى قشرة أرض المريخ الصلبة بنسبة جزء على عشرة آلاف جزء من سرعة القمر فوبوس ، وأن مرونة ولزوجة القشرة تشبه مرونة ولزوجة القشرة الارضية . ولكن مرونة ولزوجة وتكوين كوكب المريخ قد تختلف عنها فى الكوكب الارضى ، وبما أن حسابات العالم البريطانى « جيفريز » مبنية على افتراضات غير موثوق فيها فانها تبدو غير مقنعة من الناحية العلمية .

ويقول العالم تشيكلوفسكى « اذا افترضنا أن احتكاك المد والجزر يسببان تغيرا فى حركة فوبوس فيجب علينا أن نقبل الرأى القائل بأن القمر لايزيد عمره عن خمسمائة مليون سنة . وهذا هو الوقت الذى يستغرقه القمر للهبوط من مداره البعيد القصى الى مركزه الحالى . واذا كان مداره الاصلى أو الاولى بعيدا عن مكانه الحالى فان احتكاك المد والجزر لايمكن أن يكون قد سحب فوبوس بالقرب من المريخ ، وعلى العكس فان المد والجزر قد يجعل فوبوس يتراجع الى الوراء كما

تفعل قوى المد والجزر الارضية فتسبب تراجع القمر عن الارض . وهذا المدار المحدود بالنسبة للمريخ لايزيد عن ٢٠,٠٠٠ كيلومتر ، وبما أن القمر ديموس بعيد فان قوى المد والجزر لن تقربه من المريخ مطلقا ..

ان حياة القمر فوبوس الذى قدره العلماء بخمسمائة مليون سنة تعد حياة قصيرة بالمقارنة الى عمر المريخ الذى يقدر بخمسة الاف مليون سنة . وأن الظروف على الكوكب منذ خمسمائة مليون سنة مضت لاتختلف كثيرا عما هى عليه اليوم . وان الاجراء المعقد كخلق أو تكوين أقمار ذات مدارات تكاد تكون دائرية ، لابد أنه حدث فى عصور بعيدة عندما كان المريخ يتركز أو يتكاثف من السحابة الكونية الاصلية ، أو بعد ذلك بقليل عندما ولد الكوكب واختلفت فيه الظروف عما هى عليه اليوم . وخلاصة القول فان قوى المد والجزر لم يكن لها أدنى شأن بالنسبة للتغيير الملحوظ فى حركة فوبوس ..

لقد كانت هذه هى المشاكل التى نوقشت فى بحوث العلماء والخاصة بشذوذ حركة قمر المريخ فوبوس .

أما العالم السوفييتى تشيكلوفسكى فله آراء أخرى مختلفة منها :

أولا : هناك احتمال أن المريخ محاط بمجال مغناطيسي قوى . ومهما كانت محتويات القمر فوبوس أو المادة المصنوع منها فان مركباته جيدة التوصيل بالكهرباء بدرجة معينة . وربما كان للقمر مصدره الكهربى الخاص به . وفى كلتا الحالتين فان المجال المغناطيسى يؤثر على حركته . ومع ذلك فان حسابات العالم تشيكلوفسكى لا تتفق مع هذا الاحتمال .

ثانيا : ربما تأثرت حركة فوبوس بقوة جاذبية القمر

ديموس والشمس والكواكب الاخرى طبقا لقوانين ميكانيكا الفلك . ولكن اى قوة من هذه القوى لابد أن تكون قد أثرت على القمر ديموس بطريقة أكثر من فوبوس .

ويختم البروفسور تشيكلوفسكى بحثه بقوله : لا نستطيع أن نجد تفسيرا طبيعيا لاصل قمرى المريخ أو لحركة فوبوس الغريبة النادرة ، وبعد التحليل ومواصلة البحث استخلص العالم تشيكلوفسكى نظرية جديدة خلاصتها أن السحب المبذول على القمر فوبوس بواسطة الجو العلوى المصفى بسبب سرعة حركته . وعليه يمكن القول بأن للقمر كتلة صغيرة وأن كثافته لا تتعدى جزء على الف جزء من كثافة الماء . ولكن ليس لاى جسم صلب متجانس كثافة أقل من كثافة الهواء . وبالطبع قد يكون فوبوس مصنوعا من ذرات الغبار الدقيقة ولكن مثل هذه السحابة قد تنتشر على طول المسار وتتحول الى شيء يشبه أطواق الكوكب زحل . وهذا يدعونا الى الاعتقاد بأن القمر فوبوس أجوف خال كعلبة مصنوعة من الصفيح نزعت منها محتوياتها !

الاقمار الجوفاء

من المستحيل أن يكون جسم سماوى أجوف أو فارغ ، وعليه لابد أن يكون القمر فوبوس صناعيا أو بمعنى آخر عبارة عن قمر صناعى لكوكب المريخ ..

كما أن خصائص القمر ديموس تجعل العلماء يعتقدون أيضا أنه هو الآخر قمر صناعى للمريخ وأن تكوينهما معقد .. وان كتلتهما تزيد عن مئات الملايين من الاطنان. وبناء هذه الاقمار من الناحية الهندسية البحتة ليس من الامور المستحيلة على مخلوقات بلغت شأنا بعيدا فى

الذكاء والحضارة . وفى غياب العوائق التى تفرضها الجاذبية فانها تقلل تحديد أحجام الاشياء الكونية المصنوعة . وربما تطلق حول الارض فى الاجيال القادمة أقمار صناعية ضخمة . وأن الحلول التكنولوجية لانشاء أو بناء مثل هذه الاقمار العظيمة قد تكون من الضروريات وأن الحاجة اليها قد تكون ماسة فى يوم من أيام المستقبل البعيد . .

فالناس قد يحتاجون الى معامل كونية ومراقب ومراصد بعيدة تدور حول الارض ، وكذلك قد يحتاجون الى محطات فضائية لمركبات الفضاء التى ترحل الى مسافات بعيدة فى الكون . وعليه سوف يحتاج العلماء ورجال الفضاء الى جزر كونية ضخمة قطرها عدة كيلومترات لكى تحمل أجهزتهم ومركباتهم الفضائية الضخمة ومعاملهم العظيمة . وأن مثل هذا القمر أو الجزيرة الكونية لابد ان تزن عدة ملايين من الاطنان ومثل هذا الامر لن يكون شاقا أو مبالغا فيه . . والدليل على ذلك ان هرم خوفو الاكبر يزن عشرة ملايين طن وقد بنى فى جبل واحد ولم يستخدموا فى بنائه غير أيديهم وبعض الروافع البسيطة وبعض العدد الخشبية والبرونزية يعتمدون عليها فى تشييد الاثر الخالد العظيم فهل يشك انسان انه يمكن فى يوم من الايام القيام بمثل هذا العمل المعجز فى الفراغ ؟

ان ذلك قد يحدث خلال القرن القادم أو فى نهاية القرن العشرين .

من أطلق قمرى المريخ ؟

عندما يحين الوقت فان بناء مثل هذه الاقمار الصناعية سوف يتم على مسافات بعيدة ، وأن سحب

الجو الخفيف وقوى المد والجزر سوف تكون طفيفة وتظل هـــذه المحطات الفضائية لمئات الملايين من السنين ، وسوف تحتوى على آثار خالدة أكثر من الاهرامات ، التى تتعرض لعوامل التعرية والرياح والامطار والحرارة والبرد ، شأنها فى ذلك شأن قمرى المريخ اللذين أطلقهما للفضاء اناس على جانب كبير من الحضارة ..

ان جو المريخ اليوم يشبه ، بالمقارنة الى جو الارض ، الجوفى هضبة ترتفع عن سطح البحر بقدر ثمانى عشر كيلومترا . فجوه لا يحتوى على أوكسجين ولا يحتمل وجود حياة عضوية عليه . وربما انحصرت الحياة فى وجود نباتات وحشائش البحر والطفيليات وبعض النباتات الدنيئة . ولكن منذ ألفين أو ثلاثة الاف مليون سنة مضت كانت ظروف الكوكب مختلفة تماما. وكثير من علماء الفلك يعتقدون بأن جو المريخ كان يحتوى على الاوكسجين ، وأن أمواج البحار والمحيطات كانت تعمل عملها فوق سطح الكوكب الواسع. وأن مخلوقات ذكية ممتازة ظهرت هناك وحققت ثقافات عظيمة ، ومن الصعب التكهن بما حدث لحضارتها فى طور من أطوار تقدمها وحياتها وأن هذه المخلوقات اضطرت كارهة الى الهروب من المريخ الى كوكب آخر. وبما أن جاذبية الكوكب أقل من جاذبية الارض فمما لاشك فيه أن الطيران أو الهروب من المريخ بمركبات فضاء يصبح من الامور السهلة. وأن قمرى المريخ هما الشيئان الباقيان من هذه الحضارة التى اندثرت وانطمست .. ؟

فلنذهب لنرى ..

اذا ذهب الانسان وهبط على سطح كوكب المريخ فانه سوف يضع حدا للجدل المحتدم بين العلماء حول طبيعة

هذين القمرين . ولكن الهبوط الانسانى على المريخ لن يتم فى هذا القرن . وفى عام ١٩٧٦ سوف تهبط عليه مركبة فضاء خاصة لتحليل تربته وجوه .

ويجب على العلماء أن يستمروا فى مراقبتهم للمريخ من المراصد الارضية والاستمرار فى قياس درجات لمعان القمرين بدقة تامة .

والمعروف أن النجيمات التى يبلغ حجمها أضعاف حجمى قمرى المريخ بعشرات المرات عبارة عن قطع من الصخور تشق طريقها فى الفراغ ، وعندما تدور حول مراكز جاذبيتها فان درجة لمعانها تتغير . فاذا أثبت قمرا المريخ أن لمعانهما ثابت فمعنى هذا أنهما مستديران . وهذا يثبت بالتالى أنهما صناعيان . ولكن اذا اختلفت درجات لمعانهما فان ذلك يثبت أنهما يدوران بسرعة على محورهما وهذا يدل دلالة قاطعة على انهما صناعيان أيضا .

والدوران السريع ليس من صفات الاجسام السماوية ، ولكن الاقمار الصناعية المسكونة التى تصنع لتدور بسرعة وذلك لانتاج جاذبية صناعية . وكان هذا هو السبب من انشائهما فى الزمن السحيق لتكوين جاذبية صناعية ..

ويأمل العلماء وعلى رأسهم البروفسور تشيكلوفسكى أن يأتى اليوم الذى تحل فيه هذه المشاكل العويصة ويهتدون الى نظرية صحيحة عن سر هذين القمرين الصناعيين الغريبين اللذين يدوران حول المريخ بنظام واضرار منذ ملايين السنين .

حقيقة الحياة فى كوكب المريخ

على عكس ما يظنه العلماء السوفييت من احتمال وجود الحياة فى كوكب المريخ ، نرى أن العلماء الامريكيين وعلى راسهم عالم الفلك المشهور كلايد تومبو يقول ان الدلائل لا تشير الى وجود حياة فى ذلك الكوكب الاحمر اللامع الفريب .

وقد ظل العالم تومبو يدرس المريخ لاكثر من ثلاثين سنة ، ومكث ما يقرب من خمس عشرة سنة يرقبه من « مرصد لوول » فرآه مئات المرات من خلال عدسة قطرها ٢٤ بوصة . وخرج بعد هذه المراقبة الدقيقة بعدة آراء هامة ونظريات علمية جديدة لم يتفق فيها مع عالم الفلك السوفييتى المعروف زيجل .

لم ينكر العالم تومبو وجود قنوات فى المريخ فهى ظاهرة لا يختلف عليها اثنان . فقد رأى بنفسه اكثر من مائتى قناة على وجه الكوكب الاحمر ، ولم يتفق مع عدد كبير من العلماء الذين انكروا وجود هذه القنوات وقالوا عنها انها مجرد ظواهر خداعة .

وقد حاول واجتهد الى أن وصل الى حقيقة أصل هذه القنوات . ومع ذلك فلم يقبل النظرية التى قالت بأن هذه القنوات عبارة عن شبكة صناعية ضخمة بنيت لرى الأرض فى المريخ .. واستقر رأيه على أنه من

الناحية الهندسية البحتة فان القيام بمثل هذا المشروع الضخم لضخ المياه من القطبين الى المناطق الاستوائية فى الكوكب قد يكون فوق طاقة البشر أو فوق طاقة أمة أو مخلوقات بشرية تواجه الفناء والعدم ..

ولنفرض جدلا أن رجال المريخ كانت لديهم القدرة على تغطية كوكبهم كله بقنوات ضخمة فلماذا اختاروا هذا النظام البدائى لانقاذ أنفسهم من الفناء ؟ ولماذا لم يعملوا على تخزين الماء فى بحيرات صناعية تنمو على شواطئها الاشجار والنباتات المختلفة ؟ ..

أضف الى ذلك أن رجال المريخ يعلمون علم اليقين الحقائق البسيطة الخاصة بوجود بللورات الماء فى الصخور على هيئة ترسيب كيميائى متغير وانه يمكن الحصول على هذا الماء بالتبخير البسيط .

وبناء نظام رى دائم فى المريخ عن طريق شبكة قنوات ضخمة يشبه الى حد كبير تكنولوجيا القرن العشرين أو نظام الزراعة عند قدماء المصريين ..

ويستمر تومبو فى شرحه ورده على العالم برسيفال لوول الذى قال أن المريخ كان فى وقت من الاوقات به محيطات مثل محيطات وبحار الارض وأن هذه المحيطات تبخرت تدريجيا واضطرت سكان الكوكب أن يبنوا شبكة من القنوات .

يقول تومبو : اذا كانت هناك بحار جفت فلا بد أنها تركت وراءها تربة قاحلة أو ملاحات كما حدث لبعض بحار الكرة الارضية . وفى الاماكن المنخفضة لاحظ العلماء أنها مغطاة بخضرة رائعة . وعلى ذلك يقول تومبو أن هذا الكوكب كان خاليا من الغابات أو من نباتات الغابات الضخمة وذلك منذ زمن غائر فى التاريخ ..كما

أن المريخ ليس به مستودعات طبيعية للفحم الذى يتكون عادة من الغابات التى تدفن تحت التربة نتيجة لتقلبات الطبقات الجيولوجية كما انه خال من البترول كذلك ..

ويعتقد تومبو ، على عكس العلماء السوفييت ، أن سكان المريخ البدائيين اذا كانوا قد وجدوا حقا ، لايمكن أن يكونوا قد بلغوا حضارة سكان الكرة الارضية. لأنه لم يكن لديهم المصادر الطبيعية الهامة كالخشب والفحم والبترول أو حتى كميات كافية من الماء . ومن غير هذه العناصر الطبيعية لايمكن لساكن المريخ أن يكتشف النار . وعندما نأخذ بعين الاعتبار أن كمية الاوكسجين فى المريخ كانت اقل مما عليه اليوم فيمكننا القول بأن أهل المريخ لم يكن فى مقدورهم أن يشعلوا نارا حتى لو كان عندهم كميات كافية من البترول .. وعليه فان نقص الماء والاوكسجين أثر فى تطور الحياة فى الكوكب الاحمر منذ البداية ..

ومع كل هذه التفسيرات فان العالم الامريكى تومبو اتفق مع العالم السوفييتى زيجل على أن الخضرة تغطى ثلاثة أجزاء على ثمانى أجزاء من سطح الكوكب. وأنه فى كل عام تتحول مناطق القطبين الى خضرة زاهية ، ومعنى هذا أن هناك نباتات على سطح المريخ. وهى ظاهرة لا يستطيع العلماء انكارها ..

ويعترف تومبو أن منطقة صحراوية فى حجم « تكساس » تحولت الى منطقة داكنة الخضرة فى عام ١٩٥٤ ويوافق على أن هذا غزو جديد للنباتات فى منطقة كانت قاحلة جرداء .. ولكنه ، على عكس زيجل الذى قال أن هذا كان من عمل مخلوقات ذكية شرعت فى اعداد واصلاح أرض جديدة للزراعة ، يعيد ذكر نظرية

العالم فرانك سالسبرى الذى يقول أن نباتات المريخ لاتشبه فى قليل أوكثير نباتات الكرة الارضية . كما أن الظروف التى تنمو بموجبها فى المريخ لا تشبه ظروف نمو النباتات الارضية فجو المريخ به كميات قليلة من الاوكسجين ونقص شامل فى الماء . وأن جو الكوكب لايحميه من الطاقات العالية للاشعاعات فوق البنفسجية. وكان من نتيجة ذلك أن عملية التمثيل الضوئى تتم بسرعة هائلة وتظهر نباتات المريخ فى هيئات خاصة ، وتنتشر بسرعة فوق المناطق الصحراوية تبعا لظروف مواتية ، ولا يعرف العلماء طبيعة هذه الظروف المواتية. ومن الملاحظ أن مناطق كبيرة من النباتات ظهرت مباشرة بعد سحابة كبيرة صفراء اللون استقرت فوق المنطقة فى عام ١٩٥٤ .

وبطريقة غامضة غيرت هذه السحابة الصفراء ظروف الجو أوالتربة فى الصحراء الحمراء ، كما أن غبيرات أو هبوات نباتات المريخ حملتها الرياح وبعثرتها هنا وهناك فنمت بسرعة مذهلة .

والسحب الصفراء ظاهرة طبيعية لوحظت مرارا فى كوكب المريخ وقد تكون هى العوامل التى غطت الكوكب فجأة بالنباتات الخضراء .

ولو صدقت نظرية العالم تومبو عن التطور فى المريخ أو « غيابه عنه » فانها قد توحى الينا بأن المريخ لم تسكنه مخلوقات ذكية كان فى وسعها أن تبنى قنواته الطويلة الهندسية المعقدة .

اذن فما هى هذه القنوات ؟ ..

لقد قدم تومبو نظرية خاصة بهذه القنوات بناها على اكتشافات الفلكيين الحديثة . فأول نجيم امتنع عن

الدوران بين مدارى المريخ والمشترى ولـكنه مر بالـكرة الارضية ، وتم اكتشاف هذا النجيم فى عام ١٩٣١ فقط. وتبع ذلك اكتشاف عدد آخر من هـــذه النجيمات الخارجة عن القـــاعدة أو التى انحرفت عن مســارها وعبرت مدارى الزهرة وعطارد .

ويعتقد العالم تومبو أن فى طريق هـــذه النجيمات الشاردة الى الشمس عبرت مدار كوكب المريخ ، وأن حقل جاذبيتـــــه كان يمكن أن يقتنص بعضها أو بأسرها ، وأن مئات من هذه النجيمات اصــطدمت فعلا بسطح المريخ فى القرون الغابرة . وربما كانت أقطار بعضها عشرة أميال أو أكثر ، ويؤكد تومبو أن هــذه الاصــطدامات العنيــفة ربما ضربت قشرة كوكب المريخ فسببت به تصدعات وشروخ امتدت لمئات الاميال .

ولـكى يوضح تومبو نظريته بطريقة أسهل قال أن هذه التصدعات والشروخ مثل الشروخ التى تظهر فى الزجاج الامامى لاى سيارة عندما يلقى عليها حجر .. وعند نهاية كل شرخ من هذه الشروخ يجد الانسان تراب الصخور أو مسحوقها حيث تمد فيه النبــاتات جذورها . وهـــــذا يفسر سر وجود حدود خضراء لقنوات المريخ المتشعبة .

وطبقــا لنظرية تومبو وتفســيره لظاهرة القنوات فى المريخ ، فان تقاطعها الذى يقول عنه زيجل أنه دليل قاطع على وجود مخلوقات ذكية بنت شبكات معقدة من الطرق المــائية الفذة ، يقول عنه العالم تومبو أنها آثار لاصطدام النجيمات بسطح المريخ فتركت تصدعات متشعبة .

وينهى تومبو بحثه الشيق بقوله : فى غياب الدليــل القاطع عن حقيقة هذه القنوات فان فكرة وجود حضارة فى المريخ لابد أن تموت تدريجيا ...

مخلوقات ذكية فى المريخ ..

العالم السوفيتى فيلكس زيجل يرد على العالم الامريكى كلايد تومبو ويتساءل : لماذا لا يستطيع سكان المريخ شق قنوات لاستمرار الحياة عليه تماما كما يحاول سكان الارض اعادة بناء كوكبنا ؟ ثم فى الارض مشروعات عديدة لرى صحارى أواسط آسيا وافريقيا وتحويل تيارات المحيط وتغييرها .. وعليه لايمكن تصديق أن حضارات أخرى لا تستطيع أن تنفذ مثل هذه المشروعات الضخمة

ومن الطبيعى أن نظام الرى فى المريخ لا يحتوى على مجارى أو ممرات مفتوحة من الماء . وقد ذكر ذلك العالم لوول وقال انها عبارة عن انابيب مختفية تحت الارض حيث يحفظ فيها بالماء النادر . وطريقة الرى هذه لا تمنع الحصول على الماء من الصخور ، ولكن بملاحظة الموجات الداكنة التى تمتد من القطبين الى المناطق الاستوائية ، فان المصدر الرئيسى للماء فى المريخ هو المستودعات المتركزة فى قمم القطبين الثلجية . ومن المؤكد أن نباتات المريخ تمتص كميات قليلة من الماء . وأن احتياطى الماء فى قمم القطبين الثلجية غير كاف لمد القنوات والبحار . وعليه يمكن القول بأن احتياطى الماء فى المريخ اليوم يتركز أصلا على هيئة ثلوج جوفية .

ومن حيث أن كوكب المريخ قد اتخذ شكله الحالى من أبرد جزء فىالسحابة الكونية ، على عكس الارض ، فلا بد أن الماء فى المريخ لكل وحدة من كتلته كان يساوى نظيره فى الارض .

اذن فقد كان للمريخ محيطات عظيمة فيما مضى .

أما « البحار » الحالية فهى ضحلة أو بقايا بحيرات مائية ضخمة . وقد يتساءل البعض : أين اختفت هـــذه المحيطات العظيمة ؟ .

من البديهى أن بعض مياه هذه المحيطات قد استخدمت فى عمليات التمثيل الضوئى وتجمد بعضها وكون طبقات من الجليد الثابت . وتركزت هذه الطبقات فى منــاطق القطبين الدائرية وأصبحت المصادر الرئيسية للقنوات والبحار .

فاذا كان هــذا هو ما حدث ، واذا كان المريخ فى المــاضى السحيق احتفظ بنبــاتات غزيرة ضخمة ، فلا مجال للظن أن به كميات ضئيلة من الفحم والنبــاتات المتحجرة أو البترول . ومما يجدر ذكره أن العلمــاء لم يفسروا بعد اصل البترول ومن المحتمل وجود البترول فى المريخ من اصل أو مصادر غير عضوية .

وقد ذكر العالم تومبو أن أحواض بحار المريخ أصبحت صحارى جرداء قاحلة . ولــكن الحقيقة غير ذلك فى نظر العالم فيلــكس زيجل ، لانه اذا كانت هناك حيــاة ، ولــكنها تبعا لقوانين الطبيعة لا توجد ، فمما لاشك فيه أن هناك قوى ذكية خارقة تتحدى قوانين الطبــيعة وتفرض وجودها بكل معانى هذه الــكلمة .

وقد ذكر العالم السوفييتى الاكاديمى كيروفيتش أن بحار المريخ لا تنتشر فيها نباتات الالجا ، ولــكن بهــا نباتات مزروعة . وعلينا والامر كذلك أن نتحدث عن مخلوقات المريخ التى زرعت هذه النباتات وحصدتها .. ومن المعروف أن النباتات الدنيئة كالالجا لا تتأثر بالتغيير الموسمى للالوان وهى تنمو ببطء شــديد مجرد عدة ملليمترات فى العام الواحد . ولــكن أميز ما فى بحار

المريخ التغيير الموسمي للالوان ، وهذا يدعو العلماء الى الاعتقاد بأن نباتات المريخ لايمكن أن تكون من الانواع الدنيئة أو البسيطة كالالجا أو الطحالب . ولكن على العكس فهى نباتات من الانواع الراقية وتشبه كثيرا نباتات الكرة الارضية .

يقول تومبو أن نوعا من الحياة نشأ أو وجد بعد ظهور العواصف الرملية أو السحب الصفراء التى غطت منطقة من مناطق المريخ فى عام ١٩٥٤ ولكنه لم يفسر كيف أن بحرا ضخما فى مساحة أوكرانيا أو تكساس ظهر بهذه السرعة الفائقة .

يقول زيجل : لنفرض جدلا أن العالم الامريكى محق فى نظريته فكيف يفسر أن شيئا مثل هذا لم يحدث بعد هبوب عواصف رملية مماثلة ملأت جو المريخ فى عام ١٩٥٦ . فلماذا لا تكون هذه العواصف الرملية أو السحب الصفراء بحارا جديدة ؟ .. وأخيرا لماذا لم تغط هذه السحب أو العواصف الرملية الهوجاء سطح المريخ كله بنباتات مماثلة فى الازمان الغابرة من تاريخ الكوكب الاحمر الفريد ؟ ..

اذن فنظرية العالم الامريكى لا أساس لها من الصحة لان العواصف الرملية فى المريخ وفى الكوكب الارضى ليست مصدرا للنباتات على الاطلاق .. بل على العكس فهى أعدى أعداء النباتات . فأى عاصفة رملية تستطيع أن تغطى بحار المريخ أو تدفنها اذا كانت غير عضوية ولكنها لا تستطيع غرس نباتات من اى نوع كانت .

ومن العسير أن نعزو سرعة نمو النباتات فى المريخ الى عوامل طبيعية ولكن يمكننا أن نقول : أننا نشهد زراعة أرض المريخ البكر فتنمو فيها النباتات بسرعة مذهلة

لان تربة الـكوكب شديدة الخصوبة .

أما الظواهر العكسية التى لوحظت فى بعض المنـاطق خلال عشرات السنين المـاضية قد تكون أكبر شـاهد على حقيقة الصراع الذى يجرى هنـــاك بنجاح كبير لاستصلاح الاراضى « البور » أو القاحلة الجرداء !

وانه ليبدو لى ـ هكذا يقول العالم فيلـكس زيجل ـ أن رفض وجود حياة على المريخ بسبب ظروف الـكوكب القاسية أمر غير مقنع علىالاطلاق . والحقيقة أن بالمريخ مخلوقات متحضرة ذكية ، قطعت شـوطا فى الحضارة وعلى الاخص اذا كان التطور الطبيعى قد أمدهم بكل وسائل الحماية والبقاء . وأن هذه المخلوقات تعمل بجد ونشاط وتكافح عوامل الطبيعة القاسية بما وصلوا أليه من علم ورقى وحضارة .وان شبكات القنوات المعقدة وظواهر التغيير الموسميـة تؤكد بحق وجود مخلوقات هناك وتقضى على أى زعم آخر .

وقد حققت الايام آراء العالم الامريكى « لوول » بعد التقاط العديد من الصـور الفوتوغرافيـة التى أخذها « فيستو ملفن سليفر » والذى قال أن ملاحظات العالم لوول قد تحققت تماما بكل تفاصيلها بعد التقاط هـذه الصور لقنوات المريخ .. ولـكن المشـكلة تنحصر فى ايجاد تفسير مقنع لهذه الظواهر الغريبة التى تجرىهناك على سطح الـكوكب الاحمر الجميل ..

فالعالم تومبو يقول أن الواحـات الموجودة فى المريخ عبارة عن أماكن اصطدمت بها النجيمات . وأن القنوات ظهرت مباشرة كأثر واضح للاصطدامات المروعة . ولكن العالم زيجل لا يتفق مع تومبو على هذا الرأى لان اقطار هذه الواحات تختلف من عشرات الـكيلومترات الىمئات

الـكيلومترات . ففجوات بهذا الاتساع لايمكن أن يحدثها أو يسببها غير نيازك أو شهب ضخمة قطرها عدة مئات من الامتار أو عدد من الـكيلومترات . فاذا اخترقت هذه الاجسام السماوية جو المريخ فانها تصطدم بسطح الـكوكب بسرعة عشرات الـكيلومترات فى الثـانية ، ثم تنفجر وتحدث فجوات « كفجوات القمر » . وفى الارض عدد من هذه الفجوات مثـــل فجوة لابرادور وقطرها ثلاثة كيلومترات ونصــف كيلومتر .. وفجوة أريزونا المشـــــهورة وغيرها . وفجوة نجورد فى افريقيا وقطرها تسعة عشركيلومترا وفجوة وردسفورت وقطرها ١٢٠ كيلومترا ! وسبب هذه الفجوات الارضية نيازك وشهب سقطت من السماء واخترقت جو الـكرة الارضية وانفجرت على سطحها محدثة انفجارات رهيبة كالقنابل النووية . والغريب أن تصدعات أو شروخا غير موجودة أو ملحوظة فى أى من هذه الفجوات الارضية ، ولم ير العلماء شيئا من هذه الشروخ أو الصدوع فى فجوات القمر بعد أن هبط على سطحه الانسان أخيرا !

اذن فنظرية العالم الامريكى تومبو عن هذه القنوات وطريقة تكوينها غير صحيحة من الناحيــة العلميــة أو التطبيقية ، وأن أى اصطدام لشهاب أو نيزك بسطح المريخ « وهو أمر نادر الحدوث » قد يدعو الى تكوين فجوات وليس تشققات أو شروخ بقشرة المريخ ..

وقد شبه العالم تومبو قنوات المريخ بالشروخ التى تحدث لواجهة زجاجية لسيارة ، ولكن هذا التشبيه يخالف الواقع أوالحقائق المنظورة ، لان التشققات لاتحدث على لوح زجاجى بطريقة هندسية منظمة ، بل تجرى هنا وهناك من غير نظام . ولـكن نظـام القنوات فى المريخ

هندسي رائع لايمكن أن يكون من عمل الطبيعة بل من عمل مخلوقات على جانب كبير من الحضارة والذكاء . وكل قناة تنتهي بقنـــاة أخرى أو بواحة أو ببحر أو باحدى القمم الثلجية القطبية . ولا تتوقف قناة منهـا فجأة فى صحراء من الصحارى بل تتشعب الى شـعب لجلب ميـاه وفيرة لهذه المناطق النائية . وهذه القنوات أو سلسلة البقع الخضراء تمتد على هيئة أقواس ودوائر وعلى طول خطوط قصيرة واضحة على سطح المريخ .. وهذه الصورة الواضحة لايمكن أن تكون نتيجة لعمـل عشوائى أو تشققات على لوح زجاجى لسيارة !..

ولا تفسر نظرية تومبو سر التغيير الموسمى الملحوظ لهذه القنوات . ففى الـكرة الارضية يتقدم أو يزدهر الربيع من خط الاستواء الى القطبين وهذا هو الطريق الطبيعى الصحيح للربيع بسبب الزيادة المنتظمة لميـل الشمس أو انحرافها .. أما على المريخ فان خط سير الربيع غير طبيعى فهو يزدهر من القطبين الى خــط الاستواء . فمصادر الرطوبة هناك ليس مصدرها مياه طبيعية كما هو الحال فى كوكبنا الارضى بل مصــدرها الحقيقي خزانات الماء الموجودة فى المنـــاطق القطبية الدائرية .

ففى المريخ نرى أن الربيع ينتشر أو يمتد نحو خط الاستواء عندما تذوب قمم القطبين الثلجية . فما الذى يجرف الميـــاه ويسبب الموجات الداكنة لـكى تنتشر ببطء فوق الـكوكب كله وتعبر خط الاستواء وتصل الي الارتفاعات المتوسطة الى نصـف الـكرة العكسى ؟ هل هى رياح الربيع الندية الرطبة ؟ ولـكن ليس فى المريخ رياح مثل هذه . لان جفاف جو المريخ الجاد يقضي

على احتمال رى أو رش النبـاتات هناك بالرطوبة من الجو . بجانب ذلك فان مياه الليل تتجمد وفى النهـار تتحول فورا الى غازات متخطية بذلك الحالة السائلة. وهذا بطبيعة الحال يقضى على أمكان استخدام الماء للرى تحت الظروف الطبيعية العادية . أضف الى ذلك أن الخرائط الملاحية للعالم هيس توضح ان دورة الجو فى المريخ لا تتفق مع التغييرات الموسمية التى لوحظتعليه. ولنفرض جدلا أن الرياح تحمل الرطوبة أو النـدى فمما لاشك فيه أن اتجاهها سوف يتغير عنـدما تعبـر خط الاستواء . ولـكن الموجة الداكنة تعبر خط استواء المريخ بطريقة مذهلة وبرباطـة جأش بدون أن تتغـير سرعتها أو اتجاهها .

ان هذه الصورة غير الطبيعية للمريخ يمكن تفسيرها بطريقة واحدة وهى أن هـذه القنوات صنـاعية قلبـا وقالبا وان طرق الرى هناك صناعية منظمـة بطريقـة فريدة فذة فى نوعها ..

ويقول زيجل اننى أتفق تماما مع العـالم الاكاديمى كوبريفتش : « على أن هذه القنوات هى من عمل ذكى وأن كميات الميـاه المحدودة فى المريخ تستهلك بطريقـة حكيمة تدعونا الى القول أو الاعتقاد بأن هناك مخلوقات أو بشر غاية فى الذكاء والحكمة .

ويجب بعد هذا كله تسجيل ظاهرة سرية غامضة لم يعرفها أو يتوصل اليها مع الاسف العالم الامريكى «لوول» وهذه الظواهر الغامضة ظهور ومضـات لامعة خاطفـة تحدثها سحب زرقاء رمادية اللون وقد رآها ولاحظها عدة مرات عالم الفلك اليابانى المشهور « سايكى » وهذه الومضات لامعة وتظل ظاهرة واضحة لعدة دقائق. وهى

مدة طويلة لا تعقب انفجار النيازك أو الشهب التي تومض للحظات . وهي مدة قصيرة بالنسبة الى قذائف البراكين التي تلفظ الحمم لمدة طويلة من الوقت تتعدى الدقائق .. ومن العسير الاعتقاد بوجود نشـــاط بركاني على المريخ اليوم .. اذن فما هو التفســير العلمي المنطقي لهذه الظواهر الغامضة المحيرة ؟ ..

لايستطيع العلماء مع الاسف تقديم التفسير العلمي لهذه الظاهرة رغم امكانيات العلم في هذا العصر الذي نعيش فيه ..

بقيت كلمة عن قمري المريخ .. فطبقـــا للنظريات الجارية أو المعاصرة وبالحكم على تطور مدارهما فلا بد انهما ظهرا منذ خمسمائة مليون سنة مضت. فالمريخ ظل على حاله ولا يمكن القول بأن القمرين انتزعا من أرضه أوتكونا منه. واذا كانا قد أسرا من الفراغ الخارجي فان مدارهما كان لابد أن يكون مستطيلا وهذا الوضع غريب ومحير بالنسبة للقمرين .

لذلك يقول العالم تشكلوفسكي أن هـــذين القمرين صناعيان وأنهما من بقايا حضارة مريخية اندثرت منـذ ألوف السنين . ولا يتفق العالم زيجل مع هذا الزعم لان الحسابات الدقيقة تكشف عن حقيقة احتمال ابادة هذين القمرين بواسطة الشهب والنيازك خلال عشرات أو مئات الالوف من السنين . وهـــذه الازمنة يمكن مقارنتها بحياة الانســان على الكوكب الارضي . ففي عشرات أو مئات الالوف من الســنين التي مضت كان سكان المريخ على درجة كبيرة من الحضارة . وكان في امكانهم اطلاق أقمار صناعية الى مدارات مختلفة حول كوكبهم ، ومن الصعب معرفة الاسباب التي قضت على

حضارة سكان المريخ . فهل كانت كارثة كونية ولماذا لم تترك هذه الكارثة الكونية اثرا على الارض . ولكن العكس هو الصحيح وأن نظام القنوات المعجز الذى لايزال يعمل بهمة ونشاط يكشف عن حقيقة مذهلة وهى أن سكان المريخ معاصرون لسكان الارض... واذا كان الامر كذلك وأن بالمريخ مخلوقات ذكية ولديهم حضارة راقية فلماذا لم يتصلوا بسكان الارض ؟

يقول العالم الاكاديمى كوبرفيتش :

« ربما زارنا أهل المريخ منذ عدد مضى من الوف السنين .. ثم نظروا حولهم واجروا بحوثهم وأخيرا قرروا أنه ليس فى الارض ما يستحق اهتمامهم وربما يزورون الارض من وقت لآخر ولكنهم لايتصلوا بنا .. لماذا ؟

ربما لانهم يرون فينا مخلوقات بدائية لم تصل الى القليل من حضارتهم واننا لا زلنا فى نظرهم كرجال الكهوف أو كأجدادنا منذ ألوف السنين .

ويقول العالم فيلكس زيجل أن ما يقال عن المريخ ومخلوقاته وحضارته لا يتعدى نظريات يصل اليها العلماء بالاستقراء . وليس هناك من وسيلة لنكران بعض الحقائق الغريبة التى توصل اليها الانسان بعد طول مراقبة لاحوال هذا الكوكب الاحمر الغريب . وعن قريب سوف تصل الى المريخ مركبات فضاء تهبط على سطحه كما فعل الانسان بالقمر . وفى هذا اليوم سوف يضع العلماء حدا لتضارب النظريات العلمية حول حقيقة الحياة فى المريخ وهل هناك حقا مخلوقات ذكية بلغت شأنا بعيدا من الحضارة لم يبلغه أهل الكوكب الارضى بعد ، رغم تقدم التكنولوجيا والعلوم .

الهبوط على المريخ
فى عام ١٩٧٦

هبطت سفينة الفضاء بهدوء واستقرت على أرجلها الثلاثة فوق الارض الجافة الجرداء وانتظرت.. وفجأة صدرت اليها التعليمات من علماء الارض الذين يجلسون بعيدا عنها بنحو مائتى مليون ميل .. وفجأة أيضا دبت الحياة والنشاط فى السفينة فدار موتور وبرز ذراع طوله عشرة أقدام ، وفتح مغرفة أو جاروفا كبيرا ، وشرع يحفر فى الارض الحمراء اللون.. وبعد ذلك تراجع الذراع الى الخلف وانثنى وألقى بالتراب الى فتحة فوق المركبة . وفى الداخل يقوم معمل أوتوماتيكى بتحليل التراب . وفى خلال أسابيع قليلة ترسل المركبة رسالة لاسلكية الى الارض تقول فيها : الحياة توجد على كوكب المريخ ..

ليست هذه أحلام ليلة صيف لعلماء الاكسوبيولوجى ــ أى العلماء الذين يؤمنون بوجود الحياة فيما وراء الكوكب الارضى ــ ففى يوم ٢٥ أغسطس عام ١٩٧٤ انتهت بحوث علماء الفضاء من صناعة معملين يستطيعان فحص وتحليل تربة كوكب المريخ بحثا عن دليل على وجود الحياة هناك .

وفى شهر أغسطس عام ١٩٧٥ سيطلق هذان المعملان من كيب كانفرال بالولايات المتحدة نحو الكوكب الاحمر الجميل . وبعد أن يقطع المعملان احد عشر شهرا فى الفضاء ــ وهما من نوع سفن فايكنج ــ سيدوران فى مدار حول المريخ . وسيخرج من كل منهما المعمل الحى ويهبط تدريجيا الى المريخ عن طريق براشوت وصواريخ فرملية . والمعمل معقم تعقيما تاما ، وينتظر أن يهبط

فى يوم ٤ يولية عام ١٩٧٦ على سطح المريخ بالقرب من بدء ممر ضيق بين جيلين يبلغ طوله حوالى ثلاثة آلاف ميل . أما المعمل الثانى فينتظر أن يهبط بنفس الطريقة بالقرب من رأس القطب الشمالى فى المريخ أيضا . وقد استقر رأى العلماء واختاروا هذين الموقعين لانهما يحتويان على بعض آثار للماء الضرورى لانواع الحياة المختلفة .

والمعملان موضوعان فى مكعب قدم واحدة ويزن الواحد ٣٠ رطلا . وكل واحد منهما به مائة واربعون الف مركب الكترونى بما فى ذلك ١٢٢ الف ترانزستور و ٤٠ ترمومترا وثلاثة أفران صغيرة دقيقة وغازات مشعة فى زجاجات وكروماتوجراف ويستخدم لمعرفة المركبات الكيميائية للمادة تحت الدراسة ـ ومصباح زينون صغير يمكنه أن يقوم مقام ضوء الشمس . وقد تكلف كل معمل ١٧ مليون دولار ، ويستطيع أن يقوم باجراء ثلاث تجارب على جانب كبير من الاهمية بدون أى مساعدة بشرية .

فالتجارب الثلاث تشمل فحص تربة المريخ حيث تخلط فى سائل مغذ غنى يطلق عليه « حساء الدجاج » فاذا نما أى عضو مريخى فى المرق أو السائل والتقط ثانى أكسيد الكربون او اى تنفس آخر فان الجهاز سوف يبحث فى أصل كيمياء أو تركيب هذا الغاز .. واذا التهمت المادة المغذية اى كائنات دقيقة ثم التقطت اى غازات كربونية كنفايات التحول الكيمى « أيض » فان هذه النفايات سوف تفحص ويعرف تركيبها الكيميائى .. وأخيرا تعرض التربة المريخية الى ضوء مصباح زينون للبحث عن ثانى أكسيد الكربون المشع وآثار الماء فى جو المريخ .. وبعد خمسة أيام سوف يطهر جو المريخ وتدخل العينة الى فرن تبلغ درجة

حرارته الف درجة فارنهايت .. فاذا احتوت الابخرة الصاعدة على كربون ١٤ فان العلماء سوف يتحققون من انها أخذت من الجو عن طريق كائنات مريخية فى عملية كعملية التمثيل الضوئى المعروف لنا على الارض .

- واذا فشلت المركبة فايكنج فى كشفها عن وجود كائنات حية فى كوكب المريخ فهناك احتمـــــال بأن الحياة على الـكوكب تعتمد على كيمياء تختلف عن تلك المعروفة لاى هيئة من هيئات الحياة أو انها تبحث عن مأوى لها فى اعماق الارض لتحتمى من أشعة الشمس فوق البنفسجية القاتلة .

واذا حدث وعثرت المركبة على كائنات حية أو أعضاء حية بدائية فانها سوف تؤكد لعدد كبير من العلمـاء الذين يشكون فى وجودها بأن الحياة ليست مقتصرة علي الـكوكب الارضى أو أنها فريدة فيه بل هى شىء عادى عام فى الـكون كله ..

زوايا وأنواء الفــراغ

اذا صــدقنا كتاب القصص العلمية الخرافية الذين أرسلوا مخلوقات بشرية أرضية فى سفن فضاء ضخمة لغزو الفضــــاء والمروق منه الى الـكواكب والنجوم والاقمار البعيدة ، لاستبد بنا العجب أمام أخيلة هؤلاء العلماء الذين بنوا سفنهم ومراكبهم الفضـــائية بدقة بالغة ، وبتصورات غريبة تدعو الى الاثارة والدهشة ، وركبوا لها محركات غاية فى القوة . وهم لايتقيــدون بقانون رياضى عام ، بل يخترعون ويقدمون صورا ونماذج وتصميمات غاية فى الغرابة . فقــد أطلق أحد الـكتاب سفينة كونية بها مخلوقات من كوكب بعيــد حتى اذا اقتربت من الـكرة الارضية انطلق منهــا روادها أى تركوها فى لحظة معينة وهبـــطوا على الارض بطريقة تلقائية عجيبة . وكان لهذه السفينة محركات فوتونية ضخمة . وكان من السهل ادارة هــذه المركبة العظيمة التى هبطت بدورها على الارض . ووجدت المخلوقات البشرية الارضية أن ركابها أو روادها أو قادتها قــد اختفوا منها بطريقة غامضة . وكان يبدو أن سكان الارض يستطيعون قيادة هذه المركبة الضخمة بسهولة للذهاب بها الى نجم بعيد . ولــكن هل يستطيع حقــا سكان الارض أن يقودوا مثل هذه المركبة المعقدة والتى تبــدو لهم غاية فى البساطة ؟

يرد العالم السوفيتى « فلاديمير كوفالفسكى » على هذا السؤال بقوله :

ان مثل هذه المركبات الغريبة قد لايستطيع سكان الارض قيادتها لجهلهم التام بمفاجآت الفراغ ، وما فيه من شعب ورياح وأنواء وأعاصير ، وكل ما يلزم الملاح معرفته قبـــل أن يشق طريقه فى الفراغ بمركبة من المركبات أيا كان نوعها ..

ومن المعروف أن مركبة ذات محركات غاية فى القوة من الزم الضروريات لانجاز رحلة بعيدة فى الفراغ الى أبعد مكان فى الـكون . ولـكن اطلاق أقمار أو صواريخ أو مركبات لتدور فى مدار حول الارض أو حول كوكب آخر لابد لها من خرائط تسجل عليها الشعب الهوائية ، والرياح ، والانواء ، والاعاصير ، والدوامات ، وجميـــع الاماكن الخطرة التى يجب أن تتحاشاها المركبة أثنـــاء رحلتها فى الفراغ ».

شعب الشواطىء فى الفراغ

انطلقت ســـفينة الفضـــاء « سبوتنك الثالثة » الى مدارها حول الارض فى يوم ١٥ مايو عام ١٩٥٨ ومن بين الاجهزة العلمية التى احتوتها المركبة أجهزة لتسجيـــل الاشعاعات الـكونية . وعندما حلل العلماء التسجيلات الخاصة بهذه الاشعاعات أخذتهم الدهشـــة ، ومن ثم غيروا وجهـــات نظرهم عن الفراغ الذى يحيط بالـكرة الارضية : فقد اكتشفوا بفضل هذه التسجيلات الدقيقة للاشعاعات الـكونية ولاول مرة فى تاريخ الـكون حزاما مشعا يحتوى على سحابة على هيئة حلقة من الذرات المشحونة « الـكترونات » وبروتونات تحيط بكوكبنا . وفى هذا الحزام المشع وجد العلماء أيضا أن كثـــافة

الذرات أكثر بألوف المرات عنها فى تدفق الاشـــعاعات الـكونية « العادية » . والغريب أن هذا الحزام المشع لم تكتشفه مركبة سبوتنك الاولى ولا الثانية لانه كان هناك ذرات كونية أكثر مما تستطيع الاجهزة عدها أو احصاءها . وكانت النتيجة أن هذه الاجهزة اختنقت وتعطلت . واكتشف العلماء فيما بعد أن كوكبنا الارضى محاط بثلاثة أحزمة مشعة . والحزام الادنى يبـدأ على ارتفاع ٥٠٠ كيلومتر وينتهى عند ارتفاع ٦٠٠٠كيلومتر، أما الحزام الثانى فيقبع فى ارتفاع يتراوح بين١٤٠٠٠ ـ ١٥٠٠٠ و ٣٠,٠٠٠ ـ ٤٠,٠٠٠ كيلومترا ، والحـزام الثالث يقع على بعد مائة ألف كيلومتر من الارض ..

وقد تم اكتشاف هـــذه الاحزمة المشعة عن طريق المركبات الفضائية التىتوغلت فىالفراغ وبأجهزة حساسة ركبت فى محطات الفضاء التى أطلقت نحو كوكب الزهرة.

وهـــذه المناطق المشعة تعد من الجيران المشاكسين للارض . وعندما يحين الوقت الذى يستطيع فيه انسان المستقبل ان يعبر هذه المناطق فان الرواد ســـوف يحصلون على خمس أو عشر وحدات من الاشـعاعات وهـــذا يتعدى بكثير الجرعة المسموح بها .. اذن فما العمل ؟

ان العلماء اليوم يدرسون جغرافية هـــذه الاحزمة المشعة التى وجد أنها لا تحيط بكوكبنا الارضى مثلقشرة البرتقالة . فهناك هوتان : هوة فوق القطب الشمالى والهوة الاخرى فوق القطب الجنوبى . وهاتان الهوتان متسعتان بدرجة تسمح بمرور سفن الفضـــاء خلالهما بدون أن تتعرض للاشعاعات الـكونية .

فى شهر يولية من عام ١٩٥٩ حدثت انفجارات عنيفة

فى الشمس وهطلت على الارض امطـــار من الذرات المشحونة . وصمتت المحطـات اللاسلـكية لعـدة أيام وامتلأ الفراغ الذى يحيط بالشمس بسحب كثيفة مكتظة بالاشعاعات وسدت الهوتان فىأحزمة الاشعاعات وأغلقتا باحكام . وكان هذا الحدث مجرد انذار للاحى سـفن فضاء المستقبل . ومع هذا يمكن الوصول الى طريق آمن لان « الجو » فى الشمس يمكن التكهن به أو معرفته . وهـذه التنبؤات سـوف تكشف لرجال الفضـاء عن الومضات الفجائية التى تصدر عن الشمس وكذلك عن الاوقات المناسبة لاطلاق مركبات الفضاء ..

وقبل اطلاق سفن الفضاء أو الاقمار الصناعية من طراز سبوتنك لم يتسن للعلماء أن يعرفوا شيئا عنأحزمة الاشعاعات التى تحيط بالـكرة الارضية . وأن نشاط الاشعاعات يتزايد أثناء فترات معينة عنـــدما يرتفع النشاط الشمسى . وتعد هـــذه المعلومات اليوم من الخرائط الهامة لمناطق الاشعاعات كما أن التنبؤات بحالة الجو الشمسى يعد من الزم الضروريات عند حســاب الوقت الذى يجب أن تطلق فيه سـفن الفضـــاء لغزو الـكواكب والاقمار البعيدة .

امطـار الشهب والنيازك

عندما تعبر مركبة الفضـــــاء المز الآمن فى أحزمة الأشعاعات التى تحيط بالارض تبدأ المركبة بالبعــــد بانتظام عن الـكرة الارضية . فهل انتهت الاخطـــار وأصبح الطريق أمامها آمنا ؟

يقول العلماء أن كميات الغبار الـكونى أو غبار الشهب والنيازك المتساقط على كوكبنا قد يتساقط على مركبات الفضاء السابحة فى الفراغ خلال السنوات العشر القادمة

بقدر يسير من الملليجرامات للشهب الصغيرة الدقيقة. وهذا رقم تقديرى ولكننا نعرف بوجود أمطار شهب فى الفراغ الخارجى البعيد . وهذه الامطار عبارة عن تجمعات من الغبار والحصى الصغير . وفى امطار الشهب هذه نجد أن متوسط الكثافة لاجسام الشهب غير ذات موضوع . ويعتقد علماء الفلك أنه فى استطاعتهم تحديد مسار هذه الامطار ورسم خرائط لها تعين رواد الفضاء على معرفتها لملافاتها .

وكل « دش » من أمطار الفراغ هذه يحتوى على مجموعات من الشهب الدقيقة التى تدور حول الشمس على طول مدارات متجاورة أو متلاصقة . وهذه الشهب صغيرة لايمكن أن تكشفها التلسكوبات . والعلماء يتأكدون من وجودها فقط عند دخولها جو الكرة الارضية حيث تشتعل وتباد . أما عن الامطار التى تبلغ مدارات بعيدة أو على مسافات بعيدة من كوكبنا الارضى، فان العلماء يبحثون عنها عادة بمعاونة الرادارات أو بأجهزة بصرية خاصة ثم يتم تسجيلها على الخرائط الكونية بعد ذلك .

أن العالم السوفييتى « ماكوفتسكى » اكتشف أخيرا أن قوة جاذبية أى كوكب تستطيع تحديد أمطار الشهب وتسجلها على هيئة ضفائر حلزونية . وأن تركيز أجسام الشهب والنيازك على طول محور هذه الضفائر الحلزونية اكثر بملايين المرات عن متوسط درجة تركيزها فى الفراغ الشمسى .. وحتى على بعد ألوف الكيلومترات من محور هذه الضفائر فان هذا التركيز يزيد ثلاثين مرة عن المتوسط . وقد كشفت حسابات العالم «ماكوفتسكى» أن سفينة الفضاء عندما تكون قريبة من محور هذه الضفيرة الحلزونية تصبح كمركز انسان يجد نفسه فجأة

تحت فوهة مدفع رشاش تنطلق منه النيران ..

وعلى رواد الفضـــاء أن يعرفوا بدقة تامة أين ومتى تظهر ذرات الشهب المركزة . وتبعا لذلك لابد منتخطيط مسار السفن لملاقاة أخطار الفراغهذه . والعلماء يعرفون أين تعبر هذه الامطار مدار الارض. والايام التى تعبر فيها الأرض هذه الامطار، والاتجاهات التى تتخذها فى مسارها ، وعليه يصبح من السهل رسم خرائط لمناطق الخطر هذه القريبة من الـكوكب الارضى .

ويجب أن يضع العلماء فى اعتبارهم أنه قد توجـد تجمعات لامطـار الشـهب المركزة بجوار القمر وبعض الاجسام السماوية الاخرى الموجودة فى النظام الشمسى وقد وضعت خرائط دقيقة سار على هديها الانسانأثناء رحـلاته الى القمر التى تمت فى عام ١٩٦٩ و ١٩٧٠ واستطاع أن يختار المسار الصحيح الآمن أثناء هـذه الرحلات التاريخية الفذة ليحمى سفينته من أخطارها.

الاقمار المختفية

يتســـاءل العالم « فلاديمير كوفالفسكى » : كم عدد الاقمار الطبيعية التى تدور حول الارض ؟ هل هـذه الاقمار مجرد قمر واحد ؟ ..

لقد اكتشفعالمالفلك البولندى«كازيميركورديلوسكى» ان كوكبنا الارضى له قمران أو أكثر .. وكل من هذين القمرين اكبر من الارض ذاتها ولـكن من الافضل أن نبدأ بالقصة من أولها ..

ان قصـــة اكتشـــاف هـذين القمرين ترجع الى القرن الثامن عشر . ففى عام ١٧٧٢ ذكر عالم الرياضة الفرنسى « جوزيف لاجرانج » اذا وجد شهاب صـغير

نفسه بالقرب من جسمين كبيرين فانهما سوف يأسرانه ويظل قريبا منهما الى الابد . ولكي يحدث ذلك فان مركزى الجسمين العظيمين ومركز الشهاب، لابد من تحديدها عند قمة مثلث متساوى الاضلاع . وهذا المثلث يصبح ثابتا : وفى خرائط الارض والقمر توجد خمس نقاط خاصة يمكن تحديد أجسام الشهب عندها ويطلق عليها العلماء نقط التحرير .

وقد كشفت الحسابات الدقيقة عن أن ثلاث نقاط من خمس تصبح فيها أجسام الشهب الدقيقة فى حالة غير متزنة . ويمكن مقارنة هذه النقط بروابى صغيرة فوق حقل مسطح من العشب . فاذا تدحرجت كرة على الموج الاخضر فانها قد تصل الى قمة رابية من هذه الروابى ، ولكن احتمال وقوعها على قمة احداها ضئيل جدا . أما النقطتان الباقيتان فتمثلان جيبين واذا عدنا الى الكرة التى تدحرجت على الموج الاخضر فانها سوف تسقط فى أحد الجيبين وتظل به .

وظلت نظرية العالم الفرنسى « لاجرانج » تحتل مكانتها بين النظريات الفلكية الاخرى ردحا طويلا من الزمن، حتى اكتشف علماء الفلك مجموعة من الشهب تكون مثلثات متساوية الاضلاع مع الشمس والمشترى . ولكنهم فشلوا فى العثور على تركيز للشهب فى جيوب النظام الارضي القمرى . فتوصلوا الى أن هذه الجيوب ليست عميقة وأنها قد لا تأسر أو تحبس أجسام الشهب التى تدور فى داخلها ..

ولكن هذا الاستنتاج لم يقنع العالم « كورد يلوسكى » فراقب هذه النقط الخمس المريبة لمدة عشر سنوات كاملة وخلال هذا الوقت الطويل كانت هذه الجيوب

فارغة تماما. ثم ظن أنه ربما كانت بداخلها تجمعات للغبار الكوني ، وأن هذه التجمعات قد تبدو كبقع من الضوء .. وأنه لا يمكن رؤيتها خلال أقوى التلسكوبات ولكن يمكن رؤيتها بالعين المجردة . وسجل « كورد يلوسكى » نجاح اكتشافه هذا لاول مرة فى عام ١٩٥٦ . ولم يكن من السهل ملاحظة سحابة من سحب الغبار هذه . ففى الارتفاعات المتوسطة يمكن رؤيتها خــلال سته أيام فى السنة فقط ، وظل العالم « كورد يلوسكى » لمدة خمس سنوات يحاول تصوير أقمار الغبار التى تدور حــول الارض وذهبت محاولاته سدى ورآها تتكرر ومع ذلك لم يستطع تصويرها . وكانت المشكلة ان العين البشرية أكثر حساسية عن عدسة التصوير وأخيرا وفى شـــهر مارس عام ١٩٦١ استطاع العالم أن يصور هذه السحب بالة تصوير ذات عدسة دقيقة وفيلم حساس . وأحدثت هذه الصور ثورة عارمة بين علماء الفلك .

وكشفت الحسابات الفلكية الدقيقة بعـــد ذلك أن قطر القمر يشبه تماما قطر الكرة الارضية ولكن كتلتــه تكاد تكون معدومة . ويعتقد العالم « كورد يلوسكى » أن هناك ذرة غبار واحدة فى كل كيلومتر مكعب لسحابة الغبار. واذا افترضنا أن متوسط كتلة ذرة الغبار خمسة مللیجرامات سوف نجد أن كتلة ذلك القمر المختفى تساوى ٦٥٠٠ طن فقط ، فهناك احتمال وجود أحجار وصخور كبيرة بين دقائق هذه الذرات التى يتكون منها القمر.

وفى شهر يناير عام ١٩٦٢ صور العالم البـــولندى « كورديلوسكى » سحابة الغبار أو القمر الثـــانى واتضح أنه مثل القمر الاول يتكون من سحابتين منفصلتين مع وجود هوة بينهما . ولا يزال العلماء يدرسون هــذه

الظاهرة لفهمها الفهم العلمى الصحيح ..

واكتشاف هاتين السحابتين أو القمرين كالصخور فى مياه قليلة العمق او كالشعب فى خرائط الفراغ الذى يحيط بالكرة الارضية فاذا انطلقت سفينة فضاء خلال هذه السحابة فقد تصادف متاعب خطيرة لاحدود لها ..

وتوجد مثل هذه الشعب أو المخاطر بالقرب من الكواكب الاخرى التى تدور حولها اقمار ضخمة . ولكى يحقق انسان المستقبل رحلات آمنة الى هذه الكواكب لابد من رسم هذه الشعب على خرائط خاصة يقوم بدراستها رجال الفضاء قبل قيامهم برحلاتهم المرتقبة ...

أعاصير الفراغ الخارجى

يمكن ملاحظة بقعة من الضوء على هيئة سرطان البحر فى كوكبة الثور فى ليلة زاهية الضوء . ويطلق عليها العلماء « سديم السرطان » وهى عبارة عن سحابة مضيئة من الغاز تنتشر فى جميع الاتجاهات بسرعة خيالية قدرها ١٣٠٠ كيلومتر فى الثانية . واذا قارنا صورة أخذت لهذه الكوكبة من عشرات السنين باخرى أخذت حديثا ، فاننا نجد أن كوكبة السرطان هذه تنمو وتكبر بسرعة مذهلة . واذا صور هذا السديم بفيلم سينمائى وعرض الفيلم بطريقة عكسية فيمكن رؤية كيف أن السديم ينكمش فى حجمه ...

فى يوم ٤ يولية عام ١٠٥٤ اكتشف علماء الفلك الصينيين أن نجما كان من ألمع نجوم السماء بعد الشمس والقمر قد ظهر فى سديم السرطان وكان عام ١٠٥٤ هو العام الحقيقى الذى ولد فيه سديم السرطان اثر انفجار لنجم من النجوم .

ويطلق العلماء على مثل هذه الظواهر «سوبرنوفا» . فكثيرا ما تصبح نجوما باهتة شديدة اللمعان بدرجة مثيرة ، وهذه النجوم تسمى « نوفا » بسبب الشبوب أو الفوران الذى يحدث لها . ولكن هناك نجوم تصبح شديدة اللمعان بمليارات المرات عما كانت عليه لذلك

يطلق عليها « سوبرنوفا » تمييزا لها عن النجوم التى زاد لمعانها فجأة بألوف المرات عما كانت عليه فى الماضى.

وظهور السبر نوفا من الاحداث النادرة . فقد ظهر نجمان فقط فى النظام النجمى كله بعد الانفجار الذى أعلن ولادة سديم السرطان . ويعتقد العلماء أنه عندما ينفجر نجم من النجوم فانه يقذف جزءا كبيرا من كتلته فى الفراغ الخارجى . وبما أن رحلات الانسان الى النجوم لم تخطط بعد أو تصمم حتى يومنا هذا . فقد يأتى الوقت الذى تعبر فيه سفن الفضاء مناطق تكون نجوم « السوبرنوفا » قد انفجرت أو تكونت قبل العبور بمدد قصيرة . ومن الخطر فى هذه الحالة أن تقتنص احدى هذه السفن أو مركبات النجوم فى مثل هذا الاعصار الكونى المدمر ..

العواصف المغناطيسية

ان عاصفة هوجاء من الغازات تتخذ طريقها نحو الفراغ الخارجى مباشرة عند ظهور نجم من نجوم « السوبرنوفا » . وتمتد على الاثر الدوامات العنيفة والحفر والنقر على طول مسافات تقدر بعشرات أو مئات السنين الضوئية على هيئة أمطار غازية . وفى هذه الدوامات العنيفة تسبب حركة الذرات المشحونة أو الالكترونات نهوض أوحدوث مجالات مغناطيسية بالغة القوة . وتكون على الاثر مصايد تجذب اليها الذرات المشحونة فتكتسب قوى هائلة ، وتكتسب الالكترونات بدورها طاقة هائلة غير محدودة . وهذه الطاقة تعادل قوة هطول أمطار الذرات ذات الاشعاعات الكونية الخطيرة .

وهذا يكشف لنا أن السديم الغازى والمجال

المغناطيسى داخل المجرة هما أصل الاشعاعات الكونية. ولهذا السبب تكتسب الذرات المشحونة طاقة خيالية خارقة .

ويقول العالم « فلاديمير كوفالفسكى » أنه يجب ملاحظة أن متوسط كثافة هذه الذرات تصبح ثابتة فى الاشعاعات الكونية . وقد تكون ذات درجة عالية فى السديم ذاته ويجب على رواد الفضاء ملاحظة ذلك عند القيام برحلاتهم فى سفن النجوم الخاصة . كما يجب مراعاة قوة المجال المغناطيسى فى السديم أو المجرة ، وحساب ذلك حسابا دقيقا .. فاذا توغلت سفينة فضاء أو دخلت فى مجال مغناطيسى لسديم من السدم بسرعة خيالية فان تيارا كهربيا سوف يحدث فى جسم السفينة وأن قوة هذا التيار سوف يكون شديدا بدرجة أنه قد يحرق السفينة كما يحرق مصباح كهربى يزداد فيه الفولت عما هو مقدر له . وهذا الخطر يجب عمل كل حساب له ...

ومن الخطأ الاعتقاد بأن المجالات المغناطيسية لا توجد الا بين النجوم . والحقيقة أنها موجودة فى الفراغ الشمسى كذلك . وأن كميات هائلة من الذرات المشحونة تقذف الى الفراغ بسبب الانفجارات العنيفة التى تحدث فى الشمس . وهذه الامطار تولد المجالات المغناطيسية وتكونها . ومجال الارض المغناطيسى يمنع هذه المجالات المغناطيسية من الاقتراب من كوكبنا . ولكن العواصف المغناطيسية ليست من الاحداث النادرة فى الفراغ بين كواكب المجموعة الشمسية . ومنذ وقت مضى لاحظ علماء الفلك الامريكيون من مرصد بالومار شهابا يصطدم بمجال مغناطيسى لفظته الشمس . وأثناء هذا الاصطدام المروع فقد المذنب معظم ذيله ..

الفراغ الخارجي ينتظر الرواد .

كان خريف عام ١٩٦٢ العام الخامس لعصر الفضاء وفيه سجل الانسان على خرائط الفضاء العديد من الشعب والاعاصير والانواء والاعاصير المغناطيسية الرهيبة . ولايزال العلماء يسجلون أو يحددون على هذه الخرائط كل اكتشاف جديد منها للنجوم والشهب والنيازك والمذنبات وللأقمار الصناعية والطبيعية والمجالات المغناطيسية وسدم الغبار الكونى ومناطق الاشعاعات وغيرها ..

وجدير بنا أن نذكر شيئا عن المذنبات . فالنظريات الفلكية تقول أن نواة المذنب تحتوى على ثلوج وفحم مائى « فحم هيدروكربونى » على هيئة جذور هى بقايا من ذرات ذات نشاط كيميائى مرتفع .

وأغلب الظن أن الانفجار الرهيب الذى حدث عندما اصطدم شهاب « تانجاس » بالارض كان فى حقيقة الامر مذنبا اصطدمت نواته ذات الشعب بالارض. وعلى رواد الفضاء اذن أن يتجنبوا هذه المذنبات فى طريقهم الى النجوم البعيدة وقد يستخدمونها كمصدر لتموين سفنهم اذا استطاعوا أن يتحكموا فى طاقاتها وقدراتها . فوقود هذه المذنبات من أصفي أنواع الوقود الطبيعى الذى يعين سفن الفضاء على بلوغ أهدافها ..

ان عددا كبيرا من الاقمار الصناعية يدور الآن حول الكرة الارضية وهى تحمل أجهزة تعين العلماء على معرفة هذه العوائق الطبيعية المنتشرة فى الفراغ حول الكوكب الارضى .

وعن قريب سوف ترسى على كل من المريخ والزهرة والقمر معامل ضخمة لتحليل هذه الظواهر الخارقة لكى يتحاشاها رواد الفضاء أثناء رحلاتهم المرتقبة الى الكواكب والنجوم والاقمار المنتشرة فى الفراغ .

سكان من الكواكب الآخرى

ان ازدهار الحضارة على الكوكب الارضي كان سببه المباشر تطور الحياة . وان الانسان أصبح يمتلك قوى وطاقات عظيمة خارقة ، وأصبح فى استطاعته كذلك بناء سفن فضاء ضخمة تسبح فى الفراغ الى الكواكب البعيدة عن الارض . وسوف يأتى يوم تهبط فيه مراكب الانسان على كوكبى الزهرة والمريخ ..

كما أن الصواريخ القوية التى يبنيها الانسان ذات السرعات الخيالية سوف تصل الى أبعد المسافات فى الكون . وقد تدار هذه الصواريخ العظيمة بمجارى الذرت التى تلفظها محركاتها وهى تندفع بسرعة الضوء . وعن قريب سوف يسيطر على هذه المركبات فوتون أو ايون أو أى نوع من الاشعاعات الكونية لتحقيق الرحلات البعيدة فى الفراغ .

ومع ذلك كله فالعلماء يقولون : حتى فى وجود صواريخ الايونات أو الفوتونات فان رجال الفضاء لن يستطيعوا غير اكتشاف جزء يسير من الكون لانه شاسع غير محدود . فأقرب نجم الينا هو نجم القنطورس على بعد ٤ر٣ سنة ضوئية ونحن على بعد ثلاثين الف سنة ضوئية من مركز مجرتنا . وأن شعاعا من الارض لابد أن يرحل لمدة مليون ونصف مليون سنة قبل

أن يصل أقرب المجرات مثل كوكبة المرأة المسلسلة . وعليه فان حياة الانسان تكفى لكى يطير الى أقرب النجوم فقط ، تاركا الجزء الاكبر من درب التبانة مثلا لانه لايستطيع الوصول اليه . فما بالك بالمجرات البعيدة وراء كوكبنا الارضى ؟

ان صاروخا ينطلق من الارض بسرعة تقترب من سرعة الضوء لا يخضع مطلقا لقانون جاذبية نيوتن ، ولكنه يخضع لقوانين النسبية للعالم اينشتين . وطبقا لنظرية النسبية فان الوقت مثل هذا الصاروخ يمر ببطء شديد. ويقدر العالم أوجين سانجر أن قائد الصاروخ الذى يطير بسرعة ٩٫٨ ميلا فى الثانية يحتاج الى ٤١٫٩ سنة ليصل الى حواف الكون التى تبعد عنا بنحو ثلاثة آلاف مليون سنة ضوئية . وعليه يمكن القول بأن الطيران الى العوالم النائية يمكن تحقيقه فى المستقبل القريب .

يقول العالم « ماتسست آجرست » : ان مستوى معرفة الانسان تؤكد له أن الحياة ليست وقفا على الكرة الارضية وحدها . والحقيقة أن هناك عددا كبيرا من الكواكب فى الطريق اللبنى أو درب التبانة تزدهر فيها الحياة وبها سكان على درجة عالية من الذكاء . ويقدر العلماء أن ١٠ ٪ من نجوم الطريق اللبنى ينتمى الى نجوم الطيف من المجموعة «ج» والتى تمثلها شمسنا. فدرجة حرارة السطح لكل نجم من هذه النجوم يبلغ ٦٠٠٠ درجة مئوية . كما أن نجم القنطورس يعد عضوا فى هذه المجموعة من النجوم . ويحتمل أن يكون لهذه النجوم عائلات أو مجموعات من الكواكب السيارة. ومعنى هذا انه لابد أن يكون هناك ما يقرب من عشرة آلاف مليون كوكب تزدهر عليها الحياة تماما مثل كوكبنا الارضى .

قد تظهر الحياة فى هيئات مختلفة فى أجزاء مختلفة من الكون . وفى الكواكب التى تشبه كوكبنا الارضى فان نماذج التطور قد تكون متشابهة الى حد بعيد .

وعليه وبما أن الحياة الذكية مثل الهيئات الاخرى فى حاجة الى استهلاك الطاقة بصفة مستمرة فلا بد ان تصطدم بعقبة الحصول على مصدر دائم لهذه الطاقة .

وبما أن تكوين وصفات المادة متشابهة فى الكون كله، ى فى أى مكان فيه ، فان هذه الحاجة أو هذا الاجراء لابد أن يؤدى الى ضرورة اكتشاف واستخدام الطاقة النووية .

وبالمقارنة فان المخلوقات الذكية ايا ما كان مكانها ، لابد لها أن تصارع وتتغلب على قوى الجاذبية التى تخضع لها ، وذلك طبقا للقانون الكونى العالمى المعروف. وهذه الضرورة أو الحاجة تقود الانسان حتما الى اختراع الصواريخ وسفن الفضاء كما حدث مع سكان الكوكب الارضى فى العقدين السابقين ! ..

وليس غريبا اذن بعد هذا التفسير أن نقول : ان العوالم العديدة المنتشرة فى الكون قد ارتقت أو بلغت شأنا كبيرا من الحضارة . وتبعا لذلك يمكن القول أيضا أن هناك عوالم لديها طاقات نووية ومركبات فضاء قادرة على الرحلات الطويلة المنتظمة .

واذا كان الامر كذلك فهل زار الارض سكان هذه الكواكب أو اى كوكب آخر من كواكب المجموعة الشمسية ؟ وهل تركوا أى آثار تدل على ذلك ؟ ..

يجيب على هذا السؤال العالم السوفييتى آجرست بقوله : ان دراسة الآثار القديمة والعاديات التى عفى

عليها الزمان قد تكشف النقاب عن أمكان وصـــول رجـال فضاء من كواكب أخرى الى الارض فى أزمان ساحقة . كما أن اثبات ذلك يلزم اجراء حفريات عديدة فى أماكن معينة واجراء فحوص طبيعية وكيميائية للعدد والآلات البدائية التى صنعها الانسان .

والعلماء لا يعرفون شيئا عن حضارات سكان العوالم الاخرى . ولـكن الوقت اللازم للوصول الى الـكواكب أو النجوم البعيدة قد يبدو ضئيلا بالمقارنة الى عمـر الـكوكب ذاته الذى قد لايزيد عن عشرات الملايين من السنين . فليس غريبا اذن اذا قلنا أن الكرة الارضية قد زارتها مخلوقات ذكية عدة مرات خلال ملايين السنين السابقة . ولا بد أن هـذه المخلوقات قد تركت بعض آثار على الارض أثناء زيارتها . ولـكن هل انطمست هذه الآثار بفعل مرور ملايين السنين أم أنها مختفيـة فى مكان ما لم يعثر عليها انسان الارض بعد ؟.. ومع ذلك ورغم غياب هذه الآثار أو المعالم فان هناك عددا من الحقائق التى يمكن اعتبارها شواهد غير مباشرة لزيارة هذه المخلوقات الى الارض. والدليل على ذلك أن هناك على سبيل المثال أسرار الطبيعة التى يزيد عددها مع تقدم العلوم فى هذا العصر الذى نعيش فيه . ومن يدرى فربما زار الارض سـكان من كوكب آخر وقت بناء اهرامات الجيزة فعانوا الفراعنة على انجاز معجزة الاهرامات الثلاثة !

الشواهد التاريخية والاثرية ..

عثر فى بعض بقاع العالم على قطع زجاجية سميت « تكتاتيس » تحتوى على نظائر مشعة للألومنيـــوم

والبريليوم . وهذه القطع الزجاجية ليست من منتجات البراكين لان تكوينها يحتاج الى درجات من الحرارة أعلى من حرارة البراكين ذاتها أو الحمم المنصهرة . ومن صفات هذه القطع الزجاجية أنها لا تتكون الا فى مناطق معينة فى حزام ضيق على جانبى خط الاستواء ، وتتضمن فيما تتضمنه بلاد ليبيا وأندونيسيا واستراليا. ويمكن أن تكون هذه القطع الزجاجية قد تكونت من صخور أرضية تعرضت لدرجات حرارة عالية واشعاعات قوية ، أو ربما تكون قد سقطت على الكرة الارضية من الفراغ الخارجي . وهى مختلفة تماما عن الشهب والنيازك التى سقطت على الارض . واهم من ذلك كله توزيعها الجغرافى . وبتحليل هذه النماذج الزجاجية الغريبة اجمع العلماء على أنها لايمكن أن تكون قد تكونت بسبب ارتطام الشهب والنيازك بالارض أو نتيجة لسقوط الشهب الصغيرة التى تدور حول الشمس فى مدار أهليلجى قبل أن ترتطم بالارض . وقدم العلماء عددا من التفسيرات لهذه القطع الزجاجية النادرة فقال العالم ترومان كوهمان انها جاءت من الفراغ الخارجي . وقال هارولد أورى أنها انفصلت من صخرة أرضية اثر اصطدام شهاب بها ..

وقال كل من العلماء أوكيفى ونينجز وفارسافسكى أنها سقطت على الكرة الارضية بسبب اصطدام نيزك ضخم بسطح القمر .....

ومع هذا فان كل هذه النظريات لا تفسر حقيقة هذه القطع الزجاجية أو أصلها . وفى الاساطير القديمة نجد أن مخلوقات هبطت من السماء الى الارض ومخلوقات اخرى أخذت الى السماء . وقد ذكر سفر التكوين ذلك فى أكثر من مناسبة .

ففى الاصحاح السـادس من الآية ٤ « وكان فى الارض طغاة فى تلك الايام » وفى الاصحاح الخامس الآية ٢٤ « وسار اخنوخ مع الله ولم يوجد لان الله أخذه». كما كان علماء الفلك الاقدمين على علم بحقائق كثيرة لم يثبت صحتها الا فى عدد قليل من مئات السنين الماضية. فقد ذكرت الاساطير أن للمريخ قمرين قبل أن يكتشفهما العالم اساف هول فى عام ١٨٧٧ . وقد استخدم الفلكى الفرنسى المعروف بيللى هذه الاسطورة اساسا لنظريته عن وجود مخلوقات ذكية اختفت أو انقرضت وكانت تجيد الفلك اجادة مطلقة . وقد ذكر هـذه الحقـائق واكدها العالم الالمانى الشهير كارل جاوس فى عام ١٨١٩

ان الآثار القديمة الضخمة التى لايستطيع الانسـان تصديق أن شعوبا قديمة قامت ببنائها مبعثرة فى أماكن مختلفة من الكرة الارضية . فالترليتون ببعلبك يتكون من كتل صخرية يبلغ طول بعضها أكثر من عشرين مترا وتزن الصخرة الواحـدة أكثر من ألف طن .. وقـد قطعت هذه الحجارة من محجر ورفعت الى نحو سـبعة أمتار من الارض. وهو عمـل قد يعجز عن القيام به مهندسو هذا العصر . ولايزال بالمحجر حتى يومنا هذا حجر طوله ٢١ مترا وعرضه ٨ر٤ مترا وارتفاعه ٢ر٤ مترا صقل تماما ولـكنه لم ينزع من مكانه . وقـد يحتاج هذا الحجر الى أربعين ألف رجـل لتحريكه من مكانه . فمن الذى صقل هذه الحجارة الخرافية ومتى حدث ذلك وماذا كان السبب .. انه لغز.. لايستطيع العلماء سبر غوره ...

مركبة فضـاء تزور الارض ..

حدث فى زمن ساحق من التاريخ أن زارت الارض

مركبة فضاء جاءت من كوكب بعيد . فعلى بعد ٣٦٠٠٠ كيلومترا قللت المركبة من سرعة هبوطها الى ثلاثة كيلومترات فى الثانية واطفأت محركاتها واصبحت فى حالة ساكنة أو كقمر صناعى مدته المدارية ٢٤ ساعة . ومن مكانهم هذا الممتاز فوق خط الاستواء شرع رجال الفضاء فى فحص جو الكرة الارضية وسطحها وكانت طريقة فحصهم أو كشفهم لكوكبنا انهم فجروا بعض الاجهزة الصوتية على ارتفاعات مختلفة .

ومما يذكر أن أساطير الاقدمين سجلت العديد عن « القلاع الطائرة » أو « القلاع المحلقة » فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد بعد مشاهدة الناس لهذه المركبة التى ظلت تدور حول الارض مرة كل ٢٤ ساعة أو غيرها من مركبات الفضاء الأخرى التى جاءت لتكتشف سر الكوكب الارضى فى الازمنة السحيقة من التاريخ ..

وبعد أن عثر رجال الفضاء المجهولون على مكان مناسب هبطوا على الارض بسلام فى صواريخ صغيرة تاركين مركبتهم فى مدارها الثابت . تماما كما فعل انسان الارض عندما هبط على القمر تاركا خلفه المركبة الام تدور فى مدار حول القمر .

أما بقايا الاجهزة الصوتية التى فجرها رواد فضاء المركبة فقد تبعثرت فى أماكن مختلفة من الكرة الارضية وربما كانت تلك البقايا كبيرة الشبه فى تكوينها بقطع الزجاج « تكتاتيس » التى وجدت فى ليبيا وأندونيسيا واستراليا .

ويذكر العلماء أن قطع الزجاج هذه يمكن تكوينها أو انتاجها بطريقة أخرى . فعندما كانت مركبة الفضاء

تقترب من الارض ، أو عند مغادرتها الكرة الارضية ، فان المركبة لابد كانت ذات حجم ضخم وذات كتلة عظيمة . ولكي تحقق هذه المركبة هبوطا ناعما على سطح الكرة الارضية أو عند اقلاعها فان محركاتها التي كانت تعمل بقوة الفوتون أو بعض الذرات الاولية الاخرى التي تقذف بها محركاتها لابد انها كانت ذات طاقة عظيمة . وفي كلتا الحالتين ، الهبوط والاقلاع ، فان المحركات النفاثة كانت موجهة كلها أو جزء منها نحو الارض . ويمكن القول بان قوة دفع المحركات التي تعمل بالفوتون تستطيع أن تمحو قارات باكملها من الكرة الارضية وتسبب فيضانات رهيبة وتذيب مناطق شاسعة من الصخور على نحو ماذكر العالم سانجر في احدث بحث له . وربما لجأ رواد الفضاء الغرباء الى احداث بعض الآثار أو التخريب بمعالم الكوكب الارضى لان اقل احتكاك من قوة عادم المحرك الفوتونى النفاث بالارض يحدث أو يكون نوعا من الزجاج مثل ذلك الذى عثر عليه في مناطق مختلفة من الكوكب الارضى .

واخيرا يمكن القول بان الزجاج الليبى قد يثبت أو يبرهن على آثار تركتها سفن فضاء النهضة هذه عند زيارتها للأرض في الازمنة الغابرة أو عند صعودها باحمالها من زوار الكواكب الاخرى البعيدة في الكون . وكانت هذه المخلوقات على جانب عظيم من الحضارة والعلم فقد جاءوا معهم ببعض ثقافاتهم وعلى الاخص ببعض انواع المعرفة عن الكون ذاته . فقد سجلت الاساطير الكثير عن هؤلاء الناس أو المخلوقات الغريبة الذكية الذين جاءوا من السماء ليعلموا أهل الارض كل شىء عن السماء والنجوم والكواكب وذلك

قبل أن تخترع على الارض الاجهزة الخاصة برصد السماء وحركات النجوم .

وقد سجلت هذه الاساطير فى اليونان القديمة وفى الهند والصين وجنوب امريكا . ويقول العلماء أن رواد الكواكب الغريبة هؤلاء ارتادوا النظام الشمسى واكتشفوه من الكرة الارضية ذاتها وذلك باطلاق عدد من الصواريخ القوية لذلك صنعوا وقودا « نوويا » . وبنوا قواعد لاطلاق هذه الصواريخ واقاموا خزانات للوقود . وربما كان ذلك السبب الرئيسى فى بناء مستودعات او قواعد فى بعلبك بلبنان . وأن الصخور العظيمة الموجودة هناك مع ضخامتها لدليل قوى على أعمالهم العظيمة الخالدة اثناء فترة بحوثهم عن أسرار الكون ..

الم يكن هؤلاء الرواد هم الذين جاءوا معهم بهذه المعلومات العظيمة عن الكون والتى جاء ذكرها فىاساطير الاولين بألوف السنين حتى القرن الثامن عشر؟ لقد كانوا المصدر الرئيسى للمعرفة الرياضية التى اشتهر بها القدماء عندما طبقوها فى بنائهم لآثارهم الخالدة ، وكانوا على يقين بعلوم الفلك والرياضة والهندسة . وأخيرا قام العالم الفرنسى هنرى لوت بدراسة الرسوم القديمة فى صخور « تاسيلى » مما يثبت بدون أدنى شك زيارة مخلوقات ذكية لعالمنا الارضى من مكان ما فى الكون .

وهذه الرسوم واضحة وضوحا غريبا ينم عن موهبة خارقة فقد ابرز الرسام ديناميكية المنظر بقوة هائلة فى رسمه لبعض الغزلان والايائل . وبين هذه المناظر الطبيعية الواقعية ترى رسما طوله ستة أمتار لمخلوق خرافى أو خيالى . فلماذا قرر الرسام القديم الواقعى

رسم هذا الوحش الآدمى على الصخر ؟ ربما كان المنظر لمخلوق حقيقى رآه ذلك الرسام فأراد أن يسجله على الصخر . والصورة تبدو لرجل يرتدى زى فضاء وربما كان عضوا فى البعثة التى هبطت على الارض من أحد الكواكب البعيدة على نحو ما ذكرنا . وكان من الضرورى أن يرتدى ذلك الرائد زيا فضائيا يحميه ولم يكن العالم الفرنسى بعيدا عن الواقع عندما أصاب كبد الحقيقة واطلق عليه « اله المريخ العظيم » ..

مما لاشك فيه أن رجال الفضاء هؤلاء الذين هبطوا الى الارض قد مكثوا بها بعض الوقت وأخذوا معهم بعض الاشياء بما فيها بعض آثار الانفجارات النووية التى احدثوها ضمن برامج تجاربهم . وربما فجروا أو دمروا مستودعات الوقود النووى قبل مغادرتهم الكوكب الارضى . وربما أنذروا سكان الارض فى ذلك الوقت بهذه الانفجارات وأطلعوهم على الطرق الصحيحة لحماية انفسهم من لهيب النار فوصف أحداث تدمير سدوم وعمورة يكشف عن بعض هذه الحقائق .

وبعد أن اكمل رجال الفضاء بحوثهم على الارض غادروها وربما أخذوا معهم رجلا أو بعض الرجال والنساء من الارض .

واخيرا يبقى سؤال : لماذا لم يزر سكان الكواكب البعيدة الكرة الارضية مرة أخرى خلال الوف السنين الماضية ؟ ..

ان المزيارة الاولى لاى كوكب من الكواكب تعد من الحوادث السعيدة فى تاريخ الكون . اما العودة الى زيارة نفس الكوكب فدرجة الاحتمال فيه تكاد تكون بسيطة لا تذكر ، أو أن ذلك يحدث مرة كل عشرة آلاف

سنة . فاذا كان سكان الكواكب الاخرى قد زاروا كوكبنا منذ خمسة أو ستة آلاف سنة فمن المنتظر أن يزورنا بعد عدد آخر من الوف السنين .. وهناك سبب آخر قد يبدو وجيها فربما كانت الارض كأى كوكب آخر فى المجموعة الشمسية غير ذات موضوع بالنسبة لسكان هذه الكواكب . فليس فى الكون كوكب آخر بل مئات الالوف من الكواكب التى تستحق الدراسة والزيارة. وربما كان رجال الفضاء هؤلاء لايزالون فى طريق عودتهم الى موطنهم لان الوقت يمر ببطء شديد فى تلك المركبات المتحركة عن الوقت الذى يمر على كوكبنا الارضى . وربما لم يشخ بعد الرجال الذين اخذوهم معهم من الارض . فكل شيء يعتمد على سرعتهم فربما قد مرت بعض السنوات طبقا لساعاتهم الزمنية . فعلى الكرة الارضية لابد أن تمر الوف من السنين الارضية قبل أن يعود هؤلاء الرواد الى زيارة الارض مرة أخرى

جيل السفن
التي غزت الكواكب والأقمار

فى الشهور الستة من نوفمبر ١٩٧٢ الى ابريل ١٩٧٤ حصل العلماء على معلومات فريدة عن ثلاثة من كواكب المجموعة الشمسية تفوق المعلومات التي استطاع علماء العالم أن يجمعوها عبر ستة آلاف سنة ! فقد بدأت سفينة الفضاء « بيونير ١٠ » ازسال معلومات على جانب كبير من الاهمية عن كوكب المشترى ، وكذلك عن أقماره الاثنى عشر ، وكان ذلك فى شهر نوفمبر ١٩٧٣ . وفى يوم ٣ ديسمبر كانت السفينة قد ابتعدت عن كوكب المشترى بنحو ثمانين ألف ميل . ومع ذلك ظلت ترسل معلومات جديدة لمدة شهر كامل . وسوف تحلل المعلومات خلال السنوات القادمة نظرا لكثرتها ووفرتها ..

وفى شهر فبراير ١٩٧٤ عبرت سفينة الفضاء « مارينر ١٠ » كوكب الزهرة وسلطت كاميراتها على سطح الكوكب ، ثم انغمست فى بئر جاذبيته ، وما لبثت أن فرت منه الى مدار مكنها من الذهاب الى كوكب عطارد اقرب الكواكب الى الشمس . وفى شهر ابريل ١٩٧٤ أصبحت السفينة على ارتفاع سبعمائة ميل من عطارد وصورت رسول الآلهة تصويرا دقيقا .. وتم تعديل فى مسار السفينة بحيث تمكنت من أن تدور حول عطارد مرة أخرى فى شهر سبتمبر ١٩٧٤ وسوف

تعود للدوران حوله مرة ثالثة فى ربيع ١٩٧٥ لتلتقط له صورا أكثر واوضح من تلك التى التقطتها له وارسلتها الى علماء الارض ..

سفينة بيونير ١٠

انطلقت سفينة الفضاء بيونير ١٠ فى اليوم الثالث من شهر مارس عام ١٩٧٢ وعبرت حزام النجيمات ، واثبتت للعلماء ان هذا الحزام لا يشكل خطورة تذكر على السفينة لانه حزام نظيف ، لا تراب فيه ، أو بقايا من الكواكب عما كان يفترضه العلماء . ولهذا استطاعت السفينة أن تصل الى كوكب المشترى ، أما أقماره الخارجية فتبعد عنه بقدر ١٥ مليون ميل . وقد قطعتها السفينة فى شهر كامل وهى تسرع بفعل جاذبية كوكب المشترى على كتلتها .. وكان تغيير السرعة يعادل ملليمترا واحدا فى الثانية الواحدة ، وأمكن بفضل هذه المرحلة أن يعرف العلماء تماما كتلة الاقمار الخاصة بالكواكب ، وان كتلة المشترى زادت بقدر ٤..ر —

وكوكب المشترى من اضخم كواكب المجموعة الشمسية ، ويخرج من الشمس مجرى من الغاز يكون ريحا شمسية تلفح الكوكب من كل اتجاه تماما كما تحدث صخرة من اضطراب فى مجرى مائى متدفق ، لذلك فان الكواكب تحدث موجات مقوسة فى الرياح الشمسية ، وصدمة هذه الموجة الموجودة فى كوكب المشترى كبيرة أكثر مما كان متوقعا . وتحدث وهى على بعد خمسة ملايين من الاميال من الكوكب .ودخلت السفينة المجال المغناطيسى للمشترى مبكرة يوما عما كان محددا لها ، ووجدت أن تأثير احزمة فان الن الخاصة بالكوكب للذرات المحبوسة أعظم من تلك الموجودة حول

الـكرة الارضية بمائة الف مرة . وان المجال المغناطيسي للـكوكب مقلوب بالمقـــارنة الى الارض . أى ان الابرة المغناطيسية هناك تتجه نحو الجنوب بدلا من الشـمال كما هو الحال فى الارض .

بعثات مارينر

فى الوقت الذى بدأت فيه السفينة « بيونير ١٠ » ترسل سيلا من الصـــور الى علمـاء الارض انطلقت « مارينر ١٠ » نحو كوكبى الزهرة وعطارد . فعبرت كوكب الزهرة فى فبراير ١٩٧٤ وأرسـلت ثلاثة آلاف صورة . وكان العلماء يعرفون لعدة ســنوات مضت المركبات الغاربة الرئيسية لجو الزهرة الذى يتكون من ثانى أكسيد الـكربون ، وهو غاز يمكن التعرف عليه فى الضوء فوق البنفسجي ، واستخدمت السفينة الضوء فوق البنفسجي للـكشف على التغييرات التى تحدث فى السحب العالية .

ولان كوكب الزهرة يدور على محوره مرة فى كل ٢٤٣ يوما ويدور حول الشمس مرة فى كل ٢٢٥ يوما فان الشمس قد تسطع فوق اى جزء معين للجو لمدة ستين يوما ، وهذا التسخين المركز الذى يجمعه ثانى أكسيد الـكربون الموجود فى الجو يكون أو يسبب رياحا ذات سرعات عالية ، ويكون سحبا حلزونية تصل الى القطبين وبذلك ينقل الجو الحرارة التي تكتشفها وتسجلهـــا أجهزة السفينة ، وانه ليس هناك درجات حرارة متفاوتة بين الليل أو النهار . ويبدو أن هناك ثلاث طبقـات من الجو : طبقة على ارتفاع ٢٥ ميلا والثانية على ارتفـاع ٤٠ ميلا والثالثة على ارتفاع ٤٥ ميلا .

وأكدت السفينة أيضا عدم وجود مجال مغناطيسى للزهرة ، وبالتالى وجود ذرات محبوسة فى حزام فان الن المماثل لحزام الذرات الارضى ، ومعنى هذا ان الرياح الشمسية تهب باستمرار على جو الكوكب ، وكذلك تتساقط عليه الذرات الكونية من الشمس ومن الفراغ الداخلى .

وحركة دورات الجو السريعة فى المشترى ، وحركة دوزات الجو البطيئة فى الزهرة ، قد تساعد العلماء على فهم مشاكل الجو فى الكرة الارضية .

وفى يوم ٢٩ مارس ١٩٧٤ عبرت السفينة « مارينر ١٠ » الجانب المظلم لكوكب عطارد على ارتفاع ٧٠٠ ميل منه ، وسجلت عدسات السفينة وجود فجوات على الكوكب . وما أن تركته حتى بدأت ترسل صورا لنصف الكوكب المضىء .. وكشفت الصور عن وجود مجال مغناطيسى ضعيف وغازات الايدروجين والهليوم بما فيه الكفاية لتكوين جو خاص . وهى معلومات جديدة على العلماء .

وسوف تزور السفينة كوكب عطارد مرة أو مرتين قبل منتصف عام ١٩٧٥ وترسل فيضا جديدا من المعلومات لكشف النقاب عن هذا الكوكب الغامض .

أما « بيونير ١١ فسوف تعد علماء الارض قبل شهر نوفمبر ١٩٧٥ بمعلومات جديدة ايضا وهى فى طريقها الى كوكب زحل وعن الحلقات التى تدور حوله وسيكون ذلك فى عام ١٩٧٨

وفى هـذا العام (١٩٧٥) ستطلق سفينة فايكنج تنفصل منها مركبة تهبط بدورها فوق سطح المريخ

لتفحص تربته فى شهر يولية ١٩٧٥ . وقد تكشف عن وجود الحياة على سطحه .

وفى شهر مايو ١٩٧٨ ستقوم سفينة أخرى فى رحلة طويلة تدور فيها حول كوكب الزهرة فى شهر ديسمبر، تتبعها سفينة أخرى من نفس الطراز « بيونير» للحصول على كشوفات جديدة عن كوكب الزهرة أيضا .

وتبنى فى الوقت الحالى سفن أخرى ستقترب من الشمس بقدر ٢٦ مليون ميل . وترصد النجم اينكى فى عام ١٩٨٠ وبذلك يكون الانسان قد غزا الفضاء فى أقل من ثلاثين عاما .. وفى ذلك يقول العلامة كارل ساجان « لقد أمكننا أن نلقى نظرة ونظرات على الكواكب القريبة منا والبعيدة .. فنحن الجيل الذى غزا الفضاء ويحاول جاهدا ان يعرف سر الكون » ..

فهرس

صفحة

الباب الاول :

من الظواهر الغريبة فى الكون

حقيقة الاطباق الطائرة ٨

الشمس أقدم الكواكب ٢٣

كرات نارية من السماء ٢٦

المذنبات ألعاب السماء النارية ٣٠

مراصد جوية لدراسة الفراغ ٣٢

وضع خريطة للسماء ٣٦

منازل للناس فوق النجوم ٣٨

طبقة الاوزون مهددة بالزوال ٤٣

الباب الثانى :

الانسان والقمر ...

متى كان للأرض قمران ؟ ٤٨

جون فيرن يتنبأ بغزو القمر ٥٢

لونا تهبط على القمر ٥٨

سراديب وأنفاق القمر ٩٢

هل نحن وحدنا فى هذا الكون ؟ ٩٦

المريخيون يطلقون قمرين صناعيين ١١٨

حقيقة الحياة على كوكب المريخ ١٣٠

زوابع وأنواء الفراغ ١٤٧

أعاصير الفراغ الخارجى ١٥٦

سكان من الكواكب الاخرى ١٦١

جيل السفن التى غزت الكواكب والاقمار ١٧٢

كتاب الهلال القادم :

نماذج من الرواية العالمية

بقلم : محمد الحديدى

رئيس التحرير : صالح جودت

يصدر ٥ اغسطس ١٩٧٥ ـ الثمن ١٢ قرشا

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٢
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Marco, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتـــاب

يسجل هذا الكتاب احدث البحوث العلمية عن الظواهر الغريبة في الكون ، كالاطباق الطائرة التي شـــدت انتباه الانسان منـــذ الخمسينات ، فاعتقد انها جاءت من كواكب بها كائنـــات ذكية ، فاذا بهـا تخـــــرج من غابات البرازيل ! ويتناول بالتفصـــيل ظاهرة كرات النار التي تسقط من السماء ، والمذنبات التي تشـــبه الالعاب النارية ، والنجـــوم التي سوف يسكنها الانسان ، وينتقـــل اليها بعـــد أن ضـــاقت الارض بسكانها ٠ وماذا سيحدث للارض بعدالدمار الذي لحق بطبقة الاوزون التي تحمي الانسان من جرعات الاشعة فوق البنفسجية القاتلة ٠٠ وينتقل المؤلف الى سرد البحـــوث التي سبقت هبوط الانســـان على القمر ، والكنوز التي عاد بهـــا الرواد من حجارة وتراب ٠ وماذا وقع لسفينة الفضاء ابللو ١٣ ، وسر انفجار خزانها ٠٠ والسباق الرهيب بين الاتحاد الســـوفيتي والولايات المتحدة الامريكية لغزو الفضاء وامتلاك القمر ٠ وقصـــة الشهاب الذي ارتطم بالقمر بقوة مائة الف طن متفجـــرات بعد أن غادره رواد ابوللو ١٦

ويسجل مؤلف الكتاب قصـــة البحوث العلمية التي اجـــراها العلماء في الســـنوات الاخيرة للتاكد من وجود كائنات عاقلة في الكواكب والمجرات ٠٠ واننا لسنـــا وحدنا في هذا الكون ، بل يشاركنا فيه غيرنا من المخلوقات الاخرى ٠ فالمريخ مثلا سبق أن عاشت فيـــه مخـــلوقات من عشرات الالوف من السنين ، ومن أعمالهم المجيـــدة ارساء قمرين صناعيين لا يزالان يدوران حوله بانتظام ٠ وان هذه الكائنات سبق أن زارت الكوكب الارضي فيما مضى وســـاهمت في بناء اهرامات الجيزة ٠٠ ان جيل مركبات الفضـــــاء ٠٠ التي تدور حاليا حول الكواكب سوف تكشف النقـــاب عن سر كائنات العوالم الاخرى ٠٠

١٢ قــرشـــا